نيقولو مكيافلي

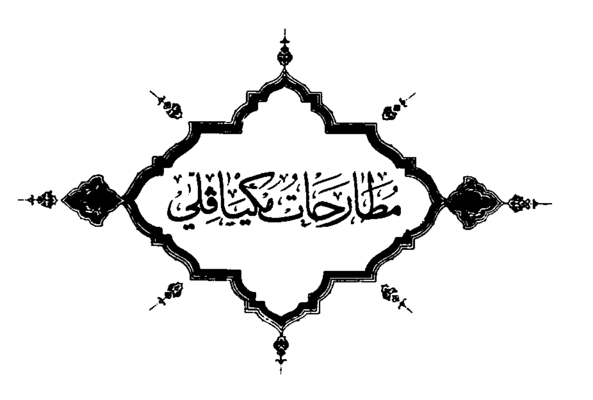


مطارحات مكيافلي

تعريب

خيري حماد

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت


مطارحات مكيافلي

نيقولو مكيافلّي

مطارحات مكيافلّي

تعريب

خيري حمّاد

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

The

Discourses

of

Niccolo Machiavelli

الطبعة الاولى

بيروت ، نيسان (ابريل) ١٩٦٢

الطبعة الثانية

بيروت ، نيسان (ابريل) ١٩٧٩

الطبعة الثالثة

بيروت ، شباط (فبراير) ١٩٨٢

تقدمة المعرّب

قليلون هم ، من قراء العربية ، من يعرفون شيئاً ، عن هذا الكتاب الذي نضعه اليوم بين أيدي القرّاء ، وإذا ما استثنينا القلّة من الفئة المثقّفة ثقافة سياسية على أسس جامعية تقليدية ، أو كما يسمونها اقادمية كلاسيكية ، فان الجمهرة الغالبة من القراء ، لا تعرف عن مكيافلّي ، الذي لم يشتهر باحثة سياسي كاشتهاره ، منذ ظهر إلى الوجود حتّى اليوم لا بسبب ما جاء به من نظريات سياسية جديدة فحسب ، بل لأن بعض هذه النظريات جاء مناقضاً لكل ما تعارف عليه الناس من مثل اخلاقية أيضاً ، سوى انه صاحب كتاب « الأمير » ، الذي سبق لي أن نقلته إلى اللغة العربية ، قبل أكثر من عام .

والسبب في شهرة كتاب « الأمير » بالنسبة إلى كتب مكيافلي الباقية ، وهي ثلاثة تفوقه حجماً ومادة ، وتبزه سعة في البحث وفي جولات الفكر ، ان الكتاب المذكور صغير الحجم من ناحية ، ومكثف المادة من الناحية الأخرى ، ولعل هذا اليسر في الحجم ، كان عاملاً من عوامل نقله إلى لغات العالم المختلفة ، وبينها العربية طبعاً ، بسرعة تفوق السرعة التي تم فيها نقل الكتب الأخرى ، يضاف إلى هذا ان التكثف

في مادته ، قد جعل منه ، أحد الكتب المقررة في برامج الدراسات المتعلقة بجواهر الفكر العالمي ، والادب والسياسة في أكثر من جامعة من الجامعات العالمية المشهورة .

وعندما خرج مكيافلي ، بآرائه الجديدة في السياسة ، التي يعتبرها الكثيرون من المفكرين ، من احجار الزاوية في طريقة الاستقراء العلمية الحديثة ، ومن أسس علم السياسة العصري ، احدث ثورة ، وضجة كبيرتين ، في العالم آنذاك ، نظراً لما انطوت عليه من خروج على العقائدية التي كانت سائدة آنذاك ، ومن ميل عن الآيينيّة (الفلسفة الاخلاقية) ، التي تبشر بها المذاهب الدينية المسيطرة . وعلى الرغم من ان العصر الذي عاش فيه ، والذي انطلقت فيه أفكاره ، كان يتمخض عن ثورة جامحة في مجالات الفكر العالمي ، تمثلت في عصري النهضة والاصلاح الديني ، وعلى الرغم من ان هذه الانطلاقات الفكرية ، هي التي أدت إلى ظهور مارتن لوثر ، وجون كالفين ، وويكليف ومور وفوكس وغاليليو ونيوتن وكوبرنيك ، وغيرهم كثر ، من قادة الفكر العالمي وروّاده الاوائل ، إلا ان آراء مكيافلي ، جاءت غريبة كل الغرابة على العصر الذي ظهرت فيه ، فاستنكرها هذا العصر ، وحاربها ، وحرّم قراءتها ، بتحريمه جميع كتب مكيافلي ، التي ظلت على قائمة الكتب الممنوعة في أكثر من بلد حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريباً .

وكتاب « المطارحات » الذي ننقله إلى العربية اليوم ، ليظهر فيها لأول مرة ، والذي جاء تعريبه بناء على اقتراح ، من الدكتور حسن صعب ، على المكتب التجاري ، هو الكتاب الثاني الذي وضعه مكيافلي بعد « الأمير » ، والذي استغرق في وضعه نحواً من خمس سنوات . وظهر فيه على حقيقته ، جلمعاً فيه جل آرائه في السياسة والحرب والادارة ، وأصول الحكم ، والقانون ، والاخلاق ، والدين ،

والعلاقات الدولية ، وتوجيه الشعوب وقيادتها ، متبعاً فيه اسلوباً جديداً يختلف إلى حد كبير عن الاسلوب الذي اتبعه في « الامير » ، ومبدياً ميوله الطبيعية الاصيلة ، إلى نظام الحكم ، الذي يؤثره على غيره من أنظمة الحكم الاخرى ، والذي يتمثل في تمجيده ، لرومة ، في عهد قناصلها وحماة شعبها (تربيون) .

ولا يغلو مكيافلي في « مطارحاته » غلوّه في « الأمير » في الدعوة إلى تبرير الواسطة بالغاية ، وانما يعتدل فيها كل الاعتدال ، ويحمله اعتداله هذا أحياناً على التظاهر بالدعوة إلى ما يناقضها ، وجعل « الغـاية » هي الاساس في الحكم على سلوك الانسان وتصرفاته ، وان كان في بعض النواحي ، يعود إلى طبيعته الاصيلة ، وهي الطبيعة التي كانت حجر الزاوية في شهرته العالمية ، والتي غدت « الدستور » الذي يوجه سياسة الطغاة والمستبدين ، والديكتاتورين ، والعديد من الدول في جميـع تصرفاتها ، وميولها ، والتي كانت ، كما يبدو لكل من يراقب سير هذه السياسات وآثارها ونتائجها ، القول الفصل في كثير من التطورات العالمية في العصور الحديثة .

ولا يعني تعريبنا لهذا الكتاب ، أو لغيره من كتب مكيافلي ، اننا من الذين يؤمنون بآراء مكيافلي ونظرياته ، فنحن على النقيض من ذلك ، نرى عكس ما يراه في الكثير من الاتجاهات ، ولكننا نؤمن بحريـة الفكر كل الايمان ، ونؤمن كذلك ، بضرورة اطلاع القارىء العربي اطلاعـاً ، كاملاً ، على آفاقـه ومجـالاته ، حتى وان تعـارض بعضها مع بعض ما نؤمن به من آراء ، كما نحس بالحاجة الملحة إلى وجوب تعريف القارئ العربي بنظريات هـذا الرجل وآرائه ، وهي النظريات التي قدر لهـا ، ان تلعب دوراً كبيراً في توجيه السياسات العالمية ، واحداث التاريخ المعاصر ، لا سيما وان عدد المؤمنين بآراء مكيافلي ونظرياته ، وان تظاهروا بالتشهير بها والحملة عليها ، ما زال

كبيراً ، رغم الاتجاهات الفكرية الحديثة القائمة على أسس أكثر انسانية، وانطباقاً على المثـالية . ولا ريب في ان ما نشهده حتى اليوم ، مـن اصطراع القوى ، والتكالب على المغانم ، والنزوع إلى السيطرة السياسية والاقتصادية ، عن طريق الاستعمار ، في مختلف صوره وأشكاله ، والمؤامرات التي تحاك في أكثر من ناحية من نواحي العالم ، للايقـاع بالشعوب واستعبادها ، وما يتلو ذلك من مجازر ونكبات ، ليست كلها ، إلا مظاهر ، بارزة من مظاهر السياسة المكيافيلية ، التي ما زالت تسيطر على الواقع السياسي وان تعـالت الصيحـات بموتهـا على الصعيـد الفكري .

وسيرى القارئ ، إذا ما أتيح له ان يقرأ هذا الكتاب ، ما له من أهمية ، على الصعيد الفكري ، وكلي أمل ، أن يكون هذا الجهد الكبير الذي بذلته في تعريبه قد حقق الغاية التي استهدفتها من ورائه . والله ولي التوفيق .

خيري حماد   ٦–٢–٦٢

مقدمة

بقلم : ليسلي ووكر

عميد كلية كامبيون ...

في جامعة اوكسفورد

١ ـ ملاحظات اولية :

اقترح علي محرر سلسلة الروائع النادرة ، ان أقوم بترجمة مطارحات مكيافلّي لإصدارها في هذه السلسلة ، ولا ريب في انه كان قد سمع بأنني قد بدأت فعلاً بهذه الترجمة ، أو انني اعتزم البدء بها ، وكنت حقاً قد ترجمت القسم الاكبر منها ، ولم أحذف منها إلا المطارحات المتعلقة بالحرب . ولم أكن استهدف على أي حال ، ان اصدر ترجمة للمطارحات وحدها ، بل كنت أرمي إلى جمع ما كتبه مكيافلي في مختلف المواضيع السياسية ، في جميع الكتب التي وضعها ، وفي شتى المذكرات والتقارير التي أعدها ، وان اصنفها تحت العناوين التي استعملها في مطارحاته ، أو تحت النظريات والقواعد التي توالى ظهورها في مطارحاته وفي كتاب « الأمير » الذي وضعه . وكنت آمل عن هذا السبيل بتزويد القارىء بسرد متسق ومترابط لعقائد مكيافلي كما وردت على لسانه. ولم يكن هذا كل ما تطلعت اليه . فقد شرح مكيافلي النظريات التي اوردها في مطارحاته ، وضرب لها الامثلة والاستشهادات من الحوادث التي اختارها من الكتب العشرة الأولى من تاريخ رومة التي وضعها تيتوس ليفي (Titus Livy) (١) وغيره من واضعي التاريخ

١ تيتوس ليفي او ليفيوس (٥٩ ق. م – ١٧ ب. م) ، مؤرخ روماني مشهور . ولد من اسرة معروفة في بادوا ، وتثقف ثقافة عالية في أدب الاغريق وفلسفتهم ومنطقهم . وكان معروفاً بميوله الجمهورية في الحرب الأهلية ، وتوقع سقوط الامبراطورية الرومانية رغم صداقته للامبراطورين اوغسطس وكلوديوس . ولا يعتبر كتابه عن تاريخ رومة مرجعاً علمياً نظراً لاغراقه في قبول الاساطير .
– المعرب –

القديم ، ومن الاحداث الاخيرة التي وقع معظمها في عصره . وهو يزعم ان هـذه النظريات تصلح لكل عصر وزمان . فقد تميّز الناس في مختلف العصور بنفس العواطف ونفس الشهوات ونفس الرغبات ، وبعضها من النوع الحسن ، والبعض الآخر من النوع السيء ، ولكن هذه العواطف والشهوات والرغبات ، هي التي كانت تدفع الناس دائماً إلى العمل السياسي . وهكذا إذا كانت ثمة قوانين اختبارية تسلك الطبيعة المترهلة المتبلدة بموجبها ، فان ثمـة قوانين أخرى ، يعمل الناس بموجبها في الحقل السياسي . وصلاح هـذه القوانين إذا تم اقرارها بصورة صحيحة ووضعها ، يجب أن لا يكون أقل عملية من ناحية السلوك السياسي من صلاح القوانين الطبيعية بالنسبة إلى العالم الطبيعي (الفيزيائي) . وفي وسعنا ان نحكم على هذا الادعاء ، وعلى الادعاء الآخر القائل بأن مكيافلي قـد وضع في «مطارحاته» وفي «اميره» قوانين تصلح لجميع الاوقات على ضوء الاحداث التي وقعت منذ كتب مكيافلي كتبه . وعلى الرغم من وجود عدد من أنصار مكيافلي ، مع عدد آخر من ناقديه وشانئيه ، فليس ثمة من واحد من الفريقين ، على حد علمي ، قـد وجد ان من المجدي ، تقصي الحقيقة في مثل هذه الادعاءات المذهـلة والاصيلة ، ولا سيما الادعاء القائل بأن نظرياته تصلح لجميع العهود والاوقات ، والاستدلال عليها بالاحداث التالية . وكنت قد قطعت شوطـاً لا بأس به في اعمال الاستقصاء هذه ، عندما جاءني العرض ، بأن اعدل عنها ، وان اركز جهودي على الترجمة ليس إلا .

وقد وافقت بعد تردد طويل ، وبعد لأي وتذمر كبيرين . ولم يكن تذمري ناجماً عن انني سألقي في سلة المهملات كثيراً من العمـل الذي كنت قـد بدأت فيه والتخلي عما خيل إليّ انه أكثر مظـاهر هذا العمل أهمية . ولكنه كان ناجـاً عن الحقيقة الواقعة ، وهي انني إذا قمت كيسوعي ، بترجمة المطارحات ، فانني سأبدو ، وكأنني أوافق

مكيافلي على كل ما قاله ، ولا سيما على مبدئه المشهور القائل بأن الغـاية تبرر الواسطة ، وهو مبدأ اتهمت الرهبنة اليسوعية التي انتمي اليها منذ عهد بعيد بأنها تتبناه ، مـع انها كانت في الحقيقة دائماً تعارضه . ولهذا أرى ان أبدأ القول ، وبوضوح مطلق ، بأنني ارفض هـذا المذهب رفضاً باتاً ، في اصوله وفروعه ، وانني أعتبره مـع جميع ذيوله ونتائجه ، أمراً مفسداً وضاراً . وانني أرفض المذهب القـائل بأن من حق الانسان أحياناً ، بل من الحكمة ، ان ينكث بوعده وان ينقض معاهداته ، كما ارفض أيضاً رفضاً لا هوادة فيه النظرية القـائلة ، بأن من الضروري بعد الثورات التخلص نهائياً من جميع من يعادي العهـد الجديد . فهذه المذاهب ، ليست منافية للخلق فحسب ، بل انها أيضاً مؤذية كل الاذى في نتائجهـا . وترجع الاوضاع الكريهة ، التي نجد العالم متردياً فيها اليوم ، إلى حد كبير إلى تبني الحكومات لمبدأ الغايـة تبرر الواسطة ، وان في وسعها ان تحافظ على تعاهداتها أو تنقضها طبقاً لمصالحها الخـاصة ، وان أول ما يجب أن تفعله عند اقامتها عهـداً جديداً ، هو ان تقضي على جميع معارضيها دون الاكتراث بالطريقه التي يتم فيها هذا القضاء . ولم يكن في وسعي ان اترجم مؤلفاً ينطوي على مثل هذه العقائد ، دون أن أعلق عليها . ولهذا فقد اشترطت أولا أن أكون حراً في كتابة المقدمة التي أريدها ، وفي وضع الهوامش التي تضم ما أراه من تعليق .

ولم تكن هذه هي الصعوبة الوحيدة التي واجهتها . فمكيافلي مـن الوثنيين المخلصين . وهو شديد الاعجاب بجمهورية رومة ، إلى الحد الذي لا يرى فيه أي خطـأ ارتكبته هـذه الجمهورية في عهد الرومان ، باستثناء الاخطاء التي ارتكبتها في قوانينها الزراعية ، وهو لهذا يرى ان كل ما عملته هـذه الجمهورية ، مثلاً ، نستطيع احتذاء حذوه في سلوكنا السياسي اليوم ، ذلك لأن مبادئه ، كما قـال ، تصلح لجميع الأزمنـة

والاوقات . وايمانه لا يمكن أن يعتبر من أفضل طرازات الوثنية ، كما يعتقد هو . وهو لا يرى جدوى من القوانين الاخلاقية التي آمن بها شيشرون Cicero (١) كل الايمان ، في القضايا السياسية . وهو يدعو إلى تبني نظرياته على أسس المصلحة المجردة ، وهو مبدأ يرفضه شيشرون أتم الرفض . وهو يعجب أيضاً بديانة الرومان على أساس ما فيها من طبيعة مكنت الدولة من استخدامها للأغراض السياسية . ولذا فقد خصص خمسة فصول ، للبحث في الحيل التي اتبعها القادة العسكريون الرومان ، بالنسبة إلى موضوع الاشراف والايمان ، وبالنسبة إلى استخدام الطقوس الدينية في الشؤون العسكرية . واني لأرى في مثل هذه الاجراءات شيئاً تعافه النفس ، ولكنني أخشى ان من متممات نظرية مكيافلي السياسية ، ان يستخدم الدين في تحقيق أهداف الساسة .

وسيري القارئ في النسخة التي أصدرها بيرد (Burd) عن المبدأ وفي كتاب فيلاري (Villari) عن « حياة نيقولو مكيافلي وعصره » صورة عن المعارضة القوية ، التي لقيتها طباعة كتبه في البداية ، على الرغم من قيام بلادو (Blado) بطباعة الطبعة الأولى من مطارحاته في رومة عام ١٥٣١ ، وعلى الرغم من ان طبعته من « الامير » التي صدرت في السنة التالية ، قد ظهرت بموافقة البابا كليمنت السابع . ولم يقتصر ناقدو مكيافلي على رجال الدين أو الكاثوليك الذين ينتمون إلى أي شعب . فحيثما ظهرت مؤلفات مكيافلي ، سواء في ايطاليا أو فرنسا أو المانيا أو اسبانيا أو البرتغال أو انكلترا ، كانت هناك دائماً ، ضجة

---

١ ماركوس توليوس شيشرون (١٠٦ – ٤٣ ق. م) ، من أشهر خطباء رومة وساستها . درس الشعر في صباه ، والفلسفة وتأثر بأبيقور ، ثم درس المنطق والقانون . ترجم بعض الكتب من الاغريقية ، ارتحل إلى الشرق ، ودرس فيه الفلسفة والمنطق . وعاد إلى رومة فاشترك في حياتها السياسية تعتبر مطارحات شيشرون دراسة وافية في تاريخ الرومان وأحوالهم .
– المعرب –

يشترك فيهـا البروتستنت والكاثوليك على حد سواء ، مما أدى في عام ١٥٥٩ إلى وضع جميع مؤلفات مكيافلي في قائمة الكتب الممنوعة .
ويرى كل من بيرد وفيلاري ، ان هذا النقد المبكر ، لم يكن عنيفاً فحسب ، وشخصياً على الغالب ، ولكنه كان مرتكزاً على دراسة مرتجلة ومبتسرة ، لما سبق لمكيافلي ان كتبه ، وعلى سوء فهم لحقيقة ما استهدفه من كتابته . ويصدق هـذا القول على جميع الكتب التي ورد ذكرها في القائمة . ولكن ليس ثمـة من شك في ان الادانة في قضية مكيافلي ، كان لهـا ما يبررها تمـام التبرير . ولا توضع الكتب عـادة على قائمة الكتب المحرّمة لمجرد احتوائها على أخطاء في الدين أو الاخلاق بل لأنهـا قـد تكون أحياناً ذات نزعات خـاصة ، وتؤدي قراءتها « إلى الضرر . ويبدو لي في هذه الناحية ، ان اولئك الذين كـانوا مسؤولين عن تحريم كتبه ، قد أظهروا الكثير من بعد النظر .

والقول بأن مكيافلي ، قـد وضع كتابه « الأمير » بقصد تعليم الأمراء والمرشحين للامارة والسلطان ، كيف يغدون من الطغاة ، وكيف يستطيعون تثبيت أقدام عهودهم ، عار عن الصحة ولا ريب ، ولكن القول بأن هـذا الكتيب الصغير ينطوي على أشياء يفيد منهـا الحاكم المطلق ، والحاكم الطاغية ، فأمر لا شك في صحته وصدقه . وقـد قامت الادلة على هـذه الصحة ، من الحقيقة الواقعة وهي ان بعض الحكام المطلعين من أمثال الامبراطور شارل الخامس (شارلكان) (١) وكاترين دي مديشي (٢) ووزرائهما ، هم الذين تحمسوا أشد الحماس

---

١ شارلكان أو شارل الخامس هو امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٥٠٨ – ١٥٥٨) . وكان ملكاً على اسبانيا والبلاد المنخفضة أيضاً . كانت ممتلكاته تضم اسبانيا والامريكتين واجزاء من ايطاليا ، والمانيا والنمسا والبلاد المنخفضة .

٢ كاترين دي مديشي (١٥١٩ – ١٥٨٩) ، هي ابنة لورنزو دي مديشي وزوجة هنري الثاني ملك فرنسا . اشتهرت بدهائها ، وحكمت فرنسا في عهد ولدها شارل التاسع.وفي عهدهاوقعت مذبحة القديس بارتلوميو ، التي قتل فيها معظم البروتستانت في فرنسا .

للكتاب ، وشجعوا توزيعه وانتشاره . ولا يمكن الشك أيضاً ، في ان عدداً من الطغاة ، الميالين للحكم حكماً استبدادياً ، هم الذين أفادوا من الكتاب ، منذ جاء به توماس كروموبل (١) ، لأول مرة إلى انكلترا ، بعد أن حصل على نسخة مخطوطة منه ، ومكّن هنري الثامن ، من اقامة ذلك الحكم الفردي في شؤون الدولة والكنيسة الذي مارسه ، والذي كان كروموبل نفسه مسؤولاً عنه إلى حد بعيد . وقد عثر على الكتاب في جيبي هنري الثالث وهنري الرابع ملكيّ فرنسا عند قتلهما . واعجب به ريشليو (٢) أيضاً اعجاباً شديداً . ولا ريب أيضاً في انه قد اثر على سياسة فردريك الاكبر ملك بروسيا (٣) ، الذي درسه في صباه ، وعارضه في كتابه المشهور « أنا ضد مكيافلي » . وقد عرف نابوليون الأول (٤) كتاب « الأمير » كما عرف كتاب « المطارحات » وجعلهما في مقدمة أجود ألف كتاب انتقاها ، لتؤلف له مكتبة متنقلة . واتبع الامبراطور نابوليون الثالث (٥) ، في سياسته نفس القواعد التي

١ توماس كرومويل ، لورد ايسكس (١٤٨٥ – ١٥٤٠) . سياسي بارز اشتهر في عهد هنري الثامن ملك انكلترا . خدم في الحرب في ايطاليا ودرس الايطالية ، واعجب بمكيافلي . أصبح من أكبر وزراء الملك هنري الثامن .

٢ ريشليو – الكردينال (١٥٨٥ – ١٦٤٢) ، من أكبر الطغاة في تاريخ فرنسا .حكمها بوصفه وصياً على العرش وكبيراً للوزراء في عهد لويس الثالث عشر . كانت فلسفته في الحكم سيادة التاج سيادة مطلقة .

٣ فريدريك الاكبر أو فريدريك الثاني (١٧١٢ – ١٧٨٦) . اشتهر بحروبه لتوحيد المانيا ، حارب فرنسا وانتصر عليها . يعتبر مؤسس المانيا الحديثة .

٤ نابوليون بونابرت (١٧٦٩ – ١٨٢١) . ولد في كورسيكا ، أصبح ضابطاً في الجيش . ثم غدا امبراطور فرنسا في عام ١٨٠٠ . تحالفت أوروبا كلها ضده وانتصرت عليه في معركة واترلو عام ١٨١٥ . ومات منفياً في جزيرة سانت هيلانة .

٥ نابوليون الثالث (١٨٠٨ – ١٨٧٣) . هو ابن شقيق نابوليون الأول . ولد في سويسرا وتلقى ثقافة طيبة ، واولع بالعلم والهندسة كما درس التاريخ . قام بمحاولتين لاغتصاب الملك في فرنسا في عهد لويس فيليب ، ثم افاد من ثورة عام ١٨٤٨ فغدا امبراطوراً ، ولكنه فقد عرشه بعد حرب السبعين . – المعرب –

وضعها مكيافلي ، حتى ان موريس جولي ، وضع كتاباً نقد فيه نقداً لاذعاً هـذه السياسة أطلق عليه اسم « حوار في الجحيم بـين مكيافلي ومونتسكيو » (١) . وهذا الكتاب الذي غدا الاساس الذي قامت عليه « قواعد حكماء صهيون » ، أظهر جولي ان من السهل بالنسبة إلى مبادئ مكيافلي ، إذا ما وقع انقلاب عسكري ، ان يحيل دولة تقوم على اسس ديموقراطية سليمة إلى دولة من الطغيان تسعى إلى فرض السيطرة على العالم . ولا ريب في ان القواعد التي وضعها مكيافلي فصلاً بعد آخر ، هي عين القواعد التي جعلها ادولف هتلر نصب عينه ، والتي عمل على تنفيذها ، تنفيذاً حقيقياً . ولا نعرف تماماً إذا كان هتلر قد قرأ كتاب جولي ، ولكنه قرأ حتماً كتاب « قواعد حكماء صهيون » ، التي هي في الحقيقة شرح لخطب مكيافلي ، وقـد اعترف بذلك في كتابه « كفاحي » كما أن روشينغ ، ذكر لنا ، بأنه كان يحتفظ بكتاب « الأمير » إلى جانب فراشه دائماً . ولا يحتاج حماس موسوليني لمكيافلي إلى الذكر ، فهو اشهر من ان يذكر ، ولكن من الجدير بنا ان نقول ان الكتاب الذي أصدرته باربيرا في عام ١٩٢٩ عن مكيافلي وآرائه ونظرياته ، قد أهدته إلى الملك فكتور عمانوئيل الثالث قائلة ان مكيافلي هو المثل الاعلى لايطاليا الحديثة .

وانني لاعتقد على أي حال ان الاثر المشؤوم الذي خلفه كتـاب « الامير » في نفوس الشخصيات التي يطلق عليهـا الفرنسيون اسم « شخصيات مكيافيلية » ، هو حافز على ترجمة مطارحاته ، ذلك لأن هذه المطارحات هي إلى حد كبير ترياق معاكس للامير . فقد ظهر

---

١ شارل مونتسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥) . من كبار فلاسفة فرنسا ومؤرخيها . غدا رئيساً لبرلمان بوردو . درس العلوم الطبيعية في صباه ، ودرس تاريخ الرومان ووضع عدة كتب في هـذا الموضوع . من أشهر كتبه : روح القوانين الذي صدر في عام ١٧٤٨ في واحد وثلاثين كتاباً ، وقد استغرق تأليفه عشرين عاماً . – المعرب –

فيها مكيافلي ، انساناً جمهورياً يكره الطغاة ، ويعمل في سبيل الخير العام . ولهذا فمن المؤسف كل الاسف حقاً ، ان يكون كتاب مثل كتاب « الامير » ، من أكثر الكتب التي تقرأ في هذه البلاد ، وان يكون أحد الكتب المقررة التي يجب أن يطالعها طلاب عصر النهضة في جامعة اوكسفورد ، بينما يكون كتاب مهم وكثير الشمول مثل كتابه هذا « المطارحات » ، غير معروف هنا بل ومجهولاً أيضاً . وقد ظهرت عدة ترجمات منها القديم ومنها الحديث فمنها ترجمه إي داكريس التي صدرت في لندن عام ١٦٣٦ ، والتي شملت جميع مؤلفات مكيافلي . ومنها ترجمة ايش نيفيل ، التي صدرت في عام ١٦٧٥ ، وأعيد طبعها في عام ١٦٨٠ و ١٦٩٤ ، وترجمة القس ايليس فارنيويرث لجميع مؤلفاته التي صدرت في عام ١٦٧٢ . ويقول فارنيويرث ان ترجمة نيفيل ، كانت « محشوة بالاخطاء والهنات » ، وقد يصح هذا القول أيضاً على ترجمته التي كانت شرحاً أكثر منها ترجمة ، والتي حذف منها الكثير من الفقرات الصعبة ، واجتنبت فيها الصعوبات ، ولا توجد هذه الترجمات الآن ، إلا نادرة في المكتبات .

وأصدر جيمس اوسفوود ترجمة كاملة لجميع مؤلفات مكيافلي في بوسطن في اميركا عام ١٨٨٢ ، وأسماها « كتابات نيقولو مكيافلي في التاريخ والسياسة والدبلوماسية » . وتقع هذه الترجمة في اربعة مجلدات ، ولها توطئة موجزة دون أية مقدمات أو شروح . ويضم المجلد الرابع فهرساً للاعلام يقع في اربع واربعين صفحة ، ولكنه بعيد عن الدقة ، إذ يخلط بين فرديناند أوف اراغون مثلاً وبين فرديناند ملك نابولي . واشتهرت ترجمة نينيان هيل طومسون للأمير وتاريخ فلورنسا ومطارحات مكيافلي عن الحقبة الأولى من عهد تيتوس ليفى ، وقد صدرت في عام ١٨٨٣ . ولكن هذه الترجمة لا تضم توطئة أو مقدمة أو شروحاً

إلا بعض الهوامش التي تشير إلى فقرة مقتبسة ، كما لا تضم أي فهرس . ولا ريب في ان هذا الافتقار نقيصة كبرى ، ولا سيما بالنسبة إلى مؤلف كالمطارحات ، يقفز من موضوع إلى موضوع ، ويعود إلى شرح نفس الموضوع ، والحديث عن نفس الشخص أو الحادث مرة تلو الأخرى ، من وجهات نظر متفاوتة . واصدار كتاب كهذا دون فهارس ، أمر مستحيل ، كما ان وضع فهارس دقيقة وشاملة يتطلب عملاً يستغرق أسابيع متعددة . ولا ينتظر من طلاب اليوم أيضاً ، أن يعرفوا مئات الحوادث التي يستخدمها مكيافلي لشرح نظرياته ، ولا ان يتعرفوا إلى العديد من الشخصيات التي يشير اليها ، ولكن من الصعب مع الافتقار إلى هذه المعرفة ، ادراك ما فيها من أهمية قصوى ، كما ان من المستحيل ، نقد ما في حديث مكيافلي من دقة ، أو ما في النتائج التي يتوصل اليها من صحة . ولهذا فان أياً من الترجمات الآنفة الذكر ، لا تؤمن للطالب المجد ، ما يحتاج اليه تماماً ، لدراسة مكيافلي دراسة نقدية ، قائمة على التفهم .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات كلها ، فقد درست الدعوة الموجهة إلي لترجمة « مطارحات مكيافلي » ، وقد تعرضت لمختلف المشاعر المتباينة . ورأيت ان دفاعه عن الوثنية ليس من النوع الممقوت فحسب ، بل والغريب أيضاً ، كما اعتبرت ان رفضه تطبيق القواعد الاخلاقية على السياسة ، أمر في منتهى الضرر والاذى . ولكن على الرغم من كل هذا فان في كتاباته ، الكثير مما يستحق الدرس ، وان فيها العديد من سوء الفهم الذي يتطلب الايضاح . ولا ريب في ان مكيافلي الذي اكتشف طريقة جديدة في البحث ، والذي ابتكر اسلوباً جديداً في معالجة السياسة بالاضافة إلى نظرياته السياسية الجديدة ، هو من أكثر الكتاب البارزين وأوسعهم تأثيراً على الشؤون السياسية في العالم . ولا ريب في ان من مصلحة العلم والدراسة ، ان تعد ترجمة جديدة

للمطارحات ، تتضمن شروحاً وافية وتفصيلية تكمل تلك التي وضعها بيرد لكتاب « الامير » ، كما تنطوي على فهارس وذيول تفيد طلاب المعرفة . وقد اعترف الجميع ، بالاسهام الثمين الذي قدمه مكيافلي للنظريات السياسية حتى في الايام الأولى ، عندما كانت الانتقادات المتناقضة في قمتها وذروتها . وقد حمل هذا الاعتراف المجمع الكنسي على ان يقترح على غويليانو دي ريشي ، ونيقولو مكيافلي ، حفيد المؤلف ، أن يعملا على اصدار طبعة من مؤلفاته خالية من الفقرات التي قد تسيء إلى الكنيسة أو تنتقدها ، وتم بالفعل اعداد طبعة منقحة تخلو من هذه الاساءات ، ولكن النظريات السياسية التي برزت فيها لم تكن متفقة مع نظريات مكيافلي ، حتى ان السلطات أصرت على حذف اسم مكيافلي . وقد رفض قريباه ، قبول هذا الحذف ، وفشل المشروع عند هذا الحد . ولقد زالت هذه العقبات والموانع لحسن الحظ ، ولم تعد هناك حاجة إلى طبعة منقحة ، إذ ان الحظر الذي كان مفروضاً على مؤلفات مكيافلي قد ارتفع ، لخير العلم والمعرفة ، وقد ظهر ذلك بوضوح في قائمة الكتب المحرمة لعام ١٨٩٠ . ولكن هذا لا يرفع الخطورة في انني عند ترجمتي لمؤلف مكيافلي . وعند شرحي لنظرياته ، قد أتعرض لاساءة الفهم ، إذ على الرغم من انني قد انتقده ، أحياناً ، إلا انني لا أستطيع ، أن أشير عند كل مناسبة ، إلى التعارض القائم بين عقائدية مكيافلي وبين التعاليم المسيحية ، كما انني لا أتمكن من بذل أية محاولة لتبرير المبادئ المسيحية تبريراً عاماً ، إذ ان هذا يجعل ما أكتبه خارجاً على الموضوع . ومع ذلك فهناك نقطة واحدة على الاقل ، اود أن ألفت النظر اليها .

فليس هناك من يستطيع أن ينكر على مكيافلي الحاده وكفره في كتاباته من أولها إلى آخرها ، وان الكثير من مبادئه تتنافى والمقومات الخلقية ، إذ انه هو نفسه يعترف بذلك اعترافاً صريحاً وواضحاً .

ولكن بعض النقاد يحاولون ايجاد العذر له ، قائلين ان كتاباته كانت منسجمة مع روح العصر الذي عاش فيه ، ويجب أن يحكم عليها على ضوء ذلك . أما أنا فأرفض الحكم عليها من هذه الناحية ، إذ انها خاطئة ، تماماً ، ولا ريب في ان الثورة التي أحدثها نشر مؤلفاته عند جميع الشعوب ، تقوم دليلاً ، على ان موقفه من الاخلاق لم يكن منسجماً مطلقاً مع روح عصره ، وان كان منسجماً مع ما ألفه الامراء والساسة من أساليب ، ومع ما زالوا يألفونه . ويعني قبول وجهة النظر هذه ، تحديد الدراسة في تقصي الموارد ، وفي تقدير رجال الفترة الواحدة تقديراً نسبياً ، بينما تضع الدراسة في معانيها الواسعة ، مركز الانسان موضع التحلل بالنسبة إلى عظماء المفكرين ، وبالنسبة إلى الحكم الانساني العام والمفاهيم المسيحية ، وإذا ما حكمنا على مبادئ مكيافلي من وجهة النظر هذه ، وهي مبادئ مستمدة من وجهة نظره ونظرياته ، تبين لنا ، انها تتعرض للحكم الصارم بصورة عامة .

ويعترف الذين خطـّأوا نقـّاد مكيافلي الاقدمين ان « مما يتفق والطبيعة الانسانية ويرفع من شأوها ، ان يكون هناك مثل هذا الاجماع في الثورة ضد ما اعتبر بصورة عامة عقائد خارجة على الاخلاق » . ولكنهم يتذمرون أيضاً من ان هذا النقد قد أخطأ في اصابة الهدف . إذ لم يلتق مع مكيافلي على صعيده . إذ يعتمد مكيافلي في دعم نظرياته ، على سرد الأمثلة ، وقد يكون ما يسرده أحياناً مثالاً واحداً ، ولكنه يكون في أحيان كثيرة مجموعة من الأمثلة المستقاة من مختلف فترات التاريخ . فقد قام هذا الرجل بعمل كهذا ، وقد نجح في الاحتفاظ بدولته ، أو انه عرضها للهدم والخراب ، وهذا ما ينطبق على الآخرين أيضاً . ويتركز تأكيده على النتائج بصورة لا تفاوت فيها . وهكذا فإذا قدر لانسان أن ينتقد مكيافلي ، فان انتقاده يجب أن ينصب على وجهة النظر التي تعتبر أساسية في أسلوبه ، أي من ناحية المصلحة لا من ناحية

الاخلاق . ويبدو لي هـذا القول معقولاً ، ولكنني لا أريد أن يسيء أحد فهمي . فأنا أريد انتقاد مكيافلي من وجهة نظر المصلحة ، ذلك لأنه يتعلق بالمصلحة ليس إلا ، وقد جعل منهـا القاعدة التي يرتكز عليها في طريقته واسلوبه . وأنا أعترف بوجود قاعدة أسمى من ذلك ، إذ لو كان الله هو الذي يوجه العالم ، كما يعترف مكيافلي نفسه بطريقته الملحدة ، فمن الواضح ان الله يجب أن يعرف الطريقة اللازمـة في توطيد أقدام الأمن والرخاء ، أكثر من أي انسان آخر ، وانه إذا كان الله يوجه العـالم عن طريق كنيسته ، فان مـا تقوله الكنيسة والحالة هـذه ، يجب أن يؤمّن لنـا الطريقة الـتي نهتدي بهـا إلى حل المشاكل العـالمية ، بصورة تفوق ما يقترحه مكيافلي أو غيره من الكتّاب الملحدين .

وكان استشفاف مكيافلي للحوافز والدوافع الـتي تقوم وراء الحركات السياسية ، في منتهى الدقة والحدة ، كما كان حكمه على القضـايا السياسية في الغالب في منتهى الدهاء . ومنذ وضع مكيافلي مؤلفاته ، كانت آراؤه في المشاكل السياسية جديرة بالدرس والتقصي العميقين . فهو يعرف موضوعه خير معرفة ، وإذا ما درست نظرياته وقواعده ، في ضوء التاريخ اللاحق ، تبيّن لنا انهـا قـد صمدت لهذه الدراسة . ولكن ليس في وسعي هنا أن أفعل شيئاً أكثر من إيراد مجرد ملاحظة عابرة . ويجب أن يكون عملي ، عرضـاً وتعليقاً تاريخياً أكثر منـه تعليقاً يرتكز على التجارب الـتي مررنا نحن بهـا . ولكن مجرد ادعاء مكيافلي الشمول في الصلاح لجميع نظرياته وقواعده ، بحيث تسري على مختلف العهود والعصور ، يضع القارئ في موضع الانسان الذي يطلب اليه ان يحكم على صحة هـذا الادعاء ، من وجهة نظر عالمية شاملة ، لا من وجهة نظر محصورة في عصر النهضة . وكثيراً ما تكون تعميماته واسعة إلى حد كبير ، وتفتقر إلى التثبت ، كما ذكر صديقـه

وناقده الذي عاصره ، فرانسيسكو غويكارديني . ولا تكون النتائج التي يتوصل اليها على ذلك النحو من القوة الموجودة في حالات أخرى مماثلة ، ولكنه يخطىء في لجوئه إلى النتائج ، كما أرى خطـأً كبيراً ، وذلك في ميله إلى دراسة النتائج الفورية ، وتجاهل تلك المؤجلة أو البعيدة ، أو التي تمت إلى سلام العـالم ورخائه ، والتي تحتل مكانة هامة ، أما العقائد التي استثنيتها في فقرة سابقة ، فتغدو فاسدة ، من جراء خطـأ أو أكثر ، ذلك لأن هذه العقائد ، قـد تكون ، قواعد سياسية ، تصلح للتطبيق العالمي ، ولكن ثمة قواعد أخرى ، إذا ما طبقت على أكثر من دولة واحدة ، أدت حتماً إلى الصراع وإلى الكارثة ، بالنسبة إلى جميع هذه الدول ، أو إليها كلها باستثناء دولة واحدة . والقول للدول ، بأن الطريقة الرومانية في معاملة الجماهير أو في معالجة الصراع الطبقي ، هي خير الطرق بصورة عامة ، نصيحة لا تقوم على أساس سليم ، كما قد يكون نصح دولة معينة باتباع نفس الطريقة التي اتبعتها رومة في اقامة امبراطوريتها ، أو قد لا يكون ، نصيحة سليمة ، ولكن مما لا ريب فيه ان ليس من الحكمة مطلقاً نصح جميع الدول ، باتباع الطريقة التي اتبعتها رومة في امبراطوريتها ، إذ من الواضح ، ان ليس في وسع جميع الدول إقامة امبراطوريات عالمية لها . ولهذا يجب تحديد خط فاصل بين القواعد التي تنطبق على القضايا الداخلية للدولة وبين تلك التي تتصل بارتباطاتها مع غيرها من الدول . ويتجاهل مكيافلي هذا الخط الفاصل . فهو ينصح كل دولة من الدول ، بأن عليها أن تنظر إلى جميع الدول الاخرى ، على انها دول معادية محتملة ، وانها يجب ان تعامل على هذا الاساس ، وان المفاهيم الاخلاقية ، تتوقف عن ان تكون عملية في هذا الصدد ، وهو لا يأبه مطلقاً بدراسة ما ستكون عليه النتائج ، في حالة تبني جميع الدول لنصيحته ، مع ان هذا أمر واجب ، إذا أردنا الحكم على مصلحة السلوك السياسي على ضوء

نتائجه . وإذا ما اعترض معترض على هذا التعايق ، بقوله ان مكيافلي قد عاش في عصر تسيطر عليه روح القومية النامية ، فان ردي عليه يكون بأن مكيافلي لا يطلب اليك من وجهة نظر هذا العصر فحسب أن تحكم على قواعده ، بل من وجهة النظر المتعلقة بكافة العصور . وإذا قدر لانسان ان يجعل من المصلحة قاعدة له ، فمن الواجب دراسة هذه القاعدة من جميع نواحيها ، البعيدة منها والقريبة .

٢ ـ اعداد مكيافلي ....

أعتقد ان خير ما كتب عن حياة مكيافلي ، هو الكتاب الذي وضعه الاستاذ بسكال فيلاري بعنوان « حياة نيقولو ميكافلي وعصره » ، والذي ترجمته إلى الانكليزية ليندا فيلاري . ولا تحمل الطبعة الثالثة من هذا المؤلف رغم انهـا تضم ١٠٥٨ صفحة ، أية تواريخ ، ولا تشتمل على أية فهارس . ولكن الطبعة التي صدرت عام ١٨٩٢ ، قد تلافت هذا الخطـأ . ويتحدث فيلاري حديثاً مستفيضاً مسهباً ، عن تاريخ عصر مكيافلي ، كما يضم الكتاب الثاني من المجلد الثاني من مؤلفه تحليـلاً ونقداً ، لكل كتاب من كتبه الرئيسية . وسأتناول هنا حياته من وجهة نظر الآراء السياسية التي اسهمت في خلقها . وهي تقع إذا ما نظرنا اليها من وجهة نظر المطارحات في اربع فترات .

أ ـ الفترة الأولى الواقعة بين عامي ١٤٦٩ و ١٤٩٨ ، والتي نشأ فيها مكيافلي كغلام في فلورنسة ، ثم تلقى تعليمه ، ثم عيّن كاتباً في دوائرها الحكومية .

ب ـ الفترة الثانية ، وتقع بين عامي ١٤٩٨ و ١٥١٢ ، وقد اشغل فيها منصب السكرتير الأول لحكومة فلورنسة ، وأوفد إبّانها في عدد

من البعثات المهمة بالنيابة عن حكومته .

ج ــ الفترة الثالثة ، وتقع بين عامي ١٥١٢ و ١٥١٧ ، وقد قضاها في عزلة ، في دارته خارج فلورنسة ، يدوّن إبانها مطارحاته .

د ــ الفترة الرابعة ، وتقع بين عامي ١٥١٨ و ١٥٢٧ ، وكتب في غضونها كتابه في الحرب ، وتاريخ فلورنسة . واشغل في نهايتها مناصب على جانب كبير من الأهمية في حكومة فلورنسة .

الفترة الأولى
المؤثرات في شباب مكيافلي

تعود « اسرة ماكلافيلوروم » في أصولها إلى السنيور دي مونتيسبرتولي الذي عاش في أوائل القرن الثاني عشر ، وكان يملك ممتلكات واسعة في « فال دي بيزا » و « فال دي ايلزا » ، يقوم بينهما قصره وقلعته . وكان بيونيسينا ، ابن دونو دي مكيافلي رئيساً للأسرة في هذا الوقت ، وقد جاء له ولدان ، هما كاستيلانو ودونو . وقد اتخذ صغيرهما اسم مكيافلي الذي جاء مؤلفنا من ذريته . وكان شعار الفرع الاكبر من العائلة وهو فرع كاستيلاني ، يتمثل في نسر فاتح جناحيه على قاعدة لازوردية . أما شعار فرع مكيافلي ، فيتمثل في صليب أزرق ، على أرض زرقاء ، مثبتة بأربعة مسامير في زوايا الصليب . وتمثل هذا الفرع في نهاية القرن الرابع عشر بفليبو مكيافلي ، وكان أباً لولدين هما بنيونسينا ولورنزو ، الذي أنعم عليه سيانزو دي كاستيلاني بقلعة مونتيسبرتولي ، وبرعاية عدد من الكنائس . وكانت للاسرة أيضاً ممتلكات في سان كاسكيانو ، التي اعتزل فيها مؤلفنا فيما بعد ، وفي

فلورنسة وبرنتي فيشيو . واشتغلت أسرة مكيافلي في السياسة ، ونفي جميع أفرادها من فلورنسة في عام ١٢٦٠ لمدة قصيرة بعد هزيمة معركة مونتابرتو . ورزق بينونسينا ولدان هما توتو ونيقولو ، الذي انتقلت ممتلكاته بعد موته إلى ولده برناردو . وقد ولد هذا عام ١٤ ٨ وتزوج من بارتوليميا نيلّي ارملة نيقولو بنيزي ، وولدت له اربعة أطفال ، بينهم صبيان هما توتو ونيقولو (المؤلف) ، وفتاتان هما بريمافيرا ، وجينيفرا . وقد ولد توتو عام ١٤٦٣ ، أما نيقولو الذي قُدِّر له أن يصبح وزير خارجية فلورنسة فقد ولد في الثالث من ايار عام ١٤٦٩ .

ولا نعرف شيئاً دقيقاً عن تعليم نيقولو ، ولكن في وسعنا ان نقول بالنسبة إلى انتمائه إلى اسرة نبيلة وبارزة ، شغل افرادها في معظم العهود مراكز بارزة في فلورنسة كحاملي الشعار أو « كمقدمين » ، والى ان والده لم يكن من ذوي الاملاك فحسب ، بل كان محامياً ذا أهمية وبروز ، وإلى ان أمه كانت تقرض الشعر ، وان صديقه الحميم كان مارسيلو فيرجيليو ، وهو من الكتّاب المعروفين ، وقد غدا استاذاً للادب في عام ١٤٩٧ ، أمكننا ان نستنتج من جميع هذه القرائن ، ان نيقولو تلقى تعليماً ليبرالياً حراً يتفق مع مكانته الاجتماعية في الحياة . ويتضح أيضاً من الاشارات العديدة التي ترد في كتبه إلى الجوهر والشكل، انه تلقى شيئاً من الدراسات الفلسفية . وتشير كتاباته ، وايفاده في مهمات تتعلق بعقد الاتفاقات والمعاهدات ، إلى انه درس القانون أيضاً . ولا ريب أيضاً في انه عرف اللاتينية ، ودرس شيئاً من التاريخ ، إذ لا يعقل أن يكون قد أقبل على تعلمهما في السنوات التالية من حياته العملية . إذ أن مشاغله الرسمية ، وأعماله الحكومية كانت تحول حتماً دن تمكنه من القيام بمثل هذه الدراسات .

ولا ندري ان كان نيقولو قد تعلم الاغريقية في صباه ، إذ ان هذه

مشكلة معقدة ، وقد عقدها ، ان الكتاب الذي أفاد منه كثيراً في مطارحاته وهو الكتاب السادس لبوليبيوس (١) ، لم يكن عندما كان مكيافلي يكتب مطارحاته ، قد صدر في الاغريقية أو اللاتينية بعد . فقد بدأ العمل في ترجمة بوليبيوس في عهد البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧ — ١٤٥٥) الذي يعتبر مؤسس مكتبة الفاتيكان . وقد أتم نيقولاس بيروتس ترجمة الكتب الخمسة الأولى التي طبعت لأول مرة في رومة عام ١٤٧٣، وفي البندقية عام ١٤٩٨ ، ولكن لم تظهر الطبعة الأولى من الكتاب السادس إلا في عام ١٥٢٠ . ولما كنا نعرف ان مكيافلي كان يضع الكتاب الاول من مطارحاته الذي يستشهد فيه بهذا الكتاب المترجم في عام ١٥١٣ ، فمن الواضح انه استند إلى نسخة مخطوطة من الكتاب السادس المشار اليه . ولا ندري ان كانت في اليونانية أو في اللاتينية . ويزعم تريانتا فيليس ، ان مكيافلي كان يعرف الاغريقية ، ولكنه لا يقيم أدلة كافية على صحة زعمه ، وهو يعتمد على ما أصدره هوفمان من قوائم عن الكتب التي كانت قد ترجمت إلى اللاتينية في عهد مكيافلي ، ولكن هذه القوائم ليست كاملة على أي حال . وكانت جميع المؤلفات التي أوردها تريانتا فيليس ، لدعم رأيه ، قد وجدت في اللاتينية باستثناء الكتاب السادس لبوليبيوس .

ويقيم كراب أدلة أخرى في اطروحته « المصادر الاغريقية التي اعتمدها مكيافلي » ، فهو يورد سبع فقرات عشر على نظائرها عند مؤلفي الاغريق . وتقع فقرتان منها في كتاب « الأمير » ، وهي تشبه ما جاء في كتاب بلوتارك (٢) عن الجمهورية ، وفقرة في الكتاب الأول من

١ بوليبيوس (٢٠٤ — ١٢٢ ق.م.) . مؤرخ روماني مشهور ، ولد في اركاديا ، ثم نقل إلى رومة بتهمة رفض مساعدة الرومان ضد بيرزيوس . وقد رافق شيبيو في حملته على قرطاجنة . يعتبر كتابه عن تاريخ الرومان من أعظم المراجع .

٢ بلوتارك (٤٦ — ١٢٠ م) . فيلسوف ومؤرخ اغريقي . حاضر في جامعة رومة . أصبح صديقاً للامبر اطورين تراجان وهدريان . اشهر كتبه سير مشاهير الرجال . — المعرب —

المطارحات ، تشبه نظيرة لها في كتاب « آثار الرومان » لديونيسيوس هاليكارناسوس (١) ، وأخرى من مقدمة الكتاب الثاني للمطارحات تشبه ما ورد في بلوتارك وغير ذلك من القرائن المماثلة . لكن كراب لا يجزم بأن القرائن التي قدمها باتة وحاسمة ، إذ يحتمل أن يتمكن مثقف عاش في فلورنسة في نهاية القرن الخامس عشر ، رغم جهله بالاغريقية ، من الحصول على خلاصات لأية كتب اغريقية يريدها .

ولا نستطيع الحكم على المدى الذي تأثر فيه عقل مكيافلي بدراسة التاريخ ، عندما تقلّد المناصب الحكومية لأول مرة ، وذلك لافتقارنا إلى الادلة اللازمة لهذا الحكم ، ولكن ثمة أدلة وفيرة ، على تأثره بالاحداث التي وقعت في صباه وفتوته . فلقد كانت الشخصية البارزة والطاغية في فلورنسة في عهد شبابه ، شخصية لورنزو دي مديشي ، ثم خلفه في ذلك سافونارولا ، الذي لا يقل عنه أهمية ، رغم كونه من رهبان الدومنيكان . وقد مات لورنزو في عام ١٤٩٢ ، وكان مكيافلي آنذاك في الثانية والعشرين من عمره . واعدم سافونارولا بعد ست سنوات أي في الثالث والعشرين من ايار عام ١٤٩٨ ، ولم يمض شهر واحد ، حتى كان مكيافلي ، يعين في أول منصب مهم من مناصب الدولة . وقد وقع حادث ضخم واحد في حياة لورنزو، وهو مؤامرة اسرة « بازي » ، وكان مكيافلي آنذاك في التاسعة من عمره ، ولا ريب في انه قد تأثر تأثراً بارزاً بهذه المأساة المرعبة ، وقد بان أثرها في كتاباته .

ولا يتحدث مكيافلي كثيراً عن اسرة المديشي في مطارحاته باستثناء

---

١ اسم مؤرخ اغريقي عاش في عصر الامبراطور اوغسطس ، وقد ارتحل من مسقط رأسه هاليكارناسوس وهي من مدن آسيا الصغرى إلى رومة عام ٣٠ ق. م. حيث أقبل بعد دراسة عميقة على كتابة تاريخه عن رومة الذي أطلق عليه اسم « بحثاً عن الحقيقة والصدق »، والذي حاول فيه التوفيق بين مواطنيه الأغريق وبين نير الرومان . وما زال الكتاب معتبراً من المصادر المهمة .

– المعرب –

ما ورد على لسانه في وصف المحاولة الفاشلة التي قام بها آل « بازي » لتدمير سلطانه . ويستخدم كوزيمو دي مديشي الذي يصفه بأنه « هو الأول في اظهار عظمة آل المديشي في المدينة » كمثال لشرح نظريته في ان على الانسان عندما يواجه عاصفة هوجاء ان يحاول تلطيف هذه العاصفة وتهدئة ثائرتها بدلاً من أن يحاول اخمادها والقضاء عليها . ويذكر ان نيقولو دي اوزانو ارتكب غلطتين ، أولاهما عنهما فشل في ادراك الخطر الناجم عن تألق نجم كوزيمو دي مديشي الآخذ في الازدياد ، والثاني انه عندما أدرك هذا التألق ، أخرج كوزيمو من فلورنسة مما أحدث موجة عارمة من الحنق ، في المدينة بحيث اضطر إلى استدعائه من جديد ، وأسند اليه منصباً لم يكن في استطاعته الحصول عليه لو لم يطرد من المدينة . ويعود مكيافلي إلى الحديث عن كوزيمو مرة ثانية ، في مناسبة مماثلة ، فيقول ان خصومه لو لجأوا إلى استنفار عطف الجماهير كما فعل هو ، لما اضطروا إلى اللجوء إلى الثورة أو العنف . ويقتبس مكيافلي شيئاً من أقوال لورنزو ، ولكنه لا يذكره إلا مرة واحدة ، باستثناء ورود ذكره في مؤامرة اسرة « بازي » ، والتحدث عن وفاته بالقطاعي لا بالجملة . أما عن بييرو فيقول عنه انه عندما اشرفت الحكومة التي أقامها آل مديشي اعتماداً على تأييد الجماهير ، على نهايتها في عام ١٤٩٤ ، لم تسىء إلى أحد من الناس . إلا إلى آل مديشي أنفسهم . وعلى الرغم من ان مكيافلي يشير إلى أن فلورنسة كانت في يوم من الايام سيدة توسكانيا ، إلا انه لا يذكر متى وقعت هذه الفتوحات أو من الذي قام بها ، وان كان ولا شك قد وضع لورنزو دي مديشي نصب عينيه ، عندما وضع هذه الاشارة . وكل ما قاله ، انه كان من الافضل لفلورنسة لو لم تقم بهذه الفتوحات نظراً إلى الطريه السيئة التي اتبعتها في ادارة الدول التابعة لها . ويبدو آل مديشي في مكان آخر كزعماء المعارضة لاسرة سوديريني .

وهناك ما لا يقل عن خمس اشارات إلى مؤامرة « بازي » في الفصل الخاص بالمؤامرات ، فهو يروي لنا ان السبب الرئيسي في مؤامرة « بازي » ، كان ضياع إرث بونورومي الذي حرم منه آل « بازي » بأمر من المديشي . وهنا يقيم مكيافلي الدليل ، على ان من الحمق ، انتزاع الاملاك من الرعية بدون حق ، أو بدون مبرر عادل . أما الاشارات الاربع الباقية ، فتتعلق بالاخطاء التي ارتكبها المتآمرون ، ونقلهم أنباء المؤامرة إلى عدد كبير من الناس ، وابدالهم لخطتهم ، واساءة اختيارهم الشخص الذي يصلح للعمل ، ومحاولتهم الخلاص من شخصين في آن واحد ، مما يؤدي إلى أن يصبح الناجي منهما أكثر مرارة ومناعة . ومن الواضح ان مكيافلي قد درس المؤامرة التي وقعت في فلورنسة عام ١٤٧٨ بحذافيرها ودقائقها كلها ، أما ما يهمه من ناحية اسرة مديشي ، فهو ان افرادها سلكوا سلوك الطغاة المألوف ، أي في خلق النقمة عليهم وعلى اعمالهم من جراء حرمان الناس من ممتلكاتهم ، وانهم عندما فشلت المؤامرة ضدهم ، ثأروا ثأراً فظيعاً من خصومهم .

وتتضح الفئة التي صنّف مكيافلي ، آل المديثي فيها ، وضوحاً جلياً فيما قاله عنهم في مطارحاته ، وفيما امتنع أيضاً عن قوله عنهم . فلقد وضعهم في فئة الحكام المستبدين الذين وصفهم في الفصل التاسع من كتابه « الأمير » ، ذلك لأن كلاً من كوزيمو ، الذي سيطر بنفوذه على فلورنسة منذ وفاة والده جيوفاني في عام ١٤٢٩ حتى وفاته هو في عام ١٤٦٤ ، باستثناء فترة قصيرة ، ومن لورنزو الكبير ، حفيده ، الذي حكم فلورنسة من عام ١٤٦٩ حتى عام ١٤٩٤ ، كانا من المواطنين العاديين رغم بروزهما ، وقد أصبحا « اميرين لبلادهما لا باللجوء إلى الوسائل القاسية الفظيعة ، أو بالعنف الذي لا يطاق ، بل بفضل تأييد المواطنين لهما » . ويختلف الرجلان عن قيصر بورجيا الذي شرح

أساليبه ، في ان قيصر ، كان يقيم لنفسه دولة جديدة يريد الحفاظ عليها بالقضاء على جميع معارضيه ، بينما كان المديشيان قد أصبحا أميرين في مدينتهما ، وحاولا الحفاظ على سلطانهما بالاساليب الدبلوماسية لا بوسائل العنف . ومع ذلك فقد حلت فترة من الوقت ، غدا فيه السلطان الذي تعهده آل مديشي بالتنمية والرعاية ، والبناء أجيالاً متعاقبة ، من الأهمية والشأن ، حتى ان مكيافلي ، تطلع آونة من الزمن إلى توحيد ايطاليا في ظلهم ، وطرد البرابرة منها تماماً كما تطلع في آونة أخرى من الزمن إلى توحيدها في ظل نجل البابا الكساندر بورجيا . ولهذا السبب وحده أهدى مكيافلي كتابه « الامير » إلى غويليانو دي مديشي ، نجل لورنزو الاكبر ، ثم حوّل الاهداء في اللحظة الاخيرة إلى لورنزو العظيم نجل بيرو دي مديشي لورنزو الكبير ، والذي كان محبواً بعطف قريبه البابا ليو العاشر ، وغدا في عام ١٥١٦ ، دوقاً لأوربينو . ولكن آمال مكيافلي منيت بالخيبة في كلتا الحالتين ، أي في لورنزو وفي قيصر بورجيا . ولهذا لم يهد مطارحاته إلى أحد الامراء ، بل إلى صديقين مغمورين من أصدقائه المقربين ، ولم يتحدث فيها عن آل مديشي مطرياً اياهم ، بل على النقيض من ذلك ، أخذ يعدد أخطاءهم . ولا ريب في انه قدر لهم مواهبهم وعظمتهم تمام التقدير ، وعرف تمام المعرفة ، ما عمله أفراد هذه الاسرة لفلورنسة . فقد ظهر تقديره وبانت معرفته في الفقرات الطويلة من كتابه « تاريخ فلورنسة » الذي ابّن فيه كلاً من لورنزو وكوزيمو تأبيناً حاشداً بالاطراء والثناء . وقد اعترف هو نفسه ، في انه في اطرائهما ، قد خالف قواعد المؤرخين الصادقين ، واتبع « اسلوب اولئك الذين يضعون تواريخ الأمراء وذوي السلطان » وعلى الرغم أيضاً من اخلاصه في الاعجاب بالحصافة التي أبداها كوزيمو ولورنزو في ادارة شؤون فلورنسة والتصرف بأمورهما ، فقد كان واضحاً وصريحاً كل الصراحة ، إذا ما قرأنا بين السطور ، في تأكيده

بأنهما تمكنا من الحفاظ على سلطانهما بالرشوة والافساد ، وان هـذا يعني ضياع الحريات الـتي كان يقدسها هو واقرانه من المواطنين .

وليس ثمة من افتقار إلى الثبات في الموقف الذي اتخذه مكيافلي بالنسبة إلى آل مديشي . فهناك أوضاع ، يرى مكيافلي ، انه لا يمكن اصلاحها إلا إذا حبي شخص في فترة من الفترات بالسلطان المطلق ، ووضع نصب عينه توحيد ايطاليا وطرد الغزاة منهـا . ولو حقق المديشيون هذه النتيجة ، لوجد لهم مكيافلي المبرر للتفوق الذي نشدوه وحصلوا عليه ولتسامح معهم بالوسائل التي لجأوا اليها للوصول إلى هذا التفوق ، ولكنهم لسوء الحظ ، لم يحققوا شيئاً من هذا مطلقاً . وقد عبّر اجلالهم للتاريخ البعيد ، شأنهم في ذلك شأن الحكام الذين اشار اليهم مكيافلي في مقدمة مطارحاته ، لا عن رغبتهم في التعلم من التاريخ ، ما يمكنهم بقلمه منه ، وطريقة ذلك ، بل عن « دفعهم ثمناً باهظـاً ، في سبيل الحصول على نتف من التماثيل القديمة ، وفي سبيل تزويق بيوتهم بآثار من الماضي ، يمكن لاصدقائهم الاعجاب بها ، وللفنانين اقتباسها ورسم صور طبق الاصل عنها » . وهكذا فان مكيافلي ، لا يتطلع في مطارحاته إلى الامراء لانقاذ ايطاليا ، وإنمـا إلى « جمهورية » ترتكز إلى الشعب ، كتلك التي قامت ذات يوم في رومة ، وليس ثمـة من مكان في هـذه الجمهورية لأهل الثراء الضخم ، ذلك لأن ثرواتهم تدفعهم إلى اقتراف الآثام ، ولا ريب في ان كل من يسعى للوصول إلى العظمة عن طريق تضليل الجماهير ، يشكل خطراً على المجتمع ، يجب استئصاله في أسرع وقت ممكن ، وقبل استفحال أمره .

ولم يكن سافونارولا أقل اخلاصاً في افكاره الجمهورية من مكيافلي نفسه . وكان الدستور الذ وضع في عام ١٤٩٤ ، ينطبق تمام الانطباق على وجهات النظر التي ضمنها سافونارولا في سلسلة من مواعظه الدينية ، وقد تضمن هذا الدستور اقامة مجلس أعلى على غرار مجلس البندقية ،

يكون من صلاحياته تعيين جميع القضاة ، وسن كافة القوانين . ونص الدستور على وجود مجلس للشيوخ يضم ثمانين عضواً ، ويجتمع مرة واحدة في كل أسبوع ، لدرس القضايا المهمة ، وتقديم النصح إلى مجلس السيادة الذي يضم تسعة أعضاء ويتمتع بالصلاحيات التنفيذية . وهناك وزارتان أولاهما تضم ثمانية أعضاء وتتولى تصريف شؤون العدالة ، وثانيتهما تضم عشرة أعضاء ، وتعالج الشؤون الداخلية ، وادارة دفة الحروب . وكانت هاتان الهيئتان تتفقان اتفاقاً تاماً مع الاساليب التقليدية المتبعة في المدينة . ومن حق كل من يصدر مجلس الثمانية عليهم أحكامه ، استئنافها إلى المجلس الاعلى .

ولا يرى مكيافلي خطأ في هذا الدستور ، وانما الخطأ ، من وجهة نظره ، قائم في الشخص المسؤول عن وضعه ، وهو يكشف عن أخطائه في كل مرة من المرات إلا في فقرة واحدة ، يتحدث فيها عن نبوءته بمجيء شارل الثامن (١) . وقد اشار في مكان آخر ، هازئاً ، إلى اقتناع الناس الذين لم يكونوا من الجاهلين أو الاغبياء ، بأن الراهب جيرولامو سافونارولا قد هبط عليه الوحي من الله ، مع ان أياً من هؤلاء الناس ، لم يره ذات يوم يخرج عن مألوف الآخرين . وإذا ما قيست هذه الواقعة بالمبادىء المقررة في الاقسام الأولى من الفصل ، وجب اعتبارها فضيلة ، ولكنها بالنسبة إلى سافونارولا ، خطيئة كبيرة . ويحدثنا مكيافلي عن ان سافونارولا كان الواضع للقانون الذي يسمح للمرء باستئناف القرار الذي يصدر عليه من مجلس الثمانية ومن مجلس السيادة في حالة اتهامه بالخيانة ، ولكن عندما رفض حق الاستئناف ،

---

١ شارل الثامن (١٤٧٠ – ١٤٩٨) ، ملك فرنسا وهو الولد الوحيد للويس الحادي عشر وقد خلفه في الملك . وقد حاول استرجاع مدينة نابولي فأعد حملة مضى بها إلى ايطاليا واستعاد نابولي عام ١٤٩٥ . ولكنه ووجه بحلف ضخم ، فاضطر إلى العودة إلى فرنسا حيث أخذ يعد حملة جديدة ولكنه مات قبل اكمال أهبته . – المعرب –

في المرة الأولى التي وضع فيها هذا القانون في موضع الاختبار ، لم يصدر عن سافونارولا أي احتجاج مهما كان ، وعلى هذا فقد اتضح للجميع بأنه رجل حزبي طموح ، وهنا كان التحطيم الأول لسمعته . ويتحدث الينا مكيافلي في مكان آخر ، فيقول ، انه على الرغم من ان سافونارولا كان كالنبي موسى ، يعترف بضرورة قتل منافسيه بالجملة ، إلا انه كان يفتقر إلى السلطة اللازمة للتنفيذ ، وانـه على الرغم من استطاعة أتبـاعه ، ان يحصلوا له عـلى هـذه السلطة ، إلا انهم فشلوا في تفهم حقيقة مراميه ، مع انه كان صريحاً في مهاجمته لجميع العقلاء في العالم . ولا ريب في ان مكيافلي قـد أدرك تمام الادراك ان سافونارولا لم يحاول دفع الرعاع إلى العنف ، بل على النقيض من ذلك ، حاول ثني أتباعه عن اللجوء اليه . وكانت شكوى مكيافلي الوحيدة ، ان سافونارولا لم يلجأ إلى العنف للخلاص من منافسيه ودعم سلطانه ، وانه تبعاً لذلك « حطم النظام الجديد الذي وضعه ، ذلك لأن الجماهير عندما فقدت ايمانها به ، لم يجد لديه الوسائل الكافية للحفاظ على ايمان المؤمنين به ، أو لزرعه في قلوب اولئك الذين لم يكونوا من المؤمنين به » . وهكذا فقد تمثّل مكيافلي ، سافونارولا ، كمثل بارز على النبي الذي « يفتقر إلى السلاح » ، وهو لا يهتم بمثل هذا الطراز من الانبياء ، ذلك « لأن الانبياء المفتقرين إلى السلاح كان مصيرهم دائماً إلى الخراب والدمار ، بينما كان مصير الانبياء المسلحين إلى النجاح » . ومن هنا نشأ احتقار مكيافلي لهذه الشخصية التي تعتبر من أعظم الشخصيات التي ظهرت في تاريخ فلورنسة .

وكانت هناك ظاهرة خاصة أخرى ، في أوضاع ايطاليا تركت أثراً كبيراً في مكيافلي . فقد جاء شارل الثامن إلى ايطاليا في عام ١٤٩٤ ، متظاهراً بالرغبة في إعادة النظام إلى بلاد مزقتها المنازعات الداخلية ، والحروب . وعندما انسحب منها في العام التالي ، تركها في وضع اسوأ

من الفوضى عمّا كانت عليه في السابق . وقد تعاقب على العرش في نابولي في فترة عامين بين ١٤٩٤ و ١٤٩٦ ، خمسة ملوك على الاقل ، وانقسم نبلاؤها إلى شيعتين متخاصمتين تتحاربان ، احداهما ترفع الولاء لبيت اراغون (١) الذي حكم نابولي منذ عام ١٤٤٢ ، والثانية مخلصة لأسرة انجو (٢) التي طردها الفونسو الخامس من العرش ، والتي يمثلها الآن شارل الثامن . أما في الدويلات البابوية ، فقد أقام النبلاء أنفسهم حكاماً من صغار الطغاة في معظم المدن الكبيرة ، وكانت اسر كولونا واورسيني وفيتيلي (٣) على استعداد ، لتقديم خدماتها لمن يدفع الثمن الاكبر . وكان لودفيكو مورو في مدينة ميلان ، قد اغتصب الملك من ابن أخيه جيان غاليازو سفورزا ، وابدى كل استعداد ، للتحالف مع أية دولة يستطيع الاعتماد على سلطانها في توسيع ممتلكاته . وتقع البندقية إلى الشرق من ميلان ، وكان حكامها تواقين أيضاً لتوسيع ممتلكاتهم للتعويض عن تلك التي خسروها في حروبهم مع الاتراك . وكانت هذه الدولة ، أقوى دول ايطاليا وأوثقها اتحاداً ، وأحسنها حكماً ، ولذا فقد باتت مصدر خطر على كل من ميلان وفلورنسة والدولة البابوية . أما فلورنسة التي تمكنت من فرض سيادتها على فولتيرا ، واريزو ، وكورتونا ، وبيستويا ، وبيزا ، فقد كانت تشتبك في صراع دائم مع

١ بيت مالك يمت إلى مملكة في اسبانيا تقع في شمال البلاد ، وتحدها من الشمال جبال البرانس .

٢ اسم مقاطعة قديمة في فرنسا تقع على نهر اللوار ، وأصبحت عائلة انجو العائلة المالكة في فرنسا كما حكم فرع منها انكلترة مدة طويلة ، وحكم فرع ثان مدينة نابولي . وفي عام ١٤٨٠ انتقل أرث عرش نابولي إلى ملوك انجو الفرنسيين .

٣ كولونا – اسم اسرة من أقدم الاسر الايطالية وأشهرها ، ظهر منها البابوات والكرادلة والامراء والقادة .

والاورسيني – اسم اسرة ايطالية شهيرة أخرى، اويمت اليها البابا نيقولا الثالث الذي جعل مقره في الفاتيكان .

والفيتلي – اسم اسرة ايطالية ثالثة اشتهر أمرها بالحرب في القرون الوسطى وعصر النهضة .

– المعرب –

جاراتها ، كجمهورية سيينا الصغيرة في الجنوب ، ولوكا في الشمال الغربي ، وميلان وجنوه والبندقية والدويلات البابوية ، وكانت تعاني في هذا الوقت مشاكل خطيرة . فقد ثارت عليها بيزا ، وهي ميناؤها الواقع على مصب نهر ارنو في عام ١٤٩٤ . وعندما جلا الفرنسيون عنها في الاول من كانون الثاني عام ١٤٩٦ ، لم ينفذ القائد الفرنسي اينتراغ وعد ملكه شارل الثامن بتسليمها إلى فلورنسة . وهكذا نشبت الحرب ، وسارعت كل من لوكا وسيينا والبندقية إلى نصرة اهل بيزا . وكانت ايطاليا تختلف عن فرنسا والمانيا واسبانيا وانكلترا في تلك الايام في انها مقسمة إلى مدن ودويلات متنافسة ، يتوق بعضها إلى احتلال البعض الآخر والسيطرة عليه ، ولكنها اعجز من أن تفعل ذلك . وهنا تضخمت قوة المقاطعات السويسرية ، التي كانت على استعداد لتأجير قوات مشاتها المدربة خير تدريب إلى أي أمير أو أية جمهورية ، وقد يدفع أو تدفع لها أجوراً طيبة ومنتظمة ، مما أدى إلى وجود السويسريين أحياناً في الجانبين المتحاربين ، يقاتلون بعضهم البعض ، أو يرفضون فجأة أحياناً القتال ، ضد مواطنيهم في جيش العدو .

ونشبت الحرب في عام ١٤٩٦ بين البابا الاسكندر السادس وبين اسرة الاورسيني . واغتيل جيوفاني بورجيا ، دوق غانديا في رومة عام ١٤٩٧ . وكان الفرنسيون قد طردوا من نابولي في عام ١٤٩٥ . ومات الملك شارل الثامن في السابع من نيسان عام ١٤٩٨ ، دون ان يتمكن من تحقيق خططه الرامية إلى القيام بغزو جديد لايطاليا . وفشلت مؤامرة في فلورنسة في نيسان عام ١٤٩٧ ، لاعادة اسرة مديشي إلى الحكم ، ونفذ حكم الاعدام في خمسة من كبار مواطنيها ، دون ان يسمح لهم بحق الاستئناف . وانتهى عهد سافونارولا في آيار عام ١٤٩٨ نهاية شنيعة . فقد نفذ فيه وفي اثنين من الرهبان من اتباعه حكم الاعدام شنقاً في ساحة المدينة العامة في الساعة العاشرة من صباح الثالث والعشرين

من أيار ، ثم أحرقت جثثهم وقذف برمادها في نهر الارنو . وتلقى مكيافلي في غضون شهر واحد بعد ذلك ، أول تعيين له ، في منصب مهم من مناصب الدولة . ومن المحتمل ان يكون قد عمل قبل هذا التاريخ في وظيفة مغمورة في احدى دوائر الحكومة ، إذ عثر على بعض الرسائل في وثائق الدولة مكتوبة بخط يده ، وترجع في تاريخها إلى عام ١٤٩٢ . ومن غير المعقول أيضاً ، أن يسند اليه مثل هذا المنصب الهام الذي اسند اليه الآن . لو لم تكن له خبرة من نوع ما العمل كمساعد في إحدى الدوائر الحكومية .

الفترة الثانية
١٤٩٨ — ١٥١٢
مكيافلي في الوظيفة

كان مارسيلو فرجينيو ادرياني واليساندرو براكاسي يشغلان في عام ١٤٩٨ ، منصبي الامينين الرئيسيين (السكرتيرين) ، لمجلس السيادة في فلورنسة . وقد طرد براكاسي في هذا العام من منصبه ، وكان نيقولو مكيافلي ، بين اربعة مرشحين ، قدموا طلباتهم ، للحصول على المنصب الشاغر . وقد اختاره مجلس الثمانين في الخامس عشر من حزيران وأيد مجلس السيادة بعد اربعة أيام هذا الاختيار ، فغدا مستشاراً ، وأميناً عاماً للدولة في الرابع عشر من تموز ، وهو منصب ظل يشغله إلى أن سقط العهد الجمهوري في المدينة في عام ١٥١٢ . ويتطلب هذا المنصب

كتابة عدد ضخم من الرسائل ، واعداد سيل غزير من التقارير ، وكان مكيافلي يتولى اعدادها ، بمنتهى الاخلاص والشعور بالواجب . وكان يوفد في أحيان كثيرة في بعثات إلى الدول الاجنبية والامارات المجاورة ، كالعضو الثاني في البعثة بعد السفير أو المبعوث . وهكذا توافرت له ناحيتان جمع منهما تجاربه الواسعة الأولى في ادارة شؤون الدولة الداخلية وتصريفها ، وللثانية في الاطلاع على شؤون البلاد الاجنبية التي زارها ، وعلى الوسائل التي يلجأ اليها الامراء والحكام في الانحاء الاخرى من ايطاليا .

وكانت المشكلة البالغة الاهمية ، التي تحتم على فلورنسة أن تحلها في هذه الفترة ، هي استعادة السيطرة على بيزا ، وقد دامت الحرب معها ثلاثة عشر عاماً ، ارتكبت فيها أخطاء عدة . وكانت مسؤولية مكيافلي في هذه الآونة ، أي بين عام ١٤٩٨ وعام ١٥٠٩ ، محصورة في تموين قوات فلورنسة ، والتعامل مع القادة العسكريين الذين تعاقد ت معهم المدينة لخدمتها ، تحت اشراف مجلس العشرة . وأخذ مكيافلي يدرك بصورة تدريجية ، خطأ استخدام القوات المرتزقة أو الاجنبية التي لا همّ لها إلا التشاحن مع بعضها البعض ، والحصول على أجور أعلى . وآمن ان أية دولة ، لا يمكن ان تكون أمينة على نفسها وحدودها إلا إذا كانت لها قواتها الخاصة بها . وقد دافع عن هذه النظرية باستمرار في مطارحاته ، كما أشار إلى الاخطاء الناجمة عن الاستعانة بالجنود الاجانب من المرتزقة . وقد آمن بفكرته هذه ايماناً قوياً ، حتى انه تمكن في عام ١٥٠٦ من اقناع مجلس العشرة بتجنيد كافة المواطنين في فلورنسة القادرين على حمل السلاح . ولا ريب ان الفضل في تشكيل هذه القوة الجديدة من المتطوعة ، راجع إلى مكيافلي وحده . وأدى ظهور هذه القوة إلى قيام دائرة جديدة في مستهل عام ١٥٠٧ ، اسمها

« دائرة المتطوعين الجدد » ، وعين مكيافلي مستشاراً لها ، كما قرر مجلس السيادة ، مكافأة له على خدماته ، منحه لقباً من القاب النبل والشرف في أيار من العام نفسه . وشجعه ما لقيه من نجاح في تشكيل فرق المتطوعة من المشاة ، فشرع في عام ١٥١٠ في اعداد كتائب من الفرسان أيضاً .

وقد أفاض مكيافلي في الحديث عن المتطوعة ، أو جيش المواطنين الذي يجب أن يكون قائماً في كل دولة . وكان يرى ان هذا الجيش ، يجب ان لا يعتمد كلية على التطوع ، ولكنه كان لا يؤمن بالتجنيد الاجباري ، فرأى الاخذ بنظام يجمع بين الاغراء والضغط ، لحشد المتطوعين في جيشه الذي يجب ان يكون كبيراً ، ذلك لأن الجيش اللجب وحده ، هو السبيل لتحقيق الأمن والطمأنينة . أما في أيام السلم ، فيجب تحديد دعوة الجيش في أيام العطل والاعياد ، إذ رأى مكيافلي ، ان لا ضرورة هناك للتدخل في اعمال المواطنين العادية ، كما رأى ان لا يحمل الخزينة نفقات لا ضرورة لها ، بحيث قصر المرتبات على من يخدمون فعلاً في أيام الحروب . وكان جميع المواطنين الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة عشرة والاربعين يدعون للخدمة العسكرية ، ولم يكن الرجل يتولى قيادة جنود من منطقته ، مخافة اتساع نفوذه وسلطانه ، كما لم تكن مدة قيادته لأية فصيلة أو جماعة تمتد إلى أجل طويل ، ويقول مكيافلي ان الدولة التي تسلّح مواطنيها إذا اتخذت الاحتياطات اللازمة ، لا تشعر بأي خطر ، فقد تمكنت رومة التي سارت على هذا المنوال من الحفاظ على استقلالها اربعمائة عام كما حافظت اسبارطة على حريتها ثمانمائة عام . وكان الحفاظ على الجيوش العاملة في أوقات السلام ، هو الذي أدى إلى الحروب الاهلية في رومة ، وإلى قيام المؤامرات حتى على الاباطرة

الصالحين من أمثـــال هادريان (١) وماركوس اوريليـــوس (٢) وكومودوس (٣) .

وحملته حرب بيزا التي أشار اليها أكثر من اثنتي عشرة مرة في مطارحاته ، على التفكير في قضايا أخرى ، منها الخطأ في الاعتماد على القلاع في حماية المدن ، ووجوب توقع خطط العدو وحركاته ، والحذر من خطط التضليل المصطنعة التي يضعها العدو ، والخطـأ في تعيين أكثر من قائد أعلى ، وفي الميل إلى تجاهل خبرة القود عندما تكون الأمور هيّنة رخيّة ، ومنها أيضاً ، الخطـأ في اهمال النظام والتقاليد العسكرية ، والتردد الذي تبديه بعض الجمهوريات الضعيفة ، وسهولة خداعهـــا بالاغراق في الوعود .

ويتحدث مكيافلي في مطارحاته أيضاً عن ثورة « اريزو » ، ويظهر الاخطاء التي تتعرض الحكومات الضعيفة للوقوع فيها . وأكد ان من الخطـأ أن تقدم الحكومة على عمل غير ناضج ، وان تكتفي باعتقال واحد من عدة متآمرين ، كما فعل كوغليلمو دي بازي ، اذ ان اعتقال هذا الشخص ، يحفز المتآمرين الآخرين على العمل . واكد أن الخطأ ،

---

١ الامبراطور هادريان (٧٦ – ١٣٨ م.) ، حكم رومة واحداً وعشرين عاماً ، وتولى الحكم بعد الامبراطور تراجان . اتبع سياسة مسالمة فصالح البارثيين ، وتخلى لهم عن اشور وما بين النهرين ، طاف بأنحـاء الامبراطورية ، أدخل اصلاحات دستوريـة ، ورعى الشعـراء والادباء .

٢ ماركوس اوريليوس (١٢١ – ١٨٠ م) – تولى الامبراطورية عام ١٦١ م ، وكان قد ثقف ثقافة عالية في صباه ، وتعلق بالفلسفة الرواقية ، وكان أقرب إلى المتصوفة . اضطهـد المسيحية في عهده ، وحارب البرابرة في المانيا وانتصر عليهم وقـام بعدة اصلاحات اقتصادية . وضع كتاباً عنوانه « تأملات » .

٣ ابن ماركوس اوريليوس – تولى الامبراطورية منعام ١٨٠ إلى عام ١٩٢ م. كان مولعاً باللهو والفسق ورفقة السوء . وقـد قتلته خليلته معاثنين من رجـال حاشيته ، ولا أدري لماذا وضعه الأستاذ ليسلي ووكر في زمرة الاباطرة الصـالحين ، لأنه لم يكن منهم كما تجمـع كتب التاريخ . – المعرب –

رفض عرض طيب ، أملاً في الحصول على عرض أحسن ، كما فعلت فلورنسة في رفضها استسلام اريزو وفقاً لشروط رآها معقولة ومناسبة . ومن الخطأ ، عند وقوع الثورات ، اللجوء إلى الاساليب المعتدلة أو الحلول الوسطى . وليس من الحكمة ، الاشفاق على المدن الثائرة ، ومعاقبة لفيف ضئيل من الثائرين بانتزاع أملاكهم والقابهم منهم ، إذ ان هذه الطريقة لم تكن ما اتبعته روما في اخضاع الثورات التي كانت تنشب ضدها . وقد أوضح مكيافلي آراءه في هذا الصدد ايضاحاً كافياً في التقرير الذي أعده في ذلك الوقت عن طريقة معاملة أهالي « شيانا » التي ثارت آنذاك ، مما يشير إلى انه في هذا الوقت المبكر ، كان مقبلاً على دراسة التاريخ الروماني ، رغبة منه في استخدامه كموجه في ادارة دفة الأمور .

وقد استخدم مكيافلي الاضطرابات التي نشبت في « بستويا » ، عام ١٥٠١ ، بسبب الصراع الحزبي بين فريقين فيهما ، كدليل على صحة نظريته القائلة بأن من الحمق كل الحمق ، محاولة الاحتفاظ بأية مدينة من المدن عن طريق خلق المنازعات الحزبية فيها وتجزئتها . ومع ذلك فهو يرى انه إذا كان لا بدّ من وجود هذا الانقسام ، فعلى الحاكم ، ان يعتمد حيناً على أحد الفريقين ، ثم لا يلبث ان ينقل اعتماده بعد وقت قصير إلى الفريق الآخر .

ولا يستخدم مكيافلي كلمة الحزب أو الفريق ، في معرض التعبير عن حزب سياسي معين ، يؤيد وجهات نظر خاصة ، ويتوق إلى قلب الحزب الحاكم بالوسائل الدستورية ، وهو يعني بها ، الحزب السياسي ، المستعد لاستخدام كل وسيلة للوصول إلى السلطان ، حتى ولو كانت الرشوة والاغراء بالمال وإفساد الضمائر ، أو كانت اللجوء إلى السلاح ، معتمداً لا على قوة أتباعه داخل الدولة فحسب ، بل على سلاح الدول الاخرى من امارات أو جمهوريات أو ممالك . وكانت

هذه الحالة سائدة في ايطاليا منذ القرن الرابع عشر ، ولم تنج اية دولة فيها ، صغيرة كانت أو كبيرة من ويلاتها ، باستثناء البندقية وكثيراً ما نشبت المنازعات في الدولة الواحدة ، بين فرعين من فروع اسرة واحدة ، كما كانت الحالة في ميلان بالنسبة إلى عائلة سفورزا ، وبين العم وابن أخيه في فيرمو ، وبين الاخوين في فيرارا ولونيجيانا ، وبين عائلة باجليوني في بيروجيا التي انتهت بسيطرة جيوفاني باولو على المدينة بعد أن قتل جميع أفراد اسرته ، وفي بولونا ثار الشعب على أميره في عام ١٥٠٦ ، واستبدله بآخر ، ولكنه ما عتم ان أعاده فرحاً بعد أن رأى مظالم الامير الجديد الذي جاء به إلى الحكم . واشتدت المشاحنات في المقاطعات البابوية بين الاورسيني وافراد اسرة كولونا ، مما أدى إلى قيام تهديد دائم للمملكة وللبابوات أنفسهم ، لم تنجح معه وسائل العنف التي لجأ اليها البابوات من أمثال الاسكندر السادس ويوليوس الثاني ضد نبلاء رومة واشرافها . وكانت نابولي أيضاً منقسمة على نفسها بين النبلاء الموالين لاسرة اراغون الاسبانية ، وبين النبلاء المخلصين لاسرة انجو الفرنسية . وكانت الجمهوريات كلها ، باستثناء البندقية ، في وضع سيء أيضاً . فضعف جنوا ناجم عن الصراع بين اسرتي فريغوسي وادورني ، الذي كان موضع استغلال الدول المجاورة ، وكان أنصار النظام السابق في فلورنسة يعملون ليل نهار لاعادة اسرة المديشي إلى الحكم ، وقد اكتشفت مؤامرات عدة كان آخرها ، تلك الثورة اللاهبة التي تدخلت فيها اسبانيا في عام ١٥١٢ والتي أعادت آل مديشي إلى الحكم . ومن المهم أن ندرك كل هذه الوقائع إذا أردنا أن نفهم ، كيف ان مكيافلي الذي عامل أهل بيزا بالحسنى بعد اخماد ثورتهم ، قد أخذ يوصي بالقسوة والشدة في معاملة الاحزاب والفئات التي قد تمتشق الحسام ضدّ أي نظام قائم .

ويعجب مكيافيلي اعجاباً منقطع النظير ببيرو سوديريني صديقه

الشخصي ، الذي تولى الحكم في فلورنسة ، والذي خدمه باخلاص ومثابرة مدة عشر سنوات ملأى بالمتاعب والمشاكل . ولا ريب في انه كان يرى في اسلوب صديقه في الحكم ، اسلوباً مثالياً في أوقات السلم والهدوء . ولكن سوديريني كان من النبل ، بحيث تعذر عليه اللجوء إلى الوسائل غير الدستورية ، عندما فشلت الاساليب الدستورية في معالجة الوضع . وهكذا استسلم في النهاية إلى دسائس الاحزاب والشيع المتنافسة ، وكان مصيره كغيره من الرجال الاشراف في أكثر من دولة واحدة ، الطرد من البلاد .

ولعل من المظاهر الأخرى في هذه الفترة التي اشغل فيها مكيافيلي منصباً حكومياً ، والتي يجب علينا أدراكها ، إذا أردنا تفهم رغبته المحرقة في توحيد ايطاليا ، وحملته على جميع من يقفون في طريق تحقيق هذه الوحدة ، هي تلك الحروب التي لم تنقطع ، والتي تعرضت لها ايطاليا فأصابها الدمار من جرائها . فالفرنسيون الذين اخرجوا من ايطاليا في عام ١٤٩٦ ، عادوا اليها في عام ١٤٩٩ ، وسارع كل امير من أمراء شمال ايطاليا إلى ميلان ، لتقديم فروض الخضوع والطاعة للفاتحين ، وغدت نابولي من جديد مسرحاً للحرب بين الفرنسيين واسرة الارغون لتسلم مقاليد الحكم فيها . وقام قيصر بورجيا ، في نفس العام ، يؤيده الفرنسيون في ذلك ، بحملاته لاحتلال رومانا وتوسكانيا ، واتبعها بحملات أخرى في أعوام ١٥٠٠ و ١٥٠١ و ١٥٠٢ . وسرعان ما نشبت الحرب بين قيصر بورجيا ، وحلفائه الساخطين عليه ، وانتهت إلى مذابح سينغاغليا ، وبعد أن استعاد غونسالفو نابولي لعرش سيده الاسباني ، سارع إلى الشمال لمساعدة بيزا في ثورتها ضد فلورنسة وجاءت الحرب بعد ذلك في شاطئ الريفيرا بين الجنويين والفرنسيين ، والحروب التي شنها البابا يوليوس الثاني لاستعادة سيطرته على بيروجيا وبولونا وفيرارا وغيرها من المدن التي استقل امراؤها بعد ثورتهم

عليه . وغزا الامبراطور مكسمليان ايطاليا مرتين ، احداهما في عام ١٤٩٦ ، والثانية في عام ١٥٠٨ . وكانت البندقية في غضون ذلك قد وسّعت ممتلكاتها على حساب جاراتها ، وازدادت غطرستها ، حتى بدت بمظهر الراغبة في السيطرة على ايطاليا كلها . ولكن البابا تدخل ، فأخرج البنادقة بمساعدة فرنسا ، ثم ما عتم ان اخرج الفرنسيين بمساعدة السويسريين ، وفي غضون ذلك ، جاء الاسبانيون من الجنوب بقيادة ريمون دي كاردونا ، وخضعت فلورنسة لهم .

ويعزو مكيافلي ، وضع ايطاليا المحزن إلى عاملين ، اولهما تجزئتها إلى عدد من الدول ، وثانيهما ، انحطاط الانضباط العسكري ، وهو يلقي باللوم في كلتا الحالتين على الكنيسة المسيحية . فهو يلوم البابوية على حالة التجزئة التي تسود ايطاليا ، وذلك لأنها ضعيفة من الناحية الأولى بحيث لا تستطيع توحيد ايطاليا بأسرها تحت سيطرتها ، ولكنها في الوقت نفسه ، ليست على ذلك النحو من الضعف الذي تعجز فيه عن مقاومة أي أمير ايطالي آخر ، قد يقوم بالمحاولة ، وذلك لأنها كانت تستثير دائماً الدول الاجنبية عليه إذا حاول القيام بهذا التوحيد . وهو ينحو بالتثريب أيضاً على المسيحية ، لأخفاء تلك الروح من القوة والحماس ، وهي في رأيه ضرورية لكل من يريد التفوق في الشؤون الحربية .

ويعود مكيافلي إلى هذا الموضوع في « فن الحرب » ، وذلك في معرض الرد على السؤال الذي تلقاه من كوزيمو روسلّي ، عن الاسباب التي أدت إلى انتشار الجبن إلى هذا الحد ، وفقد النظام ، وانتشار الاهمال في التدريب العسكري . ورده هنا مزدوج أيضاً . فعندما تكثر الدول ، سواء أكانت جمهوريات أو أمارات أو ملكيات ، يبزغ نجم عدد كبير من العسكريين من رجال الطبقة الأولى ، بينما يقل هذا العدد ، عندما يكون عدد الدول صغيراً . وهكذا لم تنجب افريقيا إلا قلة من القادة العسكريين إذا ما قورنوا باولئك الذين أنجبتهم كل من آسيا

واوروبا . والسبب في ذلك هو ان وفرة عدد الدول ، حتمت على كل دولة ، نظراً لخشيتها من الدول الاخرى ، ان تحتفظ بقوات عسكرية قائمة ، وان تمجد كل من يبز أقرانه في هذه الشؤون . « ولكن عندما تمكنت الامبراطورية الرومانية من تحطيم جميع الجمهوريات والمقاطعات في اوروبا وافريقيا ، وفي معظم أنحاء آسيا ، لم تعد هناك فرصة متاحة لممارسة هذه الفضيلة إلاّ في ظل رومة . وهكذا ندر عدد الرجال الافاضل في اوروبا وآسيا أيضاً ، وتدهورت الفضيلة إلى أكثر الاعماق سحقاً . وذلك لأن تركيز الفضائل في رومة ، أدى إلى فساد العالم بأسره ، عندما فسدت رومة نفسها . »

ويمضي مكيافلي قائلاً : « ولم تعد هذه الفضيلة إلى الانتعاش حتى بعد تجزئة الامبراطورية إلى عدة أقسام بفضل غزوات البرابرة ، وذلك لأن من الصعب أولاً على الجزء ان يجدد حياة المؤسسات التي تعفّنت وانتشر فيها الفساد ، ولان طريقة الحياة الراهنة ثانياً ، بفضل النصرانية ، لا تفرض الحاجة إلى الدفاع عن النفس ، كما كانت الحالة من قبل ، وذلك لأن الرجال الذين كانوا يهزمون في الحرب ، في العهد السالف ، كانوا اما ان يلقوا الموت في المعركة ، أو يقضوا ما تبقى من الحياة في العبودية والشقاء ، وكانت المدينة إذا سقطت في يد عدو لها ، تتعرض للدمار والتخريب ، ويجمع رجالها ، وينتزع منهم كل ما يملكونه ، ثم يشردون في شتى أنحاء المعمورة . وهكذا كان المهزومون في الحرب ، يجرعون كؤوس الشقاء حتى ثمالتها . وهكذا حتم الفزع من مثل هذه النتيجة على الناس الحفاظ على تدريبهم العسكري واحترام اولئك الذين يتفوقون فيه . أما اليوم ، فقد اختفى هذا الخوف إلى حد كبير ، إذ أن المغلوبين على أمرهم لا يقتلون إلا باستثناء قلة منهم ، ولا يقضون حياتهم في غياهب السجون ، نظراً لسهولة حصولهم على الحرية . ولا يكون مصير المدينة إذا ثارت ألف

مرة إلى الخراب والدمار ، ويترك أهلها وشأنهم ينعمون بأملاكهم ، وكل ما يخشونه هو الضريبة التي يدفعونها . وقد حمل هـــذا الوضع الناس على عدم الاهتمام بالتدريب العسكري ، وعلى عدم تحمل متاعبه ، لعدم وجود أخطـار يخشون منها كل الخشية . »

وكانت تجزئة الامبراطورية الرومانية ، إلى دويلات صغـيرة متنافسة ، كفيلة بأن تستفز النشاط العسكري والانضباط ، وكان في امكانها ان تفعل ذلك ، لولا تدخل الكنيسة ، واتباعها سياسة تمـاثل تلك التي تتبعها الأمم المتحدة اليوم ، وسعيها وراء احلال السلام في أوروبا التي كانت تمزقها آنذاك كما تمزقها اليوم المطامـع وروح العدوان والمطالبة بالأمن الذي تفتقر اليه بسبب أوضاعها المجزأة . ويطري معظم الناس النصرانية على الجهود التي بذلها في القرون الوسطى لاحلال السلام في اوروبا . ولكن مكيافلي وحده لا يطريها . وكان يؤثر ان يرى بدلاً من تلك الروح الانسانية ، التي سيطرت تدريجياً وببطء ، والتي أزالت إلى حد كبير أهوال الحروب ومخاوفها ، حـالة أخرى ، عني فيها المهزومون « اما بالموت أو بقضاء ما تبقى من الحياة في شقاء العبودية الدائمة » . ولكننا نراه مع ذلك في الحالات التي لا يتغلب عليه فيها الحقد تجـاه آراء رجـال الكنيسة ، يوصي باتباع سبيل واحد ليس ثمة غيره في معاملة أفراد الشعوب المقهورة على أمرها ، لحملهم على الولاء والاخلاص ، وهو سبيل المعاملة الانسانية التي كانت الكنيسة توصي باتباعها دائماً . وعندما سقطت بيزا في يديه ، اختار هذا السبيل في معاملة أهلها .

وقد سبق لي أن أوضحت ان مكيافلي كان مخطئاً في تقديره للأسباب التي أدت إلى انحطاط قوة ايطاليا العسكرية . فهو يتساءل مثلاً ، في الكتاب السابع عن فن الحرب ، عن الاسباب الـتي تحمل العـالم على النظر بعين الزراية والاستخفاف إلى القوات الايطالية ؟.. وهو يتساءل

أيضاً عن السبب في تأخرها في الفن العسكري عن القوات الاسبانية أو السويسرية . ومن الحق أن يقال ، ان الواجب يحتم على القوات الغازية، الحفاظ على نظامها وانضباطها العسكريين ، إذ انهـا إذا منيت بالهزيمة ، فلا أمل لهـا في النجاة . ولكن هـذه الحقيقة لم تكن عاملاً فيما أصاب القوات الايطالية من انحطاط وما لحق بهـا من افتقار إلى النظـام .

ولا يمكن توجيه اللوم أيضاً إلى الشعب الايطالي ، وإنما يوجه اللوم إلى أمراء هذا الشعب الذين « قبل أن تصيبهم الضربات القـاصمة في الحروب الاخيرة ، قنعوا من الحياة ، كأمراء ، بتدبيج الرسائل الرائعة ، بخط أنيق ومنمنم ، وبالتفنن الماكر في سرد الحجج والرد عليها ، وأبدعوا في خلق المشاحنات ، واغراق أنفسهم بالجواهـر والذهب ، والتمتع بملذات النوم والمـآكل أحسن من جيرانهم مـن الامراء الآخرين ، وأوغلوا في حياة من الشهوات الـتي لا حدود لها ، فسلكوا مع رعاياهم سلوكاً يقوم على الشره والحمق ، وتعفنوا بحيـاة الكسل والبلادة ، ومنحوا المناصب العسكرية الرفيعة كهبات للطفيليين والقوّادين ، واحتقروا كل من يسلك مسلك النبل والشهامة ، وتوقعوا من بطانتهم اعتبار أقوالهم وكأنها وحي منزل . ولم يدرك هؤلاء التعساء الاشقياء ، انهم بأعمالهم هـذه يعدون أنفسهم ليكونوا أول فرائس لكل من يهاجمهم . » . وإذا أردنا الاختصار قلنا ان الكنيسة لم تكن السبب في تدهور حالة ايطاليا ، بل كانت « النهضة » التي سرت بعدواها إلى جميع حكام ايطاليا من أمراء ، ورجال كنيسة ، وجمهوريين ، ولكنها لم تسر إلى شعوبهم التي مضت في طريقها تزاول أعمالها من تجارة وزراعة ، وتمارس الفضائل المسيحية في المدن والقرى ، دون أن تكترث بمـا يفعله امراؤها ، إلا عندما تداهمهم الحرب . وكان الشعب الايطالي بارعاً في الثورة على الغزاة الاجانب ، وقد ظهر هذا جلياً في سرعة طرد كونسالفو دي قرطبة (كوردوفا) ، للفرنسيين مـن مملكة

نابولي . وكان هذا الشعب أيضاً على استعداد للوثوب تأييداً لدولة قوية تعده بالحكم الصالح كما فعلت البندقية مثلاً . وهكذا فان الخطأ لا يقوم في طبيعة الشعب الايطالي ، ولا في ديانته ، بل في امرائه الذين أضعفت قواهم الرذائل الكثيرة التي أدخلتها الثقافة الجديدة ، والذين لم يكن حماسهم لحرية ايطاليا يعني شيئاً إذا تعارضت هذه الحرية مع مصالحهم .

ولعل من أبرز ظواهر العهد الذي كان فيه مكيافلي يشغل منصب أمين سر جمهورية فلورنسة ، هو التجاهل المطلق الذي كانت تبديه جميع الحكومات لقداسة المعاهدات باستثناء فلورنسة التي ظلت على ولائها للفرنسيين وادى ولاؤها هذا الى خرابها . وكان لودفيكو مورو ، قد حث في عام ١٤٩٤ لويس الثاني عشر على المجيء إلى ايطاليا ، ولكنه ما لبث أن تخلى عنه في عام ١٤٩٥ لينضم إلى عصبة البندقية ، وعاد قبل انتهاء العام نفسه فحالفه ، ليتخلى عنه لويس في عام ١٤٩٩ ، وليودعه السجن الذي استحقه تمام الاستحقاق ، حيث قضى ما بقي من حياته . وكانت البندقية قد انضمت إلى الحلف المناوىء للويس في عام ١٤٩٥ ، ولكنها ما لبثت ان غدت حليفته في عام ١٤٩٩ ، لتجد في عام ١٥٠٥ في بلوا وفي عام ١٥٠٧ في سا ونا وفي عام ١٥٠٨ في كامبري ، انه على استعداد للتحالف مع اعدائها لتحطيم قوتها ، وقد تمكن إلى حد ما من تحقيق غرضه هذا في معركة اغناديلو في عام ١٥٠٩ . ولعل أبرز الاحداث التي وقعت بعد هذه المعركة ، انسحاب لويس الثاني عشر ملك فرنسا والبابا يوليوس الثاني من الحلف الذي تألف لمحاربة البندقية ، ثم قيام البابا نفسه بالتحالف مع البندقية في عام ١٥١٠ لاخراج الفرنسيين من ايطاليا . ولم يكن فرديناند ملك الارغون بالشخص الذي يوثق به أكثر من معاصريه . فبعد نصرته لاقربائه في نابولي ضد لويس ملك فرنسا عام ١٤٩٤ ، نراه يتفق مع

لويس في عـام ١٤٩٧ على اقتسام مملكة نابولي بينهما . ووقع في عـام ١٥٠٠ معاهدة غرناطة الـتي تقضي بهذا الاقتسام . ولم يمض عامان حتى كانت قواته تقاتل الفرنسيين في الاراضي التي تم احتلالها بالاشتراك وتطردهم منها ، واضطر لويس ، في صلح ليون عام ١٥٠٤ ، إلى التخلي عن مطالبه . واشتركت فرنسا واسبانيا معاً في حلف كمبريه في عام ١٥٠٨ ، ولكنهما ما لبثتا ان اختلفتا واشتبكتا في قتال ضار في معركة رافينا . وعانت فلورنسة امرّ التجارب من افتقارملوك فرنسا إلى الوفاء بعهودهم . فعندما احتل ملك فرنسا مدينة بيزا ، لم يقم باعادتها إلى فلورنسة كما وعد بذلك في عـام ١٤٩٤ ، بل ترك المدينة في عهدة قائد من قواده سرعان ما أعلن تحريرها لاحد الاعتبارات الخاصة به . ولم يقم القـائد الفرنسي هوغو دي بومونت بتسليم بيبتر يسانتا في عام ١٥٠٠ إلى فلورنسة ، كما لم يقم القائد ايمبولت بتسليم اريزو في عام ١٥٠٢ ، بعد أن أخمد ثورتها . على الرغم من ضخامة الأموال الـتي دفعها الفلورنسيون للفرنسيين مقابل خدماتهم . وأرسلت فرنسا قوات أخرى في عام ١٥٠٠ إلى بيزا ، أكثر من المتفق عليه ، ولم تستطع فلورنسة تأدية مطالبهم المتزايدة من الرواتب ، وأعلن الجنود الغاسقونيون العصيان . وعندما كادت فلورنسة في عام ١٥٠٨ تنهـي الحرب بفضل قوتها الخاصة بهـا من المتطوعة ، هدد لويس بمساعدة بيزا ، مما حمل فلورنسة على وقف اجراءاتها إلى أن تصل إلى تفاهم مع حليفها . وقـد تجلت هذه الظاهرة من عدم الوفاء بالالتزامات في الدول الصغيرة وصغار الامراء أيضاً ، فقد كتب مكيافلي في عام ١٤٩٩ عن الكونتيسة فورلي ، يقول انهـا لا تعرف نفسها وهل هي ضالعة مع فلورنسة أو مع ميلان . وكتب عن باندولفو بيتروشي يقول في عام ١٥٠٥ انه أمير لا يستطيع المرء أن يدرك نواياه من مجرد التطلع اليه . واعدمت فلورنسة باولوفيتيلي في عام ١٤٩٩ بتهمة الخيانة ، وقد اقتنع

مكيافلي بجريمته ، ومهما كان الحكم الذي نصدره على هذه الوقائع ، وعلى ما كتبه مكيافلي نفسه من أن أي امير قـد يكون عاجزاً أحياناً عن الوفاء بالتزاماته ، فان علينا ان نذكر انه في تلك الايام ، لم تكن هناك أية دولة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، تفكر لحظة واحدة في عدم التخلي عن التزاماتها ونقض معاهداتها ، إذا كان في هذا النقض ما يخدم مصالحها الخاصة بها .

الفترة الثانية أيضاً ...
١٤٩٨ – ١٥١٢
بعثات مكيافلي

اوفد مكيافلي في عدد ضخم من البعثات الدبلوماسية ، ودبّج عدداً كبيراً من الرسائل والتقارير المتعلقة بها ، وكل ما يهمنا منها الآن ، هو البحث في التجارب التي حصل عليها مكيافلي من هذه البعثات ، والطريقة التي استخدمها في الحديث عنها في مطارحاته .

ولقد كان القسم الاكبر من هذه البعثات إلى امارات تقع في ضواحي فلورنسة ، وكانت مرتبطة ارتباطـاً وثيقـاً بحرب بيزا . وكان بـين الامارات الـتي أوفد اليها بيومبينو ، حيث اجتمع إلى اميرها جاكوبو دابيانو أكثر من مرة ، والكونتيسة دي فورلي ، وبيروجيا حيث زار أميرها باغليوني ، ومركيز مانتوا ، وعلى الرغم من فشله في معظم هذه البعثات ، إلا انه تعلم الكثير في غضونها عن أساليب الامراء وطرقهم وأخلاقهم . وأوفد بعد اخفاق ثورة اريزو في عام ١٥٠٢ ، إلى المدينة ثلاث مرات ، لتسوية المشاكل ، وتنظيم شـؤون

استسلامها .

وكان أول اتصال لمكيافلي بقيصر بورجيا ، في ثورة اريزو ، التي كان قيصر المحرض عليها . وقد طلب بورجيا من فلورنسة ايفاد سفارة اليه ، فمضى مكيافلي في عام ١٥٠٢ ، مع سوديريني إلى اوربينو ، حيث عرف ان ما يريده بورجيا حقاً ، ليس السفارة أو البعثة الدبلوماسية ، وإنما تغيير الحكم في فلورنسة كلها . وعادت فلورنسة فأوفدت مكيافلي مرة ثانية وحده إلى قيصر بورجيا في شهر تشرين الأول وقد قضى ثلاثة اشهر في صحبة بورجيا وتعرف إلى مساعده الافّاق دون ميشيلينو ، الذي دعاه فيما بعد لتنظيم قوات المتطوعة التي انشأها في فلورنسة عام ١٥٠٨ ، وشهد معه ، نهب بيرغولا ، واقتحام فوسومبروزي ، والمعركة التي خاضها بورجيا مع الاورسيني ، ومفاوضاته الناجحة مع زعماء الثوار ، ثم القضاء عليهم في سينيغاغليا . وكانت الخديعة التي استخدمها بورجيا مصحوبة بالحيوية في القضاء على زعماء الثورة ، هي السبب الذي دفع مكيافلي إلى ان يجعل منه ، أي من قيصر ، النموذج المثالي للجمع بين القوة والحيلة ، وذلك في كتابه « الامير » . أما في « المطارحات » فليست هناك مكانة بارزة لقيصر ، الذي لا يذكره مكيافلي إلا عرضاً في مواقع متفرقة .

واوفد مكيافلي أيضاً في بعثات خمس إلى سيينا ، وإلى المعسكرات الواقعة خارج بيزا ، حيث جمع معلوماته العسكرية ، كما أوفد في نهاية عهد سوديريني ، في بعثات عدة ، داخل ممتلكات فلورنسة ، لاعدادها للحرب المقبلة مع نائب الملك في اسبانيا ، ولكن عندما وقعت الحرب فعلاً ، انهارت قوات المتطوعة التي نظمها مكيافلي دون ان تشترك في قتال فعّال .

وأوفد مكيافلي في بعثتين إلى رومة ، جعلته يتصل اتصالاً مباشراً بالبلاط البابوي الذي انتقده انتقاداً مراً . وقد شهد في رومة انتخاب

يوليوس الثاني لكرسي البابوية ، وبعث في رسائله إلى مجلس السيادة في فلورنسة يتحدث عن الرشوة والأموال التي وزعت للحصول على أصوات الكرادلة الاسبان . وكان مقتنعاً كل الاقتناع بأن البابا الجديد لن يقف إلى صف بورجيا على الرغم من وعوده قبل الانتخاب ، كما لن يقف إلى صف فلورنسة . واعطى لبورجيا رسالة ، موجهة منه إلى مجلس السيادة ، للسماح له بعبور الارض الفلورنسية للوصول إلى رومانا ، بينما بعث في الوقت نفسه برسالة أخرى إلى مجلس السيادة تقول ان توصيته التي يحملها بورجيا لا تعني أكثر من مجرد قصاصة ورق . وكان لا يزال في رومة ، عندما أعيد بورجيا من اوستيا ، رهن الاعتقال ، وآمن بأن لا أمل لهذا الانسان في المستقبل . أما الانحياز الظاهر ، الذي كان البابا يوليوس يبديه للبندقية ، والذي أسفر عن اغتصابها لبعض ممتلكات بورجيا ، فقد دفع مكيافلي إلى اظهـار بعض القلق ، مخافة ، ان يتحول البابا إلى نصير للبندقية ، ليس إلا ، مما لا يتفق مع مصالح فلورنسة .

وأوفد مكيافلي في عام ١٥٠٦ من جديد إلى بلاط يوليوس الثاني ، الذي كان قـد شرع في حملة لطرد الطاغيين اللذين يحكمان بيروجيا وبولونا ، والذي كان قد طلب العون والمساعدة من فلورنسة . وكانت مهمة الرسول ان يعرب للبابا عن استعداد فلورنسة للاشتراك في هـذا « العمل المقدس » . وظل مكيافلي على اتصال وثيق بالبابا والكرادلة أثناء الحملة ، على الرغم من عدم حبه لهم وميله اليهم .

وذهب مكيافلي في اربع بعثات إلى بلاط ملك فرنسا ، وكان لهذه البعثات كلها علاقة مباشرة بالسياسة البابوية . وقـد تعلم في جميع هذه البعثات الـتي استغرقت اشهراً عدة الكثير عن طرق الفرنسيين وعاداتهم ودسائس البلاط عندهم . وكان المعروف في فلورنسة ، ان جميع الرسائل الواردة من البعثة ، على الرغم من انهـا تحمل اسمي الموفدَيْن

وهما ديلاكاسا ومكيافلي ، إلا انها من نتاج مكيافلي وحده ، وكانت تلقى كل تقدير في بلده . فلقد بدأت آراؤه عن فرنسا تتطور ، ولكنه لم يكتب هذه الانطباعات إلا بعد رحلته الرابعة .

ولم يكد مكيافلي يعود إلى فلورنسة من رومة بعد انتخاب البابا يوليوس الثاني ، حتى أوفد من جديد إلى فرنسا في كانون الثاني عام ١٥٠٤ ، ليقدم تقريراً عن نوايا ملكها ، الذي كان يعد العدة للقيام بغزو جديد لفلورنسة . وكان من المتوقع ان يقوم غونزالفو الذي استعاد الآن مملكة نابولي ، بمهاجمة فلورنسة . ولكن هذا الخطر قد زال ، عندما وقعت في الحادي عشر من شهر شباط هدنة لمدة ثلاث سنوات بين اسبانيا وفرنسا شملت حلفاءها أيضاً . وفي الحال سارع مكيافلي بالعودة إلى الوطن .

ووجدت فلورنسة نفسها في عام ١٥١٠ في موقف صعب للغاية ، فقد قرر البابا يوليوس الثاني طرد الفرنسيين من ايطاليا ، وكان قد تحالف لتحقيق هذه الغاية مع البندقية ، واستأجر قوات من السويسريين . وتحتم على فلورنسة ان تختار بين البقاء على ولائها لفرنسا ، أو الاساءة للبابا . وقرر سوديريني تبعاً لذلك ، ايفاد مكيافلي إلى لويس الثاني عشر ملك فرنسا ، لاقناعه باتخاذ اجراء حازم ضد البندقية ، مع تجنب الاصطدام علناً مع البابا أو الامبراطور . وكان من المهم أيضاً تبيّن موقف روبرتيت ، الذي غدا بعد موت الكردينال دامبواز ، المستشار الأول للويس . وبعث مكيافلي إلى فلورنسة يحذرها من ان الحرب بين فرنسا والبابا واقعة لا محالة ، وان عليها ان تقرر الجانب الذي ستقف إلى صفه . وعلى الرغم من معارضة رجال الكنيسة في فرنسا لنشوب حرب ضد البابا ، فقد دعا الملك لويس المجلس إلى الاجتماع في اورليان لبيان رأيه في شرعية هذه الحرب . وبعث مكيافلي يقول ، انه لو كانت فلورنسة بعيدة عن الموضوع ، لكان من اللذيذ حقاً .

ان يرقب المرء ما سيفعله الكرادلة . وقد قضى مكيافلي في بعثته هذه اربعة اشهر .

وقرر المجلس الفرنسي الذي اجتمع في تور بدلاً من اورليان ، ان الحرب مع البابا مشروعة وصحيحة . واقنع لويس خمسة من الكرادلة بالدعوة إلى مجلس كنسي عام ، وارغم فلورنسة ، وهي متذمرة ، على الموافقة على عقد الاجتماع في بيزا ، التي تعرضت تبعاً لذلك لخطر الحرمان البابوي . وتقرر ايفاد مكيافلي إلى بلاط فرنسا للمرة الرابعة . وارسل مكيافلي في ايلول عام ١٥١١ ، أولاً إلى بورغو سان دونينو ، ليقطع على الكرادلة طريقهم ، وهم متجهون إلى بيزا ، أملاً في اقناعهم إما بتأجيل عقد المجلس ، أو بنقل مكان انعقاده من بيزا إلى أي مكان آخر . ومضى مستهدفاً نفس الغاية إلى ميلان لمقابلة نائب الملك الفرنسي ، غاستون دي فوا ، ومن ميلان إلى فرنسا ، حيث قدّم بصحبة السفير الفلورنسي اكويولي ، مذكرة إلى ملكها . وأعلن الملك ان المجلس لن ينعقد قبل عيد جميع القديسين ، وانه سيأمر بنقله إلى مكان آخر . وعاد مكيافلي مسرعاً إلى فلورنسة ، وتقرر ايفاده في شهر تشرين الثاني على رأس حرس مسلح إلى بيزا لحماية المجلس . ووجد المدينة هائجة مائجة ، وقد رفض رجال الاكليروس فيها السماح لاعضاء المجلس باستخدام الكاتدرائية أو ملابسهم الكهنوتية الرسمية . وبعد جلسات ثلاث ، نشبت اضطرابات عنيفة في المدينة ، وتقرر نقل المجلس إلى ميلان .

وقد تحدث مكيافلي في مطارحاته ، حديثاً طويلا عن انطباعاته عن فرنسا ، فأطرى دستورها ، متأثراً أشد التأثر بالاجراءات الدستورية التي يتبعها ملكها ، وباحترامه للقوانين ، والاكتراث الذي يبديه للبرلمانات التي تنحصر مهمتها في رؤية القوانين وهي مطبقة تمام التطبيق . وهو يقول في هذا الصدد ، ان الملك هو الذي يصون وحدة البلاد ،

وان تطبيق القوانين هو الذي يؤدي إلى ما تتمتع به البلاد من استقرار . ويتحدث عن ثروة البلاد وانتاجها ، وعما في توزيع هذا الانتاج من اجحاف ضخم ، إذ ان معظمه في ايدي النبلاء والاساقفة . آما الشعب ففقير ، ويرتدي أحقر اللباس . وعلى الرغم من الثراء الذي يحيط به ، فلا نصيب له فيه ، وهو مع ذلك طيّع مستكين . ويخلص من هذا إلى القول بأن شعب فرنسا فاسد . ولكن هذا الفساد يعود إلى سادتها الاقطاعيين ، وما لم يكبح الملك جماحهم ، ويوقفهم عند حدودهم ، فان اضطرابات عنيفة ستنشب في البلاد حتماً . ويرى من الناحية الاخرى ان الملك يخطىء خطئاً كبيراً ، في السماح بنهب ثروات شعبه وبقائه أعزل من السلاح ، إذ ان هذه الحالة ، حملت الملك على الاستعانة بالمرتزقة ، وانفاق أموال ضخمة على شكل رواتب لافرادها .

وكانت النظرة التي حملها مكيافلي ، عن المانيا أثناء الزيارة التي قام بها للامبراطور ، مختلفة عن نظرته لفرنسا تمام الاختلاف ، وأقل منها دقة . وقد حصل مكسيميليان في عام ١٥٠٧ من مجلس كونستانس على منحة بتجنيد ثمانية آلاف جندي من الفرسان وعشرين الفاً من الفرسان ، لاعادة سيادته على مدن ايطاليا الشمالية ، والذهاب إلى رومة ، ليتوج امبراطوراً على الامبراطورية الرومانية المقدسة . وطلب آنذاك من فلورنسة أن تقدم له معونة قدرها نصف مليون من « الدوكات » وكان من المحال ، أن تستطيع فلورنسة تقديم مثل هذا المبلغ ، يضاف إلى ذلك ، ان تقديم أي مبلغ كان إلى الامبراطور سيغضب فرنسا . وقد حاول سوديريني تعيين مكيافلي سفيراً لفلورنسة لدى الامبراطور ، ولكن هذا التعيين لقي معارضة شديدة ، فأوفد فيتوري بدلاً منه ، وقد تمكن هذا من اقناع الامبراطور بتخفيض المبلغ إلى خمسين الفاً . وأوفد مكيافلي في شهر كانون الاول ليبذل محاولة

جديدة ، لتخفيض المبلغ ثانية ، فان فشل فيها ، فليحاول اقناع الامبراطور ، بتأجيل الدفع إلى حين وصوله . وكانت السياسة التي اتبعتها فلورنسة ، تقضي بالاغراق في البحث في التفاصيل وفي قيمة تحويل العملة ، لتأجيل يوم الدفع الشرير أطول مدة ممكنة . وقد نجحت فلورنسة في تحقيق غرضها هذا ، ذلك لأنه بعد قتال واه ، تخلّى الفوج السويسري عن الامبراطور وانتهت فترة الاشهر الستة التي كانت المانيا قد وافقت فيها على تزويد الامبراطور بالجنود مما ارغم مكسمليان على التخلي عن حملته المقترحة إلى رومة ، والتراجع إلى مدينة كولون .

وقد سافر مكيافلي في رحلته هذه عن طريق جنيف وكونستانس إلى بوتزن ومنها إلى اينتربروك ، ثم عاد إلى ترينت متجهاً إلى فلورنسة التي وصلها بعد غياب دام ستة اشهر . وقد احتشدت الرسائل التي بعث بها بالمعلومات عن طبيعة البلاد التي مرّ بها ، وعن شكل المقاطعات السويسرية وطريقة تنظيمها وتسمّمها بالذهب الفرنسي ، كما تحدث عن أحوال الجنود الالمان الذين تحدث اليهم ، وعن طبيعة الامبراطور ، وسير الحرب في أراضي البندقية . ولقد كان مكيافلي صادقاً في تأكيده حب المقاطعات الالمانية لاستقلالها ، وكراهيتها لمن حولها من الامراء ، وفي اشارته إلى ضعف السيطرة الامبراطورية عليها وإلى منافع قيام الامبراطور بدور الحكم في المنازعات التي تنشب بينها . ولكنه من الناحية الاخرى ، لا يتحدث لا في قليل ولا في كثير ، عن دستور المانيا ، كما لا يتناول أساليب الحكم الامبراطوري ، بالحديث أو الحالة الضعيفة التي تعيش فيها مدن المانيا . ولم يكن هناك أي اتحاد تعاوني (كونفيداريشين) ، يمكن أن يقارن بالاتحاد السويسري ، الذي يستطيع القيام بعمل مشترك ضد أية قوة معتدية .

وقد تمت بعثته إلى بلاط الامبراطور في عـام ١٥٠٨ . وهزمت البندقية في معركة اغناديلو في عام ١٥٠٩ ، ولكن بعد انسحاب البابا والفرنسيين من القتال ، أخذت البندقية تستعيد ما فقدته من أراضيها ، واضطر الامبراطور الذي واصل الحرب ، إلى التراجع إلى فيرونا . وسرعان ما وجد نفسه كالعادة في حـاجة إلى المال ، وناشد فلورنسة اعطاءه اربعين الفـاً من الدوكات . وأوفد مكيافلي في شهر تشرين الثاني إلى مانتوا ، لدفع القسط الثاني ، وظل هناك مدة شهرين لم ير الامبراطور في غضونهما . وقد تحدث في وصفة لهـذه البعثة عن ولاء الفلاحين للبندقية . وكانوا يرون ان الملك لويس الثاني عشر الفرنسي قادر على شن الحرب ، ولكنه لا يريد خوضها ، وان الامبراطور مكسمليان ، يريد أن يشن الحرب ، ولكنه عاجز عن خوضها ، وهذا ما دفعهم إلى اليـأس . ولا ريب في ان شيئاً ما سيحدث ان عاجلاً وإن آجلاً ، يؤدي إلى ندم هؤلاء الملوك عـلى حماقاتهم .

وأدى سقوط بيزا في عـام ١٥٠٩ ، إلى تحسن أوضاع فلورنسة ، ولكن ادى خطر اشتباكها في حرب، مع البابا في عام ١٥١٠ من جراء تحالفها مـع الفرنسيين ، إلى اشتداد المعـارضة لحكومة سوديريني و « صنيعته » مكيافلي . وأقامت مؤامرة برنسيفال ديلا ستوفا لقتـل سوديريني الدليل على ان أنصار المديشي ، لن يتورعوا عن القيام بأي عمل لاعادتهم إلى الحكم . وأوفد مكيافلي بسرعة إلى باندولفو بتروشي ومن ثم إلى أمير موناكو ، ليضمن صداقتهما لفلورنسة ، ولكن عقد المجلس في بيزا ، أي على الارض الفلورنسية ، وهو أمر لم يكن ليرغب فيه إلا الملك لويس والامبراطور ، ومجموعة مـن الكرادلة الحانقين ، قرب النهاية المحتومة . وأخذ مكيافلي ينتقل وقـد سيطرت عليه حدة الطبـع ، من مكان إلى آخر ، محاولاً تنظيم قوات

المتطوعة للمعركة المرتقبة ، واعداد حصون المدن الفلورنسية للقتال .
واتاح انتصار الفرنسيين على الاسبان في رافينا في شهر نيسان فرصة مؤقتة من الراحة لفلورنسة . وتم الجلاء عن رومانا . واحتل السويسريون ميلان في ايار ، واستسلمت بافيا ، وتركت فلورنسة حيدة لتواجه زحف الجيش الاسباني بقيادة نائب الملك ريمون دي قرطبة ، دون ان يقف إلى جانبها أحد لمساعدتها . ووافق سوديريني على اعادة آل المديشي كمواطنين عاديين ، ولكنه رفض الاستقالة من الحكم ، إلا إذا طلب منه الشعب الذي انتخبه هذه الاستقالة . واوفد مكيافلي إلى فيتوري ، ليؤمن له الملجأ ، في حالة اضطراره إلى مغادرة فلورنسة . وكان القضاة لا يزالون يرفضون تخلي سوديريني عن الحكم ، ولكن فيتوري أقنعهم بقبول ذلك . وغادر سوديريني فلورنسة في الحادي والثلاثين من آب إلى سيينا ، بحراسة اربعين جندياً من الفرسان ، وانتقل منها بعد ذلك إلى الممتلكات التركية لاجئاً اليها .

وعاد جوليانو دي مديشي مع الجيش الاسباني إلى الحكم ، فهلل له أهل فلورنسة ، وسرعان ما دخل إلى المدينة ريمون الظافر ، وأقيمت حكومة مؤقتة ، وجاء الكردينال جيوفاني دي مديشي الذي غدا فيما بعد البابا ليو العاشر إلى المدينة وسط قوات ضخمة من الجنود فدخلها بين هتاف الشعب وتهليله . ودعي البرلمان إلى الاجتماع ، فقرر ان يكيل جميع سلطاته وصلاحياته إلى مجلس مؤلف من ستة وستين عضواً يختارهم الكردينال . وهكذا انتهى عهد الحرية في فلورنسة ، وأقيم فيها نظام استبدادي قام بحل المتطوعة ومجلس التسعة الذي يسيطر عليها . ووافقت فلورنسة بسرعة على دفع اربعين الفاً من الدوكات للامبراطور وثمانين الفاً للجيش الظافر ، وتسعة وعشرين الفاً لنائب الملك الاسباني . وغادر هذا المدينة بعد ان تسلم الدفعة الأولى .

وقضي على سوديريني بالنفي مدة خمس سنوات ، أما مكيافلي فقد ظل في منصبه ، وكتب في هذه الفترة ثلاث رسائل ، وجه أولاها ، بطلب من احدى السيدات ، وكانت صديقة لآل المديشي ، إلى الكردينال ، شرح فيها الاحداث التي وقعت منذ سقوط سوديريني ورفضه اللجوء إلى العنف أو الخديعة واصراره على عدم الاستقالة من منصبه الذي اختاره الشعب له ، إلا إذا أراد الشعب ذلك ، ووجه الثانية إلى الكردينال دي مديشي ، ينصحه فيها بعدم الاصرار على استعادة ممتلكات المديشي من اولئك الذين ابتاعوها ، إذ أن هذا الاصرار قد يخلق الكراهية ، ومقترحاً قبول التعويض . ووجه الثالثة إلى المديشي أيضاً ، محذراً إياهم من اولئك الناس الذين يحاولون الجمع بين رضاء الشعب ورضاء المديشي ، لأنهم قد ينقلبون عليهم . ويعتقد انه قصد من هذه الرسائل التي وجهها ، اقناع المديشي باستبقائه في خدمتهم . وإذا كان مثل هذا الأمل قد ساوره حقاً ، فلأنه اعتقد بأن المديشي يؤثرون الرجل الشريف على الدجال المتزلف . ولكن مثل هذه الرسائل لا تجدي ولا سيما في اوقات الثورات . وصدرت في السابع من تشرين الثاني خمسة مراسيم قضت باخراجه من جميع المناصب التي كان يشغلها ، وبعدم السماح له بدخول القصر إلا لتسليم مهام منصبه إلى نيقولو ميكولوزي الذي خلفه فيها .

وتوفي البابا يوليوس الثاني في الثالث عشر من شباط عام ١٥١٣ . وأصبح الكردينال جيوفاني آل مديشي ، في الشهر التالي ، البابا الجديد باسم ليو العاشر . واكتشفت مؤامرة في فلورنسة في غضون ذلك ، وظهر اسم مكيافلي في رأس قائمة الاشخاص الذين عزم المتآمرون على الاتصال بهم . واعتقل مكيافلي مع المتآمرين . ولكن سرعان ما اطلق سراحه . لعدم ثبوت اشتراكه في المؤامرة . وكتب مكيافلي في الثالث عشر من آذار رسالة إلى فيتوري ، يقول فيها انه راض عن نفسه على

والرغم من ان الاصفاد ما زالت تكبل يديه وتشلهما ، وانه يأمل في ان آل المديشي ، سيعودون إلى الافادة من خدماته عندما تستقر الأمور ، لكن ما توقعه لم يحدث ، وقضى مكيافلي الاثنتي عشرة سنة التالية ، في دارته الريفية ، على مقربة من سان كاسكيانو .

الفترة الثالثة

١٥١٣ – ١٥١٧

مكيافلي في حياة التقاعد

كان البيت الذي أوى اليه مكيافلي الآن ملكاً لعائلته منذ عهد طويل . ويقع هذا البيت في قرية سان اندريا ، ويقتضي الوصول اليه من فلورنسة استخدام الطريق الرئيسية المؤدية إلى سيينا ، وعبور نهر غريف ، ثم المضي في طريق فرعية إلى اليمين تجتاز بعض التلال والوديان حتى تصل إلى قرية سان اندريا التي تبعد نحواً من عشرة أميال عن فلورنسة وميلين عن سان كاسكليانو .

وما زال بيت مكيافلي قائماً حتى اليوم كمتحف وطني ، مع ان القرية نفسها ، والمنزل الذي كثيراً ما كان يقصده لقضاء بضع ساعات فيه ، قد أصابهما الخراب . ويقع البيت إلى يمين الطريق ، وله شرفة واسعة ونوافذ تحجزها القضبان الحديدية وباب ضخم يطل على الطريق مباشرة . وتقع إلى جانبه باحة صغيرة ، لها بوّابات من الحديد ، ويبدو وراءها منظر الوادي بما فيه من كروم العنب واشجار الفاكهة الاخرى ، وداخل المنزل في غاية البساطة . فجدرانه بيضاء ، وسقوفه ذات قباب ، وفي الغرفة التي كان يكتب فيها مكيافلي مدفأة

هائلة . وما زال المكتب الذي كان يجلس اليه ، قائماً عند النافذة ، وفي الغرفة المجاورة السرير الذي كان يرقد عليه . أما الحديقة فصغيرة وان كانت تطل على بعض المناظر الرائعة .

وكان من المقدّر أن تؤمن هذه « الضيعة » الصغيرة التي يملكها مكيافلي ، له ولاسرته المؤلفة من زوجة واربعة اطفال – بنت واحدة وثلاثة أولاد – ما لبث ان لحق بهم رابع في ايلول عام ١٥١٤ ، مورد الرزق اللازم ، فلقد مضى عهد الراتب ، واستنفد الوفر الذي تجمع لديه في وفاء بعض الديون . وأخذ يسائل نفسه ، ترى ما الذي سيفعله لاشغال نفسه في الوقت المتوافر لديه ؟ ولقد كتب إلى فيتوري في التاسع من نيسان عام ١٥١٣ يقول : « لقد شاء طالعي لي ان لا أستطيع الحديث عن فن صناعة الحرير ، ولا عن فن نسج الصوف ، ولا عن الربح أو الخسارة ، بل عن موضوع واحد ، هو قضايا الدولة ، ولذا فاما ان أتكلم عن هذا الموضوع أو اضطر إلى الصمت المطبق تماماً » . وكان الصمت مستحيلاً بالنسبة إلى عقل كثير الحيوية والنشاط كعقله . ولم يكن عام ١٥١٣ قد بلغ نهايته بعد ، عندما كان مكيافلي قد دبّج عدداً من الرسائل إلى صديقه فرانسيسكو فيتوري ، السفير الفلورنسي في رومة ، وتلقى منه ردوداً عليها وكان قد أكمل أيضاً وضع المؤلف الذي قدر له ان يشهر اسمه ، وهو « المبدأ » . .

وبدأ مكيافلي في كتابة « المطارحات » في عام ١٥١٣ أيضاً ، في نفس الوقت الذي شرع في اعداد كتابه « الأمير » فيه ، ومن المحتمل ان يكون قد انتهى قبل نهاية عام ١٥١٣ ، من اعداد الجزء الاكبر من الكتاب الأول من المطارحات ، إذ انه ذكر في مستهل الفصل الثاني من كتاب الامير « انه لن يبحث في موضوع الجمهوريات إذ انه بحث في هذا الموضوع باسهاب وافاضة في مكان آخر » . ولا ريب في ان الوقت الذي قضاه في اعداد « المطارحات » أطول من الوقت الذي

قضاه في اعداد « الامير » ، اذ انه لم ينته منها إلا في نهاية عام ١٥١٧ ، على أقرب تقدير ، وقد أشار فيها إلى ان احداثاً وقعت في هذه الفترة المتداخلة من حساب الزمن . وتتعلق جميع هذه الاحداث بالحروب ، ومعظمها يتناول المعارك التي وقعت . ولا يتقدم مكيافلي بأي تعليق على قضايا فلورنسة وسياسات أوروبا في هـــذه الآونة ، وربما أراد مـــن تجنبه التعليق على هذه القضايا الابتعاد عن الاساءة لآل المديشي ، أو ، لأنه لم يكن مطلعاً في الغالب على هذه الشؤون اطلاعاً وثيقاً ، بينما كان في مكنته الحصول على اية معلومات تتعلق بالحروب والمعارك . على أي حال ، لقد اقتصر حديثه على المعارك .

وقد وقعت عدة معارك ذات شأن في الفترة بين عامي ١٥١٣ و ١٥١٧ . فلقد عقد لويس الثاني عشر صلحاً مع فلورنسة ومـــع فرديناند ملك اسبانيا . ولكنه ما عتم بالاتفاق مع البندقية ، ان شرع في مهاجمة دولة ميلان . ولكن السويسريين هزموه في معركة نوفارا في السادس من حزيران . وعبر هنري الثامن ملك انكلترا المانش في نفس السنة إلى فرنسا ، وهزم الفرنسيين في معركة كونيجاتي ، وفي السابع من تشرين الأول مني البنادقة بهزيمة شنيعة في فيسينزا التي لا تبعد إلا مسيرة يوم واحد عن البندقية نفسها . وتوفي لويس الثاني عشر في مطلع عام ١٥١٥ ، وخلفه فرنسيس الأول ، الذي شرع فوراً ، في اعداد العدة لغزو ايطاليا من جديد ، وقـــد هزم السويسريين في معركـــة مرجنانو في الثالث عشر من ايلول . وسقطت في يده قلعة ميلان في تشرين الأول واضطر مكسمليان سفورزا إلى التنازل . وكان السلطان سليم الأول قـــد تولى الحكم في تركيا آنذاك . وعاد من حملة ظافرة انتصر فيها على اسماعيل ملك العجم . ووجه اهتمامه في عام ١٥١٦ إلى سوريا ومصر ، فانتصر على سلطان المماليك في معركة مرج دابق ، ثم في معركة غزة .

ويشير مكيافلي إلى جميع هذه المعارك في « مطارحاته » ، ويستشهد بها على ان المشاة أكثر أهمية في الحروب من الفرسان أو المدفعية . ولا ريب في انه لم يكن قادراً على استشفاف الغيب ورؤية ما سيصبح للمدفعية من أهمية في الحروب المقبلة . ولذا فقد كانت نظريته تقول بأن قطعات المشاة تؤلف العمود الفقري للجيش ، وانه إذا ما اكتسح العدو مشاة أي جيش بهجوم صاعق ، فان مدفعية هذا الجيش تصبح معرضة للوقوع غنيمة في أيدي العدو .

وفي وسعنا الاستنتاج من الوقائع التي يتحدث عنها مكيافلي في « مطارحاته » ، على انه انتهى من اعداد هذا الكتاب في عام ١٥١٧ أو في عام ١٥١٨ على أكثر تقدير ، لولا انه ذكر حادثة عزاها كل من « بيرد » و « فيلاري » إلى عام ١٥٢١ ، فقد تحدث مكيافلي عن تدمير قلعة جنوة على يدي فريغو سو ، في عام ١٥١٤ فقال : « وهكذا بدلاً من الركون إلى احدى القلاع ، اركن إلى الفضيلة والمنطق . وهكذا احتفظ بمركزه ، وما زال يحتفظ به . وبينما كان الهجوم على جنوة ، لا يتطلب أكثر من الف جندي من المشاة ، للاطاحة بحكومتها ، فان خصومها ، هاجموها بعشرات الألوف ولم يستطيعوا ان يفعلوا بها شيئاً . »

ويعتقد فيلاري في كتابه « حياة مكيافلي وعصره » ، ان هذه الاشارة الغامضة ، تتناول الهجوم الذي وقع على جنوه في عام ١٥٢١ ، ويؤيده بيرد في كتابه « المبدأ » في هذا الرأي . ولكن اعتراضات شتى تقوم في وجه هذه النظرية . فمن غير المحتمل ، أولاً ان يكون مكيافلي بعد أن أكمل كتابه قد تجاهل جميع الاحداث التي وقعت بين عامي ١٥١٧ و ١٥٢١ ، وبينها أحداث مهمة كانتخاب شارلكان امبراطوراً في عام ١٥١٩ . والحرب بين البابا ليو العاشر وفرنسا في عام ١٥٢١ ، ووفاة البابا في نفس العام ، وهجوم الاتراك على المجر

واحتلالهم بلغراد ، وظهور مارتن لوثر (١) ، وان يحصر اهتمامه في حادثة بسيطة كالهجوم على جنوة .

والاعتراض الثاني هو ان الهجوم على جنوه في عـام ١٥٢١ ، لم يقم به عشرات الالوف من الجنود بل بضع سفن تحمل نحواً من ألفي جندي ، يقودهم الدوج السابق ادورنو ، الذي كان يأمل عند وصوله ، ان يقوم أنصاره في الريفييرا وجنوه بالثورة تأييداً له . ولكن أمله طاش ولم تقع الثورة ، فأقلعت السفن عائدة من حيث أتت .

ويقوم الاعتراض الثالث في ان مكيافلي اوضح بصراحة تامه ، انه في الوقت الذي كان يعد فيه كتابه . كان اوتافيانو فبريغوسو ، الذي اغتصب الحكم في جنوه في عام ١٥١٢ ، لا يزال قائماً عليه . ولو كان مكيافلي يكتب هذا في عام ١٥٢١ ، لما كان صادقاً ، إذ ان فريغوسو غدا دوجاً (دوقاً) لميلان في عام ١٥١٢ ، ولكن عندما شرع الفرنسيون في مهاجمة ايطاليا في عام ١٥١٥ ، تنازل عن الدوقية ، وأعلن خضوعه لفرنسيس الاول ، الذي عينه حاكماً للمدينة باسم الفرنسيين . ولا ريب في ان مكيافلي كان واعياً لهذه الحقيقة ، فقد أشار اليها في كتابه .

ولهذا فأنا أعتقد ان اشارته لجنوه لم تكن بالنسبة إلى عام ١٥٢١ بل إلى عام سابق . فلقد كانت اسرة ادورني معادية لفريغوسو ، وفي عام ١٥١٤ ، هاجمت المدينة ودخلتها ، وسرعان ما عقب ذلك ، تهديد

---

١ مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦) ، زعيم حركة الاصلاح الديني في المانيا ، ويعتبر مؤسس البروتستانتية في العالم . ولد في سكسونيا من والدين يعملان في فلاحة الارض . درس في جامعة ايرفورت ، حيث أخذ شهادة الدكتوراه في الفلسفة . تعرض لصراع فكري عنيف في شبابه ، تحول إلى الدين فأصبح من رجاله ، وغدا أستاذاً للفلسفة في جامعة ويتينبرغ . زار رومة وتأثر بالفساد المستشري في البلاط البابوي . قاوم صكوك الغفران وكانت مقاومته بداية حركة الاصلاح الديني التي استمرت طيلة حياته . – المعرب –

الفرنسيين بغزو ايطاليا مما اضطر فريغوسو إلى اختيار أهون الشرين وهو الخضوع للفرنسيين بدلاً من خسارته لصداقة ميلان . وهكذا قرر الوقوف إلى جانب الفرنسيين دون ابلاغ البابا على الرغم من صداقته له . ووصلت أنباء القرار الذي وصل اليه فريغوسو إلى مسامع دوق ميلان ، فشرع يعد العدة لغزو جنوه بقواته يساعده نحو من اربعة آلاف سويسري ، ووصل بالفعل إلى نوفارا وفي ركابه آل ادورني وآل فييشي اعداء الدوج ، ولكنه اضطر إلى التوقف بطلب من البابا الذي لم تكن قد وصلته بعد أنباء ما اعتزمه فريغوسو . وهكذا يتبيّن ان القوات التي وصلت إلى نوفارا ، كانت تضم جيوش ميلان واربعة آلاف سويسري ، والقوات التي حشدها آل ادورني وآل فييشي .

ومن هذا يتبين لنا ، بالنسبة إلى موضوعنا ، ان جميع الاحداث التي حاول مكيافلي ان يعكسها وان يعلق عليها ، قد وقعت قبل نهاية عام ١٥١٧ . ولو كان قد عاد إلى كتابه هذا بعد هذا التاريخ ، لأضاف اليه حوادث مهمة ، ولأصلح فيه بعض الاخطاء . وليس ثمة من دليل أيضاً على صحة رأي « بيرد » في أن مكيافلي ، كان يقصد المضي في كتابة « مطارحاته » حتى اليوم الاخير من حياته ، أو انه كان يعتزم اضافة كتاب آخر اليها بعد كتابه عن تيتوس ليفي (Titus Livy) (١) . فالمطارحات كما وصلت الينا كاملة تماماً . وقد حققت ما أراده مكيافلي منها ، وهو ان يبحث الاهمية السياسية لما كتبه ليفي في كتبه العشرة الاولى ، وتطبيقها على المشاكل المعاصرة . وهذا ما فعله في ثلاثة كتب استعرضت تاريخ روما منذ بدايته حتى نهايته . يضاف إلى هذا ان « المطارحات » و « الامير » معاً ، يتناولان حقل السياسة كاملاً . ولا ريب في ان مكيافلي لم يكن راضياً عن

١ سبق أن تحدثت عن تيتوس ليفي ، في هامش سابق . — المعرب —

مطارحاته وفكّر في إعادة النظر فيها والتقليل من فصولها ، ولكن ليس لدينا من دليل واحد يقوم على انه قد أعاد النظر فيها حقاً وأتمهـا ، ولا شك في ان الحالة التي وصلت الينا فيها المطارحات خير دليل على ما أقول .

الفترة الرابعة

١٥١٨ — ١٥٢٧

السنوات الأخيرة

على الرغم من ان الاحداث التي وقعت في هذه الفترة بين عامي ١٥١٨ و ١٥٢٧ ، وهو العـام الذي توفي فيه مكيافلي ، لم يرد ذكرها في « المطارحات » ، إلا انه لعب فيها دوراً إلى حد ما ، ولا سيما في الايام الاخيرة من حياته ، كما انها تحمل الكثير من طابع الآراء التي اوردها في مطارحاته . وقد انطبق ما قاله عن الحكام الذين يتعرضون للكثير من المتاعب ، بسبب ترددهم في اتخاذ القرارات المناسبة عنـد الحاجة اليهـا ، على سلوك البابا كليمنت العـاشر ، الذي تركزت حوله جميع أحـداث ايطاليا وفلورنسة بصورة خـاصة في هـذه الفترة . وأرى لزامـاً عليّ ، أن أورد هنا مجملاً لهذه الأحداث .

فعندما أكمل مكيافلي مطارحاته ، بدأ يحاول الخروج من العزلة التي فرضها على نفسه . ومنذ عام ١٥١٨ ، أخذت الاجتماعات تعقد في حدائق اوريسيلاري في فلورنسة . وشرع كوزيمو وسيلّي الذي أهداه مكيافلي مطارحاته بالاشتراك مـع زنوبي بونديلمونتي ، يعرض

هذه المطارحات على أصدقائه ، كما أخذ مكيافلي يشرح في هذه الاجتماعات المواضيع التي سيناقشها في كتابه « فن الحرب » الذي اعتزم وضعه وبدأ فيه فعلاً . وشرع مكيافلي يقوم بمهمات صغيرة تحمله إلى خارج فلورنسة . فقد ذهب في عام ١٥١٨ إلى جنوه ، موفداً من احد تجار فلورنسة ، وأوفده مجلس السيادة في عام ١٥٢٠ إلى لوكا لحل احدى المشاكل المعقدة . وقد أعد تقريره عن هذه المهمة ، كما كتب في لوكا مؤلفه عن تاريخ حياة « كاستروكيو كاستراكاني » . وأوفد في مهمات أخرى في عام ١٥٢١ ، كما عرض عليه في نفس العام ان يصبح سكرتيراً لبروسبيرو كولونا ، فرفض العرض ، لأن الكردينال مديشي ، كان قد طلب اليه في نفس العام ان يضع كتاباً عن تاريخ فلورنسة مقابل راتب لا بأس به ، وكان قد أتم في هذا الوقت كتابه عن « فن الحرب» ونشره .

ووقعت في غضون ذلك تبدلات مهمة في فلورنسة . فقد توفي غويليانو دي مديشي في عام ١٥١٦ ، ثم تلت ذلك وفاة لورنزو مديشي وزوجته في عام ١٥١٩ ، دون أن يخلفا إلا طفلة صغيرة اسمها كاترين . وتولى الكردينال مديشي شؤون فلورنسة الآن ، وعرض في نفس العام على مكيافلي بين عدد من البارزين من ابناء المدينة ، أن يحدد آراءه في أحسن السبل لحكم فلورنسة . وقد كتب مكيافلي استجابة منه لهذا العرض الذي جاء على أثر اقتراح من البابا « رسالته عن اصلاح الحكم في فلورنسة تلبية لامر البابا ليو العاشر » . وقد عزا في رسالته هذه عدم الاستقرار في الحكم في فلورنسة إلى أعمال المواطنين الذين تهمهم مصالحهم الشخصية أكثر من المصلحة العامة ، وإلى ان فلورنسة في عهد آل المديشي ، لم تكن لا بالجمهورية ولا بالامارة . ومثل هذه الحالة في رأيه غير عملية ، لا سيما وان الامراء من آل المديشي لم يكونوا قد نشأوا في المدينة كأسلافهم . ونصح مكيافلي البابا ، بأن يعيد إلى

فلورنسة حكمها الجمهوري ، محتفظاً لنفسه وللكردينال طيلة حياتيهما بحق تعيين القضاة ، مما يمكن المدينة من التدرب على ادارة شؤونها بنفسها . وكان الدستور الذي اقترحه ، يماثل إلى حد كبير ذلك الدستور الذي وضعه سافونا رولا ، ويتضمن انشاء مجلس للسيادة ينتخب أعضاؤه لسنتين أو ثلاث سنوات ، هذا إذا لم يكن طيلة الحياة ، ومجلساً للشيوخ ومجلساً أعلى . ولما كانت المساواة بين الناس قائمة في فلورنسة ، وكان أهلها ينشدون الاسهام في حكومتها ، فقد كان من المتعذر ان يقوم فيها الحكم على نظام الامارة . ولكن يقتضي وجود طبقات ثلاث في المدينة، أيضاً يجب ارضاءها كلها عند وضع الدستور . وقد اقترح مكيافلي لارضاء الطبقة العليا ، اقامة مجلس يضم خمسة وستين عضواً ، ينتخبون أعضاء مجلس السيادة الثمانية ، على ان يكون الانتخاب بالتناوب . ويضم المجلس الثاني مئتي عضو منهم ١٦٠ من الطبقة الوسطى والباقون من الطبقة الدنيا . ويتولى هذا المجلس الذي يطلق عليه اسم مجلس الشيوخ ، بالتعاون مع مجلس السيادة تصريف شؤون الدولة ، تساعده لجنتان تؤلف الواحدة منهما من ثمانية أعضاء احداهما لشؤون القضاء والأخرى لأمور الحرب . ورأى مكيافلي وجوب ارضاء الجماهير في مجموعها ، فاقترح اقامة مجلس يضم ستمائة عضو أو ألف عضو ، يكون من حقهم التعيين في المناصب . واقترح مكيافلي للحيلولة دون الاعتداء على الدستور ، تعيين مراقبين في جميع المجالس ، لا يكون لهم الحق في الاقتراع ، ولكن لديهم صلاحية الاستئناف إلى مجلس أعلى ، إذا رأوا ان احد القرارات التي اتخذت يخالف الدستور أو القوانين ، كما اقترح اقامة لجنة من ثلاثين عضواً ، لمساعدة لجنة القضاء ذات الثمانية أعضاء في ادارة دفة العدالة ، والنظر في قضايا الجزاء ، واهمال الموظفين لاعمالهم . وعلى الرغم من ان هذا الدستور لم يوضع موضع التنفيذ قط ، إلا ان من المهم أن نرى الطريقة التي كان يأمل مكيافلي بواسطتها تطبيق المبادئ

التي شرحها في مطارحاته . ولا ريب في ان الاعتبارات التاريخية التي ضمنها مشروعه ، هي التي حملت السلطات في العام التالي ، على سؤاله كتابة « *تاريخ فلورنسة* » .

وأدت وفاة الامبراطور مكسميليان في كانون الثاني عام ١٥١٩ ، وانتخاب شارل ، ملك اسبانيا ، امبراطوراً في حزيران من العام نفسه ، إلى وقوع تبدل في سياسة البابا ليو العاشر . فقد انتقل الآن من محالفة فرنسا ، التي كان قد غدا حليفاً لها بعد معركة مرجنانو ، إلى محالفة شارل الخامس (شارلكان) ، الذي وعده في حالة انتصاره ، باعادة بارما وبيسينزا إلى ممتلكاته . وفي عام ١٥٢١ ، عبر جيش يضم قوات البابا والامبراطور وفلورنسة ، نهر الادّا ، واستولى على ميلان والقسم الاكبر من ممتلكاتها . وقامت نفس القوات في العام التالي بهجوم على جنوة أطار حكومة فريغوسو ، وأقام بدلها نظاماً جمهورياً برئاسة انتونيتو ادورنو . وكانت هذه الجيوش قد انتصرت على جيوش الفرنسيين في السابع والعشرين من نيسان في بيكوسّو ، ولم يجد فريغوسو الذي كان يحكم باسمهم ، من يعتمد عليه . وتوفي البابا ليو العاشر في غضون ذلك ، واختير كردينال غير ايطالي خلفاً له وهو ادريان بويينز ، كردينال تورتوزه ورئيس أساقفة اوترخت . وكان البابا الجديد واسع الثقافة والاطلاع ، لا غبار عليه في حياته الخاصة ، وكان استاذاً للبابا السابق في صباه ، كما كان ايرازماس (**Erasmus**) (١) من طلابه ، لكن معظم الايطاليين لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً . وكان ادريان السادس في الثالثة والستين من عمره ، عندما انتخب لتولي الكرسي البابوي ،وقد

---

١ ايرازماس ديسيديريوس (١٤٦٦ – ١٥٣٦) ، عالم ولاهوتي . درس الاغريقيا واللاتينية ، وقضى وقتاً في جامعة اوكسفورد ، ثم في جامعة كمبريدج ، وضع كتباً سخر فيها بالبابوات والملوك ولكنه رفض الانضمام إلى حركة الاصلاح الديني التي تزعمها مارتن لوثر .

– المعرب –

قضى ستة أشهر في الوصول من هولندة إلى رومة ، ليجد خزانة بابوية خاوية ، وليعالج مشكلة الاصلاح الديني ، ومشكلة توغل الاتراك في أوروبا بعد احتلالهم لبلغراد في عام ١٥٢١ ، ولم يعمر أكثر من سنة واحدة بعد وصوله إلى رومة ، ولكن فرنسوا الأول ملك فرنسا ، كان يعد العدة آنذاك لغزو ايطاليا من جديد ، وقد اضطر البابا إلى الانضمام إلى الحلف الذي اقيم للدفاع عن لومبارديا ، والذي ضم الامبراطور وارشيدوق النمسا فرديناند وفرانسيسكو سفورزا حاكم ميلان والكردينال دي مديشي عن فلورنسة وجنوة وسيينا ولوكا . وعندما حضرت الوفاة البابا ادريان السادس في الرابع عشر من ايلول عام ١٥٢٣ ، كان الجيش الفرنسي بقيادة بونيفيه ، قد دخل ايطاليا ، وشرع في عبور نهر تيسينو . وارتقى الكردينال دي مديشي في الثامن عشر من تشرين الثاني كرسي البابوية تحت اسم كليمنت السابع .

ولقد كتب مكيافلي في اطروحته عن « اصلاح حكومة فلورنسة » ، يقول : « إذا سارت الأمور على المنوال الذي تسير عليه الآن فانني اجرؤ فأتكهن ، بأنه إذا وقعت نازلة ، ولم تكن حكومة المدينة قد نظمت بعد ، فان واحداً من أمرين سيحدث حتماً ، أو قد يحدثان معاً وفي آن واحد ، وهما ان يقوم أحد الناس ، فيعلن نفسه فجأة ، وبصورة ثورية ، رئيساً للدولة ، ويلجأ إلى السلاح والعنف في الدفاع عن حكمه ، أو ان يسارع حزب من الحزبيّن ، فيقتحم قاعة المجلس عنوة ، ويهزأ بالحزب الثاني . وسواء أوقع هذا أو ذاك ، وهو ما ابتهل إلى الله ان لا يقع ، فان قداستك ، ستدرك ، كم من اعمال القتل ، والنفي ، والحرمان من الثروة والممتلكات ، ستتلو ذلك كله » . واستمرت الاحوال على ما كانت عليه ، ووقعت فتنة في عام ١٥٢٧ سارع إلى اخمادها دوق اوربينو . وكان البابا كليمنت السابع عند تسنمه كرسي البابوية قد عاد إلى سؤال أهل فلورنسة ، عن نوع

الحكم الذي يرغبون فيه . ولكنه لم يصغ على أي حال ، لأقوال اولئك الذين رغبوا في ان تغدو بلادهم جمهورية أصيلة ، واعلن ان ارادة الاغلبية تقف ضد الجمهورية . وهكذا اوفد سيلفيو ساباسيريني ، كردينال كوزتونا ، إلى فلورنسة ليحكمها نيابة عن ايبوليتو ، الابن غير الشرعي لاسرة المديشي ، والبالغ من العمر خمسة عشر عاماً . والذي وفد إلى فلورنسة في ركاب الحاكم الجديد في عام ١٥٢٤ ، مصحوباً بابن آخر غير شرعي لاسرة المديشي اسمه اليساندرو ، مما أثار حفائظ الفلورنسيين وغيظهم .

ولو تطلعنا إلى الموضوع من وجهة نظر سياسية خالصة ، لوجدنا ان البابا كليمنت قد ارتكب في علاقاته مع الامبراطور ومع ملك فرنسا في عامي ١٥٢٤ و ١٥٢٥ ، نفس الخطيئتين اللتين تحدث عنهما مكيافلي ، عازياً اياهما إلى البابا ليو العاشر . فلقد أدرك البابا ما تعنيه الحرب بين هاتين الدولتين تمام الاراك ، وعمل جاهداً للحفاظ على السلام ، فلم ينضم إلى احداهما في البداية ، وهو ما كان يشير به مكيافلي تماماً . وعندما غدا الفرنسيون في ميلان وتوقع كل انسان في رومة انهم هم الظافرون ، أذعن للضغط الذي فرض عليه ، وعقد معاهدة مع فرنسوا في الخامس من كانون الثاني عام ١٥٢٥ . ولم يكد يفعل ذلك ، حتى هزم الفرنسيون في بافيا ، أعظم معارك العصر ، ووقع فرنسوا أسيراً في يدي الامبراطور . وهنا تكرر وقوع ما حدث بعد مرجنيانو في عام ١٥١٥ ، فقد تخلى الظافر « لاسباب انسانية عن الرغبة في تحقيق نصر آخر ، ووافق على عقد صلح جديد مع الكنيسة » .

ولم يقدر لهذا الصلح أن يعمر طويلاً . فلقد تاق الشعب الفرنسي إلى الثأر من هزيمة بافيا ، واظهرت الملكة الوصيّة لويز سافوي ، رغبتها واستعدادها ، لنصرة أي أمير ايطالي يثور على الامبراطور الظافر

وكان البابا كليمنت ، تواقـاً كأسلافه من البابوات من أمثال الاسكندر ويوليوس وليو ، إلى تحرير ايطاليا من النفوذ الاجنبي ، فأوفد رسـله إلى الامراء الايطاليين يحرضهم على الاشتراك في الحركة القومية . وأعلن الجميع تأييدهم للمشروع ، واقترح الجنويون تأليف عصبة لتحرير ايطاليا . وسارع جيرو لامو موروني مستشار دوقية ميلان إلى بيسكارا ، أكثر قادة الامبراطور كفاية ، وحثّه على التخلي عن خدمة الامبراطور ، وتولى قيـادة القوات الايطالية ، مقابل الحصول عـلى عرش نابولي . ولكن بيسكارا فضح المؤامرة ، واعتقل موروني ، وقامت القوات الامبراطورية باحتلال أراضي ميلان ، وسرعان ما آخطأ الامبراطور فأطلق سراح فرانسوا الأول مقابل شروط ، كان مـن المستحيل عليه تنفيذها ، وذلك طبقاً لمعاهدة مدريد التي وقعت في الحادي عشر من شباط عام ١٥٢٦ . وأعلن البابا كليمنت تحليـله لفرانسوا من عهوده ومواثيقه ، إذ كانت هذه العهود قـد فرضت عليه فرضاً . وتم في الثاني والعشرين من أيار تأليف حلف كونياك المقدس ، الذي ضم البابا كليمنت السابع ، وفرانسوا الاول ملك فرنسا ، والبندقية ، وفرانسيسكو سفورزا ، الذي كان لا يزال محتفظاً بقلعة ميلان ، وأعلن المتعاهدون عزمهم على محـاربة الامبراطور ، إلا إذا سحب قواته من أراضي ميلان وأطلق سراح الجـال الملك فرانسوا مقابل فديـة معقولة .

وفي هذه الفترة بالذات ، وكان مكيافلي قـد بلغ السابعة والخمسين من عمره ، عـاد مؤلفنا إلى الحياة العامة من جديد . وكان قد قصد إلى رومة في آذار عام ١٥٢٦ ، ليرفع إلى البابا شخصياً ، مؤلفه عن « تاريخ فلورنسة » ، وليطلب بعض العون المالي لاستكماله . وعندما سمح له بمقابلة البابا ، حثه على تشكيل فرق من المتطوعة الوطنية ، فأحاله البابا إلى كويكيارديني ، رئيس رومانا ، الذي عارض في

المشروع وفي تسليخ الاهلين . وعاد مكيافلي فاقترح ، ان يقوم جيوفاني دي مديشي ، الذي يمت إلى فرع بعيد من اسرة المديشي ، بتسجيل القوات وحشدها لمهاجمة جيش الامبراطور ، الذي كان الانحلال قد بدأ يدب في صفوفه . ولكن اقتراحه هذا رفض أيضاً لأنه يسيء إلى الامبراطور . وقام بعد ذلك بجولة في حصون فلورنسة وأعد تقريراً عما يجب عمله ، لجعلها قادرة على الدفاع . وقد صادق مجلس المائة على مشروعه ، وعُيّن في الثامن عشر من أيار مستشاراً لهيئة جديدة اطلق عليها اسم « القيمون الخمسة على الاسوار » . وكان في قبوله لهذا المنصب يعمل طبقاً للقاعدة التي أوصى بها ، وهي « ان لا يرفض المواطن الذي اشغل مراكز عالية ، اشغال منصب أقل منها رتبة » .

ودخل الكردينال كولونا في العشرين من ايلول ، مدينة رومة ، ونهب الفاتيكان ، وكنيسة القديس بطرس ، وقصور الكرادلة . واضطر البابا كليمنت إلى توقيع هدنة لمدة اربعة اشهر . وكان كريمونا قد استسلم لجيش الحلف المقدس الذي يقوده الدوق اوربينو ، عندما تلقى كويكيارديني ، الذي يقود قوات البابا الاوامر بعبور نهر البو . وكان جورج فون فروندزبرغ ، قد باع جميع ممتلكاته ليعبئ جيشاً قوامه عشرون الفاً معظمهم من اللوثريين (البروتستانت) ، واقسم ان يذهب إلى رومة ليشنق البابا بنفسه . وزحف بجيشه هذا متجنباً الاصطدام مع قوات الحلف المقدس التي تحرس مداخل جبال الالب ، وعبر نهر البو . وكان مكيافلي يعمل في هذا الوقت كضابط ارتباط بين فلورنسة وكويكيارديني . وكان جيش الحلف ما زال أقوي شكيمة وأحسن تنظيماً من قوات الامبراطور ، ولكن الدوق اوربينو ، رغم الحاف كويكيارديني ومكيافلي ، رفض المغامرة في معركة مع القوات الامبراطورية . وهدد الامبراطور في الثاني عشر من كانون الاول ،

بدعوة مجلس عام للكرادلة ، إلا إذا هادنه البابا .

وهنا حلّت كارثة رومة . ففي كانون الثاني عام ١٥٢٧ ، شرع لانوي ، نائب الملك في نابولي ، بالزحف على المدينة الخالدة . واضطر البابا في شهر آذار إلى قبول شروط الامبراطور ، التي قضت بالتنازل عن بارما وبياكينزا وسفيتافيشيا ، وبالغفران لأسرة كولونا وإعـادة ممتلكاتها اليها ، وبدفع جزية قدرها مائتا الف من الدوكات . وتم عقد الهدنة في السادس عشر ، وسرح البابا جيشه . وعندما بلغت انبـاء الهدنة إلى القوات الامبراطورية ، ثار ثائرها ، لأنها أضاعت فرصتها في نهب رومة وفلورنسة . فأعلنت العصيان ، واضطر بوربون ، قائدها إلى الاختفاء في اسطبل ، كما ثارت ثائرة فروندزبرغ ، فمات بالسكتة القلبية ، غيظـاً وكمداً . وقام متنبئ في رومة يدعى براندانو ، فشهّر بالبابا ، وأعلن ان الله سينزل نقمته بروما ، كما أنزلها بسدوم وعامورة . وبعث مكيافلي في الثاني من نيسان ، وكان لا يزال يهرع من مدينة إلى أخرى ، ليعد للدفاع عن فلورنسة ، إلى ولده جيدو ، يطلب اليه ان يرفه عن والدته ، وان ينقل اليها أنباء عودته القريبة . واذعن بوربون في السابع والعشرين من نيسان لمطالب قواته . وشرع في الزحف على رومة . وقدم أهل فلورنسة كل ما يملكونه من ذهب وفضة لايقاف بوربون ، ولكن كلما زاد عرضهم ارتفعت مطالبه . واقتحمت القوات مدينة رومة في السادس من أيار ، وعلى الرغم من ان قائدها بوربون لقي حتفه في بداية الهجوم ، إلا ان القوات الامبراطورية احتلت المدينة الخالدة قبل حلول الظلام . وسالت الدماء انهاراً على الهياكل والمذابح ، ونهبت التحف والكنوز والآثار الفنية . وداس الجنود بأقدامهم الآثار المقدسة . وذبح أهل رومة ذبح النعاج ، ونهبت مساكنهم ، وانتهكت أعراض نسائهم ، دون تقيد بالعمر أو المركز أو الجنسية ، وقتل الرهبان ورجال الدين ، أو ألبسوا ملابس

النساء وبيعوا كأسرى حرب . ونبشت القبور ونهبت . وحملت الراهبات إلى بيوت الدعارة ، أو باعهن الجنود مقابل بضع دوكات . وامتلأ نهر التيبر بالجثث . وأحرقت احياء بكاملها في المدينة . ودمرت وثائق تاريخية ذات قيمة لا تقدر . وهذا ما عمله الالمان بروما في عام ١٥٢٧ .

وكان الدوق اربينو يزحف بجيش قوامه خمسة عشر الفاً في أعقاب القوات الامبراطورية ، وكان هذا الجيش قد وصل كاستيلو ديلا بيفي في الامارات البابوية ، عندما وصلته أنباء سقوط رومة . ولما عجز كويكيارديني عن اقناع الدوق بالاسراع إلى رومة لمساعدة البابا ، بعث إلى فلورنسة يطلب منها قوات جديدة . واوفد باسيريني كلاً من مكيافلي ، وبانديني إلى كويكيارديني ، ليستعلما منه عن تطور الأوضاع ، فأوفدهما هذا في الثاني والعشرين من أيار ، إلى اندريا دوريا ، الذي كان يرسو باسطوله في ساحل فيشيا ، ينتظر نقل البابا إلى مكان امين . وشرح مكيافلي في رسالة تاريخها الثاني والعشرون من ايار ، المقابلة التي جرت لهما مع دوريا . لقد كان هذا راغباً في القيام بمحاولة لانقاذ البابا ، ولكنه أعرب عن قلقه من ان الوضع قد غدا يائساً ، كما أثبتت الحقيقة ، إذ انه بعد تقدمه ووصوله إلى بعد تسعة اميال من رومة ، أخذت قوات الحلف المقدس تتخلى عن البابا ، ولم يحل الثاني من حزيران حتى كان الدوق اوربينو ، قد تراجع إلى فيتيربو ، تاركاً رومة تواجه مصيرها .

وعندما عاد مكيافلي إلى فلورنسة ، وجد ان أمله ، في عودة مدينته إلى النظام الجمهوري قد تحقق . ففي السابع عشر من أيار فر باسيريني والصبيان المديشيان من المدينة ، وأعلن قيام الجمهورية . ودعي مجلس الثمانين إلى الانعقاد ، وأعدت قاعة المجلس الكبير لاجتماعه . وأصبح نيقولو كابوني رئيساً لمجلس السيادة ، كما انتخب مجلس الثمانية ، ومجلس

جديد من عشرة أشخاص لادارة دفة الحرب . ولكن على الرغم من كل ما عمله مكيافلي لتحصين المدينة واعدادها ، لم يصبح مستشاراً أو وزيراً . ولم يعرض عليه أي منصب جديد ، ذلك لأنه كان قد عمل مبعوثاً لباسيريني الكريه إلى قلوب الناس ، وعين فرنسيسكو تيروجي بدلاً منه في العاشر من حزيران . وبعد عشرة أيام ، سقط مكيافلي مريضاً ، واعترف بذنوبه للراهب ماتيو الذي ظل ملازماً له حتى لحظته الاخيرة ، ثم لفظ نفسه الاخير بسلام واطمئنان في الثاني والعشرين من حزيران عام ١٥٢٧ ، في فراشه ، وإلى جانبه زوجته وأطفاله ونفر من أصدقائه .

٣ ـ مؤلفات مكيافلي

أتم مكيافلي مؤلفاته الاربعة الرئيسية في الفترة الواقعة بين عامي ١٥١٣ و ١٥٢٥ .

أولاً ـ « الأمير » : شرع فيه في عام ١٥١٣ ، وانتهى منه تقريباً في نفس العام باستثناء بعض التعديلات والتبديلات التي أدخلها عليه ، عندما توفي غويليانو دي مديشي في عام ١٥١٦ ، فوضع اسم لورنزو بدلاً من غويليانو في الاهداء . وقد اعدت نسخ مخطوطة من الكتاب وتم توزيعها ، لكن الكتاب لم يطبع إلا في عام ١٥٣٢ بعد وفاة مؤلفه . وقد طبعه انطونيو بلادو ، الذي خوله البابا كليمنت السابع ، طباعة كل كتب مكيافلي . وقد تم في القرن التاسع عشر طبعه في جميع اللغات طبعاً ، وبينها الانكليزية .

ثانياً ـ « المطارحات عن الفترة الأولى لتيتوس ليفي » : وقد بدأها في عام ١٥١٣ وانتهى منها عام ١٥١٨ ، كما رأينا سابقاً .

وقد طبعها انطونيو بلادو أول مرة في عام ١٥٣٢ مع « الأمير » ومع « تاريخ فلورنسة » . وقد ترجمت أيضاً إلى معظم اللغات وصدرت فيها .

ثالثاً — « فن الحرب » : وقد بدأه في عام ١٥١٨ وأشار فيه إلى محادثات جرت له في عام ١٥١٦ وأكمله في عام ١٥٢٠ ، وقد طبع في فلورنسة في عام ١٥٢١ وأهداه إلى لورنزو دي فيليبي ستروزي الذي قدّمه إلى آل المديشي . وقد طبعت أول ترجمة انكليزية له في عام ١٥٨٨ ، وأهداها مترجمها بيتر وايتهورن إلى الملكة اليصابات .

رابعاً — « تاريخ فلورنسة » : وقد بدأه في عام ١٥٢٠ بطلب من أكاديمية فلورنسة التي كانت تحت رعاية الكردينال مديشي ، ويعرض تاريخ فلورنسة منذ أقدم العصور حتى وفاة لورنزو دي مديشي عام ١٤٩٢ ، ويقع في ثمانية مجلدات . وعندما أكمل مكيافلي كتابه ، كان الكردينال قد غدا البابا كليمنت السابع ، فذهب المؤلف بنفسه إلى رومة ليقدمه إلى راعيه . وقد طبعه انطونيو بلادو في عام ١٥٣٢ ، وقد ترجمه إلى الانكليزية تيتيان هيل طومسون في عام ١٩٠٦ .

١ — الأمير والمطارحات

يستهل مكيافلي الفصل الثاني من كتابه « الامير » بالعبارة التالية : « سأتغاضى هنا عن الحديث عن الجمهوريات ، ذلك لأنني عالجت هذا الموضوع مطولاً في مكان آخر » . ويشير مكيافلي في « المطارحات» عدة اشارات إلى « الامير » وعلى الرغم من قلة الاشارات الواردة في كل من المؤلفين إلى المؤلف الآخر ، الا اننا إذا أخذناهما معاً ، بالنسبة إلى المواضيع التي عالجاها ، تبين لنا ، ان مكيافلي ، لم يكتف

بالنظر اليهما ككتابين مترابطين فحسب ، بل اعتبرهما يؤلفان اطروحة واحدة عن الحكم ، تعالج مشاكله من مختلف النواحي . ويهتم كتاب « الامير » بصورة خاصة « بالامارات » ، وهي الدول الـتي يحكمها شخص واحد ، تتجمع في يديه كافة السلطات. ولهذا فقد عالج مكيافلي في الفصول التسعة الأولى منه ، طرق الوصول إلى الحكم ، والوسائل التي يعتمدها الأمير في تثبيت دعائم حكمه . وينتقل في الفصلين التاليين إلى معالجة شؤون الامارات الكنسية التي لا تنطبق عليها القواعد المقررة ، ولكنه مع ذلك ، حصر بحثه فيهما وفيما تلاهما ، في مركز الحاكم وأمنه ، ومختلف سبل السلوك التي يتبعها . أما « المطارحات » فتعالج شؤون الجمهوريات وكيف يستطيع مواطن عادي فيها ، عن طريق اللجوء إلى مختلف السبل ، الشريفة وغير الشريفة ، كاثارة الجماهير وتاليف الاحزاب القوية واستنفار العون الاجنبي ، ان يقيم لنفسه امارة أو شبه امارة في بلاد كانت تتمتع بالحكم الذاتي ، وان يعرضهـا للاخطار التي يجب ان تكون حريصة دائماً في اتقائها . ويعود مكيافلي إلى هذه النقطة بالذات بين الفينة والفينة ، ولكنه في أحاديثه ، يقيم عدداً من المفاهيم ، التي يتحتم على كل حكومة تطمع في استتباب أمنها ودوام سلامتها ، ان تعيها سواء أكانت جمهورية أو ملكية في شكلهـا وطابعها . وفي « المطارحات » عدد من القواعد ، التي تنطبق عـلى الجمهوريات والامارات على حد سواء . ولم ترد مطلقاً في كتـابه « الامير » . ولا يذكر مكيافلي في « اميره » شيئاً عن قادة الجيوش ، ولكنه في « مطارحاته » يتحدث باسهاب عن الطريقة التي يجب ان تعامل بها الدول قادتها العسكريين ، وعن الاسلوب الذي يجب ان يتبعه هؤلاء القادة في معاملة حكوماتهم وجنودهم . وهو يقارن فـي « مطارحاته » أيضاً بين الامارات والجمهوريات ، مفضلاً نظام الحكم الجمهوري ، باستثناء ما يتعلق منه بمعاملة رعايا المدن الخاضعة والشعوب

المحتلة وادارة دفة الحروب . وهكذا بينما يقتصر كتاب « الامير » على الحديث عن « الامارات » يتناول « المطارحات » رغم اهتمامه الرئيسي بالجمهوريات ، وبجمهورية رومة بالذات ، افاق السياسة كلها ، ويعرضها من وجهة نظر الحاكمين والمحكومين على السواء . وهو لهذا يعالج شؤون الحكومات كلهـا ، من جمهوريات وأمارات وملكيات مستبدة ، ما كان منها مستحدثاً أو متوارثاً . ومن هذا يظهر ان « المطارحات » عالج آفاقـاً أكثر شمولاً من آفاق « الامير » ، وان تناول عين الافاق أحياناً . وكان مكيافلي يرى ان تكرار ما قاله في « الامير » ، في « المطارحات » مضيعة للوقت ، ولهذا فانه في مطارحاته لم يتناول « الامارات » بالتفصيل وانما اكتفى بالاشارة إلى ما كتبه عنها في « أميره » . وعلى هذا يتضح ان مكيافلي أراد من قرائه اعتبار كتاب « الامير » ، جزءاً لا يتجزأ من البحوث التي وضعها عن السياسة كلها .

ب – فن الحرب والمطارحات

لما كان كتاب « الامير » يعالج بالاسهاب موضوعاً ، أشار اليـه كتاب « المطارحات » في أكثر من مكان ، ولا سيما عند تناول انشاء *الامارات والحفاظ عليها ، فان كتاب « فن الحرب »* ، يعالج *أيضاً* موضوعاً ، طالما تطرق اليه مكيافلي في « المطارحات » . وكما ان المؤلف قد شرع في وضع كتابه « المطارحات » قبل أن يستكمل كتابة « الامير » . فقد شرع أيضاً في كتابة « فن الحرب » قبل أن يستكمل وضـع « المطارحات » . ويصف مكيافلي في « فن الحرب » كيف كان لفيف من أصدقائه ، يجتمعون في حدائق اوريسيلازي مع كوزيمو روسلّي ، ليستمعوا ، وهم منبطحون على الحشائش ، أو وهم جالسون على المقاعد في ظلال الاشجار ، إلى « فابريزيو كولونا » يحدثهم عن فن الحرب ،

فيوجهون اليه ما شاءوا من أسئلة يرد عليها بمنتهى التعمق والفهم . وكان فابريزيو قد عاد لتوه من الحرب في لومبارديا ، وقرر قضاء بضعة أيام في فلورنسة . وقد آب هذا في عام ١٥١٦ ، ولكن الإخراج الذي أعدّه مكيافلي (الميزانسين) لم يكن صادقاً ، فلم يكن فابريزيو هو الذي اجتمع إلى هؤلاء الاصدقاء في الحدائق وحدثهم عن فن الحرب وغيره من المواضيع المتعلقة بشؤون السياسة ، وإنما كان المتحدث ، هو مكيافلي نفسه . ويبدو ان هذه الاجتماعات قد بدأت في أيار عام ١٥١٨ ، بعد عودة مكيافلي ، من جنوه ، حيث كان قد ذهب موفداً من أحد تجار فلورنسة في مهمة خاصة . وكان مكيافلي في هذا الوقت قد أشرف على الانتهاء من « مطارحاته » وشرع في اعداد « فن الحرب » ولا ريب في انه قرأ على أصدقائه وبينهم كوزيمو روسلّي وزانوبي بوندلمونتي ، اللذين أهداهما مطارحاته ، فصولاً من الكتابين . لكن « فن الحرب » على أي حال ، لم يغد كاملاً إلا بعد عام ١٥١٩ ، وهي السنة التي توفي فيها كوزيمو ، الذي ذكر وفاته في كتابه المذكور .

ويعالج « المطارحات » في خمسة واربعين فصلاً ، هي ثلث الكتاب تقريباً ، قضايا الحرب ، وسلوك القادة العسكريين ومعاملتهم . ولكن مكيافلي في كتابه « فن الحرب » ، يعالج باستفاضة واسهاب ، بعض المواضيع التي أوجز الحديث عنها في مطارحاته ، كاختيار الجنود ، وتدهور الانضباط العسكري ، وفضائل الفرسان والمشاة ، وتأليف الجيوش والمدفعية ، والخطط العسكرية ، وكيفية الاشتباك في المعارك وتجنبها أحياناً ، وما شابه ذلك من المواضع .

ج – تاريخ فلورنسة والمطارحات

كان تاريخ فلورنسة ، وهو آخر الكتب التي وضعها مكيافلي مؤلفاً

تاريخياً ، ولكنه في مستهل كل مجلد من مجلداته ، يتحدث باسهاب عن الظواهر البارزة في الفترة التي يعالجها هذا المجلد . ويعرض الكتاب في مجموعه بوضوح المصاعب البالغة التي مرت بها فلورنسة ، لاقامة نوع من الحكم الوطيد الراسخ فيها ، حتى نصل عهد أسرة المديتشي ، الذي لم يطل على أي حال . ويعود مكيافلي في مطارحاته إلى هذه النقطة بالذات ، المرة تلو المرة . وهو يؤكد في مقدمات « تاريخه » ، بعض النقاط التي سبق له ان أثارها في مطارحاته ، كقضية المستعمرات مثلاً ، والعداء المستحكم بين الطبقتين العليا والثانية ، والثورات التي تنشب طلباً للحرية ، والصراع الطبقي ، وتعرض جميع الدول لتيارات المد والجزر في أوقات السلم والحرب . ويقول مكيافلي ان غرض الذين يشنون الحروب دائماً ، الحصول على الثراء وافقار اعدائهم ، وعلى هذا فان الدولة التي تمنى بالفقر والضعف من جراء الحرب على الرغم من انتصارها ، تكون اسوأ حالاً ، في النصر منها في الهزيمة . كما يتحدث عن الاحزاب والضغائن والخلافات والحزازات التي تقع عادة بين الطامحين من المواطنين .

٤ ـ تركيب المطارحات

لا يستطيع أي انسان فهم طريقة مكيافلي التي كثر الحديث عنها ، إلا إذا فهم الاسلوب الذي يتبعه في اعداد مؤلفاته . ويشير عنوان « المطارحات » إلى حقيقة موضوع الكتاب ، فهو يتناول فيها الاحداث والوقائع التي سردها تيتوس ليفي في كتبه العشرة الأولى عن تاريخ رومة . وتعالج هذه الحقبة تاريخ مدينة رومة منذ انشائها في عام ٧٥٣ قبل الميلاد حتى عام ٢٩٣ ق.م. وهكذا تتناول بالحديث الفترة التي

كانت فيها امبراطورية رومة ودستورها ومنظماتها في طريق البناء . وقد اختار المؤلف رومة ، لأن الرومانيين قد أقاموا اطول امبراطورية عرفها التاريخ عمراً . وكان الفضل في ذلك ، لطبيعة أهلها وفضائلها لا لحسن طالعهم . ولهذا فان من واجب اولئك الذين يرغبون في ان يحكموا حكماً طيباً ، وان يحاربوا ببسالة وشجاعة ، لاقامة امبراطورية ، ان يدرسوا بامعان وعناية ما فعله الرومان ، وان يفهموا الفضائل التي يمكن ان يعزى اليها نجاح رومة .

ولما كانت الخصائص الرئيسية التي تعزى اليها عظمة رومة تتعلق بدستورها اولاً ، وبتنظيماتها العسكرية وقوتها وحذقها فنون الحرب ثانياً وفضائل كبار رجالها الذين توالوا على الحكم فيها ، فقد قسم مكيافلي كتابه إلى ثلاثة أقسام . ففي القسم الأول يبدأ مكيافلي « بالحديث عن الوقائع التي يرى انها جديرة بالتعليق بالنسبة إلى خصائصها العامة . وبالاحداث التي تتفق مع نتائجها » . وبعد ان تحدث في القسم الأول عن القرارات التي اتخذها الرومان في شؤونهم الداخلية ، انتقل في القسم الثاني إلى الحديث عن « الاجراءات التي اتبعها الشعب الروماني لتوسيع امبراطوريته » . ورغبة منه في ايضاح « ما اسهمت به أعمال بعض الرجال في عظمة رومة ، وما حققته من نتائج نافعة ، فقد مضى في القسم الثالث يسرد وقائعهم ويعدد ما قاموا به من أعمال » .

أما الاسلوب الذي اتبعه مكيافلي في كل من هذه الكتب الثلاثة ، فهو المضي في سرد الحوادث كما جاءت في تاريخ ليفي ووفق تسلسلها التاريخي ، مختاراً منها ما يراه أكثر أهمية من وجهة نظر الموضوع العام لكتابه . وفي امكان القارئ التثبت من ذلك ، باجراء مقارنة بين تاريخ ليفي ومطارحات مكيافلي ، فيرى ان الفصول والكتب والاحداث التاريخية هي عينها في الكتابين . وهو لا يخرج عن هذه

القاعدة العامة في التسلسل التاريخي ، إلا في مواضع قليلة ، عندما يبدأ في الحديث عن ملوك رومة .

ويتضمن الجزءان الأول والثاني من المطارحات مقدمة قصيرة ، أما الجزء الثالث ، فلا مقدمة فيه ، وان كانت الاجزاء الثلاثة تحتوي على فصول تمهيدية في مستهلها . فالكتاب الثاني مثلاً يبدأ بفصل عن الدور الذي لعبته الفضيلة ولعبه الحظ في تاريخ الرومان . ثم ينتقل إلى فصل ثان عن الشعوب التي كان على رومة أن تشن الحرب عليها . أما الجزء الثالث فيستهله مكيافلي بفصل عن ضرورة العودة باستمرار إلى القواعد الرئيسية التي يقوم عليها أي تنظيم . أما مقدمة الجزء الأول فأطول من هذا بكثير ، إذ يجب أن يضم اليها الفصول الخمسة عشر الأولى من الكتاب ، التي ينتقل بعدها إلى ثلاثة فصول تتحدث عن مرحلة الانتقال من العبودية إلى الحرية . وهكذا لا يشرع مكيافلي في التعليق على ما كتبه ليفي إلا في الفصل التاسع عشر . أما الغاية الرئيسية من الفصول الخمسة عشر الاولى من الكتاب الاول ، فهي اجتذاب اهتمام القارئ إلى الحوافز والنشاط ، والاجراءات التي يعتبرها مكيافلي أساساً في كل حركات سياسية ، والمتمثلة تمام التمثيل في تاريخ رومة . ويعتمد مكيافلي في الحوادث المتعلقة بتاريخ رومة كعادته على فصول ليفي ، ولكنه لا يتبع الترتيب الذي يتبعه ليفي ، كما انه لم يستمد منه مقدمته ، وانما استمدها من بوليبيوس (**Polybius**) (١) الذي اقتبس منه عدة فقرات بصورة حرفية .

ولم يقتصر اعتماده على بوليبيوس على هذه الفقرات وحدها ، إذ اذنا لو قارنا أي موضوع بحثه مكيافلي في مقدمته ، بالكتاب الرابع

---

١ بوليبيوس (٢٠٤ – ٢٢٢ ق. م.) . مؤرخ روماني مشهور ، ولد في اركاديا ، ثم نقل إلى رومة بتهمة رفض مساعدة الرومان ضد بيرزيوس ملك مقدونية ، وقد رافق شيبيو في حملته على قرطاجنة . يعتبر كتابه من أوثق المصادر التاريخية عن تاريخ الرومان . – المعرب –

لبوليبيوس ، لوجدنا أن هـذا الموضوع موجود في كتاب المؤرخ القديم . فقد استهل هذا المؤرخ كتابه بقطعة أكد فيها أهمية دراسة التاريخ وهي عين النقطة التي أكدها مكيافلي في مقدمة الجزء الاول من مطارحاته . ويصف بوليبيوس كتابه بقوله « نبذة تحليلية في دراسة الدستور الروماني » ويقول : « ان الاختبار الصحيح للرجل الكامل ، هو قدرته على الاحتمال ، بعزيمة وكرامة ، لكل ما يطالعه به الحظ من تبدلات في طوالعه ، ومن الواجب درس الدستور بنفس هذه الطريقة وعين الاتجاه » . ويستند مكيافلي في اعجابه بدستور رومة الجمهوري ، إلى قدرة هـذا الدستور على احتمال تبدلات الحظ ، ولا سيما بالنسبة إلى الصراعات الطبقية التي كانت دائمة الوقوع ، والتي لم يحل وجودها دون عظمة رومة . وقد استمد مكيافلي تصنيفه للدول ، ومرحلة انتقالها الدائرية من شكل إلى آخر ، من كتاب بوليبيوس .

ولعل خير ما يوصف به اعتماد مكيافلي على تيتوس ليفي ، هو انه اختار من تاريخه أحداثاً مرتبة حسب تسلسلها التاريخي ، واستخدامها كأوتاد يقيم عليها بعض النظريات التي استوحاها من هذه الاحداث . وكثيراً ما أوحت له نفس الحادثة التاريخية بأكثر من نظرية واحدة . وتشتمل المطارحات على أكثر من خمسين فقرة مقتبسة من ليفي ، بعضها ذو طابع وصفي ، ولكن البعض الآخر منها من النوع التعليقي ، الذي يؤيده مكيافلي . وكثيراً ما سرد مكيافلي أيضاً آراء ليفي ، دون اقتباسها حرفياً ، وأكد موافقته عليها . ولا ريب في ان مكيافلي قد تأثر تأثراً عميقاً بأفكار تيتوس ليفي ، حتى إن نظرته إلى الحياة والسياسة والحرب في القرن السادس عشر ، لم تكن لتختلف كثيراً عن نظرة ذلك المؤرخ الروماني الذي حاول شرح كتابه .

وهدف مكيافلي من درس التاريخ ، هدف عملي ، بصورة

رئيسية . فهو يحاول ان يكتشف في التاريخ قوانين ذات طابع عالمي للمسبّبات والنتائج ، وإذا ما تمكن من وضع هذه القوانين بصورة صحيحة ، وهو ما يعتقد انه قد استطاعه فعلاً ، فانه يرى ان اكتشاف المسبّبات في الظروف الراهنة التي تعمل عملها منذ أمد بعيد ، يمكنه من التكهّن بالنتائج الراهنة أيضاً ، كما انه إذا ما توصل إلى نتائج معينة مع الظروف التي وجدت فيها هذه النتائج ، أمكنه على ضوء القوانين التي وضعها من اكتشاف مسبباتها ، أو محاولة هذا الاكتشاف على الاقل . ولهذا تحتّم على مكيافلي ، ان يقيم الدليل على صحة النظريات التي توصل اليها وتطبيقها عالمياً ، ولا سيما بالنسبة إلى ما تسمح به دقة المواضيع التي يعالجها . ولهذا فقد اكتشف في تاريخ ليفي سرداً مسبباً للاحداث ، أمكنه أن يستخدمه على ضوء معلوماته التاريخية العامة ، كمثال تطبيقي ، على ما يراه في حاضره . ولقد حرص على ان يستخلص في قراءته للتاريخ أو في تفكيره في الشؤون الراهنة ، العبر من الاحداث التي أثرت عليه لأهميتها ، ثم جمع هذه العبر ، ضمن النظريات التي اعتقد انهما تؤكدها . ولكنه على الغالب ، وهذا ما اعتقده ، حاول بعد ملاحظة العبر التي استخلصها من الاحداث التي يقصها ليفي ، أن يبحث في ذاكرته عن أحداث مماثلة ، أو ان يعثر عليها في كتابات مؤرخ آخر سبق له ان اطلع عليها . وأدى اسلوبه هذا على أي حال ، إلى انه سعياً منه وراء تأييد معظم القوانين المسبّبة التي وضعها والتي ادعى لها الشمول في التطبيق ، إلى اقتباس حادثة أساسية أو عدة حوادث من ليفي ، يسندها بحادث آخر مستمد من مصدر ثان ، ويشفعه بحادث ثالث يستمده من وقته الراهن . ولا ريب في ان هذا الاسلوب متفق مع مركزه ومع هدفه ، إذ انه هو السبيل الوحيد لدعم الشمول في التطبيق لافتراضاته ، واقناع قرائه بأن دراسة التاريخ ، ذات علاقة وثقى ، بالمشاكل السياسية

الراهنة ، ومحاولة حلهـا وهو ما كرس نفسه له ، كما يقول في مقدمته .

٥ ـ تعميات وقواعد

تضم « المطارحات » في أجزائها الثلاثة مائة واثنين واربعين فصلاً منها ستون في الجزء الأول وثلاثة وثلاثون في الجزء الثاني وتسعة واربعون في الجزء الثالث . ويمكن تصنيف مواضيع هذه الفصول على النحو التالي :

أ ـ عناوين تذكر الموضوع الذي يعالجه . ويبلغ عددها نحواً من ثلاثين فصلاً في المطارحات كلهـا . وهو يصل في سير الفصل إلى النظريات أو القواعد التي توصل اليها ، كقوله في الفصل السابع من كتابه الاول : « يعمل الناس اما عن حاجة أو عن رغبة منهم في العمل . ويتسع أفق الفضيلة كلما اتسع المجال لحرية الاختيار » أو كقوله في الفصل الثامن من كتابه الأول : « يجب وضع القوانين التي تعالج البطالة والكسل ، عن طريق فرض الحاجة إلى العمل » . أو كقوله في الفصل الثاني من كتابه الثاني « ان المدن لا يعظم أمرها في السلطان أو الثراء ، إلا إذا كانت مستقلة » .

ب ـ تقرير الحقائق :

يضع مكيافلي عناوين لبعض فصوله ، حقائق معروفة يقررهـا وهو يجعل منها دعائم يستند اليها في استخلاص بعض النظريات العامة ، كقوله في الفصل الحادي والعشرين من كتابه الثاني : يميل الناس في الغالب إلى القاء أنفسهم في أحضانك ، كلما حاولت ان تبدو كارهاً لذلك » أو كقوله في الفصل العشرين من كتابه

الثالث : « ان عملاً عطوفاً ورحيماً ، يترك في العادة انطباعاً أكبر في النفس ، من عمل يقوم على العنف والغلظة » . وكثيراً ما اشتملت الحقائق التي يقررها في مواضيعه ، على المسببات والنتائج في وقت واحد كقوله في الفصل الرابع من كتابه الاول : « ادى هذا الخلاف بين جماهير رومة ومجلس شيوخها إلى حرية الجمهورية وقوتها » .

ج – تعميمات تاريخية :

هناك في المطارحات نحو من اربعين مثالاً على هذه التعميمات التاريخية ومنها قوله في الفصل الثامن من كتابه الأول : « ان الوشايات والدسائس مضرة للجمهوريات بقدر ما في الاتهامات العلنية الصريحة من منافع . أو كقوله في الفصل السادس عشر من كتابه الاول : « ان الشعب إذا الف العيش في ظل أمير ، ثم تحرر بعد ذلك ، فانه سيجد من الصعب عليه الحفاظ على حريته » .

د – تعميمات نفسية :

يلجأ مكيافلي إلى استعمال التعميمات النفسية بصورة أقل ، في عناوين فصوله ، منه في نصوص هذه الفصول . فهو يقول في الفصل السابع والعشرين من كتابه الأول مثلاً : « قلما يعرف الناس كيف يكونون اما طيبين كل الطيبة أو سيئين كل السوء » . وهو يقول أيضاً في الفصل الثالث عشر من كتابه الثاني : « يرتقي الناس من مراتبهم الخفية إلى منازل الرفعة عن طريق الحيلة أكثر من طريق القوة والعنف » . ويقول كذلك في الفصل الثاني من كتابه الثالث : « من الخير أحياناً ان يتظاهر المرء بالحمق والجهل » .

هـ – القواعد :

يطلق مكيافلي أحيـاناً على قواعده اسم « المفاهيم » ، وهي تكثر

في العناوين بصورة تفوق أي شيء آخر . وقد تختلف القواعد في أشكالها ، ولكنها تتشابه في أهدافها ومراميها . وتوضح قواعده انه للوصول إلى هذه الغاية أو تلك من الغايات المفترضة لا المحدّدة ، كضمان الأمن مثلاً في امارة أو جمهورية ، أو النجاح في هذا العمل من أعمال السياسة ، يجب اتباع هذا السبيل أو عدم اتباعه ، كما توضح ما إذا كان هذا السبيل يحقق المصلحة أو لا يحققها ، أو إذا كان نافعاً أو ضاراً ، أو يستحق التقدير والثناء أو اللوم .... فهو يقول في الفصل التاسع من كتابه الاول : « من الضروري ان يكون شخص واحد مسؤولاً عن انشاء أية حكومة جديدة » ، وهو يقول في الفصل الحادي والخمسين من كتابه الأول : « على الجمهورية أو الامير ان يعملا في الظاهر بدافع الحرص والنبل ، ما تحتم عليهما الضرورة عمله » ، وهو يقول في الفصل الثامن من كتابه الثالث : « على كل من يرغب في اصلاح الجمهورية ، ان يهتم بشؤون الرعية » .

ولما كانت عناوين نحو من ستين فصلاً من المطارحات من نوع القواعد وعناوين نحو من اربعين منها من التعميمات ، ولما كانت الفصول الباقية التي جعل لها عناوين من الحقائق المقررة ، أو المواضيع ، ولكنه ضمنها قواعده وتعميماته ، فمن الواضح ان وضع القواعد والتعميمات ، جزء لا يتجزأ من اسلوب مكيافلي وطريقته ، وهذا يظهر بوضوح وجلاء في « اميره » و « مطارحاته » على حد سواء . ولا ريب في ان من خصائص اسلوب مكيافلي أيضاً ، ان تعبر القاعدة التي يضعها التصميم الذي يقرره ، عن العلاقة بين السبب والنتيجة ، أي بين الاعمال الانسانية ونتائجها من نافعة وضارة . وهكذا فان تعميمات مكيافلي وقواعده ، هي دائماً من النوع الغائي ، إذ على الرغم أحياناً من عدم ذكر « الغاية » أو « الهدف » بوضوح ، فان من السهل العثور عليها بعد القليل من التفكير في النص والرجوع اليه . وهكذا يبدو ان

مكيافلي يقصد من قوله : « ان الناس قلما يعرفون كيف يكونون أما طيبين كل الطيبة أو سيئين كل السوء » ، ان نجاح الانسان يتوقف على كونه إما طيباً كل الطيبة أو سيئاً كل السوء ، وان الخلط بين الطيبة والسوء هو الذي يهدم الساسة كما هدم جيوفامباغولو باغليوتي . وعلى هذا النحو ، فهو عندما يقول ان على الأمير أو الجمهورية ، ان يفعلا هذا أو ذاك ، أو ان لا يفعلاه ، فسانه يعني ان النجاح نصيبهما إذا ما فعلاه ، وان الكارثة إذا لم يفعلاه حالة بهما لا محالة .

وأدى موقف عدم الاكتراث الذي يبديه مكيافلي ، تجاه ما إذا كانت مطارحاته تبدأ بتعميم أو بقاعدة ، إلى اعتقاد بعض المعلقين بعدم تمييزه بينهما . وهكذا نجد ان الاستاذ هانكوك يقول في مقال كتبه تحت عنوان « مكيافلي في لباس عصري » ، ان مكيافلي يستعمل صيغة « الأمر » في المكان الذي يجب ان يستعمل فيه صيغة « الخبر » أو « الوصف » .

ولا يسعني الرضى بهذا القول الذي يتجاهل تمييزاً يقوم في الحقيقة وله أهميته واعتباره . ولا يقيم استعمال مكيافلي للتعليمات والقواعد بدون تمييز كعناوين لفصوله الدليل على أي شيء ، ذلك لأنه يستعمل أيضاً العناوين العادية ، والمواضيع ، والحقائق المقررة . ومن الحق ان يقال على أي حال ، انه يستخدم كلمة « القوانين » ، ليعرّف بها قواعده وتعميماته على حد سواء ، ولكنه يفرق على كل حال بين الحقائق المقررة والقواعد ، ويستخدم كلمة « المفاهيم » للتعبير عن قواعده . وليس من المدهش أو المستغرب على أي حال ، ان لا يلفت نظر القارئ إلى التمييز بين تعميم وقاعدة ، ذلك لأنه لا يفكر طويلاً بالاساوب الذي يستخدمه ، وكل ما يتوخاه هو ان لا يظل ما يقوله معلقاً في الهواء ، بل مستنداً إلى حقائق . وهذا هو الاسلوب الجديد . ومن واجبنا نحن ، ان نكتشف الأمر المهم بالنسبة إلى الاسلوب عن طريق درس كيفية استخدام مكيافلي له ، وإذا ما اكتشفنا ذلك ، اتضح لنا فوراً الفرق

بين التعميم والقاعدة . ومن اسهل الأمور على الانسان ان يحيل التعميم إلى قاعدة ، إذا ما وضع هدفاً له في النهاية ، ولكن هذا التحويل متعذر إلا إذا وجد الهدف ، ولما كان هدف المتآمرين مثلاً يختلف عن هدف الحكام ، أصبح في مكنة المرء استخلاص قواعد متباينة من تعميم واحد . فمثلاً ، توصل مكيافلي ، ان خطأً أو صواباً ، إلى النتيجة التي حددها بقوله « ان وجود الأحزاب يؤدي إلى اضعاف الحكومة لا إلى تقويتها » . وهذه النتيجة تعميم ، يقوم على دراسة مستفيضة للتاريخ . ولما كان من أول أهداف الحكومة ضمان سلامتها وأمنها ، أمكن فوراً تحويل هذا التعميم إلى قاعدة تقول « بوجوب عدم تأليف الاحزاب » . ولكن لما كان هدف المتآمرين اسقاط الحكومة القائمة ، فان القاعدة التي يستخلصونها من هذا التعميم لتطابق هدفهم ، هي العكس أي « وجوب تأليف الاحزاب » . ولما كان مكيافلي قد وصل في فصل « المؤامرات » من مطارحاته ، إلى تعميم ، فهو يدرس هذا التعميم من وجهتي نظر الحاكم والمتآمر ، ويصل تبعاً لذلك إلى قاعدتين مختلفتين .

وعندما يقول الاستاذ هانكوك ، ان « مكيافلي يستعمل صيغة الأمر ، وكلمتي « يجب » و « من اللازم » ، في المكان الذي تستخدم فيه صيغة الخبر أو « الوصف » ، يستند في قوله هذا إلى عبارة وردت في كتاب كروسي تقول ان « القواعد والمفاهيم التي تظهر في الكتابات الايطالية في هذا العصر ، لا تعني أكثر من مجرد ملاحظات نفسية (سيكولوجية) » . ولا ريب في انه كان يفكر ، عندما قال ما قاله ، في الاهمية الخلقية التي ترتبط عادة بكلمتي « يجب » و « من اللازم » . ولكن عندما يستعمل مكيافلي هاتين الكلمتين ، فهو لا يستخدمهما مطلقاً في معناهما الاخلاقي ، وإنما كما يستخدمهما المحامي عندما يشير على موكله بأن « عليه ان يفعل هذا » أو « ان عليه ان لا يفعل ذاك » ، فكلاهما ،

أي مكيافلي والمحامي ، بعيد عن القضايا الاخلاقية . وفي قوله بأن « هذا يجب ان يفعل » أو « ان من اللازم عدم فعل ذاك » ، انما يعني بأن من الواجب فعل ذلك الشيء أو عدم فعله ، إذا أراد المخاطب النجاح في السياسة بالنسبة إلى مكيافلي أو في القضية القانونية بالنسبة إلى المحامي . وليس من المهم عند ابداء النصح ان يقول الانسان لمن يخاطبه « ان عليك أن تفعل هذا » أو ان يقول له « ان من مصلحتك أن تفعل هذا » . ولكن في كلتا الحالتين يجب اعتبار هذه الحقيقة كقاعدة لا كوصف ، أو كحقيقة حتمية ، إذ على الرغم من حتمية شكلها ، إلا انها فرضية في واقعها ، ذلك لأن القصد منها نفع أناس يستهدفون غايات معينة ، ولأنها تفترض أن هؤلاء الناس يرغبون حقاً في الوصول إلى هذه الغايات .

وهنا يكمن موطن الخطل في رأي الاستاذ هانكوك ، الذي يعمى في خطئه عن ابصار تمييز على جانب كبير من الاهمية . فهو يتغاضى عن الحقيقة الواقعة وهي ان النصيحة تقوم على تجربة ، ويمكن وصفها بحقائق حتمية وتلخيصها بتعميمات ، وهو قادر على التمييز بين المعرفة الناتجة عن هذه الطريقة وبين استخدامنا لها ، في معرض النصيحة ، مع وجود غاية متوخاة . وقبل اسداء النصيحة بصورة مجدية ونافعة ، من الضروري أن يعرف المرء النتائج التي قد تنجم عن اتباع سبيل معين من العمل . وهنا تقوم مرحلة التعميم ، اذ عن طريق هذه التعميمات تشكل معرفتنا ان صواباً وإن خطأً ، وفق مقتضيات الظروف . ويفترض اسداؤنا النصح ، اننا نعرف شيئاً أكثر من هذا ، واعني به النتائج التي يرغب الشخص الذي ننصحه في تحقيقها عن طريق أعماله ، أو التي يرغب في الحيلولة دون وقوعها . وهنا تقوم مرحلة القواعد ، إذ عن طريقها يمكن اسداء النصح ، بعد أن نكون قد وضعنا التعميم ، وعرفنا الغاية من العمل . وعندما يحث مكيافلي الساسة على دراسة الماضي ،

كما يفعل دائماً ، فانه يضع نصب عينه ، امكان الوصول إلى التعميمات . وعندما يقارن بين الماضي والحاضر ، فانه يفعل ذلك لا لمجرد تأكيد تعمياته ، وانما بقصد اسداء النصح إلى الساسة في هذا الشأن أو ذاك من شؤون الحياة ، مع وجود هذه الغاية أو تلك ، وفيما يجب أن يفعلوه لتحقيقها ، مهما كانت ، وقد استعملت كلمتي « مهما كانت » ، لأن مكيافلي ، في الحقيقة ، لا يقصر نصائحه على الجمهوريات بل يسديها أيضاً إلى الامراء ، ولا يقدمها إلى من هم في الحكم فحسب ، بل إلى من يرغبون في الوصول اليه أيضاً ، ولا يسديها إلى اولئك الراغبين في الحفاظ على عهد قائم فحسب ، بل إلى اولئك التواقين إلى قلب ذلك العهد أيضاً . وهو يقوم بهذا من ناحية مبدئية ، إذ لما كانت هذه الغايات قد وجدت كثيراً في الماضي ، فان في الامكان ان يكتشف المرء عن طريق دراسة الماضي ، ما يساعد على تحقيق هذه الغايات وما يحول دون تحقيقها أو يؤخره أيضاً . وهو لا يتقدم بالنصيحة إلى الطغاة لأنه يحب الطغيان . فقد أوضح أكثر من مرة ، انه يكرهه ويزدريه . وهو لا يسدي مشورته إلى المتآمرين لأنه يؤيد المؤامرات ، فلقد أوضح في أكثر من مكان صعوبة تخطيط المؤامرات واستحالة النجاح فيها ، ولكنه يتقدم بنصائحه إلى الجميع ، على اختلاف فئاتهم لأنه يرغب في اقناع قرائه بشمول ما في اسلوبه من تطبيق .

وهناك نقطتان اخريان في اسلوب مكيافلي ، يجدر بي ان الفت انتباه القراء اليهما . فهو يدرك تمام الادراك ، أن في الامكان ان يخطئ الانسان في وضع التعميمات وصياغتها ،وهو يعترف في الفقرة الاستهلالية من مقدمة الجزء الأول من « مطارحاته » ، ان الطريقة الجديدة التي يتبعها ، «مليئة بالمتاعب والمشاق » ، ثم يستطرد قائلاً : « وإذا قدر لامكانياتي المتواضعة ، وتجاربي المحدودة في الشؤون الدائرة ، ومعرفتي الضئيلة بالماضي ، ان تجعل من جهودي ، غير كاملة ، ولا قيمة كبيرة لها ،

فان هذه الجهود على أي حال، ستمهد السبيل أمام انسان آخر ، يمتاز بامكانيات أضخم ، وبالبلاغة وسلامة التقدير ، لتحقيق ما عجزت أنا عن الوصول اليه » . وليس ثمة ما يدعونا إلى الافتراض بأن مكيافلي لم يكن صادقاً في ملاحظته هذه . وعندما كان في منصبه الرسمي ، اقترف أخطاء كثيرة ، اعترف بهـا في الكلمة التي اهدى فيهـا « مطارحاته » إلى صديقيه الصدوقين . ولم يكن في تقاريره أكثر صواباً في التكهن بالاحداث من تقارير رجال البندقية . ولهذا فقد أقدم عـلى عمل « مليء بالمتاعب والمشاق » ، وهو يعرف هذا تمام المعرفة . ولهذا فهو في افتراضه ان مؤلفه يحتاج إلى اعادة النظر ، كان يعني تماما مـا يقول . والمشكلة الحقيقية ، ان أحداً لم يقدم على اعادة النظر في مؤلفه .

وتتعلق النقطة الأخرى بنفس الصعوبة ، ففي بناء التعميمات المستندة إلى احداث التاريخ كلها ، كثيراً ما يحدث ، ان تغيب عن الذهن حادثة لا تتفق مع هذا التعميم ، بل قد تتناقض معه تناقضاً صارخاً . ولم يكن مكيافلي كثير العناية بهذه الناحية ، كما يجب ان يكون ، ولكنه يعترف على كل حال ، باهمية « الامثلة السلبية » وعندما يمر بمثل هـذه الأمثلة أو يصدمه بها الآخرون ، يعني كثيراً بالاستقصاء ، عما إذا كانت هذه الأمثلة متفقة أو غير متفقة مع التعميمات التي توصل اليها . ولكن من واجبنا ان نعترف على أي حال ، بأن هذه « الأمثلة السلبية » التي يعالجها ، قد جاءت مترابطة مع آراء الآخرين الذين خالفوه في آرائه .

٦ ـ الحاجة والحظ

وعندما يقال كل ما يمكن أن يقال ، عما يجب أن يفعله الانسان لاستحداث الوقائع أو لمنع وقوعها ، في ملكوت السياسة ، تبقى هناك

مجموعة ضخمة من الاحداث ، التي لا يكون في وسع الانسان التحكم فيها ، أو حتى التكهن بوقوعها . وتثور قضيتان بالنسبة إلى هـذه الاحداث ، يكون لدى مكيافلي الكثير مما يقوله بصددها . وهاتـان القضيتان هما (أولاً) إلى أي مدى تتحكم هذه الاحداث بأعمـال الانسان السياسية وتقررها و (ثانياً) ، إلى أي سبب يمكن أن تعزى هذه الاحداث ؟

ويستعمل مكيافلي في كتابيه « المطارحات » و « الامير » ، بالنسبة إلى القضية الاولى عبارة « يجب » أو « من الضروري » ، وإذا ما تعمقنا بعناية في درس محتوى هاتين العبارتين ، وجدنا انهما تعنيان لديه الضرورة المطلقة ، بل الضرورة الفرضية ، أي الضرورة التي تنشأ ، عند البحث في قاعدة ، من افتراض وجود هدف معين لدى الانسان ، وهو لا يتحدث عن الضرورة المادية البدنية ، أي الاسباب التي لا يمكن لها الا أن تؤدي إلى نتيجة معينة ، ولا الحوافز التي يستحيل عليها ان تسيطر عليها . وهو يفكر في قضايا لا يكون المجال فسيحاً فيها إلا إلى سبيل واحد ، بالنسبة إلى الفرد أو الدولة ، إلا إذا كانت الدولة أو الفرد على استعداد لاقتراف ما يمكن ان يدعى بالسبيل الانتحاري ، وذلك في معرض القياس مع الحالات التي يتوافر فيها سبيلان ، يستطيع المرء ان يختار بينهما ويفضل أحدهما .

ففي كتاب « المطارحات » كثيراً ما يلجأ مكيافلي الى استعمال تعبير « من الضروري » . فهو يقول في الفصل السابع عشر من الجزء الأول ما يلي : « ويعمل الناس إما عن حاجة أو بمحض اختيارهم . وهم يحسنون العمل ، كلما تضاءلت حريتهم في الاختيار ، كأن يعملوا مثلاً في أرض قاحلة ، حيث يجب عليهم ان يعملوا ليحصلوا على الأود » . وكثيراً ما يمضي مكيافلي بعيداً في هذا المعنى فيقول في الفصل الثالث من كتابه الأول ان « الناس لا يتقنون ما يعملونه ، إلا اذا ساقتهم الحاجة

إلى ذلك » وهو يعني بذلك « الجوع والعوز » . فالبديل عن الاتقان في العمل هو الموت جوعاً أو التعرض للعقاب ، وهو ما يود كل انسان تجنبه . و « تجبر الدول بصورة مماثلة بدافع الضرورة » على تبني سياسة حكيمة أو حمقاء ، وعلى اقامة تنظيم طيب أو سيء . ولم يكن هناك بد لرومة ، مثلاً في الغلظة في معاملة بعض مواطنيها بعد طرد الترقونيين (Tarquins) (١) ، طالما كان ثمة خطر من احتمال عودتهم ، ولا ريب في ان ما اظهرته اثينا من نكران الجميل لمواطنيها ، كان يعود إلى أسباب مماثلة . وهكذا كانت « الضرورة هي التي ارغمت الرومان على اهمال المنبت في تعيين القناصل ،وغيرهم من ذوي المناصب الهامة ، إذ لا يتوقع المرء من الفتيان أو من أي رجال ، ان يخدموا الدولة في ظروف شاقة ، الا إذا تلقوا مكافآت على خدماتهم . ويمضي فيقول في الفصل الثاني والعشرين من كتابه الثاني ان « الرومانيين بدافع الضرورة وعندما ساءت الاوضاع عندهم ، ارغموا على العودة إلى اولئك الذين تجاهلوهم في أيام السلم والرخاء . » كما يقول في الفصل التاسع عشر من كتابه الثاني أيضاً ، ان « المقاطعات السويسرية اضطرت إلى عقد حلف بينها عندما هاجمها دوقا النمسا وبورغنديا » .

وهناك بعض الفقرات التي تشير إلى ان الضرورة التي تقرر العمل تنشأ في بعض الحوافز والمعتقدات ، فالحاجة التي دفعت مثلاً هانيبال (٢)

١ اسم يطلق على ملوك رومة الاوائل بالنسبة إلى ملكيها الخامس والسابع ، فقد كان الأول يدعى لوشيوس تاركوينوس (٦١٦ – ٥٧٩) ق. م. ، وكان ملكاً محبوباً من شعبه لحكمته وشجاعته وثانيهما يدعى لوشيوس تاركوينوس أيضاً (٥٣٤ – ٥١٠) ق. م. وهو آخر ملوك رومة . فقد طرده الشعب الروماني بسبب اعتداء ولده على لوكريشيا . – المعرب –

١ هانيبال (٢٤٧ – ١٨٣) ق. م. قائد قرطاجنة المشهور وابن قائدها هاميلكار . أقسم وهو في التاسعة من عمره على عداء رومة الدائم . تولى قيادة الحرب البونية الثانية واجتاح اسبانيا وجنوب فرنسا ومعظم أنحاء ايطاليا ، ولكنه هزم أخيراً في معركة زاما في افريقيا عام (٢٠١) . نفي إلى الشرق . وأخيراً وقع في أيدي الرومان فانتحر . يعتبر من أعظم القادة العسكريين في التاريخ . – المعرب –

إلى القتال حتى النهاية ، قـد نجمت من اعتقاده ، بأن من الأمجد له ان يقهر بقوة السلاح ، على ان يستسلم طواعية واختياراً (المطارحات ، الكتاب الثالث ، الفصل العاشر). وهكذا فان الحاجة التي ترغم الرجال على العمل في اتجاه معين ، تعود إلى الاحداث التي لا تدع مجالاً أمامهم للاختيار ، إلا إذا آثروا الخراب والكوارث والعار والزوال كلية .

ويعزو مكيافلي في « مطارحاته » وفي « اميره » على حد سواء ، الاحداث التي لا سيطرة للانسان عليها ، أما إلى الحظ أو إلى عمـل السماء ، وهو كثيراً ما يستعمل هذين التعبيرين . والتعبير الفني للحادث الذي لا سيطرة لنا عليه هو « الحادث العارض » . وكثيراً ما يعني هذا التعبير مصيبة أو نازلة ، ويرى مكيافلي ان الدور الذي تلعبه مثل هذه الاحداث في تطور الدول ونموها ، كبير الاهمية . وهناك فصل خاص في كل من « المطارحات » و « الامير » ، يعـالج الطريقة التي يعمل فيها الحظ ، كما ان هناك فصلاً في « المطارحات » يبحث فيما « إذا كانت الفضيلة أو الحظ ، السبب الرئيسي في حصول رومة على امبراطوريتها » . وهناك فصل آخر في المطارحات عنوانه « قبل أن تحل الكوارث الضخمة بمدينة من المدن أو مقاطعة من المقاطعات ، تقع انذارات سابقـة أو تكهنات يتقدم بها الناس » . ومن المحتمل ان يكون هذا القول ، هو الذي دفع بيرد ، إلى الاعتقاد بأن مكيافلي كان متأثراً في آرائه عن الحظ ، بالاعتقادات الفلكية السائدة . ولكنني لم أجد أي دليل آخر ، يسند هذا الرأي سوى هذه العبارة . وكل ما يقوله مكيافلي في أماكن أخرى ، هو ان خمسين في المائة من أعمال الناس تنبثق من ارادتهم الحرة ، أما الخمسون الباقية ، فتقررها ظروف تتعدى سيطرتهم . ويمضي بعد ذلك فيقارن الحظ ، بالنهر الهائج ، الذي لا يستطيع المرء مقاومته أثناء فيضانه ، ولكن بعد انحسار الفيضان ، وحلول الطقس الحسن ، يستطيع الناس مقاومته عن طريق اقامة السدود والتحصينات

الدفاعية . ويلقى الذين يعتمدون على الحظ وحده الدمار عادة ، إذ انه معرّض للتبدل والتقلّب ، أما اولئك الذين يكيفون أنفسهم للوقت ، فقد ينجحون ، إذ كثيراً ما تكون هناك سبل عدة تؤدي إلى نفس الغاية أو النتيجة .

ولا ريب في ان مكيافلي عندما يضع عنواناً للفصل التاسع والعشرين من كتابه الثاني ، العبارة التالية : « ان الحظ يطمس على عقول الناس، عندما لا يريد منهم الوقوف في طريق مشاريعه » ، كان يستند في قوله إلى الحقائق التي لاحظها ، « فكثير من الاحداث تقع ، وكثير من النوازل يحل ، دون ان يكون المرء قد أخذ أهبته لمواجهتها » . وكثيراً ما تؤدي بعض الاحداث التي لا مسؤولية لنا فيها ، إما إلى النجاح أو إلى الفشل . يضاف إلى هذا ان مكيافلي ، قد اقتبس العنوان السابق من تاريخ ليفي الذي يستند في حديثه إلى ما وقع في رومة عندما احتلها الغاليون عام ٣١٠ قبل الميلاد .

وإذا قبلنا الحقائق كما وضعها ليفي في كتابه الخامس ، تبيّن لنا ان الاحداث قد وقعت بحيث جاءت لرومة بالكارثة أولاً ثم عادت فالتقطتها من سقطتها ، ولم يكن للرومانيين في كلتا الحالتين أي دخل في تخطيط الاحداث أو ترتيب وقوعها . ويعزو ليفي ما وقع برومة من عقاب ، ثم استفاقتها إلى « الآلهة » ، بينما يؤثر مكيافلي ان يعزوه إلى الحظ ، الذي قرر أولاً « ضرورة معاقبة رومة ، ثم رأى ان لا حاجة إلى دمارها الكلي ، فأعد الامور بحيث تمهد لها سبيل اقالتها من عثرتها » . ولكن مهما كان الاسم الذي يطلق على مسببات هذه الاحداث التي تتعدى حدود سيطرتنا ، فمن الواضح ان مكيافلي كان يدرك ان هذه المسببات كانت تعمل عن قصد وغاية .

ولم يكن هذا هو المكان الوحيد الذي اعترف فيه مكيافلي بفرضية الاحداث . فهو يتحدث في أماكن كثيرة ، عن طراز من الامارات

يسميه « بالامارات الكنسية » . والتعميات والقواعد التي وضعها للامارات الاخرى ، لا تنطبق على هذا الطراز الذي لا يستطيع المرء قياس مدى قوته بالطرق العـادية ، ذلك لأنه يعتمد على منظمات دينية عريقـة ، انقضى عليها عهد طويل وهي في أوج سلطانها ، وهي من النوع الذي يحتفظ بالقائمين على الأمر فيه ، مهما كان اسلوبهم في الحكم ، أو كانت طريقتهم في الحياة . فلهؤلاء الحكام دول ، لا يتحتم عليهم الدفاع عنها ، ولهم رعايا ولكنهم لا يحكمونهم . ومع ذلك فان هذه الدول لا تخرج على طاعتهم ، لأنها تركت مفتقرة إلى الحماية ، كما ان رعاياهم لا يكترثون بما يرونه في حكمهم من استرخاء ، وليس لديهم القدرة أو حتى الرغبة في استبدال هذا الحكم بآخر ، ولذا فهذه الامارات وحدها هي الآمنة ، وهي السعيدة . ولكنه لا يود الافاضة في الحديث عنها ، لأن بقاءها متوقف على أمور تسمو على العقل الانساني وهي من عمل الالـه .

وإذا ما درسنا الادلة التي يستنبطها مكيافلي دعماً لاعتقاداته في العمل المقصود للحظ ، وفي اشارته التي أوردناها الآن لله ، أمكننا أن نحكم إذا كان مكيافلي حقاً يؤمن بوجود الله . ولقد اتهم مراراً وتكراراً ، بأنه من المنكرين لوجود الله ، ولكنني لم أر دليلاً في جميع كتبه يقوم على إلحاده . وقد وجدت أدلة عديدة في كتبه على وثنيته ، ولكن الوثني قد لا يكون بحكم الضرورة ملحداً . ولم تكن الاكاديمية ، الافلاطونية في فلورنسة كافرة وملحدة ، وإنما كان هدفها خلق نوع من التنسيق والانسجام بين روحانية الماضي وبين النصرانية ، وهكذا شكلت كما قال بيركهارد (Burchardt) (١) « واحة بارزة في انسانية العصر . ولقد

١ يعقوب بيركهارد (١٨١٨ – ١٨٩٧) كاتب ومؤرخ سويسري اشتهر بما كتبه عن عصر النهضة في ايطاليا . درس في برلين وبون . وضع عدة كتب في الألمانية عن الثقافة والفن في عصر النهضة . وقد ذكر ان الاصلاح الديني قد فرض على البابوات اصلاح الأوضاع في ايطاليا ، ومن كتبه « حضارة النهضة في ايطاليا » . – المعرب –

كانت هذه الانسانية في الحقيقة وثنية ، واتضحت ميولها هــذه أكثر وأكثر ، عندما اتسعت آفاقها في القرن الخامس عشر . وكان ممثلوهــا الذين وصفناهم بأنهم الحرس الأمامي للفردية الجموح ، التي لم يتم تطبيعها بعد ، يظهرون كقاعدة ، طرازاً من الخلق ، تغدو فيه ديانتهم التي تحدثنا عنها قضية غير ذات بال بالنسبة اليهم . وقد حصلوا بسهولة على لقب الملحدين ، لأنهم كانوا يبدون غير آبهين بالدين ، ويتحرون في أحاديثهم عن الكنيسة ، ولكن أياً منهم لم يعلن ، ولم يجروْ أن يعلن أية إلحادية فلسفية رسمية » (١) . ولا ريب في ان معالجة مكيافلي للحظ ، تتفق تمامـاً مـع هذه الروحية ، فهي وثنية وفردية في آن واحد . وهو يستند في أقواله إلى ليفي ، ولكنه في تطويره لآراء ليفي ، يضع لنفسه خطة يسير عليها ، ويصل عن طريق هـذا الاسلوب إلى النتيجة القـائلة ، بأن العناية الالهية تسهر على حياة الافراد وتقـدم الشعوب ، وسير الكنيسة ، فتؤيد أعمال الناس أحياناً ، وتعكسها أحياناً أخرى ، وتسهل لهم مصالحهم مرات بشكل لم يكونوا يتوقعونه ، أو قد خططوا له ، وتضع العراقيل في طريقهم كرات أخرى ، بحيث يتطلب التغلب عليهم ، توافر الفضيلة لديهم . وتبدو لي جميع هــذه النقاط في غاية الاهمية ، ذلك لأن عبارة « الله » في الحديث عـن « الامارات الكنسية » لا يعني إلا تعبير والوثني الآخر « الحظ » أو « السماء » الذي ورد في معظم أنحاء كتبه .

٧ ـ الطريقة الحديثة وادعاء الابتكار

يقارن مكيافلي في كتابه « الامير » بين طريقته وطرائق الآخرين من

١ كتاب حضارة النهضة في ايطاليا – الطبعة الثالثة ، ص ٤٩٩ – المؤلف .

الناس ، فيقول انها (اولاً) تهتم ببساطة ، باكتشاف الحقيقة ليس إلا ، لا باقامة جمهوريات وأمارات مثالية ، من النوع الذي لا يصادفه الانسان في حياته العامة ، وانها (ثانياً) لا تهتم بما يقوله علماء الاخلاق عمّا يجب فعله ، بل بما يعمل حقاً ، وبما يفعله الامراء بصورة خاصة للحفاظ على وجودهم وكيانهم . ويضيف إلى هاتين الملاحظتين قوله على سبيل التحذير ، انه إذا كان الحفاظ على الوجود هو الهدف من علم السياسة ، فان المفاهيم التي يضمنها طريقته تختلف فيما تؤدي اليه ، عن مفاهيم دعاة الاخلاق ، وتتعارض معها أحياناً » .

ولا ريب في ان مكيافلي ، كان يضع « افلاطون » في قائمة الذين قد يختلف معهم في الرأي في هذا الموضوع . بالاضافة إلى عدد آخر من رجال الفكر من أمثال دانتي (١) وارسطو (٢) والقديس توما الاكويني (٣) . وفي كتابه المطارحات ، نجد ادعاءً مذهلاً ، فهو يقول في مقدمة الجزء الأول منه ما يلي : «لقد قررت الدخول في طريقة جديدة ، لم يسبق لأي انسان السير فيها من قبل » . وهي ولا ريب طريقة محفوفة بالاخطار « بحثاً عن أعماق جديدة ، ومجاهل غير معروفة ، وذلك لأن عامة الجنس البشري ميالة إلى التقليل من أعمال الآخرين لا إلى تمجيدها والثناء عليها » . وفي هذه الحالة ، يمكننا ان نضيف إلى قائمة « الآخرين » ، جميع الذين كتبوا في السياسة ، قبل التاريخ الذي عكف فيه مكيافلي على وضع كتبه أي بين عامي ١٥١٣

١ دانتي اليجيري (١٢٦٥ – ١٣٢١ ميلادية) . شاعر ايطاليا الكبير ، ولد في فلورنسه . اشهر كتبه « الكوميديا الالهية » الذي يعتبر دعامة من دعائم الأدب العالمي .

٢ اشهر فلاسفة اليونان قاطبة ، وقد عاش بين عامي ٣٨٤ و ٣٢٢ قبل الميلاد . وكان افلاطون من طلابه . ويلقبه البعض بالمعلم الأول .

٣ توما الاكويني (١٢٢٦ – ١٢٧٤ ميلادية) ، من أشهر علماء اللاهوت في القرون الوسطى . عاش على مقربة من نابولي في ايطاليا ، ثم ارتحل إلى فرنسا . ويعتبر من أهم المراجع في اللاهوت الكاثوليكي حتى يومنا هذا . – المعرب –

و ١٥١٨ ميلادية .

ويبدأ جميع الذين بحثوا عادة في ادعاء مكيافلي ، بأن طريقته في البحث جديدة ، باستعراض الطرق التي اتبعها الآخرون من اسلافه البارزين ، ثم يستطردون إلى القول ، بأن طريقته كانت بالفعل مغايرة لطرائقهم . وهكذا نجد ان بيرنهام (Burnham) ، في كتابه : « المكيافيليون » يشرح بشيء من الاسهاب والافاضة الطريقة التي استعملها دانتي ، ثم يظهر ان طريقة مكيافلي تختلف اختلافاً كلياً وجذرياً عنها . وبالنظر إلى ادعاء مكيافلي بأن طريقته تشبه في جدتها اكتشاف كولمبس لاميركا ، وإلى قوله بأن أياً من اسلافه لم يسبق له السير فيها من قبل ، فان الاسلوب المألوف في التحقيق من صحة ادعاء مكيافلي ، هو في رأيي ، متعب للغاية . ولهذا فسألجأ إلى اسلوب مغاير تماماً . ولذا فسأبدأ بتلخيص المظاهر الاساسية للطريقة الجديدة كما يستعملها هو ، في سلسلة من ستة افتراضات ، يؤلف كل منها افتراضاً مغايراً .

وتتألف الطريقة التي اتبعها مكيافلي بصورة رئيسية من النقاط التالية :

(١) — العودة إلى التاريخ بحثاً عن حادثة قد يتكرر وقوعها ، كسلوك أي حاكم أو حكومة أو منظمة أو فرد ، واستقصاء نتائجها من حسنة وسيئة ، وذلك بالنسبة إلى علاقتها بالشخص أو الاشخاص أو الدولة ، أو بابراز نتيجة معينة ووضعها أمام الحاكم أو الحكومة أو المؤسسة أو الفرد ، سواء أكانت نافعة أو ضارة ، ثم استقصاء سير السلوك الذي أدى إلى وقوع هذه النتيجة .

(٢) — الاستقصاء عما إذا كان قد وقع حادث مماثل في التاريخ للحادث المشار اليه ، والاهتمام به بصورة خاصة إذا كان قد وقع في العصور الحديثة .

(٣) — وضع تعميم في حالة تكرر ذلك الحادث يقول ان حادث (س) يؤدي دائماً أو على الغالب ، أو في معظم

الاحايين إلى النتيجة (ص) .

(٤) – الاستقصاء عما إذا كانت هناك أمثلة سلبية تناقض هـذا التعميم ، كايجاد المسببات ، دون أن تكون لها عين النتائج ، وفي حالة العثور على مثال من هذا النوع ، القيام بدرسه ، لاكتشاف ما إذا كان حادثاً سلبياً أصيلاً ، أو انه سلبي في الظاهر ليس إلا .

(٥) – البحث عما إذا كانت النتيجة من النوع المرغوب فيه أو الكريه بالنسبة إلى الحاكم أو الحكومة أو المنظمة أو الفرد أو مجموعة الافراد من ذوي الميول والاذواق المتشابهة ، ووضع قاعدة ، لتحديد نوع السلوك الذي يجب أن يتبع في حالة كون النتيجة من النوع المرغوب فيه ، أو السلوك الذي يجب ان يتجنبه الانسان ، إذا كانت النتيجـة كريهة .

(٦) – عندما ينظر إلى مفاهيم الاخلاقيين من وجهة نظر حكميّة غير متحيزة ، يمكن الحكم عليها ، على ضوء نتائجها ، تماماً كما يحكم على أية منظمة أو عادة أو مألوف . وإذا ما ثبت ان النتائج ضارة من الناحية السياسية ، يجب ابراز ذلك ، مخافة ان يتبع الحكام ، احتراماً منهم لآراء الاخلاقيين سيراً من السلوك ينتهي إلى كارثة سياسية .

واعتقد ان هذه الافتراضات الستة تلخص تمام التلخيص وبدقـة متناهية ، الخصائص البارزة للطريقة التي يتبعها مكيافلي ، ولا يعترض على الخمسة الأولى منها إلا اولئك الذين ينكرون افتراض مكيافلي الاساسي وهو ان التاريخ يعيد نفسه ، والذين يرون أن الاوضاع هي من التعقيد ، بحيث لا يستطيع المرء الوصول إلى أية قواعد عامـة ، ذات قيمة عملية ، عن طريق مقارنة إحدى النتائج المسبّبة بنتيجـة أخرى . لكن القاعدة الاساسية لا تتجزأ عن الموقف الذي اتخذه مكيافلي فهناك أمثلة عدة على درس مكيافلي لبعض المفاهيم الاخلاقية واعلانـه ضررها من النـاحية السياسية . وقد ثبت فيما بعد خطأ مكيافلي في

ذلك ، ولكنني اقصر حديثي الآن على الطريقة التي استخدمها ، لا على النتائج التي وصل اليها . فهو يعالج المفاهيم الاخلاقية على اعتبار انها مدلولات ، يمكن درسها على ضوء نتائجها . وقد أوصله درسه هذا إلى الاستخلاص القائل ، بأنه في ظل بعض الظروف يؤدي اتباع هذه المفاهيم ، إلى اضرار سياسية بالغة . وإذا ما درسنا على الفور النتائج الآنية والبعيدة ، لاتباع هذه المفاهيم أو عدم اتباعها ، لا من وجهة نظر الفرد وحده ، بل من وجهة نظر العالم في مجموعة ، تبين لنا ، كما انا واثق ، ان ليس ثمة تعارض في الحقيقة بين المصلحة وبين المفاهيم الاخلاقية . وهنا يخطئ مكيافلي ، كما يرى كافة الاخلاقيين والعقلاء من الناس . ولكن خطأه لا يكون في اثارته للسؤال ، وهو في منتهى الاهمية والفائدة ، بل في الرد الذي يجيب به على هذا السؤال .

وعلينا الآن ، أن نبحث فيما إذا كان أي من اسلاف مكيافلي ، قد استعمل هذه الطريقة في مجموعها ، وفي نقاطها الست التي لا يمكن تجزئتها . فالتعميمات والقواعد ، موجودة في كتب جميع من ألفوا في السياسة في العصور الوسطى . وكان القديس توما الاكويني ، أكثر اهتماماً بالامثلة السلبية من مكيافلي ، الذي يمكن اعتباره مبتدئاً في هذا الميدان . وتعتمد الطريقة التي يتبعها الاكويني في كتابه « ملخص الدين » وهو الكتاب الذي يعالج فيه شؤون الدين والفلسفة والسياسة ، في جوهرها ، على وضع النظريات ، وايراد الاعتراضات عليها ، ثم اثبات النظريات ، والرد على الاعتراضات ، ولكن الاكويني وغيره من مفكري القرون الوسطى ، لم يلجأوا إلى الحكم على قيمة النهج السياسي والمنظمات السياسية على ضوء نتائجها ، كما انهم لم يقيموا الدليل على صحة نظرياتهم ، بايراد أمثلة مشابهة مستقاة من التاريخ معاصره وقديمه . وهم في الوقت نفسه لا يتنكبون طريق الاستشهاد بالحجج الدينية ، أو كتب الاناجيل ، أو المفاهيم الاخلاقية المقررة .

وللتمثيل على الطريقة المتبعة ، أرى ان نأخذ موضوعاً طالما بحثه كتاب السياسة في القرون الوسطى ، وهو ما إذا كان من الخير للمدينة و المقاطعة أن يحكمها فرد ، أو مجموعة من الناس . يقول الاكويني في أحد كتبه : « ان خير المجتمع وسلامته ، يقومان في الحفاظ على وحدته ، أي في الحفاظ على السلم ، تختفي بدونه قيمة الحيـــاة الاجتماعية . ومن الواضح ان في مكنة الفرد الحاكم ، ان يفـرض الوحدة ، أكثر من الكثرة الحاكمة ، تماماً كأن يكون مسبب الحرارة حاراً في حد ذاته . ولذا فحكم الفرد أكثر صلاحاً من حكم المجموع .. وهذا ما تؤيده التجربة ، ذلك لأن المقاطعات والمدن ، التي لا يحكمها فرد تكون فريسة للمنـازعات ، ولا يسودها السلام ، بل يسيطر عليها القلق كالامواج المتعاقبة ، وهذا يؤيد ما قاله ارميا في اصحاحه الثاني عشر » .

ويقول دانتي في كتابه الملكية : « عندما يعيّن أكثر من شخص واحد لهدف واحد ، يجب أن يكون أحدهم حاكماً أو موجهاً ، وان يكون الآخرون محكومين أو موجهين . وهذا ما يؤيده المعلم الاكبر (ارسطو) ، وتنصره الحجج القوية . فعندما يوكل إلى جميع حواس الانسان بالعمل لشيء واحد ، فان حاسته العقلية يجب أن تتحكم وتوجه الحواس الاخرى . وفي العائلة يجب أن يكون هناك واحد يحكم ويوجه ، وهو ربها . وإذا ما طبقنا الأمر على مقاطعة ، تبيّن لنا ، ان واحداً يجب أن يحكمها وان يوجه الآخرين ، إذ عندما يحاول الكثيرون البروز ، يلحق الدمار بالمقاطعة كلها . وهكذا فان مصير كل مملكة تتجزأ عـلى نفسها إلى الخراب . وعلى هذا ، إذا صح ما قلناه بالنسبة إلى هذه الحالات كلها . وفي كل حالة مماثلة ، يكون الهدف فيها واحداً ، فان الافتراض الذي أوردناه يكون صحيحاً دائماً » .

ويدافع مارسيليوس البادوي ، عن نظرية الحاكم الفرد فيقول :

« حتى ولو كان افراد جماعة الحكم ، كلهم عادلين ، وكان أحدهم يشاور الآخر فان ادارتهم ستكون ناقصة ومشلولة ، فالأوامر المتعارضة قد تصدر عنهم ، والخلافات والتحريات قد تنشأ ، وستكون الجماعية نافلة وغير لازمة ، وستفتقر الدولة إلى الوحدة ، ولهذا يتحتم وجود حاكم أعلى لاسباب عقلية وعملية » . ولا ريب في ان هناك أوجهاً للشبه بين مكيافلي ومارسيليوس . ولكن هذا على الرغم من وضعه لقواعد عامة ، لا يقيم الدليل على صحتها بالامثلة التي يوردها ، بل يستشهد عليها بفقرات من ارسطو .

وليس ثمة إلا كاتب واحد ، كما أعرف ، يستشهد بالامثلة التاريخية ويوردها متوالية ، لشرح عين الموضوع ، وهو فاليريوس مكسيموس ، الذي اتبع عين هذه الطريقة في كتبه التسعة التي أهداها إلى الامبراطور تايبريوس . وتشرح أمثلة السلوك الانساني في مختلف فضائله ورذائله وخصائصه الاخرى ، التي أظهر مكيافلي اهتماماً واسعاً بها كشؤون الدين والقضاء والتنظيم العسكري والانضباط والاعتراف بالجميل ونكرانه ، والقسوة ، والميل إلى المجد والوحشية ، والغضب والكراهية والغدر والتهور . وقد يكون صحيحاً ما يقال ، من أن مكيافلي قد اقتبس عن فاليريوس ، فكرة الاستشهاد بالامثلة التاريخية بصورة منظمة ، ولكن بينما يستعمل فاليريوس أمثلته وهي أكثر من أمثلة مكيافلي عدداً ، في شرح الطبائع البشرية ، نرى هذا يستخدمها في شرح الافتراضات المتعلقة بالمسببات السياسية ونتائجها ، وهو أمر مختلف كل الاختلاف . وقيل أيضاً ان كتاب « الحياة المتوازية » لبلوتارك ، هو مصدر محتمل آخر ، للطريقة التي اتبعها مكيافلي ، ولكني أشك في صحة هذا القول تماماً . وكل ما يفعله بلوتارك ، هو ان يقص علينا حياتين ، وان يشير بعد ذلك إلى الخصائص المشتركة فيهما .

وإذا ما انتقلنا الآن إلى أعظم كاتبين من كتاب السياسة عند الاغريق ،

نرى ان طريقة افلاطون ، تختلف اختلافاً واضحاً ، عن طريقة مكيافلي ، ذلك لأنه يقيم جمهورية مثالية « يرسمها على لوحة بيضاء » ، ويقيم فكرة الاخلاقية والسياسية لا على أساس التجارب الحسية ، وانما على أساس تجارب تمتّ إلى نظام أرفع ، يزعم هو ، ان في وسع أي انسان الوصول اليه ، إذا شاء الاذعان إلى الانضباط المشترط في هذا النظام . أما بالنسبة إلى ارسطو ، من الناحية الاخرى ، فليست ثمة أفكار مشتركة فقط بين الرجلين ، بل هناك تشابه أيضاً في الطريقة ، وقد يكون هذا التشابه احياناً بارزاً كل البروز . وتعتمد نظرياتهما السياسية معاً على قاعدة حكيمة ، ولا ريب في ان ارسطو يتفق مع مكيافلي في رأيه بأن على الدستور المبتكر الجديد ، أن لا يقوم على مجرد شكليات نظرية ، بل على أساس « دساتير توجد حقاً في الدول ذات الحكم الصالح » (كتاب السياسة لارسطو ، الجزء الثاني ، الفصل الاول) . وقد احتمل ارسطو أكبر العناء في دراسة الدساتير القائمة ومقارنة الواحد منها مع الآخر . وهناك بالاضافة إلى هذا نقطة مهمة أخرى ، تتفق فيها طريقتاهما . فارسطو في بحثه عن الثورات في الجزء الخامس من كتابه « السياسة » ، يدرس هذه الثورات كما درسها مكيافلي من مختلف وجهات النظر المتعلقة بالملوك والمستبدين وحكام القلّة (الاوليغاركي) ، والديموقراطيات ، وهي وجهات نظر تريد الأمن لنفسها ، ومن ناحية اولئك الذين يعملون على قلب أنظمة الحكم هذه . ولا ريب في ان مكيافلي مدين لارسطو بالكثير في هذا الموضوع .

ولم يقتصر فضل ارسطو على مكيافلي ، على هذه النقطة بالذات ، بل تعداها إلى نقاط أخرى ، فهو ، أي ارسطو ، في الفصل الثاني من جزئه الخامس من « السياسة » ، بعد أن يتحدث عن مختلف الوسائل التي قد يلجأ اليها « الطاغية » ، لضمان مركزه ، يمضي فيقول : « وهناك

طريقة أخرى ترتكز على مبدأ للعمل ، يختلف كل الاختلاف ، ويمكن تصوير طبيعته من المقارنة بين الاسباب التي تؤدي إلى تحطيم الملكيات . إذ لما كانت إحدى الطرق لتحطيم سلطان أي ملك من الملوك ، هو تحول هذا السلطان إلى النوع الاستبدادي ، فان « خلاص » الاستبداد ، يكون في تحوله إلى صورة تشبه إلى حد ما صورة حكم الملوك ، وعلى المستبد الطاغية ، ان يعنى بشيء واحد ، وهو الاحتفاظ بقدر كاف من السلطان لحكم رعاياه ، سواء أحبوا ذلك أو كرهوه ، إذ انه إذا تخلى عن هذا السلطان ، تخلى عن طغيانه واستبداده . ولكن على الرغم من أن السلطان ، يجب ان يكون أساساً في حكمه ، فان عليه ان يعمل ، أو يتظاهر بالعمل ، بطبيعة الملوك . فعليه مثلاً أن يدعي الاهتمام بموارد الدخل العام ، وان لا يبدو قاسياً فظاً ، بل ذا شخصية مهيبة ، حتى إذا قابله الناس ، تطلعوا اليه بعين الاجلال ، لا بعين الخوف ، ولكن من الصعب عليه ان يفرض احترامه ، إذا لم يكن ملهماً بهذا الاحترام . ولذا فان عليه ، مهما كانت الفضائل التي يهملها ، أن يحافظ على الأقل على صورة الرجل السياسي وان يوحي بالانطباع بأنه من الساسة . ولذا فعليه ان لا يعرض نفسه للاتهام بالمباذل الجنسية أمام رعاياه ، وان يكون على نقيض الطغاة الحديثين معتدلاً ، في اقباله على ملذاته ، أو على الأقل ، أن لا يعرض هذه المباذل على العالم . وعليه أيضاً أن يضفي الجمال والرونق على مدينته وان يحسنها ، وكأنه ليس بالانسان الطاغية بل الحارس المولج برعاية دولته . وعليه أيضاً ان يبدي اهتماماً خاصاً بخدمة الالهة » .

وهكذا فان ارسطو يقدم لنا قائمة طويلة بالفضائل التي يجب على الطاغية التظاهر بها . وكما ان مكيافلي يميز بين القضايا الاخلاقية ، نرى ان ارسطو يميز بينها كذلك ، ويعكف كلاهما على دراسة السبل والوسائل فقط التي تؤدي إلى النجاح . وهكذا فان الميزة السادسة لطريقة مكيافلي،

قد تكون مستوحاة من ارسطو ، على الرغم من ان هذا لا يميز عـامة بين القضايا الاخلاقية وانما يؤكدها . وعلى الرغم من انه أيضاً لا يوصي بأن يلجأ الملك إلى مثل هذا الخداع في التظاهر ، وانما يقصر ملاحظاته على الطغاة ، ومن المفروض ان يتصف الملوك بهذه الفضائل موضع البحث ، لا أن يكتفوا بالتظاهر بها .

ولكن ، إذا كانت طريقة مكيافلي تشبه إلى حد ما طريقة ارسطو ، في بعض نواحيها ، فانها تختلف عنها أيضاً في بعض النواحي البارزة . فعندما يشرع ارسطو في بحث المؤسسات والعادات التي يجب ان تتوافر في الدول الحسنة التنظيم ، لا يقبل كقاعدة عامة على اعطاء الامثـلة المحدودة التي تظهر نتيجة وجودها أو تبنيها ، وإنما يلجأ إلى استخدام الحجج العقلية الطراز ، كتلك التي استخدمها القديس توما ودانتي ومرسيليوس البادوي ، وهي حجج ، مرسومة في العادة على غرار حجج ارسطو ، او مستوحاة منها . فهو مثلاً في الفصل السادس من الكتاب الأول من « السياسة » ، يؤيد نظام الرقيق على اعتبار ان الفرق الواضح بين فئتي السادة والعبيد ، يجعل من المصلحة ومن الحق أيضاً ، ان تكون هناك هاتان الفئتان . وهو يستعيذ من النظام الملكي في الفصل الخامس عشر من كتابه الثالث على أساس ان مجموعة من النبلاء الأصيلين لا يمكن أن يخضعوا بعواطفهم لحكم الملوك ، لا سيما وان الملكية تميل بطبعها إلى اتخاذ الشكل الوراثي ، ولكنه لا يستشهد بالامثلة ، كما يفعل مكيافلي ، لشرح الطريقة التي يسلك فيها الملوك . وهو يرى ، كما يرى مكيافلي ، ان اقامة الحكم الديموقراطي أكثر سهولة من الاحتفاظ به ، ويشير إلى عيوب هذا الحكم مقترحـاً العلاجات المختلفة ، ولكنه لا يستشهد لا على هـذه العيوب ، ولا على طرق العلاج منها ، بالامثلة المحدودة . ومن المحتمل ان يكون كتاب « السياسة » لارسطو منطوياً على عدد مماثل ان لم يكن متفوقاً على عدد المفاهيم والقواعد التي يضمها

كتاب « المطارحات » لمكيافلي ، ولكن ارسطو لا يلجأ إلا نادراً ، للاستشهاد بمثل تاريخي ، ليظهر ان هذه المفاهيم والقواعد يمكن تطبيقها عملياً ، بينما يستشهد مكيافلي بالأمثلة العديدة ، ولا يكتفي بأن تكون قواعده مطابقة للعقل فحسب ، بل وللتجربة أيضاً ، من ماضية وحاضرة ليقنع قراءه بسلامة النصيحة التي يقدمها . وتختفي بيانات ارسطو وراء الألفاظ التي يفترض فينا ادراك أهميتها . أما مكيافلي ، فيضع أمامنا بوضوح على حد سواء أهمية الالفاظ والبيانات ، عن طريق رسوم قلمية يصورهـا ويشرح فيها الاحداث كما وقعت بالفعل . ويصوغ الكاتبان القواعد ، وقد وضعا نصب أعينهما تحقيق غاية أو هدف . ويتفق الرجلان على ان ما يجب على الحكام توخيه هو اقامة أمن دائم لدولة حسنة التنظيم ، لا دولة استبدادية. ولكن بينما يكتفي ارسطو بتعريف ما يعنيه بالدولة المنظمة وما يعنيه بالدولة الاستبدادية ، يؤثر مكيافلي عن طريق الرسوم القلمية ، افهام الحكام ما تعنيه كلتا الدولتين في الحقيقة ، ثم يوجه اليهم السؤال ، كأناس عاقلين ، عن الطريقة التي يؤثرون العيش فيها والحكم بموجبها . ويهتم ارسطو بالاضافة إلى هـذا بصورة رئيسية في تحليل الدساتير بينما يركز مكيافلي اهتمامه على الحركات، ولذا تجيء طريقته تاريخية على الغالب .

ولا ريب في ان اهتمام مكيافلي بالتاريخ وادراكه لاهميته بالنسبة إلى السياسي ، نجما بصورة لا تقبل الشك عن قراءته لقدماء المؤرخين من أمثال ليفي ، وتاسيتوس (**Tacitus**) (١) وبوليبيوس وثوسيديدس

١ غايوس كورنيليوس تاسيتوس (٥٥ — ١٢٠ ميلادية) . مؤرخ روماني . درس المنطق ، وأصبح من أشهر الخطباء ، قربه الامبراطور فسباسيان . تولى مناصب القنصلية وعضوية الشيوخ . وضع عدداً من الكتب التاريخية بينها كتاب عن تاريخ الامبراطورية الرومانية .

(Thncydides) (١) واكزينفون (Xenophon) (٢) وبلوتارك (Plutarch) (٣) وكو ينتوس كورتيوس روفوس (Quintus Curtius Rufus) (٤) . ولقد استقى كثيراً من آرائه عن التاريخ من اقوالهم . ولا ريب في ان مكيافلي قد قرأ كتب بوليبيوس الستة الأولى . ويقول هذا في مستهل تاريخه ان جميع من سبقوه من المؤرخين ، بدأوا كتبهم وانهوها بتقريظ دراسة التاريخ وبالتأكيد « على انه في معناه الصحيح تثقيف وتدريب على الحياة السياسية ، وان الطريقة الاكثر تثقيفاً ، بل ولعلهـا الطريقة الوحيدة ، لتعلم شرور الحظ بكرامة ، ان نستعيد ما حل بالآخرين من كوارث .... وهل في مكنة أي انسان ان يتجاهل أو يهمل معرفة الوسائل ، والطرق السياسية ، التي تمكنت بها مدينة وحيدة كرومة ، من احتلال العالم المـأهول كله تقريباً في أقل من ثلاث وخمسين سنة ، والسيطرة عليه ؟ ولاريب أيضاً في ان المعرفة المستمدة من دراسة التاريخ الصحيح ، هي أحسن وسائل التثقيف على الحياة العملية ، إذ ان التاريخ ، والتاريخ وحده ، هو السبيل الوحيد الذي يحول دون تعريضنا لأية أخطار فعلية ، لانضاج حكمنا ، وتهيئتنا لتبني وجهات النظر الصحيحة ، مهما كانت الازمات التي نواجهها ، أو اوضاع القضايا التي تقابلنا . وليس من هدف المؤرخ ان يذهل قراءه

---

١ (٤٦٤ - ٤٠٤) ق. م. مؤرخ اغريقي ، من سكان اتيكا ووالده اوزولوس . درس البلاغة و الفلسفة . كان يملك عدداً من مناجم الذهب في تراقيا . تولى قيادة اسطول أثينا وفشل فابعد من المدينة عشرين عاماً ، يقال انه قضى اغتيالا . وضع تاريخاً عن حرب البلوبونيس .

٢ (٤٣٥ - ٣٥٤) ق. م. مؤرخ اغريقي ، وكان قائداً عسكرياً في أثينا . كان صديقاً لسقراط و من طلابه . التحق بخدمة كورش ملك الفرس ، كان ميالا إلى سبارطة ، وضع عدة مؤلفات تاريخية وفلسفية منها كتاب يدعى « هييرو » عن الطغيان .

٣ سبق لنا أن تحدثنا عن بلوتارك في مكان آخر من الهوامش .

٤ مؤرخ روماني يعتقد انه عاش حوالى أواخر القرن الأول الميلادي ، وضع كتاباً عن تاريخ الاسكندر الكبير في عشر مجلدات فقد منها المجلدان الأولان وبعض أجزاء من المجلدات الأخرى .

— المعرب —

بسلسلة من القصص والنوادر المثيرة ، ولا ان يتوخى ادراج الخطب التي سبق لها ان القيت .... وذلك لأن أهداف التمثيل والتاريخ مختلفة . فهدف التمثيل ، التأثير على النفس واشاعة المتعة عن طريق الالفاظ التي توافق الطبائع والامزجة بقدر الامكان ، بينما هدف التاريخ التهذيب والاقناع باستخدام الاقوال والافعال الاصيلة . والمقصود من تأثير التمثيل أن يكون موقتاً أما تأثير التاريخ فيجب ان يكون دائماً . والتفوق في التمثيل يكون في السيطرة على النظارة ، إذ ان الغاية خلق الرؤى والتصورات ، أما في التاريخ ، فالحقيقة هي المهمة كل الأهمية، إذ أن الهدف افادة المتعلم . ولو افترضنا ان أحد الساسة تعرض لهجوم في شخصه أو في بلاده ، أو تاق هو للهجوم ، أو توقع هجوم العدو ، أو حاول الاحتفاظ بالوضع الراهن ، فانه في جميع هذه الحالات يتعلم من التاريخ وحده كيف يستطيع في الحالة الأولى العثور على الانصار والحلفاء وفي الثانية اثارة التعاون ، وفي الثالثة دعم القوى المحافظة ، التي تميل إلى الحفاظ ،كما يرغب هو ، على الاوضاع القائمة . ولا ريب في ان عمليات الماضي ، تعرض الدوافع والاهداف دون تنكر أو غموض ، وتعلمنا ما يجب ان نتوقعه من أنواع الناس من عطف أو لطف عملي أو مساعدة أو نقيضها كلها . وهذه العمليات تتيح لنا الكثير من الفرص أيضاً لتمييز من يمكن له أن يكون مشفقاً علينا ، أو ساخطاً على أخطائنا ، أو مدافعاً عن قضيتنا ، وهي قوة تسهم اسهاماً كبيراً في تأمين السلامة الوطنية والشخصية . ولهذا فعلى كاتب التاريخ وقارئه ، على حد سواء ، ان يحصرا اهتمامهما ، في سرد الحقائق سرداً مجرداً ، وان يعتبرا بما سبق هذه الحقائق ورافقها ولحق بها من أحداث . وذلك لأننا إذا جردنا التاريخ من كل ايضاح للمسببات والمبادئ والدوافع . ومن تكييف الوسائط للغايات ، فان ما يبقى منه لا يعدو أن يكون مجرد منظر يخلو من التثقيف ، وقد تكون

فيه متعة موقوتة ، ولكنها ليست دائمة » .

ولا ريب في ان معظم القيم التي اكتشفها مكيافلي في التاريخ ، واردة في هذه الفقرات السابقة .

أما ديودوروس صيقلوس (Diodorus Siculus) (١) ، فهو مؤرخ آخر ، ولم يكتف مكيافلي بقراءته ، وانما ذكره في « مطارحاته » . ومن المحتمل أن يكون هو الذي أوحى له — أي لمكيافلي — بطريقة المقارنة بين الأمثلة المستقاة من مختلف ازمنة التاريخ ، ليستخلص منها الدروس العملية ، إذ انه في مقدمة كتابه تاريخ المكتبات (Bibliotheca Historica) ، لا يكتفي بلفت النظر إلى احتمال استخدام التاريخ في هذا الهدف ، بل إلى اوجه الشبه بين القوانين الطبيعية والقوانين التي شاءت العناية أن تتحكم في السلوك الانساني . وهو يقول في كتابه : « وكما ان العناية الالهية ، شاءت تنظيم الكون في مجموعات من النجوم المرئية ، وتنظيم العلاقات بين الناس ، ساندة إلى كل فرد ، ما يؤهله له قدره ، كذلك المؤرخون في تسجيلهم لقضايا العالم المأهول المشتركة ، وكأنها قضايا دولة واحدة ، جعلوا رسالتهم ، سرد الاحداث الماضية ، وايضاح المعرفة المتعلقة بالآخرين . فمن الامور الممتازة أن يتمكن المرء من استخدام اخطاء الآخرين الحمقاء ، كوسيلة للتنبيه من الوقوع في الخطأ ، وعندما نواجه تقلبات الحياة المختلفة ، علينا ان نفيد من نجاح الآخرين في الماضي بتقليده ، بدلاً من ان ندرس ما يقع الآن . »

وفي وسعنا الاستشهاد بفقرات أخرى من مؤلفين آخرين . فمثلاً ،

---

١ مؤرخ اغريقي ولد في جزيرة صقلية ، وعاش في عهد قيصر واوغسطس . وكان يفكر في كتابة تاريخ يشمل جميع الشعوب من أقدم العصور حتى العصر الذي عاش فيه . ويضم كتابه « تاريخ المكتبات » اربعين مجلداً وينقسم إلى ثلاثة عصور . يسود الكتاب شيء من الغموض والخطأ في الواقع والافتقار إلى الاحساس التاريخي . — المعرب —

لفت ثيوسيديدس الاهتمام إلى أهمية الدقة في كتابة التاريخ ، وفي صعوبة الوصول إلى هذه الدقة ، ثم قال : « وإذا كان من يرغب في الحصول أمام ناظريه على صورة صادقة للاحداث التي وقعت ، وما شابهها من أحداث قد تقع في المستقبل في مجرى القضايا الانسانية ، يرى في ما أكتبه شيئاً نافعاً ، فان هذا يرضيني غاية الرضى . فالتاريخ الذي كتبته ، شيء له صفة الدوام والخلود ، لا موضوع آني يقدم للحصول على جائزة ، فيتلى وسرعان ما ينسى » .

ويدوّن بلوتارك ، في الفقرة الاستهلالية لكتابه « حياة سيرتوريوس » ملاحظة لا ريب في انها استرعت انتباه مكيافلي . فلقد قال : « ولما كان الحظ مع مرور الزمن يسير أحياناً في هذا الاتجاه ، وأحياناً في الاتجاه الآخر ، فلا بد والحالة هذه ان يتوقف في سيره عند نفس الحادث في كثير من الاحيان . وبالنظر إلى انه ليس هناك من حد لعدد الاحداث ، فان المواد متوافرة ، لتكرر وقوع النتائج ، أما إذا كانت الاحداث محدودة في عددها ولكنها مترابطة ، فمما لا بد منه ، أن يتكرر وقوع الاشياء بالنظر إلى تحديدها . »

وهناك مؤرخ آخر ، اقتبس منه مكيافلي ، وكان قد وجد نفسه في وضع لا يختلف عن الوضع الذي وجد مكيافلي نفسه فيه بعد صرفه من الوظيفة في عام ١٥١٢ . وهذا المؤرخ هو سالّوست (**Sollust**) (١) الذي يقول في مقدمة كتابه « مؤامرة كاتيلين » .... « وأخيراً هدأ عقلي بعد الكثير من المخاطر والشقاء ، وعزمت على قضاء ما تبقى من أيام حياتي ، في معزل عن القضايا العامة . ولكن خطتي لم تكن ترمي على أي حال ، إلى اضاعة هذا الوقت من الفراغ الثمين ، في الكسل

---

١ كريسبوس غايوس سالوست (٨٦ – ٣٤) ق. م. مؤرخ روماني من عائلة من العوام . كان من حماة الشعب ، ولكن القنصل بولشر عزله من مجلس الشيوخ لميوله إلى قيصر . عينه هذا حاكماً في افريقيا . له عدة مؤلفات منها « الصراع ضد يوغورتا » . – المعرب –

والبطالة ، ولا إلى صرف حياتي في الاشتغال بأعمال هي من أعمال العبيد كالزراعة أو الصيد . وعدت إلى دراساتي التي كنت قد بدأتها ذات يوم ، والذي أوقفني طموحي التعس عن متابعتها ، وصممت على سرد تاريخ الشعب الروماني » .

وإذا ما بحثنا عن مؤلف يذكر شيئاً عن « النتائج المسبّبة للاحداث » وسياقها ، وهو ما تحيّز له مكيافلي كل التحيز ، وجدناه في شخص شيشرون الذي يقول : « ان الفرق البارز بين الانسان والحيوان ، هو ان الحيوان يسير بحواسه ، وليست لديه أية مفاهيم عن الماضي والمستقبل ، وإنما يكيّف نفسه لواقعه في حاضره ، بينما حُبي الانسان بالعقل الذي يتفهّم به تسلسل النتائج ، فيرى مسببات الاحداث ، ويدرك العلاقات بين السبب والنتيجة ، وبين النتيجة والسبب ، ويرسم المقارنات ، ويربط بين الماضي والمستقبل ، ويستعرض بسهولة وبساطة ، سير حياته كلها ، ويقيم الاستعدادات المطلوبة لكل ما يعمله » .

ولكننا إذا تطلعنا إلى هذه « النتائج المسبّبة » ، عند مختلف المؤلفين الذين قرأهم مكيافلي ، نجد ان بعض الكتّاب السياسيين والمؤرخين ، قد ذكروا بعضها هنا وهنالك ، وهي « النتائج » التي تؤلف في مجموعها طريقة مكيافلي الجديدة . ولكننا لن نجد أحدهم قد جمعها إلى بعضها كما جمعها مكيافلي ، أو استعملها على النحو الذي استعملها هو فيه . وعلى هذا فهناك الكثير من الصحة في ادعائه اكتشاف طريقة جديدة لم يطرقها سواه من قبل . فهو لا فرنسيس بيكون (**Bacon**) (١) ، مبتكر الطريقة الاستقرائية . فبيكون يضع في اسلوبه المبادئ التي تنطوي

---

١ فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٨) ، فيلسوف ومؤرخ . ولد في لندن من اسرة من النبلاء ، ودرس في كمبريدج . عمل في السياسة بعد وفاة أبيه اللورد وفي الأدب والفلسفة ، وجمع بين المتناقضات في شخصه حتى وصفه « بوب » بأنه « أكثر الناس حكمة وذكاء ووضاعة » . من أشهر كتبه « مقالاته » و « تقدم المعرفة » . – المعرب –

عليها الطريقة ويطبقها على الطبيعة كمجموع . ولكنه لم يبتكر الطريقة التي يحاول « فلسفتها » وإنما عثر عليها ، مستعملة استعمالاً فعلياً في كتابات نيقولا مكيافلي ، التي درسها دراسة وافية فيها الكثير من العناية . وعلى الرغم من ان مكيافلي لم يطبق طريقته على الطبيعة كمجموع ، إلا انه على أي حال ، يعترف بأنها يجب أن تطبق على هذا النحو ، وهذا ما يبدو جلياً في مقدمة الكتاب الأول من مطارحاته ، ومن ذكره للطبيعة في أماكن أخرى ، ومن استخدامه لنظرية المادة والشكل أيضاً .

ولقد أصدر الاستاذ بترفيلد (Butterfield) في عام ١٩٤٠ ، دراسة حديثة تحت عنوان « سياسة مكيافلي » ، ضمنها ثلاثة فصول للبحث في طريقة مكيافلي ، ولما كانت بعض ملاحظاته ، للوهلة الأولى لا تتفق مع ما سبق لي قوله هنا ، فانني أرى من الحري بي هنا ، ان أعلق بعض التعليقات على ما قاله أستاذ كمبريدج البارز . فانا اوافقه على أن طريقة مكيافلي لم تكن استقرائية ، على اعتبار انه يكرس نفسه لمجرد ملاحظة السياسات الراهنة ، وشرح الاسلوب الذي يتبعه الناس في ادارة دفة الأمور ، وذلك لأن مجرد الملاحظة والوصف لا يعنيان الاستقراء . والاستاذ بترفيلد محق في رأيه عندما يقول ان « الاستقراء » يعني « الاصرار على الحقائق الحكيمة ، كما يعني فكرة طحن العلوم على أساس ثابت من الملاحظات الممحّصة ، وحمل لواء المعرفة بجلد وثقة عن طريق جمع ما ندعوه بالحقائق ومقابلتها وتحليلها » . ولكنني أعتقد ان مكيافلي قد أدرك هذا تمام الادراك . ومن المحتمل ان يكون « قد نظر إلى التاريخ كمستودع للامثلة لا كميدان للتجارب العامة » ، ولكن الاستاذ بترفيلد نفسه يقول ان مكيافلي « كان مشغولاً إلى حد كبير في سياسات عصره ، مما لم يتح له المجال للتجول في أفق أفسح في الامثلة المثالية » كما يقول أيضاً ، انه أي مكيافلي « عرف كيف يمحّص الأمثلة التاريخية ويقابل بينها » . إذن أين تقوم المشكلة ؟ انها تقوم في الحقيقة

الواقعة وهي ان مكيافلي بعمله هذا ، كان يستهدف ان « يثبت أن الرومانيين كانوا حكماء سياسياً . فالامثلة الحديثة تظهر أخطاء المعاصرين ، أكثر من أي شيء آخر ، وهو يزن بينها وبين القواعد القديمة التي يؤمن بصحتها » .

وهكذا لا يقوم اعتراض الاستاذ بترفيلد على ان مكيافلي لا يستخدم الطريقة الاستقرائية ، بل على ان طريقته قد أفسدها ، حمله للفأس وكأنه يريد شحذها أو سنّها . وليست الافتراضات التي يحاول اقامة الدليل على صحتها ، افتراضاته إلى حد كبير ، وإنما هي مستقاة من الكتاب الاقدمين . وإني لعلى استعداد لقبول هذه النقطة . ولكن ما لا أستطيع فهمه ، هو كيف اثر هذا على الطبيعة الاستقرائية لطريقته . فهل يطلب من الباحث دائماً وفي جميع الحالات ان يقيم افتراضاته على أساس الأمور التي مرّ بها في دراساته ؟ لا ، وهل تخرج طريقته عن الاستقراء لأن بعض هذه الافتراضات قد وصلت إلى اسماعه أثناء حديث ما ، أو لأنه عبّر بها أثناء قراءاته ؟ إنني لا أعتقد هذا ، كما ان الاستاذ بترفيلد لا يضمن هذا الشرط في تعريفه للاستقراء الذي أورده في الصفحة التاسعة والخمسين من كتابه . إن كل ما يشترطه هو ان تكون الافتراضات قائمة على ملاحظات ممحصة ، وان تجمع الحقائق وتقابل وتحلّل ، ولا ريب في ان مكيافلي ، باعترافه هو ، قد حقّق هذه الشروط بالنسبة إلى ما تسمح به طبيعة البحث التاريخي .

٨ ــ البدهيات الواضحة في طريقة مكيافلي

لم يكن مكيافلي فيلسوفاً أو عالماً بالمنطق ، فهو لا يبدي كبير اهتمام بالتصنيف ، ولذا فان على كل من يرغب في فهم ما يقوله في أي

موضوع معين ، أنْ يجعل له فهرساً منذ البداية . وتختلط التعميمات التي تعتبر أساسية في طريقته ، مع غيرها من القواعد ذات التطبيق المحدود ، أو قد تمر مروراً عابراً ، أو يأتي بها على سبيل التقديم لفصول تعالج مواضيع أخرى . ومع ذلك فهي موجودة إذا ما بحثنا عنها ، وفي وسعنا أيضاً ان نستكنه مضامين غيرها من المبادىء عن طريق الحجج التي يستخدمها . يضاف إلى هذا ان جميع التعميمات والقواعد التي يستمدها مكيافلي من دراساته التاريخية تفترض وجود روابط معينة بين الاسباب والنتائج . وأود ان أطلق على هذه الافتراضات أو الكفايات اسم البدهيات ، وان أحاول البحث فيها .

البدهية الأولى – تناسق الطبيعة : على الرغم من تقيّد مكيافلي في تطبيق طريقته ، في محاولة اكتشاف « النتائج المسببة » على الصعيد السياسي ، الا أن ثمة فقرات ، يلفت نظرنا فيها إلى الحقيقة القائلة بأن القوانين التي يثبت صلاحها في النسق السياسي ، تشبه تلك التي يثبت صلاحها في النسق الطبيعي أيضاً . وهو يلاحظ في مقدمة الكتاب الأول من مطارحاته ، أن اولئك الذين يزعمون استحالة تقليد الامثلة التي وضعها عظماء الرجال في الماضي ، يتحدثون « وكأن النجوم والشمس والعناصر والانسان ، قد غدت جميعها ، في حركتها ونسقها وطاقتها ، مختلفة عما كانت عليه في الماضي » . ولا ريب في ان هذا القول يعتبر بمثابة تأكيد النقيض ، وجعله الافتراض الاساسي الذي يعتزم العمل بموجبه . « فليس القانون المدني ، سوى مجموعة من القرارات التي اتخذها شارعو العصور الغابرة ، وقد بسّطت ورتبت لتعليمنا . وليس الطب إلا سجلاً للتجارب التي قام بها أطباء الماضي ، والتي يبني عليها أطباء اليوم وصفاتهم الطبية . » . ويتحتم ان يكون في الامكان بطريقة مماثلة وضع قواعد تستند إلى تجارب الماضي ، ويمكن للآخرين استخدامها « في اقامة الجمهوريات وحكم الممالك وتشكيل الجيوش وادارة دفة

الحروب وتصريف شؤون العدالة وتوسيع الامبراطوريات » . وهو يفترض أيضاً ان « جميع أعمالنا تشبه أعمال الطبيعة » ، ومن المستحيل على الصعيد السياسي « ان يقوم جذع ضعيف باسناد فرع ثقيل » كما هي الحالة على الصعيد الطبيعي بالنسبة إلى الاشجار . وهو يستهل الفصل الأول من كتابه الثالث بقوله : « انه لما كان من الحقائق المقررة ، ان لحياة الاشياء الدنيوية اجلاً محدوداً . وان هياكلها بالنسبة إلى انها مركبة قابلة للتحلل ، والبلى ، إلا إذا تجددت ، فان هذا القول يصدق أيضاً على جميع الدول والمنظمات الدينية التي تنشد البقاء » .

وعلى الرغم من ان تفكير مكيافلي محصور بصورة أساسية في الهياكل السياسية ، إلا انه يوضح ان عمليات التحول من تفسخ وانحلال وتجدد ، لا تقتصر على هذه الهياكل أو الهيئات السياسية ، بل تكون عامة بالنسبة إلى جميع الاشياء الدنيوية ، وهي هياكل مركبة على حد تعبيره . ويطبق على المنظمات السياسية أيضاً ، الظنرية العلمية المتعلقة « بالجوهر والشكل » ، والتي تعالج بصورة رئيسية قضية تحول العناصر الطبيعية . فهناك شيء مشترك بين سلوك الانسان وعمليات الطبيعة . وعلى هذا فان القوانين التي تنطبق على احدهما يجب ان تنطبق بحكم احداث التبدل الضروري ، على الثاني . وعلى هذا يمكن ان نطلق على هذا الافتراض اسم بدهية التناسق ، وان نصفها على الشكل التالي : « ان الاجساد الطبيعية كالهيئات السياسية ، تمر دائماً في عملية مستمرة من التحول ، تتشابه تماماً . وكما يمكن وضع القوانين بالنسبة إلى الفئة الأولى التي تشرح العمليات التي تجري ، فان في الامكان وضع قوانين مماثلة للأخرى » .

البدهية الثانية – السبب والنتيجة : يقتبس مكيافلي في الفصل الثاني من مطارحاته ، فقرات من بوليبيوس دون ان يعترف باقتباسها ، وهي

تتحدث عن التبدلات الحكومية التي تتعرض لها جميع الدول والمدن ، والاسباب التي تؤدي اليها ، وهذه الانتقالات في رأي بوليبيوس ذات طابع دائري ، تبدأ من الملكية ، وتمر عبر الطغيان الاستبدادي ، وحكم النبلاء ، ثم حكم القلة (اوليغاركي) فالديموقراطية ، فالفوضى لتعود إلى الملكية ثانية . وعلى الرغم من ان مكيافلي يعرض في الفصل الثاني من كتابه الاول من « المطارحات » هذه النظرية ، وكأنها من خلقه ، إلا انه ، وهذا مهم جداً ، بعد ان يذكر ان الدائرة قد استكملت ، يسقطها من حسابه ولا يعود إلى الحديث عنها مطلقاً . فهو يرى ان العملية يجب أن يعبّر عنها في اطار أعم من التعبير ، كانتقال من النظام « أي من طراز الحكم الصالح » ، إلى الفوضى ، أي إلى طراز الحكم غير الصالح ، والعكس بالعكس . وأكثر الاسباب شيوعاً في الثورات ، هو الصراع الطبقي وهو عين ما يقوله بوليبيوس . وعندما تحل قضية الصراع الطبقي ، ينبثق نوع من الحكم المستقر ، ويسود النظام . أما إذا لم يحل الصراع ، فان النتيجة الحتمية هي الاضطراب وفقد النظام والفوضى . وقد تكون للثورات أيضاً أسباب أخرى ، كطموح بعض الرجال الذين يعملون رغبة منهم في الحصول على السلطان ، على الجمع بين أحزاب يريدون عن طريقها السيطرة على الدولة ، أو الحسد الذي يشعر به الذين « لا يملكون » للذين « يملكون » وذلك عندما تفشل الدولة في الحصول على حلول معقولة للمشاكل الزراعية أو غيرها ، أو الرغبة في الثأر التي يستفزها الطغيان والاضطهاد . وتميل جميع هذه الاسباب إلى خلق الفوضى واستشراء الفساد . كما تخلقهما أيضاً البطالة الناجمة عن تفاقم الثراء . وللنظام أيضاً أسباب أخرى منها الدستور الصالح ، والقوانين والعادات الطيبة التي تفترض بدورها وجود مشرعين طيبين ، أو اخماد الفتن بتدخل من رجل جليل الشأن . ويمكن تبسيط مثل هذه الاسباب وما تسفر عنه من نتائج ، قريبة أو بعيدة ، وتصنيفها

في شكل قوانين حكمية ، أو تعميمات ، لكل من أوتي معرفة كافية بالتاريخ . وعلى هذا فان دعوى مكيافلي الاساسية ، تقوم على افتراض ان الاسباب المتماثلة تؤدي إلى نتائج مماثلة أيضاً على الصعيدين السياسي والطبيعي .

ويضع مكيافلي في هذا الموضوع قواعد عدة منها ان « الشيء نفسه قد يحدث لاناس مختلفين في أحايين كثيرة » وان « الناس الذين يخلقون في نفس البلاد ، يعرضون دائماً عبر القرون لنفس الخصائص » وان « الاسر تحتفظ في المدن بنفس العادات مدة طويلة » . ويقيم مكيافلي لكل من هذه النظريات الدليل الحكمي إلى حد ما ، ويبدو جلياً مما يقوله ان طريقته تفترض وجود نظرية وجودية طاغية في طبيعتها كقوله مثلاً « ان هناك رغبات وميولاً واحدة توجد لدى كل الشعوب في كل زمان ومكان » .

وعلى هذا يمكن ايضاح نظريته على النحو التالي : « إذا قارنا الحاضر بالماضي السحيق ، ففي الامكان ان نرى بسهولة في جميع المدن ولدى مختلف الشعوب ، نفس الرغبات والميول ، التي كانت موجودة دائماً . وهكذا إذا درس الانسان الماضي دراسة صحيحة ، أمكنه أن يرى المستقبل بالنسبة إلى أية مجموعة بسهولة ، وان يطبق عليها نفس العلاج الذي استخدم قديماً ، أما إذا لم يجد المرء علاجاً قد استعمل في الماضي ، أمكنه ابتكار علاج جديد بالنسبة إلى التشابه بين الاحداث .

وإذا شئنا تعميماً أكثر لايجاد قاعدة تشمل النسقين الطبيعي والسياسي قلنا ان ما عناه مكيافلي هو ان هناك دائماً أسباباً ونتائج متماثلة .

وهذه هي بدهيته الثالثة التي توصل اليها : لكل أسباب متماثلة ، نتائج متماثلة أيضاً .

فالقول بأن الاسباب المتماثلة تؤدي إلى نتائج متماثلة ، قد لا يكون صحيحاً ، إذا لم تتوافر المزايا الاخرى . فمن الواجب أخذ الظروف أو « الأوقات » بعين الاعتبار . وهكذا نجد مكيافلي يقول : « اعتقد ان كل من يكيّف اجراءاته وفقاً لطبيعة الزمن يلقى النجاح ، وان كل من لا يكيّفها على هذا النحو يمنى بالفشل » . وهكذا ففي امكان الرجل المتأني أحياناً الوصول إلى غايته ، وقد يفشل في ذلك في ظروف اخرى . ومن المحتمل ان يكون التهور قد نفع يوليوس الثاني ، ولكنه من ناحية أخرى وفي ظروف ثانية ، قد يؤدي إلى كارثة . وعلى نفس النحو ، يمكن القول بأن « العلاجات التي كانت مجدية في ظروف معينة » قد لا تكون مجدية في ظروف أخرى ، إذ قد « تنعدم الاسباب التي كانت فعّالة في الظروف الأولى . » وهذه الناحية مهمة للغاية ، إذ انها تحذر كل راغب في « تحويل الحكومة » بأن عليه أن يحسب حساب من يحكمهم » . ويقول مكيافلي في فصل آخر بصورة عامة ان « على كل راغب في التمتع بحظ طويل طيب ، ان يكيّف نفسه للظروف والاوقات » . وهكذا يمكن قراءة البدهية هذه على هذا النحو : « ان الاسباب المتماثلة في ظروف متماثلة تؤدّي إلى نتائج متماثلة » .

ويمكن استكمالها بالبدهية الرابعة التالية : « ان الاسباب المتماثلة في ظروف غير متماثلة ، قد لا تؤدي إلى نتائج متماثلة » .

يحذرنا مكيافلي في أكثر من مكان واحد ، من ان القاعدة السابقة التي يقول فيها ان لكل أسباب متماثلة نتائج متماثلة ، قد لا تكون صحيحة ، *وان النتائج قد تقع في طرق مختلفة ومتباينة* . ولا ريب في ان هذا القول هو الذي يجعل في امكان الحاكم ان يكيّف نفسه للاوقات ، وان يؤدي اختياره للافضل والانسب من سبل السلوك المختلفة إلى حصوله على ما وضعه نصب عينيه . وهناك أيضاً نظريتان ، يقول فيهما مكيافلي بوضوح ، ان في الامكان الوصول إلى نفس الغاية

بطرق من السلوك ، قد تكون متعارضة أو متعاكسة . فهانيبال الذي اختلفت طرائقه عن طرائق شيبيو (الافريقي) تمام الاختلاف ، اوقع في ايطاليا نفس الآثار التي أوقعها الاخير في اسبانيا ، كما ان « قسوة مانليوس تورغواتوس » ، وانسانية فالبريوس كورفينوس (وكلاهما من اباطرة رومة الاقدمين) ، حققتا لهما نفس الدرجة من الشهرة .

وهكذا يستخلص مكيافلي بدهيته الخامسة وهي ان النتائج المماثلة ، قد تنتج عن أسباب مختلفة بل ومتعارضة .

فهو يتساءل مثلاً ، عن الطرية التي تمكنت بها رومة من توسيع ممتلكاتها بينما فشلت اثينا وسبارطة في ذلك تمام الفشل ، على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان رومة كانت تبدو أكثر اضطراباً وأسوأ حكماً من الاخرين . ولا يعود هذا في رأيه الى « ان رومة كانت في وضع أفضل ، بل إلى مجرد الاختلاف في طرق الاجراء » . فمن المفروض ان تكون المزايا الوضعية لكل من رومة واثينا واسبارطة متماثلة . ولذا فانها ليست السبب في نجاح رومة وفشل كل من اثينا واسبارطة . والمبدأ الاسلوبي الذي استخدمه مكيافلي يشابه المبدأ الذي توصل اليه مل (Mill) (١) في كتابه « اسلوب الاختلاف » .

وهكذا يتوصل مكيافلي إلى بدهيته السادسة وهي ان النتائج المختلفة لا تعود إلى نفس الاسباب .

وهناك بدهية أخرى يمكن استنباطها من الاسباب الخمسة التي عزا اليها مكيافلي فشل الملك لويس الثاني عشر في الاحتفاظ بممتلكاته في ايطاليا ، والتي أوضح بها أسباب انتصارات بورجيا المذهلة وسقوطه

---

١ جون ستيوارت مل (١٨٠٦ – ١٨٧٣) فيلسوف بريطاني وعالم بالاقتصاد . ولد في الهند ونشأ فيها . وتدرج في وظائف شركة الهند الشرقية ، ثم عاد إلى انكلترا فأصبح عضواً في البرلمان . كان من مؤسسي الحركة النفعية . من أشهر كتبه « الحرية » و «النفعية » و « اسلوب المنطق » وغيرها .
– المعرب –

النهائي الذي عزاه إلى فشله في الحيلولة دون انتخاب البابا يوليوس الثاني .

وإذا ما أخذنا هذين القولين معاً ، توصلنا إلى بدهية مكيافلي السابعة ، وهي ان أية نتيجة معينة ، قد تعود إلى مجموعة من الاسباب ، وانه إذا لم يوجد احد هذه الاسباب ، انعدمت النتيجة .

ولا ريب في ان الملاحظات التي جاء بها مكيافلي بالنسبة إلى صعوبة الاختيار بين مختلف طرائق السلوك ، تترابط ترابطاً وثيقاً مع تضارب الاسباب التي تعمل في أي وضع معين، ومع التعقيد الناجم في نتائجها . فهو يقول : « ان على الانسان في جميع مناقشاته ان يدرس أي سبيل ينطوي على أقل ما يمكن من المتاعب ، وان يختار هذا السبيل على انه أحسن السبل ، إذ ليس في مكنة الانسان ان يجد مطلقاً أية قضية واضحة كل الوضوح ،وغير معرضة للنقاش والجدل.والمبدأ هنا اسلوبي لا سببي ومع ذلك فهو متصل بما يقوله مكيافلي عن الاسباب وعن أهمية اعتبار الظروف دائماً .

ولذا يمكننا هنا ان نضيف بدهيته الثامنة ، وهي انه في ظروف معينة ، تكون الاسباب الفعّالة معقدة ، ويستحيل معها القول بكل تأكيد ، ما إذا كان أي عامل معين سيسيطر على النتيجة أو لا ، وخير ما يفعله الانسان هو أن يحسب الاحتمالات كلها .

وليس من شأني في هذا البحث الحالي ان أبحث فيما إذا كانت البدهيات التي سردتها آنفاً صالحة للتطبيق على العلم الطبيعي أيضاً . ولقد قبل ان الافتراض القائل بأن النتائج المتماثلة يمكن ان تصدر عن اسباب متناقضة ، يخلق بعض الاشكال ، ولكن إذا كان ما يطلبه الانسان ماء في درجة حرارة معينة ، فان في وسعه ، بالتأكيد أن يأخذه في درجة حرارية أقل منها ، ثم يدفئه ، أو في درجة حرارية

اكثر منها ثم يبرّده . ومن المعقول على أي حال ان تكون هذه البدهيات صالحة للتطبيق بصورة رئيسية على العلاقة بين الاسباب والنتائج ، على الصعيد السياسي ، حيث يكون احد الاسباب على سبيل الافتراض ، وعلى الاقل ، ناتجاً عن العمل البشري .

٩ ـ مفهوم مكيافلي عن الفضيلة

لقد تكرر ورود كلمتي « الفضيلة » و« الفاضل » في كتابات مكيافلي ، أكثر من أية كلمة أخرى ، كما تعرضنا للكثير من النقاش الذي أدى إلى نتائج متباينة أكثر من غيرهما . ولهذا فقد راعيت في ترجمتي لمطارحات مكيافلي إلى الانكليزية ، ان أكون حريصاً أشد الحرص على استعمال هاتين الكلمتين حيث استعملهما هو ، حتى ولو كان بالامكان الاستعاضة أحياناً عنهما بكلمات أخرى تكون أكثر انطباقاً على المعنى . ولا ريب في ان هذه الطريقة ستمكن القارئ من الحكم ، من المحتوى الذي وردت فيه الكلمتان ، على المعنى الذي أراد مكيافلي ابرازه . ولا ريب في ان في وسع القارئ ان يقرر ما لا تعنيه هاتان الكلمتان عند استعمالهما ، من تفهم الكلمات الاخرى التي تترابط معها ، أو تتعارض . فهي لا تعني مثلاً ، الحكمة أو الخبر ، أو سلامة الحكم أو السلطان ، كما لا تعني مطلقاً حسن الطالع . ويبدو انه يقصد بهـا دائماً « الكفاية » حتى ولو استعملها مع الجنود ، حيث تؤدي كلمـة « البسالة » المعنى بصورة أدق . وذلك لأن مكيافلي ، أو ليفي الذي سار على منواله في استعمال هـذه الكلمة ، لا يصفان الجندي الناقص التدريب ، أو السيء الكفاية ، بالفضيلة ، حتى ولو كان في منتهى البسالة . ولكنني من الناحية الأخرى ، أعتقد ان الاستاذ هانكوك كان

مغاليـاً جداً عندما قال ان مكيافلي لا يعني بكلمة « الفضيلة » إلا « التكنيك البسيط والمجرد » ، على الرغم من شيوع هـذا الرأي .
ويقول تيلي (Tilly) في كتـابه « تاريخ القرون الوسطى » ، ان مؤلف « الامير » عنى بكلمة « الفضيلة » ، لا الفضيلة في حد ذاتها ، بل البسالة ، والمقدرة والنجاح ، وهي الصفات التي قدرها عصر النهضة كل التقدير . ولا ريب في ان مثل هؤلاء المعلقين ، كانوا على حق في موافقة الاستاذ هانكوك في ادعائه بان اصطلاح « الفضيلة » لا يعني في العادة أي « معنى اخلاقي » . ولا ريب في ان مكيافلي قد استخدم هذا التعبير على الصعيد السياسي المجرد . ولقد قلت أيضاً ان « الفضيلة » تعني دائماً الكفاية ، أو ما أسماه الاستاذ هانكوك « التكنيك » ، على ان يكون من النوع الجيد . ولكن هل يطلق مكيافلي على الجندي ذي الكفاية والشجاعة ، صفة « الفاضل » إذا كان هذا الجندي يشترك في الحرب ضد بلاده ؟ وهل في وسعنا ان نفهم ، انه كان يفكر تفكيراً مجرداً بالكفاية عندما قال في الفصل السادس عشر من كتابه الثالث من المطارحات ان « الفضيلة الاصيلة حسابها في الاوقات الصعبة بالنسبة إلى الناخبين ولكن في أوقات السلام ، جرت العادة على اهمال عدد كبير من الرجال العظماء والبارزين » ؟ لا أعتقد هذا . فهو يقول في كتابـه (فن الحرب) « ان كل مواطن يزاول مهنة الحرب لهدف خارجي ، لا يكون مواطناً صالحـاً ، إذ أن عليه ان يخدم بلاده لأنها في حاجة اليه وان يحارب في سبيل المجد » . وكان كوزيمو روسلّي مواطناً صالحاً في نظره لأنه « لا يتخلى عن أي مشروع يعتقد ان فيه الخير لبلاده » .
ويقول فابريزيو ، في المطارحات ، رداً على سؤال لكوزيمو ، عـن السبيل إلى تقليد رومة : « ان هذا يكون في تخصيص المكافآت والأوسمة للفضلاء » ، ثم يمضي في شرح ما يعنيه فيقول : « أي في عدم ازدراء الفقر ، وفي اجلال الاجراءات والمنظمات التي تخدم الانضباط العسكري ،

وفي الايحاء للمواطنين بروح الزمالة ، والابتعاد عن الحزازات ، وعدم ايثار المرء لشؤونه الخاصة على القضايا العامة » ، ويقول في مكان آخر في المطارحات ، انه « في أيام الحروب ، كانت رومة ، تفيد من خدمة جميع أبنائها ، سواء أكانوا من النبلاء أو غير النبلاء ، وهكذا كان يتوافر في رومة ، في كل حقبة ، عدد كبير من الرجال الافاضل ، الذين حققوا الانتصارات ، ولم يكن الشعب في حاجة إلى التشكك فيهم أو القلق عليهم بالنظر إلى وفرة عددهم » . ويمضي فيقول : « وهكذا فان المرشحين للمناصب كانوا حريصين أشد الحرص على الحفاظ على نزاهتهم ، ويجدون لتجنب كل مظاهر الطموح ، مخافة ان يتعرضوا لقدح الجماهير على انهم من الطموحين » . وهكذا فقد عني الرومان بكلمة « الفضيلة » كل خصلة من الخصال ، التي يناسب الانسان التحلي بها . ولم تكن تعني صفة الانسان الشخصية فقط ومقدرته ، بل تكريسه نفسه للدولة ، وكفايته في اداء واجبه ، وهو أمر له أهميته القصوى في حياة السياسي والقائد على حد سواء . ولكن الرجل ، في المفهوم الروماني ، ليس إلا مواطناً عليه واجباته تجاه المجموعة التي يعيش بينها ، وما لم يؤد هذه الواجبات خير الاداء . فهو ليس بالرجل الفاضل في رأي الرومان او ليفي أو مكيافلي .

وليس في وسع كل من يقرأ المطارحات ، ان ينكر ان فضيلة أي مواطن هي في تكريسه نفسه للصالح العام . ومن الواجب ان تفهم « الفضيلة » على هذا الصعيد ، حتى ولو كانت تعني أحياناً كما يستعملها مكيافلي الكفاية . وقد تكون هناك مصاعب وشواذ . فهو مثلاً يقول « ولم يكن للبندقية من الفضيلة ما يكفيها من التسلح لمقاومة أعدائها » ، وهو هنا لا يعني ان أهل البندقية لم يكونوا يقدرون مصالح مدينتهم ، بل ان المدينة نفسها لم تكن على جانب كبير من القوة . وليست القضية هنا مسألة تكريس للواجب أو للمصلحة العامة ، وإنما قضية طبيعة

الجيش البندقي وقوته . وهناك حالة واحدة على الأقل ، لا يعني مكيافلي بالفضيلة فيها ، الصالح العام مطلقاً ، وذلك عندما يعزو نجاة سيفيروس من الاغتيال إلى حسن طالعه وإلى فضيلته أيضاً ، اذ انه في مكان آخر يقول ان سيفيروس كان ظلاّماً لشعبه ، مكروهاً من أفراده لقسوته . ومع ذلك فهو يصفه « بالفضيلة العظمى » لأنه تمكن من كسب محبة جنوده ، ومن النجاح في حكمه . وهو يصف قيصر بورجيا أيضاً بأنه أمير ارتقى اريكة السلطان لتأثير فضائله العظمى وليست هذه الفضائل إلا الكفاية والمقدرة ، فهو انسان فاضل على الرغم من عنفه لأنه يوجه هذا العنف إلى نبلاء رومانيا لا إلى أفراد شعبه الذين حفظوا له الجميل ، فتمهلوا شهراً بعد سقوطه ، قبل الاذعان لسيطرة يوليوس الثاني . وقد حافظ سيفيريوس على وحدة الامبراطورية أيضاً ، وعلى هذا يمكن اعتبار حكمه موجهاً للصالح العام بقدر ما هو موجه لمصلحته .

١٠ - الصراع بين الفضيلتين السياسية والادبية

يثير مكيافلي موضوع الصراع بين الفضائل السياسية والادبية ، في كتابه « الأمير » لأول مرة ، عندما يتحدث عن الامراء ، مطرياً فضائلهم كالكرم والرأفة والصدق ، ثم يمضي فيتحدث عن أوضاع الحياة التي تجعل من المتعذر على الامير ممارسة هذه الفضائل في جميع الظروف والاحوال ، هذا إذا رغب في الاحساس بالأمن والسلامة . وعلى هذا فان على الامير ان يتعلم « كيف يسيء أحياناً » و « كيف يتجنب الملامة إذا أساء » ، إذ ان عدم تجنبها قد يأتي له بالكوارث . فمن وجهة نظر السياسة ، قد لا يكون « ما يبدو فضيلة » ، دائماً

من الفضائل ، بالنظر إلى ان مزاولتها « قد تجلب الدمار » ، وان « ما قد يبدو رذيلة » ، قد لا يكون دائماً وفي جميع الظروف من الرذائل السياسية ذلك لأنها « تضمن الأمن والنجاح » .

ويحاول مكيافلي في مكان آخر من « أميره » شرح هذا المذهب بصورة أكثر تفصيلاً مشيراً إلى الحفاظ على العهود والمعاهدات . وهنا يرى ان ليس في وسع الامير دائماً ان يفعل ما ينتظره الناس منه ، أي ان يكون « رؤوفاً وصادقاً ، ورحيماً ومتديناً ومستقيماً » ، ولا سيما إذا كان حديث عهد بالامارة . وعلى هذا فان على الامير « دون ان ينحرف عن طريق الخير ما دام في استطاعته المضي فيه ، ان يكون من الذكاء بحيث يلجأ إلى السبل الشريرة ، عندما ترغمه الضرورة على ذلك » على أن يحرص كل الحرص على التظاهر بالتحلي بهذه الخصال الخمس ولا سيما خصلة التديّن منها . وفي وسعه تحقيق ذلك بسهولة إذ ان « اي انسان يلاحظ ما أنت عليه ليس إلا ، بينما لا يعرف حقيقتك إلا القليلون ، وهكذا فما دمت ناجحاً فان الناس سيرون في الوسائل التي تتبعها نبلا وشرفاً وسيطريك كل انسان » ، بينما لا يجرؤ القليلون الذين يعرفون حقيقة ما تفعله على معارضة رأي الاغلبية .

ويرى بيرد ان في الامكان تلخيص مذهب مكيافلي بوضوح في ان طريقة حكم الشعوب والجماعات تختلف عن طريقة حكم الافراد . وتقوم نقاط الخلاف الرئيسية في الحفاظ على العهود والمعاهدات بصورة عامة اولاً ، اجراءات الأمن التي يجب ان يتخذها كل عهد جديد سواء أكان ملكياً أو جمهورياً ثانياً ، الدين ثالثاً. وارى لزاماً علي معالجة كل نقطة من هذه النقاط على انفراد ، قبل درس المبدأ الاساسي الذي يقوم عليه مذهب مكيافلي . ومن الواجب القول على أي حال ، بأن مكيافلي لا يزعم ، ان القواعد التي تنطبق على سلوك الافراد ، لا يمكن تطبيقها بصورة عامة على الحكام والمحكومين . وكل ما يدعيه ، هو انه على

الرغم من وجوب التقيد عامة بهذه القواعد ، الا ان ثمة اوضاعاً وظروفاً لا تكون فيها هذه القواعد صالحة للتطبيق ، ومن الواجب اهمالها فيها، وهي ظروف وأوضاع كانت شائعة تمام الشيوع في عصره . وهو يقيم الدليل على رأيه هذا مستشهداً بالأمثلة التي أرى ان احصر نفسي في بحثها في كل نقد أتوخاه .

ويقع النكث بالعهود والمعاهدات ، ضمن ما يدعوه مكيافلي «بالدهاء» و « الحيلة » . وعكس الخداع في رأيه هي الاستقامة ، ولكن العالم على ما يراه هو ، قد خلق بصورة لا يستطيع أي حاكم فيه ، ان يمضي في عمله ، إلا إذا كان اسداً وذئباً في وقت واحد ، أي ان يستخدم القوة والحيلة ، وفقاً لمقتضيات الظروف والاوضاع . ولا ريب في ان مكيافلي قد استوحى مذهبه هذا من شيشرون الذي قال : « ان من يتشبه بالاسد دائماً لا يدري ما يفعله . فليس من واجب الحاكم العاقل، ان يحافظ على اتفاقاته ، إذا كان الحفاظ عليها يؤدي إلى الاضرار به ، أو إذا كانت الاسباب التي دفعته إلى عقدها ، لم تعد صالحة وقائمة » .

ولو استخدم مكيافلي عبارة « الحيلة » وحدها ، ليعني بها التحلل من المعاهدات على أساس تقنيّ ليس إلا ، لما كان هناك استثناء ضخم لما يقوله . ولكنه يعني أكثر من هذا ، فهو يرى أن يتظاهر المرء بالتمسك بالقانون بحرفيته بينما يتلاعب بمعانيه وأهدافه . وينطبق هذا القول بالطبع على المعاهدات والاتفاقات والعقود ، إذ انه يقول : « ولن يعدم الامير أبداً وسائل قانونية مشروعة يتخذ منها مبرراً لتجاهله للقانون» . ولقد سار الرومان على هذا المنوال دائماً وحققوا عن طريقه الكثير من المنافع . وكان هذا هو الاسلوب الذي ساروا عليه دائماً في شن الحروب على الدول القوية التي تحترم قداسة المعاهدات . وهو يقول في مطارحاته « فاذا أردت مثلاً ان أشن الحرب على أي أمير ، وكانت بيني وبينه معاهدة يحترم كلانا نصوصها منذ أمد ما ، فاني أبحث بدلاً عن مهاجمته

عن مبرر أو سبب آخر لمهاجمة أحد حلفائه ، مع ادراكي التام بأن هجومي على هذا الحليف ، سيؤدي إما إلى غضبه هو ، وهذا ما أتوخاه ، إذ تصبح الحرب محتومة ، أو إلى تحايله ، مما يظهر ضعفه وعدم الركون اليه » . وهكذا يمكن الحفاظ على المعاهدة من الناحية التقنيّة ، إذ أن الحرب لا تشن على احد الفريقين المتعاقدين وإنما على حليف احدهما ، ولكن هدف هذه المعاهدة قد تحطم ، إذ ان الغاية منها هي منع الحرب . ولا ريب في ان أقوال مكيافلي هذه تشرح معنى « الحيلة » عنده ، عندما يستخدمها في معناها التقني ، كما تشرح معنى الدهاء ، اذ يتطلب العثور على المنفذ القانوني الكثير من الحصافة . ولكن هذا ليس ، مع الاسف ، الميدان الوحيد الذي يستعمل فيه تعبيره عن « الحيلة » ، إذ يعني بها أحياناً خرق المعاهدات والعهود عن سابق اصرار وتصميم ، أو اتباع سبل الخداع الواضحة .

ويلفت غويكارديني انتباهنا إلى هذا الغموض في الكتاب الذي وضعه فيقول ان مكيافلي يذكر ان « الناس يرتقون من خفيض المراكز إلى رفيعها عن طريق الحيلة لا عن طريق القوة ، ولو كان يعني بالحيلة فناً من فنون المداهنة والرياء ، الذي لا ينطوي على الغش ، كسلوك بروتوس مثلاً ، فان هذا الاستنتاج الذي توصل اليه يكون صحيحاً .... أما إذا كان يعني بالحيلة معناها الصحيح ، أي خرق العهود أو أي اجراء مخادع آخر ، فانني أرى ان كثيرين قد أقاموا لهم ممالك ضخمة وامبراطوريات دون اللجوء إلى الحيلة كالاسكندر الأكبر وقيصر » . واشار غويكارديني بعد ذلك إلى ان الرومان لم يلجأوا إلى الحيلة في تعاملهم مع اللاتينيين وإنما إلى الحذر والفطنة وانتهى إلى القول : « أما بالنسبة إلى الحيلة ، فان من المشكوك فيه أن تكون وسيلة صالحة للوصول إلى العظمة ، إذ على الرغم من ان الخديعة قد تؤدي إلى كثير من الضربات الصائبة ، إلا ان الاشتهار بها يؤدي دائماً إلى حرمان المرء

من فرصة تحقيق غاياته» . ولا ريب في ان هذا النقد يلتقي مع مكيافلي تماماً ، فالحيلة في مثل هذه الحالات لا تكون « مصلحة » ، إذ انها تؤدي إلى الحاق الضرر بالغايات المتوخاة منها .

ولم يحاول غويكارديني تبرير مكيافلي ، كما حاول الكثيرون غيره ، على اعتبار ان جميع من كانوا يحتلون المراكز الرفيعة في تلك الايام ، كانوا ينكثون عهودهم ، وهذه فكرة قال بها بيرد الذي ذكر « ان الصدق في الشؤون العامة فكرة حديثة طارئة ، لم يكن يفكر بها أحد في أيام مكيافلي ، إذ لم يكن ثمة ضمير وطني أو دولي » ، ولكن هذا القول بعيد عن الصحة تماماً ، بل أبعد من كل قول سواه . إذ يقود فكرة الصدق في الشؤون العامة ، إلى أيام الرومان ، وقد استخدموها مع الشعوب التي كانوا يتعاملون معها ، وكانت تثير الاحتجاج والسخط إذا ما نقضت على حد تعبير مكيافلي نفسه . وقد عاشت الفكرة طيلة العصور الوسطى وأشار اليها القديس وما وغيره من الكتّاب الذين أصروا على قوة رابطها الضميري . ولا ريب في ان جميع الامراء الذين عاشوا في عهد مكيافلي ، كانوا يعرفون هذا الرابط ، إذ انهم عندما كانوا يفكرون في التحلل منه ، كانوا يسعون إلى ايجاد المبررات على أساس ما ذكره مكيافلي من ان العهود التي يرغم الانسان على الارتباط بها لا تكون ملزمة ، أو ان الظروف قد تبدلت . وكان بعضهم يلجأ إلى وسائل أخرى كالطلب إلى البابا تحليلهم من ارتباطاتهم كما فعل فرنسوا الأول ، أو دعوة المجمع العام لاستشارته كما فعل لويس الثاني عشر في « تور » ، أو استشارة ضمير الشعب عن طريق الجامعات كما فعل هنري الثامن قبل طلاقه من الملكة كاترين الاسبانية . ولا ريب في ان قول بيرد ، لا يكتفي بالخروج على الحقيقة ، بل انه يعكس آراء مكيافلي تماماً . فلقد كان مكيافلي واعياً كل الوعي لوجود الضمير بين شعوب عصره ، مما يتطلب من الامراء التمسك بأهداب

القوانين الاخلاقية وهذا ما حمله دائماً على تحذيرهم من انهم إذا أرادوا العمل خلافاً لهذه القوانين ، فعليهم ان يتظاهروا أمام شعوبهم بأنهم لم يفعلوا ذلك .

ولا ريب في ان مكيافلي صادق على الاقل في دفاعه عن الحيلة . فهو يعترف ان المثل الاخلاقية تحرمها ، ولكنه يقول بأن ثمة ظروفاً ، تعرض الامير للخراب إذا تمسك بأهداب هذه المثل . ويقدم تأييداً لهذا الرأي مثلاً واحداً لا أكثر إذ يقول : « وفي وسعي ان أقدم عدداً ضخماً من الامثلة العصرية الحية التي تظهر كيف ان خداع الامراء أدى إلى نقض عدد من المعاهدات والمواثيق وجعلهـا لاغية ، وكيف ان البارعين في الاساليب الثعلبية الماكرة كانوا أكثر نجاحـاً في ذلك » . ولعل أحسن مثل يقدمه مكيافلي هو فرديناند ملك الاراغون الذي يقول عنه « انه لا يدعو إلا إلى السلام والصدق ، مع عدائه الجم لهما ، ومع العلم بأنه لو تمسك بهما ، لفقد سمعته وملكه منذ أمد طويل » . وعندما قيل لهذا الملك ان لويس الثاني عشر يشكو من انه قـد خدعه مرتين ، أجاب قائلاً : « قل للملك انه كاذب ، فلقد خدعته عشر مرات على الاقل . »

ونصل الآن إلى ناحية أخلاقية ثابتة وهي « التخلص مـن المنافسين بافنائهم » . ويطلق عليها مكيافلي اسم « الرعب » ، وهو ما يتسامح به مكيافلي إذا كان لا بد منه للحفاظ على أمن الانسان وسلامه . وهو يعني به تماماً ما فعله اغاثوكليس (Agathocles) عندما قتل جميع أعضاء مجلس الشيوخ في سراقوزه واغنى أفراد شعبه . وما فعله اوليفوروتو دافيرمو الذي قتل عمّه وجميع كبراء فيرموني في وليمة أقامها ، أو ما فعله قيصر بورجيا ، الذي أغرى جميع ضباطه الذين كانوا قـد ثاروا عليه ، بالمجيء إلى سنيغاغليا بعد أن صالحهم ، حيث قتلهم عن بكرة أبيهم . ويزعم مكيافلي ان هذه الاساليب كانت ناجحة ، ولكنه

يتغاضى . فلا يذكر لنا ان اغاثوكليس اضطر في أيام شيخوخته إلى ارسال زوجته وأطفاله إلى مصر مخافة أن يقتلهم حفيده الذي كان الشيخ قد قتل أباه ، وان قيصر بورجيا بعد سنة واحدة من حادثة سينغاغليا ، نقل أسيراً من اوستيا إلى رومة حيث صودرت ممتلكاته ، وانتهت حياته السياسية ، وان اوليفوروتو بعد أن قتل عمه قتل في العام التالي ، وهي نتائج لا يمكن ان تكون مشجعة للحكام الذين يؤيدون فكرة بث الرعب في القلوب .

ويعود مكيافلي إلى البحث في موضوع « الأمن » في ظل نظام جديد في « مطارحاته » ، التي تشرح تماماً ما يعنيه غوليكارديني عندما يشكو كما يفعل دائماً ، من ميل مكيافلي إلى اصدار التعميمات وتجاهل الاستثناءات المهمة . كقوله : « ان الامير لا يستطيع العيش بأمان في امارته ، طالما ان اولئك الذين سلبهم إياها لا يزالون أحياء » . أو قوله : « ان الحفاظ على الحرية عندما تكون حديثة عهد بالوقوع ، يستلزم قتل (اولاد بروتس) » . وهو يستشهد في اقامة الدليل على صحة قوله الثاني ، بالحادث الذي وقع لبروتوس ، عندما انضم اولاده إلى العدو الذي تحاربه رومة . فوقعوا في الاسر واعدموا بموافقة أبيهم . ولا ريب في ان هذه القضية لا تخرج عن الخيانة ، وعقوبتها الاعدام حتماً . وهو يعني باولاد بروتوس ، كل من يتآمر على بلده ، وايقاع عقوبة الموت بالخونة .

أما بالنسبة إلى النظرية الأولى ، فهو يورد حادثتين لأقامة الدليل على صحتها ، مستقياً إياهما من تاريخ ليفي . وتقول رواية ليفي التاريخية ان تاركوينيوس بريسكوس ، الذي اختير وصياً على ابناء « انكوس » اغتصب منهم العرش ، وسرعان ما أيده الشعب الروماني في عمله . وكان من واجبه ، على رأي مكيافلي ، ان يقتل اولاد انكوس الذين كانوا يبحثون عن وسيلة لاستعادة عرشهم فقتلوه . وأصبح أبناء

تاركوينوس بريسكوس هم الورثاء الشرعيين للعرش ، وبدلاً من ان يقوم سيرفيوس توليوس الذي اغتصب الملك بتأييد مجلس الشيوخ لا بموافقة الشعب ، بقتلهم على رأي مكيافلي ، زوّجهم إلى بناته ، بينما كان عليه أن يقتلهم . وليس الموضوع هنا قضية غاية طيبة أو اجراء انضباطي ، يتخذ ضد المتآمرين . فالملكان من المتآمرين ، وما يوصي به مكيافلي ببساطة وجلاء هو القتل . وقد يدافع مكيافلي عن نفسه قائلاً « أنا لا أوصي بالقتل ، وانا أحمل على اغتصاب الملك كما تحملون . ولكنني أبحث في الطرق والوسائل من وجهة نظر موضوعية مجردة » . إن مكيافلي لا يدافع عن القتل بالجملة ، وإنما يقول ان هناك حالات ، تبرر للحكام قتل منافسيهم ولا سيما عند اقامة ممالك جديدة .

فقتل « ابناء بروتوس » والحالة هذه لا يعني مجرد اعدام الخونة الذين ثبتت ادانتهم بالخيانة ، وإنما يعني قتل كل من يشكل وجوده خطراً على نظام حكم جديد . وهذا ما عناه مكيافلي تماماً . فهو واثق من ان جنون الحكم من القوة بحيث يدفع صاحبه إلى عمل كل شيء ، قد يبدو في شكل مؤامرة ، فاذا قُدِّر للمؤامرة أن تفشل ، فستولّد لدى الباقين من اخوان المتآمرين أو أبنائهم أو مؤيديهم ، رغبة عارمة في الثأر ، مما يجعل من المستحيل على الحاكم ان يشعر بالأمن والطمأنينة طالما هم على قيد الحياة . وتنطبق هذه القاعدة أيضاً على اولئك الذين يأخذون على عاتقهم حكم الجماهير سواء في امارة أو في دولة حرة ، والذين يعرضون حكومتهم ، إذا تقاعسوا عن تأمين أنفسهم ضد أعداء العهد الجديد، إلى قصر الاجل . ويقول مكيافلي أيضاً ان الحكام الجدد، إذا وجدوا الشعب معادياً للنظام ، فان خير ما يفعلونه هو ان يحاولوا كسب الشعب عن طريق السماح له « بالثأر لنفسه من اولئك الذين كانوا سبباً في عبوديته » .

ولم يكن المتدينون من المسيحيين وحدهم ، الذين أعربوا عن دهشتهم

وسخطهم على هذه الآراء التي دعا مكيافلي إلى تبنيها وعلى هذه الأساليب الوحشية التي رآها لاقامة نظام حكم جديد . فلقد اعتمد مكيافلي على الماضي البعيد في الامثلة التي استشهد بها . ومع ذلك ، فان هذه الاساليب لم تكن ناجحة كل النجاح في الماضي . يضاف إلى هذا ان هذه الاساليب لا تتفق مطلقاً مع السلوك الذي سلكه هو نحو الثائرين المهزومين ، مما يحمل المرء على الظن بأن هناك رجلين يحملان اسم مكيافلي ، احدهما السياسي الفلورنسي الرؤوف ، والثاني دارس التاريخ الغارق في أقاصيصه القديمة ، والذي فقد كل ما لديه من احساس في استكشاف المرئيات ، فآثر أساليب البرابرة على الاساليب المتبعة في عصره المتحضر .

ولا أرى لي حاجة إلى القول ، بأن ما يدعو اليه مكيافلي في ما سبق بسطه من رأي ، يتناقض تناقضاً صارخاً مع المبادىء الاخلاقية والمسيحية على حد سواء . فهو لا يوصي بما أوصى به إلا كشيء يمت إلى المصلحة ليس إلا . ولكن هل ثبت نفعه يا ترى ؟ ان مكيافلي نفسه يعترف بأن طريق الرعب محفوف بالاشواك والمتاعب . فالعنف يولد العنف ، وهذا يهزم الغاية المتوخاة منه ، ويؤدي الاستمرار في استخدامه حتماً إلى تحول جماهير الشعب إلى العبودية أو إلى ما يدعوه مكيافلي « بالفساد » . ويظل هناك مع ذلك اناس يمثلون دائماً دور الحمقى كبروتوس ، مثلاً ، الذي يتظاهر بالخنوع ، بينما ينتظر في الحقيقة سنوح الفرصة للانقلاب على الحكم الاستبدادي الذي يكرهه ويزدريه ، ويؤدي هذا بدوره إلى اجراءات تعسفية أخرى ، وإلى مزيد من السخط بين أقارب اولئك الذين عانوا من الاستبداد وأصدقائهم ، والذين يعيش الكثيرون منهم في المنافي تواقين إلى شن الحرب على النظام الذي يبغضونه . ويعي مكيافلي جميع هذه المصاعب تمام الوعي . ولولا هذا الوعي ، لما أدرك انه في توصيته « بأن يوجه الأذى كله في ضربة

واحدة ، وان لا يستمر الحاكم فيه إلا إذا كان لمصلحة رعاياه » ، ينادي بسبيل لا يمكن لانصار الحرية ومحبيها اتباعه . وبينما يستخلص غويكاردي من هذا ، ان من الضروري التزام سبيل الاعتدال ، وعدم اتخاذ اجراءات لمجرد الاشتباه ، والتسامح حتى مع اولئك الذين ايدوا العهد السابق شريطة ان لا يجهروا بعدائهم للعهد الجديد ، نرى مكيافلي لا يؤمن بالسبيل الوسط في أي نظام جديد . فهو يرى ان سوديريني قد فشل وان فلورنسة لحق بها الدمار ، وان مصير كل عهد يتبع أساليب سوديريني إلى الزوال .

ويبدو لي ان هذه النتيجة التي توصل اليها من قضية واحدة من قضايا الفشل ، ليست صحيحة . فهو لم يتعمق في درس النتائج . ولقد فشل مكيافلي خاصة في تفهم ما يمكن ان يؤدي اليه حكم قوي إذا لجأ إلى أساليب معتدلة ، شريطة ان لا يسمح بالمنازعات والاحزاب ، ولكنه مع ذلك ادرك ان « عصوراً ذهبية » ، قد مرت بالعالم ، وتمتع فيها كل انسان بحرية الرأي والدفاع عنه . يضاف إلى هذا ان ثمة اعتبارات أخرى في عصرنا يجب ان لا يسقطها الانسان من حسابه ، فقد اقترب العالم من بعضه بشكل لم يعهده العصر الذي كتب فيه مكيافلي مؤلفاته . وقد أثار نهب رومة ودمارها في عام ١٥٢٧ موجة عارمة من السخط لدى جميع الشعوب الاوروبية ، ولكنه لم يدفع أياً من الدول الاوروبية إلى اتخاذ أي اجراء ضد اولئك المسؤولين عنه . وادى عهد الارهاب الذي أقيم إبان الثورة الفرنسية من الناحية الاخرى ، لا إلى الفشل في استئصال شأفة مؤيدي العهد البائد فحسب ، بل إلى خلق سخط عام لدى الشعوب الاوروبية حمل اولئك الذين أيدوا الثورة في بدايتها على الانقلاب عليها حرصاً على سلامتهم ، مما اسفر نهائياً عن هزيمة فرنسا في معركة واترلو . ولا حاجة بنا إلى الاتيان بمزيد من الاستشهادات العصرية ، ولكن علينا ان نفكر بهذه الاستشهادات قبل أن نصدر الحكم

على النظرية القائلة بأن الاخلاق والمصلحة في السياسة لا يتفقان .

ونصل الآن إلى موقف مكيافلي من الدين . فهو يظهر من الناحية الأولى ، المزيد من الاحترام له ، ويصر الفينة تلو الفينة ، على ان آية دولة لا تستطيع ضمان امنها إلا إذا اعتمدت على الدين وشجعته ، ولكنه يعالج من الناحية الأولى وفي فصول خمسة من مطارحاته قضية الدين وكأنه يعتبره من الناحية السياسية ، مجرد اداة يمكن للدولة استخدامها لاقناع الجماهير بعمل ما تريده هي منهم . ويقوم تفصيله الواضح جداً لديانة رومة القديمة على الحقيقة الواقعة وهي انه كان من السهل فرض الاشراف على هذه الديانة واستخدامها ، وان في الامكان بالنسبة إلى النبوءات والايمان ، وضع تفسيرات تنفع الغاية الدنيوية المتوخاة ، ومعظم ملاحظاته عن الديانة التي نشأ عليها ، ملأى بالنقد ، ولكنها انتقادات موجهة على الغالب إلى سياسة البابوات السياسية ، وإلى الرذائل المستشرية في البلاط البابوي ، وبين كبار رجال الدين . ولم تكن هذه الرذائل في رأيه مؤثرة على تعاليم الكنيسة ، ومضعفة اياها ، فحسب ، بل كانت مسببة لفضائح ، بدت له وكأنها ستنزل اللعنة بالنصرانية ، وهذا ما حدث فعلاً عند قيام لوثر . وعندما يتحدث عن روحية الرهبنات الدينية يقرن حديثه بالاحترام . ولا يرى في التعاليم والاجراءات إلا خطأين يشير اليهما ، يتعلق احدهما بالطقوس والثاني بالعقيدة .

ففي الكتاب الثاني من « مطارحاته » ، يتحدث مكيافلي عن الطقوس المسيحية ، فيصفها بأنها « ناعمة لا آسرة » ، وذلك إذا ما قورنت بالطقوس الوثنية التي لم تكن تقتصر على « الفخامة والجلال فحسب» بل تتعداهما إلى سفك الدماء والمزيد من القسوة والتضحية باعداد كبيرة من الحيوانات . وليس من الممكن ان يكون مكيافلي مشيراً في حديثه هذا إلى طقوس رومة في عهد الجمهورية ، إذ ان هذه الطقوس لم تكن

تعرف الدم كثيراً ، وإنما كانت تقتصر على الفخامة والزخرفة . ولا بد انه عندما كتب ما كتبه كان يفكر بالطقوس الشرقية التي انتشرت في عهد الرومان والتي كان من مظاهرها « حمّام الدم » الذي اشتهر أمره . وأرى من الصعب علي ان اتصور فلورنسياً مثقفاً كمكيافلي يعرب عن تمتعه « بحمام الدم » . كما انه لو كان الهدف من الدين الحث على سفك الدماء والتعطش اليهـا ، فليس ثمـة مـا يمكن ان يقال ، سوى ان هذا الدين مهزلة ليس إلا . وأرى اننا ، إذا كنا سنحذو حذو رومة ، على أي حال ، وهذا ما لا أتمناه ، فعلينا ان ندرس أولاً ، حقيقة مـا كانت رومة تفعله ، وإذا كنا نريد ان نأخذ من النتائج امثلة ، فعلينا قبل ان نضع استنباطاتنا ان ندرك حقيقة هذه النتائج . ولو صحت الروايات التي نقلت عن طريقة قيام الدين في رومة ، لتبين انه استهدف السيطرة على الغرائز لا اثارتهـا ، وهذا مـا ينطبق على مفاهيم الديانة المسيحية .

وتنصب شكوى مكيافلي الثانية من الدين على « ان ديانتنا قد مجدت الوضيعين والخياليين من الناس ، لا الرجال الفعّالين العاملين ، ووضعت للرجل مثله العليا في التواضع وانكار الذات والترفع عن شؤون الدنيا ، بينما جعلت الوثنية المثل العليا محصورة في العظمة والقوة وكل مـا يشجع الانسان على الجرأة والشجاعة » . ويمضي فيقول إنه على الرغم من ان الدين يسمح للناس بتمجيد أوطانهم والدفاع عنها وهذا يتطلب منهـم تدريب أنفسهم واعدادها للدفاع ، الا ان هذا العامل في التربية الدينية ، أهمل إهمالاً مؤسفاً ، مما أدى إلى استخذاء الناس للاوضاع الراهنة وإلى اختفاء تعشق الحرية .

وأرى أن أكتفي هنا بالقول ، بأنه في الاوقات التي يتحدث عنهـا مكيافلي كان تشجيع الشعب على الثورة ضد حكامه الطغاة امراً يكفي لتعريض صاحبه إلى القتل والمذابح . ولا ريب في ان السياسة التي اتبعها

البابا يوليوس الثاني كانت أكثر واقعية وانسانية . إذ مارس صلاحياته كسيد أعلى على طغاة المقاطعات البابوية (رومانا) فطردهم ، وعيّن بدلاً منهم حكاماً أمل في ان يحكموا المدن حكماً افضل .

ومن الواجب انأتحد ث هنا بعض الشيء عن وثنية مكيافلي ، التي كثيراً ما كتب عنها ، ولا أرى أفضل في هذا المجال ، من البدء باقتباس ما قاله عنها فيلاري في كتابه « حياة وعصر نيقولا مكيافلي » . وذلك لأن هذا الكاتب عرف كتابات مكيافلي وعصره معرفة وثيقة . قال فيلاري : « إذا كان معاصرو مكيافلي وثنيين في القضايا السياسية ، فقد كان مكيافلي نفسه أكثر وثنيّة منهم ، وهذا ما تقيم الدليل عليه ، كل صفحة من صفحات كتبه . فهو شديد الاعجاب إلى حد لا يوصف بالعهود الغابرة ، وهو لا يبدو كثير التمسك بالدين ، اما كراهيته للبابوية فواضحة كل الوضوح ، وتظهر وثنيته عندما يتحدث عن المسيحية ، ولا سيما عندما يحاول مقارنتها بالوثنية ، كما تبدو في العبارات الخاصة التي كان كثيراً ما يستخدمها ، والتي كانت تعكس طريقة تفكيره بوضوح بارز . فهو يستخدم مثلاً كلمة « الفضيلة » لتعني الشجاعة والحيوية سواء في طريق الخير أو طريق الشر . وكان يستعمل كلمة « الطيبة » عندما يتحدث عن معاني الفضيلة المسيحية ، ولم يكن معجباً بها كاعجابه بالفضيلة الوثنية التي هي دائماً مصدر من مصادر المجد . ورأى ان الناس يقدرون المجد أكثر من أي شيء آخر في العالم ، وذلك لأن في المجد خلودهم وتشبههم بالالهة . ويقول أيضاً ان الناس يؤثرون السمعة السيئة على ان يكونوا مغمورين عائشين في زوايا النسيان ، وذلك لأن السمعة السيئة تنقل اسماءهم إلى ذراريهم . وكان يعجب كل الاعجاب بما اطراه جينو كابوني من ثناء « على اولئك الذين أحبوا بلادهم أكثر من حبهم لسلامة أرواحهم » ، ويكرر قوله الذي كان شائعاً في عهده كل الشيوع كثيراً . ولا ريب في ان

ما قاله فيلاري صحيح كل الصحة ، فلقد سيطرت الروح الوثنية على آرائه في السياسة والحرب والدين كما اثرت على حياته الشخصية أيضاً . وليس ثمة مجال للشك في هذا مطلقاً . أما إذا سأل سائل ، إلى أي مدى تمكنت هذه الوثنية من حمله على التخلي عن الديانة التي نشأ عليها ، فهذا أمر آخر ، ليس من السهل الرد عليه .

ومن المؤكد ان مكيافلي اعجب بديانة رومة القديمة أكثر من الديانات الاخرى ، ولم ينشأ اعجابه هذا عن مجرد الاعتقاد باستحالة بقاء الدولة بلا ديانة لها ، بل عن كون الديانة الرومانية من النوع الذي يستطيع الساسة استخدامه لتحقيق غاياتهم السياسية . أما الديانة المسيحية ، فلم تنشأ من ابتكار الساسة ، وكانت تدعي لا مجرد الاستقلال عن الدولة ، بل تفوقها عليها أيضاً ، كما وضعت لنفسها قواعد عقائدية محدودة لم يكن من السهل تكييفها لتنسجم مع الاهداف السياسية . ومع ان مكيافلي يعرب عن أسفه لهذا ، إلا انه من الناحية الاخرى ، لا يكفر بالعقائد التي تنطوي عليها المسيحية ، ولا يوجه إلى الكنيسة تهمة الخطأ . والأمر بسيط ، فهو لا يتفق في روحيته مع المسيحية لأن هذه تبشر بالسلام ، وهو يرى ان حروب الفتح وبناء الامبراطوريات ، هما أكثر ما تستطيع الشعوب اداءه لتمجيدها ، ولا ريب في ان وثنيته كانت عميقة الجذور إلى الحد الذي لم يدرك فيه ان هذه العقيدة التي ينادي بها ، لا تتفق مطلقاً مع العقائد الاخرى ، غير المتأصلة في نفسه والتي يدافع عنها ، كحق الناس في الحرية ، وحق الشعوب في تقرير شكل الحكومات التي تختارها . ولا تشجع المسيحية العنف ، وتنظر إلى « الحيلة » بشيء من المقت والازدراء ، أما مكيافلي ، فيمجد العنف دائماً ، ولا يكترث بسافونا رولا ، لأنه امتنع عن العنف ، وينظر إلى « الحيلة » على انها عنصر لا يقل أهمية للفراهة السياسية عن العنف ، وقد تفضله أحياناً ، لما تحققه من نتائج ناجحة . وعلى الرغم من كثرة

حديثه عن العدالة وللمحاكم ، والقضاة النزيهين ، فهو عندما يصل إلى موضوع اولئك الذين ينصبون العداء لعهد قائم ، ينسى كل شيء عن العدالة والمحاكم ، ويكتفي بالقول ، انها يجب أن تزول ، ومع ذلك ، فبالنظر إلى الطريقة التي تنطوي على الاحترام والتي يتحدث فيها مكيافلي عن الكنيسة لا عن رجال الدين ، وبالنظر إلى اعترافه الصريح في كتابه « الامير » ، بأن العناية الالهية ساهرة لا على الكنيسة وحدها ، بل على املاك البابا الزمنية أيضاً . وبالنظر كذلك إلى انه رغم ازدرائه لرجال الدين وكراهيته لهم ، سمح لولده نيقولو ، بأن يصبح واحداً منهم ، ثم اعترف على فراش موته لاحدهم ، طالباً المغفرة ، فاني لا أرى سبباً يدعو إلى الافتراض بأن وثنيته قد قادته مطلقاً إلى نبذ الكنيسة من صميم فؤاده ، ولا مبررَ صحيحاً للشك في اخلاص توبته قبل وفاته . وهناك قصة تروى ، عن انه القى وهو على فراش موته ، نكتة ساخرة بالدين . وقال انه يؤثر ان يلتقي بمن هم في الجحيم لا في النعيم ، لأنهم أكثر امتاعاً في الصحبة . ولكن ليس ثمة من دليل على صحة هذه القصة التي قد تكون مختلقة من أصلها ، لا سيما وانها لا يمكن ان تصدر عن كاثوليكي مهما كانت درجة ورعه ، إذا كان من قراء التاريخ القديم . ومع ذلك فهناك دليل على انه كان يؤمن بالله، وانه تلقى القربان المقدس ، وقام بواجباته الدينية على فراش موته ، الذي ظل أحد الكهنة يقف إلى جانبه حتى اللحظة الاخيرة .

١١ ـ الغاية تبرر الواسطة

تسيطر فكرة « الغاية » او الهدف على جميع نظريات مكيافلي السياسية . فالحكام يحاولون مهما كان طرازهم ، حماية أنفسهم في

المراكز التي يحتلونها . ويحاول المتآمرون ، والراغبون في اقامة الممالك ، قلب السلطات القائمة ، أما الشعوب فلا تطلب إلا السعادة والحرية ، ولا تنشد في حالة تعرضها للاضطهاد ، إلا الثأر من مضطهديها . ويبحث الشبان عن المركز والشهرة ، فالذين لا يملكون المراكز أو الممتلكات ، يرغبون في امتلاكها ، بينما يتوق الذين في أيديهم المراكز والممتلكات إلى الحفاظ عليها . وتختلف هذه الغايات كلها ، ولكن يمكن تعلم طريقة تحقيقها في جميع الحالات ، من دراسة التاريخ ، وذلك لأن هذه الاهداف كانت موجودة عند الآخرين ، وقد استخدموا هذه الوسائل أو تلك ، في شتى الظروف والاوقات ، للحصول عليها ، استخداماً ناجحاً أو غير ناجح . ولما كان مكيافلي في كتابه « الامير » ينصح المرشحين للامارة ، بالطرق التي توصلهم اليها ، كما تنصح القائمين عليها بخير السبل للحفاظ على ما يملكون ، حتى ولو كانوا من الطغاة ، فقد اعتقد كثير من ناقديه ، بأنه يدافع عن الوسائل التي يبحثها ، دون أن يكترث بالغايات التي قد تكون وراءها ، حتى ولو كان الطغيان احدها ، وهذا ما حمل فريدريك الاكبر ، على الثورة عليه ، فكتب كتابه « ضد مكيافلي » ، ليدحض مفاهيمه عن الطغاة ، ولكنه ، أي فريدريك ، بعد ان افلح في الوصول إلى العرش ، اتبع تماماً نفس الاساليب التي سبق له أن ثار عليها في شبابه ، وحمل عليها في كتابه . وبالطبع لم يكن مكيافلي يدافع عن أي شيء مطلقاً ، وكل ما كان يفعله هو ان يشير إلى النتائج التي قد تنجم عن اتباع سير معين من السلوك ، وان يقول للامراء ان المجال فسيح أمامهم إذا أرادوا الوصول إلى مثل هذه النتائج ، وان طريقتهم في الحكم لا تصلح لتجنبها إذا أرادوا هذا التجنب .

ولا يتحدث كتاب « الامير » عما في الاهداف التي يتوخاها الأمراء من خير أو شر ، وانما يهتم الكتاب فقط ، في موضوع ما إذا كانت

الوسائط التي يبحث عنها هي الصالحة للوصول إلى تلك الاهداف المعينة ، أو انها غير صالحة لها . ولا تنطبق قاعدة « الغاية تبرر الواسطة » على الامير ، إذا الحقنا بكلمة التبرير أي معنى اخلاقي . وتختلف الحالة في « المطارحات » تمام الاختلاف ، إذ يقول مكيافلي ، « ان من القواعد الصحيحة القول بأن النتائج قد تبرر ارتكاب اعمال قد لا يمكن التسامح بها ، فاذا جاءت هذه النتائج خيرة ، وطيبة ، فانها تبررها دائماً » . ولعل قاعدته الاخرى بأن « الغاية تبرر الواسطة ، أكثر شمولاً وجمعاً للقول ، ولكنها أقل دقة من هذه القاعدة الثانية ، وذلك لأنها تفترض ان الغاية يجب ان تكون طيبة ، وانها يجب ان تتحقق ، أو أنه يجب أن تكون هناك على الأقل مبررات كثيرة لافتراض تحقيقها ، وان لم تذكر ذلك بوضوح وصراحة .

وتسيطر فكرة هذه القاعدة على آراء مكيافلي سيطرة تامة . فهو يدافع عن « الحيلة » ، ويبررها كوسيلة لخداع الاعداء الاقوياء ، واقناع الشعب بأن الانسان يفعل الصواب . ولقد أورد مكيافلي في مطارحاته الكثير من الأمثلة على « الحيلة » وأطرى القائمين بها على أعمالهم . ولجأ الرومان إلى الحيلة ، وكانوا حكماء في طريقتهم . وهو يوصي أيضاً بافناء كل من يعرف عنهم العداء للنظام الجديد ، سواء أمثل الأمير أو الجمهورية هذا النظام . وهو ينصح كذلك الراغبين في الارتفاع من المراكز الخفيضة إلى المراكز العالية باللجوء إلى الحيلة .

ويحاول بيرد ، وقد هزّه مذهب مكيافلي هزاً عنيفاً ، الدفاع عنه مع ذلك وايجاد المبررات بأن كثيرين من المفكرين الذين سبقوه قد حملوا هذا الرأي . فقد قرأ لهم ذلك في مؤلفاتهم ، وبينهم اوفيد وشيشرون . ولا ريب في ان قاعدة مكيافلي كانت منسجمة مع سير الامراء والحكام في العصر الذي عاش فيه .

ويقول ارسطو في كتابه « الاخلاق » .... « لا يعترف كل عمل

أو كل شعور بوجود النيّة ، فلبعض الأعمال والمشاعر اسماء تعني السوء كالازدراء ، وعدم الخجل ، والحسد ، والزنا والسرقة والقتل ، وتعني هذه الاسماء ان مسمياتها سيئة وان هذا السوء لا يقتصر على مجرد الاغراق فيها أو الاكثار منها . ولهذا فليس في إمكان الانسان ان يكون محقاً قط في ارتكابها ، بل يجب ان يكون دائماً على باطل » ، واخلاق الكنيسة المسيحية كاخلاق ارسطو من النوع الغائي « الذي ينتقل بالغايات » ، ولكن قواعدها تنص كقواعد ارسطو بالذات ، على ان بعض الاعمال سيئة من آساسها . وان ليس ثمة من غاية يمكن ان تبررها. وينفي مكيافلي بصراحة ، انطباق هذا المبدأ على السياسة . وهذا لا يعني انه يعكس الخطأ إلى صواب والصواب إلى خطأ ، ولكنه يؤثر ان يقول بجرأة ، انه إذا كان هدف الامراء والحكام سلامتهم ، فهناك حالات تتطلب منهم ان يعرفوا ارتكاب الاخطاء ، وعندما تكون سلامة الدولة في خطر ، يجب القيام بأعمال قد تعتبر من وجهة نظر الداعية الاخلاقي مما لا يمكن التسامح به أو غفرانه . فهو والحالة هذه انسان صريح كل الصراحة ، وإذا كانت صراحته تجعل أقواله تبدو مثيرة للفزع ، إلا انها على الأقل توضح الموضوع تماماً . فهو يرى ، ان الغاية الطيبة تبزر في حقل السياسة ، الواسطة التي تعتبر خطأ من الناحية الاخلاقية .

ومن الواضح ان علينا قبل الخوض في بحث ما إذا كانت الغاية الطيبة الناجحة في حقل السياسة تبرر الواسطة ، ان نعرف القواعد التي سنقرر على ضوئها معنى « الطيبة » و « السوء » في كل من الغاية والنتيجة . ولعل خير رد مؤقت على هذا يقوم في الفصل نفسه ، إذ ان مكيافلي يتحدث فيه عن « مهندس الدولة العاقل ، الذي يستهدف الحكم لا لمصالحه الشخصية ، بل للمصلحة العامة ، ولا لمصلحة خلفائه ، بل لمصلحة ذلك الوطن المشترك للجميع » . وهو يرى ان أي انسان في مثل هذه

الظروف ، وفي مثلها وحدها ، لا يستطيع ان ينحو باللوم على حاكم « إذا قام بعمل ، مهما تنكب فيه جانب المألوف ،تكون فيه فائدة في تنظيم المملكة أو انشاء جمهورية » ، وهو يلقي في الفصل التالي ضوءاً أكثر شمولاً على معنى « الطيبة » ، إذ يتصور دولة يعيش فيها الحاكمون والمحكومون على السواء في أمن واطمئنان ، وسلام ، وعدالة، وتحترم فيها السلطات المدنية وتطاع وتصان الثروات فيها من الهجوم ومن النبلاء ، وتجل فيها الفضيلة ، ويسير كل شيء في هذه الدولة بيسر ونعومة . فلا حقد ولا اشتهاء لما لدى الغير ، ولا فساد ولا افساد ، ولا طموح ، وكل انسان حر في التمسك برأيه والدفاع عنه .

ولا ريب في ان هذا الوصف ينطبق على الامبراطورية الرومانية كما افترض مكيافلي صورتها في عهد نيرفا (Nerva) (١) وغيره من الاباطرة الصالحين ، ولكننا إذا استعضنا عن كلمة « الثراء » بكلمة « الاملاك » فان الوصف نفسه ينطبق أيضاً على طراز الجمهورية التي فكر مكيافلي بوجوب وجوده عندما يسير الحكم فيها على طريق طيب . وهو يحمل في مثل هذه الحالة ، مفاهيم رفيعة جداً لما تعنيه الحكومات الطيبة ، و « للطيبة » التي يجب ان يسعى جميع الحكام من أمراء أو جمهوريين للتحلي بها ، والسؤال الوحيد الذي يبدو أمامنا هو ما إذا كان ثمة تبرير لجميع الوسائط ، شريطة ان تحقق الوصول إلى هذه الغاية ، وتبرير لاقدام روملوس على قتل أخيه روموس ، ليغدو المشرع الوحيد لرومة ويحقق الحكم الصالح . وعلينا ان نرد على هذا السؤال على ضوء النتائج التي تمخضت عن تحقيق الغاية .

ولقد ظهر بعض التناقض في مفهوم « الطيبة » الذي يجب أن يستهدفه

---

(١) ماركوس نيرفا (٣٥ – ٩٨) ميلادية ، امبراطور من اباطرة رومة ، حكم أقل من سنتين . وسبق له ان كان قنصلا وحاكماً . وقد عين امبراطوراً بعد موت دومتيان عام ٩٦ ميلادية ، وقد حكم بالتعاون مع تراجان حتى وفاته — المعرب —

المشرع ، ففي ظل الحكم الملكي ، يكون الاثرياء احراراً في التمتع بثرواتهم كما كانوا فعلاً في عهد الامبراطورية أيام نيرفا ، أما في الجمهورية ، فيرى مكيافلي وجوب قيام المساواة و « ان تكون الدولة غنية والمواطنون فقراء » ، وهو لا يعني بهذا الفقر معناه الحرفي ، بل معناه اللاتيني أي « الاعتدال في وسائل العيش » . يضاف إلى هذا ان مكيافلي الذي يكره كراهية قوية وجود طبقة نبيلة تتحكم في الأرض ، ولا سيما إذا مارست هذه الطبقة حق التشريع والقضاء على أتباعها ، يرى ان هذه الطبقة « عندما يكثر عدد أفرادها ، يجب الخلاص منها على أيدي كل من يستهدف إقامة جمهورية ناجحة » ، ولكنه من الناحية الثانية ، يناقض نفسه فيقول في مكان آخر : « وحيث توجد المساواة ، لا يستطيع كل من يود اقامة مملكة أو إمارة ، تحقيق ذلك ، إلا إذا اختار من الصفوف المتساوية ، عدداً من الطموحين ، وذوي العقول القلقة ، وجعل منهم نبلاء في الحقيقة والاسم ، يمنحهم القصور والممتلكات . ويضفي عليهم الامتيازات ، بحيث يؤلفون طبقة تتمتع باحترام اتباعها . » ويمضي فيقول .... « أما النير الذي سيرغم الآخرون على احتماله ، فيكون من النوع الذي تفرض القوة فقط احتماله » . ولا غرابة ، إذا ما سمعنا مكيافلي بعد كل هذا يقول : « ولا ريب في ان تحويل بلاد صالحة للحكم الملكي إلى جمهورية ، وتحويل أخرى صالحة للحكم الجمهوري إلى ملكية ، قضية لا يستطيع التصرف فيها إلا كل من أوتي قوة عقلية خارقة ، وصلابة بارزة ، وهما صفتان نادرتان في الرجال » . ومع ذلك فهناك ظروف يستحيل فيها الحفاظ على النظام الجمهوري ، ولا سيما عندما ينقلب جميع الناس إلى مستكينين وفاسدين ، وفي مثل هذه الحالة يستطيع « السلطان شبه الملكي » وحده ان يعيد فرض النظام .

وليس النظامان الجمهوري والملكي ، بالوحيدين اللذين يجب ان يختار

المرء بينهما سبيله . .فهناك عدد كبير من المفاهيم « للطيبة » في النسق السياسي ، بقدر ما هناك وفرة في عدد الكتّاب والسياسيين والساسة . وعلى هذا ، فاذا كان من حق كل فرد يقتنع بأن مفهومه الخاص عن الطيبة ، هو المفهوم الذي يجب أن يسود ، وانه هو الوحيد القادر على تنفيذه ، ان يزيل منافسيه من ساحة الحياة ، وان يتخاص من جميع معارضيه ، فان العالم سيواجه ازمة دقيقة ، ومشاكل ، بدلاً من تلك الاجواء من الهدوء والسلام ، التي شرحها مكيافلي بوضوح ، « وسنرى الشعوب وقد مزقتها الحروب والخلافات ، والملوك وقد اغتالهم القتلة ، والمدن وقد نهبت وسلبت ، والطقوس الدينية وقد فسدت ، والزنا وقد انتشر ، والبحار وقد امتلأت بالمنفيين المنبوذين ، والصخور وقد لطختها الدماء . وستقع فظائع لا تعد ولا تحصى ، وينظر إلى المرتبة والثروات وسياء النبالة على انها جريمة عظمى ،كما سنرى الواشين وقد كوفئوا أحسن المكافآت ، والخدم وقد استعدوا للثورة على سادتهم » . وهكذا فان القول المأثور « بأن الغاية إذا تحققت تبرر الواسطة » ، تناقض صريح في التعبير ، اذ انه يعني ان كل من يجد له غاية طيبة يستطيع ان يلجأ إلى كافة السبل للوصول اليها ، وعلى هذا ، فمن حيث ان اشخاصاً متعددين قد يحملون الغايات السياسية الطيبة ، فان الفوضى التي لا نعرفها اليوم إلا لماماً ستسيطر على كل مكان .

ولا ريب في انني مندهش حقاً من شيء خاص يبدو لي غريباً في تفسير مكيافلي لهذه الفتوى السياسية . فهو يصر في العادة على ان النظام والهدوء يتطلبان تصديقاً غير متحيز لشؤون العدالة ، كما يتطلبان وجود عدد كبير من المحاكم والقضاة لمحاكمة المجرمين والخونة والمديرين الفاسدين . ولكنه لا يعود إلى ذكر المحاكمات عند الحديث عن الاجراءات الاستثنائية التي يجب ان يتبعها مؤسسو الدول الجديدة . فالمفروض ان يعرف الحكام الجدد اعداءهم ، وان ما عليهم فعله ، هو

ابلاغ جنودهم ، أو قضاتهم ارادتهم ، وان يقولوا لهم .... « ها هم الرجال ، اقطعوا رؤوسهم ، وانتهوا من ذلك بسرعة » . ولا ريب في ان الخونة يستحقون الموت ، كما يستحقه الثائرون الذين يقبض عليهم والسلاح في أيديهم ، ومع ذلك ، فهو يحث على انشاء المحاكم للنظر في قضايا الجرائم العظمى ، ولكن قد تثور الشكوك ، بسهولة بعد أية حركة انقلابية ، وعلى الحكام ان يأخذوا حذرهم من هذه الشكوك ومن الظالم الذي يشتد أمره من جراء الشك ، مخافة اتهامهم بنكران الجميل . وهكذا كان في وسع الانسان ان يتوقع من مكيافلي ان لا ينصح الحكومة التي تنبثق عن حركة انقلابية ناجحة بالاسراع في الخلاص من منافسيها بل ينصحها بأن « تسير متئدة في اعدام المنافسين ، وان تحرص على محاكمتهم أولاً أمام محكمة غير متحيزة ، مخافة انقلاب العدالة إلى ظلم ، وتحول الخير المتوخى إلى شر » .

ولا أستطيع أن أعتبر مكيافلي مخطئاً ، في تصديقه ، دون تمحيص ، قصص اعمال الناس في القرون البعيدة الماضية ، لا سيما وان معظم هذه القصص من النوع الخرافي ، ومع ذلك ، فهو يطرب لها . ويعلق غويكارديني على أقوال مكيافلي فيقول : « ان العنف دليل الضعف ، ولا سيما عند الامير الذي لم تقم امارته على أساس ما لديه من قوات مسلحة . فعلى هذا الأمير ان يلجأ إلى الاجراءات العنيفة عندما تقضي الضرورة بها ، ولكن عليه في الوقت نفسه أن يحاول توطيد مركزه عن طريق السلوك الانساني الرؤوف ، واغداق المنح والعطايا . ولذا يجب ان لا يعتبر ما يقوله مكيافلي قاعدة مطلقة ، وذلك لأنه يطرب دائماً طرباً شديداً عندما يسمع بالاجراءات العنيفة » . ويشير مكيافلي في مكان آخر إلى فيليب الثاني ملك مقدونيا فيقول ان على الأمير الذي يحتل امارة مقهورة مغلوبة على أمرها ان ينافس فيليب ويباريه ، وان « يجدد كل شيء في الأمارة التي يحتلها » . أي ان يكون صارماً وغير

متحفظ في قسوته في استئصال شأفة المعارضة . ومن الحق ان يقال ان مكيافلي ، يتحدث الآن « كاخلاقي » فيقول ان مثل هذا السلوك سيثير الاشمئزاز لدى أي مجتمع سواء أكان مسيحياً أو غير مسيحي ، وان من الخير لمثل هذا الحاكم ، ان ينزوي في الحياة الخاصة ، بدلاً من اللجوء إلى مثل هذه الفظائع ، لتحقيق غاياته ، ومع ذلك يصر مكيافلي ، على ان الحاكم المصمم على الاحتفاظ بممتلكاته التي اغتصبها ، يرى من مصلحته ان يسلك عين السبيل التي سلكها فيليب الثاني . ولكن أحقاً هذه هي مصلحته ؟ إذن أين هي مبادئ مكيافلي الاساسية والسليمة القائلة بأن أية حكومة لا تستطيع الحفاظ على سلامتها إلا باكتساب حسن نية رعاياها ؟ لا ريب في انه نسي الآن هذه المبادئ ، والمؤسف أنه في لحظاته الاكثر رصانة وهدوءاً ، يضفي وزناً أكبر على المعارضة التي يستفزها الاضطهاد ، ويدرك ادراكاً كاملاً ان من الحمق والظلم ، الحكم على الناس وادانتهم بالشبهات ، كما سبق عصره في الاصرار على وجوب قيام المحاكم والقضاة غير المتحيزين ، بحيث تتوافر للمتهم جميع الفرص العادلة لبسط قضيته ، ومع ذلك لم ينجم نجاح فيليب كلية عن الوحشية التي عرضها أحياناً . فلقد عرض كما ذكر بيكارد – كمبردج ، في تنظيمه للدول الاغريقية « منتهى الفراهة السياسية الواسعة الافق ، وفهماً لاوضاع العالم الهليني كان يفتقر اليه ساسة دول المدائن الاغريقية » .

ولقد أوصلني هذا إلى نهاية ما أريد قوله ،عن موقف مكيافلي ، من العلاقة بين الاخلاق والسياسة . ولم يبق أمامي إلا الاشارة إلى ثلاثة كتب ظهرت مؤخراً في هذه البلاد ، اولها كتاب « من افلاطون إلى مكيافلي » ، وهو المجلد الأول من سلسلة عنوانها « اعلام الفكر السياسي » للاستاذ فوستر من جامعة اوكسفورد ، وثانيها « سياسة مكيافلي » لبترفيلد ، الاستاذ في كمبردج ، وثالثها « مكيافلي » ، للاستاذ وايتفيلد ، أستاذ

الادب الايطالي في جامعة برمنغهام . وتعرض هذه الكتب الثلاثة تبايناً في الرأي بالنسبة إلى موقف مكيافلي من المثل الاخلاقية ، أكثر بروزاً من الطبيعي والمألوف ، فبينما يدينه كل من فوستر وبترفيلد ، على نظرياته ومواقفه ، نجد وايتفيلد ، يبرئه ويدافع عنه في كل شيء باستثناء سياسة العدوان التي أوصى بها في الكتاب الثاني من مطارحاته . وكان الانطباع الذي حصل عليه فوستر من قراءاته لمكيافلي انه « لا يؤمن بالعقيدة الاساسية للدين المسيحي ، وهي ان الانسان مخلوق لأداء هدف سماوي غيبي » ، وانه أيضاً لا يعتقد بأن « الفضيلة تنسجم مع القانون الطبيعي » ، إذ ان الوصول إلى السلطان عنده ، هو الفضيلة في حد ذاتها ، كما انه لا يعترف بأي مقياس آخر يمكن بواسطته الحكم على الفضيلة » . وقد يكون في هذه الاقوال بعض القسوة ، ولكنها تتفق مع ما توصل اليه بترفيلد الذي اقترح بأن يحمل كتاب « الامير » عنواناً ثانياً وهو « كتاب مدرسي للمستبدين » ، والذي قال « ان الصورة الوحيدة الحتميمية لمكيافلي ، هي نابوليون بونابرت ، وان ليس من المدهش في النتيجة ان تستاء الاجيال المتأخرة من هذا المكيافلي ، الذي يبدو وكأنه يؤمن للطغاة المستبدين كتاباً يوضح لهم فيه الخطط التي يستطيعون اتباعها » . وبعد ان يحذر بترفيلد طلابه وقراءه ، من ان يعلقوا كبير أهمية على البيانات التي تبرر استخدام أية « واسطة » عندما تكون سعادة المجتمع مهددة بالخطر ، يقول ان مثل هذه البيانات غير صالحة ، وان مذهب مكيافلي يأخذ القاعدة العامة القائلة « عش كما يعيش الناس » ليبرر القول بأن التمسك بأهداب الاخلاق لا يجدي ، وان السبيل الوحيد هو تكييف سلوك أفاضل الناس للمقاييس التي يسير عليها سيئو السلوك ، وهذه دعوة لا مثيل لها إلى نبذ الفضيلة والتمسك بالرذيلة .

لكن الاستاذ ويتفيلد ، يقيم من نفسه مدافعاً ، لدحض مثل هذه

الآراء . وهو يلجأ لتحقيق ذلك إلى نوعين من الحجج . فهو يصر أولاً ، اننا في حكمنا على السبيل الذي يدعو اليه مكيافلي ، وما فيه من تمسك بالاخلاق أو ميل عنها ، يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الاوضاع التي يتصورها . وأنا أتفق معه في هذه الناحية ، وأعتقد انني في الملاحظات التي أوردتها حتى الآن قد عنيت أكبر العناية بهذه النقطة . فمن الواضح « ان من غير المعقول أو المنطق ، ان يلعب فريق لعبة الكريكيت ، في الوقت الذي يلعب الفريق الآخر ، بالمدافع الرشاشة » . ولكن إذا كان الفريق الثاني يريد أن يلعب الكريكيت ، ولكنه لا يستطيع ، فهذه قضية أخرى تختلف فيها الآراء وتتباين .

أما النوع الثاني من الحجة التي يستند اليها الاستاذ وايتفيلد ، فيبدو في المحاولة التي يبذلها لاظهار آراء مكيافلي متفقة في جوهرها مع آراء كبار الكتّاب المشهورين من قدماء ومحدثين . فهو يشبه آراء مكيافلي في احاديث باغليوني ، بآراء شيشرون ودانتي ولاروشفوكو ، كما يشبهه في مواضع أخرى بليفي . وقد بحثت في هذا الموضوع باسهاب وتفصيل ، في الفصول السابقة ، وانني أترك للقارئ الحكم ما إذا كنت أنا المصيب في الاستنتاجات التي توصلت اليها ، أو أن وايتفيلد هو المصيب ، بعد ان يفرغ من قراءة كتاب « المطارحات » ، الذي لا بد وان يقرأ معه « الامير » أيضاً .

١٢ ـ الفساد المزعوم في الجنس البشري

سبق لي ان أشرت أكثر من مرة إلى المقال الذي كتبه الاستاذ هانكوك عن مكيافلي . ويهمني هذا المقال بصورة خاصة لأن الاستاذ

هانكوك ، يعترف بأن القوى المشايعة للمكيافلية والمناهضة لها ، ما زالت عاملة ولا سيما في حقل السياسة الخارجية ، ولأنه ينتقد الفريقين في مقاله . فهو يقول ان المؤرخين يميلون إلى تجنب الخوض في بحث القضايا الاخلاقية التي تتصل بالدبلوماسية الاجنبية ، بينما يسلط مكيافلي عليها الاضواء ، ويواجهها بشجاعة وبسالة . ولكنني أعتقد من الناحية الأخرى ان نقد الاستاذ هانكوك لمكيافلي ، متناه في القسوة . فهو يقتبس مثلاً قول الاستاذ آلين بأن « مكيافلي كان يرى بوضوح ، ولكنه لم يكن رى كثيراً » ، ثم يضيف « انه رأى نتائج الأمور دون أن يرى طبيعتها وانه كان في امكانه ان يلاحظ الاشياء ، ولكنه سرعان ما يرتبك ويخطئ ، بشكل تعس ، عندما يبدأ في ايضاحها » . وأنا أقر بوجود بعض التناقضات ، ولكنني أرى ان نظرية مكيافلي متماسكة كل التماسك كما أرى انه أدرك طبيعة الأمور بوضوح يفوق ادراك أي كاتب سياسي آخر . وهو يحمل رأياً سيئاً في الطبيعة البشرية ، ولكن إذا اعتبرنا ما وقع في العالم مؤخراً حولنا ، وما يقع الآن ، فانني أرى انه لم يكن مخطئاً في رأيه كل الخطأ . فالشهوات هي عين الشهوات ، والعواطف هي نفس العواطف من طموح وحسد وشك وطلب للثأر ، ورغبة في السيطرة وما يتبعها من رفض شديد لها ، وسخط يحمله الذين لا يملكون عندما يرون الآخرين يملكون الكثير ، وهؤلاء يميلون بالطبع إلى خلق الاضطراب إلا إذا ضبطوا ضبطاً محكماً كما قال مكيافلي ، ويتعلق السؤال الوحيد هنا ، بما إذا كان مكيافلي قد بالغ بعض المبالغة في أقواله عن فساد الانسان .

ويقدم الاستاذ هانكوك افتراضين من الافتراضات الرئيسية العديدة التي أتى بهـا مكيافلي ، على انهما يحتلان مكان الاولوية ، واولهما ان الناس أشرار بطبيعتهم ، وانهم لا يفعلون الخير إلا بدافع الضرورة ، ولذا فهو يقول ان الخطيئة الاصلية تؤلف قاعدة نظريات مكيافلي السياسية

كما الفت قاعدة نظريات لوثر الدينية .

أما الافتراض الثاني فهو ان القانون وحده هو طريق الخلاص للناس سياسياً ، وان هـذا القانون شيء دنيوي لا قواعد له ولا جذور في عالم الاخلاق ، وانه السبب لا النتيجة للطيبة الانسانية .

وصحيح ان الخطيئة الاصلية ، كانت أساساً في مذهب لوثر ، ولكن الشيء الواضح ، ان آراء لوثر الدينية ، ليست بذات علاقة مطلقـاً بمكيافلي . وإذا أردنا البحث عن منابع « تشاؤمية » مكيافلي ونظريته في القانون ، فعلينا ان نتطلع اليها ، اما بـين مخلفات الماضي السحيق أو في الوسط الذي عاش فيه . ويقول غيركي في الصفحة الثانية والعشرين من كتابه « النظريات السياسية في القرون الوسطى » عند حديثه عـن نظريات « الحزب البابوي » في القرون الوسطى ، انه « لما كانت الدولة قد وجدت قبـل الكنيسة ، ووجدت خارج الكنيسة أيضاً ، فان هذه الدولة هي ثمرة الطبيعة البشرية ، التي اتلفها سقوط الانسان » . وعلى الرغم من تبني اوغسطين لهذا الرأي ، وكذلك غريغوريوس السابـع وغيرهما من الكتّاب في مطلع القرون الوسطى ، إلا انه لم يكن الرأي السائد في عصر مكيافلي نفسه . فقد أدى العثور على مؤلفات ارسطو من جديد ، إلى تبدل واضح ، مما حمل القديس توما الاكويني في الوصف الذي يشرح فيه أصل الدولة ، على تجاهل النظرية السابقة ، وعلى ان يعزو أصل الدولة إلى الحقيقة الواقعة وهي ان « الانسان حيوان اجتماعي وسياسي » ، وقد أوتي من العقل ما يمكنه من ادراك ان « للجماهير » حاجات تتعدى حاجات أية مجموعة من الافراد ، ولكنها تكون مشتركة للجميع ، وانه على ضوء ذلك يجب أن يكون ثمة من يعنى « بذلك الخير الذي يتعلق بالجماهير » ، ويشير القديس توما إلى ان الالتزامات القانونية تنشأ من الحقيقة الواقعة وهي ان الجميع يستهدفون الخير العام . ويمكننا الحكم بأن مكيافلي كان على علم بهذه النظرية ،

من تكرار ورود كلمة « الخير العام » في كتاباته ، ومن الحقيقة الواقعة ، وهي انه كالقديس توما يجعل من « الاهتمام بالخير العام » القاعدة للتمييز بين الامير الطيّب والطاغية . ولا ترد عبارة « الخطيئة الكبرى » في مؤلفات مكيافلي . وعلى هذا يمكننا القول بأن « تشاؤميته » نابعة عن ملاحظته لما في الناس من فساد ، ولما يحملونه من عواطف تجعلهم على اهبة لارتكاب الخطيئة . ولا ريب في ان التأكيد الذي يضعه على الحاجة إلى القانون إذا اريد اصلاح الناس مماثل للنظرية القديمة ، ولكنني اشك في انه نابع عنها ، إذ تكفي في هذا المجال الملاحظة أيضاً . أما ان القانون دنيوي بالنسبة إلى افتراضه وجود مشرّع ، فهذا رأي من الناحية الاخرى ، كان منتشراً كل الانتشار .

ونعود الآن إلى السؤال الثاني ، المتعلق بالرأي الذي يبسطه ، والقائل بأن الناس سيئون بطبيعتهم ، لنرى ما إذا كان حقاً يمثل معتقدات مكيافلي ، وما إذا كان مؤلفنا حقاً يرى ان الطيبة هي ثمرة القانون ، وانها لا تنبع عن أي مصدر غريزي وداخلي في الانسان .

وقد يكون في الامكان الاتيان بعدد لا يحصى من الفقرات في مؤلفات مكيافلي ، لأضفاء شيء من الزخرف على الرأي القائل بأن افتراضيه المذكورين يؤلفان القاعدة الرئيسية في نظريته ، ولكن من المهم جداً في الوقت نفسه ، ان لا نغفل المحتوى الذي يورد فيه هذه الامثلة . فهو مثلاً ، في الفصل الثالث من الكتاب الأول من مطارحاته لا يقول « بأن جميع الناس شريرون ، وانهم دائماً يطلقون العنان للشر الراسب في عقولهم عندما تتاح لهم الفرصة » ، وانما يكتفي بالقول بأن على جميع المشرعين ان يعتبروا هذا شيئاً مفروغاً منه . وصحيح انه هو نفسه القائل في مكان آخر « ان الناس لا يعملون الخير مطلقاً إلا عندما تدفعهم الحاجة إلى عمله ، ولكن عندما يكون الناس أحراراً في الاختيار ، وفي عمل ما يريدونه ، تسيطر الفوضى والاضطراب في

كل مكان » ، وانه هو الذي قال أيضاً « ان الفقر والجوع هما اللذان يدفعان الناس إلى العمل ، وان القوانين هي التي تحملهم على الطيبة والخير » ، ولكنه يضيف إلى هذا قوله : « لا حاجة إلى التشاريع ، طالما ان الامور تسير سيراً مرضياً بدونها » . وقوله في مكان آخر : « وعندما تنهار العادات الطيبة ، يغدو التشريع أمراً لا مناص منه » . وهو لا يصر في الفصل الثاني والاربعين من كتابه الاول ، على ان الناس عامة فاسدون ، بل يكتفي بالقول بأن « من السهل افساد الناس » والسبب الجذري في هذا الفساد ، هو السيطرة التي تملكها عواطف الانسان على تفكيره . ولنضرب مثلاً ، بالطموح ، فهو يفرض ، على حد تعبير مكيافلي ، سلطانه على الافئدة البشرية ، حتى ان الناس لا يستطيعون الخلاص منه مهما ارتقت بهم مراتبهم . اجل انه يصبح مرضاً لا نجاة للنفس منه . ولا يكتفي الناس بالانتقال من طموح إلى آخر ، بل انهم ينقلون عدواه إلى الآخرين .

ولا يبدو لي في جميع هذه البيانات أي شيء من الغلو . فالتاريخ يقيم الدليل عليها ، والواقع السياسي يؤكدها . ومثل هذا القول ، ينطبق أيضاً على ما يقوله مكيافلي من اثر العواطف الاخرى كالحسد والغضب والكراهية والخوف . وعلى الرغم من انها خصال ممقوتة ، إلا انها كانت دائماً وأبداً جزءاً من الطبيعة الانسانية . ولكن لهذه النقطة جانباً آخر ، لم يتجاهله مكيافلي مطلقاً . فلقد وجدت الفضيلة وتوجد في كل عصر ، وكل ما يتغير منها هو توزيعها . وهي ليست ناتجة عن التشريع ، إذ لو كان الوضع كذلك ، لحق لنا أن نتساءل من أين جاءت فضائل المشرعين . وإذا كان جميع الناس لا يعملون الخير إلا بدافع الحاجة ، فكيف نفسر ما يقوم به البعض من عمل تلقائي ، قد يقل جودة عمّا يقوم به الآخرون الذين يحاولون تجنب المجاعة ؟.. ولا يكتفي مكيافلي بالقول ، بأن « أجيالاً متعاقبة من

الرجال الافاضل ، تظهر في الجمهوريات الحسنة النظام ، أكثر من ظهورها في ظل النظـام الملكي » ، بل انه يتوقع أيضاً ، ان تكون هذه الفضيلة من طراز رفيع للغـاية . وهو يقول أيضاً ، ان على المواطنين الذين اشغلوا رفيع المناصب ، ان لا يتقاعسوا عن قبول مناصب أقل منها شأناً في خدمة بلادهم ، وان على المواطنين من امثال ماركوس ريغولوس وسينسناتوس ، اللذين قادا جيوش بلادهمـا إلى النصر ، أن يكونوا على استعداد للتعاقد في مزارعهم الصغيرة ، وان يسمحوا للدولة بالتمتع بالمنافع . ويجب ان يكون هناك رجال من أمثال مانليوس ، على استعداد للتخلي عن حزازاتهم الشخصية استجابة لنداء الوطن ، وآخرون من أشباه كاميليوس يقفون صامدين في وجه المشاق والنوائب . وهو يتحدث في مكان آخر ، فيقول ان على المواطنين في الدول المنظمة ، كمدن المانيا الجنوبية ، ان يدفعوا الضرائب المستحقة عليهم للدولة ، وان لا يحاولوا الخلاص منها بتقديم البيانات الكاذبة ، وان يحافظوا كذلك على قداسة ايمانهم . ويتضح من هذا ان وجود مثل هذه الاجيال المتعاقبة من الرجال الافاضل ، عنصر أساسي في تصريف شؤون النظام الجمهوري .

ويؤكد مكيافلي معظم هذه الآراء في كتابه « فن الحرب » . فهو يرى ان المواطن الذي يزاول مهنة الجندية ، يجب ان يفعل هذا لأن بلاده في حاجة اليه ، وان عليه ان يحارب مستهدفـاً المجد ، أما إذا حارب لسبب خارجي آخر ، فهو ليس بالمواطن الصالح . ويوضح مكيافلي في هذا الكتاب مـا يعنيه « بالفضائل » التي يجب أن تقدرهـا الدولة ، وان تنعم على المتحلي بها بالاوسمة اعترافـاً منها بجهوده . وهي في رأيه ان لا يكون الجندي « مزدرياً للفقر ، وان يوقّر الاجراءات والمنظمات الـتي تفرض الانضباط العسكري وتشرف عليه ، وان يبتعد عن التحزّبات ، ويوحي للمواطنين بروح الزمالة ، وان لا يؤثر العناية

بشؤونه الخاصة على الشؤون العـامة » . وقد يكون الجنود الذين لا يفعلون ما يقوله ، شجعاناً بواسل ، كما كان بومبي وقيصر ، ولكنهم لا يكونون مطلقاً من طيبي الرجال .

وكما يورد مكيافلي ملاحظات ساخرة ومؤذية في موضوع فساد الانسان ، فهو لا يتورع مطلقـاً ، عن ابداء مثل هذا النوع مـن الملاحظات بصدد الجماهير أيضاً . فهو يقول في كتاب « الأمير » مثلاً عن الناس بأنهم « ناكرون للجميل ، متقلبون ، مراءون ، ميـالون إلى تجنب الاخطار ، وشديدو الطمع ، وهم إلى جانبك ، طالما انك تفيدهم ، فيبذلون لك دماءهم وحياتهم ، وأطفالهم ، وكل ما يملكون ، كما سبق لي ان قلت ، طالما ان الحاجة اليها بعيدة نائية ، ولكنك عندما تقع في متاعب ، فانهم ينقلبون عليك » . ويقول في مكان آخـر عنهم : « ان من السهل اقناعهم بأمر من الأمور ، ولكن من العسير جداً ، ابقاءهم على هـذه القناعة » .... وفي مكان ثالث يقول : « وهم يستبدلون حكامهم بسهولة ، أملاً في اصلاح أحوالهم ، وتنفيذاً لهذا الاعتقاد يحملون السلاح ضد اولئك الذين يحكمونهم ، ولكنهـم سرعان ما يتبينون انهم قد خدعوا في هذا الرأي ، لأنهم سيعرفون فيما بعد ، بحكم تجاربهم ، انهم قد انتقلوا من حالة سيئـة الى حالة أسوأ منها » . اما في « المطارحات » ، فهو يقول لنا « ان الجماهير التي لا رأس لها ، لا صلاح لها مطلقاً ، وانها عندما تكون متحدة ، يكون أفرادها اقوياء ، ولكن عندما يبدأ كل منهم في البحث ، عن سلامته ، يعدّون جبناء وضعفاء » . وعلى قضاة المدن ، ان يتجنبوا ، كما يتجنبون الصخور اذا انهارت عليهم ، تقديم الاسلحة الى الجماهير الصاخبة ، اذ عليهم اولاً ان يحسنوا اختيار رجالهم ، وان ينتخبوا لهم احسن الضباط » . وهو يقول في مكان آخر ، « ان الجماهير التي يضللها مرأى المصلحة الخداع ، تسعى دائمـاً الى حتفهـا بظلفها ، وتسيرها الآمال المشرقة

والوعود المتهورة بسهولة » . وعندما تكون الجماهير خاضعة فان جل ما تسعى اليه هو اولاً الثأر من مضطهديها، وثانياً استعادة حريتها . وعندما تتمكن بعد فترة طويلة من العبودية ، من استعادة حريتها ، فانها تميل الى ان تسلك نفس السلوك الشرس الذي يلجأ اليه الحيوان ، ولكن لما كانت عاجزة عن العناية بنفسها ، فانها تغدو بسرعة « فريسة اول قادم يحاول ربط اسارها من جديد » .

وعلى الرغم من ان جميع اقواله هذه قد تكون صحيحة ، الا انه يورد اشارة في « الامير » ، تلمح الى انه لا يعني الحقيقة كلها . وتتحدث هذه الاشارة عمن يغتصب امارة من الامارات ، ثم يقيم دعائم حكمه على الجماهير ، فهو كمن يقيم البناء على اسس واهية من الطين، اذ ان هذه الجماهير سرعان ما تتخلى عنه ، اذا أحست بأن لأعدائه اليد العليا . ونراه في « المطارحات » يقول ان النظام الذي يستند الى الجماهير ، اي النظام الجمهوري، يصلح للمضاهاة بالامارات . فالجماهير « اذا تركت وشأنها لا تخطىء بالنسبة الى قضايا معينة، كتوزيع المناصب والترقيات ، او انها اذا اخطأت ، فأخطاؤها نادرة اذا ما قورنت بما يقترفه القلة اذا عهد اليهم بالتوزيع » . ويمضي في مكان آخر فيقول : « ولا تكون طلبات الجماهير الحرة مؤذية لقضية الحرية الا نادراً » . وحتى لو وقع هذا ، فيكفي لازالة الانطباع الكاذب ، ان يقف رجل له مكانته على المنصة يخطب الجماهير ويشير لها الى خطئها ، وذلك لأن الجماهير حتى ولو كانت متحمسة ، تستمع الى الرجل الذي تحترمه . وهو يقول في مكان ثان « ان ما ينحو به بعض الكتاب باللوم على الجماهير ، يمكن ان يوجه ايضاً الى اية مجموعات من الناس ولا سيما من الامراء » . ولا ريب في ان الرذائل التي الصقها بالجماهير في كتابه الامير من « التقلب والتردد ونكران الجميل » يمكن ان تعزى ايضاً الى بعض الامراء . اما الجمهور المنظم القابض على زمام سلطانه فيكون

مستقراً ، ومتأنياً وعارفاً للجميل ، اكثر من الامير نفسه .

ويدرك مكيافلي انه في تمجيده هذا لفضائل الجماهير يدافع عن نظرية لا يقبل بها الجميع . ولكنه يصبر على هذا التمجيد . ومن الواجب ان تكون الدول التي ستجري المقارنة بينها ، على نفس المستوى من التطور ، اي اما ان يكون القانون يسودها كلها ، او ان لا تكون له أية سيطرة عليها . وعندما تجد الجماهير نفسها منتظمة في ظل القانون ، تحرص على هذه القوانين كل الحرص ، وتكون على استعداد للاستماع الى اية نصيحة معقولة ، كما تكون اكثر دقة في اختيار الاشخاص الذين يتولون مناصب الحكم فيها ، اما اذا فقدت ، أي الجماهير ، احترامها للقانون ، فانها لا تكون أكثر اخطاء من الامير ، او اكثر تشهياً لأموال الناس او فظاظة في سلوكها . ويقول مكيافلي ايضاً : « ان الجمهوريات اكثر حرصاً من الامارات على احترام معاهداتها ، ولكنها أقل منها قدرة على سن دستور او شن حرب ، او تحكم في شعوب تابعة . وذلك لأن أشد انواع العبودية ، هو ذاك الذي يخضعك الى حكم جمهوري » .

وقد يتفق الانسان او لا يتفق مع آراء مكيافلي في هذا الموضوع ، ولكنني تلوتها ، لأقيم الدليل على ان آراءه في الانسان والجماهير لم تكن على ذلك القدر من التشاؤم الذي يحاول الكثيرون تصويره به ، وعلى انه اذا كان يقر بأن لجميع الناس عواطف يمكن ان تغلهم بسهولة وبصورة محزنة ، فهو يقر أيضاً بأن ثمة طيبة اصيلة في الانسان ، يمكن استثارتها بالمعاملة الحسنة ، التي يستجيب اليها دائماً مقدماً تضحيات شخصية عظيمة . وهذه هي النقطة الاساسية التي يحاول الوصول اليها في الكتاب الثالث من مطارحاته ، الذي يورد فيه المثال تلو المثال ، عن عظماء رومة ، وعن اشكال الفضيلة المختلفة التي يعرضونها . وهو يفعل هذا لأن توطيد النظام الجمهوري مستحيل ، الا اذا وجد رجال اكفاء من ناحية وعلى استعداد لتسخير مصالحهم الشخصية لخدمة بلادهم ، رجال

على استعداد للسلوك سلوكاً كريمـــاً ، سواء أكانوا في الحكم ، أو في خارجه ، متقاعدين يعيشون عيش القناعة ، على مجرد دخل ضئيل من ممتلكاتهم ، رجال على استعداد ، اذا دعاهم الداعي ، لقبول منصب ثانوي ، رغم احتلالهم مناصب أوليـــة في الماضي ، ورجال على اهبة للتخلي عن حزازاتهم الشخصية اذا تطلبت ذلك حاجات وطنهم. وبالاضافة الى جميع هـــؤلاء ، يجب ان يتوافر عدد آخر من الرجال ، الذين تستفزهم قدوة السابقين ، فيضحون على استعداد للسير على منوالهم ، كل في مجال عمله في الحياة . ولا ريب في ان هذه هي الناحية الوحيدة، التي تفضل فيهـــا الجمهوريات ، الامارات اذا ما قورنت بها . ففي الجمهورية ، يجب ان يتوافر ، وهذا واقع فعلاً في الجمهوريات المنظمة، عدد كبير من الرجال على استعداد لتكريس أنفسهم بجماع أفئـــدتهم ، لخدمة الدولة ، دون التفكير بالأمجاد الشخصية . وعـــلى الرغم من ان الانسان لا يستطيع توقع وجود كل هـــذه العناصر ، ولكنها وجدت وتحققت في الجمهورية الرومانية ، وما دام ان الطبيعة البشرية لا تتغير، فما الذي يحول دون تكرر هذا الوجود يا ترى؟هذا هو موضوع الكتاب الثالث ، وافتراض مكيافلي الرئيسي فيه ، لا بأن الانسان يفعل الخير مضطراً ، بل بأن هناك عدداً كبيراً ايضاً من الناس الذي يقبلون على عمل الخير طواعية ، وان هناك عدداً كبيراً آخر على استعداد لتقليـــد غيره ، لسبب ما يحمله من حب في فؤاده لبلاده .

١٣ – عرض شامل لنظرية مكيافلي السياسية

حصرت حديثي حتى الآن في مجموعه على طريقة مكيافلي وعلى بعض افتراضاته الاساسية أو مبـــادئه التي قامت عليها هذه الطريقة . ويتحتم

عليّ الآن ان ألفت النظر الى الملامح البارزة في نظريته السياسية التي اقامها . وقد يكون من الخير لمن يود دراسة مكيافلي ، لو اوضحت له ، النسق الذي يمكن تصنيف « مطارحات » مكيافلي فيه بالنسبة الى الفصول . هذا اذا اراد الدارس ان تكون دراسته قائمة على التسلسل المنطقي لا على النسق التاريخي الذي اتبع المؤلف . ولما كانت هذه النظرية السياسية قد وضعت في شكل قضايا وقواعد ، فان من السهل على كل من يعرف شيئاً عن التاريخ ، وعن الاحداث الراهنة ، ان يتثبت من صحتها على ضوء ما وقع من احداث منذ القرن الذي كتب فيه مكيافلي مؤلفاته . لكن هذا موضوع اتركه الى القارىء . وكل ما يسعني عمله هنا ، هو ان اقترح حوادث بين آونة واخرى ، لها صلة شبه بما تحدث عنه مكيافلي .

ويحسن القارى صنعاً ، اذا بدأ تلاوته الكتاب ، بقراءة الفصول العشرة الأولى من الكتاب الأول . وذلك بقصد الحصول على فكرة عن المواضيع الرئيسية التي اهتم بها المؤلف ، وعن نظرته العامة اليها . اما اذا آثر القارىء البدء بالطريقة التي لا يتحدث عنها مكيافلي كثيراً ، فان من الخير له ان يشرع في قراءة الاهداء ، ومقدمتي الكتابين الأول والثاني ، ثم ينتقل الى الفصول المتعلقة بالافتراضات التي يقيم عليها نظريته المسببة.

وعلى هذا فاذا أردت البدء بالطريقة والمبادىء الرئيسية ، اتبع الترتيب التالي في قراءتك :

١ ـ الاهداء .

٢ ـ مقدمة الكتاب الأول .

٣ ـ مقدمة الكتاب الثاني .

٤ ـ الفصل التاسع والثلاثون من الكتاب الاول عن الاحداث التي يتكرر وقوعها .

٥ ـ الفصل الثالث والاربعون من الكتاب الثالث عن طبيعة

الشعوب الدائمة .

٦ – الفصل السادس والاربعون من الكتـــاب الثالث عن طبيعة الاسر الدائمة .

٧ – الفصل التاسع والعشرون من الكتاب الثاني عن «غاشية الحظ» .

٨ – الفصل السادس والخمسون من الكتاب الاول عن « الطيرة وتوقع الكوارث » .

ولما كانت نظرية مكيافلي تقوم ايضاً على تفهم نفسية الانسان والجماهير كما يكشف عنها تاريخ الحركات السياسية ، فمن الخير ان تنتقل بعـــد ذلك الى قراءة الفصول المتعلقة بهذا الموضوع وهي :

١ – الفصل الثاني والاربعون من الكتاب الأول عن « سهولة افساد الناس » .

٢ – الفصل السابع والعشرون من الكتاب الاول عن « استحالة الطيبة الكاملة والشر المطبق » .

٣ – الفصل السادس والثلاثون من الكتاب الاول عن « الفضيلة التي ينطوي عليها القول ، بأن على المواطنين الذين تسنموا ارفع الرتب ان لا يأنفوا من قبول ما هو أدنى منها » .

٤ – الفصل السابع والاربعون من الكتاب الثالث عن « إيثار المرء لبلاده على نفسه » .

٥ – الفصل الرابع والاربعون من الكتـــاب الأول عن « عجز الجماهير اذا افتقرت الى القيادة » .

٦ – الفصل السادس والاربعون من الكتاب الأول عن «الطموح والثأر » .

٧ – الفصل السابع والاربعون من الكتاب الأول عن « الاخطاء التي يتعرض الشعب لارتكابها » .

٨ – الفصل الثالث والخمسون من الكتاب الأول عن « سهولة

خداع الشعب بالمظاهر والأماني البرّاقة » .

٩ ـ الفصل السادس عشر من الكتاب الثالث عن « مقارنة بين الشعب ابان الانتخابات في ايام الرخاء والشدة » .

١٠ـ الفصل الحادي والثلاثون من الكتاب الثالث عن « رباطة الجأش » .

وهناك عدة فصول اخرى ، يستهلها مكيافلي بملاحظات لها علاقـة بالدراسات النفسية ، بينما هناك فصول أخرى تضم مثل هذه الملاحظات في صلبها ،وهي تتناول « الطموح » ،و « الغطرسة » ،و « الخلق » ، و « الجبن » ، و « الغلظة » ، و « النوازع » ، و « السيطرة » ، و « الحسد » ،و « الكرم » ،و « الاعتراف بالجميل » ، و « الميول » ، و « الاشتهاء » ، و « الحقد » ، و « الفقر » ، و « الثروات » ؛ و « الشك » ، و « الارهاب » ، و « الفضيلة » ، و « الثأر » .

ومن الواضح ان الفصل الثاني من الكتاب الاول ، هو الفصل الذي يجب ان تبدأ به دراسة نظرية مكيافلي السياسية ، ولكن عـلى القارىء عند قراءته ، ان يتذكر ، ان جزءاً كبيراً من هذا الفصل قد « نقل » حرفياً تقريباً من الكتاب السادس لبوليبيوس ، وان ما جاء فيه تبعـاً لذلك ، لا يمثل دائماً ، وجهات نظر مكيافلي الخاصة . فمكيافلي ؛ لا يؤمن مثلاً ، بأن الحكومات تمر في أدوار انتقالية ، وهو ما يقول به بوليبيوس . ولكنه يوافقه على ان جميع أشكال الحكم البسيطة ، كالحكم الملكي ، او حكم النبلاء ، او الديموقراطية المجردة والبسيطة تكون غير مستقرة ، وميالة الى الانتقال الى معكوساتها ، التي تتجسد في مذهب ارسطو . وهو يشير الى ان التبدل الدائري . اذا وقع اطلاقاً ، لا يتم الا نادراً . والتبدل في رأيه مماثـل للذبذبة ، اذ يتأرجح متنقلاً بـين التقدم والانحطاط ، مع توقـع الخراب والطغيان في حالة مضي الفساد بعيداً في طريقه . وهو لا يعتبر حكم النبلاء ، طرازاً صالحاً من الحكم .

وانما هناك طرازان فقط صالحان للحكم ، ويستطيعان البقاء طويلاً ، وهما الطراز الإماري (الملكي) ، والطراز الجمهوري . اما حكومات القلة، فهي في رأيه طراز منحل يمكن ان تنساق اليه الجمهوريات بسهولة ، أما سبب انحلاله ، في رأيه ، فهو انه على الرغم مما قد يأتي به احياناً من رخاء وازدهار، كما حدث في عهدي كوزيمو ولورنزو دي مديشي ، يكون معرضاً الى عدد لا يعد ولا يحصى من اساءات التصرف ، وقد يتحول بسهولة الى طغيان استبدادي، ولكنه يحتضن من الناحية الاخرى ، كل الاحتضان نظرية بوليبيوس ، من ان افضل انواع الحكم، هو ذاك الذي يجمع بين الاوتوقراطية (حكم الفرد) والارستقراطية (حكم النبلاء) والديموقراطية (حكم الشعب) ، وهذا النوع أو الطراز هو الذي يطلق عليه اسم الجمهورية .

وهناك فصل آخر بالاضافة الى الفصل الثاني من الكتاب الاول ، يتناول موضوع الثورة ، واذا ما درسنا مراحل التحول التي تتعرض له كافة الحكومات ، ظهرت أمامنا قاعدتان ، رئيسيتان لنظريته . ولهذا فإني اقترح ان تقرأ الفصول التالية المتعلقة بانواع الحكومات واستقرارها وتحولها :

١ ـ الفصل الثاني من الكتاب الاول عن « أنواع الحكومات الشعبية والتحولات الحكومية » .
٢ ـ الفصل السابع من الكتاب الثالث عن « الثورة الدموية وغير الدموية » .
٣ ـ الفصل الثامن من الكتاب الثالث عن « التكيّف مع الشعب » .
٤ ـ الفصل التاسع من الكتاب الثالث عن « التكيّف مع الزمن » .
٥ ـ الفصل الخامس والخمسون من الكتاب الاول عن « استحالة اقامة امارة تقوم فيها المساواة، وجمهورية لامساواة فيها » .

ويحاول مكيافلي في الفصلين الثامن والتاسع من كتابه الثالث والفصل

الخامس والخمسين من كتابه الاول ، ان يضع الخطوط العريضة التي تحل بموجبها المشكلة الاساسية التي اثيرت في الفصل الثاني من الكتاب الاول . وكان في كتابه الامير ، قد أكد المرة تلو المرة ، ضرورة احراز الامير لحسن نية شعبه . فهذه هي الطريقة الوحيدة لكي يحس بالسلامة سواء في اوقات السلم او الحرب ، ولا ريب في ان هذا المبدأ ينطبق على الجمهورية وعلى حكم القلة (الاوليغاركي) ايضاً . ويعتمد كسب التأييد القلبي للشعب لأي نوع من أنواع الحكومات ، اعتماداً كبيراً على طبيعة الشعب نفسه وعاداته وتقاليده وثقافته وتجاربه . ولا يمكن لأية حكومة ان تحقق لنفسها الاستقرار الا اذا كيّفت نفسها لرعيتها ، وعلى هذا الاساس من التتابع ، يجب ان تكيّف سياستها الداخلية والخارجية ايضاً للزمن . والثورات التي تقع دون ان يصحبها اي سفك للدماء ، تنتج عن موافقة اجماعية من الشعب ، وتحدث في أوقات مناسبة . ويعني مكيافلي بالمساواة ، ان يكون الجميع على قدم التساوي امام القانون ، وبالنسبة الى ما يملكونه من ممتلكات . فيجب ان يكون لكل انسان ممتلكاته او على الأقل الحق في ان يملك ما يشاء ، وان يورثها من يشاء لا ان يقتصر ما يملكه على « ثلاثة افدنة وبقرة » كما قال يوسف تشمبرلين (joseph Chamberlain) (١). وعلى هذا الاساس يكون جميع الناس فقراء ولكن الدولة تكون ثرية .

ونتنقل الآن الى موضوع ثالث تجب دراسته هو « النظام الجمهوري وطبيعته وعلاقته بالنظام الملكي » . واقترح ان تقرأ الفصول التالية :

١ — الفصل العاشر من الكتاب الاول ، ويضم حملة شعواء على الطغيان .

---

١ جوزيف تشمبرلين (١٨٣٦ — ١٩١٤) ، سياسي بريطاني . ولد في لندن . ودرس في جامعتها . عمل في التجارة في شبابه . ثم دخل البرلمان فأصبح من رجاله البارزين في حزب الأحرار . تحول إلى حزب المحافظين فيما بعد . أصبح وزيراً عدة مرات . — المعرب —

٢ ــ الفصل التاسع عشر من الكتاب الأول عن «التسلسل الوراثي في الاسر المالكة » .
٣ ــ الفصل العشرون من الكتاب الاول عن « التسلسل الوراثي في الاسر المالكة أيضاً » .
٤ ــ الفصل الخامس من الكتاب الثالث عن « الطريقة التي غير الأمراء الوارثون فيها ممالكهم » .
٥ ــ الفصل الثامن والخمسون من الكتاب الاول « عن مقارنة بين الامراء والشعوب في التعقل والثبات » .
٦ ــ الفصل التاسع والخمسون من الكتاب الأول عن « مقارنة بين الامراء والشعوب في موضوع الالتزام بالاحلاف والمعاهدات » .
٧ ــ الفصل التاسع والعشرون من الكتاب الثالث عن « مسؤولية الامراء عن اخطاء شعوبهم » .
٨ ــ الفصل الرابع والثلاثون من الكتاب الأول عن « الحاجة الى الديكتاتورية في أوقات الازمات » .
٩ ــ الفصل الخامس والثلاثون من الكتاب الاول عن « مساوىء الديكتاتورية كما يعرضها مجلس العشرة » .
١٠ــ الفصل التاسع من الكتاب الاول عن « الحاجة الى قيام رجل واحد فقط ، بتخطيط الاصلاحات وتنفيذها » .

ويقتبس مكيافلي فقرة من بوليبيوس . في الفصل الثاني عشر من كتابه الاول ، تتضمن ثلاثة عوامل يلفت اليها الانتباه ، وتكون مشتركة بين الامارات والجمهوريات ففي كل منها يجب ان تكون هناك اولاً سلطة ادارية مركزية ، ذات قوة وشأن وذلك لأن الحيرة والتذبذب يقضيان على كل حكومة صالحة وثانياً طبقة عليا او نبيلة ، يطلق على افرادها اسم النبلاء ، وتكون لديها الوسائل للتعبير عن طلباتها اما عن طريق مجلس أعلى أو عن طريق مجلس الشيوخ وثالثاً الشعب الذي تعتبر

حسن نيته ضرورة لا بد منها لنجاح كل حكومة حتى الملكيات منهـا والذي يعتبر سخطـه وتذمره ، من الأمور القاضية على الدول اذا ما اهملتها .

ويعتمد الفرق بين الملكية والجمهورية ، قبل كل شيء ، على ما اذا كانت السلطة الادارية المركزية متمثلة في شخص واحد أو اكثر . فـاذا كانت في شخص واحد ، فالنظام ملكي او إماري . ويعارض مكيافلي في الملكيات الوراثية لان من الصعب الحفاظ على سلسلة ثابتة من الامراء الاقوياء ، ولان الأمراء الوارثـين يميلون الى الحكم لا لمصلحة الشعب ، بل لمصلحتهم هم ومصلحة اسرهم المالكة . وهو يؤثر الملكية المنتخبة او المتبناة أي تلك التي يوصي فيها الملك بمن يخلفه . وكانت الملكية كما عرفها مكيافلي من مخلفات النظام الاقطاعي وهو يرى لهـذا من الضروري ان تضم الملكيـات النبلاء الاقطاعيين اي الذين يمارسون التشريـع عـلى الاتباع الذين يعيشون في مقاطعاتهم . وهو لا يرى في هؤلاء النبلاء أي نفع الا اذا كبحت السلطة المركزية جماحهم، ونظمت أعمالهم عن طريق قوانينهـا ومنظماتها . وهو يعزو استقرار الملكية في فرنسا الى الحقيقـة الواقعة ، وهي وجود مثل هذه القوانين والمنظمات فيها التي يحترمها حتى الملك نفسه احتراماً لائقاً ، اذ يدعو البرلمانات الى الاجتماع لسن التشريعات اللازمة ، وللاستماع الى شكاوى الشعب . ومع ذلك فهو يعتبر الشعب الفرنسي مضطهداً ، ويعتبر اضطهاده خطيئة كبرى .

وتميل الملكيات عادة الى الحـكم المركزي ، والى اضطهاد الطبقات التي تعمل على كسب رزقها . أما النظام الجمهوري فيميل الى السماح للشعب بطلب ما يشاء،وان يحصل على ما يريد تدريجياً بالمزيد من السلطات على حساب الطبقة العليا . ومن الضروري بالنسبة الى كل جمهورية ، ان تكون السلطة المركزية في ايدي ممثلي الشعب المنتخبين ، الذين يحتلون

مراكزهم مدة معينة من الزمن ، باستثناء الرئيس الذي قد ينتخب مدى الحياة . ويرى مكيافلي ايضاً ، ان من الضروري وجود مجلسين، احدهما للشيوخ والآخر للشعب ، على ان يمثل الاول منهما الطبقة العليا ، وان يمثل الثاني الطبقة الشعبية ، وان يعهد الى هذين المجلسين بجميع الأعمال التشريعية اللازمة. وقد تنشأ المنافسة بين المجلسين ، لا سيما وانهما يمثلان مصالح متضاربة ، وقد يحاول كل منهما احراز السيطرة على الحكومة ، مما يؤدي الى اخفاق الحكومة المركزية التي اذا ما داهمتها الازمات وهي على هذا النحو من الضعف ، عنت القضاء الحتمي على الجمهورية .

وللحيلولة دون هذا ، يحث مكيافلي على الاقتداء بالطريقة الرومانية، التي كانت تعمل في اوقات الأزمات ولا سيما في الحروب ، الى ازالة الفروق مؤقتاً بين النظامين الجمهوري والملكي،عن طريق تعيين ديكتاتور تعطى له جميع السلطات لاتخاذ القرارات دون استشارة الآخرين ، وتنفيذها ، دون ان يكون لانسان الحق في استئنافها . ويتحدث مكيافلي عن مزايا الديكتاتورية في الفصلين الرابع والثلاثين والخامس والثلاثين من كتابه الاول ، ويقيم مقارنة بينها وبين حكومة العشرة . ولا ريب في ان مكيافلي ، ما كان ليوافق على فكرة بقاء حكومة ذات صلاحيات ديكتاتورية مدة خمس سنوات ، اذ ان من السهل جداً ان تتحول الديكتاتورية اذا طال أمرها الى « طغيان » حتى ولو نشأت على اسس دستورية . ومن الضروري ألاّ يكتفى بتجديد المدة التي تعمل فيها الصلاحيات الديكتاتورية ، بل ان تكون اقصر ما يكون ، وان يحدد الهدف الذي اقيمت من اجله مخافة التقليل من الصلاحيات الدستورية التي يملكها الموظفون الآخرون . ويعزو مكيافلي انهيار النظام الجمهوري في رومة الى اطالة أمد الصلاحيات الديكتاتورية . ولن يجد القارىء صعوبة كبيرة في العثور على أمثلة حديثة لانهيار النظام الجمهوري ، لأن منح الصلاحيات الديكتاتورية تم فيها دون تحديد للزمن او للمدى .

وعلى الرغم من ان مكيافلي كان يؤثر ايثاراً ملحوظاً النظام الجمهوري على غيره من انظمة الحكم ، وعلى الرغم من انه كان يرى وجوب العهدة عامة « بحراسة الحرية » الى الشعب ، الا ان قضية الحكم على ما اذا كان النظام الجمهوري او النظام الملكي ، هو الأفضل في حالات معينة ، تطلبت منه دراسة تقتضي الاشارة الى طبيعة الشعب المحكوم . ولقد كان من المبادىء المقررة لدى الفلسفة الجامعية التي عرف عنها مكيافلي بعض الامور حتماً . ان من المستحيل اخفاء شكل معين على مادة من المواد ، الا اذا كانت هذه المادة منسجمة مع ذلك الشكل . وعندما طبق مكيافلي هذه النظرية في حقل السياسة ، قال انه اذا كانت المادة ، اي الشعب ، فاسدة — وهو يعني بالفساد هنا ، ميل الشعب الى الخضوع ، وعدم تعوده الحكم او ميله اليه — فإن من المستحيل ان يقوم اي نوع من أنظمة الحكم الجمهوري . وان النظام الافضل، لتحقيق النجاح ، بالنسبة الى شعب كهذا ، هو النظام شبه الملكي . ويبحث مكيافلي هذا الموضوع في اربعة فصول من مطارحاته هي السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع والاربعون من الكتاب الاول . ولكنه يعالج في جميع هذه الفصول الموضوع من ناحية الدول التي حصلت على حريتها قبل فترة قصيرة ، بعد ان عاشت طويلاً في ظل العبودية . ولا يتحدث أي فصل من الفصول عن طبيعة الثورة التي أدت الى هذا التبدل ، وان كان مكيافلي لم يتناول في كتابه موضوعاً في كثير من الاسهاب والتفصيل كموضوع المؤامرات، التي يتناولها بالبحث من مختلف نواحيها .

أما الموضوع الرابع الذي اقترح دراسته فهو موضوع الانتقال من العبودية الى الحرية ، وقد بحثه مكيافلي في الفصول التالية :

١ — الفصل السادس من الكتاب الثالث عن « المؤامرات » .

٢ — الفصل الثاني من الكتاب الثالث عن « التظاهر بالغفلة » .

٣ – الفصل السادس عشر من الكتاب الاول عن « صعوبة استبدال الملكية بالجمهورية » .

٤ – الفصل السابع عشر من الكتاب الاول عن « زيادة هذه الصعوبة عندما يصبح الشعب فاسداً » .

٥ – الفصل الثامن من الكتاب الاول عن « الطريقة الوحيدة للنجاح في الحالة الاخيرة ، أي بقيام نظام مؤقت شبه ملكي » .

٦ – الفصل التاسع والاربعون من الكتاب الاول عن « صعوبة الحفاظ على الحرية حتى في الدول التي نشأت عليها » .

ويميز مكيافلي بين الدول التي الغت الأنظمة الديموقراطية والتي لم تفقد قط حبها للحرية ، وبين الدولة ، التي عاشت طويلاً خاضعة لحكم فرد اوتوقراطي ولم تألف قط الحكم الذاتي في أي شكل من أشكاله . ولا ريب في ان هذا التمييز مهم للغاية ويستحق الدرس . ولمعرفة مدى ما في استنتاجات مكيافلي من صحة وصواب ، أرى ان نعقد مقارنة بين ما حدث في أميركا الجنوبية ، وما حدث في البلقان ، بعد ان حصلت المنطقتان على استقلالها في النصف الاول من القرن التاسع عشر. فلقد أدت المحاولة الفورية في أمريكا الى ادخال الأنظمة الديموقراطية على الفوضى ، باستثناء شيلي التي قامت فيها سلسلة متعاقبة من ثلاث حكومات ، حافظت على النظام ومهدت السبيل لقيام حكم أكثر تحرراً . أما في البلقان ، فقد جيء بأمراء سرعان ما انقلبوا ملوكاً . وقد شهدت البلاد في ظلهم ، على الرغم من تدخل الدول الاجنبية المستمر وقيام اضطرابات متكررة ، شيئاً من الهدوء النسبي ، وسرعان ما حل الحكم الدستوري محل الحكم الاوتوقراطي . ولا ريب في ان نظرية مكيافلي القائلة بأن الحرية لا يمكن اعادتها الى شعب مستعبد الا عن طريق حكومة مؤقتة ذات نظام ملكي،شبيهة بالمشاكل التي تواجه اوروبا في حاضرها .

وفي وسع الانسان أيضاً أن يعقد مقارنة بين هذه الثورات التي كانت بعيدة عن سفك الدماء وبين ثورة عام ١٦٨٨ في انكلترا .

ولعل المشكلتين الرئيسيتين اللتين عالجهما مكيافلي في كتابيه « الامير » و « المطارحات » هما مشكلتا كيفية اقامة نظام حكم جديد ، وكيفية جعل هذا النظام آمناً . وعلى هذا في وسعنا ان ننتقل من المشاكل المتعلقة بالانتقال الى المشاكل المرتبطة بالأمن الداخلي . وفي وسعنا تصنيف المطارحات المتصلة بهذين الموضوعين تحت عنوانين رئيسيين اولها « الأمن الداخلي عامة » وثانيهما « الأمن الداخلي في الجمهورية ». وتقع الفصول التي عالجناها في مكان سابق من هذه المقدمة بالأضافة الى بعض النقاط الأخرى الواردة هنا وهنالك ، والتي تثبت ان مكيافلي ، كان يرى ، وجوب القضاء بعد فشل أية ثورة ، على جميع أعداء العهد . سواء أكانوا من الملكيين او من انصار الجمهورية تحت العنوان الاول . ولكنه يرى مع ذلك ان عهد الارهاب يجب ان لا يطول مخافة ان يستفز الخوف كراهية الشعب . ولا ريب في ان الفصل المتعلق بتأثير النساء ، يتصل أيضاً بموضوع الأمن الداخلي عامة ، وذلك لأن تأثير النساء قد يجلب أحياناً الكوارث سواء الى النظامين الجمهوري او الملكي .

ولتفهم موضوع « الامن الداخلي عامة » يجب قراءة الفصول التالية :

١ – الفصل الثالث من الكتاب الثالث عن « القضاء على ابناء بروتس » ، بعد ثورة ادت الى قيام الجمهورية .

٢ – الفصل الرابع من الكتاب الثالث عن « ابادة المطالبين بالعرش المنافسين عليه بعد تثبيت دعائمه » .

٣ – الفصل الثلاثون من الكتاب الثالث « الحاجة الى اخماد الحسد قبل البدء بالأعمال الطيبة » .

٤ – الفصل الخامس والاربعون من الكتاب الأول عن « حماقة ايقاع العقاب دائماً والاساءة للآخرين » .

٥ – الفصل الأول من الكتاب الثالث عن « الحاجة الى العودة دائماً الى المبادىء الاساسية التي قام عايها العهد » .

٦ – الفصل الثالث والثلاثون من الكتاب الاول عن « الحاجة الى مداورة الظروف اذا ما حقق حادث سيء بعض النجاح» .

٧ – الفصل السادس والعشرون من الكتاب الثالث عن « الكوارث التي تسببها الفساد » .

وترتبط مشكلة الأمن في النظام الجمهوري ، بموضوع آخر ، لمكيافلي فيه آراء تجمع بين الغرابة والاهمية ، وهو موضوع الطبقات والصراعات الطبقية . وفي وسعنا ان نلخص هذه الآراء تحت عناوين أربعة: أولها ، ان جميع الدول تضم طبقتين تتصارع مصالحها . وثانيها، ان هذه المصالح المتصارعة والرغبات المتبـاينة كثيراً ما تؤدي الى وقوع اضطرابات خطيرة . وثالثها ،ان هذه الصراعات تصبح أمراً لا بد منه للجمهوريات ولا سيما الراغبة منها في توسيع ممتلكاتها، مما يحملها على استخدام ابنائها كجنود ، ولكن يمكن اعتبار الاضطرابات الناجمة عنها ، اشياء طيبة لا اشياء سيئـة . ورابعها ، انها اذا لم يكبح جماح هذه الاضطرابات فقد تقضي على الدولة ، ولكن ليس ثمة ما يدعو الى ذلك ، هذا اذا تحققت مطالب الشعب المعقولة،وعثر افراده على متنفس لثوراتهم العاطفية في ساحات القضاء .

وتستخدم في كتب مكيافلي تعبيرات عدة ، للدلالة على هاتين الطبقتين المتعارضتين ، ولا ريب في ان القصد من هذه التعبيرات ، ان تشمل اكثر ما يمكن من الحالات . وقد تكون المقارنة احياناً بين « الشعب » و « العظماء » ، أو بين « قطيع العوام » و « الرجال ذوي المكانـة والبروز » . ويستخدم اصطلاح شائع آخر وهو « النبلاء » و «الشعب» وكثيراً ما يطلق مكيافلي على الطبقة العليا اسم الطبقة المتنفذة او البارزة . ولكنه لا يطلق عليها أبداً الاسم الروماني القديم « الشرفاء » ، وذلك

لأنه لا يريد ان يصوِّر التمييز الذي يراه بين الطبقتين على الصورة التي كانت قائمة عند الرومان ، كما لا يريد ان يحمل قراءه على الاعتقاد بأن الضرورة تقضي بأن يكون افراد الطبقة العليا من النبلاء أو الاشراف ذوي الالقاب ، وهو لا يريد في الوقت نفسه تصوير هذا التمييز على انه قائم بين الاثرياء والفقراء . ولا ريب في ان الناحية التي يتطلع منها مكيافلي الى هذا التفريق بين الطبقتين ديناميكية آلية ، فالفروق قائمة في الاذواق والميول ، التي تقوم الى حد ما على اساس الطبيعة ، ولكنها تقوم في الغالب على التاريخ القديم للطبقات التي هي موضع الحديث . فلقد أدت الخدمات التي قام بها البعض للدولة ، الى اضفاء المراتب والاوسمة والامتيازات عليهم ، كما قد تضفى عليهم الثروات احياناً ، ولكن اضفاء هذه ليس بالامر المفروض ، وعلى هذا فهم يكونون دائماً في موضع المحسودين المغبوطين . وتقاليد هذه الطبقة في رأي مكيافلي مصدر غناء للدولة ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يخلون من « هفوات » . فالذين « يملكون » ، يميلون عادة وبطبيعتهم الى « الحفاظ على ما يملكونه » ، وهذا يتطلب عادة الحصول على المزيد، مما يحتّم الاصطراع مع ميول اولئك الذين « لا يملكون » ، ولكنهم يتوقون الى التملك . وعلى هذا القياس ، فان اولئك الذين ألفت اسرهم الحكم ، يميلون الى « السيطرة » . ويثير تعاظمهم الغضب والمقاومة عند الآخرين ، ولكن هذا الوضع يحملهم على طلب الاستزادة من السيطرة ، مما يزيد في دوره ، حدة النقمة التي قد تصل حدود التطرف عليهم . وهنا يجثم الخطر الحقيقي على الدولة ، اذ ما لم تتخذ الاجراءات الفعّالة لتهدئة الشعب والتخفيف من نقمته ، فان هذا الشعب لا يكتفي بالقضاء على حزب النبلاء ، كما وقع في رومة مثلاً ، وانما يستثير عون القوات المسلحة ، التي تقيم بدلاً من النظام الديموقراطي ، نظاماً طغيانياً في ظل قائدها العسكري الواسع القوة .

ويقارن مكيافلي في مقدمة الجزء الثالث من كتابه تاريخ فلورنسه بين ما وقع في رومـــة ابان الفترة التي ارّخها ليفي ، وبين ما وقع في فلورنسة بين عامي ١٣٦٦ و ١٣٧١ . وأرى من الخير ان تنقل هــذه الفقرة الى القرّاء بكاملها قبل الاستطراد في بحث الطرق التي يراها مناسبة لتهدئة الصراعات الطبقية دون اللجوء لا الى القضاء على الطبقة العليا ولا الى اقامة نظام طاغ . وهذه هي المقدمة :

« وتنشأ الحزازات العميقة والطبيعية بين طبقتي النبلاء والشعب ، من اصرار احداهما على التحكم والسيطرة ، واصرار الثانية على العصيان وعدم الاطاعة ، وهذه الحزازات تسبب كل ما يحدث في الدول المدينية من شرور ، اذ ان هذا التصادم في الميول ، يؤدي الى ظهور كل ما يعكر صفو الجمهوريات . ولا ريب في ان هذه الظاهرة هي التي عملت على الابقاء على رومة مجزأة مدة طويلة . واذا جاز لنا ان نقارن بين جمهورية صغيرة ، واخرى اكثر منها بكثير اهمية وشأناً ، امكننا القول بأنهذه الظاهرة ايضاً هي التي ابقت على تجزئة فلورنسة ، على الرغم من اختلاف النتائج بين المدينتين . اذ بينما كانت العداوات التي نشأت في رومة في البداية بين الشعب والنبلاء تسوّى عن طريق الحجة والاقناع ، كانت في فلورنسة تسوّى بواسطة الصراع المسلح . وما كان القانون يضع حداً له في رومة كان النفي وقتل الكثيرين من المواطنين ، يضع الحد له في فلورنسة ، ولا ريب ايضــاً في ان ما أدى دائماً الى ازدياد الفضيلة العسكرية في رومة ، قد ادى الى انهيارها الكامل في فلورنسة ، كما ان ما ادى الى تحول المساواة بين المواطنين في الأولى الى بون شاسع ، قد ادى في الثانية الى تضاؤل البون لتحل محله المساواة .

« ولا ريب في ان هذا الخلاف في النتائج ، ناجم عن الاختلاف في الاهداف التي كان يتطلع اليها الشعب في كلتا المدينتين . فلقد كان الشعب الرومــاني تواقاً الى الاشتراك مع النبلاء في التمتع بمظاهر النبل

والشرف ، بينما ناضل الشعب في فلورنسة ، لينعم وحده بمباهج الحكم دون اشراك النبلاء فيها . ولما كانت رغبات الشعب الروماني اقرب الى العقل والمنطق ، فان مطالبـــه كانت اكثر تقبلاً لدى النبلاء ، بحيث تخلوا عن طيبة خاطر ودون اللجوء الى القتال ، عن الكثير من امتيازاتهم مما اسفر بعد نزاع قصير ، عن سن قانون ، أرضى الشعب ، وحفظ للنبلاء كرامتهم . أما رغبات الشعب الفلورنسي فكانت مجحفة ومؤذية، مما حمل النبلاء على حشد قواتهم الكبيرة للدفاع عن أنفسهم ، وأسفر عن الكثير من سفك الدماء وابعاد المواطنين . وجاءت القوانين التالية ، في صالح الظافرين لا مرضية لجميع الفرقاء .

« وهناك نتيجة اخرى أهم شأناً ، وهـــي ان انتصار الشعب في رومة قد أدى الى تنشيط فعّالياتـــه ، اذ ان اشراك الشعب في مختلف الادارات التي تتعلق بالجيش والقضاء وحكم المقاطعات تحت قيادة النبلاء، قد أدّى الى تطعيم ابناء الشعب بالفضائل التي كانت وقفاً على الآخرين، وهكذا نمت قوة المدينة مع نمو الفضيلة فيها . اما في فلورنسة ، فعندما انتصر الشعب ، حرم النبلاء من الحكم ، ولم يكن في وسع احد منهم الوصول الى اي منصب ، الا اذا غدا كأي فرد من افـراد الشعب في طريقة حكمه وعقليته وسبيله في الحياة ، على ان لا يقتصر ذلك عـــلى المظهر فقط ، بل يتعداه الى الحقيقة أيضاً . ومن هنا ظهرت التبدلات في اوسمة النبل والألقاب ، التي ابتكرها النبلاء لكي يتشبهوا بالشعب ، وقد بالغوا في هذا التشبه الى الحد الذي اخمد الفضائل الحربية ، واتساع الآفاق من وجهات النظر ، وهي خصائص كانت بادية في النبلاء،وغير موجودة قطعاً عند افراد الشعب ، مما أدى في النهاية الى ازدياد ضعف فلورنسة وانحطاطها . وعندما تحولت فضيلة رومة الى عنجهية وتعاظم ، انحط بها الشأن ، الى ان غدت الحياة عليها مستحيـلة بدون امير . اما فلورنسة فقد تدهورت تدهوراً شائناً الى الحد الذي غدا فيـــه في مكنة

أي مشرّع مجرّب ، ان يضع لها أي نظام من الحكم يشاء » .

ولا ريب في ان هذه الفقرة تفسر لنا السبب في ايمان مكيافلي بضرورة وجود النبلاء في النظام الجمهوري . فهذه الطبقة هي التي دافعت عن المبدأ القائل ، بأن الخدمة العامة ، يجب ان تفضل المصالح الشخصية ، وهي التي كان افرادها عادة على الرغم من أمزجتهم الخاصة ، التي كانت تميّز اسرهم المختلفة ، على استعداد للعمل وفقاً للتقاليد التي نشأوا عليها . ولقد ظهر « التجدد » في النظام الطبقي في فاورنسة في الايام التي تحدث عنها مكيافلي ، اذ انضم كبار أرباب الصناعة الى الطبقة المختارة ، بينما ظل صغار الصناعيين في زمرة الشعب . وللتفريق بينهما يطلق مكيافلي على الفئة الاولى اسم « حزب الشعب » وعلى الثانية اسم « حزب الرعاع » . وادت الثورة التي وقعت في المدينة الى اضعاف سلطان النبلاء ، والى تهيئة السبيل لارتقاء كوزيمو آل مديشي سدة الحكم في المدينة في نهاية القرن .

ويتحدث مكيافلي في الفصول الثالث والرابع والخامس والسادس من الكتاب الاول من مطارحاته عن الصراعات التي نشأت في رومة بين النبلاء والعامة بعد طرد ملوك « التاركوين » . اما الصراعات التي نشأت بعد هذا التاريخ ، فهو يعرضها في الفصول السابع والثلاثين من كتابه الاول والرابع والعشرين والخامس والعشرين من كتابه الثالث . وهو يعزو في هذه الفصول سقوط الجمهورية في رومة الى فشلها في حل المشاكل الزراعية ، التي بعد ان ظلت هادئة فترة من الوقت بسبب اتساع الأراضي التي سيطرت رومة عليها ، ووزعتها على مواطنيها ، عادت الى التعقد والتأزم،ولا سيما في عهد الغراشيين (Grachi)(١) ،

---

١ اسم يطلق على أخوين أولهما تايبيريوس سمبرونيوس غراشيوس (١٦٧ – ١٣٣) ق. م. والثاني غايوس سمبرونيوس (١٥٨ – ١٢١)ق. م. وقد أصبح الأول حامياً للشعب عام ١٣٣ قبل الميلاد ووضع قانون الاصلاح الزراعي ، بينما غدا الثاني حامياً عام (١٢٤). وقد لعبا دوراً في اضعاف مجلس الشيوخ .

الذي وقف الى جانب الفئات الفقيرة من الشعب . وقد أدى الاخفاق في الوصول الى حل مرضٍ الى تزايد ما يحمله الشعب من كراهية لمجلس الشيوخ ،وما يحمله هذا للشعب . وتطلع الفريقان الى من يتولى قيادهما ، فعثرا على القائدين في ماريوس وصولاً ، ووقعت اشتباكات مسلحة ، اسفرت عن الكثير من سفك الدماء . ولم يكن النصر الذي احرزه حزب النبلاء بقيادة صولاً الا مؤقتاً ، اذ عندما غـدا قيصر رأس الحزب الماريوسي ، عاد النضال من جديد . وكان انتصار قيصر عـلى بومبي وليد خطأ آخر ، وهو الابقاء على القائد العسكري امداً طويـلاً في قيادته ، مما ادى الى وضع جيش تحت تصرف قيصر مكّنـه ، بتأييد من الشعب،من اقامة ديكتاتورية تحولت في عهد اوغسطس الى امبراطورية. وينحو مكيافيلي باللوم على ما وقع عادة على قيصر ، ولكننا رأيناه في الفقرة السابقة ، يبرر قيصر بقوله ان « رومة انحط بها الشأن اخيراً ، الى ان غدت الحياة مستحيلة عليها بدون امير » .

ولدراسة موضوع الأمن الداخلي في النظام الجمهوري – الصراع بين الطبقات : انصح القارىء بقراءة الفصول التالية :

١ – الفصل الثالث من الكتاب الأول ، عن«الاسباب التي أدت الى تعيين قناصل الشعب » .

٢ – الفصل الرابع من الكتاب الأول عن « المزايا التي حققتها رومة من الصراعات الطبقية » .

٣ – الفصل الخامس من الكتاب الأول عن «الحفاظ على الحرية ومشكلة الذين يملكون والذين لا يملكون » .

٤ – الفصل السادس من الكتـاب الاول عن « استحالة تجنب الصراع الطبقي » .

٥ – الفصل السابع والثلاثون من الكتاب الأول عن « القوانين الزراعية » .

٦ – الفصل الخامس والعشرون من الكتاب الثالث عن « فقر سنسينالوس » .

ولا ريب في ان مكيافلي كان يرى ، ان على أية حكومة ، سواء اكانت ملكية أو جمهورية ، اذا ارادت لنفسها البقاء ، ان تنال ثقة الشعب المحكوم ، وان تحظى كما يقول في « الامير » بحسن نيته . وهو يرى ايضاً ان من الواجب احترام الدين والنظر اليه بعين الاجلال. ولكنه في الوقت نفسه يعتقد ان المشكلة الرئيسية في النظام الجمهوري ، ستظل دائماً متركزة في كيفية السيطرة على الجماهير . ومن الواضح ان من الضروري ، خطم العواصف الجياشة التي تنبثق عن الجماهير ووقف مطالبهم المفرطة والكثيرة الغلو ، ولكن من الضروري ايضاً وفي الوقت نفسه كبح جماح غطرسة النبلاء ، وطموحهم وتعاظم غيرهم من «الاقوياء». ولكن المشكلة العويصة ، هي هل يستعمل « الخطام » أو « اللجام » ، أو هل يلجأ في هذه العملية الى الصرامة أو الى التاطف ، وهل يصار الى مناشدة قوى القانون او الى التأثير على تعقل الجماهير ومنطقها، بعذوبة المنطق وبلاغة الخطاب . ولما كان مكيافلي مقتنعاً من ان الجمهور الحسن التنشئة ، مخلوق عاقل ، فانه يعتمد كثيراً على منصة الخطابة العامة ، شريطة ان يحتلها رجال تثق بهم الجماهير ، وتحترمهم ، ولكن هذه ليست في رأيه الوسيلة الوحيدة التي تحل بها المشكلة .

وقد ارفق نظريته هذه عن طريقة معاملة الجماهير ، بمبدأ اساسي افصح عنه في الفصل السابع من كتابه الأول ، اذ قال ان من الضروري عندما تستثار المشاعر السيئة العثور على « متنفس طبيعي » مخافة لجوء الجماهير والافراد علي حد سواء ، الى اساليب غير طبيعية . وهو يصر في نفس الفصل وهذه هي نقطته الرئيسية ، على وجوب العثور على منفذ أو مخرج ، عندما يتجه سخط الجماهير ضد شخص معين بالذات يهم بمحاولة اضطهادها ، أو بأساءة التصرف اساءة بالغة في شأن من

شؤون الدولة يخص هذه الجماهير ويؤثر عليها . ولهذه الغاية تجب اقامة المحاكم التي يقاضى امامها المواطنون . ويعاقب بقراراتها وأحكامها وزراء الدولة . وعندما تبعث هذه الاجراءات في بلاد ما ، فمن المألوف ان يدعي الناس ان من العبث البحث عن « اكباش النطاح » ، وذلك لأن الشخص الذي تطلب الجماهير عقابه لا يكون « كبش النطاح » او الضحية ، وانما الكبش عينه . وفي وسع المحاكم التي تقوم على اسس قوية ثابتة ، ان تخدم غرضين في آن واحد وهما ايقاع العقوبة بالمذنب الحقيقي والسماح للمتهم البريء بأظهار براءته ومن الضروري ان تجري الانتخابات بصورة قانونية ، ولعل من الخير كل الخير ان تفضح عيوب المرشحين لها وتذاع ، اذ ان الشعب اذا ما عرفها ، أمكنه الحكم على المرشحين حكماً صحيحاً.

ويثير مكيافلي في الفصل التاسع عشر من كتابه الثالث موضوع ما اذا كان « الانصاف في السيطرة على الجماهير ، اهم اثراً من العقاب » . وعلى الرغم من ان « القسوة واللطف » و « الصرامة والوداعة » ، قد تؤدي كلها في نفس الوقت الى عين الغرض ، الا ان « عملاً واحداً من اعمال النبل في احدى المناسبات ترك انطباعاً اكبر من كل ما تركته قوات رومة » ، وكل شيء يتوقف على ما اذا كان الناس الذين « يتحتم عليك ان تحكمهم ، هم في الظروف العادية شركاء لك ، أو كانوا على الدوام اتباعاً لك ورعايا » ، اذ لو كنت الحاكم فقط ، في أي وقت ، تعذر عليك ايقاع العقوبات بخصومك السياسيين ، وعلى الرغم من نصح مكيافلي الامراء بالانصاف والكرم وغيرهما من الفضائل ، الا انه من الناحية الاخرى ، يرى ان السلوك على اساس التفاهم الشعبي السهل قد يجعل من أي حاكم محبوباً لدى شعبه ، في الوقت الذي قد تستخدم فيه جميع مزاياه هذه ، وبسهولة ، ضد مصالح الدولة نفسها. ولهذا فان من الواجب التنكر لسلوك كذلك الذي اتبعه فاليريوس كورفينوس في أي نظام جمهوري ، اذ من الأفضل ، ايجاد حل اقوى من ذلك

الطراز ، شريطة ان يكون مصحوباً بالفضيلة وان لا يكون تعباً منهوكاً.

وأرى من الخير هنا ان اصنف المطارحات التي تتناول موضوع السيطرة علي الجماهير ،والمطارحات التي يتناول فيها تأثير استخدام الصرامة او الانصاف على الاشراف على الشعب او السيطرة على القوات المسلحة . وأرى من الخير ان يقرأ القارىء في موضوع معالجة الجماهير الفصول التالية :

١ – الفصل الخامس والعشرون من الكتاب الاول عن « فضيلة المظاهر » .

٢ – الفصل الثاني والثلاثون من الكتاب الاول عن « الدقة في منح العطايا » .

٣ – الفصل الحادي والخمسون من الكتاب الاول عن « الكرم الصوري » .

٤ – الفصل الرابع والخمسون من الكتاب الاول عن « تأثير الرجال الوقوري » .

٥ – الفصل السابع والخمسون من الكتاب الاول عن « اذعان الجماهير للصرامة » .

٦ – الفصل الحادي والاربعون من الكتاب الاول عن « حماقة تبديل السياسة فجأة » .

٧ – الفصل التاسع عشر من الكتاب الثالث عن « السيطرة على الجماهير » .

٨ – الفصل الحادي والعشرون من الكتاب الثالث عن « الصرامة واللطف كما يمثلها هانيبال وشيبيو » .

٩ – الفصل الثاني والعشرون من الكتاب الثالث عن « الصرامة والوداعة كما يمثلها تاركواتوس وكورفينوس » .

١٠ – الفصل الثالث والعشرون من الكتاب الثالث عن « حماقة

التعاظم كما يمثله كاميليوس،الذي ابعد بسبب غطرسته ».

أما في موضوع « ألدين » فأرى ان تقرأ الفصول التالية :

١ — الفصل الحادي عشر من الكتاب الاول عن « ديانة الرومان » .

٢ — الفصل الثاني عشر من الكتاب الأول عن « اهمية الديانات ».

٣ — الفصل الثالث عشر من الكتاب الاول عن « استخدام الرومان للديانة » .

٤ — الفصل الرابع عشر من الكتاب الاول عن « استخدام الرومان لنذر التفاؤل والتشاؤم » .

٥ — الفصل الخامس عشر من الكتاب الأول عن « الاحتفالات عند السمنيين » .

٦ — الفصل الخامس من الكتاب الثاني عن « اثر الديانات الجديدة في سجلات الماضي » .

وهو يتحدث عن الانتخابات واسناد الوظائف العامة من مختلف النواحي المتعلقة بوجهات نظر الناخبين والدولة والمرشحين واصحاب المناصب . وقد ادرجت ثلاثة من الفصول التي تتحدث عن هذا الموضوع في مكان آخر ، وهو موضوع المزايا الطيبة التي يتوقع مكيافلي العثور عليها في الانسان ، وهي الفصل السادس والثلاثون من الكتاب الاول والفصلان السابع والاربعون والسادس عشر من الكتاب الثالث ، ويمكنني ان اضيف اليها الآن الفصول التالية :

١ — الفصل الثامن والأربعون من الكتاب الاول عن « الأساليب الانتخابية » .

٢ — الفصل الرابع والثلاثون من الكتاب الثالث عن « طراز المرشح الذي يؤثره الشعب وطريقة تكوين حكمه عليه » .

٣ — الفصل الخمسون من الكتاب الاول عن « الاخطار الناشئة

عن التصادم بين الدوائر او بين الموظفين » .

٤ – الفصل الستون من الكتاب الاول عن « لا علاقـة للسن بالمنصب » .

٥ – الفصل السابع عشر من الكتاب الثالث عن « حماقة تعيين المواطنين الناقمين » .

٦ – الفصل الخامس والثلاثون من الكتاب الثالث عن « اخطار اسداء النصح » .

وهناك موضوع آخر ذو علاقة وثيقة بالامن الداخلي ، وهو موضوع التشريع . ومن المهم في هذا الصدد ، ان نضع نصب اعيننا ، الفروق التي يضعها مكيافلي بين القوانين والاجراءات الرسمية ، فالاولى في رأيه هي الاجراءات العـامة التي تتخذ من حين الى آخر ، للسيطرة على سلوك المواطنين ومراقبة تصرفهم ، اما الثانية ، اي الاجراءات الرسمية، فهي دوائر حكومية ، من ادارية وتشريعية وقضائية ، تتحكم العادات والمراسيم في تصريف امورها من اجراءات وتعيينات . ومن السهل سن القوانين ، ولكن من الصعب جداً تبديل الاجراءات الرسمية،لأنها متصلة العرى بدستور الدولة ، وتتضمن المبادىء الاساسية التي تقوم عليها ، ومع ذلك ، فرغبة في الحفاظ على منظمة دينية او حكومة شعبية، يجب اعادة النظر في اجراءاتها من وقت الى آخر،حتى تكون هذه الاجراءات منسجمة مع المبادىء الاساسية . ومكيافلي مقتنع بأن الثورة التي وقعت في رومة في عام ٥٠٩ قبل الميلاد كانت تستهدف الحبر العام ، ولهذا السبب فقد أوجدت أنظمة حماة حقوق الشعب (التربيون) والمراقبين ، وغير ذلك من الاجراءات الرسمية . ولكن مثل هذه الاجراءات قد يصبح عرضة لسوء التصرف ، وهي لا تستطيع الحفاظ على فعاليتها ، الا إذا اتخذ عمل جازم من وقت إلى آخر ضد اولئك الذين يعادونها مهما كانت قوتهم . ولقد كانت هذه هي الخطيئة التي ارتكبتها رومة . فقدشرعت

قوانين عدة، حددت فيها الانفاق وحددت الطموح وغيره من المساوىء، بينما ظلت اجراءاتها الرسمية المعرضة لاساءة التصرف قائمة دون تبدل. وكان من الخطأ ايضاً محاولة بعث قانون قديم مضى وقته وعدّلته عادات اصبحت ثابتة مقررة ، كما وقع بالنسبة إلى القانون الزراعي مثلاً. ويقول مكيافلي ان من الخير ، عندما تتوطد اقدام شيء سيء ان يلجأ المرء إلى مداورته والسير معه ، بدلاً من محاولة وقفه ، إذ ان السعي إلى التقليل من أثره قد يؤدي إلى زيادة هذا الأثر . ولكن مكيافلي لا يحاول أن يشرح كيف تؤدي مداورة المساوىء ومسايرتها إلى انتزاعها .

وتتحدث فصول عدة من مطارحاته عن التشريع وما يلحق به من ثواب وعقاب . وهناك فصل آخر عن محاكم البندقية وعقوبة الموت ، هو الفصل التاسع والاربعون من الكتاب الاول ، ولكنه تحدث عن موضوع آخر هو الانتقال من مرحلة العبودية الى الحرية ، وقد سبق لنا ان ادرجناه في قائمة فصول ذلك الموضوع .

أما فصول التشريع التي أوصي بقراءتها متسلسلة فهي كما يلي :

١ – الفصل السابع من الكتاب الاول عن الاتهام العلني .

٢ – الفصل الثامن من الكتاب الأول عن الحاجة الى الوقاية من التشهير .

٣ – الفصل الخامس والاربعون من الكتاب الاول عن حماقة خرق القوانين الحديثة .

٤ – الفصل الرابع والعشرون من الكتاب الأول عن الثواب والعقاب .

٥ – الفصل الثامن والعشرون من الكتاب الاول عن نكران الجميل في رومة واثينا .

٦ – الفصل التاسع والعشرون من الكتاب الاول عن نكران الجميل عند الامراء والشعوب .

٧ – الفصل الثلاثون من الكتاب الأول عن تجنب نكران الجميل.
٨ – الفصل الثامن والعشرون من الكتاب الثاني عن الثأر للاساءات التي ترتكب ضد الافراد والدولة .
٩ – الفصل التاسع والاربعون من الكتاب الثالث عن عقاب اعداد كبيرة من الناس .

وفي الامكان قراءة الفصل السابع والثلاثين من الكتاب الاول عن حماقة بعث القوانين القديمة ، مع هذه الفصول ، على الرغم من تعلقه بالقوانين الزراعية فقط وهو ما حملنا على ادراجه في مكان آخر .

وهناك عدد من الفصول . تتحدث عن الأمن الداخلي تجاه المواطنين الطموحين ، وهي مشكلة مهمة في الدول المدينية الصغيرة التي انتعشت في عهد مكيافلي ، واني اقترح على القارىء تلاوتها على النحو التالي :

١ – الفصل الاربعون من الكتاب الاول عن « الاخطار التي تنطوي عليها الديكتاتورية .
٢ – الفصل الثاني والخمسون من الكتـاب الاول عن « قطع الطريق على اساليب المواطنين الطموحين » .
٣ – الفصل الرابع والعشرون من الكتـاب الثالث عن « اطالة عهد القيادات العسكرية » .
٤ – الفصل الثامن والعشرون من الكتاب الثالث عن « استخدام المآثر كستار لاجلال الطغيان » .

أما الفصول الباقية فتتحدث عن الأمن الخارجي ، وهي تقـع في أربع مجموعات اولاها السياسة الخارجية وثانيتها الاحلاف وثالثتها الحرب ورابعتها قادة الجيش . وقد وضع في الفصل التاسع من كتابه الثالث ، المبدأ الاساسي الذي يجب ان تقوم عليـه السياسة الخارجية ، وهو ان يتكيف الانسان مع الوقت .

واني لانصح القارىء بتلاوة الفصول التالية عن السياسة الخارجية :

١ – الفصل الثامن والثلاثون من الكتاب الأول عن التردد .
٢ – الفصل الخامس عشر من الكتاب الثاني عن الغموض والمماطلة.
٣ – الفصل الثالث عشر من الكتاب الثاني عن فوائد استخدام الحيلة بدل القوة .
٤ – الفصل الرابع عشر من الكتــاب الثاني عن حماقة محاولة التغلب على الكبرياء بالتواضع .
٥ – الفصل السادس والعشرون من الكتاب الثاني عن حماقة استخدام الزراية والاساءة .
٦ – الفصل الحادي والاربعون من الكتاب الثالث عن شرعيــة استخدام كل الوسائل للدفاع عن البلاد .
٧ – الفصل الرابع والاربعون من الكتــاب الثالث عن التهور والجرأة .

ومن الشائع توجيه النقد الى سياسة مكيافلي الخارجية على اساس انه يوصي باللجوء الى الخديعة ، والحيلة ، ويبدو ان الاستاذ هانكوك يذهب في مقالته في مجلة « التاريخ » هذا المذهب . لكن الفقرات البارزة التي اثارت سخط النقاد جاءت في كتابه « الامير » لا في مطارحاته . ففي المطارحات لا تعني « الحيلة » عنده اكثر من « التعمية » ، وهي لا تعني بالنسبة الى المعاهــدات ، الا التملص من قيودها ، لا نقضها . ولكن ما يكتبه مكيافلي محاط بالغموض ، فالحيلة تعني عنــده حتى في المطارحات الخداع الحقير للغاية.وهو لا يحاول أيضاً التمييز بين الحالات التي تعني فيها الحيلة الخداع ، وبين الحالات التي تعني فيها التعمية أو التملص . يضاف الى هذا ان الانتقال من هذه الى تلك أمر هين ، كما اثبت الاستاذ هانكوك في مناقشته لما كتبه المؤرخون عن سياسة بريطانيا الخارجية . وقد غامرت بانتقاد هانكوك في بعض النقاط ، ولكنني متفق معه كل الاتفاق في نقطته الرئيسية . فالمذهب المكيافــلي ، من الطراز

السيء ، كثيراً ما ظهر في « ثياب عصرية » ، ولهذا السبب فأن من الاهمية بمكان عظيم الاصرار على الوفاء للمعاهدات والمواثيق والعهـود ، مهما كانت النتيجة ، اذ ان عدم الوفاء لها ، قـد أوصل اوروبا مرة ثانية الى حالة من الدمار تماثل تقريباً ما كانت عليه في ايام مكيافلي .

واني لأنصح القارىء بتلاوة الفصول التالية عن الاحلاف والائتلافات :

١ ـ الفصل الثاني من الكتاب الثاني عن الحاجة الى اقامة الاحلاف على اساس القوة لا على اساس السمعة .

٢ ـ الفصل الثاني والعشرون من الكتاب الثانى عن « حماقـة البقاء على الحياد » .

٣ ـ الفصل الثـلاثون من الكتاب الثاني عن « حماقة شراء الاحلاف » .

٤ ـ الفصل الحادي والثلاثون من الكتاب الثـاني عن « عدم الركون الى اللاجئين » .

٥ ـ الفصل الخامس والعشرون من الكتاب الثاني عن « حماقـة مهاجمة المدينة بسبب تجزئتها » .

٦ ـ الفصل السابع والعشرون من الكتاب الثالث عن « حماقـة محاولة الحفاظ على مدينة بالابقاء على تجزئتها » .

٧ ـ الفصل الثـاني والثلاثون من الكتاب الثالث عن « منع السلام » .

٨ ـ الفصل الثاني والاربعون من الكتاب الثالث عن « الوعود التي تعطى بالاكراه » .

٩ ـ الفصل التاسع والخمسون من الكتاب الأول عن « وجوه المقارنة بين الركون الى الامراء والى الجمهوريات » .

وتختلف الأدلة المستقاة من الفصول السابقة اختلافاً بيناً في قوتها . إذ يحاول مكيافلي شرح حماقة البقاء على الحياد ، مستشهداً بموقف البابا

ليو العاشر من الفرنسيين في عام ١٥١٥ . ويقوم استشهـاده على بيان نوع الخطأ الذي يرتكبه الحكام في القضايا الهامة ، وقد أورد مثلاً آخر على ذلك الخطأ في ما عمله نوميكيوس الامبراطور الروماني ، الذي علّق آماله على تجدد الحروب اللاتينية . وهو لا يورد في الفصل الحادي والثلاثين من كتابه الثاني إلا مثلين ايضاً ، أولها سلوك المبعدين اللوكانيين تجاه الاسكندر الابيروسي ،وسلوك ثيموستكليس تجاه الامبراطور داريوس الفارسي ، مع العلم ان مكيافلي كان مطلعاً حتماً على الاشاعات التي كان يروجها الكثيرون من المبعدين في ايطاليا في عصره . أما موضوع الطريقة التي يجب ان تعامل بها أية مدينة مهزومة ، فمن المواضيع التي يشير اليها في أكثر من فصل من الفصول . فهو يرى ان الهجوم على مدينة منقسمة على أمرها ، يؤدي إلى وحدة صفها ، بينما قد يؤدي بث الخلاف الداخلي فيها عن طريق تأييد الحزب الأضعف إلى اقناعها بالاستسلام طوعاً . ولكنه من الناحية الاخرى يرى وجوب عدم التسامح بالخلافات الداخلية في المدن الخاضعة ، وان من الضروري اما إعدام المسؤولين عن إثارتها او إبعادهم على الأقل . وهو يستشهد على نظرياته هذه بأحداث مستقاة من تاريخي رومة وقرطاجنة .

ويجب ان توضع المجموعة التالية من الفصول،تحت عنوان: « التوسع وحكم الشعوب المحتلة » . وعدد هذه الفصول كبير ، وإذا ما درسناها تبيّن لنا ، في رأيي ، ان القوة تلعب دوراً أكثر بروزاً وأهميـة من الحيلة في نظرية مكيافلي عن السياسة الخارجية ، ولعل السبب في ذلك راجع إلى استخدامه رومة نموذجاً له،وهي المدينة التي ضمت امبراطوريتها عدة قرون ، الجزء الأكبر من العالم المعروف آنذاك . ومعظم الفصول المتعلقة بهذا الموضوع موجودة تقريباً في الكتاب الثاني من مطارحاته ، إذ تتحدث الفصول الأربعة الأولى من الكتاب عن التوسع ، ثم يعقبها فصلان هما السادس والسابع ويتحدثان عن المستعمرات ، ثم ثلاثة فصول

أخرى وتتحدث عن حكم الأراضي المحتلة . وعلينا أن نضم الى هـــذه الفصول الفصـل السادس والعشرين الـذي يصل فيه مكيافـلي إلى نفس النتيجة التي وصل اليها في الفصل الثالث والعشرين ، وهي ان الحفاظ على الأراضي المحتلة يتطلب تجنب الاجراءات المعتدلة ، فإما ان يلجأ الحكام إلى القسوة في معاملة سكانها ويحملوهم على تبديل عاداتهم تبديلاً تاماً، واما ان يعاملوهم بمنتهى الرقة واللين ، وان يسمحوا لهم بالاستمرار في الحياة طبقاً لقوانينهم واعرافهم الخاصة ، وقـد استشهـد على نجاح الاسلوب الاول بالملك فيليب الثاني المقدوني ، بينما استشهد على الاسلوب الثاني بتساهل الرومان مع اللاتين بعد حرب عام ٣٤٠ – ٣٣٨ ق . م، وعلى الفشل في اتباع الاسلوب الوسط ، بمعاملة فلورنسة للمدن الخاضعة لها بعد ثورة عام ١٥٠٢ . ويمكن للانسان ان يقارن بين ما قاله مكيافلي وبـين نتائـج معامـلة السير وليـام الكسانـدر للفرنسيـين في عام ١٦٢١ (William Alexander) (١) ،في نوفاسكوشيا أولاً ،وبين المعاهدات التي وقعت مع الفرنسيين بعد انتهاء حـروب نابوليون في عامي ١٨١٤ و ١٨١٥ ومع البوير بعد انتهاء حرب جنوب أفريقيا (١٨٩٩ – ١٩٠٢)، ثانياً وبين معاهدة فرساي ثالثاً .

وقد ضممت الفصل الخاص بالهجران ، إلى الفصول المتعلقة بموضوع التوسع كما ضممت اليها أيضاً الفصل المتعلق بأصول المدائن . وعلى هذا، يمكن للقارىء ان يطالعها على النحو التالي :

١ – الفصل الاول من الكتاب الثاني عن « الامبراطورية ودور كل من الفضيلة والحظ» .

٢ – الفصل الثاني من الكتاب الثاني عن « التوسع والحرية » .

---

١ السير وليام اليكساندر (١٥٧٧ – ١٦٤٠) – أصبح يلقب فيما بعد اللورد سترلنغ . من شعراء سكوتلندة الصغار . منحه الملك مقاطعة نوفاسكوشيا ثم أصبح وزيراً لاسكوتلندة . عـامل الفرنسيين بالرفق في نوفاسكوشيا .

٣ — الفصل الثالث من الكتاب الثاني عن «التوسع والرعوية» .
٤ — الفصل الرابع من الكتاب الثاني عن «ثلاثة طرق للتوسع» .
٥ — الفصل السادس من الكتاب الثاني عن «المستعمرات كمراكز أمامية للامبراطورية» .
٦ — الفصل السابع من الكتاب الثاني عن « المستعمرات وتوزيع الأراضي » .
٧ — الفصل التاسع عشر من الكتاب الثاني عن «طريقة كسب الامبراطوريات والفشل في حكمها» .
٨ — الفصل الحادي والعشرون من الكتاب الثاني عن «السماح للشعوب المحتلة بالحياة في ظل قوانينها الخاصة» .
٩ — الفصل السادس والعشرون من الكتاب الاول عن «الطريقة البديلة في تجديد كل شيء في الأرض المحتلة» .
١٠ — الفصل الثالث والعشرون من الكتاب الثاني عن « تجنب الطريقة الوسط في حكم الشعوب المحتلة» .
١١ — الفصل العشرون من الكتاب الثالث عن «أثر الأعمال ذات النبل الشائع» .
١٢ — الفصل الثامن من الكتاب الثاني عن «الهجرات» .
١٣ — الفصل الأول من الكتاب الأول عن «اصول المدائن» .

ومن الشائع عند الناس ، ان مكيافلي ينظر إلى العلاقات بين دولة واخرى على صعيد سياسات القوة ، وانه يتجاهل تمام التجاهل اعتماد دولة على أخرى ، ولذا فقد فشل في ان يرى ما رآه الأب اليسوعي سواريز (Suarez) (١) الذي عاش في نفس عصره ، والذي قال

١ فرانسيسكو سواريز (١٥٤٨ – ١٦١٧) فيلسوف وعالم لاهوتي اسباني . ولد في غرناطة وتعلم عند اليسوعيين في سلامنكا ، ثم غدا أستاذاً للاهوت وأصبح زعيماً لمدرسة متجددة في دراسات الآداب القديمة . – المعرب –

بالحرف الواحد انه على الرغم من « انقسام الجنس البشري الى عدد من الشعوب والممالك ، فأن هذا الجنس يتميز بطابع وحدوي معين ، وهو طابع وحدوي شبه سياسي وأدبي ، تشير اليه القوانين الطبيعية المتصلة بتبادل الحب والاحساس بالعطف » . وهذا القول صحيح كل الصحة، ولكن الشيء الغريب فيه،ان سواريز قد تمكن من ادراك الوحدة الادبية والسياسية على هذا النحو من الوضوح ، بينما تجاهلها مكيافلي ، وله الحق في ان يتجاهلها لأنه عاش في عالم ، كانت الدول فيه صغيرها وكبيرها تشن الحرب إذا اعتقدت انها تفيد منها ، وتعقد المعاهدات وتنقضها وفق ما تشاء وتهوى ، وطبقاً لمصلحتها ، وتعتمد على بعضها البعض،وتتصل على نفس النطاق السائد اليوم . ومن الانصاف لمكيافلي ، ان نقول أيضاً ، انه كان ساخطاً على هذه الاحوال ، لانها تعني الدمار للبلاد التي أحبها وحاول خدمتها . ولقد كان هذا السبب هو الذي حمله أكثر من أي شيء آخر على العودة إلى التاريخ منقباً في أساطير رومة ، باحثاً عن طريق لخلاص ايطاليا على الأقل . ولكنه وجد نفسه في النهاية، ما زال يدور في ملكوت سياسات القوة، وان كانت معرفته قد اتسعت عن طريقة إدارتها ، وعن العبر الكثيرة اللازمة التي يستطيع إدخالها في عقول مواطنيه .

وهناك ثلاث طرق للتمدد والتوسع في رأي مكيافلي . ففي الامكان غزو دول اخرى ، وحملها على الاذعان والتبعية . وهذه طريقة سيئة وقد تمثلت في تاريخ اسبارطة واثينة . وفي الامكان تكون اتحاد تعاوني (كونفيدريشين)،يتساوى فيه جميع الاعضاء ، كما حدث للتوسكانيين والآخيين والايتوليين القدماء، وكما حدث للسويسريين في عهد مكيافلي . وهذه طريقة أمثل ، لانها لا تقحمك في غمار حرب ، وفي وسعك الاحتفاظ بما حصلت عليه ، ولكنها تعني في الوقت نفسه الافتقار الى الالتحام والتماسك ، وتعني عدم الاكتراث بالحصول على ممتلكات جديدة.

ولا يمكن التوسع عن هذا الطريق « بصورة غير محدودة » ولهذا السبب وحده ، يدعو مكيـــافلي الى العدول عنه . ولا يبقى هناك الا الطريق الذي اتبعه الرومان ، وهو يتضمن ايجاد « احلاف يحتفظ المرء لنفسه فيها بحق القيادة ، وبمركز السلطة المركزية والاشراف عـــلى السياسة الخارجية » . وقد مكنت هذه الطريقة رومة من الحصول على امبراطوريتها الضخمة ، ومن اخضاع حلفائها لسلطانها، ومن اقناعهم ببذل جهودهم وسفك دمائهم نيابة عنها ، وعندما توغلت جيوشها الى ما وراء حدود ايطاليـــا احالت الممالك الى امارات تابعة . ويفترض مكيافلي ان هذه الطريقة هي الافضل والأمثل بالنسبة الى نجاحها من وجهة نظر الرومان، وهو لهذا يخصص جزءاً كبيراً من كتابه ، ليدرس فيه درساً مفصلاً دبلوماسية رومة وأساليبها في شن الحرب . وهو يكرس أكثر من ثلاثين فصلاً مثلاً ، لدراسة فن الحرب وحده ، ويتناول الموضوع من مختلف نواحيه المتعلقة بوجهات نظر القادة والجنود والحكومة المركزية في الوطن. ولا يعنينا هذا الموضوع هنا الا بقدر ما يؤلف جزءاً لا يتجزأ من طريقة رومة في التوسع .

ويمكن تلخيص الظواهر الرئيسية في سياسة رومة التي يرتكز عليها مكيافلي ، والتي يؤكدها أحياناً بأمثلة اخرى ، أو بأظهار حماقة أولئك الذين يتبعون اتجاهات ثانية ، في النقاط التالية : لقد شنت رومة الحرب على جاراتها واحدة إثر اخرى ، مختارة أولاً تلك القريبة منها، ومحتفظة في الوقت نفسه بأحسن العلاقات مع تلك البعيدة عنها ، مما خدّرها وحملها على الاستغراق في النوم . ولما كانت قد أدركت ان الحرب تشن بالسلاح لا بالذهب ، فقد احتفظت بجيوش حسنة التنظيم ، تتألف من جنـــود من رعاياها ويقودها جنرالاتها ، الذين تستطيع الركون اليهم والوثـــوق اليهم ، والذين لا يقدمون على خيانتها إلا نادراً . وأقامت في البـــلاد المحتلة ، مستعمرات لجنودها ، جعلت منها مراكز أمامية للامبراطورية،

وكانت تحفظ اسلاب الحرب وغنائمهـا في صندوق الخزينة العامة ولا توزعها على القادة والجنود . وكانت تحتفظ بمعاهداتها ومواثيقها ، فنالت بذلك سمعة عاطرة ، ولكنها كانت كثيراً ما تتحلل منها متذرعة بحجج ودعاوى قانونيـة اذا اتفق ذلك مع مصالحها ، وتفيد من أي حادث يقع لاشعالها حرباً ضروساً . وقد ركزت احلافها على مدى ما تتمتع به الدول الاخرى من قوة لا من سمعة ، ولم تكن لتشتري السلام بالمال ، وانما على النقيض تفرض الجزية على كل من ينشد ودها وصداقتها.ولجأت الى « الحيلة » في معاملة حلفائها ، فكانت تحيلهم تدريجياً الى أتبـاع دون أن يشعروا بذلك إلا بعد أن يفوت الاوان . وعندما يتم اخضاع شعب لحكمها ، لم تكن تلجأ الى الاساليب « الوسطى » في معاملتها ، بل تخيرها بين الابادة ، وبين التحول الى مواطنين رومانيين ذوي ولاء، مما أدى لا الى زيادة عدد رعاياها أو تقوية جيوشها فحسب ، بل الى أن تتطلع اليها الشعوب التي سيطرت عليها لا بعين التبعية بل بعين الحلف والصداقة ايضاً . وقد عنيت ايضاً بتمهيد الطريق للفتح،بتأمين «اصدقاء» يؤمنون لها سبل الدخول أو التسلل أو الرتل (الطابور) الخامس .

ولا يوصي مكيافـلي احداً معيناً باتباع هذه السياسة ، وهنا تقوم الصعوبة . ولو كان قد أوصى الامبراطور مثلاً باتباعها ، لكان هناك ما يقال بصددها من وجهة نظر المصلحة . ولكنه لا يفعل هذا وانمـا يكتفي بالاشارة الى أن أية دولة اذا شاءت التوسع . فهذه الطريق مفتوحة أمامها لاتباعها ، وكانت جميع الـدول الكبرى في عهده وهي فرنسا واسبانيا وانكلترا والامبراطورية راغبة في التوسع . وهكذا فـأن وضع مثال رومة امام هذه الدول ، يعني تحريضها على قتال بعضها البعض ، اما فرادى أو جماعات،وهذا ما كان يقع فعلاً ، باستثناء اهمال اساليب الرومان في الحرب ، والاتكال على المرتزقة من الجنود . ولو افترضنا ان احدى الدول اتبعت نصائح مكيافلي تماماً واتكلت عـلى جنودها لا

على المرتزقة : فليس ثمة ما يدعونا الى الافتراض بأنها كانت تستطيع اخضاع الدول الاخرى ، وذلك لسبب واحد ، وهو تكافؤها في القوة. فكيف يمكن اذن للانسان ان يوفق بين نصيحة مكيافلي باحتذاء حذو رومة ، وبين السياسة التي يشعر كل حاكم انه مرتبط باتباعها بدافع مصلحته الخاصة ، وهي العناية أولاً وقبل كل شيء ، بخير المجموعة التي يحكمها . ويعرف مكيافلي تمام المعرفة ، ان نتائج الحرب تكون مدمرة للارض التي وقع الغزو عليها ، وانها تعني الكثير من الانفاق ، والضرائب المتزايدة ، وذلك لسبب ما كان يراه من افلاس فلورنسة والامبراطور وملك فرنسا والبابا باستمرار ، من جراء الحروب المتكررة التي خاضوها. وكيف يمكن للحكام في حالة اشتعال نيران حرب اوروبية عامة ، ان يلاحظوا القاعدة القائلة بوجوب « تخفيض النفقات حتى توجه الاموال كلها لخير الشعب » . وفي حالة تمكن دولة اوروبية واحدة من فرض سيطرتها على الدول الاخرى ، وكانت مثل هذه السيطرة في ذلك الوقت مجرد حلم ليس الا ، ماذا يحل بالشعوب المحتلة ؟ وهل كان هذا الكاره اشد الكره للطغيان في مختلف صوره واشكاله على استعداد لأن يتصور بهدوء مدناً تنزع منها حرياتها ، وتعجز الى الابد، عن تحرير أنفسها واقامة نظم ديموقراطية وهي النتيجة الطبيعية لامبراطورية رومة ؟

من الصعب الاجابة على هذه المتناقضات . ولكن ليس من المشكوك فيه ان المثل التي وردت في كتاب « الملكية » « لدانتي » وفي كتاب مارسيليوس ،لم تكن مقبولة لدى شخص نشأ على تعشق تقاليد الرومان ، ولا ريب في ان استنكار العدوان على اسس أخلاقية ، ما كان ليتفق مع الطريقة التي فرضها على نفسه ، ولكن كان في وسع مكيافلي على الأقل ان يدرس العدوان من وجهة نظر المضطهدين بالاضافة إلى وجهة نظر مستعبديهم ، تماماً كما درس المؤامرات من وجهتي نظر المتآمرين ،

والمتآمر عليهم . ولقد عمل هذا بالفعل ، وبالطبع ،من حيث انه درس خير السبل للدفاع ضد العدوان ، ولكنه لم يستطع الخلاص قط من جو سياسات القوة . وعلى الرغم من تعشقه للحرية ، فأن الطراز الوحيد من الاتحاد التعاوني الذي يدعو اليه ويوافق عليه ، هو ذلك الاتحـاد الذي تسيطر فيه إحدى الدول الأعضاء على شريكاتها فيه.وهو يتحدث باعجاب عن النجاح والازدهار والسعادة والحرية التي عثر عليها في مدن سويسرا وجنوب المانيا، ولكنه لا يرى كبير جدوى من طراز الاتحاد السويسري الذي يطلق لكل مقاطعة من أعضائه حرية التصرف الا في مشاكل الدفاع المشترك.وهو يعترض عليه على أساس انه لما كانت لكل دولة عاصمتها ، فمن الصعب عليها جميعها ان تصل إلى قرارات سريعة . وهذا لا يعني الضعف مطلقاً فقد كان مكيافلي يعرف مدى قوة السويسريين في الدفاع وكيف هزموا بسهولة الملك شارل الجسور في ثلاث معارك متعاقبـة . ولكنه يعني ان هذا الاتحاد الذي يضم عدداً من الدول على أساس المساواة سيفتقر إلى الالتحام والتماسك ، وسيكون تبعاً لذلك غير حريص على ممتلكات جديدة ، إذ عندما تشترك مجتمعات عدة في تلك الممتلكات ، فأنها لا تريد الحصول على ممتلكات جديدة بنفس الطريقة التي تتطلع اليها جمهورية واحدة أملاً منها في الحصول على كل شيء . وهكذا فأن اعتراض مكيافلي الوحيد على طريقة السويسريين في الاتحاد وهي انها لا تشجع على العدوان وتدعو إلى السلام ، كما يقر هو نفسه بذلك . وأرى ان ينظر إلى هذا الافتقار المخزي لبعد النظـر الواضح في هذه المطارحات ، بالنسبة إلى العدوان على ضوء تعشقه لنموذج رومة الوثنية .

وهناك أربعة وعشرون فصلاً يتعلق بالحرب وثمانية أخـرى تتعلق بسلوك القادة . ولا أود ان اعلق عليهـا ولكنني أكتفي بسرد قائمة بالمواضيع التي تتناولها وقد قسمتها إلى أربع مجموعات اولاها الحرب عامة وثانيتها القوات المسلحة وأساليب القتال وثالثتها خطط المعارك ورابعتها

معاملة القادة وسلوكهم . وهذه هي :

(١) ــ الحرب عامة :

١ ــ الفصل التاسع من الكتاب الثاني عن أسباب الحرب .
٢ ــ الفصل العاشر من الكتاب الثاني عن عصب الحرب .
٣ ــ الفصل الثاني عشر من الكتاب الثاني عن خير وسائل الدفاع ضد الغزو .
٤ ــ الفصل السابع والعشرون من الكتاب الثاني عن جدوى القناعة بالنصر .
٥ ــ الفصل الثاني والعشرون من الكتاب الاول عن العبر المستقاة من القتال بين هوراشيوس الروماني وكويرياتي الالبي .
٦ ــ الفصل الثالث والعشرون من الكتاب الاول عن مخاطرة الانسان بثروته كلها على جزء من قواته .
٧ ــ الفصل الحادي عشر من الكتاب الثالث عن القتال ضد اتحاد تعاوني .

(٢) ــ القوات المسلحة وأساليب القتال :

١ ــ الفصل السادس عشر من الكتاب الثاني عن التدهور الحالي في الانضباط العسكري .
٢ ــ الفصل السابع عشر من الكتاب الثاني عن أهمية المدفعية .
٣ ــ الفصل الثامن عشر من الكتاب الثاني عن أهمية المشاة والفرسان.
٤ ــ الفصل العشرون من الكتاب الثاني عن القوات الاضافية والمتطوعة .
٥ ــ الفصل الحادي والعشرون من الكتاب الاول عن أهمية احتفاظ الانسان بقواته الخاصة .
٦ ــ الفصل الثالث والاربعون من الكتاب الاول عن القتال طلباً للمجد .

٧ – الفصل الرابع والعشرون من الكتاب الثاني عن القلاع .
٨ – الفصل الرابع عشر من الكتاب الثاني عن استعمال الاختراعات الجديدة .
(٣) – خطط المعارك .
١ – الفصل العاشر من الكتاب الثالث عن تجنب المعركة .
٢ – الفصل الثاني عشر من الكتاب الثالث عن استخدام الضرورة في المعركة .
٣ – الفصل السادس والثلاثون من الكتاب الثالث عن قيمة الحماس في المعركة كما يعرضه الفرنسيون .
٤ – الفصل السابع والثلاثون من الكتاب الثالث عن اهمية الاشتباكات .
٥ – الفصل الاربعون من الكتاب الثالث عن استخدام الخطط الحربية .
٦ – الفصل الخامس والاربعون من الكتاب الثالث عن الخطأ والدفاع في المعركة .
٧ – الفصل الثامن والاربعون من الكتاب الثالث عن الشك في الاخطاء الخطيرة .
٨ – الفصل الثاني والثلاثون من الكتاب الثاني عن اجتياح المدن.
٩ – الفصل الثلاثون من الكتاب الثالث عن الدفاع عن المدن .
(٤) – معاملة القادة وسلوكهم .
١ – الفصل الحادي والثلاثون من الكتاب الاول عن معاقبة القادة.
٢ – الفصل الثالث والثلاثون من الكتاب الثاني عن الحاجة الى القادة للحصول على صلاحيات تمييزية .
٣ – الفصل الثالث عشر من الكتاب الثالث عن هل من الافضل ان يكون القائد الطيب على رأس جيش سيء ، أو القائد

السيء على رأس جيش طيب .

٤ – الفصل الخامس عشر من الكتاب الثالث عن الحاجة الى وحدة القيادة .

٥ – الفصل الثامن عشر من الكتاب الثالث عن توقع خطط الاعداء.

٦ – الفصل الثالث والثلاثون من الكتاب الثالث عن الايحاء بالثقة في النصر للجنود .

٧ – الفصل الثامن والثلاثون من الكتاب الثالث عن الايحاء بالثقة للجنود من قائدهم .

٨ – الفصل التاسع والثلاثون من الكتاب الثالث عن اهمية معرفة ارض المعركة .

١٤ ـ الترجمة ، ملاحظات ، جداول وفهارس

قمت بترجمة هذا الكتاب عن الطبعة الايطالية التي صدرت في فلورنسة في عام ١٩٢٠ . وقد بذلت كل ما وسعني من جهد ، لأجعلها حرفية قدر المستطاع ، بحيث يستطيع القارىء ان يرى أمامه حقيقة ما قاله مكيافلي . وقد رأيت ان أدرج قائمة بالكلمات والعبارات الايطالية المهمة التي وردت فيه لاطلاع الراغبين في معرفة نفس الاصطلاحات التي ترجمتها بلغتها الاصلية . أما تقسيم المطارحات إلى فقرات مرقمة ، فقد قمت به تسهيلاً للمراجعة .

وقد وضعت ، فهرساً تحليلياً بالمحتويات ، جمعت فيها المطارحات تحت عناوين تشير إلى الموضوع العام الذي تتعلق به كل مجموعة .

وأدرجت في الهوامش الملحقة اشارات إلى اقتباسات مكيافلي من ليفي وغيره من الكتّاب مع شروح للأسماء ، والحوادث المذكورة ، وسيصدر

بها كلها مجلد ثان فيما بعد . وهي تتضمن ايضاً انتقادات هنا وهنالك للاخطاء التي وقع فيها مكيافلي ، حيث خلط بين اسمين او أعطى اسماً مغلوطاً لحادثة ثانية، كما تحتوي على ملخص للتعليقات التي كتبها معاصرو مكيافلي ، ككويكارديني مثلاً .

واني لأود ان اعرب هنا عن شكري العميق الخالص لجميع الأصدقاء الذين ساعدوني في وضع هذا الكتاب، ومعظمهم من أساتذة جامعة اكسفورد.

اكسفورد ٧ ايلول ١٩٤٦ **ليسلي ووكر**

المطارحات

عن الكتب العشرة الأولى

لتيتوس ليفي



من نيقولو مكيافلي

إلى زنوبي بونديلمونتي وكوزيمو روسلّي

تحية ، أبعث اليكما بهدية ، واذا كانت غير لائقة بالالتزامات التي ادين بها اليكما ، فانها على الأقل ، اكثر ما يستطيع نيقولو مكيافلّي ارساله . وقد وضعت فيها كل ما اعرف، وكل ما تعلّمته من تجاربي الطويلة ، ومن قراراتي المستمرة في القضايا السياسية . ولما كنتما،وغيركما من الناس ، لا تنتظرون مني اكثر من هذا ، فأنكما لن تشعرا والحالة هذه بخيبة الأمل في انني لم ابعث اليكما اكثر مما بعثت . وقد تألمان لافتقاري الى الحصافة اذا جاءت القصص التي أرويها رقيقة الحشو كما قد تألمان لاخطائي في التقدير ، اذا كنت قد ارتكبت في كثير من المواضع اثناء مناقشتي للأمور بعض الهفوات . واذا كانت الحالة على هذا الشكل ، فلا ادري أيناً اكثر ديناً للآخر ، هل انا اكثر ديناً لكما ، لانكما حملتماني على كتابة شيء ما كنت لأكتبه مطلقاً بمحض اختياري ، او انتما لي ، اذا كان ما كتبته قد فشل في ارضائكما . فاقبلا به اذن على النحو الذي يقبل به الناس الامور عادة من اصدقائهم حيث تكون لنية المهدي ، قيمة اكبر من الهدية نفسها . وأرجو ان تصدقاني عندما اقول ، انني أجد في هذا عزاء لنفسي . اذ عندما

افكر في الاخطاء التي قد أكون ارتكبتها في مناسبات اخرى ، اجد اني لم ارتكب اخطاء في هذا الكتاب ، ولذا فقد اخترته على سواه ليكون هديتي اليكما ، وذلك لأنني في عملي هذا أبدو وكأنني اظهر بعض الاعتراف بالجميل للمنافع التي تلقيتها منكما ، ولانني أيضاً ابدو وكأنني قد بعدت عن الطريقة التي ألفها المؤلفون الآخرون ، وهي اهداء ما يكتبونه الى امير ، فيعميهم الطموح والشراهة عن كل شيء آخر ، ويطوونه على كل ما فيه من مزايا الفضيلة ، بينما كان لزاماً عليهم ان ينهالوا عليه بالملامة ، بالنسبة الى اعماله المخزية .

ولتجنب هذه الخطيئة ، لم أختر الامراء،وانما اولئك الذين يستحقون بفضل ما لديهم من صفات طيبة لا تقدر ولا تحصى ان يكونوا من الامراء ، اولئك الذين لا أنتظر منهم إغراقي بالرتب او الأوسمة أو المال ، بل الذين لو اتيح لهم اغداقها لما توانوا عن ذلك لحظة واحدة. فمن طبيعة الصدف في الحكم ، ان يقدر الانسان الناس على كرمهم لا على قدرتهم على الكرم ، وان يعجب بأولئك الذين يستطيعون حكم مملكة ما ، لا بأولئك الذين يحكمون هذه المملكة فعلاً دون ان يعرفوا طريقة حكمها . وهناك بالفعل بعض الكتّاب الذين مدحوا هيرو السراقوزي (Hiero) (١) ، على الرغم من انه لم يكن أكثر من انسان عادي ، مؤثرينه على بيرزيوس (Perseus) (٢) المقدوني ، على الرغم من انه كان ملكاً ، وذلك لأن هيرو لم تكن تنقصه من

١ فيلسوف من المدرسة الرواقية عاش في مدينة سراقوزه في جزيرة صقلية في العصر الهليني، وهو واضع كتاب « مبادئ الاينيية » (الفلسفة الأخلاقية) .

٢ من الاساطير اليونانية القديمة . قيل انه ابن الاله زيوس من « داني » ابنة اكريزيوس من أهل مقدونيا . وقد وقع بوليديتس ملك سيريفوس في حب داني فبعث بابنها ليبحث له عن رأس ميدوزا . وقد تمكن هذا من تحقيق غايته بمساعدة الالهة اثينا . وفي طريق العودة انقذ اندروميدا من أحد مردة البحر وتزوجها ثم أنقذ أمه من طغيان الملك الذي حوله حجراً . ثم قتل جده وغدا ملكاً على ارغوس .

— المعرب —

مزايا الامارة شيء إلا وجود الامارة نفسها ، بينما كان بيرزيوس ، لا يحمل من صفات الملك إلا كونه ملكاً . وعلى هذا تسليا بما كنتما تواقين للحصول عليه ، سواء أكان ما كتبته حسناً او سيئاً ، وإذا ما أخطأتما ووجدتما آرائي مقبولة،فلن أتقاعس عن إلحاق هذا الكتاب ببقية التواريخ كما وعدتكما في البداية . والآن استودعكما الله .



الكتاب الأول

تطوّر الدستور في رومة



الكتاب الاول

المقدمة

« يتناول الكتاب الأول تلك الحوادث المتصلة بالمراسيم العامة التي يعتقد المؤلف انها جديرة بالتعليق ، ونتائجها . وهو يعالج التطور الدستوري في رومة منذ أيام الملوك إلى عام ٣٨٧ ق. م. عندما بدأ احتلال ايطاليا . وقد استند إلى الكتب الاربعة الاولى من تاريخ ليفي . وتؤلف الفصول العشرة الأولى المقدمة . »

لما كان من الخطر جداً بسبب غريزة الحسد المتأصلة في طبيعة الانسان، ان يكتشف طرقاً وأساليب جديدة . ولما كانت هذه الخطورة لا تقل مطلقاً ، عن اقتحام المجهول ، بحثاً عن محيطات جديدة واراض غير معروفة ، وذلك لأن من شيمة الجنس البشري عامة الميل إلى التقليل من اعمال بعضهم البعض أكثر من الميل إلى اطرائها ، ولما كنت مدفوعاً دائماً بالرغبة الطبيعية في العمل دون اكتراث بأي شيء آخر ، لما فيه

الخير للمجموع ، فقد قررت السير في طريق جديدة ، لم تطأها قدم انسان من قبل . وعلى الرغم مما في هذه المهمة التي اخذتها على عاتقي من كبير مشقة ، إلا ان مما يعزيني ، ان ثمة اناساً سينظرون بعين العطف إلى الهدف الذي وضعته نصب عيني من عملي هذا . وإذا قدر لقدرتي الضعيفة ، ولتجاربي المحدودة في الشؤون السائرة ، ولمعرفتي الضئيلة بأحداث الماضي السحيق ، ان تجعل كلها من محاولاتي ناقصة وغير ذات قيمة ، إلا انها على أي حال ، قد تمهد الطريق لآخرين يتمتعون بقدرة أكبر ، وبالبلاغة في القول والسلامة في الحكم ، للوصول إلى ما نشدته من طموح ، وهو أمر إن لم يضف علي حمداً ، جنبني على أي حال مغبة اللوم والتثريب .

وعندما أرى بنفسي ما تلقاه صور الماضي من احترام واجلال ،وكيف يدفع الناس مثلاً ، في قطعة من تمثال قديم ثمناً عالياً للحصول عليه ، وتشريف بيوتهم بوجوده فيها ، وكيف يتبارى فنانو العصر والبارعون في الفن على نحت نماذج له ، ليعيدوا اخراجه في جميع اعمالهم الفنية . وعندما الاحظ من الناحية الاخرى ، ان ما يقوله التاريخ عن الأعمال المثلى والرفيعة التي قامت بها الممالك والجمهوريات القديمة ، وقام بها ملوكها وقادتها ومواطنوها ومشرعوها، وغيرهم من الذين اضنوا أنفسهم في خدمة بلادهم ، هي محط الاعجاب اكثر منها موضع التقليد ، وانها كثيراً ما يعرض عنها الجميع في كل ما يعملونه من صغائر ، وأن مآثر الايام السالفة لم يبق منها اثر . فانني احس فوراً بالكثير من الدهشة والحزن . وتزداد دهشتي ويتضاعف حزني ، عندما أرى الناس يلجأون في المنازعات المدنية التي كثيراً ما تثور بين المواطنين وفي الأمراض التي يصاب بها البشر ، الى القرارات التي وضعها الأقدمون والى ما توصلوا اليه من وصفات طبية . فما القانون المدني الا مجموعة من القرارات التي وضعها المشرعون الاقدمون ، والتي صاغها مشرعو اليوم في شكل منظم

ليسهل علينا تعلمها وتناولها . وما الطب في الوقت نفسه الا سجل للتجارب التي قام بها اطباء الأمس والتي يستند اليها اطباء اليوم في وضع وصفاتهم الطبية . وعلى الرغم من كل هذا ، فانك لا تجد امبراً او جمهورية يعودان في بناء الجمهوريات والحفاظ عليها ، أو في حكم الممالك، وتشكيل الجيوش ،وادارة دفة الحروب ، ومعاملة الرعايا وتوسيع الامبراطوريات الى دروس الماضي البعيد وعبره ، للافادة منها ، والحذو حذوها .

ولا يرجع السبب في هذا في رأيي ، الى حالة الضعف التي قاد الدين العالم اليها ، ولا الى الشرور التي خلقها الطموح المشترك مع الكسل في العديد من ممالك المسيحية ومدنها، بل الى الافتقار الى التقدير الصحيح للتاريخ ، وذلك بسبب عدم تمكن الناس من ادراك اهمية ما يقرأونه ، ومن تذوق ما فيه من متع ولذة . وهكذا فكل ما يحدث هو ان تتلذذ الجمهرة الغالبة من الناس ، الذين يقرأونه بالاستماع الى ما فيه من احداث مختلفة ، دون التفكير في السير على منوال سيرها ، وذلك لأنهم لا يكتفون بالنظر الى انها صعبة المتناول ، بل يجدونها مستحيلة التقليد ايضاً ،وكأن السماء والشمس وعناصر الطبيعة والانسان،قد اختلفت كلها في حركتها ونظامها وطاقاتها ، عما كانت عليه في الماضي .

ولما كنت أهدف إلى إخراج الناس من هذا الخطل في التفكير ، فقد رأيت صواباً ، ان اكتب تعليقاً على كل ما كتبه تيتوس ليفي من تواريخ ، لم تقطع سير اتصالها شرور الايام . وسيضم ما اكتبه ، ما توصلت اليه من نتائج أيضاً ، بمقارنة أحداث الماضي بشؤون الحاضر ، بحيث يتوافر لأولئك الذين سيقرأون ما اكتب ، ان يعرفوا رأيي وان يستخلصوا منه بسهولة العبر العملية التي يجب على الانسان البحث عنها في دراسته للتاريخ . وعلى الرغم من صعوبة المهمة إلا انني أعتقد ان باستطاعتي بمعونة اولئك الذين شجعوني على القيام بها ، السير فيها بطريقة تضمن لمن يتبعني فيها ، ان يقطع شوطاً قصيراً فقط ليصل الى المكان الذي استهدفته .

الكتاب الاول

المطارحات من ١ ـ ١٠

أحسن أنواع الحكم

١

عن اصول المدائن عامة ، وروما خاصة

قد لا يدهش من يقرأ تاريخ مدينة رومة من ناحية نشوئها ومشرعيها ودستورها إذا وجد ان الفضيلة في هذه المدينة قد حوفظ عليها بشكل عظيم عدة قرون ، وان الامبراطورية قد برزت إلى الوجود بعد أمد طويل تطورت ابانه الجمهورية باتجاهها .

ولما كان الغرض من هذه المطارحة الأولى ، معالجة أصل مدينة رومة ونشوئها ، فأني أود أن اقول ان جميع المدن في العالم ، يقوم عليها اما ابناء المكان الذي تنشأ فيه ، أو غرباء يفدون اليه . وقد توجد

الحالة الاولى ، عندما يقوم الأهلون المتفرقون في عدة شيع صغيرة ، بعد ان يجدوا ان من المتعذر عليهم التمتع بالأمن والسلامة ، لعجز المجموعة الواحدة ، بسبب أوضاعها وقلة عدد أفرادها ، عن مقاومة هجوم يقوم به الغزاة ، ولتعذر اتحادهم للدفاع عن أنفسهم في حالة وصول العدوان أرضهم ، لضيق الوقت ، الذي حتى لو اتسع نوعاً ما أيضاً ، لما مكنها من الدفاع عن الكثير من مراكزها المنيعة مما يضطرها إلى التخلي عنها فتتساقط فريسة هينة في أيدي العدو . وهكذا تقوم هذه الجماعات ، رغبة منها في التخلص من الأخطار ، اما بمحض رغبتها الخالصة ، او تنفيذاً لاقتراح يصدر عن انسان ذي سلطة كبرى في صفوفها ، بالعيش معاً في مكان واحد تختاره ، لتجد فيه الراحة في العيش ، والسهولة في الدفاع عن أنفسها .

ولقد كانت هذه هي الحالة التي سادت اثينا والبندقية وكثيراً من المدن الأخرى أيضاً . ولقد تولى ثيسيوس (Theseus) (١) الزعامة في الايعاز إلى الأهلين ببناء مدينة أثينا لأسباب لا تخرج عمّا ذكرت وكان هؤلاء الأهلون متفرقين شيعاً وجماعات قبل بنائها . كما قام عدد من الأقوام ببناء مدينة البندقية بحثاً عن المأوى الأمين، في هذه الجزر العديدة الواقعة في ذروة البحر الادرياتيك ، وتجنباً لأهوال الحروب التي كانت تنشب يومياً في ايطاليا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، بسبب وصول مجموعات جديدة من البرابرة . وهكذا أخذ هؤلاء الاقوام ، دون ان يكون على رأسهم شخص معين أو أمير يضع لهم دستورهم ، يعيشون كمجتمع تسوده قوانين ارتأوا بأنها صالحهم للحفاظ على كيانهم . وقد

---

١ ثيسيوس — بطل اسطوري من أبطال الاغريق الاقدمين . كان والده ايجيوس ملكاً في اتيكا . بدأ حياته بقتل الثور المارائوني ثم مضى مع الشبان السبعة الذين يبعث بهم أهل أثينا كل عام إلى كريت ليبتلعهم التنين . أعطته اريادن بعد أن أحبته سيفاً قتل به التنين و عاد إلى اثينا فتولى ملكها و اشتهر أمره وقام بأعمال خارقة أخرى . — المعرب —

نجحوا في تحقيق غرضهم نجاحاً طيباً بسبب الهدوء الذي نعموا به مدة طويلة ، وذلك لأن البحر من ناحيتهم كان اميناً من المخارج ، ولأن الاقوام التي كانت تعيث في ايطاليا فساداً،لم تتوافر لديها البواخر لغزوهم. وعلي الرغم من ضآلة هذه البداية الصغيرة،الا انها كانت كافية للوصول بهم الى عظمتهم الحالية .

وتقع الحالة الثانية ، عندما يقوم اناس يمتون الى عنصر غريب ببناء المدينة . وقد يكون هؤلاء الناس من الرجال الاحرار ، أو من الرجال الذين يتبعون الآخرين اذ أن جاليات المستعمرات ، تكون عادة من التي يوفدها الأمراء او المسؤولون عن الجمهوريات ، لتخفيف ضغط السكان في مدنهم ، أو للدفاع عن الأراضي الجديدة التي احتلوها،والتي يرغبون في الحفاظ عليها بأمن واطمئنان ودون كبير نفقة . وقد بنى الرومان عدداً من امثال هذه المدن ، وذلك في جميع انحاء امبراطوريتهم . وقام بعض الأمراء ببناء مدن اخرى ، لا للاقامة فيها ، بل لتوسيع شهرتهم وتقويتها كما فعل الاسكندر عندما بنى مدينة الاسكندرية . ولما كانت مثل هذه المدن لا تكون حرة منذ مطلع عهدها ، فانها على الغالب تحرز تقدماً الا فيما ندر وتصبح بفضل ما تقوم به من عمل ، من عواصم الدولة المعتبرة .

وهذه هي الطريقة التي اتبعت في بناء فلورنسة ، اذ سواء أبناها جنود صولا (Sulla) (١) ، او بناها الأهلون القادمون من تلال فييزولي ، اعتماداً منهم على السلام الطويل الذي نعم به العالم في عهد اوكتافيان (٢) ، والذي دفعهم الى النزوح للاقامة في سهول الارنو ،

---

١ صولا (١٣٨ – ٧٨) ق. م. قائد عسكري روماني شهير . تولى زعامة حزب النبلاء بينما تولى ماريوس زعامة العامة . وقعت الحروب بينهما وانتصر صولا ، وأصبح ديكتاتوراً مدة طويلة . نظم جيش رومة .

٢ اوكتافيان – هوالامبراطور اوغسطس ، أشهر اباطرة الرومان ، وقد بدأ حكمه عام ٣١ ق. م. – المعرب –

فقد بنيت في عهد الامبراطورية الرومانية،ولم يكن في وسعها منذ البداية، ان توسّع من رقعتها الا اذا سمح لها كرم الامبراطور بذلك .

أما المدن الحرة ، فهي تلك التي يقوم على بنائها ، اقوام، تضطرهم المجاعات أو الأوبئة أو الحروب ، الى الارتحال عن مسقط رأسهم تحت قيادة امير منهم ، أو دون اية قيادة ، بحثاً عن مأوى جديد . وقد تكون هذه المدن من النوع الذي يعثر عليه هؤلاء المرتحلون في البلاد التي يحتلونها ، كما فعل موسى ، أو من النوع الذي يقومون هم على بنائه كما فعل اينياس مثلاً (Aeneas) (١) . ويمكن الاحساس بما لدى المنشيء من فضيلة ، من مشاهدة ما بناه ، اذ ان بروز المدينة ومظهرها يعتمدان الى حد كبير على مدى ما لدى الشارع في بنائها من فضيلة ، قد تبدو في شكلين ، اولهما اختيار الموقع ، وثانيهما ، سن الشرائع والقوانين .

ولما كان الناس يعملون اما بدافع الحاجة ، او بمحض الاختيار ، ولما كانت الفضيلة تتوافر ،حيث لا يكون للاختيار كبير محل ، فإن السؤال الذى يترامى الى الاذهان هو ما اذا لم يكن من الافضل اختيار مكان قاحل مجدب لاقامة المدينة عليه ، وذلك لحمل أهلها على الجد والعمل ، بدلاً من اللجوء إلى الكسل والبطالة . وفي تلك الحالة ، يضمن منشيء المدينة وحدة كلمتهم وصفوفهم ، بسبب فقر الموقع وتضاؤل امكانية الخلاف بينهم، كما حدث مثلاً في راغوسة وفي غيرها من المدن الأخرى التي بنيت في أماكن مماثلة .

ومثل هذا الاختيار ، أكثر حكمة وتعقلاً وفائدة بلا ريب ، لو كان الناس يقنعون بكسب اودهم ، ولا يتطلعون الى فرض هذا الأود على عمل الآخرين . ولما كان الأمن ، على أي حال ، مستحيلاً على

---

١ من أبطال طروادة المشهورين . وقد خلده فرجيل في ملحمته « الانيياده » . يقال انه بعد انتصار اخيل ، عليه ، واحتلال طروادة (قصة حصان طروادة المشهورة) ، عبر الدردنيل إلى أوروبا ، حيث وصل إلى لاتيوم في ايطاليا و أقام فيها . — المعرب —

الانسان الا اذا كان مشتركاً مع السلطان ، فأن من الضروري تجنب الاماكن القاحلة ، وبناء المدن في المواقع المخصبة ، حيث يصبح في مكنة الناس ، بعد توسع الرقعة بسبب وفرة انتاج الارض ، الدفاع عنها ضد الهجمات ، والتغلب على كل من تسوّل له نفسه الوقوف في طريق عظمتها وتقدمها . أما الميل الى البطالة والكسل ، الذي قد يشجعه وضع المدينة هذا فيمكن التغلب عليه ، بسن القوانين التي تفرض الحاجة الى العمل ، وهو ما لا تستطيع الاوضاع ان تفرضه . ومن الخير هنا ان يحتذى حذو اولئك العاقلين من الناس ، الذين أقاموا في أجمل الاراضي وأكثرها خصباً ، وهي أراض قمينة بأن تبعث بوفرة نتاجها ، البطالة والعجز عن التدريب الصحيح من أي نوع كان ، ولكنهم، رغبة منهم في تجنب الكوارث التي قد يأتي بها الكسل جرّاء وفرة خيرات الارض، فرضوا الحاجة الى التدرب على اولئك الراغبين في ان يغدوا جنوداً ، وجعلوا من هذا التدريب ، طرازاً يفضل كثيراً ، في انتاج أحسن الجنود الذين يفوقون اولئك الذين يعيشون في بلاد قاسية ومجدبة بطبيعتها.

ولعل خير مثل على ما أقول ، مملكة المصريين ، الذين تجاهلوا خيرات الارض ، وفرضوا الحاجة الى العمل ، بشكل ناجح عن طريق القوانين ، مما أدّى الى انتاج أفضل الرجال ، الذين لو لم يعف القدمُ على اسمائهم ، لكانت أوفر شهرة ، من اسم الاسكندر الكبير ، ومن أسماء غيره من الناس ، الذين ما زالت ذكراهم تعيش بين الناس . ولا ريب أيضاً في ان كل من درس تاريخ مملكة السلاطين ، وما كان يعرف به المماليك من ضبط عسكري رائع ، تميز به جنودهم أيضاً ، قبل ان يزيلهم سليم الفاتح العثماني من الوجود ، لا بد وان يكون قد لاحظ ، ما كان يمر به الجنود من تدريب عسكري شاق،وان يستخلص من هذا مدى ما كانوا يخشونه من استفحال الكسل والبطالة ، بسبب خيرات البلاد ، وما تؤدي اليه من نتائج لو لم يتجنبوها عن طريق

القوانين الصارمة التي سنّوها .

وعلى هذا فاني أرى من الحكمة اقامة المدينة في موقع خصب شريطة السيطرة على خصوبتها عن طريقِ الشرائع . وعندما اقترح الاسكندر الكبير بناء مدينة تخلد اسمه وشهرته ، اشار عليه دينوقراطيس، المهندس المعماري، ببنائها على جبل أتوس (Athos) (١) ، اذ بالاضافة الى مناعة موقع هذا الجبل ، يمكن بناء المدينة على شكل يكسبها صورة بشرية ، وهذا أمر نادر ، وبارز كل البروز ، جدير بعظمة مدينة الاسكندر . وسأله الاسكندر ، ولكن علامَ سيعيش أهل هذه المدينة ؟ فرد دينوقراطيس، بأنه لم يفكر في هذا الموضوع أبداً . فضحك الاسكندر من قوله ، ونبذ فكرة الجبل جانباً وبنى مدينة الاسكندرية ، التي قدر لاهلها ان ينعموا فيها بما تقذفه عليهم الارض من خيرات ، وما يقدمه لهم البحر ونهر النيل من تسهيلات جمة .

وهكذا تكون رومة، بالنسبة الى الذين درسوا تاريخ انشائها ، وقرروا ان اينياس هو بانيها ، مدينة بناها الاجانب ، أما اولئك الذين قرروا ان رومولوس هو منشؤها : فهي بالنسبة اليهم ، مدينة بناها ، اهل الموقع أو المكان . ولكن سواء أصح هذا الرأي أو ذاك ، فان الفريقين يعترفان بأنها نشأت كمدينة حرة لا تخضع لانسان . وهما يقرّان أيضاً ، كما سنرى بعد قليل ، بصرامة القوانين التي عاشت في ظلها ، والتي شرعها ، رومولوس ونوما وغيرهما ، وانه نتيجة هذه القوانين ، لم تفلح خصوبة موقعها وتسهيلات وضعها على البحر وانتصاراتها المتكررة وعظمة امبراطوريتها ، قروناً طويلة عدة ، في إفسادها ، بل حافظت على غناء فضائلها بحيث لم تفقها أو حتى تضاهيها مدينة اخرى أو جمهورية ، في اعجاب الناس وتعلقهم بها .

---

١ جبل في بلاد اليونان يقع على ساحل بحر ايجه ، ويبلغ ارتفاعه ٦٣٥٠ قدماً . ويوجد الآن على هذا الجبل دير يرجع في بنائه إلى العصور الوسطى ، وكان مركزاً للاهوت الارثوذكسي .
— المعرب —

ولما كان ما انجزته هذه المدينة قد تم طبقاً للمراسيم العامة كما سجله تيتوس ليفي أو بحافز من بعض الافراد العاديين من ابنائها ، وقد حدث اما في داخل المدينة ، أو في خارجها احياناً ، فقد آثرت ان ابـــدأ ببحث الاحداث التي وقعت بموجب المراسيم العـــامة ، لأنها في رأيي اكثر جدارة بالتعليق ، وسأجمع الى هذه الأحداث نتائجها التي خصصت مطارحات هذا الجزء الاول من الكتاب لبحثها .

٢

عن انواع الحكومات ، ومن أي نوع كانت حكومة رومة

أرى ان لا اتحدث عن المدن التي كانت منذ مستهل عهدها،خاضعة لسلطة مدن اخرى ، وان احصر حديثي في المدن التي كانت منذ بداية نشوئها ، في منجاة من أية عبودية خارجية ، وكانت تحكم طبقاً لرغباتها وحدها ، سواء اكانت من الجمهوريات أو من الامارات . ولما كانت هذه المدن تختلف في منشئها ، فقد اختلفت ايضاً في قوانينها ومؤسساتها. فلقد اتيح لبعضهـــا منذ مستهل عهدها ، أو بعد قيامها بأمد قصير ، شخص يظهر في وقت من الاوقـــات فيشرع لها قوانينها ، كما حدث بالنسبة لاسبارطة ، التي سن لها ليكيرجوس شرائعها ، بيما حصل البعض الآخر ، عرضاً على هذه القوانين في أوقات متفاوتة ، بتفاوت الظروف، وهذا ما حدث بالنسبة الى رومة مثلاً .

ولا ريب انها حكومة سعيدة تلك الحكومة الشعبية ، التي تخرج رجلاً حكيماً يستطيع الناس الحياة بأمن ودعة في ظل القوانين التي يضعها لها والتي لا يضطرون الى تقويمها . ولقد ظلت اسبارطة مثلاً ، تحترم قوانينها

اكثر من ثمانمائة عام ، دون افسادها ، ودون أن تحس بأزعاج يهددها. أما المدينة التي لم يتح لها الحظ منظماً عاقلاً ينظم لها شؤونها والتي تضطر هي بنفسها الى القيام بهذا التنظيم ، فتكون تعيسة الحظ شقية . ولعل اتعس منها حظاً تلك التي تكون بعيدة عن النظام ، واشقى من هـذه كلها، تلك التي اخطأت منظماتها طريق الصواب الذي يقودها الى مصيرها الصحيح والحق . اذ يستحيل حتماً ، ان تعـاد مثل هذه الدول الى الطريق الصحيح ثانية ، وقد تتحول الى مرتبة الكمال الحكومة التي تبدأ بداية طيبة وتستطيع تحسين احوالها ، على الرغم من عدم صحة نظامها، اذا أتاحت لها الفرص ذلك . ولكن يجب ان يلاحظ عـلى اي حال ، ان ادخال النظام اليها ينطوي على بعض الخطر ، اذ ان قلة من الناس، هي تلك التي ترحب بالقوانين الجديـدة التي تعرض النظام الجديد في الدولة . الا اذا شعر الجميع بضرورة هذه القوانين بشكل واضح ، ولما كانت مثل هذه الضرورة لا تنشأ عادة الا مصحوبة بالاخطار ، فـان الدولة قـد تتعرض الى الخراب ، قبل ان تصل القوانين الجديدة الى مرحلة التمام . ولعل فلورنسة هي خـير مثل على ما أقول ، فقد أعيد تنظيمها بعدما حدث في اريزو ، ولكن دستورها تعرض للدمار بعد ما حدث في براتو .

ولما كان هدفي الحديث عن منظمات مدينة رومة ، وعن الاحداث التي أدت الى كمالها ، فانني أود القول بأن الذين كتبوا عن الدول ، يقولون انها ــ أي هذه الدول ــ لا بد وان تكون منطوية على أحـد اشكال الحكم الثلاثة ، وهي الإمارة وحكم النبلاء وحـكم الشعب ، وان على من يقيمون حكومة في اية دولة معينة، ان يتبنوا أحد هذه الاشكال الثلاثة ، طبقاً لما يتفق وأهدافهم .

وهناك آخرون يقولون ، ويعتقد البعض ان حكمهم اكثر صواباً ، ان ثمـة ستة اشكال من الحكومات ، ثلاثة منها سيئة للغاية ، وثلاثة

حسنة في طبيعتها ولكن من السهل افسادها ، ولذا فمن الواجب اعتبارها من النوع السيء أيضاً . أما الانواع الحسنة الثلاثة فهي التي سبق لي ذكرها قبل قليل . وتكون الاشكال السيئة الثلاثة تابعة للثلاثة السابقة ، وتتشابه مع تلك التي ترتبط اليها الى حد يجعل من السهل جداً على اية دولة التحول من شكل منها الى آخر . فمن اليسير التحول من الامارة الى حكم الطغيان ومن حكومة النبلاء (الارستقراطية) الى حكم القلة (الاوليغاركي) ومن حكومة الشعب (الديموقراطية) الى الفوضى . وهكذا يكون من يقوم على تشكيل حكومة ويختار لها احد الاشكال الثلاثة الأولى ، قد اختار لها في الواقع حكماً مؤقتاً ، اذ ليس ثمة من سبيل للحيلولة دون تحوله الى نقيضه ، وذلك بسبب ما يقوم بين الفضيلة والرذيلة في مثل هذه الاحوال من تشابه .

وترجع هذه الاختلافات في الحكومات بين الناس الى مجرد الحظ . فلقد كانوا يعيشون في الحياة في العالم ، وعندما كان عددهم قليلاً أشتاتاً متفرقين كالحيوانات . ومع تكاثر ذريتهم ، بدأ الناس يقتربون من بعضهم البعض ،وحرصاً منهم على تحسين وسائل الدفاع عن انفسهم، شرعوا يتطلعون الى رجل منهم ، يكون اكبر قوة وأكثر شجاعة من غيره فينصبونه رئيساً عليهم ويدينون له بالطاعة .

وهكذا بدأ الناس يتعلمون التمييز بين النبيل والطيب من ناحية وبين السيء والشرير من الناحية الاخرى ، وذلك لأن مرأى من يسيء الى صاحب الفضل عليه ، يستفز لديهم الكراهية للمسيء والعطف على المساء اليه ، وأخذوا يوجهون اللوم الى ناكر الجميل، وينظرون بعين الاحترام الى كل من يقدر المعروف لأهله ، ذاكرين ان عين الاساءات قد توجه الى كل واحد منهم . وهكذا أخذوا رغبة منهم في منع شرور من هذا القبيل ، يشرّعون القوانين ويفرضون العقوبات على كل من يخالفها . وظهرت فكرة العدالة الى حيز الوجود .

وحدث ، على هذا النحو ، ان الناس ، عندما أخذوا يبحثون عن أمير لاختياره ، شرعوا لا يختارون أشجعهم ، كما كان الوضع في السابق ، بل أكثرهم حكمة وعدالة .

وعندما بدأوا في قبول الامراء بالوراثة بدلاً من انتخابهم ، وذلك في المرحلة التي تلت،اخذ هؤلاء الورثاء في التدهور بالنسبة الى اسلافهم، وشرعوا يهجرون أعمال الفضيلة، ويعتبرون ان على الامراء ان لا يعملوا شيئاً سوى التفوق على الآخرين في الانفاق ، والاقبال على الشهوات والمباذل على اختلاف انواعها . وهذا أدى الى تركيز الكراهية على الامراء ، الذين يلجأون الى الخوف متى أحسوا بكراهية الناس لهم مما يؤدي بهم الى اعمال العنف التي تنتج حكم « الطغيان » وبسرعة متناهية. ويكون حكم الطغيان في وقت قصير مصدراً لسقوط الامراء ، اذ انه يولّد المؤامرات والدسائس ضد أشخاصهم ويقوم على تنظيمها اناس ليسوا بالجبناء ولا بالضعفاء ، وانما من المعروفين بميولهم التحررية ، وعظمتهم وثرائهم وكفايتهم،وذلك لأن مثل هؤلاء لا يستطيعون الرضى بالحياة التي يعيشها الامراء . وتحمل الجماهير السلاح بتحريض من هؤلاء القادة الاقوياء ضد الامراء ، وعندما تنتهي من تصفية امرهم ، تخضع لسلطان اولئك الذين تنظر اليهم على انهم محرروها . وهكذا يقوم هؤلاء، الذين ينطبق عليهم تعبير « الرئيس الفرد » ، بتأليف الحكومات ، فيستهلون عهودهم نظراً لتذكرهم ما عانوه في ظل الطغيان ، بالحكم طبقاً للقوانين التي يشرعونها ، ويخضعون مصالحهم للخير العام ويحكمون ويحافظون على النظام في الشؤون الخاصة والعامة على حد سواء ، بمنتهى الدقة والضبط .

ولكن عندما كانت ادارة الحكم ، تنتقل الى افراد ذريتهم الذين لا خبرة لهم بتقلبات الحظ ، والذين لم يمروا بفترات عصيبة ، ولم يكونوا يشاءون القناعة بالعدالة المدنية السائدة ، فأنهم كانوا يلجأون الى الطمع

والطموح ، واغتصاب الناس نساءهم ، مما يحيل حكومات النبلاء الى حكومات القلّة (الاوليغاركي) ، التي تهمل فيها الحقوق المدنية تمام الاهمال ، فيقع لهم ما وقع للطاغية من قبل،لأن الجماهير تمل حكمهم، وتضحي على استعداد لعون كل من يضع خطة لمهاجمتهم ، وسرعان ما يبرز انسان يستطيع بمساعدة الجماهير ومساندتها القضاء عليهم، وتصفية امرهم .

ولما كانت ذكريات الأمير ما تزال ماثلة في عقول هذه الجماهير ، ولما كانت معايبه ومخازيه ، لا تزال حديثة العهد في واعياتهم ، ولما كانوا قد تخلصوا من حكم القلة ، فأنهم ، يظهرون ميلاً واضحاً الى عدم العودة الى حكم الامراء،فيتجهون الى نظام حكم الشعب (الديموقراطي) ، وينظمونه بشكل يضمن عدم تركيز السلطة لا في قلة من الرجال الاقوياء، ولا في أمير من الامراء .

ولما كانت جميع انواع الحكومات تحظى بالاحترام في مستهل عهدها الى حد ما ، يحافظ هذا الطراز الديموقراطي من الحكم ، على نفسه أمداً ما ، ولكن هذا الامد لا يطول ، ولا سيما عندما يكون الجيل الذي قام على تنظيمه قد قضى نحبه ومضى . وسرعان ما تسود الفوضى ، ولا يظل ثمة احترام لا للفرد ولا للموظف الرسمي،ولما كان كل انسان يعمل ما يشاء في ظل عهد كهذا ، فسرعان ما ترتكب جميع انواع الشرور والمخالفات ، وتحل النتيجة المحتومة ، فتعود الامارة الى الحكم، اما تلبية لنصيحة انسان طيب عاقل ، او رغبة في الخلاص من هذه الفوضى على أي سبيل . وتعود الحلقة من جديد ، مرحلة مرحلة، على النحو الذي فصلت ، حتى تصل الى الفوضى ثانية .

هذه هي الحلقة التي تمر بها جميع الحكومات ، سواء أكانت مستقلة تحكم نفسها بنفسها ، او تابعة لحكم اجنبي . ولكن يندر ان تعود نفس الحكومة الى نفس الشكل من الحكم في المرة الثانية.وذلك لسبب واحد ،

وهو ندرة تمتع الحكومات بتلك الحيوية التي تضمن لهـا الصمود امام جميع هذه التقلبات ، والبقاء بعدها في حيّز الوجود . وما يحدث عادة هو ان هذه الحكومات وهي تفتقر في هذه الحالة التي يسودها الهرج والمرج ، الى المشورة الصادقة والقوة تغدو تابعة الى دولة مجاورة لها ، أحسن منها تنظيماً . ولولا ذلك ، لظلت الحكومات تسير في تلك الحلقة المفرغة من التحول الى أبد الآبدين .

وعلى ضوء ما ذكرت ، أرى ان جميع اشكال الحكم التي شرحتها سابقاً ليست من النوع المرضي أبداً ، وذلك لأن عمر الحكومات الطيبة قصير ، ولأن حياة الحكومات السيئة مليئة بالشرور والآثام . وهذا هو السبب الذي يحمل المشرعين العاقلين ، الذين يعرفون معايبها على الامتناع عن تبني أي من أشكال الحكم هذه ، واختيار بديـل عنها ، يتمثل في شكل من أشكال الحكم يشترك فيه الجميع ، وذلك لأنهم يرون ان هذا الشكل اكثر قوة وثباتاً ، اذ لو وجد حكم الامراء والنبلاء والشعب في دولة واحدة ، لاحتفظ كل من هـذه الفئـات لنفسه بحق مراقبة الفئتين الاخرين .

وكان ليكرجوس أحد الذين استحقوا الثناء العاطر ،على اقامة حكومة من هذا الطراز . فلقد عهد في الدستور الذي سنه لمدينة اسبارطـة الى كل من الملوك والنبلاء ، وجمهرة الشعب ، بمهام خاصة بها . وهكذا ادخل شكلاً من أشكال الحكم ، قدر له البقاء أكثر من ثمانمائة عام ، مما حقق له الثناء ولمدينته الهدوء والاستقرار .

ولم تكن هذه هي حالة صولون ، الذي وضع لاثينا شرائعها ، فقد أقام فيها شكلاً ديموقراطياً من أشكال الحكم ، لم يقدّر له ان يعمّـــر طويلاً ، وقضي عليه ان يشهد قبل موته ولادة حـــكم طاغٍ في ظل بيزيستراتوس .وعلى الرغم من ان المدينة قد طردت ورثة هذا الطاغية ، قبل انقضاء أقل من أربعين عاماً ، وعلى الرغم من عودتهـــا إلى ظلال

الحرية بعد ان تبنت من جديد شكلاً ديموقراطياً من أشكال الحكم ، لشرائع صولون ، الا ان هذه الحرية لم تعش طويلاً ، ولم يتجاوز عمرها هذه المرة المائة عام . وعلى الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان عدداً من الدساتير قد سنّ للحد من غطرسة الطبقة العالية ، وتطرف طبقة العامة ، الذي لم يضع له صولون حدوداً أو قيوداً . الا ان حياة اثينا لم تكن طويلة اذا ما قيست بحياة اسبارطة،وذلك لأن نظام صولون الديموقراطي لم يمتزج بسلطان الامراء او النبلاء .

ونتقل الآن الى رومة ، فعلى الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان القدر لم يشأ لها أن تحبى بشخص كليكيرجوس ، يمنحها منذ استهلال عهدها ، دستوراً من النوع الذي يضمن لها حياة طويلة من الحرية ، الا ان الاحتكاك بين مجلسي العامة والشيوخ ، قد أدى الى وقوع امور كثيرة لعب فيها الحظ الدور الذي يقدر للشارع ان يلغبه او يؤديه . وهكذا اذا لم تكن رومة قد حصلت من الحظ على عطيّته الأولى، فانها قد حصلت حتماً على عطيّته الثانية . وذلك لأن تنظيماتها المبكرة . على الرغم مما كان فيها من عيوب ، لم تسر سيراً خاطئاً ، وانما مهدت السبيل نحو الكمال ، ولان روملوس وغيره من الملوك ، استنوا عدداً من القوانين التي تتلاءم مع الحرية وتتوافق معها . ولكن لما كان هدفهم اقامة مملكة لا جمهورية ، بعد ان حققت المدينة حريتها ، فان هذه المملكة كانت تفتقر الى العديد من التنظيمات اللازمة للحفاظ على الحرية، وهي تنظيمات كان من اللازم وجودها . بالنظر الى عدم ضمان الملوك لها. وهكذا فعندما فقد ملوكها سيادتهم ، لاسباب ، وبطريقة سبق لي ان شرحتها في مستهل هذه المطارحة . فان اولئك الذين طردوهم من الحكم، لجأوا فوراً الى اختيار قنصلين ، يقومان باعباء الملك ، مما ادى الى ان ما وقع عليه الطرد بالفعل ، لم يتعدّ لقب الملك نفسه ، لا السلطان الملكي . وهكذا وجد ، في ظل الجمهورية الآن ، وفي هذه المرحلة ،

القنصلان ، ومجلس الشيوخ مما عنى ان الشكل الجديد للحكم فيها قد ضم عنصرين فقط : من العناصر الثلاثة التي سبق لي تعدادها ، وهما الامارة ، والنبلاء . ولم يبق هناك الا العثور على مكان للعنصر الثالث وهو الديموقراطية . وقد تم هذا عندما غدا النبلاء الرومانيون من النوع الذي لا يطاق ، لاسباب سأتولى شرحها فيما بعد ، مما حمل الشعب على الثورة عليهم ، ومما دفعهم هم ، خوفاً من اضاعة كل شيء الى منح الشعب حصة في الحكم ، مع احتفاظ مجلس الشيوخ والقنصلية، على أي حال ، بالسلطة الكافية للحفاظ على مركز النبلاء في الدولة .

وهكذا بدأ الشعب يعين ممثليه (التربيون). وادى تعيينهم الى ايجاد الكثير من الاستقرار في شكل الحكم في الدولة ، اذ ان العناصر اللازمة الثلاثة قد تمثلت فيه.ونستنتج من هذا ان رومة كانت سعيدة الطالع للغاية، لأن الانتقال من الملكية الى حكم النبلاء،ومن الاخير الى الديموقراطية،قد جرى في نفس المراحل ، ولعين الاسباب التى حددتها في مستهل هذه الاطروحة ، دون ان يؤدي انتقال السلطة للنبلاء الى الغاء النظام الملكي ودون ان يؤدى اشراك الشعب في الحكم الى انتزاع السلطة كلية من النبلاء . ولقد ادى امتزاج العناصر الثلاثة على النقيض من ذلك ، الى قيام دولة مثالية كاملة . ولما كان الاحتكاك بين العامة والشيوخ ، هو الذى حقق هذا الكمال ، فقد رأيت ان اعرض في الفصلين التاليين عرضاً وافياً الطريقة التى تحقق فيها ذلك .

٣

عن طراز الاحداث التي وقعت في رومة ، وأدت إلى ظهور ممثلي الشعب ، مما حقق للجمهورية كمالها

اشار جميع كتاب السياسة ، عبر التاريخ الطويل ، الى ان هناك

عدداً ضخماً من الأمثلة التي تقيم الدليل على ان الواجب يدعو عند تأليف الدول والتشريع لها ، الى اعتبار الناس جميعاً من الاشرار ، والى انهم ينفّسون دائماً عمّا في ضمائرهم من الشر ، عندما تتاح لهم الفرصة للتنفيس عنه . أما القول ، بأن هذه الاتجاهات الشريرة لا تكون ماثلة للعيان دائماً ، وانما في أوقات معينة ، فمرده الى اسباب خفية ، لا يستطيع من يفتقرون الى الخبرة في مثل هذه المتناقضات اكتشافها، ولكن عنصر الوقت ، وهو في الحقيقة كما يقال كاشف الحقائق والحنايا، يضمن ان يكشف للعيان كل ما كان خفياً .

ولقد بدا ان الانسجام ، كان يسود تماماً العلاقات بين الشعب ومجلس الشيوخ في رومة ، بعد طرد الملوك الترقونيين . وبدا ان النبلاء قد تخلوا عن غطرستهم ، وانهم قد أصبحوا يتحلون بما يتحلى به الشعب من روحية ومزاج ، وان الجميع ، حتى الطبقات الوضيعة للغاية منهم يحتملونهم كل الاحتمال . ولم يكن تضليل النبلاء ، ولا الدافع الذي يحملهم عليه ، واضحين طيلة بقاء الملوك الترقونيين على قيد الحياة ، وذلك لان النبلاء كانوا يخشونهم ، وكانوا يخشون ان يؤدي سوء معاملتهم للشعب ، الى قيام المودة بين الشعب والملوك ، وهذا هو ما دفعهم الى معاملة الشعب معاملة تنطوي على الاحترام . ولكن لم يكد يقضي الملوك الترقونيون نحبهم ، ولم تكد مخاوف النبلاء تزول ، حتى بدأ هؤلاء ينفثون ما كانوا يضمرونه في قلوبهم طويلاً من سموم كراهيتهم للشعب، وشرعوا يضطهدونه بمختلف السبل والوسائل المتوافرة لديهم .

ولعل هذا يثبت ما سبق لي قوله ، من ان الناس لا يفعلون الخير الا اذا اضطروا الى فعله بدافع الحاجة ، وانهم عندما تتاح لهم فرصة العمل كما يشاؤون ، وتتاح لهم الحرية في الاختيار ، فان الاضطراب والفوضى يصبحان هما المسيطرين . وهذا هو السبب الذي يحمل الجميع على القول بأن الجوع والفقر ، يدفعان بالناس الى الجد في العمل ،وان

القوانين هي التي تصلح من أمورهم وتقوّمها . فليس ثمة من حاجة الى القوانين طالما ان الأمور تسير سيراً هانئاً بدونها ، ولكن عندما تنهار احدى العادات الفضلى ، فان الضرورة تحتم قيام تشريع يحل محلهـــا . وهكذا فعندما انهار عهد الملوك الترقونيين ، وعندما لم يعد الخوف منهم يكبح جماح النبلاء ، بات من الضروري ابتكار تنظيم جديـــد ، يؤدي الى نفس النتائج والآثار التي كان الملوك قد توصلوا اليها . وبعد الكثير من الاضطربات ، والشائعات ، واخطار الفضائح ، الناجمة عن المشاحنات بين العامة والنبلاء ، ابتكر تعيين التربيون (المدافعين عن الشعب) ، وعهد اليهم بصلاحيات وامتيازات ومراكز ، تسمح لهم ، بأن يكونوا دائماً الوسطاء بين الشعب ومجلس الشيوخ ، وان يحدوا من غطرسة النبلاء وجبروتهم .

٤

الوفـاق بين الشعب ومجلس الشيوخ
يجعل من جمهورية رومة حرة وقويـة

أرى لزاماً علي ان لا أتوانى عن بحث الاضطرابات التي وقعت في رومة ، بين موت الملوك الترقونيين ، وبين خلق حماة الشعب (التربيون) ، ولا عن ذكر بعض الحقائق المعينة التي تتعارض مع آراء اولئك الذين يزعمون ، ان الفوضى كانت تسود جمهورية رومة ، وان الاضطرابات كانت تعمها ، وانه لولا حسن طالعها وفضائلها العسكرية ، التي كانت تخلق الاتزان مع تلك العيوب لكانت اوضاعهـــا أسوأ حالاً ، من

اوضاع اية جمهورية اخرى . وانا لا انكر ان الطالع الحسن والتنظيم العسكري ، قد لعبا دوراً بارزاً ، في خلق الامبراطورية الرومانيـــة ، ولكنني ارى ، ان وجهة النظر هذه ، لا تأخذ بعين الاعتبار الحقيقة الواقعة ، وهي ان التنظـــيم العسكري لا يكون الا حيث يكون النظام الحسن ، وان من النادر ان لا يكون حسن الطالع مرافقاً لها ايضاً .

وهناك نقاط اخـــرى ، ذات علاقة بهذه المدينة ، وهـــي جديرة بالملاحظة . فمن رأيـي ان اولئك الذين يحملون على المنازعات التي وقعت بين النبلاء والعامة ، ويستهجنونها ، انما يغالطون في اسس الأمور التي كانت السبب الرئيسي في محافظة روما على حريتها ، ويولون عنايتهم ، الضجيج الذي انبعث عن هذه المشاحنات ، اكثر من ايلائهم النتائج التي تحققت عنها ما تستحقه من العناية ، وهي نتائج خيّرة حتماً . وهم لا يدركون ايضاً انه في كل جمهورية ، يكون هنـــاك اتجاهان مختلفان ، احدهما للشعب والآخر للطبقة العالية . وان كل تشريـع من التشاريـــع المواتية للحرية ، لا ينجم الا عن الصدام الذي يقع بين الطبقتين .

ومن السهل ان يرى الانسان ، ان هذه هى النتيجة التي وجدت في روما ، اذ منذ ايام الملوك الترقونيين ، حتى عهد « الغراشيـين » ، وهي فترة تمتد اكثر من ثلاثمائة عام،لم تكن الفتن التي تقع في روما ، لتؤدي الى الابعاد الا نادراً ، والى سفك الدماء الا في حالات اكـــثر ندرة . ولهذا لا يستطيع الانسان ان يعتبر مثل هذه الاضطرابات مؤذية، ولا ان يعتبر مثل هذه الجمهورية مجزّأة ، عندما يرى انه في غضون هذه الفترة الطويلة ، لم تبعث الى المنافي ، نتيجة للخلافات التي وقعت فيها ، اكثر من ثمانية مواطنين او عشرة ، ولم تعدم الا عدداً قليلاً لا يذكر ابداً ، ولم تفرض الغرامات على الناس الا فيما ندر . ولا يمكن لأي عاقل ان يصم مثل هذه الجمهورية بأي حال من الاحوال ، بوصمة الشقاق فيها ، بعد ان يرى هـذه الحوادث البارزة من الفضيـــلة التي

وقعت فيها ، ذلك لان الأمثلة الطيبة لا تصدر الا عن الثقافة الطيبة ، ولا تنجم هذه بدورها الا عن القوانين الممتازة ، التي لا توضع في مثل هذه الحالة ، الا بعد وقوع مثل هذه الفتن التي يتحامل عليها الكثيرون دون وعي ودراسة ، لأن كل من يدرس نتائجها ، لا يجد انها ادت الى اي ابعاد او عمل من اعمال العنف ، يتنافى مع الخير العام ، بل ادت على النقيض الى وضع قوانين وتنظيمات اثمرت النفع للحريات العامة .

وقد يقول معترض ، ان الوسائل التي استخدمت كانت متوحشة للغاية في طبيعتها ، وقد يمضي هذا المعترض في حديثه فيقول ، انظروا الى الناس كيف كانوا يجتمعون ويصخبون ضد مجلس الشيوخ ، وكيف ان المجلس كان يندد بالناس الذين يركضون مختلطين في الشوارع اختلاط الحابل بالنابل ، وكيف ان الحوانيت كانت تغلق ، وتخرج جماهير العامة في كتل ضخمة من رومة ، وهي احداث تكفي لبعث الهلع في نفوس كل من يقرأ عنها ، فكيف بالآخرين . ولكنني أرد على هذه الاقوال ، ذاكراً ان على كل مدينة ان تؤمن السبل والوسائل التي تستطيع الجماهير الطموحة ان تجد متنفساً لها عن طريقها ، ولا سيما اذا أرادت المدينة ان تفيد من الجماهير في المشاريع المهمة . ولقد كانت مدينة رومة ، بين المدن التي أمّنت مثل هذه السبل والوسائل،اذ عندما كان الشعب يريد قانوناً يسن ، كان يلجأ الى احدى طريقتين ، اما ان يسلك سلوكاً يشبه ذاك الذي شرحناه قبل قليل ، او يرفض التطوع في الحروب ، وكان من الضروري ارضاء هذا الشعب لتهدئة ثائرته .

ويندر ان تكون مطالب الشعب الحر ضارة بالحرية ، إذ ان هذه المطالب تعود إلى أحد أمرين ، وهما ان يكون الشعب مضطهداً ، او ان يكون في خوف من الاضطهاد،وإذا كانت هذه الانطباعات كاذبة، فأن في الإمكان الحصول على العلاج ، على المنابر العامة حيث يستطيع

اي انسان مسموع الكلمة ، ان يصعد أحدهـا ، وان يناشد الجماهـير المدوء متحدثاً اليها ، وموضحاً لها الخطأ في تفكيرها . وعلى الرغم من ان الجمهور ، على حد تعبير « تالي » قد يكون جاهلاً ، الا انـه قادر على تبين الحقيقة ، وهو على استعداد للاذعان، عندما يقوم رجل(١) أهل للثقة يبسط الحقيقة أمامه .

فعلى النقاد والحالة هذه ، أن يكونوا أكثر اقتصاداً ، في البحث عن اخطاء الحكم في رومة ، وأن يفكروا بأن النتائج الممتازة التي حصلت عليها هذه الجمهورية ، لم يكن في الامكان تحقيقها الا بدوافع ممتـازة أيضاً . وهكذا فـاذا كانت الفتن قد أدت إلى خلق فئة المدافعين عن الشعب (التربيون) ، فانها أي الفتن ، تستحق الثناء ، اذ بالاضافة الى اعطاء الجمهور فرصته في الادارة عن طريق هذه الفئة ، فأنها اصبحت الحارسة للحريات الرومانية ، وهو ما سنراه في الفصل التالي .

٥

أيهما أفضل لتولي حماية الحرية : فئة النبلاء أو فئة الشعب؟ وأيهما أكثر اندفاعاً وراء خلق الفتن : الذين يملكون أو الذين لا يملكون ؟

حرص كل الذين أظهروا التعقل والحكمة في اقامة الجمهوريات على

---

١ المقصود به توليوس سيرفيوس (٥٧٨ – ٥٣٤) ق . م . هو الملك السادس في رومة . وقد أقام حولهـا سورها المعروف الذي يضم التلال السبعة . وقد أقام تحالفاً مـع المدن اللاتينية ، وهو الذي صنف أهل رومة إلى طبقات بحسب ثرائها . واعطى للعوام الحقوق السياسية .
– المعرب –

حماية الحريات ، على اعتبـــار ان هذه الحماية ، هي من أكثر الاشياء التي يتحتم عليهم تأمينها ، ولقد توقف مـــدى التمتع بالحريات ، من ناحية طوله وقصره،على الكفاية التي أظهرها هؤلاء في تنفيذ ما حرصوا عليه . ولما كانت كل جمهورية تضم طبقتين ، العالية ، والوضيعة ، ففي الامكان توجيه السؤال ، عن أي الفئتين أحق بتولي هذه الحماية . فلقد عهد الاكاديميون (١) في الماضي ، وأهل البندقية في حاضرنا الى الطبقة النبيلة بهذه المهمة ، أما الرومان فقد عهدوا بها الى جماهير الشعب.

ومن الضروري والحالة هذه ان نتساءل ، ترى أي هذه الجمهوريات كانت موفقة في اختيارها ، وإذا كنا ننشد العقل والمنطق ، فان الحجج يمكن ان تقوم لتدعم كلاً من النظريتين ، أما إذا سألنا عن النتيجـــة فان الرد يكون في مصلحة النبلاء ، وذلك لأن حرية اسبارطة والبندقية قد دامت مدة أطول من حرية رومة .

والآن لنبدأ بناحية العقل والمنطق . فقد يقال ، تأييداً لوجهـة نظر الرومان ، ان حماية أي شيء ، يجب ان يعهد به الى أيدي اولئك الذين يكونون أقل رغبة في تملكه ، لمنافعهم الخاصة . وليس ثمـــة من ينكر اننا اذا سألنا عما ينشده النبلاء ، وعما تتطلع اليه الجماهـــير ، فان الرد الواضح ان النبلاء يرغبون رغبة شديدة في السيطرة والتحـــكم ، بينما لا تنشد الجماهير الشعبية الا عدم الوقوع تحت السيطرة . وتكون الجماهير نتيجة لهذا احرص على الحرية،لان أملها اغتصاب السيطرة على الآخرين اضعف من أمل الطبقة العليا في الحصول على هذه السيطرة . وهكذا ، اذا غـــدت الجماهير حراساً على الحرية ، فان من المعقول ان يفترض الانسان ، انها ستكون اشد عناية بها . اذ ان تعذر اغتصابها للسلطان ، يدفعها الى الحرص على عدم السماح للآخرين بهذا الاغتصاب .

ويقول مؤيدو وجهة النظر الاسبارطية والبندقية في نظام الحكم ، ان

---

١ اسم يطلق على الاسبارطيين القدامى . — المعرب —

اسناد الحفاظ عـلى الحرية الى الاقوياء ، يؤدي الى نتيجتين طيبتين ، أولاهما ارضاء ما لديهم من طموح ، لان وضع العصي في ايـديهم ، يمكنهم من القيـام بدور أكثر اهمية في الجمهورية ، وهذا مما يبعث الرضى في نفوسهم،وثانيتهما انها تحول بين عقول الجماهير القلقة المضطربة، وبين الحصول على احساس بالسلطان ، وهو ما يثير المشاحنات والمشاكل في الجمهوريات عادة وما يكفي لبعث اليأس في نفوس النبلاء ، مما يترك مع مضي الزمن نتائج خطيرة . ويستشهد هؤلاء المؤيدون لـدعم رأيهم بوضع رومة نفسها ، اذ عندما حصلت الجماهير عن طريق المدافعين عنها (التربيون) . على السلطان الذى غدا في ايديها ، لم تقتنـع بوجـود قنصل واحد يمثلها ، بل طالبت بأن يكون القنصلان من صفوفها . وبعد ان تحقق لها ما ارادته ، تطلعت الى المـزيد ، فطالبت بمركـز المـراقب ومـركز قاضي القضاة وغيرهما مـن المناصب الرئيسية في المدينة . ولـم يقنعها كل هذا ايضاً ، بل حفزتها الرغبات المجنونة الهوجاء عينها ، على ان تشرع في عبادة جميع الرجال الذين رأت فيهم القدرة على استخلاص أكثر ما يمكن لهم من الحقوق من النبلاء . وهكذا ظهرت سلطة ماريوس (Marius) (١) وبدأ الدمار يلحق برومة . وعلينـا ان نعترف هنا ، اننا اذا اردنا ان نلقي ثقلاً على كلا الجانبين ، فان من المشكوك فيه ان نستطيع تقرير اي الطرفين يجب ان يتولى مهمة الحفاظ على الحرية، اذ يستحيل علينا ان نقرر أياً من الميلين يكون اكثر ضرراً للجمهورية، هل هـو الميل عنـد البعض الى الاحتفاظ بالوضع المقرر القـائم ، او الميل عند الآخرين للحصول على مثل هذا الوضع .

واذا ما درسنا جميع المسائل ، وقررنا الفروق الضرورية ، توصلنا في

---

١ ماريوس غايوس (١٥٧ – ٨٦) قبل الميلاد . قائد روماني مشهور من أصل عامي . تميز بالصراحة والقوة ثم انقلبت فضائله إلى رذائل ، و انقلب حبه لوطنه إلى حب لذاته ، وصرامته إلى وحشية . اشتبك في حروب مع صولا قائد حزب النبلاء الذي تغلب عليه ، وقهره ، فلجأ إلى قرطاجنة اعيد انتخابه قنصلا عدة مرات . —المعرب—

النهاية الى هذه النتيجة وهي اما ان يكون تفكيرك محصوراً في جمهورية تتطلع الى اقامة امبراطوزية ، تماماً كما فعلت رومـــة ، أو ان يكون تفكيرك متجهاً إلى جمهورية تقنع بوضعها الراهن ولا تحاول تجاوزه . وفي الحالة الاولى ، عليك ان تفعل كل ما فعلتـه رومة . أما في الحالة الثانية فمن السهل تقليد البندقية واسبارطة ، كما سأحاول البيان في الفصل المقبل :

وإذا ما انتقلنا الآن إلى موضوع أيهما أكثر ضرراً في الجمهورية : الذين لا يملكون والذين يريدون ان يملكوا ، او اولئك الذين يملكون والذين يخشون ان يخسروا ما يملكونه،فأنني أود ان اشير إلى انه عندما اختير ماركوس مينينيوس ديكتاتوراً،وعيّن ماركوس فولفيوس مسؤولاً عن الفرسان ، وكان كلاهما من صفوف العامـــة ، وذلك للتحقيق في بعض المؤامرات التي حيكت في كابوا ضد رومة ، فقد خولها الشعب الصلاحيات اللازمة للتحري في رومة أيضاً عن اولئك الذين يدفعهم الطموح إلى الوصول إلى منصب القنصلية وغـيره من المناصب في المدينة بطرق غير مشروعة . وبدا للنبلاء ان هـــذه السلطات التي أسندت إلى الديكتاتور ، كانت طعنة لهم في الصميم . فأخـذوا يروّجون في رومة الشائعات التي تقول ان النبلاء ، لم يكونوا هم الطامعين في هذه المناصب ولم يكونوا هم الذين يعملون للوصول اليها بسبل غير مشروعة ، بل ان الطامعين فيها هم من العامة ، الذين لا يملكون الفضائل ، ودماء النبالة التي يستطيعون الاتكال اليهـا . ولذا فقـــد لجأوا إلى الاساليب المعوّجة لتحقيق مطامحهم في هذه المناصب . واتهموا الديكتاتور نفسه في الحقيقة بهذه الاساليب . وقد اكتسب هذا الاتهام وزناً كبيراً إلى الحـــد الذي أرغم مينينيوس ، بعد ان القى خطاباً نفى فيه هذه المثالب التي يروّج لها النبلاء ، على الاستقالة من منصب الديكتاتورية ، والتقدم إلى الشعب يعرض عن أعماله ليحاكمه عليها . وقد دافـع عن نفسه دفاعـــاً حاراً

وبرّأه الشعب من التهم المنسوبة اليه .

واثيرت اثناء المحاكمة، قضية الذين « يملكون » والذين « لا يملكون »، واي الفريقين أكثر طموحاً ، بالنظر إلى ان شهواتهما معاً ، قد تغدو السبب في الكثير من الاضطراب . وتنجم مثل هذه الاضطرابات في الحقيقة وعلى كل حال عن الذين « يملكون » ، إذ ان الخشية من ضياع ما يملكونه تخلق لديهم نفس الميل الذي نجده عند اولئك الذين يطمعون في المزيد، إذ ان الناس يميلون إلى الاعتقاد بأن ليس في وسعهم صيانة ما بأيديهم والحفاظ عليه ، إلا إذا حصلوا على المزيد على حساب الآخرين . يضاف إلى هذا ان من بأيديهم الشيء الكثير ، يستطيعون احداث التبدّلات التي يشاءونها بسرعة اكبر ، وفعّالية أشد . ولكن تصرفاتهم التي تنطوي على الفساد والابتزاز تثير من الناحية الاخرى في عقول الذين « لا يملكون » الرغبة في الامتلاك ، اما للثأر لأنفسهم من اولئك الذين سبق لهم ان ابتزوهم أموالهم، او لتحقيق الرغبة في الاشتراك في تلك الثروات ومعالم النبل والتكريم ، التي يعتبرون أنفسهم ضحايا بالنسبة اليها إذ حرمهم الفريق الآخر منها لكي يستأثر هو وحده بحق التمتع فيها .

٦

هل كان في الامكان اقامة حكم في رومة يقضي على الشحناء بين الشعب والنبلاء ؟

كنا نتحدث قبل قليل عن النتائج الناجمة عن أوجه الخلاف بين الشعب ومجلس الشيوخ . ولما كانت هذه الخلافات قد استمرت حتى عهد « الغراتشيين » الذين تشبهوا بالملوك، إذ تحولت آنذاك إلى الاسباب

التي أدت إلى القضاء على الحرية ، فقد يتبادر إلى ذهن أي انسان ان يتساءل ، هل كان في استطاعة رومة ، ان تحقق الاشياء المجيدة التي حققتها ، لو لم توجد هذه الخلافات. وهنا يبدو لي ان من الجدير ان نبحث فيما إذا كان في الامكان ، إقامة نظام للحكم في رومة، من شأنه تبديد هذه الخلافات ، وإزالتها لو قدر له ان يقوم . وللبحث في هذا الموضوع ، أرى لزاماً علينا ان ندرس اوضاع الجمهوريات التي كانت في نجوة من العداوات والفتن ، والتي تمكنت مع ذلك من التمتع بحياة طويلة من الحرية ، وان تتحدى أشكال حكوماتها ، لنرى هل كان في الامكان تطبيقها في رومة .

وقد سبق لي ان أشرت ان اسبارطة تقوم بين الدول القديمة انموذجاً على هذه الجمهوريات ، كما تقوم البندقية بين الدول الحديثة طرازاً لها . فقد أقامت اسبارطة لها ملكاً يحكمها وإلى جانبه في الحكم مجلس صغير للشيوخ . اما البندقية فلم تميز بين مختلف الأسماء بالنسبة إلى المشتركين من اصحابها في الحكومة ، بل صنفت جميع اللائقين بالمناصب الادارية في مصنف واحد اطلقت عليه اسم النبلاء أو السادة . وكان الفضل في هذا الأسلوب للحظ وحده لا لحكمة مشرعيها ، فأن الكثيرين من الناس الذين تجمعوا حول هذه الشطآن الرملية التي تقوم عليها المدينة الآن ، والذين اختاروها مقراً لهم بالنسبة إلى الأسباب التي سبق لي شرحها ، أخذوا يزدادون عدداً ، إلى ان بلغوا حداً تطلب وضع الشرائع اللازمة لتنظيم حياتهم إذا أرادوا الاستمرار فيها ، وهكذا ابتكروا شكلاً جديداً لحكومتهم . وكانوا قد ألفوا الاجتماع إلى بعضهم البعض للتحدث في شؤون مدينتهم ، وهكذا قرروا عندما بدا لهم ان عدد سكان المدينة اصبح كافياً لتشكيل كيان سياسي ، عدم إشراك جميع من يفد حديثاً إلى المدينة للعيش فيها ، في شؤون الحكومة . وعندما وجدوا مع مضي الزمن ان هناك عدداً كبيراً من السكان في المدينة قد حيل بينهم وبين

الحكم ، ورغبة منهم في اضفاء صفة الاحترام علي الحاكمين ، أطلقوا عليهم اسم السادة النبلاء ، وعلى الباقين اسم العامة .

ويمكن وجود مثل هذا الشكل من اشكال الحكومـة ، وان يدوم دون أية فتنة او اضطراب . عندما اقيمت الحكومة ، سمح لجميـع المقيمين في البندقية ، بالعمل في الحكومة ، ولم يكن ثمة سبيـل لأي تذمر او شكوى . ولم تتح في الوقت نفسه لأولئك الذين وفدوا فيما بعد إلى المدينة للاقامة فيها،والذين وجدوا شكل الحكم فيها وطيد الأركان ، الفرصة أو الأسباب للتذمر او خلق الفتنة . فليس هناك من مبرر لهم لاشعال اية فتنة،لأنهم لم يحرموا من أي شيء . ولم تتح لهم الفرصة ، لأن الحكومة تقبض على ناصية الأمور بيد من حديد ، ولا تستخدمهم في اية قضايا قد تمكنهم فيما بعد من الحصول على السلطة . يضاف إلى هذا ان عدد الوافدين فيما بعد إلى البندقية للاقامة فيها لم يكن كبيراً ، إلى الحد الذي يمكنهم من إفساد التوازن بين الحكام والمحكومين، وذلك لأن عدد السادة كان معادلاً لعدد الوافدين الجدد او اكبر منه . وهذه هي الأسباب التي مكنت البندقية من إقامة هذا الشكل من أشكال الحكم والحفاظ عليه أمداً طويلاً دون تعرض لفترة انقطاع .

وكانت اسبارطة تعيش كما قلت في ظل ملك يحكمها ويقوم الى جانبه مجلس صغير للشيوخ . وقد تمكنت من الحفاظ على نفسها بهذه الطريقة مدة طويلة ، وذلك لأنها لم تكن تضم الا عدداً قليلاً من الناس ، ولم تكن تسمح للاجانب بالمجيء اليها والاقامة فيها ، يضاف الى هذا ان المدينة طبقت قوانين ليكيرجوس وشرائعه وأسهمت في شهرته،ولما كانت هذه القوانين تفرض طاعتها واحترامها ، فقد بددت جميع اسبـاب الاضطراب ، مما ادى الى ان يعيش الاسبارطيون موحدين وفي وئام مدة طويلة من الزمن. ويعزى السبب في هذا ان قوانين ليكيرجوس ضمنت المساواة في الملكية دون ان تصر كثيراً على المساواة في المراتب . وكان الجميع

يشتركون ايضاً في حياة الفقر على قدم المساواة ، ولم تكن لدى جماهير العامة أية مطامح ، وذلك لأن المناصب في المدينة لم تكن في متناول الجميع ، وانما في متناول فئات قليلة ليس بينها فئة العامة اذ كانت محرومة من المناصب بل كانت في الواقع لا ترغب فيها ، لأنها لم تشعر قط بأن النبلاء قد اساءوا معاملتها. ويرجع الفضل في ذلك إلى المركز الذي كان يتبوأه ملوك اسبارطة ، اذ لما كانوا ، محاطين بالنبلاء في المملكة من كل ناحية ، فقد رأوا ان الطريقة المثلى للحفاظ على مراكزهم هي حماية العامة من الاجحاف والظلم . وهكذا لم تخش العامة قط من السلطان كما لم ترغب فيه ، وقد أدى انعدام خشيتها منه ورغبتها فيه الى عدم قيام أية فرصة للتنافس بينها وبين النبلاء ، والى عدم ظهور أي اساس للاضطرابات ، وكان في مكنة الجميع ان يعيشوا في وحدة ووئام أمداً طويلاً . ويرجع الفضل في قيام هذه الوحدة من الناحية الاخرى الى عاملين ، اولها ضآلة عدد سكان اسبارطة ، مما سهّل مهمة الحكم على القلّة ، وثانيهما ، عدم السماح للاجانب بالمجيء الى الدولة ، مما ابعد عنها خطر الإفساد ، أو التعرض للعصيان ، وعدم الاذعان ، مما يجعلها صعبة القياد على القلة التي تتولى حكمها .

وعلى ضوء جميع هذه الدراسات ، اتضح انه كان من الضروري ، بالنسبة لمشرعي روما ، اذا أرادوا لمدينتهم البقاء في هدوء ودعة، كالدول التي سبق ذكرها ، ان تتبع احدى طريقتين ، اما تقليد البنادقة، وعدم استخدام العامة في الحروب،أو احتذاء حذو الاسبارطيين . وعدم السماح للاجانب بالوفود الى مدينتهم . وآثرت روما أن تتبع الطريقتين في وقت واحد ، واتاحت بعملها هذا لعامتها القوة والتكاثر والفرص التي لا حد لها لاحداث الاضطراب . ولو كانت حكومة روما من الناحية الاخرى من النوع الذي سعى الى المزيد من الهدوء لنجم عن ذلك مصدر وهن جديد ، وهو ان تصاب بالمزيد من الضعف ، بسبب قطعها عن نفسها

ذلك المصدر الرئيسي الذي مكنها من تحقيق العظمة التي وصلت اليها ، وبذلك تكون بسعيها وراء ابعاد اسباب الاضطراب ، قد انتزعت من حيازتها اسباب التوسع أيضاً .

وهكذا ففي جميع الشؤون الانسانية التي يلاحظها المرء يرى من يتولى درسها ، تعذر ازالة أي مصدر من مصادر الازعاج فيها ، دون أن يؤدي ذلك الى ظهور مصدر ازعاج جديد . فاذا اردت مثلاً ، ان يكون لديك شعب كبير ، وان تجهز هذا الشعب بالاسلحة اللازمة لانشاء امبراطورية ضخمة ، فانك بعملك هذا تكون قد جعلت منه شعباً صعب المراس لا يسهل عليك قياده ، أما اذا ابقيت عليه صغيراً أو منعت عنه السلاح بحيث تضمن السيطرة عليه ، ثم حصلت على ممتلكات جديدة، فانك تعرض نفسك لخطر اضاعتها ، او لخطر الحطة والحقارة، بحيث تغدو تحت رحمة كل من تسول له نفسه مهاجمتك . وعلى هذا فان على الانسان في جميع المناقشات ان يدرس أي الطرق التي قد يتبعها، اقل انطواء على الازعاج ، وعليه ، تبعاً لذلك،ان يسير في هذا الطريق على انه الافضل والأمثل ، اذ لا يمكن للانسان ان يجد أية قضية تكون على درجة من الوضوح والصراحة بحيث لا تتعرض للتشكك والتساؤل . وكان في وسع رومة بالطبع ان تقلد اسبارطة ، وان تعين اميراً لها أو ملكاً يحكم مدى الحياة ، وان تجعل من مجلس شيوخها مجلساً ضيق النطاق، ولكنها في مثل هذه الحالة ، ستعجز عن ان تجنب نفسها مغبة تكاثر سكانها سعياً وراء اقامة امبراطورية عظيمة ، كما ان اختيار ملك مدى الحياة ومجلس صغير للشيوخ، لم يكن ليساعدها كثيراً في قضية الوحدة .

وعلى هذا ، فاذا قدر لانسان ان يكون في سبيل اقامة جمهورية جديدة ، فان عليه اولاً ، ان يتحرى ما اذا كانت جمهوريته ستتسع في ممتلكاتها وفي قوتها ، كما فعلت رومة أو انها ستعيش ضمن حدودها الضيقة . وعليه في الحالة الأولى ان يقيمها على غرار ما قامت عليه رومة

وان يتوقع ظهور مختلف انواع المشاكل والفتن فيها شريطة معالجتها بخير طريقة ممكنة ، اذ ان مثل هذه الجمهورية ستظل اذا لم يكن عدد سكانها كبيراً ، ولم يكونوا مسلحين ايضاً ، عاجزة دائماً عن النمو ، أو عن الحفاظ على ما تملكه في حالة نموها . أما اذا آثر الحالة الثانية ، ففي وسعه ان يقيمها على غرار اسبارطة او البندقية ، ولكن لما كان التوسع يشبه السمّ بالنسبة الى جمهوريات من هذا النوع ، فان من الواجب بذل كل جهد للحيلولة دون توسعها ، لأن هذا التوسع اذا ارتكز الى جمهورية ضعيفة ، لم يعن الا مجرد الدمار والخراب ، وقد وقع هذا بالنسبة الى كل من اسبارطة والبندقية أيضاً ، اذ تمكنت الأولى من اخضاع جميع بلاد اليونان لسيطرتها ، ولكنها سرعان ما اكتشفت ، وفي لحظة مهمة للغاية في حد ذاتها ، ما في اسسها من ضعف ،وذلك عندما أعلنت «طيبة» الثورة عليها بتحريض من بيلوبيداس (Pelopidas) (١) ، وما عتمت المدن الأخرى ان حذت حذوها،فانهارت الجمهورية كلها،انهياراً تاماً . وتمكنت البندقية بصورة مماثلة من احتلال القسم الاكبر من ايطاليا، لا بفضل قوة سلاحها ، بل بما لديها من مال وفير ، وبما تميّزت به من دبلوماسية رفيعة ، ولكن عندما تعرضت قوتها إلى محك التجربة والاختبار ، فقدت كل شيء في معركة واحدة .

وعلى ضوء ما تقدم كله ، اجد نفسي واثقاً كل الثقة ، ان إقامة جمهورية يقصد لها البقاء طويلاً ، يتطلب وضعها على غرار ما كانت عليه اسبارطة والبندقية ، علي ان يشرع في تقوية مركزها وجعله منيعاً؟

---

١ بيلوبيداس مات عام ٣٦٤ قبل الميلاد . سياسي مشهور وقائد عسكري في مدينة طيبة اليونانية . وعندما احتل الاسبارطيون مدينته عام ٣٨٣ ، مضى إلى اثينا ليؤلف حزباً فيها يتولى تحرير مدينته . وتمكن بعد اربع سنوات من ارغام الحامية الاسبارطية على الاستسلام . وتمكن في عام ٣٧٥ من هزيمة الاسبارطيين في معركة تيجيريا وعاد فانتصر عليهم عام ٣٧١ بالاشتراك مع ايباغيونداس في معركة لوكيزه . قتل عام ٣٦٤ في معركة ظافرة انتصر فيها على مدينة فيريه .

— المعرب —

بحيث تصبح صعبة المراس على كل من يحلم في الاستيلاء عليها عن طريق هجوم مباغت يقوم به عليها ، وعلى ان لا توسّع من الناحية الأخرى ، الى الحد الذي يظهرها بمظهر من يبعث الرهبة والفزع عند جيرانه . ولا ريب انها ستتمكن بهذه الطريقة ، من التمتع بشكل الحكومة الذي اختارته لنفسها امداً طويلاً . ولا تشن الحروب في العادة على الدول الا لسببين اولها ، الرغبة في إخضاعها ، وثانيهما الخشية منها . واذا ما اتبعت الاحتياطات السابقة ، انعدم هذان السببان، وذلك لأن تحصين الدولة وجعلها منيعة بحيث يتعذر الاستيلاء عليها عن طريق الهجوم ، يبعد فكرة المحاولة نفسها ، عن كل طامع في السيطرة عليها. واذا كانت في الوقت نفسها راضية عما تملكه ، واتضح عن طريق الاختبار ، ان لا مطامح لها ،فلن يدور في خلد احد شن الحرب عليها، ليدرأ عن نفسه خطر هجومها عليه ، وهو خطر يخشاه ويفزع منه ، ولا سيما اذا نص دستورها ونصت شرائعها على تحريم التوسع . وليس لدي ادنى شك في ان الحفاظ على مثل هذا التوازن ، يؤدي الى وجود حياة سياسية اصيلة ، والى سيادة الهدوء والطمأنينة في مثل هذه المدينة .

ولما كانت جميع القضايا الانسانية من الناحية الاخرى ، في حالة مستمرة من الحركة والتمدد . ولا يمكن لها ان تقف جامدة راكدة . فان هذه القضايا تكون معرضة دائماً ، اما الى التحسن او الى التدهور والانهيار ، وقد تدفعك الضرورة الى القيام بأعمال كثيرة ، قد لا يقف التعقل والمنطق الى جانبها . وهكذا فاذا اقيمت احدى الدول ، على اساس الحفاظ على الوضع الراهن دون أي تطلع الى توسّع أو تمدد . ثم دفعت بها الضرورة الى التوسع فان مبادئها الاساسية تنقلب رأساً على عقب ، وسرعان ما تصبح معرضة للخراب . أما اذا آثرت السماء من الناحية الاخرى ، ان تكون كريمة معها وان تجنبها اخطار الحروب ، فان الكسل والتراخي . سرعان ما يعرضانها اما الى التخنّث ، أو الى

تعدد الشيع والاحزاب ، وكلا الأمرين يؤدي بصورة فردية او مجتمعة الى انهيارها .

ولما كان من المستحيل في رأيـي ، الابقاء على التوازن قائماً بشكل رائع يضمن استمرار سير الأمور في هذا الطريق الوسط المعتدل ، فأن من واجب كل من يقيم جمهورية ، ان يدرس احتمال قيامها بدور اكثر كرماً وشرفاً ، وان يجعـل منها ، في حالة اضطرارها إلى التوسع بدافـع الضرورة دولة قوية تستطيع الحفاظ على ما امتلكته . وهكذا إذا عدنا إلى النقطة الاولى التي بدأنا منها ، والتي أثرناها ، فأنا مقتنع بضرورة تبني الطراز الروماني للدستور ، لا اي طراز آخر ، وذلك لأن العثور على طريق وسط ، بين النقيضين المتباعدين ، امر متعذر وغير ممكن . اما المشاحنات بين العامة والشيوخ ، فيجب النظر اليها ، على انها إزعاج لا بد منه ، لتحقيق العظمة التي وصلت اليها روما . وبالاضافـة إلى الأسباب التي سبق لنا تعدادها ، لاظهار ما لسلطة المدافعين عن الشعب (التربيون) من ضرورة لحماية الحرية . فمن السهل علينا ان نرى الفوائد التي يمكن للجمهورية ان تجنيها ، عندمـا تكون هناك سلطة ، تستطيـع توجيه الاتهامات في المحاكم ، وهي سلطة كانت ضمن الصلاحيات التي خولها المدافعون عن الشعب ، كما سيظهر في الفصل التالي .

٧

أهمية المقاضاة العلنية في الحفاظ على الحرية في الجمهورية

ليست هناك سلطة اكثر نفعاً ، واشد ضرورة للعنايـة بالحريات في الدولة من تلك التي تمنح الى اولئك الذين يندبون للعناية بهذه الحريات والتي تخولهم ، مقاضاة بعض المواطنين الذين يرتكبون الجنح والجرائم

المؤذية لحرية الدولة ، امام جماهير الشعب ، او امام بعض القضاة في المحاكم . ولمثل هذا التنظيم فائدتان نافعتان كل النفع في حياة الجمهوريات. اما الفائدة الاولى ، فهي ان هذا التنظيم ، يحمل المواطنين ، خوفاً من القضاء والاتهام ، على تجنب القيام بأي عمل يضر بمصلحة الدولة ،لأنهم ان حاولوا ذلك ، تعرضوا للعقوبة ، مهما كانت منازلهم ، ومهما علت مراتبهم . واما الفائدة الثانية ، فهي ان يؤمن المتنفّس للمشاعر السيئة التي قد يحس بها الأهلون في بعض المدن تجاه مواطن معين ، لسبب او لآخر ، وقد تنمو مع الزمن ، واذا تعذر وجود هذا المتنفّس، تفاقمت المشاعر الى الحد الذي يدفعها الى القيام بأعمال غير طبيعية ، وبأساليب شاذة قد تُطيح بالجمهورية كلها في مهاوي التهلكة ، والكارثة . فليس ثمة من وسيلة افضل لدعم الجمهورية ، وتقوية مركزها ، من مثل هذه التنظيمات ، التي تؤمن عن طريق القانون المتنفس الصالح للمشاعر المتقلبة التي تفسد على الجمهورية امنها وهدوءها .

ويمكن التدليل على هذه الحقيقة بعدد من الشواهد والأمثلة ، لعل في مقدمتها ما اورده تيتوس ليفي عن كوريولانوس (Coriolanus) (١) . ويحدثنا ليفي بأنه عندما اشتد برم النبلاء بالعامة ، لاعتقادهم بتوسع سلطانهم عن طريق تعيين حماة الشعب (التربيون) ، وعندما حلت بمدينة رومة المجاعة من جراء ندرة المؤن فيها ، مما ارغم مجلس الشيوخ، علي طلب القمح من صقلية ، اقترح كوريولانوس ، وكان خصماً للعامة ، ان الوقت قد حان لايقاع العقوبة بهم ، وحرمانهم من السلطات التي حصلوا عليها على حساب النبلاء . وهكذا اشار كوريولانوس ، بالابقاء

١ غايوس كوريولانوس هو بطل اسطورة رومانية قديمة . فقد نفاه العامة من رومة في عام ٤٩١ ق. م. وفر إلى بلاد الفولسكي حيث عينه ملكها ، قائداً لجيشه . وسرعان ما زحف على رومة ، ولم يثنه عن عزمه على احتلالها إلا مجيء أمه وزوجته وأطفاله . وتقول الاسطورة ان اهل الفولسكي قتلوه عند عودته دون احتلال رومة وقد جعل شكسبير من اسطورته موضوعاً لاحدى مسرحياته .
— المعرب —

على العامة جياعاً ، ونصح بعدم توزيع الحنطة المستوردة عليهم . وعندما وصلت نصيحته الى اسماع الشعب ، ثار ثائره ، واشتد سخطه على الرجل ، وبلغ هذا السخط حداً ، كاد يعرضه للقتل ، عندما كان يغادر مجلس الشيوخ ، لو لم يسرع حماة الشعب (التربيون) ، الى الدفاع عنه . ولا ريب في ان المرء ، يرى في هذا الحادث ، صحة ما سبق لي قوله ، وهو ما في لجوء الجمهوريات الى خلق متنفس مشروع لغضب الجماهير ، من ضرورة وجدوى ، ولا سيما بالنسبة الى مواطن معين، وذلك لأن انعدام الطرق الطبيعية يدفع الجماهير الى طرق واساليب غير عادية ، تؤدي حتماً الى نتائج اكثر سوءاً من الطرق العادية .

والسبب في هذا ، انه على الرغم من احتمال ارتكاب الخطأ عند ايقاع العقاب بمواطن بالطريقة العادية الا ان من النادر، او من المستحيل ان يقع اي اضطراب في الجمهورية ، اذ لا يكون هناك عند تنفيذ الحكم مجال لاستئنافه الى قوات خاصة او اجنبية ، ومثل هذه الحالات هي التي تؤدي الى انهيار الحريات المدنية . وعلى النقيض من ذلك، فأن القوة التي تستخدم ، تكون صادرة عن سلطه عامة تعمل ضمن حدود معينة، ولا تحاول هذه القوة تخطي هذه الحدود للقيام بأعمال قد تؤدي الى دمار الجمهورية .

ولا ارى بي حاجة الى دعم هذا الرأي بإيراد امثلة اخرى من العصور القديمة ، بالاضافة الى المثل الذي اوردته عن كوريولانوس . اذ يجب في هذا الصدد ، على الجميع ، في اي حال من الاحوال ، امعان النظر في الويلات التي كان من المحتوم ان تتعرض لها الجمهورية الرومانية ، لو تمكنت الجماهير من قتله على ذلك النحو الفوضوي ، اذ ان هذا القتل سيكون عملاً من اعمال الانتقام الشخصي الذي يستثير الخوف ، مما يؤدي الى القيام بعمل دفاعي لدرء الخطر ، وهذا يقود بدوره الى حشد الانصار ، الذي يعني في حد ذاته تأليف الاحزاب في

المدينة . وهو ما كان يقضي حتماً بسقوطها وانهيارها . أما وقد سويت القضية على أي حال ، على أيدي اشخاص مزودين بالسلطة اللازمة ، فلم يعد ثمة منفذ لوقوع الشرور التي كانت ستنجم حتماً ، لو سويت القضية عن طريق السلطة الفردية .

ولقد رأينا في عصرنا الحاضر ، ابتكارات ادخلت في جمهورية فلورنسة بسبب عجز الجماهير عن ايجاد المنفذ الطبيعي للأهواء التي استثارها احد المواطنين من ابنائها في نفوسهم . وقد وقع هذا في الوقت الذي غدا فيه مركز فرانسيسكو فالوري في المدينة مشابهاً لمركز أي امير في مدينة اخرى . وقد اعتبره الكثيرون رجلاً طموحاً ينتظر منه ان يلجأ بسبب جرأته ، وشدة نشاطه الى اساليب غير دستورية . ولما لم يكن هناك سبيل آخر لمقاومته الا عن طريق تشكيل حزب منافس ، فقد نتج عن ذلك ، انه شرع في جمع الأعوان لحماية نفسه ، وذلك لأنه لم يكن يخشى شيئاً الا اذا اتخذت خطوات غير استثنائية . ولما لم تكن هناك من الناحية الأخرى لدى خصومه وسائل عادية متوافرة للقضاء عليه ، فقد حزموا أمرهم على استخدام وسائل اخرى ، وهكذا قرروا حمل السلاح ضده . ولو تمكنوا في مثل هذه الحالة من معارضة فالوري بالوسائل الدستورية ، لتحقق وضع حد لسلطته دون الاضرار بأي شخص آخر عداه ، أما وقد دعت الحاجة الى اتباع الاساليب غير الدستورية . فان الضرر لم يلحق به وحده . بل لحق بالكثيرين من المواطنين النبلاء أيضاً .

وفي وسع الانسان ، ان يقدم تأييداً للنتيجة التي توصلنا اليها قبل قليل ، حادثة اخرى وقعت فعلاً في فلورنسة ، بعد هذه الحادثة بقليل. وهي تتعلق ببيرو سوديريني ، وهي عائدة الى افتقار هذه الجمهورية الى اية وسيلة تستطيع بواسطتها اتخاذ اجراء قانوني ضد الطموح الذي قد يبديه بعض المواطنين الأقوياء . فالحكم على مواطن قوي يستلزم ان يصدر

عن اكثر من ثمانية قضاة . ومن الواجب ان يكون عدد القضاة كبيراً، لأن قلة عددهم تجعلهم يعملون طبقاً لما ينتظر من القلة ان تعمله . ولو كانت هذه هي الحالة لتمكن المواطنون اما من اتهامه اذا اساء السلوك، وفي مثل هذه الطريقة يجدون متنفساً لما يشعرون به من غيظ وعداء ، دون ان يضطروا الى طلب تدخل الجيش الاسباني ، او لما جرؤوا اذا لم يكن سلوكه سيئاً ، على القيام بأي اجراء ضده ، خشية ان يعرضوا أنفسهم لخطر الاتهام . وهكذا كان من المحتم ان تتوقف الشهوة التي ولدت الفضيحة عن العمل في كلتا الحالتين .

وهكذا نصل الى الاستنتاج القائل ، بأنه عندما تستدعي فئة من الناس تقيم في مدينة من المدن القوى الاجنبية لمساندتها ، فان من المسلم به ان هذا الاستدعاء ناجم عن النقص الموجود في دستور تلك المدينة ، من حيث عدم توفيره المنظمة التي تؤمن المتنفس لأحاسيس الشر التي يتعرض لها جميع الناس ، والذي يغنيهم عن اللجوء الى الاعمال غير الدستورية. وتقوم الطريقة المثلى لسد هذا العجز في توفير العدد الكافي من القضاة الذين يمكن توجيه الاتهامات امامهم ، وفي النظر الى القضاء على انه مهمة نبيلة وشريفة .

وقد وفرت رومة جميع هذه الأمور بشكل ضمن في جميع المنازعات الكبرى التي نشبت بين مجلس الشيوخ والعامة ، عدم تفكير أي من الفريقين أو أي مواطن فرد ، باستدعاء القوى الاجنبية الى المدينة ، اذ ان توافر العلاج في الداخل ، قد أبعد الحاجة الى البحث عنه في الخارج . وعلى الرغم من ان الادلة التي اوردتها حتى الآن كافية لدعم نظريتي ، وما آراه ، فانني عازم على الاتيان بدليل جديد آخر، استقيته من تاريخ تيتوس ليفي . فهو يروي انه حدث في مدينة كلوسيوم، التي كانت تعتبر اعظم مدن توسكانيا في ذلك الحين ان اعتدى شخص يدعى كولومون على عفاف شقيقة شخص آخر يدعى آردنز ، ولما وجد

هذا نفسه عاجزاً عن الوصول الى العدالة ، بسبب ما يتمتع به خصمه من قوة ونفوذ ، مضى الى الغاليين (١) الذين كانوا يسيطرون آنذاك على المقاطعة الـتي نطلق عليها الآن اسم لومبارديا ، وناشدهم المجيء بقواتهم المسلحة الى كلوسيوم ، مشيراً اليهم ان من مصلحتهم الثأر له من الحيف الذي لحق به ، ولو تمكن آردنز من احقـاق حقه ، عن طريق قوانين المدينة ، لما استثار قوات البرابرة على مدينته . واذا كان تسهيل توجيه مثل هذه الاتهامات أمر نافع للجمهوريات ، فان التشهير أمر لا يجدي ، بل هو ضار للغاية ، وذلك ما سنراه في الفصل التالي .

٨

التشهير ضار بالجمهوريات بقدر ما في الاتهـام العلني من فـائدة

على الرغم من ان الفضائل التي تحلى بهـا فيوريوس كاميليوس (٢) الذي حرر رومة من نير الغاليين، قد حملت جميع المواطنين في المدينة ،

١ قبائل الغال ، أو الغاليون، هي من القبائل الكلتية القديمة التي تمت إلى الجنس الآري ، والـتي كانت تقيم في أوروبا الغربية ، وعلى الرغم من اختلاط أقوام أخرى بالغاليين الا ان عنصرهم ظل هو الغالب على فرنسا . وقد هاجرت بعض قبائلهم في العصور القديمة وعبرت الألب واجتاحت شمال ايطاليا كلها ، ولكن الرومان تغلبوا عليهم .

٢ فيوريوس كاميليوس (٤٤٥ – ٣٦٥) قبل الميلاد ، قائد روماني مشهور . كان حاميـاً للشعب وله صلاحيات قنصلية عام (٤٠٣) . تمكن من احتلال فيي التي حاصرها الرومـان عشر سنوات عام ٣٩٦ . حرر رومة من الغاليين وانتصر عليهم في معركة الباعام ٣٦٧ ق. م. انتخب تربيوناً عسكرياً مع صلاحيات قنصلية ست مرات وديكتاتوراً خمس مرات. مات بالطاعون.

– المعرب –

على إيلائه الأولوية في كل شيء ، دون ان يشعروا انهم بعملهم هذا، يحطون من شأنهم أو من منزلتهم ، الا ان مانليوس كابيتولينوس (١) ، لم يشاركهم هذا الشعور ، ولم يطق ان يرى كل هذا الشرف وكل تلك الأمجاد ، تكال على كاميليوس ، ذلك لأنه اعتقد في قرارة نفسه ، ان مزاياه ، لا تقل نبلاً عن مزايا كاميليوس ، فهو الذي انقذ الكابيتول، ولم يكن يقل شأواً عن الآخر في المغامرات العسكرية المحمودة العاقبة ، وهكذا أكل الحسد قلبه ، ولم تمكنه غيرته من البقاء هادئاً يتطلع إلى هذه الأمجاد تحيط بكاميليوس ، وعندما أدرك انه لا يستطيع بذر بذور الشقاق بين النبلاء ، اتجه الى العامة ، ينشر بينهم شائعات سيئة مختلفة . ولقد كان بين ما قاله من اشياء ، ان الكنز الذي جمع ليقدم الى الغاليين ، لم يعط لهم حقاً ، وانما اغتصبه بعض المواطنين العاديين ، فاذا ما استعيد هذا الكنز ، امكن استخدامه في المصلحة العامة ، اما بتخفيف عبء الضرائب عن كواهل العامة ، او في اداء بعض الديون الخاصة المعينة . وقد أثر هذا القول تأثيراً كلياً على العامة الذين شرعوا يعقدون الاجتماعات ويثيرون الكثير من الفتن في المدينة وفقاً لأهوائهم . وقد اغضبت هذه الحالة مجلس الشيوخ ، الذي رأى فيها قضية خطرة وبالغة الأهمية ، فعين ديكتاتوراً عهد اليه بمعالجة الوضع ، ووضع حد لحماقة مانليوس . ودعا الديكتاتور تبعاً لذلك مانليوس للظهور علناً امام الجميع ، وتقابل الرجلان ، الديكتاتور يحيط به النبلاء ، ومانليوس وقد التف من حوله ابناء العامة . وطلب الديكتاتور الى مانليوس ، ان يعلن اسم من يضعون ايديهم على الكنز كما قال ، وذلك

---

١ مانليوس ماركوس كابيتولينوس . كان قنصلا عام ٣٩٢ قبل الميلاد ، ولجأ مع قواته إلى تل الكابيتول عندما احتل الغاليون رومة عام (٣٩٠) قبل الميلاد. وعندما حاول الغاليون ارتقاء الكابيتول ، افاق من نومه على صوت الأوزات المقدسة، وجمع رجاله ونجح في دحر العدو عن التل، فلقب بكابيتولينوس . دافع عن العامة عام ٣٨٥ ضد زملائه النبلاء ، فاتهمه هؤلاء بالخيانة العظمى وحكم عليه الشعب بالاعدام ، والقي من صخرة على نهر التيبر . — المعرب —

لأن مجلس الشيوخ كان لا يقل رغبة عن العامة في معرفة ذلك . ورد مانليوس فلم يدل بأية تفاصيل ، وحاول التملص من الموضوع ، قائلاً انه لا يشعر بضرورة ابلاغ النبلاء بشيء لا يجهلونه . وامر الديكتاتور، بعد ذلك بزجه في غياهب السجن .

وتتضح من هذا الحادث ، اهمية ما يجب ان يقابل به التشهير من ازدراء في المدن الحرة ، ومن اي شكل آخر من اشكال المجتمع، وانه في سبيل كبح جماحه ، يجب عدم توفير أية وسيلة او منظمة تستطيع تحقيق هذه الغاية أو اهمالها ، وليس ثمة من سبيل أفضل لمنع التشهير ، من ايجاد منظمة تؤمن التسهيلات اللازمة لتقديم الاتهامات العلنية ، وذلك لأن الاتهامات نافعة للجمهوريات بقدر ما هو التشهير ضار ومؤذ . والفرق بينهما هو على هذا النحو . ليست هناك من حاجة الى شهود او الى أية اثباتات للحقائق ، لترويج أي تشهير او لنشره ، ففي وسع كل انسان ان يلفق الأكاذيب على اي انسان آخر ، وان يشير حوله الشائعات . اما الاتهامات ، فلا يمكن ان توجه على هذا النحو ، اذ انها يجب ان تدعم بالأدلة ، وان تبسط الظروف التي تقيم الدليل على صحة الاتهام . ويمكن توجيه الاتهامات امام القضاة وامام الشعب وامام المحاكم . اما التلفيقات الكاذبة ، فتنتشر في المحلات العامة والبيوت الخاصة ، وهي تسود المدن التي لا تألف توجيه الاتهامات العامة ، والتي لم تؤمن الوسائل اللازمة لتقديم مثل هذه الاتهامات . ولذا يجب على كل من يتولى اقامة جمهورية ، ان يخطط لها بطريقة تسمح بتوجيه الاتهام العلني الى اي مواطن ، دون خشية ، ودون احترام لشخصه . وعندما توفر الامكانات لمثل هذا الاجراء ، ويسمح بتطبيقه بصورة صحيحة ، فأن من الضروري جداً عقاب المشهرين . ولا يستطيع هؤلاء التذمر من مثل هذا العقاب ، ذلك لأن الفرصة اتيحت لتوجيه اتهاماتهم بصورة علنية ، ضد اولئك الذين روّجوا عنهم تلفيقاتهم الكاذبة في الخفاء . أما

في المدن التي لا ينص في انظمتها على مثل هذا الاجراء ، فان النتيجة الحتمية ، هي قيام الاضطرابات فيها . فالتشهيرات الكاذبة لا تقتص من المواطنين،وانما تثير سخطهم وهياجهم . ولما كانت الكراهية اسرع اثارة من الخوف ، فأن هؤلاء ، عندما يستفزهم الهياج يفكرون بالثأر لأنفسهم مما قيل ضدهم .

وقد ضمنت رومة الوضع بشكل لائق ، طبقاً لما سبق لي تبيانه . أما في مدينتنا فلورنسة ، فقد ظلت مثل هذه الضمانات مفقودة . وكما ان النص على هذه الضمانات من رومة ، كان نافعاً للغاية ، فان الافتقار اليها في فلورنسة كان ضاراً ومؤذياً للغاية ايضاً . وكل من يقرأ تاريخ تلك المدينة يلاحظ ان التشهيرات الكاذبة ، كانت تروج دائماً ضد المواطنين الذين يعملون في القضايا العامة ذات الاهمية ، ولقد قالوا عن احدهم انه اختلس اموال الخزينة العامة ، وقالوا عن آخر ، بأنه فشل في القيام بأحد الأعمال ، لأنه تلقى رشوة ، وعن ثالث ، بأن طموحه قد قاده الى احداث بعض المتاعب . وهكذا نشأت الكراهية في كل ناحية ، وادت هذه الى الانقسامات التي انتجت الاحزاب ، وسببت هذه بدورها الخراب والدمار . ولو وضعت في فلورنسة النصوص التي تضمن اتهام المواطنين ، وايقاع العقوبة بالمذنبين ، فان تلك الفضائح التي لا عد لها ولا حصر ، ما كانت لتحدث مطلقاً . وما كان في وسع المواطنين سواء من ادين منهم أو من برئت ساحته ان يلحق الاذى بالمدينة ، يضاف الى هذا ، ان عدد من توجه اليهم التهم علانية ، كان في مثل هذه الحالة لا بد وان يقل عن عدد اولئك الذين لفقت حولهم الشائعات الكاذبة ، اذ كما سبق لي ان قلت ، ليس في الامكان توجيه التهمة الى انسان بنفس السهولة التي تلفق فيها حوله .

وكان التشهير أيضاً ، بين الأمور الكثيرة التي افاد منها بعض المواطنين في طلابهم العظمة ، وكثيراً ما تكون التشهيرات فعّالة ومؤثرة

عندما تستخدم ضد المواطنين الاقوياء الذين يسدون على المرء طريقه ، ويحولون بينه وبين تنفيذ مراميه ، اذ انه عن طريق استهواء الجماهير واجتذابها ، وتأييد ما تحمله من آراء سيئة في مثل اولئك الاقوياء ، يستطيع المرء ان يجعل من هذه الجماهير صديقة له . وفي الامكان تقديم ما لا يحصى ولا يعد من الادلة والامثلة على صحة هذا القول ، ولكنني أرى ان اكتفي بواحد منها فقط . فقد كان الجيش الفلورنسي معسكراً حول مدينة لوكا،وكانت قيادته مسندة الى السيد جيوفاني غويكيارديني (١) ، مفوض الجيش المذكور . ولكن احتلال المدينة المذكورة لم يتم اما بسبب سوء تصرف اعوانه ، او بسبب سوء الطالع ، ومهما كان السبب ، على اي حال ، فان الملامة قد وجهت الى السيد جيوفاني ، الذي قيل عنه ان أهل لوكا قد تمكنوا من غوايته . وانتشرت هذه الشائعة الكاذبة ، انتشار النار في الهشيم ، وروج لها خصومه ، مما دفع بالسيد جيوفاني الى حالة من اليأس والقنوط . وعلى الرغم من انه عرض لتبرير نفسه، ان يضع نفسه تحت تصرف « القائد الاعلى » ، الا انه لم يستطع قط الاتيان بهذا التبرير ، اذ ان اجراءات تلك الجمهورية لم تمكنه منه . وقد اثار هذا موجة من السخط لدى اصدقاء جيوفاني الذين كانوا يؤلفون علية القوم في المدينة ، ولدى الراغبين في تجديد الاوضاع في فلورنسة . وقد اتسع نطاق هذه القضية ، لهذا السبب ولغيره من الاسباب فوصل حدوداً أدت الى سقوط الجمهورية .

وهكذا كان مانليوس كابيتولينوس مشهراً لا متهماً ، وقد بيّن لنا الرومانيون في قضيته تمام التبيان الطريقة التي يجب عقاب المشهرين بها .

---

١ جيوفاني فرانسيسكو غويكيارديني(١٤٨٣–١٥٤٠م)،سياسي ايطالي مشهور ومؤرخ مدينة فلورنسه ، وينتمي إلى اسرة نبيلة . اراد أن يصبح راهباً ولكن والده رفض ذلك فدرس القانون. عين سفيراً لدى البلاط الاسباني . كان انتهازياً ، عينه البابا حاكماً لرونيا وقائداً لجيوشه . وفي اخريات أيامه ابعده كوزيمو آ ل مديشي عن الحياة العامة . الف كتاباً عن « قصة ايطاليا » .

— المعرب —

فعليهم ان يحوّلوا تشهيرهم الى اتهام رسمي صريح ، واذا ما تمكنوا من اقامة الدليل على صحته بالحقائق الثابتة ، استحقوا الثواب ، أو منع عنهم العقاب على الاقل ، اما اذا عجزوا عن ذلك ، كما حدث لمانليوس ، وقع عليهم العقاب .

٩

من الضروري ان يكون كل من يرغب في اقامة حكومة جديدة أو يود اصلاح حكومة قائمة اصلاحاً كلياً يتجاهل منظماتها القديمة أن يكون صاحب السلطة المطلقة

قد يبدو غريباً للبعض، انني مضيت بعيداً في مناقشة التاريخ الروماني، دون ان اذكر شيئاً عن مؤسسي تلك الجمهورية او حتى عن منظماتها الدينية والعسكرية . ورغبة مني في عدم الابقاء على عقول المتلهفين لسماع اشياء من هذا القبيل ، في حالة من القلق والانشغال ، فأنني اود ان اقول ان الكثيرين قد يعتقدون انها لبادرة سيئة ، ان يقوم مؤسس دولة كروملوس ، بقتل اخيه اولاً ، وان يرضى بموت تيتوس تاتيوس ، السابيني (١) ، الذي سبق له ان اختاره ليكون زميلاً له في ادارة مملكته . وقد يقول هؤلاء ، اننا اذا وجدنا المبرر لمثل هذه الاعمال ، فأن المواطنين الطموحين، التواقين الى الحكم ، قد يحذون حذو اميرهم ،

١ السابيني ، رجل يمت إلى قبائل قديمة كانت تعيش في ايطاليا منذ أقدم عصور التاريخ ، وقد أقامت في أواسط جبال الابنين . — المعرب —

ويستخدمون العنف ضد اولئك الذين قد يعارضون في سلطتهم . ومثل هذا الرأي قد يكون سليماً ، اذا تجاهلنا اعتبار الغاية التي كان روملوس يعمل في سبيلها عندما اقترف أعمال القتل هذه .

وعلى المرء ان يجعل نصب عينيه كقاعدة عامة ، ان من النادر ان لم يكن من المستحيل ، ان تقوم حكومة ، سواء أكانت جمهورية او ملكية ، على شكل منظم منذ مستهل عهدها ، أو ان تتحول تحولاً جذرياً عن تنظيماتها القديمة ، إلا إذا كان المشرف على عملية القيام او التحول ، شخص واحد ليس إلا . فمن الضروري جداً ، ان يكون ثمة رجل واحد ، ترتكز على تفكيره وطريقته في العمل ، أية عملية تنظيم من هذا الطراز . وعلى هذا فأن على المنظّم العاقل للدولة ، الذي يستهدف الحكم لا لمصلحته الشخصية بل لتحقيق الخير العام ، ولا لمصلحة ذريته بل لمصلحة الوطن الذي هو مشترك للجميع ، ان يحزم أمره على ان يكون صاحب السلطان الوحيد ، ولن يوجه اليه أي انسان عاقل ، اللوم ، إذا ما قام بأي عمل مهما كان شاذاً ، إذا كان في هذا العمل، ما يخدم تنظيم المملكة أو انشاء الجمهورية . فمن القواعد الصحيحة والسليمة ، ان النتائج قد تبرر الأعمال التي تستحق اللوم في ظاهرها ، وانه عندما تكون النتيجة طيبة ، كما هي الحالة في قضية روملوس، فأن طيبتها تبرر العمل الذي جرى . فالرجل الذي يلجأ إلى العنف لاتلاف الاوضاع ، هو الذي يستحق الملامة ، لا ذاك الذي يستخدمه للاصلاح والخير .

وعلى منظم الدولة ، ان يكون أيضاً على جانب كبير من التعقل والفضيلة بحيث لا يسلم السلطة التي حصل عليها، إلى أي شخص آخر ، إذ ان طبيعة الناس لميالة الى الشر أكثر من ميلها إلى الخير ، تمكن خلفه من استخدام هذه السلطة بشكل طموح يخالف الطريقة الفاضلة التي استخدمها هو فيها . يضاف إلى هذا انه على الرغم من ان رجلاً واحداً

قد يكون كافياً لتحقيق التنظيم ، إلا ان ما حققه لا يمكن ان يعمّــر طويلاً إذا ظل يرتكز إلى أكتاف رجل واحد ، ولكنه قد يعمّر ، إذا قام الكثيرون على امره ، وتطلعوا إلى الحفاظ عليه . فعلى الرغم من عدم كفاية العدد الكبير للقيام بوضع دستور ، لأن اختلاف الرأي بينهم سيحول بينهم وبين اكتشاف ما هو أجدى وأنفع في وضعه ، الا ان أفراد هذا العدد الكبير لن يتفقوا قط على التخلي عنه عندما يدركون ان الدستور قد وضع ، وأصبح قيد التنفيذ .

وقد قام الدليل على ان روملوس كان رجلاً من هذا الطراز ،وعلى ان من حقه ان نغفر له موت أخيه وزميله ، وعلى ان ما عمله كان في سبيل الخير العام ، لا ارضاء لطموحه الشخصي ، في أقدامه فوراً على انشاء مجلس للشيوخ ، يلجأ اليه لاستشارته ، ويجعل قراراته هو منسجمة مــع آرائه تمام الانسجام . واذا ما أمعنّا الدرس في الصلاحيات التي استبقاها روملوس لنفسه ، تبين لنا انها لم تتجاوز حد الاحتفاظ بقيادة الجيش في أوقات الحرب ، ودعوة مجلس الشيوخ إلى الانعقـاد . ومن الواضح أيضاً ، انه عندما تم طرد الملوك الترقونيين من رومة، وتحررت المدينة ، لم يطرأ أي تبدل على تنظيماتها القديمة ، باستثناء تبدل واحد ، وهو استبدال الملك الدائم بقنصلين ، يتجدد تعيينهما في كل عام . وهذا يظهر بوضوح ، ان تنظيمات المدينة الأصليــة كانت في مجملها . اكثر انسجاماً مع دولة دستورية ذاتية الحــكم ، منها مع دولة يسودها نظام الطغيان او الاستبداد .

وفي وسعي ان أعرض تأييداً لما قلت ، عدداً لا حصر له من الامثلة، كموس ، وليكرجوس ، وصولون ، وغــيرهم من مؤسسي الممالك والجمهوريات الذين حملوا السلطة لوضع القوانين الرامية الى الخير العام . ولكنني أرى حذف هذه الامثلة ، لانها معروفة وقد اشتهر امرهـــا . واود مع هذا ان اعرض مثلاً واحداً ، قد لا تكون له شهرة الامثلة

السابقة ، ولكنه يستحق الدرس من اولئك الذين يفكرون في وضع قوانين صالحة . وهو مثل آغيس (Agis) (١) . ملك اسبارطة، الذي أخذ يدرس الطريقة التي يحدد فيها نشاط الاسبارطيين ضمن الحدود التي وضعها لهم في الاصل ليكرجوس في قوانينه التي سنها ، فلقد بدا له ، ان انحراف الاسبارطيين عن هذه القوانين هو الذي ادى جزئياً ، الى خسارة هذه المدينة الكثير من فضائلها السابقة ، وبالتالي خسارتها للكثير من سلطانها ومن امبراطوريتها.ولكن بعض صغار الحكام من الاسبارطيين، قاموا بقتل هذا الرجل على كل حال ، وكان لا يزال في المراحل الأولى من اعداد مشروعه ، اعتقاداً منهم بأنه يعمل على اقامة نظام طغيان في مدينتهم . وجاء خلفه كليومينيس ، فوقعت يداه على بعض الوثائق والكتابات التي خطها آغيس ، فتبينت له حقيقة سلفه وما كان ينتويه ويفكر به ، فقرر السير على الخطة التي وضعها . واتضح له على كل حال ، انه لن يتمكن من تحقيق ذلك لخير بلاده ، الا اذا غدا صاحب الكلمة المطلقة فيها ، ولما ايقن ان من المستحيل ، بالنسبة الى نوازع الطموح عند الانسان ، مساعدة الاكثرية ضد ارادة الأقلية ، انتهز الفرصة المؤاتية ، وقتل جميع الحكام (Ephors) ، كما قضى على كل من تصور انه قد يقف في طريقه . واقبل فوراً على تجديد شرائع ليكرجوس تجديداً كلياً ، وبعث بعمله هذا في اسبارطة حياة جديدة ، وكان من الممكن ان يذاع صيته على النحو الذي ذاع فيه صيت ليكرجوس من قبل ، لولا ان المقدونيين كانوا قد ازدادوا الآن قوة وسلطاناً ، وكانت الجمهوريات اليونانية الأخرى قد غدت في منتهى الضعف والتقهقر. اذ ما كادت اسبارطة ، تعيد تنظيم نفسها على هذا النحو ، حتى داهمها

---

١ هناك اربعة ملوك حكموا اسبارطة بهذا الاسم ، والمقصود به هنا ، هو الرابع منهم وقد حكم ثلاثة اعوام (٢٤٤ – ٢٤١) ق. م. وقد حاول اصلاح احوال الاسبارطيين ومكافحة الفقر عن طريق اعادة توزيع الاراضي . وقد شك فيه الاسبارطيون فقتلوه . – المعرب –

المقدونيون ، ولما كانت قواتها أقل شأناً من قوات خصمها ، وبسبب تعذر وصول أية نجدة خارجية اليها ، فقد منيت بالهزيمة ، مما ادى الى ان خطط كليومينيس ، رغم ما فيها من عدالة وما تستحقه من اطراء، لم تصل قط مرحلة التمام .

وعلى ضوء كل ما درسناه ، أستطيع الاستنتاج تبعاً لذلك ، ان على كل من يرغب في تنظيم الدولة ، ان يكون صاحب السلطة المطلقة ، وان عمل روملوس بالنسبة الى مصرع روموس وتيتوس تاتيوس ، له كل ما يبرره ، ولا يستحق اللوم .

١٠

اللوم الذي يوجه إلى من يقيم نظاماً طاغياً لا يقل عن الثناء الذي يوجه إلى من يشيد جمهورية أو مملكة

لعل اكثر الناس جدارة بالثناء ، هم اولئك الذين لعبوا دوراً رئيسياً في اقامة الديانات الجديدة . ويلي هؤلاء ، في استحقاق الثناء ، اولئك الذين اقاموا الجمهوريات والممالك . ويأتي بعدهم في قائمة الشهرة ، قادة الجيوش الذين اضافوا مساحات شاسعة الى نطاق ممتلكاتهم او املاك البلاد التي ينتمون اليها . ومن واجبنا ان نضم الى هؤلاء ، رجال الفكر والادب ، الذين برّز كل منهم في ميدان دراساته ، وهي دراسات تشمل مختلف الآفاق والميادين . وفي وسعنا ان نضفي قسطاً من الثناء أيضاً على كل من برع في فن من الفنون ، ومارسه ممارسة عملية ، وعدد هؤلاء كثير للغاية . وهناك آخرون من الناحية الاخرى ، جديرون

بالزراية والسخرية ، وفي طليعتهم اولئك الذين يستأصلون الدين، ويهدمون الممالك والجمهوريات ، ويحاربون الفضيلة والعلم وكل فن فيه خير وكرامة للجنس البشري ، واعني بهم جميعاً ، الزنادقة واصحاب العنف والجهلة والسفلة والكسالى والجبناء والخوارين . وليس ثمة من انسان ، عــاقلاً كان أو مجنوناً ، طيباً كان أو خبيثاً ، لا يكيل الثناء اذا ما دعي الى التفضيل بين هاتين الفئتين من الناس ، لمن يستحقونــه ، ويلقى باللوم على من هم جديرون به .

ومع هذا ، وعلى الرغم من كل شيء ، فان مظاهر الخير الكاذبة تخدع معظم الناس على وجه التقريب، كما تخدعهم ظواهر الشهرة الزائفة، فيسمحون لانفسهم ، اما طواعية او جهــلاً ، بالانزلاق الى صفوف اولئك الذين يستحقون الملامة لا الثناء ، وعندما يقيمون جمهورية أو مملكة ، تخلّد الى الابد شرفهم واسمهم، يتحولون بأفكارهم الى الطغيان، ويفشلون في رؤية ما سيفقدونه من جراء اتباعهم هذا السبيل ، من شهرة ومجد وأمن وهدوء وراحة ضمير ، وما سيجلبونــه لأنفسهم من خزي وعار وزراية وكراهية وخطر وافتقار الى السكينة .

وليس من الممكن لأي انسان ، سواء أكان مجرد مواطن عادي يعيش في احدى الجمهوريات او كان على جانب من حسن الطالع او الفضيلة، بحيث تمكن من ان يصبح اميراً ، ان يقرأ التاريخ ، وسجلات مآثر الماضي التي يجلب التاريخ اليها الانتباه ، دون ان يفضل مواطناً عادياً، ان يسلك في وطنه السلوك الذي سار عليه شيبيو (**Scipio**) (١) لا قيصر، او ان يؤثر اذا كان اميراً ان يعمل كما عمل اوغيسلاوس (**Ogesilaus**) (٢)

---

١ شيبيو اسم يطلق على عائلة من نبلاء رومة ، اشتهر افرادها بالشجاعة في الحروب التي دارت مع قرطاجنة ، في القرنين الثالث والثـاني قبل الميلاد وقد تولى أفرادها رتبة القنصلية مرات عدة .

٢ اسم احد ملوك اسبارطة ، عرف بالشجاعة والرغبة في اصلاح أحوال شعبه ، ولم يعرف تاريخ موته تماماً . — المعرب —

وتيموليون (Timoleon) (١) وديون (Dion) (٢) على ان يعمل كما عمل نابيس (Nabis) (٣) وفالاريس (Phalaris) (٤) وديونيسيوس (Dionysius) (٥) ، اذ لا يسعه الا ان يرى ما يوجه الى الاخيرين من زراية وما يلقاه الأولون من ثناء عاطر . وسيرى بنفسه أيضاً ان تيموليون وامثاله كانوا أقل سلطة في بلادهم من ديونيسيوس وفالاريس في بلديهما ، كما سيلاحظ انهم قد تمتعوا بأمن وطمأنينة تفوقان ما كان يحس به الاخيران .

ولن يخدع انسان أبداً بشهرة قيصر ، عندما يرى الكتّاب يمجدونه مؤثرينه على الآخرين ، لأن هؤلاء الذين أطروه ، اما ان يكونوا قد ارتشوا بأمواله ، أو نظروا بعين الاجلال إلى الامبراطورية التي عمّرت طويلاً ، والتي كان يحكمها دائماً ، أباطرة يطلقون على أنفسهم اسم « قيصر » ، ولا يسمحون للكتّاب بامتهان هذا الاسم . وإذا رغب انسان على أي حال ، في أن يعرف ما كان سيقوله الكتّاب عنه لو كانوا أحراراً في أقوالهم ، فعليه ان يطلع على ما قالوه في كاتالين

---

١ تيموليون (٤١١ - ٣٣٧) ق. م. من الديموقراطيين اليونانيين ينتمي إلى عائلة نبيلة في كورنث وقد صرف حياته كلها في الدفاع عن الحرية ، حتّى انه قتل اخاه الذي حاول أن يصبح طاغية في كورنث .

٢ ديون السيراقوزي ، ولد في القرن الخامس قبل الميلاد ، و قد تزوجت شقيقته ديونيسيوس الاكبر وتزوج هو بدوره من ابنتها . عاش حياة التقشف واختلف مع دينسيوس فطرد من المدينة ولكنه عاد اليها وحكمها ، ثم ثار عليه الشعب لشدة تقشفه وقتلوه .

٣ نابيس ، حاكم اسبارطة من عام ٢٠٦ إلى عام ١٩٢ ق. م. اغتصب العرش ، وتحالف مع فيليب المقدوني اولا ثم مع رومه ثانياً . اغتاله شخص يوناني لكثرة قسوته .

٤ طاغية اغريغانتوم (٥٧٠ - ٥٤٩) ق. م. حافظ على مركزه بمعونة جنوده من المرتزقة . عرف عنه انه كان يشوي أعداءه على النار وهم أحياء .

٥ ديونيسيوس ، كان طاغية متهتكاً في سراقوزه ، التي بدأ حكمه فيها عام ٣٦٧ ق . م. ، نفي من مدينته مرتين . — المعرب —

(Cataline)(١) ،وذلك لأن قيصر يستحق اللوم أكثر من كاتالين ، إذ ان مقترف الخطأ ، يستحق اللوم أكثر من الذي رغب في ارتكابه، او ان يطلع على ما أطلقوه من ثناء على بروتوس ، فلقد حملهم عجزهم عن ايجاد خطأ لقيصر بسبب ما يتمتع به من سلطان على البكاء على خصمه بروتوس .

ولندرس الآن أوضاع اولئك الذين أصبحوا ملوكاً وامراء ، في بلاد كانت جمهورية ، ولنتحر بعد ان اصبحت رومة امبراطورية،ما يستحقه اولئك الأباطرة الذين سلكوا مسلك الامراء الصالحين ، وفقاً للقوانين ، من ثناء ، يفوق ما يستحقه اولئك الذين ساروا على طريقة مغايرة ، وسنجد بعد كل هذا التحري والدرس ، ان تيتوس ونيرفا وتراجان ، وهادريان وانطونيوس ، وماركوس (٢) ، لم يكونوا بحاجة الى الجنود لتشكيل حرس امبراطوري ، ولم يكونوا بحاجة إلى مجموعات عسكرية كبيرة لحمايتهم وذلك لأن خير دفاع عنهم،كان يتمثل في كريم عاداتهم، وفي حب الشعب لهم ، وميل مجلس الشيوخ اليهم . وسنجد أيضاً في حالات كاليغولا ، ونيرون وفيتيليوس وغيرهم من أباطرة السوء،كيف ان حشدهم الجيوش من الشرق والغرب ، لم يجدهم فتيلاً في انقاذهم من الأعداء الذين خلقوهم بدافع عاداتهم السيئة وحياتهم الشريرة .

ولو أمعن الأمراء النظر في تاريخ هؤلاء الأباطرة، لاتخذوا منه عبرة واضحة ولجعلهم يتعلمون التمييز بين الطرق المؤدية إلى الشهرة والطرق المؤدية إلى العار ، وكذلك بين السبل المؤدية إلى الأمن ، وتلك التي تقود إلى الخوف . فبين الأباطرة الستة والعشرين الذين حكموا بين قيصر وبين مكسيمينوس ، اغتيل ستة عشر امبراطوراً ، ولم يمت منهم ميتة

---

١ اسم متآمر كبير من رومة تحدثنا عنه في مكان لاحق من هذه الهوامش .

٢ اسماء عدد من اباطرة روما . وقد اشتهر أمرهم بعد زوال العهد الجمهوري .

— المعرب —

طبيعيـة إلا عشرة . وحتى لو ان بعض الذين قتلوا كانوا من الناس الطيبين كغالبا وبرتيناكس ، فأن موت هؤلاء إنما نجم عن حالة الفساد التي استشرت في عهد أسلافهم بين الجنود . وإذا كان بين الذين ماتوا ميتة طبيعية ، رجل شرير كسيفيروس مثلاً ، فأن هذا يجب ان يعزى إلى حسن حظه أولاً ،وإلى « فضيلته » (المقصود بالفضيلة هنا الشجاعة). وهما أمران،لا يتمتع بهما اي انسان في وقت واحد إلا نادراً . وتتضح من تلاوة تاريخ هؤلاء الأباطرة ، الأسس الصحيحة التي يجب ان تقوم عليها الممالك الطيبـة ، وذلك لأن جميع الاباطرة ، الذين وصلوا الى الحكم ، عن طريق الوراثة،كانوا من الرجال السيئين باستثناء تيتوس ، أما الذين وصلوا اليه عن طريق الاختيـار ، فقد كانوا جميعهم من الطيبين ، وهو قول يصدق على الاباطرة الخمسة الذين حكموا بين نيرفا وماركوس . وعندما انتقل الحكم إلى ورثتهم ، عادت فترة من التدهور والانحطاط إلى الظهور .

فلنضع أمام أي أمير تاريخ الفترة بين نيرفا وماركوس ، ولنطلب اليه المقارنة بين تاريخ هذه الفترة ، وتاريخ الفترتين اللتين سبقتاها وتلتاها ، ولنترك اليه أمر الخيار ، في تقرير الفترة التي كان يؤثر لو ولد فيها ، ولو اتيح له ان يصبح امبراطوراً فيها . ولا ريب في انه سيجد في الفترة التي كان يحكم فيها امراء طيبون، ان الامير كان يشعر بالامان والاطمئنان في حكمه لرعية لا تقل عنه أمناً واطمئناناً ، وفي عالم مفعم بالسلام والعدالة . وسيجد ان سلطة مجلس الشيوخ كانت تحترم كل الاحترام ، وان القضاة كانوا يلقون التبجيل والاعزاز ، وان كل شيء يسير سيراً هيناً رخياً . وسيلاحظ من الناحية الاخرى ، عدم وجود الرذائل والشهوات والرشوة والطموح ، وان كل انسان في هذا العصر الذهبي حر في اختيار الرأي الذي يريد والدفاع عنه . وسيرى باختصار العالم في حالة انتصار ، والامير في وضع من التمجيد والاحترام يلقاه

به الجميع ، إذ ان الشعب يحبه ويعيش بأمان في ظله .

أما اذا تطلع بنفس العين الفاحصة الخبيرة ، الى الاوقات التي حكم فيها الاباطرة الآخرون فسيجدها وقد تخبطت في الحروب ، وتمزقت من جراء الخلافات ، وافعمت بالوحشية في أوقات الحرب والسلم على حد سواء ، وسيجدان الأمراء كثيراً مـا يغتالون على أيدي القتلة ، وان الحروب الاهلية والخـارجية كثيراً ما تتكرر ، وان ايطاليا تعيش في ضنك وعناء ، فريسة النوائب الجديدة ، وقد تهدمت مدنها وتعرضت للنهب والسلب . وسيرى رومـة وقد احرقت ، وكابيتولها وقد دمره مواطنوها ، ومعابدها القديمة العريقة وقد هجرها أهلهـا ، والطقوس الدينية وقد فسد أمرها، وانتشرت الدعارة في جميع ارجائها . وسيجدان البحار قد غصّت بالمبعدين ، وصخور شطآنها وقد صبغتها الدماء باللون القاني . وسيرى في رومة ارتكاب الفظائع التي لا عد لها ولا حصر ، وقد نظر الناس الى مراتب الشرف والثروات الكبيرة ، والأوسمة التي كسبها البعض عن جدارة وحق ، والفضيلة ، وكأنها كلها ، جرائم كبرى تستحق العقاب . وسيجد المجرمين يكافأون ، والخدم وقد غروا فانقلبوا على سادتهم ، والعبيد الذين اعتقوا قبل مـدة قصيرة ، وقد اداروا ظهر المجن لاولياء امورهم ، واولئك الذين لا اعداء لهم وقد تعرضوا لهجوم اصدقائهم . وسيعرف آنذاك ، وهو سعيد ، كم تـدين رومة وايطاليا والعالم بأسره لقيصر .

وليس ثمة من شك ، في ان كل مخلوق بشري سيخشى من تقليد ايام الشر تلك ، وستحفزه رغبة ساعرة ، للسير على منوال ايام الخير . واذا كان ثمة من امير ينشد الشهرة العالمية الداوية ، فعليه ان يطمع في الاستيلاء على مدينة فسد أمرها ، لا ليحذو فيها حـذو قيصر ، فيتم عليها فسادها ، بل ليسير على منوال روملوس عاملاً على اصلاح امرها. وليست هناك في الحقيقة من فرصة تمنحها السماء خيراً من هذه الفرصة

للوصول الى الصيت الداوي ، وليس ثمة من شيء يتوق اليه الانسان ، أفضل من هذه الفرصة . وإذا وجد امير يعتزم اصلاح مدينة من المدن نفسه ملزماً بالتخلي عن منزلته ، ليتمكن من القيام بالعمل الذي ينتويه على خير ما يرام ، فان تخليه يعتبر عملاً يستحق الثناء العاطر ، مع ان له كل ما يبرر سلوكه لو تراجع عن عملية الاصلاح هذه ، على اعتبار انها ستكلفه رتبته التي هو فيها . ولكن هذا المبرر ينعدم حتماً اذا كان قادراً على الاحتفاظ برتبته والقيام بعملية الاصلاح في وقت واحد .

وختاماً ، على اولئك الذين تتيح لهم السماء مثل هذه الفرص ، ان يفكروا بأن ثمة سبيلين امامهم ، إما السلوك سلوكاً يضمن لهم الأمن والسلامة في حياتهم ، والسمعة العاطرة في مماتهم ، او السير في سبيل يجعلهم يقضون حياة دائمة من العنت والضيق ، ويحفظ لهم بعد موتهم سجلاً لا يمحي من العار والشنار .

الكتاب الاول
المطارحات من ١١ ـ ١٥

الـــدّين

١١

عن ديانة الرومان

على الرغم من ان روملوس ، كان أول من هيأ لرومة دستورها ، وهي المدينة له بخلقها ، وتنشئتها ، الا ان العناية السماوية رأت ان التنظيمات التي وضعها روملوس لم تكن كافية لمثل هذه الامبراطورية العظيمة ، فأوحت إلى مجلس شيوخ رومة باختيار نوما بومبيليوس ، خليفة لروملوس ، ليكمل ما لم يستطع سلفه اتمامه ووضعه . ولما رأى هذا ، ان الشعب شديد العنف والقسوة ، رغب في حملهم على تعوّد الطاعة المدنية مشتركة مع فنون السلام ، فالتفت إلى الدين ، كالأداة

اللازمة تبل ايـة أداة .اخرى ، للحفاظ على وجود الدولة المتحضرة ، وهكذا وضع لهم دينهم بشكل ضمن ان لا يُخاف الله ، في اي مكان آخر ، طيلة قرون عدة كما يُخاف في هذه الجمهورية .

وكان الدين هو الذي ذلل لمجلس الشيوخ ، ولرجال رومة العظام المشاريع التي عزموا على القيام بها . وكل من يدرس تاريخ العديد من المآثر التي قام بها شعب رومة كمجموع ، او الكثيرون من الرومان كأفراد ، يرى ، بأن أهل هذه المدينة كانوا اكثر خوفاً من الحنث بيمين ، من مخالفة القانون ، إذ انهم يجلون سلطان الله ، اكثر من اجلالهم لسلطان الانسان . ويبدو هذا القول واضحاً في تصرفات كل من شيبيو ومانليوس توركواتوس . فبعد الهزيمة التي اوقعهـا هانيبال بالرومان في معركة كاني ، قرر الكثيرون من اهل المدينة اثر اجتماع عقدوه ، وساده اليأس من الوطن ، الهجرة من ايطاليا ، والانتقال الى صقلية . وعندما سمع شيبيو بذلك ، راح يبحث عن المجتمعين ، وقد انتضى سيفه بيده،وارغمهم على ان يقسموا على عدم التخلي عن بلادهم. اما القصة الثانية ، فهي ان ماركوس بومبونيوس ، المدافع عن حقوق الشعب (التريبون) ، وجه اتهاماً الى لوكيوس مانليوس ، والد تيتوس مانليوس الذي لقب فيما بعد بتوركواتوس . وقبل ان يصل الاتهـام الى طور المحاكمة ، مضى تيتوس الى ماركوس ، وهدده بالقتل ، اذا لم يقسم على سحب الاتهام الذي وجهه الى ابيه ، وارغمه على ان يقسم يميناً بهذا المعنى.واضطر ماركوس احتراماً منه ليمينه الى سحب الاتهام . وهكذا فأن هؤلاء المواطنين الذين لم يكف حبهـم لبلادهم ولا اطاعتهم لقوانينها لحملهم على البقاء في ايطاليا ، قد ارغموا على البقاء ، لأنهـم اقسموا عليه يميناً تحت الاكراه . وهكذا طرح احد حماة الشعب الكره الذي يحمله للوالد جانباً محتملاً الاجحاف الذي انزله الابن به . ومعرضاً شرفه للضياع ، حرصاً منه على احترام قسمه . والفضل كل الفضل في

ذلك ، يرجع الى الديانة التي ادخلها نوما الى المدينة .

وسيرى اولئك الذين يهتمون بالتاريخ الروماني ايضاً كيف كان الدين عاملاً مساعداً في السيطرة على الجيوش وفي تشجيع العامة على اخراج افضل الرجال وفي إلحاق العار بأسوإهم . واذا تحتم علينا ان نقرر ما اذا كانت رومة مدينة اكثر لأميرها روملوس او لأميرها نوما ، فأنني ارى ان الاخير يجب ان يحتل المقام الاول . فحيث يوجد الدين يصبح من السهل تعليم الناس على استخدام السلاح ، اما حيثما توجد الاسلحة، ولا يكون ثمة وجود للدين ، يضحي من الصعب ادخاله ونشره.وهكذا يستطيع المرء ان يرى ان روملوس في اقامته لمجلس الشيوخ ، وايجاده عدداً من المنظمات المدنية والعسكرية لم يجد من الضروري نشدان السلطة الدينية المقدسة . أما نوما فقد رأى ان هذه السلطة لازبة لا بد منها ، ولذا فقد زعم انه عقد عدة اجتماعات خاصة مع احدى « الحواري » وان هذه « الحورية » بعينها هي التي أرشدته الى ما يجب ان يسديه الى الشعب من نصائح . ولقد كانت رغبته في إدخال تنظيمات جديدة لم تكن المدينة قد الفتها هي السبب فيما عمله لا سيما وأنه كان في شك من كفاية سلطته الخاصة على تحقيق ذلك .

ولم يكن هناك في الحقيقة مشرع واحد ، جاء بقوانين غريبة الى أي شعب من الشعوب ، لم يلجأ الى القول بأن الله ، هو الذي أمر بها . اذ لو لم يلجأ الى هذا السبيل ، لما قبلت قوانينه ، وذلك لأن الكثير من الفوائد التي يحس بها الانسان العاقل لا تكون واضحة جلية لكل عقل ، بحيث يتمكن من اقناع الآخرين بهـا . وهذا هو الذي يدفع الحكماء ، تجنباً منهم لهذه الصعوبة ، الى اللجوء الى ذريعة الله . فهذا ما فعله ليكرجوس ، وصولون ، وكثـير غيرهم من الرجال الذين استهدفوا نفس الغاية . وهكذا فقد قبل الشعب الروماني وهو فرح بطيبة نوما ورجاحـة عقله القرارات التي اتخذها . وصحيح ان يقال ، ان

الاوقات التي عاش فيها كانت مشبعة بالروح الدينية ، وان الناس الذين اضطر للتعامل معهم ، كانوا على نحو من البلادة بحيث اسهموا اسهاماً كبيراً في تذليل مهمته لتحقيق مشاريعه ، وتسهيل غايته في التأثير عليهم بالاشكال الجديدة التي اقترحها ، ومما لا ريب فيه ايضاً ، ان كل من ينشد اقامة جمهورية في العصر الحاضر، يجد ان من الاسهل عليه اقامتها بين أهل الجبال من غير المثقفين على ان يقيمها بين سكان المدن حيث بلغت الحضارة مرتبة الفساد ، تماماً كما يجد « المثّال » ان من الاسهل عليه نحت تمثال جميل من الرخام الخام ، على ان ينحته من الرخام الذي سبق لعامل مفرّط في عمله ان اتلفه .

وعلى ضوء كل ما تقدم من درس ، فانني استنتج تبعاً لذلك ، بأن الدين الذي أوجده نوما كان من الاسباب الأولية في إسعاد رومة فقد عني هذا الدين اقامة عدد من التنظيمات الطيبة التي أدت بدورها ، الى الكثير من حسن الطالع ، وقد نشأت النتائج السعيدة للمشاريع من هذا الطالع الحسن . وكما ان احترام العبادة السماوية يكون مصدر العظمة في الجمهوريات ، فان اهمال هذه العبادة يؤدي الى خرابها . فمن المعروف انه حيث يوجد الافتقار الى الخوف من الله ، تكون المملكة اما قد اصابها الخراب ، أو سيطر عليها الخوف من الأمير ، وهو خوف يستعاض به عن الافتقار الى الدين . ولما كانت اعمار الامراء قصيرة ، فقد يحدث كثيراً عندما تفقد المملكة اميرها ، ان تفقد ايضاً الفضيلة التي كان يتحلى بها . وهكذا فان الممالك التي ترتكز الى فضيلة رجل واحد ، لا يقدر لها ان تعمر طويلاً ، اذن ان هذه الفضيلة تزول بموت هذا الرجل، ومن النادر ان تبعث في خلفه ، طبقاً لما قاله دانتي (١) ،

١ دانتي الليجييري (١٢٦٥ – ١٣٢١) ، شاعر ايطاليا الكبير في عصر النهضة . كان ينتمي إلى عائلة نبيلة ، اشتهر بغرامه بفتاة تدعى بياتريس خلدها في شعره . درس الاغريقية و اللاتينية و الفلسفة . لعب دوراً في حياة فلورنسة السياسية . نفي عدة مرات . من اشهر روائعه الكوميديا الالهية ، والجحيم . – المعرب –

بواسع حكمته وكبير عقله ...

يندر ان ترتفع القيمة الانسانية :

الى الاغصان العالية ، وذلك لأن ارادة خالقها

شاءت ان تكون هذه الأغصان هبتها الى الانسان .

وعلى هذا لا يعتمد أمن اية جمهورية او مملكة ، على الحاكم فيها ، الذي يقوم على الأمر طيلة حياته بمنتهى التعقل والحكمة ، وانما على تنظيمه بحيث ، اذا ما مات ، امكن لهذه الجمهورية او المملكة ان تحافظ على وجودها . وعلى الرغم من ان من الاسهل اقناع « الخام » . من الناس ، بتقبل نظام جديد ، او وجهة نظر جديدة ، فليس من المحتوم ان يستحيل اقناع « المهذبين » منهم بمثل هذا التقبل ، أي اولئك الذين لا يعتبرون أنفسهم من النوع « الخام » . وبالطبع لم يكن أهل فلورنسة يعتبرون انفسهم من الجهلة أو من الفئة « الخام » ، ومع ذلك فقد تمكن الراهب جيرولامو سافونارولا (١) من اقناعهم بأنه يتحدث الى الله . وانا لا اقصد ان اقرر ما اذا كان قد تحدث الى الله فعلاً او لم يتحدث ، اذ ان على الانسان ان يتطلع الى مثل هذا الرجل العظيم بعين الاحترام والاجلال ، ولكنني اقول ، بأن الكثيرين قد آمنوا بقوله ، دون ان يروا منه أي عمل ، يخالف المألوف ، ويحملهم على هذا الايمان ، وذلك لان حياته وتعاليمه والمواضيع التي كان يطرقها فيها ، كانت كافية لبعث الثقة به في نفوسهم ، وعلى هذا يجب ان لا يقنط أي انسان من القدرة على التأثير بما سبق لغيره ان أثروا به . ولقد ذكرت من قبل في المقدمة ان الناس يولدون ويعيشون ويموتون في

---

١ جيرولامو سافونارولا (١٤٥٢ - ١٤٩٨) ، مصلح ايطالي وواعظ . ولد في فيرارا ، لجأ إلى دير للآباء الدومنيكان في بولونيا وعاش راهباً خمسة عشر عاماً ، انتقل إلى فلورنسة وأخذت الجماهير تفد للاستماع إلى عظاته ، اتهم بالهرطقة وحرمه البابا . أصبح حاكماً في فلورنسة ثم اودع السجن وشنق واحرق . يعتبر من أوائل دعاة الاصلاح الديني . — المعرب —

نسق واحد ، لا يتبدل ولا يتغير .

١٢

أهمية اعتبار الدين وتقديره ، وكيف تعرضت ايطاليا للخراب بسبب الافتقار اليه لولا الكنيسة الكاثوليكية

على كل من يرغب من الأمراء والجمهوريات في البقاء في نجوة من الاحتلال، ان يحتفظ بنقاء طقوس الديانة التي يؤمن الأمير او الجمهورية بها ، وان يحلها محل الاجلال دائماً ، اذ لا دليل اصدق على انحطاط أي بلد من البلاد من رؤية العبادة السماوية فيها موضع الاهمال وعدم الاكتراث .

ومن السهل فهم هذه الحقيقة شريطة ان يعرف المرء الأساس الذي تقوم عليه ديانة وطنه ، اذ ان لكل دين اسس حياته متأصلة الجذور في احدى مؤسساته . وهكذا فقد ارتكزت الحياة الدينية للسادة على اجوبة العرافين وعلى مجموعة من راجمي الغيب والمنجمين . وكانت جميع طقوس هذه الحياة ، وما يقدم فيها من قرابين ، ويقام فيها من احتفالات ، تعتمد على هذه الأمور نفسها ، اذ من السهل على الانسان ان يصدق ان الله الذي يستطيع ان يتنبأ لك بمستقبلك ، سواء اكان حسناً او سيئاً ، يستطيع ايضاً تحقيق هذا المستقبل . وعلى ضوء هذا فقد اقيمت هياكل ، يقدم فيها الاجلال للآلهة عن طريق القرابين والابتهالات ومختلف انواع الاحتفالات ، كما وجدت عرافة ديلوس

(Delos) (١) ومعبد جوبيتر (Jupiter) (٢) وعرافة آمون(٣) وغيرهن من العرافات والكهنة ، الذين ملأوا العالم بالأعاجيب وبالقداسة. ولكن عندما شرع العرّافون في قول ما يسر الاقوياء فحسب ، وعندما اكتشف الشعب هذا التضليل ، أخذ يشك في حقيقتهم وبدأ يميل الى هدم كل منظمة طيبة .

ولهذا يتوجب على حكام اية جمهورية او مملكة ، ان يحافظوا على المبادىء الاساسية للديانة التي تصون لهم وجودهم ، واذا ما عملوا هذا، سهل عليهم ان يصونوا تديّن دولتهم ، مما يؤدي إلى الحفاظ عليها متحدة طيبة . وعليهم ايضاً ان يسندوا وان يشجعوا كل ما يمكن له ان يساعدهم على تحقيق هذه الغاية ، حتى ولو كانوا غير مقتنعين بصحة غايتهم هذه . وكلما اكثروا من عملهم هذا ، كلما زاد تعقلهم ، وزادت معرفتهم بقوانين الطبيعة . ولقد نشأ الايمان بالمعجزات بفضل الحكماء الذين اخذوا بهذا الرأي ، حتى ان هذه المعجزات تحتل مكان التقدير لدى الديانات الباطلة ، إذ مهما كان الاصل الذي تدين له هذه المعجزات ، فأن العقلاء من الناس ، استغلوها اكبر استغلال ، وحملت سلطتهم الناس على الايمان بها .

ولقد حدث الكثير من هذه المعجزات في رومة، وبينها تلك المعجزة التي وقعت عندما كان الجنود الرومان ينهبون مدينة في . فلقد مضى

---

١ اسم جزيرة صغيرة في بحر ايجه ، وكان يقال عند قدماء الاغريق ان الالهين ديانا و ابولا يقيمان فيها . وقد أقيم فيها معبد ما زالت آثاره باقية حتى اليوم .

٣ كبير الالهة عند الرومان ، و يقابله زيوس عند الاغريق . و يقال انه تزوج الالهة يونون « جونو » .

٣ عرافة الاله آمون راع عند قدماء المصريين ، وكان معبده في طيبة . و يمثل دائماً على شكل رأس كبش . — المعرب —

بعض الجنود الى معبد الآلهة جونو (Juno)(١) وخاطبوا صورتها قائلين « أتريدين الذهاب الى رومة ؟ » . وخيل الى البعض منهم انها احنت رأسها موافقة ، وخيل للبعض الآخر انها اجابت بنعم . والسبب في ذلك ، ان الدين كان عميق الجذور في نفوسهم ، وكما يقول ليفي، انهم عندما دخلوا المعبد ، لم يحدثوا اية ضجة،وسلكوا سلوك الاتقياء ، وابدوا كل احترام واجلال . وعلى هذا الاساس فقد خيل اليهم انهم استمعوا الى الرد الذي ارادوه من الآلهة ، واعتبروه شيئاً واقعاً ، عندما تقدموا منها . وقد شجع كاميلوس وغيره من حكام المدينة مثل هذه العقائد ومثل هذا الايمان ، وعملوا على تعزيزهما بقوة .

ولو احتفظ حكام الدول المسيحية بالروح الدينية التي رسمها لنا مؤسس المسيحية ، لكانت دول النصرانية وجمهورياتها في وضع اكثر اتحاداً، واكثر سعادة مما هي عليه الآن . ولو أراد احد ان يخمن الاسباب التي ادت الى تدهور هذه الروح الدينية ، لما وجد خيراً من التطلع الى تلك الشعوب التي تعيش على مقربة من كنيسة رومة ، وهي رأس ديانتنا ، اذ يرى ان الدين اضعف لديها منه عند غيرها من الشعوب البعيدة . ولو درس المرء ديانتنا كما كانت عليه عند ظهورها ، ثم رأى مدى الخلاف الذي يقوم بينها وبين ما هو واقع اليوم ، لتوصل حتماً إلى النتيجة القائلة بأن ديانتنا تقترب اما من الدمار او من الكارثة .

ويرى الكثيرون ان ازدهار المدن الايطالية راجع الى كنيسة رومة ، ولكنني اختلف مع هذا الرأي ، وسأقدم معارضاً اياه ما يحضرني من البراهين والأدلة ، وبينها دليلان على درجة من القوة بحيث لا يستطيع انسان،في رأيي ، مناقضتها او تفنيدهما. واول هذين الدليلين،ان ايطاليا

---

١ من الهة الرومان وهي تعادل عند الاغريق هيرا ، ويسميها العرب يونون،وهي ابنة زحل من زوجته ريا ، وقد تزوجت من جوبيتر (المشتري) ، وكانوا يسمونها ملكة السماء والارض وحامية النساء من آلام المخاض . – المعرب –

قد خسرت بتأثير المثل السيء الذي يقدمه بلاط رومة كل اجلال للدين. وقد نجم عن هذا الواقع عدد لا يحصى من المتاعب والفتن ، إذ حيثما يسود الدين يمكن الافتراض كشيء مسلم به ، ان الامور تسير على ما يرام ، وحيثما يوجد الافتقار للدين ، يستطيع المرء افتراض العكس . وهكذا فأن اول ما ندين به نحن الايطاليين للكنيسة ورجالها ، هو اننا صرنا ملحدين ومعوّجين .

ولكننا ندين للكنيسة ورجالها بشيء اعظم ، ولعله هو السبب الثاني فيما لحق بنا من خراب . فالكنيسة هـي التي جزّأت ايطاليا وما زالت تحافظ على تجزئتها . ومن الحق ان يقال ، ان اية بلاد تشعر بنعمة الوحدة وبالسعادة ، إلا إذا كانت كلها تحت سيطرة حكم جمهوري واحد او امير ، كما هي الحالة في فرنسا واسبانيا . ولا ريب في ان السبب في عدم وجود مثل هذا الوضع ، اي الجمهورية الواحدة او الامارة الواحدة في ايطاليا كلها ، يعود حتماً وإطلاقاً للكنيسة . إذ على الرغم من وجود مقر للكنيسة في ايطاليا ، ومن وجود سلطانها الدنيوي فيها ، إذ ان سلطانها هذا او فضيلتها لم يكونا في يوم ما من القوة بحيث يمكنانها من إخضاع الطغاة الايطاليين لحكمها ، ومن إعلان نفسها اميرة عليهم جميعاً ، كما انها لم تكن من الناحية الاخرى في يوم من الأيام على ذلك النحو من الضعف الذي لا يمكنها عندما تخشى ضياع سيطرتها على الامور الدنيوية ، من دعوة إحدى الدول الاجنبية للدفاع عنها ضد تلك الدولة الايطالية التي غدت قوية اكثر مما تريد هي لها . وهناك امثلة وافرة على هذه الحقيقة في الايام التي خلت . فقد تمكنت الكنيسة مثلاً بمساعدة شارل الاكبر ، من طرد اللومبارديين الذين كانوا قد اقاموا طرازاً من الملكية في جميع ربوع ايطاليا . وقد انتزعت في ايامنا هذه من البندقية سلطانها بمساعدة الفرنسيين، ثم استعانت بالسويسريين فيما بعد على إخراج الفرنسيين .

وهكذا فان الكنيسة لم تكن في يوم ما قادرة على احتلال ايطاليـا بأسرها ، كما لم تسمح لغيرها باحتلالها . وعلى هذا فقد كانت السبب في الحيلولة دون وجود ايطاليا تحت حكم رأس واحد ، وجعلها موزعة بين عدد من الامراء والسادة الذين جاءوا لها بالفرقة والضعف حتى انها غدت فريسة لا للاقوياء من البرابرة فحسب بل لكل من يهاجمها . وعلينا نحن الايطاليين ان نشكر الكنيسة دون غيرها ، على هذا الوضع السيء . ولو اراد أي انسان ان يقيم الدليل على صحة هـذا القول ، بالتجربة العملية،فانه سيكون في حاجة الى قوة تضمن تمكنه من اخراج « بلاط رومة » وما يملكه من سلطة في ايطاليـا وارساله للاقامة في الاراضي السويسرية ، التي يعيش اهلها حتى الآن ، مع احترامي للدين وللمنظمات العسكرية التي يملكونها ، على النحو الذي كان يعيش فيـه الاقدمون . وسيجد هذا الانسان ان شرور هذا البلاط ، ستخلق قبل انقضاء عهـد طويل ، من الفتن في تلك البلاد اكثر مما ألحقته بها أية احداث ، في أي وقت من الاوقات .

١٣

الطرق التي استخدم الرومان الدين فيهـا لاعادة تنظيم مدينتهم ، وتنفيذ مشاريعهم وتهدئة الفتن الـتي تعرضوا لهـا

قد لا يبدو غريباً على الهدف الذي اسعى اليه ان اقدم دليلاً آخر ، يظهر كيف استخدم الرومـان الدين في اصلاح احوال مدينتهم وفي

المضي في حروبهم . وفي تاريخ تيتوس ليفي ، عدد ضخم من هـذه الامثلة . ولكنني سأكتفي بواحد منها . لقد خلق الشعب الروماني نظام المدافعين عنـه او حماته (التربيون) ، ومنحهم صلاحيات القناصل ، وكانوا جميعاً من ابناء الطبقة العامة ، باستثناء واحد فقط ، وتعرضت رومة في نفس العام الذي خلق فيه هذا النظام للطاعون والمجاعة.وظهرت في الوقت نفسه عدة « هالات » اعتبرت نذير شؤم . وقد اهتبل النبلاء هذه الفرصة عند التعيين التالي لحماة الشعب ، فقالوا ان الآلهة غضبت على رومة لانها اساءت استخدام جلال السلطة الممنوحة لها ، وان الطريقة الوحيدة لارضاء الآلهة ، هي اعادة انتخاب هؤلاء الحماة ، الى وضعه الصحيح . وكانت النتيجة ان العامة ، وقد ارعبهم هذا اللجوء الى الدين اختاروا حماتهم من النبلاء تلك المرة .

ويلاحظ المرء في حصار مدينة فيي (Veii) كيف ان قادة الجيش استخدموا الدين لحمل جنودهم على مواصلة الهجوم . وكانت مياه بحيرة ألبا في ذلك العام قد ارتفعت عن مستواها العادي ، وكان الجنـود الرومان ، وقد انهكهم طول الحصار ، راغبين في العودة الى رومة ، عندما اكتشف بان الاله « ابولو » وعدداً من العرافين كانوا قد قالوا بأن مدينة فيي ستحتل في العام الذي ترتفع فيه مياه بحيرة ألبا . وقد دفع هذا النبأ الجنود الى احتمال متـاعب الحصار ، وذلك لانهم غدوا واثقين من احتلالهم للمدينة.وهكذا مضوا في هجومهم في إصرار وعزم، إلى ان عين كاميلوس ديكتاتوراً ، فاقتحم المدينة واحتلها بعـد حصار دام عشر سنوات . وهكذا عمل الدين ، عندما أحسن استعماله ، على المساعدة في احتلال المدينة ، وفي اعـادة مراكز « حماة الشعب » الى النبلاء ، وهما أمران كان من العسير تحقيقهما دون هذه الوسيلة .

وأرى ان لا أنسى اضافة مثل آخر ، له مساس كلي بهذا الموضوع. فلقد نشبت في رومة سلسلة من الفتن ، اثارها تيرنيتيلوس ، وهو أحد

حماة الشعب ، وذلك لانه أراد ان يقترح قانوناً معيناً لاسباب سأسردها، في مكانها المناسب فيما بعد . وكان الدين بين أول الوسائل التي لجأ اليها النبلاء لعلاج الحالة ، وقد استغلوه في ناحيتين ، اولاهما انهم دفعوا بأحد الناس للبحث في الكتب « السيبلية » (١) ليقول انها اخبرته انه بالنظر الى وجود تمرد في المدينة ، فانها ستتعرض الى خطر ضياع حريتها في ذلك العام نفسه . وعلى الرغم من ان حماة الشعب كشفوا عن الخدعة ، الا انها بعثت الخوف في صدور العامة الى الحد الذي حملهم على التقاعس عن اتباع قيادة حماتهم .

وكانت الناحية الثانية التي لجأوا الى استخدام الدين فيها ، عندما قام ابيوس هيردونيوس على رأس حشد من المبعدين والعبيد يقدر عدده بأربعة آلاف رجل ، بالاستيلاء على الكابيتول في ظلمة الدجي ، مما بعث الرعب في قلوب الشعب مخافة ان تأتي قبائل «ايكوي» (٢) و «الفولسكي» (٣) وهي اشد اعداء رومة ، فتحتل العاصمة . وعلى الرغم مما وقع فان حماة الشعب،واصلوا الاصرار على سن القوانين «التيريتيلية» (٤) زاعمين

---

١ نسبة إلى سيبيل (Sibyl) وهو اسم يطلق في الاساطير القديمة على بعض كاهنات الاله ابولو ، وعرافاته ، وكانت أقوال هذه العرافات تسجل في رقوق تدعى الكتب . وكان القادة والعظماء يسعون إلى الحصول عليها لتوجيه أعمالهم .

٢ قبائل الايكوي (Aequi) – هي قبائل قديمة أقامت في ايطاليا و شنت حروباً عدة على الجمهورية الرومانية الحديثة . وكان جبل الجيدوس أهم قلاعهم . وقاموا بآخر هجوم على رومة عام ٤٤٦ ق. م. و قد أخضعهم الرومان أخيراً بعد عام ٣٠٤ ق. م.

٣ قبائل الفولسكي (Volsci) – أقوام ايطالية قديمة كانت تقيم في شرق لايتوم ... وقد اشتبكت في حروب طويلة مع الرومان في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد وكانت تحالف دائماً الايكوي و تم اخضاعها عام ٣٣٨ . م.

٤ تير ينتيليه (Terentellian) نسبة إلى تيرينتيلوس احد حماة الشعب (التر بيون)، الذي أراد سن قانون لمصلحة الشعب . – المعرب –

بأن الفتنــة التي وقعت لم تكن الا مجرد اختلاق ، وانها اكذوبة من الاكاذيب . وهب من صفوف مجلس الشيوخ رجــل يدعى بوبليوس روبيريوس ، عرف بميله الى الجد وبواسع سلطته ، فألقى خطاباً،جمع بين الود والتهديد ، واشار فيه الى الاخطار التي تتعرض لها المدينــة والى ان مطالب العامة في غير محلها ، وبلغ من شدة تأثيره انـه حمل العامــة على ان يقسموا على اطاعة القرار الذي يتخذه القنصل ، مما أدى بالنتيجة الى قيامهم، مطيعين امــر القنصل ، باستعادة الكابيتول عنوة . ولقد قتل القنصل بوبليوس فاليريوس على أي حال اثناء الهجوم، وعين تيتوس كونيتيوس خلفاً له ، فأصدر أمره للعامــة ليصرفهم عن الراحة وعن التفكير في القانون المشار اليه ، بمتابعة الهجوم وتوجيهه ضد قبيلة « الفولسكي » زاعماً ان القسم الذي اقسموه ، بعدم التخــلي عن القنصل ، يربطهم بطاعته هو . واعترض حماة الشعب على ذلك ، على اعتبار ان القسم قد اعطي للقنصل المتوفى،لا له . ولكن المؤرخ تيتوس ليفي ، يظهر ان العامة ، احتراماً منهم للدين ، آثروا اطاعـة القنصل على تصديق حماتهم،ويستخدم بالنيابة عن الديانة القديمة هذه العبارات : « ولم يكن هناك حتى ذلك الوقت ، ذلك الاهمال للآلهة السائد الآن في العالم ، كما لم يكن الفرد يفسر الاقسام والقوانين وفق هواه » . وقـد دفع هذا الوضع الحماة الى الخوف عــلى مركزهم كله ، فوافقوا على الاذعان للقنصل ، وعلى عدم اثارة موضوع القانون سنة اخرى . ووافق القناصل بدورهم على عدم توجيه العامة للحرب سنة كامــلة . وهكذا مكن الدين مجلس الشيوخ من التغلب على هذه المتاعب ، التي لولاه لما تمكنوا من تذليلها ابداً .

١٤

الرومان يفسرون النذر وفق حاجاتهم ، وكانوا من الحكمة بحيث يتظاهرون بالتمسك بالدين عندما يرغمون على تجاهله ، ويعاقبون الطائشين الذين يحطون من قدره

لم تكن العرافة الى حد كبير ، الأساس الذي تقوم عليه ديانة السادة القديمة فقط ، كما لاحظنا في « مطارحة » سابقة ، بل كانت ايضاً المسهمة الى حد بعيد في سعادة الجمهورية الرومانية ورخائها . وهكذا فقد عنى الرومان بها اكثر من عنايتهم بأية منظمة اخرى في جمهوريتهم. وكانوا يستخدمونها في انتخاب القناصل ، وفي الاقدام على المغامرات العسكرية ، وفي قيادة جيوشهم ، وفي الاشتباك في المعارك وفي جميع مشاريعهم المهمة الاخرى ، المدني منها والعسكري ، ولم يكونوا يشرعون في أية حملة من الحملات الا بعد ان يكونوا قد اقنعوا قواتهم بأن الآلهة قد وعدتهم بالنصر .

وكان بين الأسس الأخرى للعرافة ، تعيينهم في جيوشهم عدداً معيناً من الموظفين الذين تقوم مهمتهم على جمع الفؤول أو البشائر ، ويطلق عليهم اسم « رجال الطير » ، فكانوا عندما يرغبون في تحديد اليوم للاشتباك مع العدو ، يطلبون الى هؤلاء الرجال ، القيام بجمع البشائر . فاذا قامت الطيور بالتقاط الحب ، فان نتائج العرافة تكون مطمئنة تدعو الى التفاؤل ، وآنذاك يهرعون الى الحرب ، اما اذا امتنعت عن ذلك ، فانهم يتوقفون عن خوض المعركة . وكانوا مع ذلك ، عندما يتطلب العقل منهم ان يقوموا بعمل ما ، لا يترددون عن القيام به ، حتى ولو جاءت الفؤول عكسية ، ولكنهم كانوا حاذقين في اقوالهم واعمالهم ،

عندما يرغبون في اضفاء صورة معوجّة ، الى درجة لا تظهرهم بمظهر من يقوم بأي عمل يخالف أوامر الدين .

وقد استخدم بابيربوس القنصل مثل هذا الحذق،في معركة مهمة خاضها مع السمنيين (Samnites) (١) ،الذين غدوا بعدها ولا حول لهم ولا طول. فلقد كان بابيريوس معسكراً برجاله أمامهم ، وبدا له انه اذا ما خاض معركة معهم ، فسينتصر حتماً ، ولذا فقد طلب الى « رجال الطير » جمع الفؤول لتحديد اليوم الذي سيخوض فيه معركته . ولكن الطير لم تقبل على التقاط الحب . ولاحظ رئيس هؤلاء الرجال ، ان الجيش اللجب ، قد اصبح على أهبة خوض المعركة،وقد اتخذ صفوفه لخوضها، وان أفراد هذا الجيش كانوا جميعاً يؤمنون كقائدهم في انتصارهم . ورأى ان لا يحرم الجيش من مثل هذه الفرصة الرائعة ، لتحقيق العمل المقبل عليه ، فبعث الى القنصل يقول ان نتيجة العرافة ملائمة ، وهكذا أصدر بابيريوس أمـــره الى جنوده بالهجوم . وفي غضون ذلك ، كان البعض من « رجال الطير » قـد أفشوا الى بعض الجنود ان الطـــير لم يلتقط الحب،كما ابلغوا الحقيقة الى سبيريوس بابيريوس ابن اخي القنصل، الذي نقل النبأ بدوره الى عمه.وهنا طلب اليه القنصل ان يهتم بشؤونه،وان يكون حريصاً على الاهتمام بها . اما بالنسبة اليه والى جيشه فلقد كانت العرافة طيبة ، اما اذا كان رجل الطير قد كذب ، فأنه سيتأكد من ذلك فيما بعد . ورغبة منه في ان تتفق النتيجة مع الدلالة ، أصدر أمره الى مبعوثيه ، ليحملوا « رجال الطير » الى مقدمة المعركة . وحدث

---

١ السمنيون – قبائل ايطالية كانت تسكن في ابوليا وعلى مقربة من بـــلاد اللاتين . حاولوا غزو كابوا في القرن الرابع مما أدى إلى حروب مستمرة مع الرومان ، كانت الحرب فيها سجالا إلى أن انتهت في عـــام (٢٩٠) ق. م. بهزيمتهم وخضوعهم لرومة . حاولوا القيام بثورة عام (٩٠) ق. م. فأخمدهـــا الرومان ، وانضموا إلى ماريوس في حربه مـــع صولا . – المعرب –

انه بعد وقوع الهجوم على العدو، قتل رئيس الرجال عرضاً بسهم قذف به جندي روماني . وعندما سمع القنصل بالقصة قال ، ان كل شيء يسير على ما يرام ، وان الشكر في ذلك يجب ان يوجه الى الآلهة ، اذ ان موت هذا « الأفاك » ، قد حرر الجيش من كل تبعة، ومن كل غضب قد حملته الآلهة بسبب مخالفة أوامرها . وهكذا تمكن القنصل عن طريق التوفيق توفيقاً رائعاً بين خططه وبين الفؤول ، من الاشتباك مع العدو والتغلب عليه ، دون ان يثير الشكوك لدى الجيش بأنه قد أهمل بأية طريقة من الطرق الأوامر التي نص عليها الدين .

وقد اتبع ابيوس بولشر في صقلية ابان الحرب « البونية » (١) ، سبيلاً مغايراً . فعندما كان على وشك الاشتباك مع جيش قرطاجنة ، أمر بجمع الفؤول ، من قبل رجال الطير، وعندما ابلغه هؤلاء ان الطير رفض التقاط الحب ، هتف قائلاً : « دعونا نرى اذا كانت لا تشرب أيضاً » ، ثم أمر بقذفها في البحر،وشرع في الهجوم على القرطاجنيين، ولكنه خسر المعركة،وهذا ما جعل روما تحكم عليه،وتكرم بابيريوس ، لا لأن الثاني قد انتصر ، والاول قد هزم ، بل لأن هذا قد تصرف بتعقل وحكمة في العمل خلافاً للفؤول،بينما تصرف ذاك تصرفاً طائشاً ، ولم تؤد هذه العادة في استشارة البشائر ، الى أية نتيجة سوى حمل الجنود على الذهاب بثقة الى المعركة ؛ وهي ثقة تؤدي في الغالب الى النصر . ولم يكن الرومان وحدهم الذين استخدموا هذه الطريقة ، بل استخدمها الاجانب أيضاً ، وسأحاول التحدث عن ذلك في الفصل التالي .

---

١ الحروب البونية،اسم يطلق على الحروب التي استمرت مدة طويلة بين روما وقرطاجنة في القرن الثالث قبل الميلاد . وقد انتهت اخيراً في معركة زاما عام ٢٠٢ ق. م. التي هزم فيها هانيبال . ثم استؤنفت الحرب عام ١٤٩ ق. م. ودامت ثلاث سنوات احتل الرومان في نهايتها قرطاجنة ودمروها تدميراً كاملا . — المعرب —

١٥

كان السمنيون يلجأون إلى الدين كملاذ أخير عندما تسوء أوضاعهم

بعد ان تمت هزيمة السمنيين على ايدي الرومان ، وبعد ان تم طردهم الى آخر حدود توسكانيا ، وبعد ان قتل معظم رجال جيشهم وضباطه ، وانفض عنهم حلفاؤهم من أمثال التوسكانيين والغاليين والاومبريان الذين تعرضوا للاحتلال ايضاً . « لم يعد في استطاعتهم ان يتكلـوا الآن لا علي قوتهم ولا على قوة الآخرين ، ومع ذلك فلم ينسحبوا من الحرب. فلقد كانوا أبعد ما يكونون عن الشعور بالتعب من الدفـاع عن الحرية حتى ولو دون نجاح . وقد آثروا ان يهزموا على ان لا يحاولوا الانتصار» . ولذا فقد قرروا القيام بجهد أخير ، ولما كانوا يعرفون ضرورة تطعيم عقول جنودهم بالعزيمة الحرون على النصر ويعرفون ان ليس ثمة سبيل أفضل الى ذلك من الدين ، فقد قرروا تلبية لنصيحة كاهنهم اوفيوس باكيوس ، بعث احد تقاليدهم السابقة في تقديم الاضاحي . وكان الطقس الجديد الذي ساروا بموجبه ، ان يقدموا ضحية مقدسة ، وان يحملوا جميع ضباط جيشهم على الوقوف بين الضحية الميتة ، وبين المذابح التي تضيئها المشاعل وان يقسموا انهم لن يتوانوا قط عن القتال ، ثم يستدعون جنودهم واحداً واحداً ، ويحملونهم على الوقوف بين المذابح وسط لفيف من قادة الفئات الذين اشرعوا سيوفهم في ايـديهم ، ومن ثم يقسمون على عدم البوح بما يرونه أو يشاهدونه . ثم يحملونهم بعد ذلك على ان يتوجهوا بوعودهم الى الآلهة ، مصحوبة باللعنات والتعويذات المخيفة على انهم سيكونون متأهبين للذهاب الى حيث يأمر القادة العسكريون ، وانهم لن يفروا قط من حومة الوغى ، وانهم سيقتلون كل من يرونه فاراً ،

فاذا تقاعسوا عن ذلك كله ، حقت لعنة الآلهة على رؤوس جميع افراد عائلاتهم واطفالهم . وقد فزع بعض الجنود وترددوا في القسم ، فبادر قادة الفئات الى قتلهم فوراً بسيوفهم المشرعة ، وقد ارتعب من جـاء بعدهم من هول المنظر،فأقبلوا على القسم طائعين . وليضفوا على هذا الاجتماع الذى ضم اكثر من اربعين الف رجل بعض الجلال ، ألبسوا نصفهم الملابس البيضـاء ، ورفعوا ريش الطيور فوق خوذاتهم ، ثم مشوا على هذا الشكل ليأخذ الجيش اماكنه على مقربة من اكويلونيا .

ومضى بابيريوس الى لقائهم ، وقال لجنوده تشجيعاً لهم ان « الهامات والريش لا تحدث جراحاً ، وان السهام الرومانية تنفذ من الدروع الملوّنة والمذهبة » . ورغبة منه في ابعاد أي انطباع كاذب عن جنـوده من جراء القسم الذي أقسمه جنود العدو، قال ان تأثيره سيكون في اخافتهم لا في تقويتهم ، اذ انهـم يخشون الآن وفي وقت واحـد مواطنيهم والهتهم واعداءهم .

وعندما وقع الاشتباك ، غلب السمنيون على امرهم ، لان شجاعة الرومان ، والخوف الذي بعثته هزائمهم السابقة في نفوسهم ، عملت على « التوازن » مع اي عناد كانوا قد اكتسبوه من فضيلـة دنيتهم ومن القسم الـذي اقسموه . ومع ذلك فقد اتضح لهم ان ليس امامهم ما يستطيعون اللجوء اليه ، وان ليس لديهم أي علاج يستطيعون تجربتـه جرياً وراء الأمل في استعادة الفضيلة التي فقدوهـا . ولا ريب في ان هذه الحادثة تقف دليلاً ساطعاً على ضخامة الثقة التي يستطيع الدين بعثها عندما يستخدم بصورة صحيحة .

وعلى الرغم من انني ارى ان بحث هذا الموضوع ، كان اكثر فائدة لو تم بحثه عند الحديث عن الشؤون الخارجية ، إلا انني ارى انه يتعلق بناحية بالغة الاهمية في تنظيمات الجمهورية الرومانية ، وهذا ما حملني ان آتي به هنا ، اذ لو لم افعل ذلك لاضطررت الى معالجته في اجزاء ، والعودة اليه اكثر من مرة .

الكتاب الاول

المطارحات من ١٦ ـ ١٨

الانتقال من العبوديّة الى الحريّة

١٦

إذا الف الشعب العيش في ظل أمير فانه يجد صعباً عليه الحفاظ على حريته إذا تحققت له هذه الحرية بفضل معجزة من المعجزات

اذا تمكن شعب ، ألِفَ العيش في ظل أمير من الامراء ، من الحصول على حريته بمحض الصدفة ، كما وقع لأهل رومة ، بعد طرد الملوك الترقونيين ، فأنه يجد من العسير عليه الحفاظ على هذه الحرية ، والأمثلة على هذه الحقيقة عديدة وافرة ،وفي الامكان درسها في السجلات التاريخية للأزمنة القديمة . أما ان تكون هناك صعوبة في هذا الحفاظ ، فهذا امر منطقي ومعقول ، إذ ان مثل هذا الشعب لا يختلف كثيراً عن

حيوان شرس ، خلقته الطبيعة في حيـــاة الشراسة ، وألف العيش في الغابات ، ثم جيء به أسيراً يقضي حياة الأسر والعبودية ، لينشأ فيها، ويألفها ، وبعد ان تم لآسريه ما أرادوه له ، أطلقوا سراحه ليجول في الارياف كما يشاء ، فأحس بعجزه عن البحث وحيداً عن غذائه ، ولما لم يجد مكاناً يستطيع ان يأوي اليه ، فقد وقع فريسة سهلة في أيدي اول من صادفه ، ليعيده إلى الاغلال والى القيود .

وهذا ما يحدث تماماً لشعب ألف العيش في ظل حكام من الغرباء ، ولم يكلف نفسه في يوم ما ، عناء التفكير في الدفاع العام عن بلاده ، او في الاخطاء التي ترتكب بحقه ، ولا يعرف شيئاً عن الامراء ، كما لا يعرفون هم شيئاً عنه . ان هذا الشعب ، يعود طائعاً مختاراً الى الغير. وفي العادة الى نير أشد وطأة من ذاك الذي طرحه عن عنقه قبل قليل . وقد تحدث هذه الصعوبة ، مهما كانت المادة متحـررة من الفساد . ولما كان الشعب الذي غدا فاسداً كل الفساد ، لا يستطيع التمتع بحريته حتى ولو الى فترة قصيرة ، او حتى الى لحظة واحدة ، كما سنرى فيما بعد، فأننا سنحصر الحديث في المطارحة الراهنة في الشعوب التي لم يستشر فيها الفساد الى حد كبير ، والتي ما زال عنصر الطيبة فيها أقوى من عنصر التعفن .

وهناك صعوبة اخرى بالاضافة الى الصعوبة السابقة، وهي ان حكومة الدولة التي تتحرر تستثير عادة الاحزاب التي يعادي بعضهـــا بعضاً الى نصرتها ، لا الاحزاب المتصادقة . وينتمي الى هذه الاحزاب المتعاديـــة عادة ، جميع اولئك الذين كانوا ينعمون بالمحسوبية في عهد الحكومة الطاغية الذي انقضى ، وكانوا قد أتخموا بالثروات التي أغدقها امير تلك الحكومة عليهم . ولما كانوا قد حرموا الآن من هذه الخيرات ، فانهم لا يستطيعون العيش في قناعة ، وانما يجدون انفسهم مرغمين على العمل لاعادة عهد الطغيـــان لاستعادة السلطات التي فقدوها . ولا تبحث مثل

هذه الحكومة من الناحية الاخرى كما قلت عن مؤيديها من الاصدقاء الذين يحبونها ، وذلك لأن الدولة التي تحكم نفسها بنفسها تخصص الأوسمة والمكافآت فقط ، لأسباب نبيلة ومحددة ، وهي باستثناء هذه الاسباب لا تمنح الاوسمة والمكافآت الى اي انسان ، وعندما يحصل الانسان على اوسمة او مزايا ، يبدو وكأنه يستحقها ، فأن هذا الانسان لا يشعر بأي التزام نحو اولئك المسؤولين عن ثوابه . يضاف الى هذا ان احداً لا يعترف بالفائدة العامة ، التي تأتي من دولة تحكم نفسها ، طالما ان الجميع يملكونها – كنعمة تمتع الانسان بما يملكه مثلاً بحرية وبدون ان يثير شكوك الآخرين ، وكتأكد الانسان من احترام زوجته واطفاله ، وكاطمئنان الانسان على نفسه ومصيره – اذ ليس ثمة من يعترف بأن عليه التزاماً الى اي انسان آخر ،لمجرد ان ذلك الانسان لم يسيء اليه قط.

ويؤيد هذا صحة قولي . فحكومة الدولة التي تحررت والتي تألفت حديثاً ، تستثير الاحزاب المتعادية الى نصرتها لا الاحزاب المتصادقة ، واذا ما رغب انسان تبعاً لذلك في علاج هذه المتاعب ، والاستشفاء من الاضطرابات التي تأتي بها هذه المتاعب ، فليس ثمة من طريقة اكثر كفاية ، واقعاً وسلاماً وضرورة من قتل ابناء بروتس ، الذين كما يظهر التاريخ ، ما كانوا ليغروا على التآمر على بلادهم ، اولا انه استحال عليهم في ظل القناصل الوصول الى مراكز بارزة ، كان في إمكانهم الوصول اليها في ظل الملوك ، وهكذا لم تعن حرية الشعب في رأيهم شيئاً غير العبودية .

ويكون الرجل الذي يأخذ على عاتقه مهمة حكم الجماهير سواء في دولة حرة او في امارة ، ثم لا يتخذ الاحتياطات اللازمة لحمايه نفسه من أعداء النظام الجديد ، قد وضع شكلاً للحكم، لا يقدر له ان يعمر طويلاً . ولا ريب في انني أقر بتعاسة الامراء ، الذين يلجأون الى الوسائل الشاذة لضمان سلامة حكوماتهم،بعد ان يجدوا ان جماهير بلادهم

تضمر لهم العداء ، وذلك لان من السهل على المرء الذي لا يحمل له العداء الا القليلون ان يضمن دون خوف من الفضيحة سلامته الشخصية. اما الذي يجعل من الجمهور كله عدواً له ، فلا يستطيع تأمين سلامته أبداً ، وكلما اشتدت قسوته وشراسته ، كلما زاد ضعف عهده . ولعل خير علاج يلجأ اليه في مثل هذه الحالة ، هو ان يجعل من الجمهور صديقاً له .

وعلى الرغم من ان الانتقال في الحديث من الامير حيناً الى الجمهورية حيناً آخر ، يشوّش الخطة التي وضعتها لهذه المطارحة ، فأنني أقترح مع ذلك الحديث عن الامراء ، حتى لا أجد نفسي مضطراً للعودة الى التحول في هذا الموضوع . وهكذا فأذا أراد الامير ان يطمئن الى الشعب الذي قد يناصبه العداء ، وانا اشير الى الامراء الذين جعلوا من أنفسهم طغاة في بلادهم ، فأن عليه ان يسأل أولاً ، عن الامور التي يرغب فيها الشعب ، فيجد انها لا تخرج عن أحد اثنين اولهما الثأر لنفسه من اولئك الذين كانوا سبباً في استعباده ، وثانيهما استعادة حريته . ويستطيع الامراء ارضاء اول هذين المطلبين ارضاء كلياً ، وتلبية المطلب الثاني تلبية جزئية .

وهناك مثل على المطلب الأول يمت اليه في الصميم . فعندما كان كليرشوس طاغية هيرقلياً في منفاه ، نشب خلاف في المدينة بين شعبها وبين الطبقة العالية فيها ، وكانت في وضع اضعف من وضع الشعب ، فقررت تأييد كليرشوس ، واقسمت على الرغم من عواطف الشعب ، على اعادته وحرمان الشعب من حريته . وهكذا وجد هذا نفسه بين طبقة عالية حمقاء لا يستطيع بأي سبيل ارضاءها او اصلاحها ، وبين شعب متحمس لا يستطيع الاغضاء على إضاعة حريته . وقرر تبعاً لذلك ، ان يتخلص بضربة واحدة من الاكدار التي يثيرها له كبراء المدينة ، وان يكتسب الشعب الى جانبه ، وانتهز فرصة مؤاتية ، فقطع

اجساد جميع النبلاء ، ارباً ارباً ، مرضياً بذلك حزب الشعب بالـغ الرضى ومحققاً له مطالبه في الثأر من الذين اضاعوا عليه حريته .

أما بالنسبة الى المطلب الثـاني ، وهو استعادة الحرية ، فان عجز الأمير عن تحقيقه ، يحتم عليه التحري عن الاسس التي ترتكز اليهـا مطالبة الشعب بحريته . وسيجد بعد الاستقصاء ، ان شطراً صغيراً مـن الشعب يرغب في الحرية،ليتمكن من فرض سيطرته على الآخرين ، أما الشطر الاكبر من المطالبين بالحرية فانما يرغبون فيها لضمان أمنهم ولا يعدو الحكام الحقيقيون في كل دولة ، مهما كان شـكل الحكومـة القائمة فيها اربعين او خمسين مواطناً ، ولما كان هـذا العدد صغيراً ، فمن الامـور السهلة ، ان تؤمن نفسك منهم ، أو تمنحهم حـصة مـن رتب الشرف والتكريم تتناسب مع مكاناتهم ، مما يثير في نفوسهم مشاعـر الرضى ، اما بالنسبة الى البقية الباقية وهي التي يرغـب افرادها في العيش آمـنين مطمئنين ، فان من السهل ارضاءهم بادخال الانظمة والقوانين التي تضمن بالتعاون مع ساطان الامير نفسه على ايجاد الأمن للجمهور كافة ، وعندما يقوم الامير بمثل هذا العمل ، ويتأكد الشعب بنفسه مـن ان الامير لا يخرق القوانين ابداً ، يبدأ هذا الشعب بعد امد قصير بالاحساس بالطمأنينة والرضى في عيشه .

وتقدم مملكة فرنسا مثالاً بارزاً عـلى هـذه الحقيقة ، فالشعب فـيها يعيش في أمن ، لأن ملوكها قد تعهدوا برعاية العديد من القوانين التي يستند اليها أمن شعبهم ، وقد قصد مؤسـس هذه الـدولة ، ان يعمل ملوكها مايرونه مناسباً ، بالنسبة الى استخدام الاسلحة ، والى تنظيم الشؤون المـالية ، أمـا بالنسبة الى الشؤون الاخـرى ، فقد رمى الى ان يعملوا ضمن نطاق القوانين المرعية ، وعلى الأمير الذي لم يضمن الأمن لحكومته منذ البداية ، ان يهتبل تبعاً لذلك اول فرصة ممكنة لتحقيق هذا الضمان ، كما فعل الرومان تماماً ويصح هذا القول بالنسبة الى الجمهوريات

ايضاً . وكل من يتقاعس عن فعل ذلك يكون مصيره الندم على انه لم يقم بما كان يجب عليه القيام به ولات حين مندم .

وهكذا ، لما لم يكن الشعب الروماني قد بلغ حداً كبيراً من الفساد عندما استعاد حريته . فقد تمكن من الحفاظ على نفسه عندما مات ابناء بروتس ، وعندما حلت نهاية الملوك الترقونيين ، وتمكن كذلك من الحفاظ على اساليب حكومته وعلى التنظيمات التي تولينا شرحها في مكان آخر.ولو كان هذا الشعب قد غدا فاسداً من الناحية الاخرى،لما استطاع العثور على ادواء لوضعه لا في رومة ولا في أي مكان آخر ، وهذا هو موضوع حديثنا في الفصل التالي .

١٧

الشعب الفاسد لا يستطيع الحفاظ على الحرية التي اكتسبها إلا بشق الانفس

كان من المحتوم على رومة بالنسبة الى وضعها،كما أرى،إما الاستغناء عن الملوك والاطاحة بهم ، أو ان تتعرض الدولة بعد وقت قصير الى الضعف الذي لا مبرر له ، وذلك ، لان المرء اذا ما فكر في درجة الفساد التي وصل اليها الملوك ، اتضح له ، انه بعد مرور جيلين او ثلاثة اجيال ، كان لا بد للفساد المتأصل في الملكية من ان يبدأ في الانتشار الى الاعضاء ، فاذا ما فسد هؤلاء ، غدا من المحال ، اصلاح حالهم . ولكن لما كان الرأس هو الذي ضاع وحده ، بينما بقي الجذع بكليته ، فقد كان من السهل ، اعادة هذا الجذع ، الى طريقة حرة

ومنظمة في الحياة. ويجب الافتراض والحالة هذه كمبدأ اساسي ومقرر، انه لا يمكن اعادة الحرية بالنسبة الى الدولة التي يحكمها احد الامراء ، والتي غدت فاسدة ، حتى ولو أزيل الامير وجميع من يلف حوله من الوجود . وكل ما سيحدث ، هو على النقيض من ذلك تماماً ، فقد يقوم احد الامراء ، بازالة غيره من الوجود ، ولن يكون هناك استقرار إلا بخلق سيد جديد ، ما لم يقم هناك رجل يمتاز بالطيبة والخير ، على ان تصحبها الفضيلة ، يعمل على ابقاء المدينة حرة . ولكن هذه الحرية لن يقدر لها ان تعمر ، الا مدى حياة ذلك الرجل . وهذا ما حدث في سراقوزة ، بالنسبة الى ديون وتيموليون (١) اللذين تميزا بالفضيلة الى الحد الذي مكن المدينة في عهديهما من البقاء حرة طيلة حياتهما ، ولكنها ، عندما ماتا ، عادت الى ما كانت ترزح تحته في السابق من طغيان .

وليس ثمة من مثل أفضل على هذا مما وقع في رومة ، التي تمكنت عندما طرد منها الملوك الترقونيون من الحصول على حريتها والحفاظ عليها ، ومع ذلك فعندما قتل قيصر ، وقتل غايوس وكاليغولا ونيرون، وانتهى عهد جميع من هم على شاكلة قيصر ، لم تكتف بالعجز عن الحفاظ على حريتها فحسب،بل تعدته الى عجزها عن الشروع في بداية

---

١ ديون وتيموليون ، حاكمان حكما سراقوزه في جزيرة صقلية ، وقد ولد اولهما في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد ، وتزوج من ابنة دينسيوس الاكبر طاغية المدينة ، واختلف مع صهره ديونيسيوس الاصغر الذي أصبح طاغية بعد أبيه ، بسبب اختلافهما في طريقة الحياة ، اذ ان ديون كان زاهداً بينما كان الآخر متهتكاً ، فنفاه من المدينة ولكنهعاداليها واحتلها ، وحكم المدينة حكماً صارماً أثار عليه سخط أهلها فقتلوه في قصره . أما تيموليون « ٤١١ – ٣٣٧ » ق. م. ، فقد ولد في كورنث ونشأ من دعاة الديموقراطية ، و عندما غزا القرطاجيون صقلية عام (٣٤٤) ، استنجدوا بكورنث فذهب تيموليون على رأس قوة صغيرة ، واحتل سراقوزه ونظم جيشاً تمكن به من قهر القرطاجيين وارغامهم على الصلح . وعاشت صقلية في عهده برخاء ونعيم .

– المعرب –

ايضاً . وسبب التباين في النتائج الى هذا الحد في مدينة واحـدة ، هو ان شعب رومة ، لم يكن في عهد الملوك « الترقونيين » قد فسد بعد، وانه كان في الفترة الاخيرة قـد فسد الى أقصى حدود الفساد . ففي الحالة الأولى ، كان يكفي لبعث الصلابة في الشعب وحمله على البقاء على عدائه للملك ، ان تحمل افراده على القسم بأنهم لن يوافقوا على قيام حكم لأي ملك في رومة . أما في الفترة الأخرى ، فان سلطة بروتوس وقسوته ، مدعومتين بكل مـا في الشرق من فرق عسكرية لم تكونا كافيتين لحمل الشعب على البقاء راغباً في الحفاظ على تلك الحريـة التي ادخلها هو الى المدينة على غرار ما فعله بروتوس الأول . ولعل السبب في هذا الوضع هو الفساد الذي نشره حزب ماريوس في صفوف الشعب. اذ عندما اصبح قيصر رئيساً لهذا الحزب ، افلح في تغطية عيون الجماهير بحيث لم يمكنها من رؤية النير الذي وضعته هي نفسها في اعناقها .

وعلى الرغم من تفوق المثل الذي قدمته عن رومة ، على غيره من الأمثلة ، فـاني أرى ان اضيف اليه امثلة اخرى ، يعرفها كل من يعيشون في عصرنا الحاضر . وانا اؤكد تبعاً لذلك ، انه لم يكن في وسع كل ما حدث في ميلان أو نابولي ، مهما اشتدت خطورته ، أو بلغ في عنفه وطبيعته ، ان يأتي لهما بالحرية ، طالما ان افراد شعبيهما كانوا قد بلغوا حد الكمال في الفساد . ويتضح هذا كل الاتضاح بعد موت فيليبو فيسكونتي ، اذ على الرغم من التفكير بأدخال الحرية الى ميـلان ، لم يكن بالامكان تحقيقها . كما لم يكن بالامكان ابتكار أية وسائل للحفاظ عليها . ولهذا فقد كان من حسن طالع رومة للغاية ان ملوكها أسرعوا في الوقوع في الفساد ، مما أدى الى طردهم من المدينة قبل ان يستشري، ويتسرب الى احشاء تلك المدينة . وكان هذا الافتقـار الى الفساد ، في الحقيقة السبب الذي حال بين الفتن العديدة التي وقعت في رومة والتي اثارها رجال حسنو النية وبين الاساءة ، وانما أدى عـلى النقيض من

ذلك الى منافع للجمهورية .

وهكذا يمكن الوصول الى هذه النتيجة : عندما لا يكون الجوهر فاسداً ، لا تؤدي الفتن وغيرها من الفضائح الى أي ضرر ، أما عندما يفسد الجوهر ، فأن التشاريع الصالحة لا تجدي الا اذا كانت من وضع انسان في مركز قوي للغاية يمكنه من فرض الطاعة الى الوقت الذي يكون فيه صلاح الجوهر قد تحقق . ولا أدري ، ما اذا كان هذا قد وقع في أي وقت مضى ، أو ان من الممكن ان يقع مطلقاً ، وذلك لأنني كما قلت قبل قليل ، أرى ان من الواضح ، انه اذا اريد لدولة تسير في طريق الانهيار بسبب ما لحق جوهرها من فساد ، ان تواجه حالة جديدة من البعث تتحقق فيها ، فأن هذا البعث لا يكون الا عن طريق الفضيلة التي يتحلى بها انسان ما يعيش في تلك الآونة ، لا عن طريق الفضيلة التي يتمتع بها الجمهور ككل . فمثل هذا الانسان قادر على الحفاظ على المؤسسات الصالحة ، ولكنه اذا ما انتهى الى الموت ، فأن هذه المؤسسات ستعود الى سابق عهدها من الفساد .

وقد وقع هذا في طيبة ، اذ بفضل ما تمتع به ايبامينونداس من فضيلة ، تمكن هذا الرجل من النجاح في الحفاظ على الشكل الجمهوري للحكومة ، طيلة المدة التي عاشها ، ولكن الامور عادت الى عهدها المرتبك السابق بعد موته . والسبب في هذا ان الفرد لا يستطيع ان يعمر طويلاً الى الحد الذي يضمن لأية دولة الفت مدة طويلة العادات السيئة، التمكن من اكتساب عادات صالحة جديدة . وحتى لو قدر لهذا الرجل ان يعمر طويلاً ، او قدر لهذا الرجل الفاضل ان يخلفه رجل فاضل آخر ، فأن هذا لا يمكن ان يقع ، اذ بعد موت الرجلين ، كما قلنا سابقاً ، سيكون هناك انهيار ، الا اذا كانت عملية البعث قد تمت بعد العديد من المخاطر ، ومع الكثير من سفك الدماء ، اذ يعود الفساد من هذا النوع ، والعجز عن تقبل طريقة حرة في الحياة ، الى ما يجده

الانسان في الدولة من عدم تكافؤ،وتتطلب اعادة المساواة القيام بخطوات لا تكون في حد ذاتها عادية ، ومثل هذه الخطوة لا يعرف القيام بها إلا قليلون ، وأقل منهم ، اولئك الذين هم على استعداد للقيام بها ، وهي نقطة ستكون موضع معالجتنا بصورة مفصلة في مكان آخر .

١٨

طريقة الحفاظ على الحكومة الحرة عندما توجد في دولة فاسدة أو اقامة هذه الحكومة في حالة عدم وجودها

قد لا يكون من البعيد عن الهدف الذي أرمي اليه ، او مما يغاكس الخطة التي اوردتها في مطارحتي السابقة ، ان ندرس الآن ما اذا كان من الممكن في دولة فاسدة ، الحفاظ على حكومة حرة،اذا كانت هذه الحكومة موجودة ، او التمكن من إقامتها اذا لم تكن موجودة . وأنا أعتقد ان من الصعب ، بالنسبة الى هذه القضيـــة تحقيق أي من هذين الأمرين . يضاف الى هذا ، ان من المستحيل تماماً وضع القواعد في هذا الصدد ، اذ ان الطريقة التي يجب ان تتبع ، تعتمد بحكم الضرورة على درجة الفساد القائم . ومع ذلك ، لما كان من المستحسن ان يدرس الانسان جميع الحالات،فأنني لا أرى ما يدعو الى اهمال هذه القضية ، وافترض تبعاً لذلك دولة متناهية في الفساد،وفي مثل هذه الحالة تتضخم الصعوبة بوضوح ، اذ لا يمكن العثور في مثل هذه الدولة على القوانين او التنظيمات التي تكفـــي لكبح جماح الفساد المستشري . اذ لما كانت القوانين ضرورية للحفاظ على العادات الصالحة ، فأن من متطلبات اطاعة

هذه القوانـــين ان تكون العادات نفسهـا صالحة ، يضاف الى هذا ان التنظيمات والقوانين التي توضع في الايام الاولى لأية جمهورية، اي عندما يكون رجالها صالحين ، لا يمكن ان تحقق الغايـــة منها ، عندما يسوء هؤلاء الرجال . واذا قدر لقوانين اية دولة ، لأي سبب من الاسباب ان تتبدل ، فلن يكون هناك أي تبدل في تنظيماتها ، أو إذا وقع مثل هذا التبدل ، فأنه لن يتعدى حدود الندرة في الوقوع ، وتكون النتيجة ان تظل القوانين الجديدة مفتقرة الى التنفيذ ، وذلك لأن التنظـيمات التي تتولى انفاذها ، وهي باقية على حالها ، سرعان ما تفسدها .

ولايضاح هذه النقطة ، أود ان أقول ، انه وجد هناك دستور في رومة ينظم لها حكومتها، أو على الاصح ، شكل الحكومة القائمة فيها، كما وجدت ثمة قوانين تمكن القضاة من فرض النظام عـلى المواطنين . وكانت صلاحيات هذا الدستور الذي يقرر للمدينة شكل حكومتهـــا ، تحديد السلطات التي يتمتع بها الشعب والتي يتمتع بها كل من مجلس الشيوخ وحماة الشعب (التربيون) والقناصل ، وتحديد الاساليب التي يتقدم بها طالبو وظائف القضاة والتي يعينون بموجبهـــا ، وما يتصل بذلك من اجراءات تشريعية . ولم يقع أي تبدل يذكر في هذه التنظيمات مع تعاقب الاحداث ، بينـما طرأت تبدلات كثيرة على القوانـــين الـــتي تحـافظ على النظام بين المواطنين . فلقد كان هناك مثلاً القـــانون المتعلق بالزنا والقانون الذي يحدد النفقة ، وآخر يتعلق بالطموح . وكثير غيرها من القوانين . وقد ادخلت هذه القوانين خطوة خطوة مع اتجاه المواطنـــين نحو الفساد . ولكن لما كانت التنظيمات التي تقرر شكل الحكومة في المدينة قد بقيت على حالها ، وعندما بسط الفساد رجليه ، ولم تعد هذه القوانين صالحة ، فان ما ادخل عليها من تعديلات لم يكن كافياً للحفاظ على صلاح الناس ، مع انها قد تكون معينة على هذا الحفاظ ، لو صاحب ادخال هذه القوانين الجديدة تعديل مماثل في التنظيمات .

وتتضح صحة القول بأن مثل هذه التنظيمات لا تكون صالحة في دولة فاسدة في حالتين في منتهى الاهمية ، وهما تعيين القضاة، وسن القوانين، فلقد كان الشعب الروماني لا يمنح مطلقاً وظيفة القنصلية أو أية وظيفة مهمة اخرى في المدينة إلا لاولئك الذين يطلبونها . وكان مثل هذا الاجراء صالحاً في البداية ، لأن الاشخاص الذين كانوا يتقدمون لهذه المناصب ، كانوا فقط من اولئك الذين يشعرون في انفسهم بالكفاية على اشغالها ، وكان من المخزي لهم ان ترفض طلباتهم ، وعلى هذا ، فقد كان كل من يحكم عليه بأنه صالح ، يسلك سلوكاً طيباً . ولكن هذا الاجراء غدا في منتهى السوء عندما اصبحت المدينة فاسدة ، وذلك لان طالبي وظائف القضاء، لم يعودوا من اولئك الذين يثقون بفضيلتهم، بل اولئك الذين يؤمنون بسلطانهم ، أما الذين لا سلطان لهم فقد كانوا يترددون ، رغم ما يتمتعون به من فضائل ، في التقدم الى طلب هذه المناصب بدافع الخوف . ولا يأتي مثل هذا الازعاج ، دفعة واحدة ، وانما على مراحل ، كما هي الحالة دائماً مع جميع المنغصات ، اذ لما احتل الرومان افريقيا وآسيا ، وأخضعوا القسم الاكبر من بلاد اليونان لسلطانهم ، اصبحوا مطمئنين الى حريتهم ، اذ لم يبق امامهم اعداء يخشونهم . وقد دفع هذا الاحساس بالطمأنينة ، وهذا الضعف من جانب الاعداء ، الشعب الروماني ، عند تعيينه القناصل ، الى عدم اعتبار ما يتمتع به الرجل من فضيلة ، وانما اعتبار ما يتمتع به من شعبية.وأوصل هذا الاتجاه الى المنصب رجالاً أدرى باجتذاب الناس اليهم منهم بمعرفة طرق التغلب على اعدائهم . وسرعان ما تحولوا من اولئك الذين يتمتعون بالشعبية الزائدة ، الى اولئك الذين يملكون المزيد من السلطان . وهكذا حرم أكفاء الرجال حرماناً كلياً من الوصول الى رتبة القنصلية ، بسبب هذه العيوب التي دخلت الى هذا التنظيم في تعيين القناصل .

وكان في وسع حامي الشعب (التربيون) أيضاً ، أو غيره من

المواطنين ، ان يقترح على الشعب قانوناً جديداً ، وكان من حق كل مواطن، ان يخطب اما مؤيداً هذا القانون او معارضاً له ، قبل الوصول الى قرار نهائي بصدده . وكان مثل هذا التنظيم صالحاً، طالما ان المواطنين صالحون، لأن من الخير دائماً ان يسمح لكل من يتوق الى خدمة الشعب باقتراح ما يراه لتحقيق هذه الغاية . ومن الخير ايضاً ، ان يكون كل انسان حراً في التعبير عن رأيه بصدد هذا الاقتراح ، بحيث يستطيع الشعب بعد ان يستمع الى كل ما يقال ، اختيار الخطة المثلى . ولكن عندما تحول المواطنون الى اناس منحرفين وفاسدين ، غدا هذا الاجراء مصدراً للازعاج ، وذلك لأن ذوي السلطات وحدهم ، غدوا القادرين على اقتراح القوانين ، ولا تستهدف هذه القوانين الحفاظ على الحريات العامة ، بل زيادة سلطانهم هم . ولم يكن احد ليجرؤ على الاعتراض على هذه المشاريع ، خوفاً من هذه الفئة ، مما ادى إلى اقنـاع الشعب اما بطريق الخداع أو طريق الاكراه ، بتبني اجراءات أدت الى خرابه.

وكان من الضروري للحفاظ على حرية رومـة . تبعاً لذلك ، بعد ان نشر الفساد جناحيه ، إدخال تنظيمات جديدة في فترة التطور التي مرت بها المدينة تماماً كما سنت قوانين جديدة ، وذلك لان التنظيمات والاجراءات التي توضع لشعب من الشعوب ، يجب ان تتباين ، وفقاً لما هو عليه هذا الشعب من صلاح أو سوء ، طالما ان من المستحيل بقاء اشكال متماثلة منها ، في جوهرها ، مع ميلها الى اتخاذ سبيل مغايرة . ومن الواجب تجديد التنظيمات التي طرأ العيب عليها مرة واحدة ، عندما يلاحظ التحول عن الصلاح ، أو على دفعات تدريجية ، قبل ان يعرف انسان بهذا التحول . وأنا أرى ان اياً من هذين السبيلين غير ممكن . فأذا كان المطلوب ان يقع التجديد بصورة تدريجية ، فأن الحاجة تتطلب ظهور شخص يستطيع ان يرى السوء قبل وقوعه ، وان يبصر به قادماً من بعيد ، مع انه ما زال في مراحل طفولته ، ولكن من السهل ان

يحدث في كل الدول ، ان لا يظهر مثل هذا الشخص مطلقاً ، او انه حتى اذا ظهر حقيقة يكون عاجزاً عن إقناع الآخرين برواية الاشياء كما يراها هو ، اذ ان الناس الذين الفوا طرازاً معيناً من الحيـــاة يترددون كثيراً في تغيير هذا الطراز ، ولا سيما اذا لم يكونوا قد رأوا بأنفسهم الشر الذي غدا موضوع الحديث . وانما لفت انتباههم اليه عن طريق التخمين والحدس . اما بالنسبة الى تعديل جميع التنظيمات دفعة واحدة ، وذلك عندما يدرك الجميع انها لم تعد صالحة ، فأنني اود ان اشير الى انه على الرغم من سهولة ادراك جدوى هذا التعديل ، الا ان تصحيح هذه التنظيمات ليس من السهولة بمكان كبـــير ، وذلك لان تحقيق هذا التصحيح يتطلب اجراءات غـــير الاجراءات العادية التي باتت بدورها فاسدة وسيئة . وهكذا يصبح من الضروري اللجوء الى أساليب استثنائية، كاستخدام القوة ، والدعوة الى السلاح ،ويتطلب هذا الاجراء قبل القيام بأي شيء آخر ان يعلن الانسان نفسه اميراً على الدولة ، حتى يتمكن من التصرف وفقاً لما يراه صالحاً ومجدياً .

وتفترض اعادة تنظيم الحياة السياسية في الدولة،وجود رجل صالح ، بينما يفترض اللجوء الى العنف،لينصب الانسان نفسه اميراً في جمهورية، وجود رجل سيء كل السوء . ويندر ان نجد رجلاً صالحاً على استعداد لاستعمال الاساليب السيئة لاعلان نفسه اميراً ، على الرغم من وجود غاية طيبة يستهدفها ، كما يندر ان نجد رجلاً سيئاً ، على استعداد بعد ان اصبح اميراً للقيام بعمل طيب ، او ان يـــدور في خلده استخدام السلطة التي حصل عليها بالوسائل السيئة في اتجاه طيب .

وعلى ضوء كل ما تقدم ، يكون من الصعب ومن المستحيل الحفاظ على نظام جمهوري للحكم في دولة غدت فاسدة او خلق مثل هذا النوع من الحكم من جديد . واذا كان المطلوب مجرد خلق جمهورية او الحفاظ عليها . فأن من الضروري ادخال طراز من الحكم عليها يشبه الملكية

اكثر من شبهه بالديموقراطية ، وذلك لكي يكون في الامكان كبح جماح غطرسة اولئك الذين يصعب اصلاحهم بالطرق القانونية ، باتباع أساليب معهم شبيهة بسلطان الملوك اما ان يحاول المرء اصلاحهم بأية طريقة اخرى ، فيعني اتباع ساليب وحشية ، او طرق مستحيلة، وهو نفس ما حاوله كليومينيس (١) كما سبق لي ان قلت من قبل . فرغبة منه في ان يحكم بمفرده ، قتل جميع الحكام الذين يعملون تحت امرته، وهو ما فعله ايضاً رومولوس عندما قتل اخاه وتيتوس تاتيوس السابيني . وقد تمكن الرجلان فيما بعد من ان يحسنا استغلال سلطتيهما . ومن الواجب على اي حال ان نلاحظ ان رعايا كل من الرجلين لم يكونوا قد غرقوا تماماً في حمأة الفساد ، وهي الحمأة التي جعلناها في هذا الفصل أساساً لمناقشتنا . وهكذا تمكن الرجلان أيضاً من تقرير الخطوات التي يريدانها ، وبعد ان فعلا ذلك ، موّها على رعيتيهما بما أرادا تحقيقه من خطة حقيقية .

---

١ اسم يطلق على ملوك اسبارطة ، والمقصود به هنا كليومينيس الأول (٥٢٠ – ٤٩١) قبل الميلاد . وقد اشترك في عملية طرد هيبياس من اثينا عام ٥١٠ ق. م. كما طرد معه نحواً من سبعمائة اسرة من النبلاء. وقد نجح في الحرب التي شنها على ارغوس . وقصته مشهورة في قتل جميع الحكام الاسبارطيين ليضمن لنفسه السلطان المطلق . – المعرب –

الكتاب الاول

المطارحات من ١٩ ـ ٢٤

أفكار مختلفة عن ملوك رومة

١٩

قد يستطيع الأمير الضعيف، الذي يخلف أميراً بارزاً ، الحفاظ على إمارته أما الامير الضعيف الذي يخلف أميراً ضعيفاً آخر فلا يستطيع الحفاظ على أية مملكة

تظهر الفضيلة التي تمتع بها كل من روملوس ونوما وتوللّوس، ملوك روما الاوائل الثلاثة ، والاساليب التي اتبعوها ، مدى الطالع الحسن الذي حبيت به المدينة في ان يكون اميرها الاول ، محارباً ضارياً، وان يخلفه امير آخر مسالم ومتدين . وان يكون ثالثهم محارباً يتمتع بالحماس العسكري الذي عرف به روملوس ، ويتعشق الحرب اكثر من تعشقه

للسلام . فلقد كان من الامور الجوهرية بالنسبة الى رومة في ايامها المبكرة ، ان يقوم فيها مشرع ، يمنحها دستوراً مدنياً ، كما كان من الضروري أيضاً ، ان يكون هناك آخرون ، يعودون الى اظهار ما كان لدى روملوس من فضائل ، اذ بدونهم : كان من المحتوم ان تغدو المدينة ضعيفة مستكينة ، وان تقع فريسة في ايدي جيرانها. ويمكن ان يلاحظ في هذا الصدد ان الامير الذي يقل فضيلة (يعني شجاعة) عن سلفه ، يستطيع الحفاظ على دولته ، ويعود الفضل في ذلك الى فضيلة حاكمها السابق ، كما يستطيع ان يتمتع بثمار ما بذله من متاعب، ولكن اذا قدر له ان يعمّر طويلاً ، او اذا لم يظهر ثالث ، يعود من جديد الى اظهار فضيلة الاول ، فأن المملكة يقضى عليها بالخراب حتماً . وعلى النقيض من ذلك ، اذا تعاقب اميران على دولة ، وكان كل منهما معروفاً بالفضيلة ، فأن من الثابت عادة : انهما يستطيعان تحقيق مآثر رائعة ، وان تصل شهرتهما الى أقصى ذرى الرفعة والسمو .

ولا ريب في ان داود كان رجلاً رائعاً للغاية ، كجندي ، وكمعلم ، وقاض . وكانت فضيلته من النوع الذي مكّنه بعد ان هزم جميع جيرانه واحتل بلادهم . من ان يخلّف لولده الشاب سليمان ، مملكة وادعة ، كان في وسعه الحفاظ عليها بأساليب مسالمة بدلاً من الاساليب الحربية ، وان ينعم فيها بثمار ما كان لوالده من فضيلة . ولكنه لم يكن في امكانه ان يخلف مملكته على هذا النحو لولده الشاب رحبعام ، اذ لما كان هذا مفتقراً الى فضيلة جده ، والى ما كان لوالده من طالع حسن ، فقد تمكن من ان يظل بعد صعوبة ومشقة وارثاً لسدس المملكة ليس الا (١) .

واستطاع بايزيد ، سلطان الاتراك ، وهو رجل هوي السلام اكثر من هوايته للحرب ، ان ينعم بثمار المشقّات التي احتملها والده محمد ،

١ اسماء ملوك العبرانيين الثلاثة الأوائل ، و الاولان من الانبياء . و بعد وفاة سليمان تجزأت مملكته بسبب ضعف ولده رحبعام ، و لم يستطع السيطرة الا على جزء صغير منها .

— المعرب —

لان هذا كان كداود ، قد هزم جميع جيرانه وخلف لولده مملكة قوية كان في وسعه الحفاظ عليها بسهولة وبالوسائل السلمية ، ولو كان ولده سليم ، الحاكم الحالي على أي حال كوالده ، لا كجده ، للحق بالدولة الخراب . ولكنه يبدو في الحقيقة وقد تفوق على ما كان لجده من امجاد.

وفي وسعي ان ازعم ، والحالة هذه ، على ضوء هذه الامثلة ، ان الامير الضعيف الذي يخلف اميراً قوياً ، يستطيع الحفاظ على ما ملكه ، بينما اذا خلف امير ضعيف اميراً آخر على شاكلته، فلا يكون في امكانه ان يحافظ على بقاء مملكته ، الا اذا كانت هناك ، كما هي الحالة في فرنسا ، تنظيمات عريقة ، تبقي على سير الامور في طريقها ، وانا أعني بالامراء « الضعفاء » اولئك الذين لا يركزون ثقتهم على الحرب

واستطيع ان اختم الحديث بالملاحظات التالية . لقد كانت فضائل روملوس على درجة من العظمة بحيث جعلت في الامكان لخلفه نوما بومبيليوس ان يحكم سنوات طويلة متبعاً الوسائل السلمية . وجاء توللوس ليخلف نوما ، وكانت شهرته في العنف والشدة ، تنافس شهرة روملوس. وعقبه انكوس ، الذي كان له من المواهب الفطرية ما مكنه من التنعم بالسلام، مع المضي في الحرب . وكان في مستهل عهده ميالاً الى اتباع طرق السلام ، ولكنه عندما اكتشف صبيحة ذات يوم مشرق ، ان جيرانه يخالونه رجلاً ضعيفاً مخنثاً ، وانهم لا ينظرون اليه نظرة التجلة، قرر لتوه ، انه إذا أراد الحفاظ على رومة ، فان عليه ان يلجأ الى الحرب وان يسير على طريقة روملوس لا على طريقة نوما .

وعلى جميع الامراء ، الذين يملكون الممتلكات التابعة ، ان يتعلموا، من هذه الأمثلة ، انهم اذا ما ساروا على طريقة نوما ، فقد يكون في وسعهم الحفاظ على هذه الممتلكات . أو قد يفشلون في ذلك ، وفقاً للظروف التي تحيط بهم ، والسعد أو النحس الذي يواكبهم . بينما اذا ساروا على غرار روملوس ، واعتمدوا كما اعتمد هو ، على التعقل

وعلى السلاح ، فانهم يستطيعون الحفاظ عليها على أي حال ، الا اذا داهمتهم قوة حرون وطاغية تفوق قوتهم فجرفتهم أمامها . ومن المعقول جداً : انه لو لم يقدر لرومة ان يكون ملكها الثالث ، رجلاً ، عرف كيف يستخدم القوات المسلحة في الحفاظ على سمعته وشهرته ، لما كان في مكنتها ان توطد اقدامها ، وان استطاعت ذلك فبعد لأي ونصب كبيرين ، ولما بجحت في عمل ما استطاعت ان تعمله . وهكذا عندما كانت رومة تعيش في ظل حكم الملوك ، كانت معرضة لاخطار كان في وسعها أن تقضي عليها بالدمار لو قدر لها ان تكون في ظل ملك ضعيف أو حقود .

٢٠

أميران فاضلان يخلف أحدهما الآخر ويقومان بعمل مآثر عظيمة : وكما يحدث في الجمهوريات الحسنة النظام تحتم الضرورة قيام مثل هذا التتابع الفاضل وتكون النتيجة مكاسب وزيادات ضخمة

عندما تخلصت رومة من ملوكها ، انتهت مع زوالهم الاخطار التي ينطوي عليها ارتقاء ملك ضعيف ، أو ملك سيء ، سدة العرش . وقد تركز سلطان السيادة الآن في القناصل ، الذين لم يكونوا ينالونه عن طريق الوراثة أو الخديعة أو العنف الذي يوحي به الطموح ، وانما كانوا يصلون اليه عن طريق اصوات الشعب الحرة ، وكانوا تبعاً لذلك من

اقدر الرجال وأكثرهم كفاية . وازدهرت رومة في ظل حكمهم الفاضل، وواكبها حسن الطالع مرة تلو المرة ، حتى تمكنت من بلوغ أقصى درجات العظمة التي عاشت فيها سنين طويلة لاتقل عن السنوات التي عاشتها خاضعة لملوكها السابقين .

أما الطريقة التي تحقق فيها كل هذا فواضحة كل الوضوح . فاذا كانت الخلافة الفورية من امير فاضل الى آخر لايقل عنه فضلاً تكفي للسيطرة على العالم ، كماحدث في قضية فيليب المقدوني وولده الاسكندر الاكبر ، فان في وسع الجمهورية ان تحقق اكثر من هذا ، وذلك بفضل الطريقة التى تتبعها في اختيار حكامها ، والتي تضمن لها لامجرد تتابع حاكمين يمتازان بالفضيلة السامية ، بل تتابع عدد لايحصى من الحكام ، يخلف احدهم الآخر ، وفي وسع اية جمهورية محكمة التنظيم ، أن تضمن هذا التتابع الفاضل لصورة دائمة مستمرة.

٢١

الامارات والجمهوريات التي لا تملك قواتها المسلحة الخاصة تتعرض إلى الملامة والتعنيف

على امراء هذه الايام ، وجمهوريات العصر ، الذين لا يملكون قواتهم الخاصة المسلحة لاغراض الهجوم والدفاع ، ان يخجلوا من أنفسهم. وعليهم ان يعتبروا بالمثل الذي ضربه توللوس ، وان يعزوا هذا العيب لا الى الافتقار الى الرجال الصالحين لان يكونوا جنوداً ، بل الى خطئهم في انهم قد اهملوا تدريبهم على ان يكونوا جنوداً . وكانت رومة قد

قضت نحواً من اربعين عاماً في حياة يرفرف عليها السلام، عندما ارتقى تولّلوس اريكة الملك ، ولم يجد في مملكته رجلاً كان قد خاض حرباً من قبل ، ومع ذلك ، فعندما وضع خططه لخوض الحروب ، لم يفكر في الافـــادة من السمنيين أو من التوسكان ، أو من غيرهم من الذين الغوا استخدام السلاح ، بل قرر كرجل عاقل ، الافادة من شعبه هو لا من الآخرين . وكان يتمتع بفضيلة كبيرة ، حتى انه تمكن في فترة قصيرة من حكمه ، من انتاج جنود ممتازين ، ولا ريب في ان لباب الحقيقة ، وأصدق الصدق ، انه حيث يوجد الرجال ولا يوجد الجنود، يكون الخطأ من الحكم والحاكم ، لا من خطأ الوضع او الطبيعة .

وهناك مثل حديث على هذه الحقيقة . فكل واحد منا يعرف كيف هاجم ملك انكلترا قبل فترة من الزمن مملكة فرنسا ، دون أن يستخدم في هجومه الا جنود بلاده . ولما كانت هذه المملكة ، لم تخض غمار أية حرب منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، فانها كانت تفتقر الى الجنـــود والضباط ، الذين شهدوا الخدمة العسكرية الفعلية ، ومع ذلك لم يتردد الملك في ان يهاجم بمثل هذه القوات مملكة اخرى تضم عدداً كبيراً من الضباط ومن خيرة الجنود ، الذين قضوا فترة طويلة وباستمرار، يحملون السلاح في الحروب التي خاضوا غمارها في ايطاليا ، ويعود الفضل في كل هذا الى كون الملك رجلاً عاقلاً والى ما يسود مملكتـــه من حسن تنظيم . ذلك لأنها في أوقات السلام ، لم تكن قـد تخلت عن التنظيمات المتعلقة بالحرب .

وعندما حرر بيلوبيداس وايبامينونداس مدينتهما طيبة من نير الامبراطورية الاسبارطية ، وجدا نفسيهما في مدينة الفت العبودية ، وبين شعب ضعيف خائر . ومع ذلك فقـد كان لهما من الفضيلة ما مكنهما من عدم التردد في اعداد الشعب عسكرياً وحمله عـلى امتشاق السلاح ، ومـن ان يطهرا الريف بمثل هذا الجيش من فلول الجيش الاسبارطي الذي هزماه ويقول

أحد الكتاب بالنسبة الى هذا الحادث ، ان هذين الرجلين قد اظهرا في وقت قصير ، ان الجنود لا يخلقون في « لاكيديمونيا » فقط، بل حيث يؤكد الناس في أي مكان ، شريطة ان يوجد من يحسن القيام بتدريبهم عسكرياً ، كما رأينا في قصة تولّلوس مع الرومانيين . ولا يمكن التعبير عن هذا الرأي بأحسن مما جاء على لسان فرجيل (Virgil) (١) ، كما لا يمكن لأية ملاحظة ان تصوّره بأحسن من تصويره هو عندما قال عن تولّلوس :

وسيقوم تولّلوس باستثارة رجاله الكسالى
داعياً اياهم الى حمل السلاح .

٢٢

ما تجدر ملاحظته في حادثة « الهوراتيين » الرومانيين الثلاثة والكوراتيين الالبيين الثلاثة أيضاً

عقد تولّلوس ملك رومة اتفاقاً مع متيوس ملك البا ، على ان تتبارز مجموعتان تضم كل واحدة منها ثلاثة رجال ينتمون الى فريق من الفريقين فاذا انتصرت احدى المجموعتين يصبح الشعب الذي تنتمي اليه سيداً على شعب المجموعة الثانية . وقد لقي الكوراتيون الالبيون الثلاثة حتفهم ولم يبق من الرومان « الهوراتيين » الثلاثة الا رجل واحد . وغدا متيوس، ملك البا،تبعاً لذلك ، مع شعبه خاضعين للرومان . وعندما عاد الهوارتي

١ فرجيل فرجيليوس (٧٠ – ١٩) ق. م. شاعر الرومان الكبير . ولد قرب مانتوا . ودرس في كريمونا (ميلان) ونابولي . طاف في انحاء الامبراطورية . أهم روائعه « الانيياده » ، وهي ملحمة شعرية قصصية تقف على صف مع الياذة « هومر » . – المعرب –

الظافر الى رومة ، التقى شقيقته التي كانت متزوجة من احد الكوراتيين الذين قتلوا ووجدها تندب زوجها الميت،فقتلها أيضاً . وقدّم هوراتيوس الى المحاكمة على هذه الجريمة ، وبعد نقاش طويل ، اطلق سراحه. لا بفضل مزاياه هو. بل بفضل شفاعة والده .

وتجدر بنا ملاحظة الأمور الثلاثة التالية هنا وهي :

١ – يجب على المرء ان لا يغامر أبداً بكل ما يملك على اساس نجاح جزء من قواته .

٢ – انه عند توزيع المكافآت والعقوبات في مدينة حسنة التنظيم يجب ان لا يوازن ابداً بين الاعمال التي تستحق الملامة وبين تلك التي تستحق الثواب .

٣ – ان مما يجفو الحكمة ، ان يختار الانسان سبيلاً ، اذا كان هناك ما يدعوه الى الشك او اذا كان يشك في ان الطرف الثاني من الاتفاق ، قد لا يحافظ عليه . ولأن تصبح دولة خاضعة لاخرى أمر على جانب كبير من الاهمية بالنسبة الى نتائجه ، بحيث لا يمكن تصديق أن أي ملك من الملوك أو أي شعب سيكونان راضيين به ، اذا كانت نتيجته تتوقف على هزيمة ثلاثة من المواطنين . ويشرح سلوك ماتيوس هذه الحقيقة ، اذ عندما انتصر الرومان ، اقر بالهزيمة فوراً ووعد بطاعة تولّلوس ، ومع ذلك ، نجده في أول حملة يقوم بها الرومان بعد ذلك ضد أهل « فيين » ، يقلّب الأمر في معرفة السبيل الذي يمكنه من التخلي عنهم،دأب الرجل الذي تبيّن له ، بعد فوات الأوان ، انه كان متسرعاً في السبيل الذي سلكه .

وأرى ان اكتفي بهذا القدر من الحديث عن النقطة الثالثة ، وان أحصر حديثي في الفصلين التاليين عن النقطتين الاخريين .

٢٣

على المرء ان لا يغامر بكل ما يملك إلا على أساس استخدام قواته كلها وعلى ضوء ذلك ، فان من الاذى ، الدفاع عن المضائق والممرات

لم يكن من الحكمة في شيء ، في أي يوم من الايام ، ان يغامر المرء بكل ما يملك ، دون استخدام قواته كلها . ويمكن القيام بهذه المغامرة بطرق شتى منها ان يعمل المرء كما عمل توللوس وماتيوس، عندما جعلا مستقبل بلديهما كله ، وشجاعة جميع جنودهما رهناً بالشجاعة ، وحسن الطالع اللذين يواكبان ثلاثة من مواطنيهما ، وهم لا يؤلفون الا جزءاً ضئيلاً للغاية من القوات التي تعمل تحت تصرف كل منهما . ولم يدرك هذان الرجلان ، انهما في سلوك هذا السبيل كانا يتجاهلان ما عاناه أسلافهما من متاعب ومشاق في تنظيم مملكتهم ، لتمكينهما من التمتع بحياة طويلة من الحرية ، وان يكون شعب كل منهما المدافع عن حريته، وانهما أي الرجلين ، قد جعلا في مكنة هذه الحفنة القليلة من رجالهما اضاعة كل هذا . ولا ريب في انه لم يكن في وسع هذين الملكين ان يعملا شيئاً اسخف أو اكثر بلادة مما عملاه .

ولا ريب في ان اولئك الذين يقررون، عندما يصل العدو ، الاحتفاظ ببعض المراكز المنيعة والدفاع عن بعض المضائق ، يوقعون أنفسهم في متاعب مماثلة . اذ ان مثل هذا القرار كثير الضرر دائماً ، الا اذا كان المضيق من النوع الذي يستطيع المرء تولي الدفاع عنه بكل ما لديه من قوات ، وفي هذه الحالة يجب اتخاذ هذا السبيل ، أما اذا كان المكان من الضيق بحيث لا يتسع لجميع قواته ، فان اتباع مثل هذا السبيل يكون

امراً خطراً . وما يحدوني الى التفكير على هذا النحو ، هو ان الذين يتعرضون للهجوم من عدو قوي في ارض تحيط بها الجبال ، وفي ارض « ألبية » وعرة ، لم يحاولوا قط الاشتباك مع العدو في مضائقه وجباله، وانما تقدموا منها للقائه في امكنة اخرى ، او انهم كانوا عندما يتبرمون من القيام بمثل هذا ، ينتظرون عدوهم وراء جبالهم في ارض مكشوفة لا في ارض من الطراز « الالبي » الوعر . ولقد سبق لي أن قلت ان الاسباب التي تحملهم على سلوك هذا السبيل ، هي صعوبة الاتيان بعدد كبير من الرجال للدفاع عن المناطق الجبلية ، وذلك بسبب عدم توافر المؤن في المنطقـــة من ناحية، ، بحيث يستطيعون العيش عليها طويلاً ، وبسبب ضيق المكان من الناحية الاخرى ، وعدم اتساعه لاكثر من عدد قليل للغاية ، ممـــا يجعل من المتعذر الوقوف في طريق عدو يأتي بقوات ضخمة لمهاجمته ، لا سيما وان من السهولة بمكان عظيم اتيان العدو بهذه القوات الضخمة ، لانه يستهدف الهجوم والاختراق ، لا الدفاع وتحويل المضيق الى مركز حصين . وليس في وسع المدافعين ايضاً ، انتظار وقوع الهجوم الضخم ، لأنهم لا يعرفون متى يعتزم العدو المرور بتلك الطريق، وعليهم في هذه الحالة ان يجدوا المأوى الذي يمكنهم من البقاء أمـــداً طويلاً في اماكن افترض أنها ضيقة وماحلة . ولهذا فعندما يسقط المضيق الذي ارتأيت الصمود فيه ، والذي اعتمد عليه شعبك وجيشك ، فان هذا الشعب وما يتبقى من الجيش،سيمتلئاذ رعباً وفزعاً ، بحيث يستسلمان، دون ترقب فرصة اخرى لاختبار ما لديهما من جرأة وشجاعة . وهكذا تكون قـــد اضعت كل ما تملك ، على الرغم من الحقيقة الواقعة ، وهي انك لم تستخدم الا جزءاً من قواتك .

ويعرف الجميع الصعوبات التي عاناها هانيبال في عبور جبال الالب التي تفصل بين لومبارديا وبلاد الغال ، والمشقات التي لقيها في عبـــور الجبال الاخرى التي تفصل بين لومبارديا وتسكانيا. ومع ذلك فقد انتظره

الرومان ، على الرغم من هذه الصعوبات في تيسينيوس اولاً . ومن ثم في اريزو ، وذلك لأنهم آثروا ان يباد جيشهم على بكرة ابيه على ايدي العدو في مكان تكون الفرصة فيه ماثلة لتحقيق النصر ، على ان يسوقوه الى جبال الالب ، حيث يلقى الدمار من جراء الاوضاع السيئة الشاقة .

ويرى كل من يقرأ التاريخ في مجمله قراءة تنطوي على التقدير ان عدداً قليلاً من القادة الاكفاء ، قد حاولوا الاحتفاظ بمثل هذه المضائق، وذلك من جراء الاسباب التي سبق لي ذكرها ، ولأن من المحال اغلاق جميع هذه الممرات ، اذا ان الجبال لا تختلف عن الاراضي المكشوفة، في انها لا تضم الطرق المطروقة فحسب ، بل تضم ايضاً طرقاً عدة ، وان كان يجهلها الغرباء ، الا ان الفلاحين يجهلونها ، وهم جماعة في وسعك دائماً ان تحصل على عونهم في اي مكان ، مما يؤدي الى هزيمة خصمك .

وفي وسعنا ايراد مثل حديث على هذه الناحية. اذ عندما كان فرنسوا ملك فرنسا يعتزم في عام ١٥١٥ ، المجيء الى ايطاليا لاستعادة السيطرة على لومبارديا ، كان الاعتراض الرئيسي الذي اثاره اولئك الذين قاوموا المشروع ، هو ان السويسريين يؤلفون خطراً مهدداً على المضائق التي تمر في بلادهم . ولكن التجربة اثبتت انه لم يكن لهذا الاعتراض أي اساس ، اذ تمكن الملك بعد ان تجنب المرور بمضيقين أو ثلاثة من المضائق التي كان السويسريون يتولون حمايتها ، من العبور من طريق كانوا يجهلونها ، وبلغ ايطاليا حيث داهمهم قبل ان يشعروا بوصوله . وانسحب السويسريون فزعين الى ميلان ، وخرج أهل لومبارديا عن بكرة ابيهم يرحبون بالقوات الفرنسية ، عندما أدركوا انهم كانوا مخطئين في التفكير بأن السويسريين قادرون على صد الفرنسيين في المضائق الجبلية .

٢٤

على الجمهوريات ذات التنظيم الصالح ان لا توازن بين المكافآت والعقوبات عند تعيينها

كانت فضائل هوراتيوس ، على درجة كبيرة من العظمة ، وكان لشجاعته الفضل الاكبر في التغلب على « الكوراتيين » وهزمهم، ولكن جريمته في قتل شقيقته كانت مخزية ومعيبة ، وقد تألم لها الرومانيون ألماً شديداً ، حتى انهم حاكموه عليها ، وطالبوا بحياته ، رغم مؤهلاته التي كانت تجمع بين العظمة وبين الجدّة في الوقوع . واذا ما نظر المرء الى هذه الحادثة تبينت له في ظاهرها ، على انها نوع من نكران الجميل الذي يصاحب الشعب احياناً . ولكن اذا ما درسها المرء بأمعان أكثر ، واضعاً نصب عينه نوع المنظمات التي يجب ان توجـد في الجمهورية ، اتضح له ان اللوم يجب ان يوجه الى الشعب لاطلاقه سراحه اكثر منه لرغبته في ادانته . والسبب في هذا انه لا يمكن لأية جمهورية صالحة التنظيم ان تسمح لحسنات مواطنيها بأن تمحو ما يرتكبونه من سيئات ، وان عليها بعد ان تعيّن الثواب للعمل الصالح والعقاب للعمل الطالح ، وبعد ان تكون قد كافأت شخصاً على ما قام به من عمل طيب ان تعاقبه اذا ارتكب بعد ذلك أمراً إدّاً ، دون الاكتراث بما سبق له ان قام به من عمل طيب . وعندما تحترم هذه القوانين احتراماً كلياً ، تتمتع الدولة بحريتها أمداً طويلاً ، والا فانها تتعرض دائماً الى الخراب والدمـار . والسبب في ذلك ان المواطن الذي يؤدي لدولته خدمة بارزة ، ولا يكتفي بما اضفاه عمله عليه من سمعة طيبة وثناء عـاطر ، بل يتجرأ على ان يتوقع القيام بما يسيء ، وقد احيط بالحصانة التي تحول دون عقابه ،

يغدو في وقت قريب على درجة كبيرة من الحماقة بحيث يعرض الحياة المدنية في تلك الدولة الى الضياع .

ولذا فان من الضروري كل الضرورة ، تبعاً لذلك ، ان يكون الى جانب العقوبات التي تفرض بالنسبة الى الاعمال الشريرة ، مكافآت تمنح للاعمال الطيبة ، تماماً كما كانت الحالة في رومة . وحتى لو كانت الجمهورية على درجة كبيرة من الفقر ، ولم يكن في امكانها ان تمنح إلا القليل ، فان عليها ان لا تبخل بهذا القليل ، اذ ان المكافآت الضئيلة التي تقدم الى أي انسان تقديراً له على خدماته مهما كانت كبيرة ، تلقى لديه دائماً ، كل تقبل حسن وكل سرور .

ولا ريب في ان قصة هوراتيوس كوكليس (١) ، وقصة موسيوس سكايغولا ، معروفتان تماماً . فقد تمكن الأول من الصمود أمام العدو ومنعه من عبور احد الجسور ، الى أن انهار هذا الجسر أخيراً . أما الثاني فقد أحرق اليد التي أخطأت عندما كان ماضياً لاغتيال بورسينا ملك التوسكانيين . وقد تلقى كل من الرجلين مقابل هذا العمل البارز، منحة عامة تمثلت في نصفي فرسخ من الأرض .

ولعل قصة مانليوس كابيتولينوس جديرة بالذكر أيضاً . اذ بعد ان تمكن من انقاذ الكابيتول من الغاليين الذين كانوا مرابطين أمامه ، أهداه مواطنوه الذين كانوا قد حوصروا معه كمية قليلة من القمح . وكانت هذه المكافأة مهمة بالنسبة الى الثروة المعروفة في رومة آنذاك . وحدث أيضاً ان مانليوس هذا عندما حاول مدفوعاً بما عرف عنه من

---

١ هوراتيوس كوكليس حفيد الهوراتي الثالث الذي ظل حياً بعد المبارزة الثلاثية التي تحدث عنها مكيافلي ، وقد وقف مع اثنين من زملائه يدافع عن جسر على نهر التيبر ضد بورسينا ملك اللاتين عام ٥٠٧ قبل الميلاد . وقد ظل وحيداً فيما بعد ، ونجا بعبور النهر سباحة بعد ان اثخنته الجراح ، فانهالت عليه مظاهر التكريم .

— المعرب —

حسد ، أو بطبيعته السيئة ، القيـــام بفتنة في رومة ساعياً الى اكتساب الشعب الى صفه ، لم يكترث احد بمآثره السابقة ، وانما اطيح به من الكابيتول ، الذي سبق له ان انقذه ، واشتهر أمره بأنقاذه .

الكتاب الأول
المطارحات من ٢٥ إلى ٢٧

إدخال أنواع جديدة من الحكم

٢٥

على كل راغب في تبديل نظام ثابت للحكم في دولة مستقلة ، أن يحافظ على الاقل على ظل لعاداتها القديمة

على كل من يرغب في إبدال شكل الحكومة في دولة من الدول أو يقترح هذا الابدال ، ويرغب في ان يجعل عمليته مقبولة من الشعب ، وفي ان يتمكن من الحفاظ عليها مع رضى الجميع عنها ، ان يحافظ على الأقل على ظل عاداتها القديمة ، بحيث لا تبدو تنظيماتها الى شعبها وكأنها قد تبدلت،على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان التنظيمات الجديدة

قد تكون مختلفة اختلافاً جذرياً عن سابقتها . وعليه ان يحرص على ذلك لأن الناس عامة ، إكثر تأثراً بما تبدو عليه الامور منهم بحقيقتها ، كما انهم اكثر انطباعاً عادة بالمظاهر منهم بالوقائع والحقائق .

وقد ادرك الرومان لهذا السبب ، حاجتهم الى مثل هذا منذ البداية أي منذ توصلوا الى حريتهم ،وعندما انتدبوا قنصلين ليقوما باعباء الملك بعد الاطاحة بالملكية ، قرروا أن يكون لها اثنا عشر ضابطـاً ، وذلك حتى لا يتفوق عدد هؤلاء الضباط على ما كان عليه في ايام الملوك .

يضاف الى هذا ، انه بالنسبة الى ما جرت عليه عادتهم من أن الملك هو الذي يقوم شخصياً بتقديم القرابين التذكارية ، ولما كان الرومان لا يرغبون في أن يؤدي الافتقار الى الموافقة الملكية الى خلق شيء من الحنين عند الشعب بالنسبة الى الماضي ، فقد انتدبوا موظفاً للتشريفــات اطلقوا عليه اسم « ملك الاضاحي » وجعلوه تابعــاً لرئيس كهنتهم . وهكذا رضي الشعب بالطريقة الجديدة في تقديم الاضاحي ، ولم تتح لهم الفرصة بسبب الافتقار الى الملك ، الى الرغبة في عودته الى حيز الوجود .

وعلى كل من يفكر في الغاء شكل قديم من اشكال الدستور في الدولة ان يلاحظ هذه القصة ، اذا أراد ان يضع شكلاً جديداً حراً ، اذ لما كانت الاشياء الجديدة تحمل الناس على تغييـر آرائهـم ، فعليك ان تتأكد من ان هــذه التبدلات تحتفظ بالقديم على قدر الامكان ، واذا وقعت هناك تبدلات في عدد القضاة وسلطتهم ، ومدة خدمتهم الرسمية ، فان من الواجب حفاظهم على اسمائهم التقليدية القديمة .

ومن واجب كل من يقترح اقامة نظـام سياسي ، سواء أكان عن طريق الجمهورية او عن طريق الملكية ، ان يتذكر هــذه الحقيقة على النحو الذي أوردته . اما الذي يرغب في اقامة نظام « طغياني » ، أو ما يسميه الكتاب بالملكية الاستبدادية ، فعليه ان يجدد كل شيء كما سيتضح من الفصل التالي .

٢٦

على كل من يتسلم الحكم في مدينة أو امـــارة ان يجدد كل شيء فيهـــا

اذا اصبح رجل حاكماً في مدينة أو في دولة ، وكان لا يتمتع على الأخص ، بمركز ثابت فيها ، وكان لا يصلح ما يحكمه لا للحياة المدنية التي تتميز بها المملكة ولا لتلك التي تتميز بها الجمهورية ، فان خير ما يفعله للاحتفاظ بها ، شريطة ان يكون أميراً جديداً عليها ، ان يعيـد تنظيم كل شيء فيها على اسس جديدة ، كأن يعين حكاماً جـــدداً في مدنها ، لهم ألقابهم وسلطانهم الجديدة ، وان يكونوا هم ، جديرين في عملهم ، وان يحيل اغنياءها الى فقراء ، وفقراءها الى اغنياء ، تماماً كما فعل داود عندما اصبح ملكاً « فملأ بطون الجياع بالاشياء الطيبة ، وبعث بالاغنياء خاوية بطونهم » ، وان يقوم ببناء مدن جديدة بعد ان يدمر القائمة منهـــا ، وان ينقل السكان من مكان الى آخر ، يبعد عنه كل البعد، وان لا يترك، بالاختصار،أي شيء من الامارة السابقة في مكانه، وان ينزع منها كل شيء حتى الرتب والتنظيمات وشكل الحكومة والثروة، باستثناء ما يمكن الاحتفاظ به على انه شيء صادر عنه .

وعليه ان يستهدف تقليـــد فيليب المقدوني والاسكندر ، الذي بدأ حياته ملكاً صغيراً ، فاتبع مثل هذه الطرق ، وأعلن نفسه اميراً عـلى اليونان . ولقد وصفه احد الكتاب بأنه كان ينقل الناس من مقاطعة الى اخرى ، كما ينقل الراعي اغنامه .

ومثل هذه الاساليب بالغة في قسوتها ، وقد ينقم عليها أي مجتمع ، لا المجتمع المسيحي وحده ، بـل كل مجتمع يتألف من بني الانسان . ويجدر بكل انسان ان يزدري هذه الاساليب تبعاً لذلك،وان يؤثر العيش

كمواطن عادي ، على ان يكون ملكاً له مثل هـذا السجل في خراب الناس ودمارهم . ومع ذلك ، فان من مصلحة ذلك الانسان الذي لا يرغب في اتباع ذلك الطريق من عمل الخير ان يقتحم،اذا أراد الحفاظ على ما يملك ، طريق الشر . ويؤثر معظم الناس في الحقيقة،اتباع طريق وسط ، وهو أمر ضار كل الضرر،وذلك لجهلهم كيف يكونون طيبين كلية ، وكيف يكونون سيئين كل السوء ، وهذا ما سنظهره في المثل الذي سنضربه في الفصل التالي .

٢٧

يندر أن يعرف الناس طريقة العمل كصالحين كل الصلاح أو طالحين كل الطلاح

عندما ذهب البابا يوليوس الثاني الى بولونا عام ١٥٠٥ لطرد اسرة « البنتغوغلي » (١) من تلك الدولة ، بعد ان كانت هذه الاسرة قد احتفظت بالمدينة امارة لها أكثر من مائة عام ، قرر أيضاً اخراج جيوفامبا غولو باغليوني من مدينة بيروجيا التي كان يحكمها على طريقة

١ اسرة من الاسر الايطالية النبيلة ، حكمت مدينة بولونا طيلة القرن الخامس عشر . وكان من أبرز رجالها جيوفاني الذي استعاد عرش والده في بولونا عام١٤٦٢بعد أن قتله بعض أعدائه.وامتاز حكمه بالصرامة والقسوة وان تبنى العلم والفنون الجميلة وجعل من بولونا مدينة جميلة . وقد طرده البابا يوليوس الثاني منها عام ١٥٠٦ (لا عام ١٥٠٥ كما يقول مكيافلي ، ولعلها من بعض أخطائه التي تشير إلى افتقاره إلى الدقة) بعد حكم دام ٤٤ عاماً ، ففر مع اسرته إلى ميلان حيث مات بعد سنتين . واعاد الفرنسيون ولديه إلى عرش بولونا عام ١٥١١ ، ولكنهم ما لبثوا ان طردوا منها بعد انكسار الفرنسيين في العام التالي . وهاجرت الاسرة إلى فيرارا حيث برز شأنهم فيها من جديد في القرنين السادس عشر والسابع عشر . — المعرب —

الطغاة ، وذلك لأن البابا كان قد اقسم يميناً على الخلاص من جميـــع الطغاة الذين كانوا قد اغتصبوا أملاك الكنيسة . ولما كان قد اتخذ قراره هذا ، ورغبة منه في تحقيق هدفه ، كما يعرف كل انسان ، فقد سارع الى بيروجيا،ولم ينتظر وصول الجيش الذي كان من المفروض ان يتولى حمايته قبل دخول المدينة ، وانما دخلها أعزل من كل شيء،على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان جيوفامباغولو ، كان يقيم في المدينة شخصياً على رأس قوة كبيرة من الجنود الذين كان حشدهم للدفاع عن نفسه . وهكذا دفعه تهوره،الذي كان الطابع العام لكل ما يقوم به من اعمال ، الى ان يضع نفسه والحارس الوحيد الذي كان يرافقه،تحت رحمه عدوه، ومع ذلك فقد نجح في حمل عدوه معه ، تاركاً في المدينة حاكماً يكون مسؤولاً أمام الكنيسة .

وقد دهش جميـــع الرجال العاقلين الذين كانوا مع البابا من هذا التهور الذي أبداه ، ومن الجبن الذي ظهر به جيوفامباغولو،ولم يستطيعوا ان يفهموا ، كيف ان الاخير لم يحاول الحصول على الشهرة الدائمة ، بالخلاص من عدوه بضربة واحدة ، واغناء نفسه بجماع الغنيمة ،اذ كان يرافق البابا جميع الكرادلة ، بكل ما يظهرون فيه من فخامة وبذخ في اللباس ، ولم يستطيعوا ان يصدقوا ، ان دافعاً طيباً هو الذي حمله على هذا الموقف ، أو ان ضميره ، هو الذي حال بينه وبين ذلك العمل ، وذلك لأن ضمير المجرم الذي ارتكب الخنا مع شقيقته ، والذي قتل ، رغبة منه في الوصول الى العرش جميع أولاد أعمامه ، وأبناء اخوته ، لا يمكن ان يتأثر بأي اعتبار من اعتبارات الورع والتقوى . واستخلصوا من هذا الموقف ، ان السبب فيه يعود الى جهل بعض الناس بالطريقة التي يكونون فيها في منتهى السوء ، أو غاية الصلاح ، وانه لما كانت أعمال الشر تنطوي على بعض نواحي العظمة،وتكون رحبة الباع بطريقتها الخاصة ، فأن جيوفامباغولو ، كان أعجز من ان يستطيع الاقدام على

ارتكابها .

وهكذا لم يستطع جيوفامباغولو ، الذي لم يتورع عن الخنا ، ولا عن قتل أقربائه بصورة علنية ، ان يعرف ، بل لم يجرؤ ، على اهتبال فرصة ممتازة اتيحت له ، للقيام بعمل كان يحمل الناس جميعاً على الاعجاب بشجاعته ، وكان كافياً لاكسابه شهرة أبدية خالدة ، وذلك لأنه سيكون في هذه الحالة أول من يظهر للأحبــــار مدى ما يلقاه صغار الناس من احترام ، عندما يعيشون ويحكمون وفق الطريقة التي كانوا يحكمون فيها ويعيشون ، وبذلك يكون قد قام بعمل ، تمحو عظمته كلاً ما سبق له ان ارتكبه من خزي وعار ، وتزيل كل خطر يمكن ان ينجم عنه.

الكتاب الاول
المطارحات من ٢٨ إلى ٣٢

نكران الجميل

٢٨

لم كان الرومان أقل نكراناً لجميل مواطنيهم من الاثينيين ؟

يجد كل من يقرأ ما قامت به الجمهوريات من اعمال ، شيئاً من مذاق نكران الجميل ، في الطريقة التي تعامل فيها هذه الجمهوريات مواطنيها ، ولكنه يجد حتماً في اعمال رومة نكراناً أقل من نكران اثينا أو غيرها من الجمهوريات . واني لأعتقد ان السبب في هذا يعود الى ان رومة لم تكن تجد مبررات كثيرة للشك في مواطنيها بقدر ما وجدته اثينا . ويستطيع المرء ان يرى في رومة ، منذ طرد الملوك ، الى ايام صولا وماريوس ، ان المدينة لم تحرم من حريتها قط على يدي أي من

مواطنيها ، وهكذا لم يكن هناك بالنسبة اليها أي مبرر ضخم يدعوها الى الشك فيهم ، وان تعمل نتيجة لذلك وبصورة متهورة على الاساءة اليهم .

وكانت الحالة على النقيض من ذلك في اثينا، فقد حرمها بيزيستراتوس (Pisistratus) (١) من حريتها في ايام عصرها الذهبي ، وذلك بسبب فكرته الخاطئة عما يصلح لها . وهكذا عندما تحررت ثانية ، وتذكرت ما لحق بها من اساءات ، وما عانته من عبودية في الماضي ، مالت فوراً الى الثأر ، لا عندما يرتكب ابناؤها بعض الاخطاء فحسب ، بل وعندما يرتكبون ما يشبه الاخطاء . وهكذا توالت أعمال النفي والاعدام التي وقعت بعدد من خيرة ابنائها . وابتكر فيها نظام الابعاد والحرمان وغيره من انظمة العنف التي استخدمت في شتى الاوقات في تلك المدينة ضد ابناء طبقتها العالية . ولا ريب في ان كتّاب « الحكم المدني » صادقون كل الصدق عندما يقولون ان الشعوب تكون اكثر ايلاماً في وحشيتها عندما تستعيد حريتها ، منها عندما تكون قد عاشت في ظل هذه الحرية أمداً ما .

وعلى ضوء ما قلت ، لا يمكن للمرء تبعاً لذلك ، ان يوجه اللوم الى اثينا ، او الاطراء الى رومة على ما وقع فيهما ، بل يجب ان يعزو كل ما حدث الى الضرورة والحاجة ، وهي ضرورة جاءت بها الاحداث التي اختلفت في طبيعتها الى هاتين المدينتين . واذا ما أمعن الانسان النظر في الامور، رأى ان رومة لو حرمت من حريتها كما حرمت منها أثينا ، لما نظرت الى مواطنيها بعين التجلة بشكل يفوق ما كانت أثينا تتطلع بها

---

١ بيزيستراتوس – سياسي اثيني بارز (٦١٢ – ٥٢٧) ق. م. حكم اثينا حكماً طغيانياً ثلاث مرات . كان صديقاً لصولون واضع دستور اثينا . رئس أحد الاحزاب الثلاثة المتنازعة على السيطرة في أثينا ، وتغلب على الحزبين الباقيين وأصبح طاغية في اثينا . وثارت عليه المدينة فابعد ، ولكنه عاد اليها ، ثم ثارت ثالثة وابعد ليعود للمرة الأخيرة. أقام عدداً من الهياكل في المدينة .

– المعرب –

اليهم . ويصبح هذا محتمل الوقوع الى حد بعيد ، اذا تذكرنا ما وقع بعد طرد الملوك،ولا سيما بالنسبة الى كولاتينوس وبوبليوس فالبريوس ، فلقد نفي الاول من المدينة على الرغم من انـــه كان أحد الذين عملوا كثيراً على تحريرها ، لمجرد انه حمـل اسم « الترقونيـــين » وهو اسم الملوك السابقين ، بينما نجا الثاني من حياة الابعاد بأعجوبة ، وقد تعرض لها ، لأن الاتهامات وجهت اليـه بسبب بيت كان قـد بناه على تلة « كايليان » . ولا ريب في ان ما أبدته رومة من شك وقسوة في هاتين الحادثتين ، تحملان المرء على الاعتقاد بأن رومة ، كانت تظهر حتمـاً ما أظهرته أثينا من نكران الجميل ، لو انها كأثينا ، قد أصابها الأذى، من ابنائها في مستهل ايامها ، وقبل ان يشتد عودها . ولما كنت لا أرى بـي حاجة للعودة الى موضوع نكران الجميل هذا فيما بعد،فأنني سأكتفي بسرد ما يعن لي من ملاحظات عنه ، في الفصل القادم .

٢٩

أيهما أكثر نكراناً للجميل ، الأمير أو الشعب ؟

يبدو لي بالنسبة الى هذا الموضوع ، الذي جعلناه مدار حديثنا ، ان من المناسب ان نسأل عما اذا كان الشعب أو الأمير ، أكـــثر تصويراً لنكران الجميل واني لأفترض ان خير طريقة للبدء في بحث هذا الموضوع، هي القول بأن رذيلة نكران الجميل تنشأ اما عن الجشع او عن الشك . اذ عندما يعهد شعب أو أمير ، الى أحد القادة العسكريين بتولي قيادة حملة مهمة ، ويحقق هذا القائد النصر ، ويحصل على الكثير من المجد ،

فأن من واجب الامير او الشعب ، ان يكافئه على ما حققه . واذا ما قاما بدلاً من مكافأته ، بالاساءة اليه او التنكر له ، وكان الجشع هو الدافع لهما على هذا السلوك ، أي ان الطمع هو الذي حال بينهما وبين الرغبة التي يشعران بها في ارضائه ، فأنهما يكونان في سلوكهما هذا قد اقترفا خطيئة لا مبرر لها أبداً ، ، وستقترن الى أبد الآبدين بالخزي والعار . ومع ذلك فهناك كثيرون من الامراء الذين يسلكون هذا السبيل ويسيئون الى الناس بسلوكهم . ويوضح لنا كورنيليوس تاسيتوس السبب فيه عندما يقول : « ان المرء أكثر ميلاً لرد الاساءات منه الى رد الحسنات ، اذ ان من الاعباء الثقيلة ، منح الهبات ، بيسما يكون الثأر جم الفوائد والنفع » .

ولكن عندما يكون الشك لا الجشع ، هو السبب الذي حال بينهما وبين مكافأة القائد على عمله ، والذي دفعهما الى الاساءة اليه، فأن بعض المبرر يكون قائماً في هذه الحالة بالنسبة الى الشعب والأمير . وهناك أمثلة عدة مستمدة من التاريخ على هذا الطراز من نكران الجميل الذي ينشأ عن هذا السبب ، وذلك لأن القائد الذي تمكن بشجاعته من توسيع رقعة ممتلكات سيده ، ومن اخضاع اعدائه وقهرهم ، والذي اكتسب الأمجاد لنفسه والمغانم لجنوده ، لا بد وان يكون قد حصل في نفس الوقت على شهرة مماثلة مع قوانه وعند أعدائه ورعايا سيده ، بحيث لا يبدو ما حققه من انتصار ، شيئاً حسناً في عيني سيده الذي عمل تحت امرته . ولما كان الناس بطبعهم طموحين وكثيري الشكوك، ولا يعرفون كيف يستخدمون الاعتدال ، عندما تكون طوالعهم موضع البحث ، فأن من المستحيل كل الاستحالة ، ان لا يتضاعف الشك الذي يتولد عند الامير بعد انتصار أحد قادته،من جراء حماقة تظهر في سلوك هذا الرجل وحديثه . ولما كانت الحالة على هذا النحو فأن الامير لا يستطيع الا ان يبحث عن سلامته الشخصية ، ولتحقيق هذه الغاية ، فأنه قد يفكر في

اعدامه او في حرمانه من مركزه الذي حصل عليه عند جيشه هو وعند شعبه ، وذلك بالاشارة باستمرار ، الى ان النصر لم يكن ثمرة شجاعة القائد وانما ثمرة الحظ ، وانه جاء نتيجة أحد امرين اما جبن العدو او حكمة الضباط الآخرين الذين اشتركوا معه في العملية العسكرية .

وعندما اعلن فسباسيان امبراطوراً على رومة ، من قبل جيشه، وكان آنذاك في جبال اليهودية (جبال في فلسطين).انضم انطونيوس بريموس الذي وجد نفسه على رأس جيش آخر في الليريا ، الى جانبه ، وزحف على ايطاليا لمهاجمة فيتيليوس الذي كان يسيطر على مدينة رومة . وقد تمكن هذا بفضل شجاعته الفائقة من تحطيم جيشين من جيوش فيتيليوس، واحتلال رومة . ووجد موكيانوس،ناثب فسبسيان،ان شجاعة انطونيوس قد حققت لسيده كل شيء وذللت أمامه كل صعوبة . وكانت المكافأة التي لقيها انطونيوس من موكيانوس ، هي عزله فوراً عن قيادة جيشه، والحط من شأنه شيئاً فشيئاً في رومة ، الى ان غدا دون اي سلطان . وعندما مضى هذا الى مقابلة فسبسيان وكان لا يزال في آسيا ، كانت مقابلته له من النوع الذي جعله يغدو قبل مضي وقت طويل انساناً لا قيمة له ، ليموت بعدها ، وقد سيطر اليأس على فؤاده .

والتاريخ حافل بمثل هذه القصص والحالات . وكل من يعيش في عصرنا هذا ، يعرف كيف أن غونزالفو فيرانتي ، عندما كان يحارب الفرنسيين في مملكة نابولي ، بالنيابة عن فرديناند ملك الاراغون ، تمكن بفضل مثابرته وشجاعته من احتلال تلك المملكة بعد التغلب عليها.وكيف ان الجزاء الذي لقيه على انتصاره ، عند وصول فرديناند الى نابولي قادماً من الاراغون عزله من قيادة الجيش في الميدان ، ونقله معه الى اسبانيا عند عودته اليها حيث انتزع منه قلاعه ، ومات بعد فترة قصيرة ميتة المغمورين . ويكون هذا الشك الطبيعي قوياً عند الامراء الى الحد الذي لا يمكن درؤه وتجنبه ، ومن المستحيل على الامراء ان يظهروا الاعتراف

بالجميل الى اولئك الذين حققوا بانتصاراتهم فتوحات ضخمة تحت رايات الامراء أنفسهم .

ولما كان الأمير عاجزاً عن التصرف في هـذه القضية ، فليس من المدهش ، ولا من الاهمية التي تدعو الى الملاحظة اذا عجز الشعب أيضاً عن التصرف فيها . فلكل مدينة تسودها الحرية غايتان تتطلع اليهما، اولاهما توسيع رقعتها وثانيتهما الحفاظ على حريتها . وفي وسع المرء ان يخطىء عن طريق المبالغة . وسندرس قضية الاخطاء التي تقترف عند التوسع في المكان المناسب لها . أما الاخطاء التي ترتكب في قضية الحرية فهي كثيرة، ومنها الاساءة الى المواطنين الذين يستحقون المكافأة ، والشك في الذين يجب ان يكونوا موضع الثقة . وقد يؤدي السلوك الذي تتبعه الجمهورية في كلتا الناحيتين ، عندما تكون فاسدة ، الى شرور كبيرة ، تساعد على مجيء نظام الطغاة ، كما حدث في رومة، عندما انتزع قيصر عنوة، ما حرمه نكران الجميل منه . أما في الجمهوريات التي لم تفسد بعد ، يكون هذا السلوك نافعاً ويؤدي الى دعم قضية الحرية ، وذلك لأن الناس يصلحون خوفاً من العقاب احوالهم ويغدون اقل طموحاً .

وكانت رومة اقل نكراناً للجميل بين الشعوب التي اقامت امبراطوريات لها عن طريق الوسائل التي سبق ذكرها ، وليس ثمة من مثال يمكن ان يذكر على نكرانها للجميل ، الا ما وقع لشيبيو . فلقد أبعد كوريولانوس وكاميلوس من المدينة بسبب المساوىء التي ألحقاها بالشعب . يضاف الى هذا انه على الرغم من ان أحدهما لم يصفح عنه قط ، بسبب مناصبته العداء دائماً للشعب ، فان الشعب لم يكتف باستدعاء الآخر . بل حمله على ان يعيش ما تبقى من حياته ، وهو يلقى ما يلقاه الامراء عادة من حسن معاملة . أما نكران الجميل الذي عومل به شيبيو فقد نشأ من الناحية الثانية ، عن الشك الذي بدأ يساور المواطنين نحوه ، والذي لم يحسوا به تجاه أي شخص آخر . ولا ريب في ان السبب في ذلك راجع الى

عظمة العدو الذي قهره شيبيو ، والى الشهرة التي اكتسبها بانتصاره ، بعد مثل هذه الحرب الطويلة والمليئة بالاخطار ، والى السرعة التي حقق فيها هذا النصر ، وكذلك الى المكاسب التي نالها عن طريق شبابه وحكمته وفضائله البارزة الاخرى . وكانت هذه المزايا كلها من السبروز بحيث خاف القضاة من اتساع سلطته ، وقد اغضب هذا الوضع عقلاء المدينة لا سيما وان المدينة لم تكن قد الفت مثله من قبل ، وقد بدا مركز شيبيو غريباً الى الحد الذي دفع كاتو (Marcus Priscus Cato) (١) الاكبر ، وهو من شيوخ المدينة ، ومن المعروفين بقداسته فيها ، الى ان يكون أول من وجه اليه الانتقاد ، على اعتبار ان أية مدينة لا يمكن ان تعتبر حرة ، اذا كان فيها مواطن يخشاه القضاة ، وعلى هذا . فاذا كان شعب رومة ، قد اتخذ في هذه القضية نفس الموقف الذي اتخذه كاتو ، فان هناك ما يبرر لهم هذا الموقف ، وهذا ما قلته قبل قليل عن الشعوب والامراء، الذين يرجع نكران الجميل عندهم الى عنصر الشك.

وأقول في ختام هذه المطارحة ، انه لما كانت رذيلة نكران الجميل، قد تحدث اما نتيجة الجشع أو الشك ، فان المعروف ان الشعوب لا تتظاهر بها قط اذا كانت ناتجة عن الجشع ، اما اذا كانت ناتجة عن الشك ، فان تظاهر الشعوب بها ، اقل بكثير من تظاهر الامراء، وذلك لان دواعي الشك عند الشعوب اقل منها عند الامراء . وهذا ما سأشرحه فيما بعد .

---

١ ماركوس بريسكوس كاتو (٢٣٤ – ١٤٩) ق. م. من ساسة الرومان البارزين . وتولى القنصلية في رومة بعد تدرجه في المناصب رغم انه كان من العامة . حقق انتصارات عسكرية مجيدة في الحرب البونية على قرطاجنة ، كما انتصر على انطوخوس الثالث، وفي معارك اسبانيا . كان الداعية الأكبر لما لحق بشيبيو من اضطهاد على يدي رومة رغم انتصاره العظيم على قرطاجنة متهماً اياه بالترف وكثرة الانفاق . يعتبره شيشرون وليفي رمزاً للروماني الصالح .
– المعرب –

٣٠

الخطوات التي يجب أن يتخذها الأمير أو تتخذها الجمهورية لتجنب رذيلة نكران الجميل . وما يجب على القائد أو المواطن عمله إذا كانا لا يريدان احتمال العناء من جرائها

على الامير اذا أراد تجنب ضرورة قضاء ايامه في الشك بالناس واظهار نكران الجميل ، ان يتولى بنفسه قيادة جيوشه في الحملات العسكرية ، كما كان يفعل أباطرة الرومان في مستهل عهد الامبراطورية ، او كما يفعل سلطان الاتراك اليوم ، او كما دأب الشجعان من الامراء على العمل في الماضي والحاضر ايضاً . والسبب في ذلك ، ان الامراء اذا فازوا ، كانت الامجاد والمناطق المحتلة من نصيبهم كلها ، اما اذا لم يقودوا الجيوش بأنفسهم ، فأن الامجاد تكون من نصيب غيرهم ، وسيشعرون حتماً ان الاراضي المحتلة لن تألفهم ، الا بعد نسيان أمجاد الآخرين ، وهي أمجاد يخيل الى الامراء انها غير خليقة بالاكتساب . وهكذا يغدو هؤلاء الامراء ناكرين للجميل وبعيدين عن العدالة ، وبذلك تكون خسارتهم حتماً اكثر من ربحهم . أما اذا قعدوا عاطلين في بيوتهم بسبب الاهمال ، او الافتقار الى التعقل والحكمة ، وبعثوا بقادتهم عوضاً عنهم الى ميادين الوغى ، فليس ثمة من مثل أستطيع ان اقدمه اليهم خيراً من المثل الذي يستطيعون العثور عليه بأنفسهم .

أما بالنسبة إلى القائد ، فأود ان اشير الى انه لما كان عاجزاً في رأيي عن تجنب الوقوع فريسة لنكران الجميل ، فأن عليه ان يعمل احد أمرين ، الامر الاول ان ينسحب من الجيش بعد تحقيق النصر مباشرة ، ليضع نفسه تحت تصرف اميره ، ممتنعاً عن كل عمل فيه طعم العطرسة

او الطموح ، وذلك لئلا يمكن اميره من ايجاد اي مبرر للشك، وبذلك يضمن اما الحصول على مكافأته ، أو تجنب ضرره على الأقل ، وأما الأمر الثاني . فان عليه ، اذا لم ير جدوى من اتباع الطريقة الأولى ، ان يسير على عكسها تماماً ، وهي بذل كل جهد لحمل الشعب على الاعتقاد بأنه هو الذي حقق له الفتح،لا الامير ، وتقوية نفسه بالتقرب الى الجنود والى الرعية، والدخول في علاقات ودية مع الدول المجاورة، والعهدة الى رجاله بامتلاك القلاع ورشوة كبار ضباط جيشه ، والتأكد من ولاء اولئك الذين لا يستطيع رشوتهم ، وان يعمل بطرق كهذه على عقاب سيده لنكران الجميل الذي كان من المحتمل ان يلقاه منه وليس ثمة من سبيل ثالث . ولقد سبق لي ان قلت ، ان الناس يجهلون طريقة السير في سبيل ليس فيه الا الصلاح كل الصلاح،او الطلاح كل الطلاح. ولهذا فان ما يحدث عادة ، هو ان يكره القادة التخلي عن قيادتهم فوراً بعد النصر،اذ يجدون من الصعب عليهم ان يسلكوا سلوكاً متواضعاً ، ولكنهم مع ذلك يترددون في اللجوء الى الوسائل العنيفة ، حتى ولو جاءت دفاعاً عن قضية نبيلة ، وهذا يؤدي الى هزيمتهم بالنسبة الى غموض موقفهم اثناء فترة التردد والشك التي يمرون فيها .

وليس من الممكن ان نصف للجمهوريات التي ترغب في تجنب رذيلة نكران الجميل نفس العلاج الذي وصفناه للامراء ، وهو مرافقة قواتها، لا ارسالها تحت امرة احد القادة ، وذلك لان الجمهوريات تجد نفسها مضطرة الى ايفاد احد ابنائها لتولي القيادة . اما العلاج الذي أود ان أصفه في هذه الحالة ، فهو ان تسير هذه الجمهوريات على غرار الطرق التي كانت تستخدمها جمهورية رومة ، وهي طرق حملتها على ان تكون اقل اظهاراً لنكران الجميل من غيرها . وكان هذا الوضع ثمرة الاسلوب الذي اتبع في حكمها ، اذ كانت تستفيد في ايام الحروب من خدمات كل من يقيم فيها ، سواء اكان من النبلاء أو من غيرهم ، وقد أسفر

هذا عن وجود عدد كبير من الرجال « الافاضل » (يعني الشجعان) ، في رومة في كل حقبة من حقبها ، وقد كلل كل منهم هامته بأكاليل الغار والانتصار ، بحيث لم يعد ثمة مبرر لدى الشعب للشك في أي منهم، وذلك بالنسبة الى وفرة عددهم ، والى تحسب الواحــد منهم لزميله . وكان هؤلاء في الحقيقــة ، يحرصون كل الحرص ، على الحفاظ على كرامتهم ، ويجهدون كل الجهد في اجتناب كل ما يوحي بوجود الطموح كغريزة عندهم ، مخافة ان يؤدي هذا الايحاء ، الى حمل الشعب عــلى مهاجمتهم بوصفهم من اصحاب المطامع ، ونتج عن كل هذا ، انـه عندما كان يعين احد الديكتاتورين ، كان هذا الديكتاتور ، يكتسب شهرة عند استقالته اكبر من الشهرة التي كانت له اثناء حكمه . ولما كان مثل هذا السلوك لا يستفز الشك عند الناس ، فأنه لم يكن أيضاً يستفز نكران الجميل ، وعلى ضوء مـا قلت ، على كل جمهورية لا ترغب في ان يكون لها سبب يحملها على نكران الجميل ، ان تقيم نظام حكمها طبقــاً للنظام الذي اتبعته رومة في حكمها ، وعلى كل مواطن يود البقاء في نجوة من براثن نكران الجميل ، ان يحافظ على البقاء ضمن حدود السلوك التي حافظ المواطنون الرومان على البقاء فيها .

٣١

لم يتعرض القادة الرومان قط الى عقوبات صارمة على اخطائهم ولم يحاسبوا قط أيضاً على جهلهم أو خطل احكامهم على الرغم مما الحقوه بالجمهورية من أذى

لم يكن الرومان ، كما سبق لي ان قلت في اطروحة سابقة ، أقـل

نكراناً للجميل من غيرهم فقط ، بل كانوا أيضاً أكثر حكمة وعناية في محاسبة قادة جيوشهم ، من أية جمهورية أخرى . اذ لو ارتكب هؤلاء القادة خطأ بقصد سيء ، فأن عقابهم كان دائماً من النوع الرحيم ، أما اذا كان هذا الخطأ ناشئاً عن الجهل ، فأن الرومان ما كانوا يعاقبون المسؤول عنه أبداً بل كانوا يكافئونه وينعمون عليه بمظاهـر الشرف . وقد حاز هذا النوع من الاجراء على موافقتهم ، لأنهم كانوا يرون ان من المهم كل الأهمية ، بالنسبة الى من يتولون قيادة جيوشهم، ان تكون عقولهم صافية ومنطلقة وغير مرتبكة ، وان لا يقلقوا أنفسهم بقضايا لا تمت الى قياداتهم بصلة ، وذلك عند اتخاذهم قراراتهم ، لأن الرومان لم يكونوا يرغبون في اضافة متاعب ومخاطر جديدة الى المتاعب والمخاطر التي يواجهها القادة في اداء مهمتهم ، اذ لو كانوا في وضع مرتبك ، لما سلك أي منهم سلوكاً فاضلاً . ولنضرب مثلاً بالجيش الذي بعثوا به الى حرب فيليب المقدوني ، او الجيش الذي حارب هانيبال في ايطاليا او الجيوش التي أوفدوها لحرب الشعوب التي أخضعوها في مستهل عهدهم. فقد كان القائد الذي يتولى قيادة أية حملة من هذه الحملات، يواجه من المتاعب ما يكفيه في ادائه لمثل هذه المهمة الخطيرة والعظيمة . ولو اضيفت الى هذه المتاعب ، ذكريات عن الحالات التي صلب فيها الرومان او أعدموا أحد قادتهم لأنه خسر معركته ، لكان من المستحيل على هـذا القائد ، وقد أشغلت فكره هذه الصور ، ان يركز كل ما لديـه من تفكير على المهمة التي تواجهه . ولهذا كان الرومـان يرون ، ان العار الذي يحس به مثل هؤلاء القادة ، اذا خسروا معاركهم ، عقاب كاف لهم، ولهذا فقد آثروا ان لا يزعجوهم ويفزعوهم بفرض عقوبات أكبر وأعظم من هذه العقوبة .

ولنضرب هنا مثلاً على خطيئة لم يكن الجهل سبب اقترافهـا . فقد عهد الى كل من سيرجيوس وفيرجينيوس ، بقيادة قطـاع من الجيش

الضارب نطاقاً على مدينة في . وكان سيرجيوس يقف على طريق قد يستخدمها التوسكانيون في الزحف لمهاجمته . اما فيرجينيوس ، فكان في الناحية الثانية من المدينة . والذي حدث هو ان الفاليسكي ، وغيرها من القبائل هاجمت سيرجيوس، فـآثر هذا ان يهزم على ان يستنجد بفيرجينيوس طالباً عونه ، بينما آثر الاخير ، وقد توقع هزيمة زميله ، واصراراً منه على اذلاله ، ان يرى العار يلحق ببـلاده والدمار يصيب جيشها الذي يقوده سيرجيوس ، على ان يتولى نجدته دون طلب منه . ولا ريب في ان هذه الحادثـة قضية من قضايا سوء التصرف في الواضح ، ويجدر بالانسان ان يلاحظها ، لا سيما وانها من القضايا التي كان من المنتظر ان تعكس انطباعاً سيئاً عن الجمهوريـة الرومانيـة لو لم يعاقب واحد من القائدين على الأقل . وكل ما فعلته رومة معهما ، انها فرضت عليهما الغرامة ، بينما لو واجهت أية جمهورية أخرى مثل هذا الوضع لفرضت عليها عقوبة الاعدام.ولم تكن عقوبة الرومان الخفيفة ناشئة عن اعتقادهم بأن ما ارتكبه القائدان لا يستحق عقوبة أكبر ، وانما نشأت عن ايثارهم في هذه القضية للأسباب التي سبق ايرادها ، التمسك بأعرافهم العريقة في الرحمة مع القادة .

ولعل أبلغ مثال على الاخطاء التي يكون الجهل مصدرها،قصة فارو، الذي أدى تهوره الى هزيمة الرومان في معركة «كانيه» (١) امام هانيبال، مما عرّض حرية الجمهورية كلها الى الخطر . ومع ذلك ، فلأن الجهل كان السبب في الخطيئة ، لا الحقد او الشر ، لم يكتف الرومان بعـدم معاقبته ، بل أغدقوا عليه مظاهـر الشرف ، وخرج كل رومانـي من أعضاء مجلس الشيوخ الى استقباله عندما عاد الى رومة.ولما كانوا عاجزين عن تهنئته على نتيجة المعركة ، فقد هنأوه على عودته ، وعـلى رفضه اعتبار الوضع في رومة يائساً(٢) . وعندما اراد بابيريوس كيرسور اعدام

---

١ المعركة الكبرى التي انتصر فيها جيش هانيبال على جيوش الرومان في ايطاليا عام ٢١٦ ق.م.

٢ فارو هو القنصل الروماني الذي قـاد الجيش الروماني في معركة كانيه، والذي أدى خطؤه إلى هزيمة الرومان .

فابيوس لأنه حارب « السمنيين » رغماً عن أوامره ، كان بين الحجج التي استخدمها والد فابيوس لحمل الديكتاتور على العدول عن اصراره ، القول بأن الشعب الروماني لم يكن يعمل قط مع قادته حتى في حالة هزائمهم ، ما يود ان يفعله بابيريوس مع فابيوس المنتصر في معركته .

٣٢

على الجمهورية أو الأمير أن لا يؤجلا اغداق المنافع على الشعب إلى الوقت الذي يجدان نفسيهما فيه مضطرين إلى هذا الاغداق

من المعروف ان الرومان كانوا سعداء الحظ دائماً ، في انهم كانوا يستطيعون اظهار الكرم الى الشعب عندما تدق ساعة الخطر . فعندما وفد بورسينا (Lars Porsenna) (١) ليهاجم رومة وليعيد اليها الملوك «الترقونيين» وكان مجلس الشيوخ في شك من موقف العامة ، وهل يؤثرون عودة الملوك على المضي الى الحرب ، سارع المجلس ، حرصاً منه على سلامة الجمهورية ، الى رفع الضريبة عن الملح ، والى تخفيف الاعباء عن كاهل الشعب زاعماً ان الفقراء اسهموا أكثر مما يجب في مساعدة القضية العامة ودعمها عن طريق تنشئتهم لاطفالهم ، وهكذا تمكن المجلس عن

---

١ لارس بورسينا ملك كلوسيوم في اترووريا ، وهي احدى المقاطعات الايطالية القديمة ، زحف على رأس جيشه على مدينة رومة لاعادة الملوك الترقونيين اليها . وقد أوقف ثلاثة من الشبان الرومانيين هذا الزحف بدفاعهم الباسل عن جسر على نهر التيبر ، ولكن الجيش الزاحف تمكن أخيراً من فرض الحصار على رومة ، ولم يرفعه عنها إلا عندما عقد الصلح .

– المعرب –

طريق هذه المنحة التي اغدقها على الشعب ، من حمله على الصمود للحصار والجوع وأهوال الحرب . ولكن الاعتماد على هذه الحادثة ، يجب ان لا يحمل أي انسان على تأجيل التـأكد من اخلاص الشعب ، حتى تدق ساعة الخطر ، اذ انه قد لا يصيب من النجاح في مثل هذه الحالة كما أصاب الرومان ، وذلك لان الشعب على وجه العموم لن يعتـبر نفسه مديناً بالنسبة الى ما حصل عليه من نفع اليه ، بل الى اعدائه ، ولمـا كان الشعب يخشى ، ومن حقه ان يخشى ، انه عندما تفوت الضرورة الماسة ، فانه قد يحرمه مما اجبر على منحه اياه ، فانه لن يجد نفسه بأي حال من الاحوال ، ملتزماً نحوه بشيء .

أما السبب في ان الرومان ، قد تمكنوا من تحويل هذه القضية الى حساب المكاسب ، فيرجع الى جدّة الحكومة ، وعدم استقرارها في ذلك الحين . وكان الشعب قد رأى الطريقة التي تسن فيها القوانين لمصلحته ، ومنها بالطبع ، منح العـامة حق الاستئناف ، وهكذا كان من السهل اقناع الشعب بأن اغداق هذه المنفعة ، لم يكن ناجماً عن وجود العدو على ابواب المدينة ، وانما نتيجة رغبة مجلس الشيوخ في اغداق المنـافع على النـاس . يضاف إلى هذا ان الشعب كان لا يزال يحمل ذكريات واضحة عن الملوك الذين كانوا يسيئون اليه ويدوسون حقوقه بأقدامهم . ولكن لما كانت هذه الاسباب لا تكتسب طابع العمل إلا نادراً ، فان من النادر والحالة هذه ، ان تكون مثل هذه العلاجات مجدية ونافعة .

ولما كان من واجب كل حكومة سواء اكانت من النوع الجمهوري أو من الطراز الذي يحكمه أمير ، ان تضع ما قلته نصب عينيها ، فان عليها ، قبل ان تسوء الاحوال ، ان تفكر بالشعب الذي قد تلجأ الى الاعتماد عليه في وقت الضرورة ، وان يكون تعاملها معه على اساس تلك الطريقة التي تقدر بواسطتها ان تجده مرغماً على العمل لمساعدتها في حالة وقوع أية مصيبة . أما الحكومة التي تتنكب هذا السبيل ، سواء اكانت

جمهورية أو امارة ، ولا سيا اذا كانت من النوع الاخير ، وكانت لا تفكر بكسب الشعب الى صفها عن طريق اغداق المنافع عليه الا وقت الازمات ، فانها جد مخطئة ، اذ انها لن تجد نفسها عاجزة عن كسبه فحسب ، بل ستجد ايضاً انها قد عملت على التعجيل بنهايتها .

الكتاب الاول
المطارحات من ٣٣ ــ ٣٦

منافع الدكتاتورية ومساوئها

٣٣

من الخير عندما تشق جائحة طريقها داخل دولة أو ضدها ، ان يعمل على مداورتها لا على القضاء عليها

عندما نمت الجمهورية الرومانية في طريق الشهرة والبأس والسيطرة ، أخذ جيرانها، الذين لم يدر في خلدهم في بادىء الأمر، ان هذه الجمهورية الناشئة تستطيع إلحاق الأذى بهم ، يدركون بعد فوات الاوان انهم كانوا جد مخطئين في تفكيرهم ، وألفوا ، رغبة منهم في علاج ما اخفقوا في علاجه في بادىء الأمر ، عصبة تضم أربعين شعباً كاملاً ، لتقف

في وجه رومة . وهنا لجأ الرومان الى وسيلة كانوا قد ألفوا استعمالها في ايام الأزمات ، وعندما تكون الاخطار قريبة ، وهي تعيين ديكتاتور ، اي اضفاء السلطان على شخص واحد معين ليستطيع اتخاذ القرارات دون استشارة الآخرين وتنفيذهـا دون ان يكون لانسان الحق في الاعتراض عليها او استئنافها . ولم تقم هذه الوسيلة الدليل على جدواها فحسب ، في ذلك الوقت،وتمكن الرومان من قهر الاخطار التي ما زالت تهددهم، بل كانت دائماً عوناً كبيراً لهم في كافة الطوارىء التي كانت تحمل نذر الشر للجمهورية وهي في طريق تنمية امبراطوريتها .

وعلى الانسان ان يلاحظ في مثل هذه الحوادث ، انه عندما تظهر جائحة في الجمهورية او تقف في طريقها بصورة فعّالة ومؤثرة ،بسبب عوامل داخلية أو خارجية ، وتبلغ من الحدة شأواً عظيماً ، يدفع الناس جميعاً الي الفزع ، فأن السبيل المأمون العواقب،هو ان تبذل المحاولات لوقف هذه الجائحة وتلطيفها،بدلاً من محاولة القضاء عليها مرة واحدة . اذ جرت العادة على ان يدفع بها أولئك الذين يحاولون محوهـا من الوجود ، الى النمو والازدياد في البأس والقوة ، والاسراع بما تنطوي عليه من شرور يتوقعونها هم ويخشونها .

وتكون مثل هذه الحوادث في الجمهوريات عادة،اكثر نشوءاً بسبب العوامل الداخلية منها بسبب العوامل الخارجيـة ، وكثيراً ما تنجم عن السماح لمواطن بالحصول على سلطان يفوق حدود المعقول،او عن استشراء الفساد في الادارة التي تتولى الاشراف على تنفيذ احد القوانين التي يعتمد عليها عصب الحرية وشريانها . وقد يسمح مثل هذا الزلل البالغ باستمرار هذا الفساد الي ان يصل حداً ، يكون اقرب الى المعضلة المستعصية ، ويصبح فيه القيام بأية محاولة للعلاج ، أكثر ضرراً من السماح له بالمضي والاستمرار.ويزداد إدراك هذه الجائحات وهي في مراحلها الاولي صعوبة كلما كان الناس بطبعهم ميالين الى النظر بعين العطف على كل مشروع

جديد ، وهو عطف كثيراً ما يمنح وقبل كل شيء آخر ، للمشاريع التي تبدد وكأنها تنطوي على شيء من الرجولة فيها ، والتي يقوم بها عادة الشبان من الرجال . فمثلاً اذا ظهـــر احد الشبان في جمهورية ، وكان يتميز بنبل المحتد والشجاعة الفائقة ، فأن عيون المواطنين جميعاً تتركز عليه في الحال ، وسرعان ما يجمعون دون تفكير أو تبصرة، على تكريمه ، وهكذا اذا كان هذا الشاب ينطوي في قرارة نفسه على اية ومضة من ومضات الطموح، فأن هذه المظاهر من التكريم والشرف التي أغدقتها الطبيعة عليه ، تشترك مع تلك الاحداث في وضعه في مركز يجعل من المتعذر علي المواطنين عندما يشرعون في إدراك خطئهم، اصلاح هذا الخطأ وتقويمه ، وكل محاولة تبذل لتطبيق العلاجات التي توجد في متناول ايديهم ، تميل الي تثبيت سلطانه أكثر واكثر .

ومن الممكن استخراج عدد من الأمثلة ، عن هذا الموضوع ، ولكنني اقترح ان أتلو واحداً منها فقط ، وقد حدث في مدينتنا ، فقد تمكن كوزيمو دي مديشي (١) ، الذي بدأت بظهوره ، عظمة اسرة المديشي في مدينتنا هذه ، من الحصول على سمعة عظيمة بفضل ما حققه تعقله من عطف عند الناس ، وبسبب جهل المواطنين للحقائق . وهكذا اخذ يثير الفزع بالنسبة الى أمن حكومتها وسلامتهـــا ، مما أدى الى اعتقاد مواطنيـــه ، بأن من الخطر مسه بأي اذى ، وان من الخطر الاشد ، السماح له بالبقاء وحيداً . ولكن كان يعيش في تلك الايـــام ، شخص يدعى نيقولودا أوزانو ، وكان ينظر اليه على انه خبير في شؤون السياسة. وكان هذا قد اقترف اولى الاخطاء التي أشرنا اليها اعلاه، بحيث لم يميز

١ كوزيمو دي مديشي (١٣٨٩ – ١٤٦٤) المؤسس الحقيقي لامجاد اسرة المديشي التي لعبت دوراً كبيراً في الحياة الايطالية فيما بعد . وقد اضطر كوزيمو عـــام ١٤٣٣ إلى مغادرة فلورنسة ، واللجوء إلى البندقية ، ولكنه عاد اليها بعد عام إذ استدعاه الشعب وتولى مصيرها حتى مات . وقـــد انقذها من ويلات الحرب بسبب دهائه في شؤون السياسة الخارجية والاحلاف التي عقدها . واشتهر برعايته للاداب والعلوم والفنون ، وأسس مكتبة عامة . – المعرب –

الاخطاء التي قد تؤدي اليها شهرة كوزيمو ، ولكنه رأى ان ليس من المجدي اقتراف الخطيئة الثانية أي محاولة الخلاص منه ، وذلك اقتناعاً منه بأن مثل هذه المحاولة ستعني الخراب الكامل للحكومة ، وهذا ما بدا في الحقيقة بعد وفاته،اذ ان المواطنين الذين عاشوا بعده ، لم يعملوا بنصيحته ، وتجرّأوا على معارضة كوزيمو ، ثم اجبروه على الخروج من فلورنسة . وحدث ان قام حزبه ، فسخط على هذا الظلم الذي اصابه ، وسرعان ما استدعوه للعودة الى المدينة ، وأعلنوه « اميراً » على تلك الجمهورية ، وهو منصب ما كان بأمكانه ان يصل اليه لولا تلك المعارضة المكشوفة .

وقد حدث نفس الوضع في رومة بالنسبة الى قيصر ، الذي اكسبته شجاعته (فضيلته) مكاناً اثيراً في عيني بومبي(1) وغيره ، وسرعان ما تحول هذا الاعجاب الى خوف ، شهد عليه شيشرون عندما قال بأن بومبي شرع يخاف قيصر بعد فوت الأوان . وحمل الخوف النـــاس الى التطلع بحثـــاً عن العلاج ، ولكن هذه العلاجات التي استخدموها ، لم تسفر الا عن الاسراع في خراب جمهوريتهم .

وانا اقول انه لما كان من الصعب ادراك مثل هذه الشرور في مراحلها الأولى ، بسبب ما توحي به المشاريع الجديدة من انطبـــاع خاطىء في

---

1 بومبي وقيصر ، اسمان بارزان لعبا دوراً كبيراً في تاريخ رومة في القرن الأول قبل الميلاد . وكان اولهما يتولى قيادة حزب النبلاء ، و الثاني تولى فيما بعد قيادة حزب الشعب . لمع نجم بومبي في الانتصارات العسكرية التي حققها ، وفي فتحه لبلاد الشرق بعد اخضاع انطيوخوس ملك انطاكية واحتلاله سورية وفلسطين . وفي نفس الوقت كان نجم يوليوس قيصر قـد لمع في انتصاراتـــه العسكرية في بلاد الغال وأوروبا . وعقد الرجلان معاهدة توثقت عن طريق التصاهر ، وظلا يحكمان رومه معاً إلى عام ٥٢ عندما بدأ النزاع بينهما بسبب رغبة بومبي في الحكم الفرد . وانتهى النزاع إلى انتصار قيصر في معركة فرساليا عـام ٤٨ ق. م. وفر بومبي إلى مصر ، حيث اغتاله أحد ضباطه . أما قيصر فقد ظل حاكم رومة المطلق حتى قتله بروتوس والنبلاء عام ٤٤ .

— المعرب —

النفس في مستهل وجودها ، فان الطريقة المثلى عند ادراكها ، هي العمل على مداورتها وتخفيفها بدلاً من معارضتها عنوة. اذ ان المداورة والتخفيف، يؤديان اما إلى زوال الخطر من نفسه ، أو الى تأجيل وقوع الكارثة الى امد مـا ليس بالقصير ، وعلى الحكام الذين يخططون في جميع هذه القضايا ، لعلاج شرورها أو للهجوم عليها مباشرة عن طريق القوة ، ان يفتحوا أعينهم دائماً ، حتى لا يؤدي تنفيذ مخططهم الى زيادة خطر هذه الشرور بدل اضعافه. وحتى لا يكونوا تحت تأثير الاعتقاد الخاطىء بأنهم بدفعهم لها قد عملوا على تنميتها ، وكأنهم من الذين يفكرون بخنق نبتة ، عن طريق رشها بالماء . والصواب ان يدرس المرء قوة المرض دراسة صحيحة ، فاذا رأى ان في وسعه شفاءه ، تحتم عليه ان يقدم على هذه المهمة ، دون الكثير من الضجة . اما اذا رأى العكس ، فان عليه ان يتركه وشأنه ، وان لا يتدخل في أمره ، مخافة ان يحدث ما سبق لنا ان قلناه ، ويتكرر ما حدث لجيران رومة ، الذين كان من الاكثر أمناً لهم بعد ان شب عود المدينة وقوي الى ذلك الحد ، لو انهم حاولوا بالوسائل السلمية ، ارضاءها ووقفها عن الامتداد بدلاً من الاعداد للحرب ، وهو ما فعلوه ، ليحملوا رومة على التفكير بابتكار تنظيمات جديدة ، ووضع خطط حديثة للدفاع عن نفسها . وكل ما عملوه عن طريق هذه العصبة التي أقاموها ، هو دفع الرومان الى المزيد من الاتحاد ، والى الاكثار من الحيطة ، والى توسيع الاهتمام في ايجاد ابتكارات جديدة وسريعة لزيادة قوتهم . وكان بين هذه الابتكارات ، تعيين ديكتاتور ، تمكنوا بواسطته من قهر الاخطار الراهنة التي تهددهم. ومن اتقاء الكثير من الشرور التي كان لا بد من وقوعها لتلك الجمهورية، لو لم تصل الى اكتشاف ذلك العلاج .

٣٤

كانت السلطة الديكتاتورية مصدر خير لا شر لجمهورية رومة ، وتكون السلطة الضارة بالحياة المدنية هي تلك التي ينتحلها المواطنون لا التي ينالونها عن طريق الانتخاب

يدين بعض الكتاب الرومانيين الذين يجدون في الديكتاتورية السبب الذي أدى في النهاية الى قيام الطغيان في رومة ، اولئك الاسلاف الذين كانوا مسؤولين عن خلق نظام الديكتاتورية في مدينتهم . وهم يشيرون الى ان الرجل الذي اصبح الطاغية الأول في المدينة ، حصل على سلطته فيها في البداية ، بسبب تعيينه ديكتاتوراً ، ويضيفون الى انه لو لم يكن هذا النظام قائماً لما نجح قيصر في ظل أي لقب رسمي آخر ، في اظهار طغيانه بمظهر النبل والوضوح .

ولا ريب ان الشخص الذي رأى هذا الرأي ، لم يدرس هذه القضية دراسة وافية صحيحة ، كما ان اولئك الذين ارتضوا به ، قد قبلوه دون مبرر معقول . وذلك لان رومة لم تغد خاضعة ذليلة بسبب اسم الديكتاتور أو رتبته ، بل بسبب اضاعتها للسلطة التي حرم منها المواطنون من جرّاء حكمه الطويل ، ولو لم تكن في رومة مثل هذه الرتبة ، لبحث الديكتاتور عن رتبة اخرى يحملها ولوجدها ، اذ ان من السهل على القوة الحصول على اللقب ، بينما من الصعب على اللقب الحصول على القوة .

ومن الواضح ان الديكتاتورية ، ظلت طيلة العهد الذي كانت تمنح فيه طبقاً للأنظمة العامة ، لا عن طريق ادعائها من الديكتاتور نفسه وفقاً لسلطته ، مصدر خير ونفع للدولة . فتعيين القضاة بطريقة غير

صحيحة ، ومنح السلطات في نفس الطريقة ، هما اللذان ألحقا الأذى بالجمهورية ، لا السلطات التي كانت تعطى بالطريقة العادية ، كما يتضح من الحقيقة الواقعة ، وهي انه في العهد الطويل من تاريخ روما لم يقم أي ديكتاتور ابداً بأي عمل لم يكن فيه الخير للجمهورية .

واسباب ذلك واضحة كل الوضوح ، وأولها انه اذا شاء احد المواطنين ، ايقاع الأذى ، ورغب في الحصول على سلطة غير عادية ، فان من واجبه ان يتمتع بعدد من المزايا التي لا يستطيع الحصول عليها في جمهورية لم يطرأ الفساد عليها ، فهو يحتاج الى الثروة الضخمة والى عدد كبير من الاعوان والانصار ،وهما امران لا يستطيع الحصول عليهما، طالما ان القوانين محترمة وقائمة ، وحتى لو توافرا له فان هذا الطراز من الناس يبعث الرعب في قلوب الناس ، بحيث لا يقبلون على الاقتراع الى جانبه بمحض اختيارهم .

يضاف الى هذا ان الديكتاتور كان يعين لمدة محدودة ، وبقصد معالجة تلك القضايا التي أدت الى تعيينه ليس الا . وكانت لديه الصلاحيات لاتخاذ ما يراه مناسباً من القرارات ، لمواجهة خطر محدود وسريع ، وان يقوم بذلك دون استشارة احد ، وكل من كان يتعرض الى عقوبته ، لا يملك حق الاعتراض والاستئناف . ولكن لم يكن في وسعه ان يعمل شيئاً للتقليل من السلطات الدستورية التي تملكها الحكومة ، وهي حالة كان لا بد من وقوعها ، لو انه تمكن من اغتصاب السلطة المركزة في مجلس الشيوخ أو في يد الشعب ، أو لو انه اقدم على الغاء الانظمة القديمة المتبعة في المدينة ووضع انظمة جديدة بدلاً منها . وهكذا لما كانت فترة الديكتاتورية قصيرة ومحدودة ، ولما كانت سلطات الديكتاتور واضحة ومحددة ، وكان الشعب الروماني خالصاً من خطر الفساد ، فقد استحال على أي ديكتاتور ان يتجاوز صلاحياته ، وان يلحق الاذى بالدولة . وقد اثبتت التجارب على النقيض من ذلك ، ان الديكتاتورية

كانت نافعة دائماً .

ومن الحق ان يقال ان هذا النظام هو الوحيد بين أنظمة رومة العديدة، الذي يستحق الاعتبـــار وان يوضع بين الاسباب التي تعود اليها عظمة الامبراطورية الرومانية الفسيحة الارجاء . ولو لم يكن مثل هذا النظام ، لتعذر على المدن ان تجد سبيل الخلاص من الاوضاع الشاذة وغير العادية، وذلك لأن الانظمة التي تسير عليها الجمهوريات في الاوقات العـادية ، تكون بطيئة في اجراءاتها ، اذ لا يمكن لأي حاكم ان يتخذ قراراً او يقوم بعمل على مسؤوليته الخاصة . وعلى الحكام في كثير من الاحوال ان يشاور بعضهم بعضاً ، وان يوفقوا بين آرائهم المتضاربة ، مما يتطلب وقتاً كبيراً . ومثل هذا الاجراء يكون خطراً،عندما تكون هناك مشكلة علاج موقف لا يحتمل التأجيل .

ومن واجب الجمهوريات والحالة هذه ان تضع بين انظمتها نظاماً من هذا النوع . وقد احتفظت جمهورية البندقية التي تحتل مكاناً بارزاً بين الجمهوريات الحديثة لعدد قليل من مواطنيها بالسلطة التي تخولهم معالجة القضايا الطارئة ، وهي سلطة تمكنهم اذا ما اتفقوا جميعاً من اتخاذ مـا يرونه من قرارات دون الرجوع الى أية هيئة اخرى . اما في الجمهوريات التي لا يوجد نص في دساتيرها على مثل هذا النظام ، فانها قد تجـد نفسها مرغمة على مواجهة احد احتمالين ، اما التمسك بالدستور والتعرض لخطر الدمار ، أو انتهاك حرمته والنجاة من ذلك الخطر . وانتظار وقوع الاحداث في جمهورية ، قبل اللجوء الى مثل هذه الاجراءات غير العادية لمعالجتها، شيء لا يرغب فيه مطلقاً، اذ على الرغم من ان هذه الاجراءات، قد تكون طيبة في ذلك الوقت بالذات ، الا ان اعتبارها سابقة أمر في منتهى السوء ، وذلك لأنها تفضي بشرعية اللجوء الى انتهاك الاساليب الدستورية تنفيذاً لغاية طيبة ، مما يجعل في الامكان استخدامها تحت ستار زائف من المبررات لوقف الاساليب الدستورية تنفيذاً لغرض سيء . ولا

يمكن لأية جمهورية ان تبلغ الكمال ، الا اذا ضمنت بموجب قوانينها نصوصاً صالحة لكافة الاحتمالات ، وضمنت لكل احتمال ، علاجاً شافياً وأقرت الطريقة التي يجب ان تتبع في استعماله .

واني لأستطيع ان ازعم ، كاستنتاج لكل ما سبق لي ذكره ، ان الجمهوريات التي لا تلجأ عند اقتراب الخطر الى نظام الديكتاتورية ، أو الى أي شكل آخر من اشكال السلطة يشابهه ، تمنى دائماً بالخراب، عندما تتعرض لمصائب خطيرة .

وفي هذا الموضوع المتعلق بهذا النظام الجديد ، تجب ملاحظة الحكمة البالغة التي ابداها الرومان في طريقة انتخاب الناس الذين يحتاون المنصب. وذلك لأنه لما كان تعيين الديكتاتور ، يعتبر الى حد ما انعكاساً على القناصل ، الذين على الرغم من رئاستهم للدولة ، كان يتحتم عليهم اطاعة أوامر الديكتاتور ، مثل غيرهم من المواطنين ، ولما كان من المفروض ان مثل هذا الاجراء قد يثير السخط عند المواطنين ، فقد قرر الرومان ان تكون سلطة تعيين الديكتاتور في أيدي القناصل ، وذلك اعتقاداً منهم بأنه عندما تقتضي الظروف من رومة ان تلجأ الى هذا الحق الملكي ، فان على القناصل ان يقوموا بتطبيقه من أنفسهم وبمحض اختيارهم ، ولما كانوا هم الذين يتولون التعيين ، فان الاجراء يصبح أقل ايلاماً لهم ، والسبب في ذلك ان الجراح والآلام التي يلحقها الانسان بنفسه وبمحض اختياره تكون أقل ايلاماً وازعاجاً من تلك التي يوقعها الآخرون به . يضاف الى هذا ان الرومان في الفترة الأخيرة ، بدلاً من تعيين ديكتاتور،اخذوا يحمّلون القنصل صلاحياته مستخدمين العبارة التالية : « على القنصل ان يتأكد من ان الجمهورية ستكون في نجوة من الأذى » .

وأود ان اختم حديثي بملاحظة أرى انها لا تخرج على الموضوع الذي نناقشه ، فلقد كان جيران رومة ، رغبة منهم في سحقها ، هم الذين

حملوها ، على اقامة تنظيمات لم تكن سبباً في تمكينها من الدفاع عن نفسها فحسب ، بل عاملاً في بعث الطاقة فيها على مهاجمتهم بقوة أعظم ، ورأي اصوب ، وسلطة أوسع .

٣٥

كيف أدى تعيين مجلس العشرة إلى الاضرار بتلك الجمهورية على الرغم من ان اختيارهم كان حراً وبطريق الاقتراع العام

يبدو لي ان ثمة مخالفة للقاعدة التي وضعتها في المطارحة السابقة ، والمتعلقة بالسلطة التي تغتصب بطريق العنف ، ذاكراً انها هي التي تؤدي الى الاضرار بالجمهوريات ، لا السلطات التي يحصل عليها عن طريق الانتخاب ، وان هذه المخالفة تقوم في انتخاب المواطنين العشرة ، الذين عهد اليهم الشعب الروماني بسن شرائعه . والسبب في هذه المخالفة ان هؤلاء أصبحوا مع مرور الزمن طغاة لا يكترثون بانسان أو بشيء ، ويحرمون رومة من حريتها . وعلينا ان ندرس هنا الطريقة التي تم فيها منح هذه السلطة ، والمدة التي ظلت قائمة فيها . فعندما تمنح سلطة غير محدودة الى أمد طويل ، وأعني به هنا سنة او يزيد ، فأن هذه السلطة تضحي خطرة ، وقد تنتج اثاراً طيبة او سيئة طبقاً لطبيعة الاشخاص الذين يحملونها ، وهل هم من الأخيار أو من الاشرار . واذا ما تطلعنا الآن الى السلطة التي كان يملكها هؤلاء العشرة ،والى تلك التي كان يتمتع بها الديكتاتورون ، تبين لنا ان سلطة العشرة ، كانت أعظم بكثير من سلطة اولئك ، اذ عندما كان يختار احد الناس ديكتاتوراً ، يظل حماة

الشعب (التربيون)،والقناصل وأعضاء مجلس الشيوخ ، يتمتعون بسلطاتهم الخاصة ، ولا يستطيع الديكتاتور انتزاعها منهم . وعلى الرغم من ان الديكتاتور كان يتمتع حقاً بالسلطة التي تخوله حرمان أحدهم من القنصلية او من عضويته في مجلس الشيوخ ، الا انه كان عاجزاً عن الغاء مرسوم أقره المجلس ، او سن شرائع جديدة . وكانت النتيجة لهذا التنظيم من بقاء سلطات المجلس والقناصل وحماة الشعب على ما هي عليه ، ان غدا هؤلاء جميعاً ، حراسه القائمين عليه ، الذين يراقبون سيره في الطريق القويم . وقد حدث عكس هذا تماماً عندما عيّن مجلس العشرة ، او توقف تعيين القناصل وحماة الشعب،واعطيت للعشرة سلطة وضع القوانين الجديدة ، والتصرف وكأنهم هم الشعب الروماني بكامله . وهكذا عندما وجد هؤلاء انفسهم أحراراً في التصرف،دون قناصل ودون حماة شعب، ودون ان يكون ثمة حق اعتراض الى الشعب ، وبالتالي دون من يستطيع مراقبتهم ، تمكنوا من ان يصبحوا في السنة الثانية وبتحريض من آبيوس الشديد الطموح وهو احدهم متعجرفين متغطرسين .

ولهذا يجب ان نلاحظ ، اننا عند قولنا ان السلطة التي ينالها المرء بالانتخاب الحر ، لا يمكن لها ان تلحق الضرر بأية جمهورية ، كنا نفترض ، ان اي شعب من الشعوب ، لا يمكن اغواؤه على اضفاء هذه السلطة الا وفق شروط معينة ولفترة محدودة،ولكن عندما تغوى جمهورية بدافع الخطأ ، او بدافع اي سبب فرعي آخر ، على اضفائها بصورة متهورة ، على النحو الذي اتبعه الرومان في اضفائهم اياها على مجلس العشرة ، فأن ما حدث لأولئك ، قد يتكرر دائماً . ويمكن التدليل على صحة هذا القول بسهولة ، اذا درسنا الاسباب التي جعلت الديكتاتورين يتصرفون تصرفاً طيباً ، وتلك التي حملت العشرة على اساءة التصرف ، وعندما ندرس ايضاً ، كيف ان هذه الدول التي تعتبر رائعة التنظيم ، قد تصرفت ، عندما منحت سلطات طويلة الأجل ،كما فعل الاسبارطيون

مع ملوكهم ، والبنادقة مع « دوجاتهم »(١) . وسيظهر لنا من نتائج درسنا انه في كلتا الحالتين ، تم تعيين مراقبين ، مهمتهم ان يروا ويضمنوا عدم تمكن هؤلاء واولئك من اساءة التصرف في استعمال سلطاتهم. ولا يهم الحاكم الفردي المطلق ان يكون الجوهر فاسداً،وذلك لأن السلطان المطلق سرعان ما يفسد هذا الجوهر، عن طريق خلق الاصدقاء والمقربين والانصار . ولا يهمه ايضاً ان يكون مدقعاً او عاقراً دون نسل ، وذلك لأن الثروات وغيرها من المنافع سرعان ما تنهال عليه ، وهذا ما سيبدو لنا جلياً عندما نصل في بحثنا الى الدرس التفصيلي لوضع مجلس العشرة(٢).

٣٦

على المواطنين الذين تسنموا أرفع المراتب ان لا يأنفوا من قبول ما هو أدنى منها

أحرز الرومان في عهد قنصلية ماركوس فابيوس ومانليوس ، نصراً مظفراً على الفينيقيين والايتروسكان ، قتل ابان تحقيقه كونيتوس فابيوس، شقيق القنصل . وكان كونيتوس قنصلاً في العام الذي سبق هذا النصر . وتظهر من هذه الحادثة روعة الانظمة التي سارت عليها المدينة ، والتي حققت لها عظمتها ، كما تظهر خطل الجمهوريات الاخرى التي لا تتبع مثل هذا الاجراء . اذ على الرغم من تمجيد الرومان للعظمة ، الا انهم لم يكونوا يرون من غير اللائق ، ان يطيعوا شخصاً كان من قبل تحت

١ الدوجات ومفردها دوج ، لقب كان يطلق على رأس الدولة في البندقية في القرون الوسطى .
٢ سيرد الحديث عن ابيوس ومطامعه في مكان آخر من هذا الكتاب .

– المعرب –

قيادتهم ، أو يخدموا في جيش كانوا قبلاً قادته العامين .

وقد انقلب هذا العرف في رأي المواطنين اليوم وتنظيماتهم واجراءاتهم. وترتكب البندقية خطأ التفكير بأن المواطن الذي اشغل منصباً عالياً يجب ان يجد من العار قبول منصب ادنى منه ، ولذا فان الدولة تكون راضية عن رفضه له ، واذا كان هـذا السلوك عزيزاً من وجهة نظر مواطن عادي ، فانه غير مجد من وجهة النظر العامة ، وذلك لأن الجمهورية تركز آمالها وثقتها ، وهي على صواب في ذلك ، في شخص هبط من مكانة عليا الى أخرى ادنى منها ، اكثر من تركيزها مثل هذه الآمال والثقة في شخص ارتقى من منصب خفيض الى آخر أرفع منه ، والسبب في ذلك انهـا لا تستطيع ان تركن الى هذا بصورة معقولة ، إلا اذا كان محاطاً بحشد من الرجال المحترمين والمعروفين بفضائلهم ، مما يمكنه من اصلاح اخطائه بفضل مشورتهم السديدة وواسع خبرتهم .

ولو اتبعت رومة نفس السلوك الذي تتبعه اليوم معظم الجمهوريات الحديثة والممالك وفي طليعتها كلها البندقية ، وهو ان لا تطلب الى من سبق له اشغال منصب القنصلية ، الخدمـة في الجيش الا كقنصل من جديد ، فان احداثاً لا تعد ولا تحصى ، كان لا بد لها ان تقع ، وان تهدد حريتها بالخطر ، اما عن طريق الاخطاء التي كان لا بد للمحدثين من الرجال ان يرتكبوها ، او عن طريق الطموح الذي كان لا بد له من الانطلاق لو لم يكن حولهم رجال ، يخشون في وجودهم من ارتكاب أي خطأ من الاخطـاء . اذ لو لم يوجد هؤلاء ، لكانوا اكثر حرية ولاستعملوا سلطانهم للاضرار بالمصلحة العامة .

الكتاب الاول
المطارحات من ٣٧ ـ ٣٩

الطَّريق إلى الدّمار

٣٧

عن الفضائح التي نجمت عن القوانين الزراعية في رومة وعن الفضيحة الكبرى التي تحدث في أية جمهورية من سن قانون رجعـي يسري مفعوله إلى أمـد طويل قبل وضعه ، ويتعارض مع عادة قديمة ألفتها الدولة

كان من رأي قدماء الكتاب ان الناس قد ألفوا الانزعاج من الفاقة وان يعيشوا على الرخاء والازدهار ، وان كلاً من هاتين العاطفتين . تخلق نتائج متماثلة . اذ عندما لا تكون ثمة حاجة عند الناس للاقتتال . يصطرعون سعياً وراء الطموح ، ويكون السلطان الذي يفرضه الطموح

على القلب البشري من القوة ، بحيث لا يستطيع الناس التخلي عنه مهما علت بهم الرتب . والسبب في ذلك ، ان الطبيعة قد ركّبت البشر على نحو يجعل جميع الامـــور على الرغم من انها مواضع للرغبات ، صعبة التحقيق على الناس ، وذلك لأن الرغبة تتفوق دائماً على سلطان البلوغ ، مما يؤدي الى عدم اقتناع الناس بما يملكونه ، والى تذمرهم من الاوضاع الحالية التي يكونون فيها . وتنشأ على هذا النحو ، التقلبات في حظوظهم. اذ لما كان البعض يرغب في زيادة ما يملكه،وكان البعض الآخر يخشى على ما في يديه ، فان الحزازات والحروب سرعان ما تنشب . مما يؤدي الى خراب امارة ما ، وتعظيم شأن منافستها وتفخيمها .

وقد جئت بهذه الملاحظات الأولية ، لان عامة الرومان لم تكن قانعة بما حصلت عليه من ضمانات لمركزها بالنسبة الى النبلاء عن طريق خلق وظائف حماة الشعب (التربيون) ، وهي المناصب التي أجبرتها الضرورة على طلبها ، فلما تحقق لها ما أرادته ، شرعت ، أي العامة ، في مخاصمة النبلاء بدافع الطموح ، وفي المطالبة ايضاً بحصة في توزيع مراتب الشرف والاملاك ، وهي امور ، لا ينظر الانسان الى غيرها نظرة تفوق مـــا ينظر به اليها من تجلة وتقدير . وقد نمت هذه النزعة وتطورت الى ان أصبحت مرضاً ، مما أدى الى الخلاف حول القوانين الزراعية ، وسبب في النهاية دمار الجمهورية .

أما بالنسبة الى ما يتوجب على الجمهوريات الحسنة التنظيم من الابقاء على الخزينة العامة وافرة الثراء ، بينما يكون المواطنون فقراء اشد فقر ، فيبدو وكأن هذا القانون قد فشل في مدينة رومة فشلاً ذريعاً ، اما لأنه لم يسن في البداية بشكل يضمن الحيلولة دون الحاجة الى الرجوع اليه ، أو لأن سنّه قـــد تأخر طويلاً جداً الى الحد الذي جعل معالجة مشكلة قديمة في هذا الوقت ، تتخذ شكل فضيحة من الفضائح ، او لان هذا القانون على الرغم من سنه بطريقة صحيحة في بداية الأمر ، قـــد غدا

الآن فاسداً كل الفساد . وحدث على أي حال ، انه عندما ذكر هذا القانون في رومة ، كأن كل شيء فيها قد انقلب رأساً على عقب .

وتقع النصوص التي وردت في هذا القانون في مجموعتين . فقد نص أولاً على عدم السماح لأي مواطن بأن يملك ما يزيد على عدد معين من الافدنة من الارض ، وثانياً على ان تقسم جميع الاراضي التي تؤخذ من عدو مهزوم على أفراد الشعب الروماني . وقد اساء هذا الى النبلاء بطريقتين ، اولاهما انه حتم على كل من يملك ارضاً تزيد في مساحتها على ما يسمح به القانون ، وكان معظم هؤلاء المالكين حتماً من النبلاء، ان يتخلى عن الفائض للدولة،وثانيتهما ان اقتسام اسلاب العدو مع العامة، قد وضع نهاية لفرصتهم في إثراء انفسهم . وهكذا لما كانت هذه النصوص قد اساءت الى الرجال من ذوي السلطان ، ولما كان قد بدا لهم ، انهم في معارضتهم للقانون ، انما يعملون دفاعاً عن المصلحة العامة ، فانه لما اثير هذا الموضوع كانت المدينة بأسرها ، قد انقلبت رأساً على عقب ، كما سبق لي ان قلت قبل قليل . وقد حاول النبلاء بأناة وبجهد متواصل تأجيل تنفيذ القانون،اما عن طريق المضي مع الجيش الى جهات خارجية، أو عن طريق اقامة مدافع آخر عن حقوق الشعب (تربيون) ، ليعارض المدافع الذي يقترح تنفيذ القانون ، أو احياناً عن طريق تنازلات جزئية. او بأرسال جماعة « مستعمرة » من جديد الى المكان الذي سيجري فيه توزيع الارض . وقد حدث مثل هذا ، مثلاً ، بالنسبة الى الاراضي الواقعة على مقربة من انتيوم وحولها،وهي الاراضي التي سببت خصومات شديدة بصدد القانون ، اذ ارسلت جماعة « مستعمرة » جمع افرادها من رومة نفسها ، الى هناك ، لتتسلم الارض التي خصصت لها . ويأتي لنا تيتوس ليفي ، بملاحظة حول هذه القضية تستحق الذكر ، فهو يقول انه كان من الصعب حمل الناس في رومة على تسجيل اسمائهم للمضي مع جماعة « مستعمرة » ، ويضيف ان افراد العامة ، كانوا اكثر حرصاً

على الاعراب عن رغباتهم في رومة نفسها ، من المضي الى المستعمرات لأخذ اراضي حول انتيوم .

واستمرت النقمة على هذا القانون فترة من الوقت في احداث اضطرابات في رومة ، الى ان بدأ الرومان يقودون جيوشهم الى الأجزاء الأكثر نأياً عن ايطاليا ، والى ما وراءها ، وآنذاك خيل الى الجميع ان النقمة قد توقفت . وكان السبب في هذا التوقف ان الاراضي التي كان يملكها اعداء رومة ، كانت بعيدة عن الأماكن التي تعيش فيها عامتها، وتقوم في أصقاع كان من الصعب زرعها وفلاحتها ، ولذا فقد فقدت العامة حماسها لأخذها، وكذلك لأن الرومان غدوا أقل قسوة في معاملة اعدائهم مما كانوا عليه في بادىء الامر عندما كانوا يحرمونهم من اراضيهم ، ولأنهم عندما كانوا ينتزعون من منطقة يحتلونها الاراضي التي تملكها ، كانوا يعكفون على توزيعها بين الجماعات « المستعمرة » . وعلى ضوء هذه التطورات في الأوضاع ظلت القوانين الزراعية نائمة الى حد ما حتى عهد الغراشيين ، وعندما أثاروها من جديد ، قضت بخراب حرية رومة تخريباً نهائياً . ففي ذلك الوقت ، كانت قوة خصوم القانون ضعفي ما كانت عليه في الماضي . وكنتيجة لذلك فأن الكراهية المتبادلة والقائمة بين العامة ومجلس الشيوخ بلغت حداً من العنف ادى الى الصراع المسلح وسفك الدماء ، وفي هذا الصراع لم يبد الرومان اي اعتدال او احترام للاعراف المدنية . وعندما عجز القضاة العامون عن ايجاد أي علاج ، وفقد كل من الفريقين ثقته فيهم ، لجأ الحزبان المتخاصمان الى العلاجات الخاصة،وأخذ كل منهما يتطلع بحثاً عن رئيس يتولى قيادته والدفاع عنه.

وخطت العامة في هذه الفضيحة وما تبعها من الاضطراب ، الخطوة الاولى ، فعهدت بقيادها الى ماريوس ، مما حملها على اعادة انتخابه قنصلاً اربع مرات . وكانت مدة قنصليته متصلة في الحقيقة ، باستثناء فترات قصيرة ، وقد مكنه هذا الوضع ، من استخدام سلطته وتعيين

نفسه قنصلاً ثلاث مرات اخرى . ولما لم يكن لدى النبلاء من علاج آخر لمكافحة هذا الوباء ، فقد لجأوا الى دعم صولا . وعندما اصبح هذا رئيساً لحزبهم ، نشبت الحرب الاهلية،وكانت للنبلاء فيها بعد الكثير من سفك الدماء وتقلّبات الحظ ، اليد العليا .

وبعثت هذه العداوات من جديد في عهد قيصر وبومبي . اذ عندما غدا قيصر رئيساً للحزب الماريوسي ، وغدا بومبي زعيماً لحزب صولا ، اشتبك الزعيمان ، وانتصر قيصر ، وغدا اول طاغية في تاريخ رومة . ولم تستعد المدينة بعد هذا التاريخ حريتها أبداً .

وهكذا كانت بداية القانون الزراعي ونهايته. وقد بيّنا في مكان آخر ان العداء بين مجلس الشيوخ وشعب رومة هو الذي ابقى على حريتها ، وذلك لأن هذا الخلاف هو الذي أدى الى سن قوانينها لتكون في مصلحة الحرية.وعلى الرغم من ان هذا الاستنتاج يظهر ان نتائج القانون الزراعي قد تبدو متنافرة ومتباينة ، فأن من واجبي ان اعترف ، بأنني لا اصل في هذا الموضوع الى تغيير وجهة نظري ،وذلك لأن طموح العظماء يكون دائماً على درجة كبيرة من العظمة ، بحيث اذا لم تتمكن مدينة ما بطرق شتى وأساليب مختلفة من كبح جماح هذا الطموح ، فأن تلك المدينة ستنهار حتماً . وعلى هذا فاذا كان اكثر من ثلاثمائة عام قد انقضت قبل ان يؤدي القانون الزراعي الى استعباد رومة ، فأن هذه العبودية كانت ستقع حتماً قبل هذه الفترة ، ان عاجلاً وان آجلاً ، لو لم تتمكن العامة بفضل هذا القانون وغيره من الطلبات التي تؤيدها شهواتها ، من كبح جماح النبلاء بصورة مستمرة .

ويتضح أيضاً من كل ما أوردناه ، ان الناس يعلقون دائماً أهمية اكبر على الممتلكات من الأهمية التي يعلقونها على مراتب الشرف . فلقد كان نبلاء رومة دائماً يتراجعون امام عامتها في القضايا المتعلقة بمراتب الشرف دون ان يحدثوا فضائح او فتناً خطيرة، ولكن عندما كان الامر

يتصل بالممتلكات، كانوا يبدون شيئاً كثيراً من العناد والتصميم في الدفاع عنها ، مما كان يرغم العامة ، ارضاء منها لرغباتها ، على اللجوء الى تلك الوسائل الشاذة التي سبق لنا ذكرها أعلاه . وقد دفعهم الغراشيون (Gracchi) (١) الى هذا السلوك الذي تطبعه الفوضى ، اذ كانت نواياهم اكثر جدارة بالثناء من تعقلهم . فرغبتهم في ازالة فتنة نمت في الدولة نمواً راسخاً متأصلاً عن طريق سن قانون يسري مفعوله الى امد طويل قبل سنه ، ليس بالسبيل القويم الذي يجوز اتباعه ، وكما اوضحت بصورة مسهبة في هذا الفصل لا يؤدي الا الى الاسراع في الشر ، الذي يدفعنا الاضطراب اليه ، بينما لو لجأنا الى سياسة المداورة والتلطيف ، فأن هذا الشر اما ان يتأجل، او يفقد مع مضي الزمن عن هذه الطريقة اذاه من نفسه ، قبل ان يصل الى مرحلة حاسمة .

٣٨

تعاني الجمهوريات الضعيفة من التردد ولا تستطيع الوصول إلى قرارات وعندما تصل إلى قرار واحد ، تكون الحاجة لا الاختيار هي السبب

عندما تفشى طاعون مخيف في مدينة رومة ، وخيل الى قبائل

١ اخوان عاشا في رومة ، أحدهما يدعى غراشوس كايوس سيمبرونيوس (١٥٨ – ١٢١) ق. م. ، و الثاني يدعى غراشوس تايبريوس سيمبرو نيوس (١٦٧ – ١٣٣) ق. م. كان اولهما من أشد المغالين في الدفاع عن الشعب و اصلاح الاخطاء التي انزلت به ، وقد انتخب مدافعاً عن حقوق الشعب عام ١٢٤ ، وقد تمكن من ابعاد القنصل بوبيليوس الذي كان يتولى زعامة حزب النبلاء . أما الثاني فقد انتخب مدافعاً عن حقوق الشعب عام ١٣٣ ، و طبق قانونه الزراعي .

– المعرب –

« الفولسكي » و « الايكوي » بسببه،ان الفرصة قد حانت لها للتغلب على رومة ، أعدت هذه القبائل جيشاً عظيماً ، وهاجمت به قبائل « اللاتين » و « الهيرنيكي » ، فأحالت بلادها قاعاً صفصفاً، مما دفعها الى اللجوء الى رومة طالبة عونها والدفاع عنها . ولما كان الرومان قد انهكوا بالوباء الذي طغى عليهم ، فقد ردوا بأن على تلك القبائل ، ان تقوم هي بالدفاع عن نفسها ، وان تستخدم قواتها الخاصة ، نظراً الى عجزهم عن الدفاع عنها. ويظهر هذا الحادث ما امتاز به مجلس الشيوخ الروماني من نبل وتعقل ، وكيف انه مهما حدث ، كان يريد دائماً ان يتولى دور القيادة في القرارات ، التي يجب ان يتخذها كل من يعتمد عليه ، وكيف انه لم يشعر بالخجل قط من السير في طريق تتعارض مع ما الفه من سلوك،ومع القرارات التي سبق له ان اتخذها ، عندما اقتضته الضرورة اتخاذها .

وقد جئت بهذا الحديث ، لأن مجلس الشيوخ المذكور نفسه كان قد حرم على هذه القبائل ان تتسلح للدفاع عن نفسها،ولو كان المجلس أقل تعقلاً مما هو عليه،لكان قد اعتبر الآن مجرد السماح لهذه القبائل بالدفاع عن نفسها اضعافاً له . ولكن مجلس الشيوخ الروماني ،كان يواجه دائماً الحقائق كما يجب ان تواجه ، وكان دائماً يؤثر أهون الشرين على انه احسن السبل الموجودة . اذ على الرغم مما في شعوره من العجز عن الدفاع عن رعاياه من سوء ، وعلى الرغم مما في شعوره من ان من واجب هؤلاء الرعايا ان يلجأوا الى السلاح بدونه من سوء ايضاً ، الا انه بالنسبة الى الاسباب المعطاة سابقاً والى أسباب كثيرة غيرها هي على نحو كبير من الوضوح ، وادراكاً منه الى ان هذه القبائل وقد رأت العدو يقف على أبوابها ، لا بد وان تهرع الى سلاحها بأي حال من الاحوال . فقد اتبع السبيل الكريم مؤثراً ان يكون ما تضطر هذه القبائل الى عمله ، صادراً عن موافقة الرومان عليه ، حتى اذا ما عصت أوامر

روما بدافع الحاجة كما يحتم عليها الوضع ان تعمل الآن لو ضنّ المجلس عليها بموافقته ، فأنها لن تجد نفسها وقد الفت عادة العصيـــان بمحض الاختيار في المستقبل .

ولكن على الرغم مما يتراءى للجميع من ضرورة اتباع اية جمهورية لهذا السبيل فان الحقيقة تظل قائمة وهي ان الجمهوريات الضعيفة والتي لا تتاح لها المشورة الصادقة ، لا تعرف طريقة اتباعه ولا تعرف ايضاً كيفية تقدير الضرورة تقديراً صحيحاً . فقد احتل الدوق فالنتاين مدينة فانيزا ، وأرغم « بولونا » على الاذعان لشروطه . ولما أراد ان يعود الى روما عن طريق توسكانيا ، بعث بأحد رجاله الى فلورنسة ، يطلب اليها السماح له ولجيشه بالمرور عبر اراضيها . ودارت المشاورات في فلورنسة لتقرير الموقف الذي يجب ان تتخذه بصدد الموضوع ، ولم يشر احـــد بضرورة السماح للدوق بالمرور . ولم يكن هذا القرار منطبقاً على الاجراءات الرومانية المألوفة ، اذ كانت لدى الدوق قوات مسلحة متناهية في القوة، بينما كان الفلورنسيون يفتقرون الى حسن التسلح ، بحيث كان من المتعذر عليهم ان يحولوا بينه وبين المرور . ولا ريب في انه كان اكرم لهم ، لو سمحوا له بذلك بمحض رغبتهم ، بدلاً من ان يرغموا عليه ارغاماً، اذ ان هـــذا الارغام لم يأت لهم الا بالعار ، الذي ما كان ليصيبهم على هذا النحو لو صرّفوا أمورهم بصورة مغايرة .

وأسوأ شيء في الجمهوريات الضعيفة هو ترددها ، بحيث ان جميع ما تختاره من سبل تكون ملزمة على اتخاذه ، واذا حدث واتبعت السبيل القويم ، فان الفضل في ذلك للقوة لا لسعة مداركها . وسأضرب مثلين وقعا لحكومة مدينتنا في العصر الذي نعيش فيه .

عندما استعاد الملك لويس الثاني عشر ملك فرنسا مدينة ميلان عـــام ١٥٠٠ ، كان على استعداد لاعادة « بيزا » مقابل الخمسين الفـــاً من «الدوكات» التي كان الفلورنسيون قد وعدوه بها بعد استعادتهم لحريتهم.

وهكذا فقد بعث بجيوشه الى بيزا تحت قيادة المسيو دي بومونت، الذي كان الفلورنسيون يثقون فيه كل الثقة رغم فرنسيته. واتخذ القائد وجيشه مواقع بين كاسكينا وبيزا ، حتى يتمكن من التقدم لمهاجمة اسوارها . وبينما كان القائد يستعد للهجوم في فترة يوم أو يومين من التوقف ، جاءه رسل بيزا ، يعرضون عايه استسلام مدينتهم لجنوده ، طبقاً للشروط التالية ، وهي أن يعد باسم الملك ، بعدم تسليم المدينة الى الفلورنسيين الا بعد انقضاء أربعة اشهر . وقد رفض الفلورنسيون هذا العرض تمام الرفض ، وأسفرت النتيجة عن رحلة الى معسكر البيزيين وخروجهم منه يتسربلون بأردية الخزي والعار . وكان السبب الوحيـــد في رفض هذا العرض ، هو ان الفلورنسيين لم يكونوا يثقون بوعد الملك . وكانت سياستهم من الضعف بحيث وجدوا أنفسهم مرغمين علي الاستسلام لارادة الملك ، ومع ذلك فقد كانوا لا يثقون فيـــه . ولم يستطيعوا ان يروا أن من الأفضل لهم ان يدخل الملك الى بيزا ، وان يسلم المدينة اليهم بعد دخولها ، فان تقاعس عن تسليمها تبينت نواياه ، على ان يعدهم بها في الوقت الذي لم يكن قد استولى عليها بعد ، وان يكونوا مرغمين على دفع ما وعدوا به في الماضي . ولا ريب في أنه كان من الخير لهم، لو انهم وافقوا على ان يحتلها بيومونت وفقاً لأية شروط .

وقد وقع حادث مماثل فيما بعد في عام ١٥٠٢ ، عندما ثارت مدينة « اريزو » ، وبعث ملك فرنسا بالمسيو امبولت على رأس جيش فرنسي لمساعدة الفلورنسيين . وقد أنضم القائد الفرنسي اليهم في جوار «اريزو» وشرع قبل انقضاء مدة طويلة يبحث في الشروط مع اهل اريزو،الذين كانوا على استعداد للتسليم بمدينتهم وفقاً لشروط معينة ، تماماً كما كان اهل بيزا من قبلهم . ورفض الفلورنسيون العرض الجديد . وعندما رأى المسيو امبولت ذلك، خيل اليه ان الفلورنسيين لم يظهروا شيئاً من التعقّل، ولذا فقد شرع في بحث الشروط لحسابه الخـــاص دون ابلاغ المفوضين

الفلورنسيين بنتائج ابحاثه . وقد نجح في عمله ، وتم عقد معاهدة تتفق مع اهوائه ، قضت بدخول جيشه الى اريزو . وأفهم الفلورنسيين انهم على درجة كبيرة من الحمق والجنون ، وانهم لا يفهمون شيئاً عمّا في العالم من اساليب . واصبح عليهم اذا أرادوا المدينة ، التقدم بطلبهم الى الملك ، الذي غدا في وضع أفضل بالنسبة الى اعطائهم اياها ، بعد ان اصبح جيشه داخل المدينة لا خارجها . وانهالت الشتائم والملاحظات الجارحة التي لا حد لها ولا نهاية من اهل فلورنسة على امبولت ، ولم يتوقفوا عن شتائمهم هذه الى ان ادركوا بعد لأي،انه لو كان بيومونت من طراز امبولت ، لكانوا هم الآن في بيزا بالاضافة الى اريزو .

وهكذا فبالنسبة الى الموضوع الذي نبحثه الآن ، ارى ان الجمهوريات الكثيرة التردد، لا تختار ابداً الطريق القويم الا اذا ارغمت على اتباعه، لأن ضعفها يحول دون وصولها الى قرار عندما يكون هناك ثمة شك ، وما لم يزل هذا الشك بعمل من اعمال العنف ، فانها تظل في وضع المتردد الذي لا قرار له .

٣٩

الاحداث التي يتكرر وقوعها للشعوب المختلفة

اذا كان من المقرر ان نقارن بين الحاضر والماضي البعيد ، فأن في وسعنا ان نرى بسهولة ، ان ثمة رغبات متشابهة وعواطف واحدة تكون موجودة دائماً وفي جميع الاوقات ، في كافة المدن وعند مختلف الشعوب . وعلى هذا،اذا درس المرء بشيء من المثابرة شؤون الماضي ،

كان من السهل عليه ان يتكهن بمستقبل أية دولة من الدول، وان يطبق نفس العلاجات التي استخدمت في الماضي ، فأذا لم يجد ان ثمة علاجات قد استعملت ، أمكنه ان يبتكر علاجات جديـدة وذلك بفضل ما في الاحداث من تشابه ومماثلة . ولكن لما كانت مثل هذه الدراسات تهمل، وكان ما يقرؤ من تاريخ الماضي لا يفهم ، وحتى لو فهم ، لم يطبق عملياً على أيدي اولئك الذين يحكمون ، فأن النتيجة هي وقوع فضائـح متماثلة في جميع الأحايين .

ولما كانت مدينة فلورنسة قد فقدت جزءاً من ممتلكاتها بعد عام ١٤٩٤، كبيزا وغيرها من المدن ، فقد تحتم عليها ان تشن الحرب على اولئك الذين احتلوها . ولمـا كان هؤلاء المحتلون أقوياء ، فقد أثمرت الحرب الكثير من النفقات دون الحصول على اية نتيجـة ، وأدت النفقات الى فرض ضرائب باهظة مما اسفر عن شكاوى لا نهاية لهـا صدرت عن الشعب . ولما كانت ادارة هـذه الحرب موكولة الى مجلس قضائي يضم عشرة من المواطنين يطلق عليهم اسم « العشرة المحاربون » ، فقد بدأ الشعب يزدري هذا المجلس الذي اعتبره مسؤولاً عن الحرب كما اعتبره مسؤولاً عن نفقاتها . واقتنـع الشعب بأن الغاء هذا المجلس يؤدي الى انهاء الحرب ، وهكذا عندما حان الوقت لاعادة انتخابـه ، سمحوا له بالزوال بدلاً من تعيين أعضاء آخرين له ، واوكلوا امورهم الى مجلس السيادة . وكان هذا القرار مفجعاً كل الفجيعة بحيث انـه لم يفشل في وقف الحرب فحسب ، كما كان الشعب عامة يتوقع منه ، بل ادى الى صرف عين الرجال الذين كانوا يتولون الاشراف على ادارتها بحكمـة وروية . واسفر عن مزيـد من الفوضى ، بحيث ضاعت بالاضافة الى « بيزا » مدينة « اريزو » وكثير غيرها من المواقع . وندم الشعب في النتيجة على خطئه ، ولما كان سبب الألم عائداً الى المرض نفسه لا الى الطبيب ، فقد عادوا الى تعيين مجلس العشرة .

وقد اثار لقب القنصل في رومة نفس العواطف . اذ عندما رأى شعبها توالي الحروب ، وان الواحدة منها آخذة بخناق الاخرى ، دون فترة من الراحة، كان من واجبه ان يعزو ذلك الى مطامع الجيران الذين كانوا يستهدفون سحق مدينته . ولكن خيل الى الشعب عوضاً عن ذلك، ان توالي هذه الحروب راجع الى اطماع النبلاء ، الذين شعروا بعجزهم عن الاقتصاص من العامة داخل الدولة ، بسبب الحماية التي تلقاها من سلطان حماة الشعب (التربيون) فتاقوا الى الزج بأبنائها في الحروب تحت قيادة القناصل ، طمعاً في اضطهادهم في أماكن لا يستطيعون ان يعثروا فيها على من يساعدهم . ولهذا فكر ابناء العامة بأن من الضروري اما الغاء وظائف القناصل ، او تنظيم سلطانهم بشكل لا يدع لهم سلطة على الشعب لا داخل المدينة ولا خارجها . وكان تيرنيتيلّوس(١) احد حماة الشعب ، اول من اقترح مثل هذا القانون ، مضمناً اقتراحه الدعوة الى انتداب خمسة رجال للبحث في السلطات القنصلية ووضع الحدود لها . واثار هذا الاقتراح غضب النبلاء الى حد كبير ، فقد بدا لهم وكأن جلال الحكم سيختفي مرة واحدة ، وان وضع النبلاء لن يعود له اي وجود في الجمهورية . ولكن اصرار حماة الشعب ، كان من الناحية الاخرى عنيفاً الى الحد الذي ادى الى اتخاذ القرار بإلغاء لقب القنصل ، وبعد ان تم سن عدد من المراسيم والقوانين ، ارتضوا في النهاية بتعيين حماة للشعب يملكون سلطات القناصل بدلاً من القناصل ، مما أوحى بأن الكراهية كانت منصبّة في الحقيقة على لقب القنصل نفسه لا على سلطته او صلاحياته . وقد ظل هذا العرف متبعاً امداً طويلاً ، ولكن الرومان أدركوا بعد لأي خطأهم ، فعادوا الى تعيين القناصل ، تماماً كما عاد الفلورنسيون الى مجلس العشرة .

---

١ سبق لنا أن تحدثنا عن قانون تيرنيتيليوس في مكان آخر من الهوامش .

الكتاب الاول

المطارحات من ٤٠ الى ٤٥

آراء مختلفة ترتكز الى مجلس العشرة

٤٠

تعيين مجلس العشرة في رومة والمهم فيه
دراسة مواضيع شتى بينها
كيف يمكن لحادث كهذا أن يؤدي
إما إلى خلاص الجمهورية أو استعبادها

لما كان قصدي البحث تفصيلاً في الحوادث التي أدت الى تعيين مجلس العشرة في رومة ، فقد لا يكون من الخطأ في رأيي ، ان اسرد كل ما تبع هذا التعيين اولاً ، وان ابحث بعد ذلك في جميع النقاط التي اعتقد بأهميتها والمتعلقة بسلوك المعنيين بالأمر ، ولا ريب في ان

هناك نقاطاً كثيرة صالحة لأن تكون على حد سواء موضع الدرس الدقيق من اولئك الذين يستهدفون الحفاظ على حرية الجمهورية ، واولئك الذين يخططون لاستعبادها واخضاعها . ومثل هذه الدراسة ستلقي الاضواء على العديد من الاخطاء التي ارتكبها مجلس الشيوخ والشعب ، والتي كانت في حد ذاتها مؤذية للحرية ، وعلى الاخطاء الكثيرة التي اقترفها ابيوس رئيس مجلس العشرة ، والتي كانت مضرة بالنظام الطغياني الذي كان يسعى لاقامته في رومة .

وقد اتفق بعد الكثير من الخصومات والصراع بين مجلس الشيوخ والشعب في رومة ، حول وضع قوانين جديدة تضمن لحرية تلك الدولة المزيد من الاستقرار ، على ايفاد سبريوس بوستوميوس ، مع اثنين آخرين من المواطنين الى اثينا ، للحصول على نسخ من القوانين التي كان صولون (Solon)(١) قد سنها لتلك المدينة، تمهيداً لوضع القوانين الرومانية الجديدة على اساسها . وكانت الخطوة التالية بعد عودتهم من هذه الرحلة، تعيين بعض الرجال ليتولوا درس هذه القوانين وفك رموزها. وعين عشرة رجال لمدة سنة واحدة ، وبينهم ابيوس كلوديوس ، وهو رجل معروف بحكمته مع بعض التقلب فيه . ورغبة في اتاحة الفرصة لهم ، لوضع القوانين دون الرجوع الى أية سلطة اخرى ، فقد اوقف جميع القضاة الآخرين عن العمل ، ولا سيما حماة الشعب (التربيون) والقناصل . وأوقف العمل ايضاً بحق الرجوع الى الشعب ، مما اسفر عن تحول هذه السلطة القضائية الجديدة بالنسبة الى الغايات والاهداف المتوخاة منها ، الى امارة داخل رومة، وكان الشعب ينظر نظرة الاعجاب

---

١ صولون (٦٣٨ – ٥٥٨) ق. م. مشرع اثينا العظيم . بدأ حياته كشاعر ثم سرعان ما ذاع صيته في الحكمة واصالة الرأي . انتخب في عام ٥٩٤ ، قاضياً لقضاة اثينا لوضع حد للخلافات بين أحزابها الثلاثة ، وهي : النبلاء والتجار والفقراء ، فوضع شرائعه التي تضمنت التنظيم الدستوري والقضائي والسياسي والاقتصادي . وقد افلح في وضع عدد من الاصلاحات السياسية والاقتصادية في المدينة . – المعرب –

الى ابيوس ، بحيث تركزت فيه جميع سلطات زملائه ، وذلك لأنه نجح في ان يحبب نفسه الى الشعب بسلوكه ، الى الحد الذي بدا فيه وكأنه قد اكتسب بصورة غير عادية ، طبيعة وشخصية جديدتين ، اذ كان حتى تلك اللحظة من أشد مضطهدي الشعب قسوة ووحشية .

وقد حكم العشرة في بادىء الأمر حكماً متناهياً في الذوق ، ولم يكن لهم أكثر من اثني عشر مرافقاً عسكرياً كانوا يسيرون أمام الرجل الذي يرئس العشرة . وعلى الرغم من ان سلطتهم كانت مطلقة في موضوع عقاب مواطن ارتكب جريمة القتل ، الا انهم كانوا يستدعونه للظهور أمام الشعب ، تاركين له ، حق اصدار القرار . وكتبوا قوانينهم على عشرة الواح ، وكانوا قبل تصديقها ، يضعونها امـام الشعب ، بحيث يتمكن كل فرد من افراده من قراءتها ومناقشتها ، ليرى اذا كان فيها اية عيوب ، وذلك بقصد تعديلها قبل ان تصبح مبرمة .

وبالنظر الى كل مـا تقدم ، فقد عمل ابيوس على نشر شائعة في رومة ، تقول انه لو اضيفت الى هذه المناضد العشر ، منضدتان اخريان ، فان الدستور يصبح كاملاً ، آنذاك . وقد اتاح هـذا الاقتراح للشعب الفرصة لاعادة انتخاب العشرة الأول سنة اخرى ، فوافق هؤلاء عـلى ذلك بسرعة ، لأن القناصل في هذه الحالة ، لن يعاد انتخابهم ، ولأنهم فكروا ان باستطاعتهم المضي في أعمالهم دون حاجة الى حماة الشعب ، بالنسبة الى انهم هم أصبحوا يحكمون في القضايا كما سبق لي ان ذكرت. وهكذا عندما حان الوقت لاعادة تعيين العشرة ، حرص جميع النبلاء على الحصول على هذا الشرف ، وكان ابيوس في مقدمتهم ، وقد أظهر من حسن النيـة نحو الشعب ابان حملته الانتخابية ، ما دعا زملاءه الى البدء بالشك فيه . وقد ظنوا انه بالنسبة الى ما فيه من غطرسة شديدة فان هذا الموقف من الود السهـل ، الذي يقفه ، لا يمكن ان يكون اصيلاً ، ولذا فعلى الرغم من انه كان اقلهم مكانة من ناحية مدة الخدمة

وطولها ، وترددا منهم في معارضته بصورة مكشوفة، قرروا ان يقاوموه عن طريق الخداع ، ولذا فقد عهدوا اليه باقتراح العشرة الذين يرى ان على الشعب اختيارهم ، ظناً منهم بأنه تواضعاً منه ، كما يفعل غيره في هذا الموقف، واحتراماً للاعراف وآداب السلوك ، لن يقترح نفسه، وذلك لأن رومة لم تعهد في تاريخها ان يرشح انسان نفسه ، وكان ينظر الى مثل هذا العمل ، على انه غير لائق ولا صالح . ولكن ابيوس ، اغتنم ما كان يبدو عقبة في طريقه ليحيلها الى فرصة ينتهزها ، ووضع اسمه في رأس القائمة مما أدهش جميع النبلاء وأغضبهم ، ثم وضع تسعة اسماء اخرى يتفق اصحابها معه في أهدافه .

وكان هذا التعيين الجديد ، الذي أقر لسنة اخرى ، السبب في ان يبدأ الشعب والنبلاء بتبين الخطأ الذي يوجد في الطرق التي اتبعوها . فقد حسر ابيوس القناع الذي كان يتنكر وراءه عن وجهه فوراً، واخذ يعرض ما فيه من غطرسة اصيلة . ولم يمض طويل وقت ، حتى كان زملاؤه يسيرون على منواله . ورغبة منهم في بعث المهابة في قلوب الشعب واعضاء مجلس الشيوخ ، قاموا بتعيين مائة وعشرين مرافقاً بدلا من الاثني عشر السابقين .

واشترك الجميع على حد سواء في التخوف عندما وصلت الامور الى هذه المرحلة من الحراجة . وبدأ العشرة بعد ذلك يتلاعبون بمجالس الشيوخ ويسيئون معاملة العامة ، ولو استأنف احد الناس الذين اسيئت معاملتهم من احد العشرة الى عضو آخر للقي معاملة أسوأ في الاستئناف من تلك التي لقيها في البداية . وهكذا عندما ادرك العامة الخطأ الذي وقعوا فيه ، شرعوا في وهدة الأسى المؤلم التي وصلوا اليها يتطلعون الى النبلاء ، أملاً منهم في ان يستعيدوا نفساً من الحرية ، من المصدر الذي كانوا يخشون منه العبودية ، حتى ان خشيتهم أوصلتهم الى هذا الوضع من الحراجة ؛ ولكن النبلاء، قابلوا ما هم فيه من ألم ، بارتياح وسرور،

اذ ان موقف العامة ، كان اشبه بموقف اولئك الذين ثاروا على الوضع الحالي فأرادوا عودة القناصل .

وعندما انتهت السنة الثانية ، كانت اللوحتان الاخريان من القوانين قد اعدتا، ولكنهما لم تطبعا بعد . وقد اتاح هذا للعشرة المبرر للاستمرار في انتدابهم . وشرعوا يعملون بعنف ، رغبة منهم في الحفاظ على مراكزهم ، وجعلوا من النبلاء الشبان اتباعاً لهم،واغدقوا عليهم الخيرات التي كانت لأولئك الذين ادانوهم وحكموا عليهم . « وقد فسد الشبان بهذه المنح . وآثروا فرط الحرية لهم ، على ان تكون الحرية مباحة للجميع » (١) .

وحدث في هذا الوقت العصيب بالذات، ان شرعت قبائل « السابيين » و « الفولسكي » في شن الحرب على الرومان ، وكان الخوف الذي ساد المدينة نتيجة لذلك من النوع الذي حمل العشرة على الشروع في ادراك ما عليه مركزهم من ضعف ، اذ انهم كانوا عاجزين بدون مجلس الشيوخ عن الاعداد للحرب ، وكان يبدو لهم ان مجرد دعوة المجلس الى الاجتماع يعتبر اضاعة لمركزهم . وارغمتهم الحاجة على ركوب هذا المركب الخشن فعلاً . وعندما اجتمع اعضاء مجلس الشيوخ تحدث عدد منهم وفي مقدمتهم فاليريوس وهوراتيوس ، عن غطرسة العشرة،وكان من المحتمل ان تنتهي سلطتهم تماماً لو لم يرغب مجلس الشيوخ بدافع الحسد للعامة في اظهار سلطانه ، فقد خيل الى الشيوخ انه لو استقال العشرة من انتدابهم بمحض اختيارهم ، فقد يكون في وسع المجلس ان يحول دون اعادة تعيين حماة الشعب (التربيون) . وهكذا قرر المجلس شن الحرب . وخرج جيشان من المدينة يقود بعض فرقهما عدد من اعضاء مجلس العشرة . وظل ابيوس في المدينة ليحكمها ، وحدث ابان ذلك ان وقع في غرام فرجينيا التي صمم على اغتصابها،ولكن والدها فرجينوس

---

١ من كتاب تيتوس ليفي .

اقدم على قتلها لينقذها من ذلك المصير . ووقعت الاضطرابات اثر ذلك في كل من رومة وفي اوساط الجنود في الجيش ، الذين انضموا الى من تبقى من عوام رومة وتراجعوا الى مونزساكو ، حيث ظلوا قابعين هناك الى ان تخلى العشرة عن انتدابهم ، واعيد تعيين القناصل وحماة الشعب ، واستعادت رومة شكل الحرية العريقة التي كانت تعيش في ظلها .

ومن واجبنا ان نلاحظ في هذا الحادث الذي سردناه ، اولاً وقبل كل شيء ، ان الشرور التي انطوت عليها اقامة هذا النظام الطغياني كانت راجعة الى نفس الاسباب التي تؤدي الى ظهور انظمة الطغاة في المدن الاخرى وهي الغلو في مطالبة الشعب بالحرية ، والاغراق في مطالبة النبلاء بالسيطرة . اذ عندما يفشل الفريقان في الوصول الى اتفاق لوضع قانون يؤدي الى الحرية ، يقوم احد الفريقين عوضاً عن ذلك باستخدام كل ما له من ثقل في تأييد شخص معين ، مما يفضي حتماً الى قيام الطغيان . وقد اتفق الشعب والنبلاء في رومة على تعيين العشرة ، كما اتفقا على العهدة اليهم بسلطات واسعة ، وذلك بسبب الرغبة التي سيطرت على كل فريق ، اولهما للخلاص من الرتبة القنصلية وثانيهما للخلاص من حماة الشعب. وعندما تم تعيين العشرة، وبدا للشعب ان ابيوس قد غدا من الدهماء ، وانه يعتزم الحط من قدر النبلاء سارع الى الالتفاف حوله ، ومنحه تأييده . ولكن عندما يغرى شعب على ارتكاب الخطأ في رفع انسان الى مكانة سامية للغاية ، وذلك بسبب ما يبديه هذا الانسان من تهجم علي اولئك الذين يكرههم الشعب، وعندما يتوافر الذكاء عند هذا الانسان ، فان ما يحدث دائماً هو ان ينشأ نظام طغياني في المدينة التي يعيش فيها الجميع ، وذلك لأن هذا الرجل سينتظر الى ان يتمكن بتأييد الشعب من الخلاص من النبلاء، ولن يشرع في اضطهاد الشعب الا بعد الخلاص من الفريق الثاني، وفي غضون ذلك ، يدرك الشعب انه قد اضحى جماعة من العبيد وانه لن يجد الوسيلة

للخلاص من الحالة التي وصل اليها .

وقد اتبعت هذه الطريقة دائماً من قبل اولئك الذين أقاموا انظمة الطغاة في الجمهوريات ، ولو ظل ابيوس محافظاً عليها ، لبقي نظامه مدة أطول ولما انهار بمثل السرعة التي انهار فيها . ولكنه سلك عكس السبيل ، ولم يكن ثمة سبيل أقل حكمة من ذلك الذي سار فيه . اذ رغبة منه في الحفاظ على نظام طغيانه ، احال اولئك الذين كانوا قد أوصلوه اليه والذين كان في وسعهم ابقاءه في وضعه الى اعداء ، كما هادن اولئك الذين لم يكونوا على استعداد لمنحه اياه ، والذين لم يكن في وسعهم ابقاءه فيه . وهكذا فقد اضاع بهذه الطريقة اولئك الذين كانوا من اصدقائه ، وحاول مصادقة اولئك الذين لم يكن في وسعهم ان يصدقوه الود . فعلى الرغم من ان النبلاء يرغبون في الطغيان ، الا ان تلك الفئة منهم ولا سيما التي تجد نفسها خارج أي نظام طغياني ، تصبح دائماً عدوة للطاغية . وليس في استطاعته ان يكسبهم جميعاً الى صفه ، وذلك لتشبعهم تشبعاً كبيراً بالمطامع والجشع ، بحيث لا يستطيع أي طاغية ان يملك من الأموال ومراتب الشرف ، ما يكفي لارضائهم بها . وهكذا فقد ارتكب ابيوس في تخليه عن الشعب ، وتودده الى النبلاء خطيئة كبيرة واضحة ، وذلك بالنسبة الى الاسباب التي سبق لي ايضاحها ، وبالنسبة الى سبب آخر وهو ان كل محاولة للاحتفاظ بشيء ما عن طريق القوة المجردة تتطلب ان يكون اللاجيء الى استعمال القوة، اكبر سلطاناً من اولئك الذين تستخدم القوة ضدهم .

ويبدو نتيجة لما قلت ، ان كل من يجعل من الشعب بمجموعه صديقاً له ، ومن النبلاء اعداء له . يكون اكثر أمناً وسلامة،وذلك لأن العنف الذي يقوم به يكون مدعوماً من قوة اكبر من تلك التي يعتمد عليها اولئك الذين يجعلون من الشعب عدواً ومن النبلاء اصدقاء لهم . اذ لو كان الشعب صديقاً لهم ، فان قوات الأمن الداخلي ، تكون كافية

للحفاظ عليهم . وهو ما ظهر جلياً في قضية نابيس ، طاغية اسبارطة ، عندما هاجمته بلاد اليونان بأسرها مع الشعب الروماني . وقد تمكن هذا بفضل صداقته لبعض النبـــلاء ، وللشعب بكامله من الدفاع عن نفسه بمساعدتهم ، وهو ما كان يعجز عنه حتماً لو جعل من الشعب عدواً له. أما في الحالة البديلة ، أي عندما لا يكون للطاغية الا اصدقاء قلائل في وطنه ، فان قوات الأمن الداخلي لا تكون كافية لحمايته ، وهذا يحمله على اللجوء الى مساعدة خارجية . وتكون هذه المساعدة في اشكال ثلاثة أولها الاتباع الاجانب يتولون حماية شخص الطاغية ، وثانيها تسليح اهل الارياف ليقوموا بما كان من واجب العامة القيام به وثالثها ، عقد حلف دفاعي مع جيران أقوياء . وكل من يتخذ هذه الاحتياطات ، ويطبقهـا تطبيقـاً حسناً ، يستطيع بطريقة من الطرق الدفاع عن نفسه حتى ولو كان الشعب معادياً له . ولكن ابيوس لم يستطع أن يضمن الريف الى جانبه ، لأن أهل الريف كانوا على شاكلة أهل رومة ، وهكذا فقـد اتزانه ولم يستطع ان يرى طريقه ، فتقرر مصيره منذ البداية .

ولقد اخطأ مجلس الشيوخ والشعب خطأ بالغاً بتعيين مجلس العشرة ، اذ على الرغم من كل ما قيل قبلاً في هذه الاطروحة عن الديكتاتورين ، وان اثر الحكام الذين يعينون أنفسهم في ايذاء الحرية ، يكون ابلغ من أذى الحكام الذين ينتخبهم الشعب ، الا ان من واجب الشعب على كل حال ، عند اختياره لحكامه ان يحسن هذا الاختيار ، وان يضمن انتقاءهم من الطراز الذي تحمله مكانته على عدم اللجوء الى اساليب الشر . ولما كان من واجب الشعب ايضاً ان يعـين أوصياء يراقبون سلوك هؤلاء الحكام ليتأكدوا من أنهم يسيرون سيراً صحيحاً . الا ان شعب رومة . أخطأ في تنحية المراقبين(١) الموجودين من قبل،وجعل من اعضاء مجلس

---

١ المراقبون (Censors) . وقد شرحنا مهام هذا المنصب في مكان آخر من الهوامش . — المعرب —

العشرة السلطة الحاكمة الوحيدة في رومة ، ملغياً كل سلطة اخرى ، وذلك بسبب الرغبة الملحة القائمة عند مجلس الشيوخ للخلاص من حماة الشعب (التربيون) والرغبة المقابلة الموجودة عند العامة للخلاص من القناصل . وهما رغبتان كانتا على درجة من القوة ، بحيث اغمضت عيون الجميع ، وحملتهم على التعاون في اتباع الاجراء الخارج على كل نظام . فالناس يشبهون كما قال الملك فرديناند صغار الطير من الجوارح التي تكون رغبتها قوية في اصطياد الفرائس بسبب ما لديها من غرائز تحملها على مطاردتها ، فلا تلاحظ ان هناك طيراً جارحاً أكبر منها يحلق فوق رؤوسها على استعداد للانقضاض عليها وافتراسها . ولا ريب في ان هذه المطارحة قد أوضحت ، كما وعدت في البداية ، الخطيئة التي اقترفها شعب رومة في محاولته انقاذ حريته ، والاخطاء التي ارتكبها ابيوس في محاولته اقامة حكمه على اساس حكم الطغاة .

٤١

الانتقال المفاجئ من التواضع إلى الكبرياء
أو من الرقة والدماثة إلى القسوة والوحشية
دون اتباع خطوات صحيحة ومناسبة
أمر يجافي العقل ولا يجدي

لعل من الاشياء البليدة التي اتبعها ابيوس للحفاظ على طغيانه ، وأكثرها خطراً ، انتقاله الفجائي من طبيعة الى اخرى . ولقد أحسن صنعاً في الطريقة الذكية التي اتبعها لخداع الشعب عن طريق التظاهر ، بأنه رجله

وحاميه . ولقد أحسن صنعاً أيضاً في استخدامه للشروط التي تسلم الحكم بموجبها ، وذلك لضمان عودة مجلس العشرة الى السلطة . وأحسن صنعاً كذلك في ما أبداه من جرأة عند ترشيح نفسه من جديد للمنصب، خلافاً لما كان يتوقعه جميع النبلاء منه . وكان من خير ما فعله أيضاً انتقاؤه زملاءه من الرجال الذين يوافقون أهدافه .

ولكن على الرغم من كل ما أحسنه من صنع في كل هذه الامور، الا انه لم يحسن الصنع مطلقاً كما أشرت أعلاه ، في انتقاله المفاجىء من صفة الصديق المخلص للعامة ، الى صفة العدو الصريح لهم ، وتحوله من التواضع الى الغطرسة ، ومن سهولة التعامل الى صعوبته ، اذ انه بعمله كل هذا بمثل تلك السرعة، لم يترك مجالاً لأي انسان في ان يخطيء تمييز ما لحق بعقله من اعوجاج . فعلى كل من بدا في وقت ما، بمظهر الصلاح ، ثم رغب لسبب من الاسباب التي تتعلق بأهدافه الخاصة ، في ان يتحول الى الطلاح، ان يقوم بعملية التبدل هذه على مراحل معقولة ، مكيفاً سلوكه حسب مقتضيات الظروف والاحوال ، بحيث يتمكن قبل ان يحمله تبديل طبيعته على خسارة مؤيديه القدامى، من ضمان تأييد عدد جديد من الانصار ، حتى لا يخسر شيئاً من قوته وسلطانه ، واذا لم يتبع هذا السبيل ، فأنه يجد نفسه ضائعاً بلا اصدقاء وفي ذلك دماره المحتوم .

٤٢

سهولة افساد الناس

يجب ان يلاحظ المرء في قضية مجالس العشرة ، السهولة التي يمكن

بها إفساد الناس وتحويل طبيعتهم وتبديلها ، مهما كانوا على درجة كبيرة من الصلاح ، ومهما كانت تنشئتهم خيّرة . ولندرس مثلاً موضوع الشبان الذين اختارهم ابيوس حرساً خاصاً له ، وكيف غدوا بسرعة من اصدقاء الطغيان،رغبة في الحصول على بعض المنافع التي كانوا يجنونها ، وكيف ان الصغار في الطموح ، قد دفع بكوينتوس فابيوس ، أحد الاعضاء في مجلس العشرة الثاني،الى ان يعمى عينيه عن الحقائق رغم ما هو عليه من طيبة وامتياز ، وكيف انه تحت تأثير ابيوس الشرير قد تحول عن طباعه الخيّرة الى طباع سيئة ، وغدا شبيهاً له في كل شيء .

ولا ريب في ان الدراسة الوافية لكل هذا،ستحمل جميع المشرعين سواء أكانوا في جمهورية أو مملكة، على ان يكونوا على استعداد لكبت جميع الشهوات الانسانية ، وحرمانها من كل أمل في ارتكاب الاساءات مع الافلات من العقاب .

٤٣

خيرة الجنود وأكثرهم اخلاصاً من يحارب منهم سعياً وراء المجد

من النقاط المهمة التي يجب ايلاؤها العناية في الدرس ، بالنسبة الى المطارحة السابقة،هي البون الشاسع بين جيش راض يحارب طلباً للمجد، وبين جيش آخر ، ما زال ساخطاً يحارب لمساعدة انسان على تحقيق مطامعه . اذ بينما كانت جيوش الرومان قد الفت النصر في ظل قناصلها، كانت تمنى بالهزيمة دائماً تحت قيادة مجلس العشرة .

وتظهر هذه الحقيقة مع حقائق اخرى مماثلة ، السبب في عدم جدوى جنود المرتزقة ، اذ ليست لهؤلاء الجنود قضية يحاربون بصلابة من اجلها اذا ما هوجموا باستثناء ما ينالونه من رواتب ضئيلة ، وهي رواتب لا تؤلف سبباً كافياً يدعوهم الى الولاء او الى اصداقك الود بحيث يستعدون للموت في سبيلك . واذا كانت الجيوش مفتقرة الى حب من تحارب في سبيله ، وهو الحب الذي يحملها على اعتبار انفسها شريكة له ونصيرة، فأن من المستحيل على هذه الجيوش ان تحمل من الشجاعة ما يكفيها للصمود حتى أمام عدو معتدل في شجاعته . ولما كان من المحال اثارة الحب اللازم او الحماس الضروري ، الا في نفوس رعايا الانسان نفسه، فمن الواجب اذا رغب هذا الانسان في الحفاظ على نوع من الحكم ، جمهورياً كان او ملكياً ، ان يسلّح نفسه برجاله ورعاياه ، وهذا ما تثبت صحته فيحالات كل من تمكن بجنوده من الحصول على النفع اللازم.

وكانت لجيوش الرومان في ظل حكم العشرة نفس الشجاعة التي كانت لها من قبل ، ولكن لما لم تكن لديها نفس الميول نحو حكامها ، فانها لم تكن تنتج مثل ما سبق لها ان انتجت . وعندما انتهى حكم العشرة بالالغاء ، وعادت الجيوش تحارب كما كانت من قبل وفي طبيعتها الحرة، استعادت روحها القديمة ، وأنتجت في هجماتها تبعاً لذلك نفس النتائج السعيدة التي كانت تحصل عليها دائماً .

٤٤

لا قيمة للجماهير بلا زعيم لها
وعليها ان تتجنب التهديد أولاً
ثم طلب السلطة اللازمة ثانياً

انسحب عوامّ رومة الى مونز ساكو ، بسبب ما لحق بفرجينيا ،

وكانوا يحملون اسلحتهم معهم، وبعث مجلس الشيوخ برسله اليهم يستعلم منهم عن السلطة التي سمحت لهم بالتخلي عن ضباطهم والانسحاب الى الجبل، وكان العوام ينظرون الى سلطة مجلس الشيوخ نظرة التجلة والاحترام، فلما لم يكن لهم زعيم، لم يستطع اي منهم الرد على سؤال الرسل . ويقول تيتوس ليفي ان السبب في صمتهم لم يكن افتقارهم الى المادة للرد ، بل افتقارهم الى من يتولى اعداده . ولا ريب في ان هذا يظهر تفاهة الجمهور الذي لا زعيم له .

وسمع فيرجينيوس، بهذا الوضع الشاذ ، فنصح العامة بانتخاب عشرين مدافعاً عسكرياً عن حقوقهم (تريبوناً)، وذلك ليتولوا قيادهم وليكون في امكانهم بحث القضايا مع مجلس الشيوخ للوصول الى اتفاق ما . وطلب العامة ان يوفد لهم مجلس الشيوخ فاليريوس وهوراتيوس ، ليبحثا معهم في مطالبهم . وقد أصر هذان على عدم الذهاب حتى يكون مجلس العشرة قد ابعد عن الحكم، وعندما وصل رسولا مجلس الشيوخ الى الجبل، حيث كان العوام قد احتشدوا ، قيل لهما ان العامة تطلب تعيين حماة (تريبيون) من أبنائها، وتطلب حق استئناف اي حكم يصدر عن قاض الى الشعب ، وتسليمها جميع أعضاء مجلس العشرة ، اذ كانت النية متجهة الى احراقهم وهم على قيد الحياة .

ووافق فاليريوس وهوراتيوس على الطلبين الأولين ، ولكنهما استنكرا الطلب الثالث على اعتبار انه وحشي قائلين للعوام : « انكم تستنكرون الوحشية ، ومع ذلك فأنتم تنزلقون اليها » . وأوصيا العوام بالتخلي عن المطلب الثالث المتعلق بالعشرة ، وان يبحثوا عوضاً عنه في اعادة توطيد سلطتهم وسلطانهم، اذ لما يتحقق لهم ذلك ، يصبح في امكانهم الحصول على كل ما يطلبونه من ترضيات .

وتعلمنا هذه القصة درساً، في حماقة وبلادة اعلان الانسان عن حقيقة نواياه عندما يطلب شيئاً معيناً، بالقول : « اني اريد ان اعمل به كيت

وكيت من الامور الخاطئة » . فعلى الانسان ان لا يعلن عن حقيقة نواياه، بل ان يعمل على تحقيق ما يرغب فيه بأي شكل من الاشكال ، وهذا يعني مثلاً، ان الانسان لا يحتاج عندما يطلب سلاحاً من آخر الى ان يقول له : « انني اريد ان اقتلك به » ، طالما ان في مكنتـه ان يشبع رغبته عندما يصبح السلاح في يديه .

٤٥

من السوابق السيئة أن يخالف المرء قانوناً جديداً ولا سيما إذا كان الشخص المخالف من المشرعين ، وايقاع اضرار جديدة بأية مدينة ، أمر مؤذٍ للشخص الذي يحكمها

عندما تم الوصول الى اتفاق ، وعادت رومة الى نظام حكمها السابق، استدعى فيرجينيوس ، آبيوس ليمثل امام الشعب ، ويدافع عن نفسه . وجاء هـذا يرافقه عدد من النبلاء . وأمر فيرجينيوس بايداعه غياهب السجن . وشرع هذا يحتج صارخاً ، مستأنفاً القرار الى الشعب . ورد فيرجينيوس ، بأنه غير أهل لحق الاستئناف لانه كان قد ألغاه في عهد حكمه . ولا يجوز ان يدافع عنه شعب سبق له ان اساء معاملته.واجاب ابيوس بأن على الشعب ان لا يخالف حق الاستئناف ، الذي كان حريصاً على النص عليه . ولكنه مع ذلك زج به في السجن ، حيث انتحر قبل ان يحين موعد محاكمته . ولا ريب في ان آبيوس كان يستحق بالنسبة الى الحياة الشريرة التي عاشها كل عقاب. ولكن مما يخالف العرف المدني تمام المخالفة ، التنكر لقانون لا سيما اذا كان هذا القانون جديد الولادة

ولا أرى مثـلاً اسوأ للجمهورية من ان تسن قانوناً وان تخالفه ، ولا سيما اذا كان المخالف هو عين الشخص الذي سن القانون .

وقد أعيد تنظيم الحكومة في فلورنسة بعد عام ١٤٩٤، بمساعدة الراهب جيرولامو سافونارولا ، الذي تشهـد كتاباته ، بما كان عليـه من علـم غزير ، وحكمـة وافرة ، وفضيلة في العقل . وكان قد وضع لحماية المواطنين وأمنهم ، بالاضافة الى ما وضعه من تشريعات اخرى ، قانوناً يسمح بحق الاستئنـاف الى الشعب ، من أي قرار يكون مجلس الثمانية ومجلس السيادة قد أبرماه ، في القضايا المتعلقة بالخيانة ، وقد دافع عن هذا القانون دفاعاً حاراً استغرق أمداً طويلاً ، ثم تمكن بعد لأي ومشقة من اقراره . وحدث بعد صدور القانون بمدة قصيرة ، ان حكم مجلس السيادة على خمسة رجال بالاعدام بتهمة الخيانة ، وعندمـا رغب هؤلاء في استئناف الحكم ، لم يسمح لهم بذلك ، ولم تراع حرمة القانون، وقد أدى هذا الحادث الى تضاؤل سمعة الراهب أكثر من أي شيء آخر اذ لو كان حق الاستئناف جديراً بالوجود ، لكان من واجبه ان يضمن مراعاة حرمته . وقد اثار هذا الحادث المزيد من الاهتمام لأن الراهب ، لم يعمل مرة واحدة ، في المواعظ الكثيرة التي القاها بعد مخالفة القانون على استنكار المخالفة أو ايجاد المبررات لها . اذ لما كانت هذه المخالفة قد جاءت منطبقة مع اهوائه ، فقـد امتنع عن استنكارها ، كما عجز عن تبريرها . ولا ريب في ان هذه الحادثة قد كشفته امام الناس على حقيقته ، وتبين لهم انه في قرارة قلبه انسان طموح ومتحزّب ، ممـا قضى على سمعته واثار عليه الكثير من اللوم .

ولعل من اكثر الأمور إضراراً بالحكومة ، ان تثير كل يوم سخطاً جديداً في مشاعر مواطنيها ، عن طريق ايقاع الاذى من جديد ، بهذا المواطن او ذاك ، كما حدث في رومة بعد سقوط مجلس العشرة . فلقد اتّهم الرجال العشرة وكثير غيرهم ، في أوقات مختلفـة بعدة امور ،

وأدينوا وحكم عليهم مما اثار الفزع الشديد في قلوب جميع النبلاء ، الذين خيل اليهم ان لا نهاية لمثل هذه الاحكام ، حتى يتم القضاء عليهم جميعاً . وكان من المنتظر ان تحدث هذه الحالة ، الكثير من المتاعب البالغة في المدينة لو لم يقم ماركوس دويليوس ، وهو أحد حماة الشعب، بسن قانون يمنع استمرار هذه الحالة ، ويجعل من اللاشرعية ان يوجه الاتهام الى أي مواطن روماني أو أن يستدعى للمثول أمام الشعب مدة عام كامل ، هدأت ابانه مخاوف النبلاء وسكنت ثائرتهم .

وتظهر هذه القصة الضرر الذى يلحق بجمهورية او بأمارة ، من جراء الابقاء على افكار رعاياهما مشغولة وقلقة وخائفة ، من استمرار ايقاع العقوبات والحاق الاساءات ، وليس ثمة من اجراء اكثر ضرراً من هذا الاجراء حتماً . اذ عندما يبدأ الناس بالشك في ان الشر قد يلحق بهم، يلجأون الى كل وسيلة ممكنة لحماية أنفسهم ، ويغدون اكثر جرأة وأقل تحفظاً في محاولة القيام بثورة . ومن الضروري والحالة هذه ، اما ان لا يقدم المرء على الاضرار بأنسان ابداً ، او ان يوقعَ هـــذه الاضرار مرة واحدة ، ثم يقوم بطمأنة الآخرين ، والايحاء لهم بتوقع حياة طويلة من السلام والأمن .

الكتاب الاول
المطارحات من ٤٦ ـ ٤٩

الطلب الشائع للاشتراك في الحكم

٤٦

ينتقل الناس من طموح إلى آخر
وبعد النضال ضد المعـاملة السيئة ،
يعملون على ايقاعهـا بغيرهـم

عندما استعاد الشعب الروماني حريته ،عاد الى وضعه الاول، وأخذت عظمته تسير الآن في طريق الارتفاع بفضل القوانين الجديدة والعديدة التي تم وضعها ، مما أدى الى تقوية سلطانه ، وبدا وكأن رومة ستخلد الى الهدوء أمداً ما . ولكن التجارب اثبتت ان هذا التكهن لم يكن صحيحاً، اذ اخذت تنشب في كل يوم اضطرابات جديدة،وخلافات شتى . وقد

اوضح تيتوس ليفي ، بطريقة رائعة ، الاسباب التي دعت الى هذا التحول ، ولذا فاني أرى من المناسب ان اسرد هنا ملاحظاته حول هذه النقطة بالذات . فهو يقول ، ان النبلاء او العوام ،كانوا دائماً يتجهون الى الغطرسة عندما يكون الفريق الثاني قد استكان الى الهدوء والذلة ، وانه عندما كان العوام يهدأون ويلزمون مواضعهم،كان الشبان من النبلاء يشرعون في اساءة معاملتهم،وان حماة الشعب (التربيون) كانوا أعجز من ان يصلحوا الحال،لأنهم كانوا يتعرضون أيضاً للعنف وسوء المعاملة. وكان بقية النبلاء من الناحية الاخرى ، على الرغم من ادراكهم المدى البعيد ، الذي كان يمضي فيه شبانهم ، حريصين كل الحرص ، على انه اذا كان لا بد من التطرف في اقتراف التصرفات ، فأن هذا التطرف يجب ان يصدر عنهم لا عن العامة . وهكذا فأن الرغبة في الحرية ، قد حملت كلاً من الفريقين على اضطهاد الفريق الآخر ، ما دام انه متفوق عليه . وكان التسلسل الذي وقعت فيه هذه الاحداث على النحو التالي ، وهو ان الناس ينشدون التحرر من الخوف اولاً ، ثم يبغثون الفزع في قلوب الآخرين ثانياً ، ويعكفون بعد ذلك على ايقاع الاضرار التي تخلصوا هم منها بالآخرين ، وهي صورة يبدو فيها وكأن من الضروري ، اما ان يسيء الانسان معاملة الآخرين ، او يتعرض هو الى اساءة المعاملة .

ونحن نرى في هذا،احدى الطرق التي تؤدي بالجمهوريات الى التفسخ والانحلال ، كما نرى كيف يتحول الناس من طموح الى آخر.وما في قول سااللوست (Sallust)(١) من صحة عندما وضع على لسان قيصر قوله : «تنشأ جميع الامثلة السيئة من بدايات طيبة» . واول ما ينشده

---

١ كريسيوس غايوس سااللوست (٨٦ - ٣٤) ق. م. مؤرخ روماني من عائلة من العوام ، كان من حماة الشعب ولكن القنصل بولشر عزله من مجلس الشيوخ لميوله إلى قيصر.عينه هذا حاكماً في افريقيا . له عدة مؤلفات منها « الصراع ضد يوغورتا » . — المعرب —

الرجال الطموحون الذين يعيشون في احدى الجمهوريات ، هو ان ينجوا كما سبق لي ان قلت من سوء المعاملة سواء ما كان منها من الاشخاص العاديين او من الحكام . وللحصول على هذا الأمن،يعمل هؤلاء الرجال على اقامة صداقات بطرق تبدو شريفة ، كتقديم العون المالي ، او تأمين الحماية من الاقوياء . ولما كان هذا العمل يبدو شريفاً وفاضلاً،فأن كل انسان يخدع به بسهولة ، ولذا فهو لا يكترث به،مما يؤدي الى ان مثل هؤلاء الرجال الذين يثابرون على تنفيذ خططهم ، والذين لا يواجهون أية عقبة ، يتوصلون الى مركز يخشاه المواطنون العاديون ، ويجد الحكام أنفسهم مرغمين على احترامه . وعندما يصلون الى هذه المكانة العالية ، دون ان يلقوا في طريقهم أية عقبة حقيقية ، تحول بينهم وبين العظمة، يغدون في مركز ، يكون من الخطر كل الخطر مهاجمتهم فيه للاسباب التي سبق لي ان اوضحتها ، كالخطر الكامن في محاولة انتزاع جائحة من دولة،بعد ان نمت فيها الى الحد الذي اوصلها الى أبعاد كبيرة ومهمة . وهكذا يتطور الوضع في النهاية على النحو التالي : اما ان يتطلع المرء الى الاطاحة بذلك الشخص المعني ، مع ما في ذلك من تعريض نفسه لخطر الخراب السريع ، او ان يسمح له بالاستمرار في طريقه ، مع توقع حياة العبودية في ظله ، الا اذا جاء الموت او حادث سريع لنجدته ، واطلاق سراحه . اذ عندما يصل الانسان الى المرحلة التي يبعث فيها الخوف من اساءته والاساءة لأصدقائه في قلوب المواطنين والحكام معاً ، لا يغدو من الصعب عليه بعد ذلك ، ان يفعل ما يشاء ، وان يلحق الاساءات بالناس على النحو الذي يهواه .

ولذا فمن واجب كل جمهورية ان تضع نظاماً من نوع ما ، يحول بين مواطنيها وبين ارتكاب الاساءات تحت ستار عمل الخير ، ويضمن ان تكون شعبية هؤلاء المواطنين من النوع النافع ، لا المجحف بحق الحرية ، وهي نقطة سنبحثها بحثاً أوفى في مكانها المناسب .

٤٧

على الرغم من ان الناس يخطئون في القضايا العامة الا انهم لا يخطئون في المسائل المعينة

سبق لي ان قلت ان الشعب الروماني، اخذ ينظر الى المنصب القنصلي على انه مصدر ازعاج له. وأراد ان يفسح مجال الوصول الى هذا المنصب أمام العامة، أو ان يقلل من صلاحيات القناصل كحل بديل يخفف هذا الشعور بالمقت. ورغبة من النبلاء في عدم تشويه سلطات القناصل عن طريق أي من هذين الاجراءين، فقد اقترحوا طريقاً وسطاً، ووافقوا على تعيين أربعة من حماة الشعب (التربيون) على ان يحملوا صلاحيات القناصل، وان يسمح بتعيينهم اما من العامة أو من النبلاء.

وقنع العامة بهذا الاجراء، الذي كان يعادل في مغزاه الغاء القنصلية، وأصبح لهم نصيب في أعلى مناصب الدولة. وهنا وقعت حادثة تستحق الملاحظة والتسجيل. فعندما جاء دور انتخاب حماة الشعب، وكان في وسع العامة انتخاب الحماة الاربعة من ابناء طبقتهم، الا ان الذين انتخبوا بالفعل كانوا جميعاً من النبلاء. ويقول تيتوس ليفي في هذا الصدد: « ان نتيجة هذه الانتخابات تظهر ان الموقف الذي اتخذ في النضال من اجل الحرية والشرف كان مغايراً لذلك الذي اتخذ عندما انتهى النضال، ومضى مخلفاً وراءه مرحلة الحكم على الأمور حكماً مجرداً من أية ميول.

«ولو تساءل انسان عن السبب في حدوث هذا، لقلت له انني اعتقد بأنه وقع، لأن الناس يرتكبون الكثير من الاخطاء بصدد الأمور العامة، ولكنهم لا يرتكبونها عندما ينتقلون الى القضايا المعينة. ولقد كان عوام الرومان يعتقدون انهم ذوو حق في المناصب القنصلية، لأنهم اكثر عدداً من النبلاء في المدينة، ولأنهم هم الذين يتعرضون الى اكثر الاخطار

جسامة في الحروب ، ولأنهم هم الذين حافظوا بكدهم وتعبهم على حرية روما وقوتها . ولما كانت هذه الرغبة كما قلت تبدو لهم شيئاً معقولاً فقد صمموا على الحصول على هذه السلطة ، بأي سبيل من السبل. ولكن عندما حان الوقت لتقرير أيهم يجب انتخابه من بين اعضاء حزبهم اقروا بما هم عليه من ضعف ، وقضوا بأن أياً منهم لا يستحق الوصول الى ذلك الشيء الذي كانوا يعتقدون بجدارتهم فيه كمجموع لا كأفراد ، وعندما أحسوا بعدم كفاية رجالهم ، وجدوا ان من الضروري العودة الى اولئك الذين يستحقون المنصب. ولا غرو اذا ما دهش تيتوس ليفي من هذا القرار وعلّق عليه قائلاً : « وأين يمكن العثور اليوم في شخص ما على ذلك التواضع والانصاف والسمو في الفكر ، الذي أظهره الشعب الروماني قاطبة آنذاك » .

ولتأكيد هذه النظرية أرى ان اورد مثالاً بارزاً آخر ، حدث في كابوا ، بعد ان تمكن هانيبال من هزم الرومان في كانيه . وكانت هذه الكارثة ، قد أثارت ايطاليا بأجمعها ، ونشبت بصورة خاصة اضطرابات في كابوا ، بسبب الكراهية التي كانت قائمة بين الشعب ومجلس الشيوخ. وأدرك باكوفيوس كالفيوس الذي كان آنذاك اكبر حاكم في المدينة ، الخطر الذي تتعرض له مدينته من هذه الفتن، فأخذ يدرس احسن السبل التي يمكن له ان يلجأ اليها بحكم منصبه، ليوجد التفاهم بين العامة والنبلاء. ووضع الرجل خطة نفذها . فقد استدعى مجلس الشيوخ ، وابلغ اعضاءه الكراهية التي يحملها الشعب لهم ، وان هذه الكراهية تعني انهم معرضون لخطر القتل ، وان المدينة معرضة لخطر التسليم لهانيبال ، وذلك بالنسبة الى الحالة المحزنة التي كان الرومان قد وصلوا اليها . واضاف الرجل، انهم لو تركوا القضية اليه لمعالجتها، فانه سيتصرف على النحو الذي يضمن عودتهم الى الاتحاد ، ولكنه يقترح ان يغلق عليهم ابواب قصره ، وانه رغبة منه في انقاذهم سيلجأ الى ادعاء السلطان الذي يظهر للشعب انه قد

اوقع العقاب الذي يريده بهم . واذعن الشيوخ لنصيحته ، وعندما تم له حصر جميع الاعضاء في القصر ، دعا الشعب الى اجتماع عام ، وأبلغه ان الوقت قد حان لكي يصبح في امكانه اذلال كبرياء النبلاء ، والوصول الى ما يبغيه افراده من ثأر منهم ، بالنسبة الى ما سبق لهم ان الحقوه بالشعب من اضرار ،بعد ان تم له أخذ جميع اعضاء المجلس في أسره . وأضاف انه واثق على أي حال ، من ان الشعب لا يريد ان تبقى مدينته بدون حكومة ،وهكذا فاذا كان من رأيه قتل جميع الشيوخ السابقين ، فان من الضروري تعيين شيوخ آخرين بدلاً منهم ولما كان قد وضع هذه الغاية نصب عينيه ، فقد وضع اسماء جميع الشيوخ على أوراق في كيس ،وقال انه سيشرع في سحب كل ورقة تحمل اسماً ،واحدة اثر اخرى بحضور أفراد الشعب واضاف انه سيعدم كل من تسحب الورقة التي تحمل اسمه ، واحداً بعد آخر ، بعد ان يكون الشعب قد وجد له من يخلفه في المجلس . وشرع بعد ذلك في اخراج اول اسم من الاسماء . وهبت عاصفة من الضجيج عند سماع الاسم بين الناس ، فقد لقبوا صاحبه بالمتكبر والعديم الشفقة والمتغطرس . ودعاهم باكوفيوس بعد ذلك الى تعيين من يخلفه ، واذا بالاصوات تخفت مرة واحـــدة ، وبعـــد فترة من التوقف ، رشح البعض احد العامة . وعندما تلي اسم المرشح شرع بعضهم في الصفير ، والبعض الآخر في الضحك ، بينما أخذ آخرون يهزأون به من ناحية أو من اخرى . وهكذا مضى الوقت ساعة اثر ساعة ، الى ان اتخذ القرار بأن جميع من رشحوا لا يعتبرون اهلاً لعضوية الشيوخ . وهنا انتهز باكوفيوس الفرصة ليقول: لما كنتم تعتقدون ان المدينة لا تستطيع البقاء بلا مجلس شيوخ ، ولما كنتم لم تتفقوا على من يخلف الشيوخ القدماء ، فاني اعتقد بأن السبيل الأمثـــل ، هو ان تتفقوا معهم ، لا سيما وان الخوف الذي استحوذ على الشيوخ في هـذه الآونة ،لا بد وان يكون قد اذلّهم ، بحيث ستجدون منهم ذلك الاعتدال

الذي كنتم تبحثون عنه في مكان آخر. ووافق العوام على هذا الاقتراح، وتحققت الوحدة بهذا الاجراء ، لا سيما وان الاخطاء التي كانوا في سبيل اقترافها قد اكتشفت فور ارغامهم عـلى الانتقال من المسائل العامة الى المسائل المعيّنة . وتختفي الاخطاء الاخرى التي يرتكبها الشعب في تقرير الامور ، وخصائصها عامــة ، عندما ينتقل الشعب الى دراستها دراسة تفصيلية .

وعندما طرد اولئك الذين كانوا يحتلون مركز الامارة في فلورنسة بعد عام ١٤٩٤ ، ولم تعد هناك حكومة صحيحة ، وانمـا دولة تمتزج فيها الفوضوية بالمطامع ، وبانت الاعمال العامــة تسير من سيء الى اسوأ ، أحس بعض الذين ينتمون الى حــزب الشعب ان المدينة تسير في طريق الخراب، ولم يتميزوا لذلك سبباً سوى ان اللوم يجب ان يوجه الى اولئك المواطنين من ذوي الحول والطول ، الذين طبخوا الاضطرابات، ليتمكنوا عن طريقها من اقامة طراز الحكومة الذي يريدونه بعد ان يغتصبوا من المدينة حريتها. واخذ هؤلاء الشعبيون يدافعون عن هذه الآراء في مجالسهم الخاصة وفي الأماكن العامة، ويتحدثون بالسوء عن الكثيرين من المواطنين، ويهددون بأنهم اذا تمكنوا يوماً من الوصول الى مجلس السيادة ، فإنهم سيظهرون لأولئك اخطاءهم ويعاقبونهم عليها .

وكثيراً ما حدث ان رجلاً من هذا الطراز كان يرتقــي الى اعلى المناصب ، وعندما يصل الى مبتغاه ، ويأخذ في التطلع الى الامور بمنظار اكثر دقة ، يرى حقيقة مصدر الاضطرابات والفتن ، وما تنطوي عليه من أخطار ، وما يقوم في طريقه من مصاعب لتعديل الامور واصلاحها. وعندما يدرك ان الظروف ، لا الرجال هي التي أدت الى الفتن ، يغير فوراً وجهة نظره وسير سلوكه ، لأن الاطلاع على تفاصيل الأمور قد أزال من نفسه الانطباع الخاطىء الذي كان قد حمله على محمل الحقيقة المسلم بصحتها ، عندما كانت دراسته تقتصر عـلى الاعتبارات العامة .

وعلى ضوء هذا،فأن الناس الذين كانوا قد استمعوا الى مثل هذا الرجل وهو يتحدث عندما كان مواطناً عادياً،ثم استمعوا اليه فيما بعد،ولاحظوا ما طرأ عليه من صمت عندما تسنم مناصب الحكم ، يعزون ذلك ، لا الى تحسن اطلاعه على الامور،بل الى انه اصبح تابعاً للكبراء بعد ان رشوه. ويحدث هذا الأمر للكثيرين وفي مناسبات كثيرة أيضاً ، ومن هنا نشأ المثل القائل : « ان رأيه في السوق يختلف عن رأيه في القصر » .

وعلى ضوء كل ما جاء ذكره في هذه المطارحة ، يجب ان يكون واضحاً والحالة هذه ، ان في الامكان حمل أفراد الشعب على ان يفتحوا عيونهم حالما توجد طريقة لحملهم على رؤية الخطأ الذي يرتكبونه في التعميم ، وعلى وجوب النزول الى التفاصيل والجزئيات ، تماماً كالنجاح الذي حققه باكوفيوس في كابوا،والنجاح الذي توصل اليه اعضاء مجلس الشيوخ في رومة . وفي استطاعتنا ان نستنتج ، على ما أعتقد أيضاً ، ان الرجل العاقل لا يتجاهل الرأي العام بالنسبة الى المسائل المعينة والجزئية، كمسألة توزيع المناصب والأفضليات والترقيات ، اذ ان الشعب هنا ، عندما يترك الى نفسه ، لا يخطىء أبداً ، واذا ما أخطأ احياناً ، تكون اخطاؤه نادرة اذا ما قورنت بالأخطاء التي ستقع حتماً لو ان القلة هي التي قامت بمثل هذا التوزيع . ولا يكون من فضول القول بالنسبة الي، على ما أعتقد ، اذا ما أشرت في الفصل اللاحق ، الى الوسائل التي يلجأ اليها مجلس الشيوخ لخداع الشعب عندما يجري تعييناته .

٤٨

للحيلولة دون اعطاء منصب رسمي إلى شخص حقير أو شرير يجب ترشيح آخر لهذا المنصب على ان يفوق الأول حقارة أو شراً أو يكون مثالاً للنبل والطيبة

عندما كان مجلس الشيوخ ، لا يتوقع الا توقعاً جزئياً ، تعيين بعض العوام في مناصب حماة الشعب (التربيون) الذين يحملون سلطاناً قنصلياً، لجأ الى احدى هاتين الوسيلتين . فكان يقبل اما على ترشيح اكثر الناس شرفاً ونبلاً في رومة ، او كان يلجأ من الناحية الاخرى الى وسائل مناسبة لشراء أحد العوام المعروفين بأنهم من الاوغاد او التافهين، ويدفع به الى الاختلاط بالعوام من ذوي المكانة العالية،الذين قد يقفون كمرشحين في الظروف العادية ، لكي يضمن ترشيحه معهم . وكانت هذه الوسيلة الثانية تحمل العامة على الخجل من اعطاء الرجل المنصب الذي يطمع فيه، بينما كانت الوسيلة الاولى تحملهم على الخجل من عدم تقديمه اليه .

ويقيم كل ما ذكرت الدليل على الافتراض الذي أوردته في المطارحة السابقة ، حيث أظهرت ان الشعب اذا ما اقترف الاخطاء بالنسبة الى الأمور العامة لا يقترف أية اخطاء بالنسبة الى الجزئيات والأمور المعينة .

٤٩

إذا كانت الدول المدينية التي كانت حرة منذ استهلالها ، كرومة مثلاً تجد ان من الصعب عليها صياغة القوانين التي تضمن حريتها ، فان تلك الدول التي تخلصت قبل قليل من حياة العبودية لا بد وأن تلقى نفس الصعوبة والاستحالة

يظهر المدى في صعوبة تمييز جميع القوانين اللازمة للحفاظ على الحرية ، عند انشاء أية جمهورية ، بوضوح في عملية تطور الجمهورية الرومانية ، اذ على الرغم من ان عدداً ضخماً من القوانين قد سن في ايام رومولوس ونوما وتولكوس هوستيليوس وسرفيوس ، وأخيراً في عهد المواطنين العشرة الذين انتدبوا لهذه الغاية. فقد كانت تبدو حاجات جديدة باستمرار في عملية ادارة الدولة ، وكان من الضروري ادخال انظمة جديدة لمعالجتها . وقد حدث مثال على هذه الحاجة ، عندما أقام الرومان نظام المراقبين ،فلقد كان هذا النظام من النصوص التي ساعدت في الحفاظ على حرية رومة ، في وقت كانت فيه تنعم بحريتها حقاً . فلقد غدا هؤلاء المراقبون القضاة الفصل في الاشراف على التزام العادات الرومانية ، وكانوا أداة شديدة القوة، استخدمها الرومان لتأجيل استشراء الفساد . وقد ارتكبوا في بادىء الأمر خطيئة كبرى عند خلقهم لهذا المنصب الحكمي الجديد ، وذلك بتعيينهم المراقبين لمدة خمس سنوات . ولكن لم تمض مدة طويلة ، حتى كانت هذه الخطيئة قد اصلحت ، وذلك بفضل ما امتاز به الدكتاتور ماميركوس من حكمة بالغة،اذ انزل مدة الخدمة من خمس سنوات الى ثمانية عشر شهراً.وقد استقبل المراقبون

هذا العمل استقبالاً سيئاً ، إذ كانوا جد حريصين على سلطانهم ، ولذا فقد حرموا مامير كوس من عضويته في مجلس الشيوخ ، وهو عمل قوبل بالكثير من السخط عند العامة والنبلاء على حد سواء، ولا يحدثنا التاريخ بشيء عما اذا كان مامير كوس قد تمكن من القيام بأي إجراء للدفاع عن نفسه ، ولا ندري العلة في ذلك،فلعله سهو غير مقصود من المؤرخين، او لعله نقص في أنظمة روما نفسها ، إذ ليس من المناسب ان تكون اجراءات أية جمهورية من النوع الـذي يتعرض في ظلها اي مواطن للمعارضة دون ان يكون له حق في الشكوى ، لوضعه قانونـاً يتفق مع اعراف الحياة المدنية والحرية .

ولكني ، على أي حال ، أرى ان نعود الى الموضوع الذي نتحدث عنه في هذه المطارحة.فأنا أقول انه في خلق هذا المنصب الحكمي الجديد، هناك نقطة جديرة بالملاحظة وهي انه اذا كانت ثمة صعوبة كـبرى في وضع القوانين الصالحة للحفاظ على الحرية في دولة كانت حرة منذ نشوئها، وكانت توجه شؤونها ، على النحو الذي وجهت روما شؤونها فيــه ، فليس من المستغرب مطلقــاً في دولة كانت تعيش في ظل العبودية منذ استهلال عهدها ، ان تجد من الصعب بل من المستحيل،ان تضع لنفسها دستوراً يمكنها من التنعم بالهدوء والاستقرار في طريقة تسيير شؤونها .

ويفسر لنا ما حدث في مدينة فلورنسة هذا الوضع تمام التفسير ، إذ لما كانت هذه المدينة في مستهل عهدهـا خاضعة لسيطـرة الامبراطورية الرومانية ، ولما كانت قد عاشت بعد ذلك دائماً في ظل الحكم الأجنبي، فأنها ظلت مدة طويـلة تعيش في ذلة وصغار ، ولا تفكـر قيد انملة في أوضاعها الخاصة . وعندما فسح لها مجال التنفس فيما بعد ، شرعت في سن الأنظمة التي تحتاج اليهـا ، ولكنها وجـدت من المستحيل ان تضع أنظمة صالحة لأن هذه الأنظمة كانت تختلط دائماً بما سبقهـا من أنظمة فاسدة . واستمرت على هذا الحال نحواً من مائتي عام ، تظهر حوادثها

في سجلات التاريخ الموثوقة ، دون ان تتمكن من الوصول الى شكل من أشكال الحكم ، يخولها ان تلقب نفسها حقاً بالجمهورية . ولا ريب في ان الصعوبة التي مرت بها، تمر بها جميع الدول التي كانت لها نفس البداية . وعلى الرغم من ان الصلاحيات الكافية كانت تمنح بين فترة واخرى عن طريق الانتخاب العام والحر الى فئة من مواطنيها لاصلاح الحال فيها ، إلا انهم لم يستخدموا هذه الصلاحيات قط في إعداد دستور يتفق والمصلحة العامة ، وإنما وضعوا دساتير تتفق ومصالحهم الحزبية ، مما لم يؤد إلى قيام النظام في المدينة بل إلى سيطرة الفوضى الهائلة فيها .

ولنأخذ مثلاً نقطة واحدة معينة . فأنا أرى ان من بين الامور التي يجب ان يوليها كل من يضع دستوراً لاحدى الجمهوريات محل اعتباره، الموضوع المتعلق بتقرير نوع الرجال الذين يجب ان توكل اليهم صلاحيات ايقاع العقوبات الكبرى كالاعدام مثلاً على المواطنين . ولقد كان النظام الذي انبعته روما في هذا الصدد صالحاً كل الصلاح ، اذ كانت تسمح بحق الاستئناف الى الشعب عادة ، واذا ما ثارت قضية ، يكون التأجيل فيها بانتظار الاستئناف خطراً على المدينة ، فقد كان المتبع ، ان يوكل بها الى ديكتاتور يحسم موضوعها رأساً ، مع العلم ان الرومان لم يكونوا يلجأون الى مثل هذا الاجراء الا عند الضرورة القصوى. أما في فلورنسة وغيرها من المدن التي برزت الى حيز الوجود على النحو الذي ظهرت فيه فلورنسة ، وهو حالة العبودية ، فقد كانت تكل هذه الصلاحيات الى اجنبي يؤدي واجباته على النحو الذي يوجهه فيه اميره . وعندما حصلت فيما بعد على حريتها،واصلت تسليم هذه الصلاحيات الى شخص اجنبي اطلقت عليه اسم الرئيس (Captain) وهو اجراء شاذ كل الشذوذ اذا اخذنا بعين الاعتبار سهولة افساد الموظف عن طريق رشوته من المواطنين الاقوياء . وقد تغيّر هذا النظام أيضاً بعد مضي وقت،وبسبب التبدل الذي وقع في نظام الحكم ، فتم تعيين ثمانية مواطنين لاداء واجبات

الرئيس السابق . وهكذا تحول هذا النظام من سيء الى اسوأ ، وذلك بالنسبة الى الاسباب التي شرحناها في مكان آخر ، وهي ان الفئة القليلة، تخدم دائماً مصالح القلة التي يمثلها ذوو الحول والطول .

واحتاطت البندقية لنفسها من هذا التصرف السيء ، بانتداب عشرة من مواطنيها يزودون بالصلاحيات لعقاب أي مواطن آخر دون ان يكون له حق الاستئناف،ومخافة ان لا يكون هذا الاجراء كافياً لعقاب الاقوياء من المواطنين مع ان سلطة العشرة كانت قوية للغاية . اقام اهلها مجلساً قضائياً يضم أربعين عضواً ، وقرروا ان يكون لمحكمة التمييز التي كانت تسمى ايضاً المجلس الأعلى ، الصلاحية لفرض العقاب ، بحيث يتوافر عدد كاف من القضاة لكبح جماح الاقوياء ، هذا اذا توافر عدد من يوجهون الاتهامات .

ويتبين لنا على ضوء كل ما درسناه ان رومة التي كان لها دستورها الخاص بها ، والذي وضعه عدد كبير من حكماء الرجال . واجهت دائماً حاجات ناشئة جديدة ، ارغمتها على ادخال انظمة جديدة ، لدعم الحريات التي تمتعت بها ، ولذا لم يكن من المستغرب ، ان تنشأ في المدن الاخرى التي كانت تفتقر الى النظام منذ قيامها،مثل هذه الصعوبات، التي جعلتها عاجزة دائماً عن تنظيم شؤونها في سبيل سوي .

الكتاب الأول
المطارحات من ٥٠ الى ٥٥

قيادة الشعب

٥٠

يجب ان لا يكون في وسع أية دائرة أو أي موظف وقف الاجراءات

عندما كان تيتوس كونيتيوس سينسيناتوس وغايوس جوليوس مينتو، قنصلين في رومة، وقع الخلاف بينهما، فأوقفا بخلافهما جميع الاجراءات في الجمهورية، ولما رأى مجلس الشيوخ هذا الوضع، نصح بتعيين ديكتاتور يستطيع ان يعمل ما يحول الخلاف بين القنصلين دون عمله، الا أن هذين على الرغم من اختلافهما في كل شيء، اتفقا على أمر واحد، وهو ان لا يوافقا على تعيين الديكتاتور. ولما لم يجد مجلس الشيوخ علاجاً للحالة الا اللجوء الى حماة الشعب (التربيون)، لجأ اليهم

لمساعدته ، فقام هؤلاء تدعمهم سلطة مجلس الشيوخ، بأرغام القنصلين على الاذعان .

وعلينا ان نلاحظ هنا ، الفائدة من تعيين الحماة ، فقد كان تعيينهم لا يقتصر في فائدته على كبح مطامع الاقوياء التي تستهدف العامة ، وانما يتعداه الى كبح مطامع الاقوياء ضد بعضهم البعض . ويجدر بنا ان نلاحظ ثانياً ، ان من الواجب عدم وجود أي نظام في دولة ، يسمح للقلة بأن تقرر في اي موضوع يعتبر في سير الاحوال العادية ، جوهرياً للحفاظ على الدولة . فمثلاً اذا اضفت الصلاحيات على مجلس لتوزيع الترقيات والعلاوات ، أو على حاكم لادارة دائرة من الدوائر ، فمن المصلحة ، اما ان ترغم هذا المجلس وذلك الحاكم على اتخاذ الاجراءات اللازمة ، أو تقيم ترتيباتك علــى اساس منح شخص آخر الصلاحية والواجب في اتخاذ الاجراء ، في حالة تقاعسها عن العمل . واذا لم تتبع احد هذين السبيلين ، فان التنظيم يكون ناقصاً وخطراً ، وهو ما كان سيحدث في رومة حتماً لو لم يكن في الامكان التغلب على عنــاد القنصلين بما لحماة الشعب من سلطة وصلاحيات .

وكان المجلس الأعلى في البندقية يتولى توزيع العلاوات والترقيات ، وقد حدث اكثر من مرة في الاجتماع العام الذي عقده المجلس، اما بسبب ما يشعر به الاعضاء من برم أو بسبب اساءة الفهم ، ان اخفق المجلس في تعيين من يخلف بعض الحكام في المدينة ، أو من يخلف اولئك الذين يتولون ادارة ممتلكاتها في الخارج . وقد احدث هذا الاخفاق الكثير من الاضطراب ، وذلك بسبب افتقــار الممتلكات والمدينة في آن واحد الى القضاة الذين يملكون صلاحيات قانونية . ولم يكن في الامكان علاج الحالة طالما ان المجلس في اجتماعه العام ظل على هذا الوضع من عدم القناعة ، واستمر في عدم ادراكه الخطأ الذي وقع فيه . وكان لا بد لهذا الشر ان يواجه المدينة بمعضلة مؤلمــة لو لم يكن احد مواطنيها العقلاء ، قد

تصور وقوع مثل هذه الحالة ، فسن لها قانوناً صالحاً يحول بين جميع الحكام وبين التخلي عن مناصبهم التي يشغلونها أو كانوا يشغلونها داخل المدينة وخارجها ، قبل ان يتم تعيين من يخلفهم فيها ، وقبل ان يصل هؤلاء لاستلام زمام المناصب منهم . وهكذا حيل بين المجلس وبين الامتياز في القدرة على وقف اعمال الدولة مما يهدد سلامة الجمهورية بالخطر .

٥١

على الجمهورية أو الامارة ان تفعلا في الظاهر بدافع الكرم ما تحتم الضرورة عليهما فعله بدافع الحاجة

يلجأ عقلاء الرجال دائماً وفي جميع ما يقومون به من أعمال ، إلى المن بما يعملونه حتى ولو كانت الحاجة هي التي أرغمتهم على فعله . وكان مجلس الشيوخ الروماني بارعاً في استغلال ما تقضي به الحكمة في هذا السبيل . ولقد فعل هذا مثلاً ، عندما قرر استخدام الأموال العامة في دفع الرواتب إلى من يقومون بالخدمة العسكرية . وكانت العادة قبلاً ، ان يدفع الجنود نفقاتهم ، ولكن مجلس الشيوخ ، رأى ان استمرار هذا الوضع سيقعد المدينة عن الاستمرار في الحرب مدة طويلة،وانه سيعجزها عن فرض الحصار على المدن المعادية ، أو سوق جيوشها إلى الميادين النائية . ولما كان المجلس قد رأى ان من الضروري ان يتمكن من اداء كل هذه الامور ، فقد قرر ان من الواجب دفع الرواتب الشهرية إلى الجنود ، ولكنه نفذ هذا القرار بصورة تنطوي على التمنين به ، مع ان

الحاجة هي التي أرغمته على التنفيذ .

وكان هذا القرار مرضياً للعامة، بحيث رقصت رومة طرباً لهذه المنحة، فلقد بدا للعوام انهم قد تلقوا إحساناً عظيماً ما كانوا يتوقعونه قط، وما كان بامكانهم الحصول عليه بفضل جهودهم الخاصة . وعلى الرغم مما بذله حماة الشعب من جهود لازالة هذا الانطباع الخاطىء ، مشيرين الى ان القرار سيثقل الاعباء المفروضة على كواهل العوام بدلاً من تخفيفها، نظراً إلى ما يقتضيه دفع النفقات الجديدة ، من جباية ضرائب جديدة، إلا انهم عجزوا تماماً ، عن منع العوام من الترحيب بهذا التبدل في حياتهم . ولقد ازداد ترحيبهم أيضاً بفضل الطريقة التي اتبعت في توزيع الضرائب الجديدة، إذ ان ما فرض منها على النبلاء، كان اكبر وأضخم ، وكان من الواجب جمعها منهم قبل جمع الضرائب من العوام .

٥٢

تكون الطريقة الاكثر ضمانة والاقل فضيحة في اخماد غطرسة انسان ارتفع إلى السلطان في جمهورية برده بنفس الأساليب التي استعملها هو سلماً لسلطانه

رأينا في الفصل السابق ما حققه النبلاء من فضل عند العامة ، عن طريق تظاهرهم بالكرم في دفع الرواتب إلى الجنود ، وفي طريقة جبي الضرائب . ولو واصل النبلاء السير على هذا الاجراء، لحالوا دون وقوع أية فتنة في المدينة ، ولحرموا حماة الشعب (التربيون) من المكانة التي أضحت لهم عند العامة ، وسلبوا منهم عن هذا السبيل سلطانهم ، فمن

المؤكد ان ليس ثمة من طريقة أفضل وأقل فضيحة وأهون في جمهورية، ولا سيما إذا كانت من النوع الفاسد ، لاحباط المطامع التي تملأ على انسان تفكيره وتوجه تصرفاته من اتباع نفس الطرق التي يقطعها هو للوصول إلى الهدف الذي يبتغي تحقيقه .

ولو اتبع أعداء كوزيمو دي مديشي هذه الطريقة، لكانت افضل لهم من اخراجه من المدينة . ولو تبنى منافسوه من المواطنين نفس اساوبه ، وتحببوا إلى الشعب ، لسلبوه السلاح الذي أحسن استغلاله ، ولما وقعت هناك اضطرابات وأعمال عنف . وقد تمكن بييرو سوديريني من الحصول على شهرة داوية في مدينة فلورنسة لمجرد استعماله هذه الأساليب ، وهي التحبب إلى الشعب الذي أخذ ينظر اليه كالرجل الذي كرس نفسه للحفاظ على حرية المدينة . ولا ريب في انه كان من الأهون والأنبل والأقل خطراً وأذىً للجمهورية ، لو ان اولئك المواطنين الذين حسدوه على عظمته ، اتبعوا نفس أساليبه التي حقق لنفسه عن طريقها العظمة بدلاً من معارضته بشكل ألحق بهم الدمار،وأنزل الخراب من جراء عملهم ، بكل انسان في الجمهورية أيضاً ، إذ لو اغتصبوا من يديه الاسلحة التي استعملها لتقوية مركزه ، وهذا أمر كان من السهل عليهم تحقيقه ، لتمكنوا من معارضته في جميع المجالس والمناقشات العامة ، دون ان يستثيروا الشك ، ودون ان يخشوا شيئاً من أي انسان . ولو رد انسان علي قولي هذا ، فذكر انه إذا كان المواطنون الذين كرهوا « بييرو » قد أخطأوا في عدم استخدام الطرق التي اتبعها هو في كسب السمعة عند الشعب ، فأن « بييرو » نفسه قد أخطأ نفس الخطأ في عدم استخدام الأساليب التي استعملها خصومه بقصد ارهابه ، فأني أقول ، بأن ثمة مبرراً لبييرو في خطئه هذا.فلقد كان يشعر بصعوبة اتباع هذه الأساليب، لاختلافها في رأيه مع مقاييس النبل والشرف ، وذلك لأنها تنطوي على التقرّب من آل مديشي ، الذين تمكنوا عن طريق مساعدتهم من التغلب

عليه وتدميره في النهاية.. ولهذا لم يكن في وسع بييرو،بالنسبة الى نزاهته وشرفه ، ان يمثل دوراً كهذا ، إذ ان مثل هـذا الدور لم يكن يعني مجرد تحطيم سمعته الطيبة فحسب ، بل تحطيم الحريـة التي انتدب حارساً لها.ولم يكن في وسعه أيضاً ان يساعد آل مديشي سراً وإلى أجل معين، إذ انمثل هذا العمل، كانخطراً للغاية بالنسبة اليه،فهويعرضهلخطر اكتشاف صداقته لآل مديشي ، وفي مثل هذه الحالة ، يصبح موضع شك الشعب وكراهيته ، مما يسهل السبيل امام خصومه لمهاجمته ويمكنهم منه أكثر من قبل .

فعلى الرجال والحالة هذه ، عند تحتم الاختيار بين الحلول البديلة ، ان يدرسوا ما ينطوي عليه كل حل من أخطار وعقبات، وان لا يتبنوا ذلك الذي تفوق أخطاره ما فيه من مزايا ، حتى ولو كان السبيل الذي يقترحه متفقاً مع ما اعتزموا القيام به،واذا ما ساروا في طريق مغايرة ، فقد يحدث لهم ما حدث لتوليوس (شيشرون) ، الذي عمل في محاولته الخلاص من اولئك الذين يؤيـدون مارك انطونيوس(١) ، على زيادة عددهم . فقد أعلن مجلس الشيوخ الرومانـي ان مارك انطونيوس عدو للدولة ، وانه حشد جيشاً لجباً يتألف على الغالب من الجنود الذين سبق

---

١ مارك انطوني أو انطونيوس (٨٣ – ٣١) ق. م. عاشق كليوباطرة الشهير وبطل مسرحيتي شكسبير وأحمد شوقي ، يمت بصلة القرابة من ناحية أمه إلى يوليوس قيصر ، كان مولعاً بحياة الفسق واللهو في شبابه وتراكمت عليه الديون فاضطر إلى الفرار إلى اثينا حيث قضى وقتساً استمع فيه إلى فلاسفة الاغريق . ثم انضم إلى الجيش الروماني في فلسطين فأبلى بلاء حسناً ، وامتاز بالشجاعة والحيوية . وعمل مع قيصر في بلاد الغال ، وأصبح حامياً للشعب عام ٥٤ . وكان من أشد أنصار قيصر في حربه مع بومبي . وغدا قنصلا مع قيصر عام ٤٤ ق. م. وأيد إعلان قيصر ملكاً . ولعب دوراً مهماً بعد اغتيال قيصر ، لاثارة الشعب على المتآمرين . وعاد « اوكتافيان » وارث قيصر إلى رومة ، ثم اتفق معه ومع ليبيدوس على اقتسام الامبراطورية ، فكانت افريقيا لليبيدوس والغرب لاوكتافيان والشرق لانطوني ، وتزوج اوكتافيا شقيقة شريكه ولكنه ما لبث أن وقع في حب كليوباطرة ، ووقع الخلاف بين انطوني واوكتافيان ، وانتهى إلى انتصار الاخير في معركة اكتيوم ، وإلى انتحار انطوني عام ٣١ ق. م. — المعرب —

لهم ان تبنوا قضية قيصر . ونصح توليوس، رغبة منه في حرمان انطونيوس من هؤلاء الجنود ، مجلس الشيوخ ، بترقية « اوكتافيان »(١) وارساله مع القنصلين هيريتوس وبانزا ، لمحاربة مارك انطونيوس ، زاعماً ، ان الجنود الذين يحاربون تحت لواء المذكور، عندما يسمعون باسم «اوكتافيان» وهو ابن اخت قيصر ، وكان قد حمل نفس اسمه، سينفضّون عن مارك انطونيوس وينضمون اليه ، مما يدع الاول وقد خلا من الانصار، فيسهل آنذاك التغلب عليه . ولكن النتيجة جاءت معاكسة تماماً لما توقع ، إذ انتصر مارك انطونيوس على اوكتافيان ، الذي تخلى بدوره عن كوليوس والقنصلين تاركاً اياهم في محبثهم وانضم إلى انطونيوس ، وأدى هذا العمل إلى دمار حزب النبلاء دماراً نهائياً .

وكان من السهل جداً توقع هذه النتيجة . وكان على مجلس الشيوخ ان لا يصدق الحجج التي أوردها توليوس ، وان يظل حافظاً في ذاكرته ذلك الاسم الذي قضى على أعدائه قضاء مبرماً ، مستحوذاً على منصب الامارة في رومة . وكان على المجلس أيضاً ، ان لا يتوقع أبداً، القدرة على عمل أي شيء يتصل باسم الحرية ، إذا كان عمله هذا مستنداً إلى معونة أقرباء قيصر وأنصاره .

١ اوكتافيان (٦٣ ق. م. – ١٤ م.) ويطلق عليه اسم الامبراطور اوغسطس ، كان يدرس في ابولونيا عندما سمع باغتيال ولي أمره وخال أمه ، يوليوس قيصر ، فعاد إلى رومة ، واشترك مع انطونيوس وليبيدوس في الحكم الثلاثي . وبعد معركة اكتيوم عام ٣١ ق. م. أصبح الحاكم المطلق والامبراطور . اعاد بناء رومة، وقام باصلاحات كبيرة في الداخل والخارج ، ويعتبر عصره عصر رومة الذهبي . – المعرب –

٥٣

كثيراً ما تخدع المظاهر البراقة للمنافع ، الشعب فيسعى إلى حتفه بظلفه ، وكثيراً ما يسهل التأثير عليه بالآمال الكاذبة والوعود المتسرعة

عندما احتل الرومان مدينة فيي ، خيل الى الكثيرين من افراد الشعب، ان من الخير لمدينتهم لو ارتحل نصف سكانها الى فيي للعيش فيها ، ولقد قيل ، انه بالنسبة الى وقوع فيي في منطقة غنية والى وفرة ما فيها من ابنية ، والى قربها من مدينة رومة ، فان في وسع نصف شعب المدينة الثانية ، ان تزدهر احوالهم اذا ما ارتحلوا الى المدينة الجديدة ، وان يكونوا بعيدين عن عاصمتهم الاولى ، بحيث لا يتدخلون في اجراءاتها المدنية ، وبدا المشروع بالنسبة الى مجلس الشيوخ والى العقلاء من أهل رومة ، فاشلاً ومؤذياً الى الحد الذي حملهم على الاعلان عن معارضته، وعن ايثارهم الموت على قبوله . وأسفر هذا الموقف ، عندما عرضت القضية للمناقشة ، عن هياج العوام وثورتهم على الشيوخ الى الحد الذي هدد بنشوب الصراع المسلح وسفك الدماء ، لولا تدرّع الشيوخ بنفر من المواطنين المعروفين بنضوجهم وسمعتهم العطرة . ولولا ما يحمله العوام من توقير لهم حال بينهم وبين المضي في سفاهتهم .

وفي هذا الحادث نقطتان جديرتان بالملاحظة . اولاهما : ان الشعب وقد ضلله المظهر الكاذب للخير ، كثيراً ما يسعى الى حتفه بظلفه ، وما لم يحمل على التمييز بين ما هو خير وما هو شر ، عن طريق شخص يثق فيه، فانه كثيراً ما يأتي بالاخطار والكوارث الى جمهوريته . وعندما يلعب سوء الطالع دوره ايضاً ، ويفقد الشعب كل ثقة له في اي انسان

وهو ما يحدث احياناً بسبب ما تعرّض له في الماضي من خديعة الحوادث أو الناس ، فانه يجلب الكوارث على نفسه بصورة حتمية . ولا ريب والحالة هذه في صحة ما قاله دانتي في رسالته « عن الملكية » من ان الشعب دائماً يهتف بالحياة لموته والموت لحياته .

وقد يحدث احياناً بسبب هذا الافتقار الى الثقة بأي انسان ، ان تعجز الجمهوريـــة عن الوصول الى القرار السليم ، كما سبق لي ان قلت عن البنادقة ، الذين عندمـــا هاجمهم عدد كبير من الاعداء ، لم يستطيعوا الوصول الى قرار فيما اذا كان من واجبهم ان يعملوا على انقاذ الوضع ، بأعادة ما سبق لهم اغتصابه من الآخرين ، لأن هذا الاغتصاب هو الذي أدى الى نشوب الحرب ، وحمـــل الامراء على تأليف عصبة ضدهم ، وساقهم ترددهم هذا الى الهاوية .

واذا ما عدنا الى موضوع ما يسهل اقناع الشعب به وما يصعب ، توجّب علينا ان نضع هذا التمييز . فاذا كنت تبغي اقناع الشعب بشيء ما تحتّم عليك ان يبدو هذا الشيء في احدى صورتين ، صورة المضمون وقوعه ، أو صورة القضية التي لا أمل فيها ،وصورة الشيء الذي يحمل طابع الجرأة أو صورة الشيء الذي يحمل طابع الجبن ، فعندمـــا تكون الاقتراحات المعروضة على الشعب من النوع الذي يبدو مضموناً حتّى ولو انطوى على الكوارث مختفية فيه ، أو من النوع الذي يحمل طابع الجرأة حتّى ولو كان خراب الجمهورية كامناً فيه ، يكون من السهل دائمـــاً اقناع الشعب بها ويكون من الصعب دائماً وبنفس الطريقة اقناع الجماهير باتباع سبيل يبدو لهـــا منطوياً على الجبن أو اليأس ، حتّى ولو كانت للسلامة والامن قائمين فيه .

وهناك شواهد عدة ، من رومانية وغير رومانية ، ومن قديمةوحديثة تقيم الدليل على صحة ما قلت ، فمثلاً ساءت نظرة الشعب في رومة الى فابيوس مكسيموس،عندما فشل هذا في اقناعه،بأن من خير الجمهورية ،

ان تمضي ببطء في حربها مع هانيبال،وان تلجأ الى الدفاع بدل الهجوم، فلقد رأى الشعب في نصيحته جبناً لا ينطوي على أيه فائدة ملموسة ، ولم تكن لدى فابيوس الحجج الكافية لحملهم على تبين وجهة نظره . وتكون الشعوب عادة على درجة كبيرة من العمى وعدم الادراك في القضايا التي تتعلق بسلامتها ، فعلى الرغم من ان الشعب الروماني قد اقترف الخطيئة بتخويله قائد الفرسان عند فابيوس ، بالهجوم على هانيبال، على الرغم من ارادة فابيوس نفسه ، وعلى الرغم من ان هذا العمل ، الذي تم السماح به رسمياً ، كان من المحتوم ان يقضي على الجيش الروماني حتماً ويصيبه بالهزيمة ، لو لم يسارع فابيوس بما امتاز به من حسن ادراك الى انقاذ الوضع ، الا ان هذا الشعب لم يفد كثيراً من هذه التجربة ، وسرعان ما عين « فارو » قنصلاً لا تقديراً لمزاياه ، بل لأن هذا الرجل مضى يعلن في كل مكان وفي الساحات والامكنة العامة انه سيهزم هانيبال ، اذا تولى القيادة ، واسندت القيادة اليه ، وكانت نتيجة ذلك معركة كانية ، التي هزم فيها الرومان ، وكادت تقضي على رومة قضاء مبرماً .

والآن دعوني اقدم مثلاً آخر على هذا السلوك من تاريخ رومة . كان هانيبال قد قضى ثماني سنوات او عشراً في ايطاليا ، وكان قد أعمل في الرومان تقتيلاً وذبحاً ذات اليمين وذات الشمال ، في طول البلاد وعرضها ، عندما جاء ماركوس سنيتونيوس بنيولا وهو انسان وغد على الرغم من انه سبق له ان اشغل منصباً في القوات المسلحة الى مجلس الشيوخ ، وعرض عليه،اذا سمح له المجلس بتأليف جيش من المتطوعين يجمعه من أي مكان في ايطاليا ، ان يقدم له هانيبال في وقت قصير ، حياً او ميتاً . وبدا طلب هذا الوغد في عيني اعضاء مجلس الشيوخ شيئاً ينطوي على الحمق والجنون ، ولكن لما كانت الحقيقة تشير الى انهم اذا رفضوا العرض، وعرف الشعب برفضهم،فستنشب في المدينة اضطرابات،

وستحل الكراهية على اولئك الذين ينتمون الى عضوية المجلس ، ولذا فقد اجابوه الى طلبه مؤثرين تعريض كل من يلحق بالرجل الى الخطر، على ان يثيروا سخطاً جديداً عليهم بين جماهير الشعب ، وذلك ادراكاً منهم لما يلقاه مثل هذا العرض من ترحيب عند العامة ، ولما سيجدونه من صعوبة في اقناعهم لو حاولوا ذلك . وهكذا مضى الوغد على رأس جماعة من الدهماء يفتقرون الى النظام والانضباط باحثاً عن هانيبال ، فهزمه هذا وقتله مع كل من كان يسير تحت قيادته في أول معركة التقى بها معهم .

وفي بلاد اليونان ، لم يستطع نيكياس ، وهو رجل عرف في اثينا، بسعة حكمته وثقل وزنه ، اقناع شعب المدينة بحماقه ما ينوونه من غزو صقلية ، مما أدى الى اتخاذهم قراراً خالفوا فيه مشورة كل من يقدر الامور خيراً منهم ، وكان ما كان من دمار كلي أحاق بمدينتهم .

وعندما غدا شيبيو قنصلاً ، وكان متحمساً لاحتلال افريقيا ، وعد بتدمير قرطاجنة تدميراً كاملاً ، ولم يستمع اليه مجلس الشيوخ ، لأن فابيوس ماكسيموس كان معارضاً لهذه الفكرة ، فهدد شيبيو باللجوء الى الشعب ، لأنه كان يدرك تمام الادراك ما تلقاه مثل هذه المشاريع من ترحاب عام عند العامة .

وفي وسع الانسان ان يتلو أمثلة مشابهة من حاضر مدينتنا . فعندما تمكن السيد ايركولي بنتيفوغلي ، قائد القوات الفلورنسية مثلاً ، بمعونة انطونيو جياكوميني من هزيمة بارتولوميو والفيانو في معركة سان فنسنتي ، مضى يحاصر مدينة « بيزا » وكان الشعب قد أقر هذا الهجوم بعد ان أكد له ايركولي ، انه سيكلل بالنجاح، على الرغم من معارضة الكثيرين من عقلاء المواطنين له . ولم يكن ثمة سبيل للخلاص من تنفيذ المشروع ، بعد ان كانت الارادة العامة قد اقرته استناداً إلى التأكيد الذي صدر عن قائد الجيش .

ولذا فأنا أرى ،. ان ليس ثمة من طريقة اسهل لانزال الكارثة بأية جمهورية ، يمسك الشعب فيها بزمام السلطة ، من اقتراح احد المشاريع على الشعب ، على انه شيء مؤكد ومضمون ، إذ عندما يكون للشعب وزنه ، لا بد من تنفيذ هذا المشروع ، لا سيما وان من يعارضونه يكونون عاجزين عن القيام بأي عمل لوقف التنفيذ. ولكن إذا كان هذا الوضع يأتي بالخراب الى المدينة ، فأنه ولا ريب يأتي بالخراب وبصورة أخص وأكثر شيوعاً، للمواطنين المعنيين الذين يوكل اليهم تنفيذ المشروع . فعندما يعتبر الشعب ان النصر أصبح مضموناً ، ثم تفاجئه الهزيمة ، لا يلقي بالملامة على الحظ او على عجز الشخص الذي يتولى القيادة ، وإنما يلقيها على سوء نواياه أو جهله على الأقل . وهكذا يكون نصيب هذا الرجل القتل او السجن او الابعاد ، كما حدث للكثيرين من قادة القرطاجنيين والأثينيين . ولا يجدي هذا الرجل ، ما يكون قد سجله من انتصارات في الماضي ، إذ ان الكارثة الراهنة تزيلها من الوجود جميعاً. وهذا ما حدث لصديقنا انطونيو جياكوميني . إذ عندما فشل في الاستيلاء على « بيزا » كما كان يتوقع الشعب ، تبعاً لوعوده له ، حل به خزي شديد ، وتناسى الشعب ما لا عد له ولا حصر من خدماته السابقة ، وغدا مديناً بحياته إلى عواطف ذوي السلطان لا إلى اي سبب ذي وزن في صالحه ، مع جماهير الشعب .

٥٤

الاثر الذي يمكن أن يكون للرجل الوقور في كبح جماح حشد ثائر

هناك نقطة مهمة ثانية يجب ان نلاحظها في الحادثة التي ذكرتها في

الفصل السابق ، وهي ان لا شيء ادعى إلى كبح جماح حشد ثائر ، من الاحترام الذي يحمله هذا الحشد لرجل معروف بالوقار والمكانة البارزة، يتقدم شخصياً لمواجهة هذا الحشد .

ولا ريب في ان فرجيل كان محقاً كل الحق عندما قال :

« وإذا ما ظهر آنذاك رجل وقور ورع

« خفتت اصواتهم ، وأصغوا إلى ما يقول » .

وإذا صح هذا القول ، فأن على من يتولى قيادة أحد الجيوش ، او على من يجد نفسه في مدينة نشب فيها بعض الاضطراب ، ان يتقدم بنفسه إلى المشتركين في هذا الاضطراب ، متسربلاً بكل ما يستطيعه من وقار وهيبة ومكانة ، ومبرزاً اشارة المنصب الذي يحتله، سعياً وراء التأثير على هؤلاء الناس .

ولقد كانت مدينة فلورنسة قبل بضع سنوات منقسمة إلى حزبين ، حزب « الغرانيشي » ، وحزب « الأزابياتي » ، كما كان يطلق عليهما . وعندما نشب العراك بينهما غلب الغرانيشي على امرهم ، وكان بينهم باغولانتونيو سوديريني ، وهو مواطن ذو سمعة بارزة في تلك الايام . ومضت جماهير العامة اثناء الفتنة ، بعد ان سلحت نفسها إلى بيت الرجل لتنبهه . ووجدت الجماهير في مدخل الدار ، شقيقة السيد فرانسيسكو ، وكان آنذاك اسقفاً لفولتيرا ، ثم غدا الآن كردينالاً . وعندما سمع الأسقف ضجيج الجماهير ورآها قادمة بعينيه ، سارع إلى ارتداء بزته الكهنوتية الرسمية ، ووضع فوقها مغضنته الأسقفية ، ثم واجه الجماهير المسلحة ، وتمكن بشخصيته وبحديثه من ردها عن البيت . وظل هذا الحادث مدار الأحاديث والاعجاب في المدينة كلها عدة ايام تالية . واستخلص من كل هذا ، تبعاً لذلك، ان ليس ثمة وسيلة أكثر ضرورة أو ضماناً لكبح جماح اية جماهير ثائرة من ظهور انسان امامها ، جدير بالاحترام .

واذا ما عدنا الى الحادث السابق ، نستطيع ان نلاحظ مدى الاصرار الذي سيطر على جماهير العامة في رومة ، لتنفيذ الاقتراح القائل بضرورة ذهابهم الى فيي ، لأنهم ظنوا في هذا الذهاب منفعة لهم ، ولم يدركوا ما ينطوي عليه من اذى ، وكيف ان الاضطرابات قد نشبت وكادت تنقلب إلى فضيحة ، لو لم يتمكن مجلس الشيوخ بمساعدة نفر من الرجال الوقورين والمهيبين ، من كبح جماح ما تمثل فيه من جنون .

٥٥

من السهل ادارة الأمور في دولة لم تفسد جماهيرها ، وعندما تكون المساواة قائمة ، يستحيل اقامة امارة أما عندما تنعدم هذه المساواة فمن المستحيل اقامة جمهورية

على الرغم من اننا بحثنا في مكان آخر بحثاً وافياً في ما يجب ان تخاف منه الدول التي فسدت ، وما يجب ان تعلق آمالها فيه ، ارى ان ليس من الخروج عن الموضوع في شيء ، ان ندرس هنا قراراً اتخذه مجلس الشيوخ ، بالنسبة الى القسم الذي صدر عن كاميليوس ، والذي وعد فيه بأعطاء عشر الغنيمة التي ستؤخذ من « الفينيتيز » الى الالـه ابولو . وكانت هذه الغنيمة قد وصلت الى ايدي العوام الرومانيين. ولما لم يكن هنـاك سبيل آخر للحصول على تقييم حقيقي لها ، فقد اصدر مجلس الشيوخ مرسوماً يطلب الى كل شخص ان يقدم الى الخزانة العامة عشر ما استولى عليه منها . ولم ينفذ هذا القرار لأن مجلس الشيوخ ، اتبع طرقاً ووسائل اخرى ، لضمان رضاء الالـه « ابولو » بدلاً من الغنائم

التي كان على العوام ان يدفعوها . ولكن يبدو من هذا القرار على أي حال ، مدى الثقة التي كان مجلس الشيوخ قد وضعها في طيبة العوام ، بالنظر الى تأكده من أن اياً منهم لن يتأخر عن التقدم فوراً بكل ما نص عليه المرسوم من مقتضيات. ويظهر القرار ايضاً ان العوام لم يكونوا يفكرون بالاحتيال على المرسوم ، عن طريق تقديم ما يقل عن الحصة المطلوبة . وكل ما فعلوه للتخلص من المرسوم عوضاً عن ذلك هو اظهار ما يحملونه عليه من سخط بصراحة ووضوح .

ويظهر هذا المثال وامثلة اخرى كثيرة من نوعه سبق لنا ان سردناها، المدى الكبير لما تميز به الشعب الروماني في تلك الايام من طيبة ومن احترام للدين ومدى ما يستطيع ان يتوقعه الانسان منهم،اذ حيث تسود مثل هذه الطيبة ، لا يستطيع الانسان الا ان يتوقع سلوكاً طيباً . ولا يمكن انتظار العثور على مثل هذه الطيبة من الناحية الاخرى في هذه الايام ، في بلاد اتضح فسادها كأيطاليا مثلاً ، التي تبز غيرها من البلاد في هذا الميدان . وتشترك فرنسا واسبانيا ايضاً في هذا الفساد ، واذا لم تكن الفتن بينة في هذه البلاد على نحو كبير ، يماثل ما يحدث في ايطاليا ، فان السبب في ذلك لا يعود الى طيبة الشعب فيها ، اذ انه يفتقر حقاً اليها،وانما يعود الى وجود ملك فيها يحفظ عليها وحدتها، لا بمجرد فضائله الشخصية بل بالاساليب الدستورية ، التي لم يصل اليها الفساد بعد في هذه الممالك .

أما في الامارات الألمانية ، فمن الواضح كل الوضوح ، ان الطيبة واحترام الدين ، ما زالا قائمين عند شعوبها مما يؤدي الى وجود عدد من الجمهوريات فيها تنعم بالحرية ، وتحترم قوانينها بطريقة لا تمكن الغرباء عنها أو مواطنيها من التجرؤ على اغتصاب السلطان فيها .

ولما كان من الحق ان هذه الجمهوريات ما زالت تنعم بهذا القسط الكبير من الطيبة التي عرفت عن العهود السابقة ، فانني أرى ان أوضح

وضعها ، مستشهداً بمثال يشبه ذلك الذي سبق لي ان سردته عن مجلس الشيوخ والشعب في مدينة رومة . فقد جرت العادة عندما تحتاج هذه الجمهوريات لانفاق مبلغ من المال لحساب المصلحة العامة ان يقوم حكامها وأعضاء مجالسها بالنسبة الى الصلاحيات المخولة اليهم لمعالجة مثل هذه القضايا ، بفرض ضريبة على جميع سكان المدينة لا تتجاوز نسبة واحد أو اثنين في المائة من قيمة ما في حوزتهم من ممتلكات . وبعد ان يتخذ القرار ، يتقدم كل انسان الى جباة الضرائب طبقاً للاجراء الدستوري المعمول به في المدينة.وبعد ان يؤدي القسم على انه سيدفع المبلغ الصحيح، يلقي في صندوق اعد خصيصاً لهذه الغاية ، بالمبلغ الذي يعتقد وهو مرتاح الضمير ، بأن عليه ان يدفعه ، ولا يكون هناك شاهد يرى ما يدفعه الا ضميره وحده . ولا ريب في ان هذا الوضع يشير الى ما يتميز به هؤلاء الناس من طيبة ومن احترام للدين ، اذ المفروض ان يدفع كل انسان المبلغ الصحيح ، لأنه في حالة عدم الدفع على هذا الاساس ، لن يأتي مجموع ما تحصله الضريبة بالمبلغ المقدّر على اساس المجموعات السابقة التي تجري بالطريقة العادية المألوفة ، ولا ريب في ان الفشل في تأمين المبلغ المطلوب سيكشف عن وجود حياة من نوع ما ، وفي مثل هذه الحالة ، كان لا بد من اللجوء الى اسلوب آخر لجمع الضريبة المقررة .

ولا ريب في ان مثل هذه الطيبة هي موضع التقدير البالغ في هذه الايام بالنسبة إلى ندرة وجودها . ويبدو انها لا تعيش الآن إلا في هذه الامارات . ويعود الفضل في ذلك إلى امرين ، اولها عدم اختلاط المدن الألمانية اختلاطاً كبيراً بجاراتها التي لا يذهب اهلها إلا نادراً لزيارتها ، ولا يقبلون الزيارات منها ، وذلك لأنهم راضون بما لديهم من سلع ، ويعيشون على ما ينتجونه من غذاء ، ويلبسون ما يصنعونه من كساء ، في ارضهم لا في ارض غيرهم . وهكذا تنعدم الحاجة إلى الاختلاط ، وتنعدم معها الخطوة الاولى في طريق الفساد ، لا سيا وان الفرصة ليست

متاحة لديهم ، لاقتباس عادات الفرنسيين او الاسبان او الايطاليين،وهي شعوب ، إذا جمعت إلى بعضها ، اعتبرت مصدر ما في العالم كله من فساد .

والسبب الثاني في بقاء الحياة السياسية في هذه المدن الالمانية دون افساد، هو ان اهلها لا يسمحون لأي من مواطنيهم،بالعيش علي غرار النبلاء . وهم يحافظون فيها على النقيض من ذلك علي المساواة المطلقة ، ويظهرون العداء الشديد للسادة الاقطاعيين والنبلاء الذين يعيشون في المقاطعة ، ولو شاء الحظ ان يقع أحدهم في ايدي اهل هـذه المدن ، لعاملوه على انه مصدر للفساد وسبب للفظائع ، وللجأوا إلى قتله .

ولايضاح ما اعنيه بكلمة « النبلاء » ،فأنني اود الاشارة الى ان هذا التعبير يطلق عادة علي اولئك الذين يعيشون في بطالة ، على ما تغدقـه عليهم اقطاعياتهم من دخل غزير ،دون ان يقوموا بأي عمل يتعلق بزراعاتهم، او بأي شكل آخر من اشكال العمل اللازم للحياة . ومثل هؤلاء الناس، وباء في كل جمهورية وكل امارة،ولعل الأسوأ منهم هم اولئك الذين يملكون بالاضافة إلى اقطاعياتهم التي سبق لي ذكرها قلاعاً تحت تصرفهم، واتباعاً يفرضون عليهم الطاعة . وهناك الكثيرون من افراد هاتين الفئتين من الناس في مملكة نابولي،وفي الممتلكات البابوية وفي رومانا ولومبارديا. ولا ريب في ان هذا هو السبب الذي حال دون ظهور اية جمهورية او حياة سياسية في هذه المقاطعات ، إذ ان الناس الذين يولدون في مثل هذه الاوضاع يكونون شديدي العداء لأي شكل من اشكال الحكم المدني . ولا يمكن لأية محاولة لاقامة جمهوريـة ان تكلل بالنجاح في مقاطعات منظمة على هذا النحو . وإذا ما رغب انسان في اعادة تنظيمها ، فأن السبيل الوحيد امامه،هو ان يقيم فيها نظاماً ملكياً . والسبب في ذلك ، هو انه عندما يكون الجوهر على هذا النحو من الفساد،لا تكفي القوانين للحفاظ عليه واستبقائه ، ومن الضروري ان تكون هنالك بالاضافة إلى

القوانين قوة عليا ، .كتلك التي تكون للملك عادة ، تملك من السلطان المطلق والطاغي ما يمكنها من وقف اي تطرف او مغالاة ينبعان من الطموح ، ومن الاجراءات الفاسدة لذوي الحول والطول .

ويقوم الوضع في توسكانيا دليلاً على صحة هذا الرأي ، إذ يجد الانسان في هذه المنطقة رغم صغر حجمها ، ثلاث جمهوريات ، قامت فيها منذ عهد بعيد ، وهي فلورنسة ، وسيينا ، ولوكا ، كما يجد ان المدن الاخرى فيها ، على الرغم مما هي فيه من عبودية ، تتجه في فكرها ، وفي دساتيرها التي وضعتها ، اما إلى الحفاظ على حريتها ، او إلى الرغبة في هذا الحفاظ . ويرد كل هذا ، إلى عدم وجود قلاع اقطاعية في توسكانيا ، وإلى عدم وجود نبلاء فيها، او ان وجدوا فأن عددهم ضئيل جداً، وإلى سيادة شكل من اشكال المساواة العظيمة بحيث يسهل على اي رجل حكيم ، مطلع على أشكال الحكومة المدنية القديمة، ان يدخل اليها دستوراً مدنياً صالحاً . وكان سوء حظ توسكانيا كبيراً، إلى الحد الذي حرمها من اية محاولة من هذا النوع ،لافتقارها إلى الرجل الذي يتمتع بالكفاية اللازمة والمعرفة .

وفي وسعنا ان نصل إلى الاستنتاج التالي من هذه المناقشة :(اولاً) لا يستطيع اي انسان يفكر في اقامة جمهورية في الاماكن التي يكثر فيها النبلاء النجاح في تحقيق غرضه إلا إذا تخلص رأساً من اكثرهم و (ثانياً) انه في الاماكن التي تسودها المساواة سيادة كبيرة ، لا يستطيع اي انسان يفكر في اقامة مملكة او امارة ان يحقق غايته ،إلا إذا اختار من اولئك المتساوين من الناس عدداً من اكثرهم طموحاً وعقولاً غير مستقرة ، وجعل منهم نبلاء اسماً وفعلاً ، عن طريق منحهم القلاع والاقطاعيات وجعلهم طبقة ذات امتيازات تتعلق بالممتلكات والاتباع ، وهكذا يحيط نفسه بأولئك الذين يستطيع بتأييدهم الحفاظ على سلطانه ، والذين يحقق لهم مطامعهم بفضل ما يمنحه لهم ، اما بالنسبة الى الباقين ،

فسيجدون انفسهم مرغمين على احتمال نير لا تستطيع غير القوة ارغامهم على احتماله . وهكذا يقام نوع من التوازن بين القوة وبين من تطبق القوة بحقهم،ويستقر مركز كل انسان حسب النسق الاجتماعي الذي ينتمي اليه . ولكن لما كان تحويل امارة تصلح للحكم الملكي إلى جمهورية ، وتحويل امارة تصلح للحكم الجمهوري إلى مملكة ، يتطلبان رجلاً من ذوي المواهب العقلية البارزة والسلطة لمعالجتها ، مع ما في وجود مثل هذا الرجل من ندرة،فقد ظهر هناك كثيرون،قاموا بمحاولات كهذه ، ولكن القليلين منهم فقط ، استطاعوا تنفيذ ما يريدونه ، وذلك لأن ضخامة عمل كهذا هي من النوع الذي يجعله ينهار في البداية ، وذلك بسبب ما يصيب القائمين عليه من رهبة إلى حد ما وبسبب ما يلقاه من عقبات إلى حد آخر .

وقد يكون مثال البندقية ، التي لا يمكن لأي انسان ان يحتل منصباً في جمهوريتها إلا إذا كان من النبلاء ، او « السادة » ، متعارضاً مع النظرية التي جئت بها والتي اكدت فيها استحالة اقامة اية جمهورية في منطقة يكثر فيها النبلاء . ولكن الرد على هذا ينحصر في ان هذه الحالة لا تتعارض مطلقاً مع نظريتي،وذلك لأن « السادة » في هذه الجمهورية، لا يحملون من السيادة الا اسمها فقط،دون ان تكون لهم سيادة حقيقية، إذ انهم لا يحصلون على أي دخل كبير من اقطاعياتهم،وترتكز ثرواتهم الضخمة على التجارة والسلع المنقولة . يضاف إلي هذا ان اياً منهم لا يملك اية قصور،كما لا يملك أية صلاحية قانونية على غيره من الناس . وليس اسم « السادة » في حالتهم إلا لقباً يشير إلى مكانتهم ، إذ لا يرتكز إلى اي من الأسس التي تحمل المدن الاخرى على إطلاق اسم « السادة » على بعض أبنائها. وكما ان الطبقات المختلفة في الجمهوريات الاخرى تحمل اسماء مختلفة ايضاً ، فأن الشعب في البندقية ينقسم إلى « سادة » و « عامة » ، وقد قرر ان تكون المناصب وقفاً على أفراد

الطبقة الاولى دون سواهم ، وان لا حق للعامة فيها . وقد شرحت في فصل سابق ، الأسباب التي حالت دون ان يؤدي هذا الوضع إلى فتن في المدينة .

وعلى هذا يجب اقامة الجمهوريات في الأماكن التي توجد فيها مساواة ملحوظة ، او تلك التي يمكن ان توجد فيها مثل هذه المساواة ، وان تقام أنظمة الحكم المعاكسة ، اي الامارات ، حيث يوجد عدم المساواة بشكل واضح . وإذا لم تتبع هذه القاعدة ، فأن العمل الذي يتم يكون مفتقراً إلى التناسب والانسجام ولن يقدر له ان يعمر طويلاً .

الكتاب الاول

المطارحات من ٥٦ ـ ٦٠



٥٦

تسبق الكوارث العظيمة التي تحل بالمدن والامارات نذر من التطير أو نبوءات على لسان بعض الناس

لا ادري كيف وقع هذا ، ولكن ما أدريه ، هو ان الواضح بالنسبة الى حوادث الأمس واليوم ، أي الاحـــداث الغابرة والراهنة ، ان أية كارثة خطيرة لم تحل بأية مدينة أو امارة دون ان يسبقها تكهن بوقوعها عـــلى لسان عرافة أو تكشف أو وحي أو نذير أو اية اشارة سماوية اخرى . ولا أرى بي حاجة الى المضي بعيداً للتدليل على صحـــة هذا القول . فكل انسان يعرف انه قبل مجـيء الملك شارل الثامن الفرنسي

إلى ايطاليـا ، كان الزاهب جيرولامو سافونارولا قد تكهن بمجيئه في عظاته اكثر من مرة ، وانه بالاضافة الى ذلك ، فقـد قيل ان اشباحاً مسلحة شوهـــدت في سماء مدينة « اريزو » وهي تتقاتل وتتحارب . ويعرف كل انسان ايضـــاً ، كيف انه قبل موت لورنزو دي مديشي الكبير(١) ، اصابت صاعقة من السماء ، الجزء العلوي من الكاتدرائية ، وألحقت بذلك الصرح اضراراً بالغة ، وكل انسان يعرف كذلك، كيف انه قبل ان يبعد بييرو سوديريني(٢) الذي كان شعب فلورنسة قد عيّنه حاملاً للعلم (بيرقداراً) مدى الحياة عن المدينة ، وقبل ان تنتزع منه رتبته ، كان القصر قد اصابه برق من السماء بصورة مماثلة .

وفي وسعنا ان نورد الكثير من الاستشهادات الاخرى ، ولكنني أرى ان اتجاوزها مخافة ان ابعث الملل في النفوس . وسأكتفي بسرد ما قاله تيتوس ليفي ، عما حدث قبل ان يأتي الغاليون الى رومة ، فقد ذكر ان أحد العامة ويدعى ماركوس كايديكيوس ، نقل الى مجلس الشيوخ انه كان يسير محاذياً نهر نوفا(٣) ، عندما سمع في هدأة الدجى وعنـــد منتصف الليل صوتاً أقوى من صوت الانسان ، يأمره بالذهاب وابلاغ الحكام بأن الغاليين في طريقهم الى رومة .

ومن الواجب ايضاح أسباب هذه الحوادث وبحثها ، على ان يتولى ذلك شخص عليم بالأمور من طبيعية وغيبية ، وانا لا ازعم لنفسي هذه المعرفة ، وقد يكون السبب طبعاً كما يقول بعض الفلاسفة ، ان الارواح

---

١ لورنزو العظيم دي مديشي (١٤٤٩ – ١٤٩٢) – كاد يغتاله أنصار اسرة « بازي » ولكنه نجا باعجوبة . ويبدو انه كان أكثر اغراقاً في حبه للمعرفة من جده كوزيمو . اقام في فلورنسة اكاديمية لتدريس علوم الاقدمين وآدابهم ، كانت ذات أثر فعال في النهضة الأوروبية ، كان أول من اهتم بشؤون الطباعة من الامراء الاوروبيين .

٢ بييرو سوديريني ، الشخص الذي تولى رئاسة الحكم الجمهوري في فلورنسة بعد طرد آل مديشي ، ولكنه أخرج منها عام ١٥١٢ . وكان مكيافلي من رجاله ووزرائه .

٣ نهر صغير في ايطاليا إلى الشمال من رومة . – المعرب –

تملأ الاجواء . وان الطبيعة قد منحت هذه الارواح القدرة على رؤية المستقبل ، فدأبت عطفاً منها على الناس علي تحذيرهم بمثل هذه النذر ، حتى يتخذوا اهبتهم للدفاع عن انفسهم ، ومهما كان التفسير ، فهناك على كل حال ادلة قائمة على حدوث مثل هذه الامور ، وعلى انه بعد حدوثها ، تقع حوادث جديدة وغير عادية في جميع المقاطعات التي تظهر النذر فيها .

٥٧

العامة أقوياء في وحدتهم وضعفاء في حقيقتهم

مضى عدد كبير من الرومان اثر الخراب الذي حل ببلادهم من جراء غزوات الغاليين الى مدينة فيي للعيش فيها ، على الرغم من المرسوم الذي أصدره مجلس الشيوخ والأوامر التي حظر بموجبها مثل هذه الهجرة. ورغبة من المجلس في معالجة هذه الفوضى طلب في مراسيم عامة اصدرها من كل انسان ان يعود الى رومة للاقامة فيها ضمن وقت محدد،ومهدداً بعقوبات معينة في حالة العصيان . وقد هزىء بها اولئك الذين صدرت المراسيم بسببهم في البداية،ولكن عندما جاء دور التنفيذ اطاعوها جميعاً. وهنا يورد تيتوس ليفي هذه الملاحظة عنهم : « لقد كانوا كحشد كبير قوة شرسة ، ولكنهم كأفراد،كان الواحد منهم يتملكه الخوف فيسارع الى الطاعة » .

ولا ارى وصفاً افضل لسلوك الجماهير الطبيعي في مثل هذه الظروف من الوصف الذي ورد في هذه الفقرة . فالجماهير تكون عادة جريئة في

نقد القرارات التي يصدرهـا حكامها ، ولكنها عندما ترى بأم اعينها العقوبات الملحقة بهذه القرارات ،يأخذ الفرد منها بالشك في الفرد الآخر ، ويسارعون جميعاً الى الطاعة . ولا ريب في ان هذه القصة تظهر بصورة تقطع الشك ، بأن من واجب الحكام ان لا يلقوا بالاً الى مـا تقوله الجماهير عن ميولها الطيبة أو السيئة ، شريطة ان يكون نظام الحاكم من النوع الذي يستطيع الحفاظ علي شعور الجماهير ان كان طيباً ، أو ضمان عدم الاذى منه ان كان هذا الشعور سيئاً . وانا اعني «بالشعور السيء هنا » ذلك الاتجاه الذي ينشأ عن سبب غير ما تحس به الجماهير عند فقدها لحريتها ، أو فقدها لأمير كانت تحبه وما زال على قيد الحياة ، وذلك لأن المشاعر السيئة التي تنجم عن مثل هذه الاسباب تكون في العادة أقوى من أية مشاعر أخرى مهما كان سببها مما يتطلب احتياطات عظيمة لكبح جماحها ، بينما تكون مشاعرها السيئة الاخرى ، من السهولة بحيث تمكن معالجتها ، عندما يتوافر قادة يستطيع الشعب اللجوء اليهم بحق الاستئناف . وعلى الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان ليس هناك ، ما هو اشد مراساً وقوة من ناحية واحدة من حشد لا قائـد له ، أو عزل عن قائده،الا ان هذا الحشد من الناحية الاخرى ، يكون اضعف ما في الوجود ايضاً . اذ ان من السهل اعادة هذا الحشد الى النظام ، حتى ولو كان السلاح متوافراً في يديه ، شريطـة ان يكون لدى من يحاول ذلك حصن منيع يستطيع اللجوء اليه للوقاية من هجومه الأول. اذ عندما يشرع حماسه في البرود بعض الشيء ، ويرى كل واحد من افراده زميله وقد استدار عائداً الى بيته،يأخذ في فقد ثقته ، وفي التطلع الى سلامته اما بالهزيمة أو بالوصول الى تفاهم .

ولذا فاذا أراد حشد متحمس تجنّب هذه الاخطار ، فان عليه ان يجعل من احد افراده قائداً له ، يتمكن من اصلاح هذا الخطأ أو العيب ويحفظ على الحشد وحدته ، ويهتم بأمر الدفاع عنه ، تماماً كما فعل عامة

الرومان ، عندما هجروا روما بعد موت فرجينيا ، واختاروا في سبيل تأمين سلامتهم عشرين رجلاً منهم كحماة عنهم . واذا لم يتحقق هذا فان ما قاله تيتوس ليفي في الفقرة السابقة يغدو صحيحاً ويتحقق ، اي عندما يكون الحشد في صف واحد يغدو قوياً ، ولكن عندما يبدأ كل فرد من افراده في التفكير بالخطر الذي يجد نفسه فيه ، فأنه ينقلب الى حشد جبان وضعيف .

٥٨

تكون الجماهير أكثر معرفة وثباتاً من الأمير

ليس ثمة من شيء اكثر تفاهة او تقلباً من الجماهير . هذا ما يقوله مؤلفنا تيتوس ليفي ، وهذا ما يقوله غيره من المؤرخين أيضاً . فكثيراً ما نرى الجماهير في سجلات الاعمال التي قام بها الناس تقضي على رجل بالاعدام ، ثم لا تلبث ان تأخذ في البكاء عليه ، راغبة بحماس وصدق في انه لو ظل حياً.وقد فعل الرومان هذا في حالة مانليوس كابيتولينوس إذ قضوا عليه بالموت اولاً ، ثم تمنوا تمنياً صادقاً لو عاد إلى الحياة . ويقول مؤلفنا عن هذا الحادث انه « ما كاد هذا الرجل يتوقف عن ان يكون خطراً ، حتى سيطرت الرغبة في بعثه إلى الحياة على الشعب » . وهو يقول من جديد عندما يصف الاحداث التي وقعت في سراقوزه ، بعد موت هيروتيموس ، ابن اخي هيرو ما نصه : « ان من طبيعة الجماهير اما ان تطيع عن استكانة او إذعان او ان تجور بغطرسة واستكبار » .

ولا ادري إذا كان الرأي للذي أوشك على تبنّيه،سيكون على درجة

كبيرة من الصعوبة في موضوع دعمه ، او سيكون مليئاً بالمتاعب ، بحيث اضطر اما إلى التخلي عنه مصحوباً بالخزي والعار، أو إلى الحفاظ عليه وحماه ، بعد جهد ومشقة.وذلك لأنني أصر علي الدفاع عن موقف يهاجمه جميع الكتّاب كما سبق لي ان قلت . ولكن مهما كانت النتيجة، فأنني اعتقد ، وسأواصل هذا الاعتقاد دائماً ، بأن ليس ثمة من ضير في الدفاع عن رأي بطريق الحجة، طالما ان المرء لا يعتزم مطلقاً اللجوء إلى السلطة او القوة للدفاع عنه .

وعلى هذا فأنني ازعم ان العيب الذي يلوم الكتّاب الجماهير عليه ، قد يكون موجوداً في أية مجموعة من الناس يختارهم المرء للدراسة، وقد يتعرض تبعاً لذلك للملامة ، ولا سيما إذا كانوا من الامراء،إذ ان كل من لا ينظم سلوكه طبقاً للقوانين سيقع في نفس الاخطاء التي تتهم بها الجماهير ، ويمكن رؤية هذه الحقيقة بسهولة ، فقد وجد ، ويوجد عدد لا حصر له من الامراء ، اما الامراء الأخيار والحكماء ، فلا وجود لهم في الماضي او الحاضر إلا بنسبة ضئيلة . وانا اتحدث عن الأمراء الذين افلحوا في تحطيم القيود التي كان في إمكانها ان توقفهم عند حدودهم ، ولا أضم إلى قائمتهم اولئك الملوك الذين ولدوا في مصر ، عندما كانت تلك المملكة التي تعتبر أقدم الممالك القديمة ، تحكم في ظل القانون ، ولا اولئك الذين وجدوا في اسبارطة،ولا حتّى اولئك الذين ولدوا في فرنسا في وقتنا هذا ، لأن مملكة فرنسا منتظمة بموجب القوانين أكثر من اي مملكة اخرى نعرف عنها شيئاً في الوقت الراهن . ويجب ان لا يصنّف الملوك الذين يولدون في ظل مثل هذه الاوضاع بين اولئك الذين يتحتّم علينا درس طبيعتهم في كل حالة من الحالات الفردية لنرى ما تحمله من شبه بطبيعة الجماهير ، اذ لو وجدت هناك جماهير تنتظمها القوانين على نفس النحو الذي تنظم به شؤون الملوك ، لوجدنا بينها حتماً ، نفس الطيبة التي نجدها بين الملوك ، وسنجد حتماً انها ، « لا تجور متغطرسة

او تطيع مستكينة ومذعنة » . فلقد كان هذا شأن عامة الرومان، الذين لم يذعنوا طيلة بقاء الجمهورية بعيدة عن الفساد اذعاناً خنوعاً ابداً ، كما لم يحاولوا السيطرة سيطرة متغطرسة ، بل كانت لهم على النقيض من ذلك انظمتهم الخاصة بهم وحكامهم،وكانوا يحافظون على مكانتهم بكرامة وشرف ، ولكنهم كانوا عندما يرون من الضروري اتخاذ اجراء ضد شخص ذي حول وطول ، يقدمون على هذا الاجراء ، كما رأينا في قضية مانليوس ، وفي قضية مجلس العشرة ، وفي قضايا آخرين حاولوا اضطهادهم . وكانوا عندما يجدون ان المصلحة العامة تقضي عليهم باطاعة الديكتاتورين والقناصل ، لا يترددون عن هذه الطاعة . ولم تكن رغبة العوام الرومانيين في مانليوس موضع دهشة او استغراب بعد ان كان قد فارق هذه الحياة ، إذ ان ما أرادوه حقاً هو ما كان يتصف به من فضائل ، كانت علي درجة كبيرة من العظمة بحيث استثارت ذكراها مشاعر العطف عند كل انسان ، وكان لا بد لها ان تحمل نفس القوة لايجاد اثر مماثل عند اي امير ، إذ يجمع كل الكتاب على ان الفضيلة (الشجاعة) ،تستحق الاطراء والاعجاب حتى ولو وجدت عند الخصوم . ومن ثم لو قدر لمانليوس استجابة لرغبة العوام هذه.ان يبعث من جديد، وان يعود إلى الحياة،لعاد عوام الرومانيين الى أصدار نفس الحكم بالموت عليه ، ولعادوا إلى اعتقاله ونفذوا فيه الحكم بالموت بعد فترة قصيرة ، وكثيراً ما يجد المرء في هذه القضية ايضاً،امراء عرفوا بواسع حكمتهم، يعدمون بعض الناس،ثم يعودون فيرغبون في بعثهم إلى الحياة من جديد، وهذا ما وقع للاسكندر مثلاً بالنسبة إلى كلاتيوس (Cleitus)(١)

---

١ كلايتوس « الاسود » ، كان شقيق مربية الاسكندر « هيلانيكي » . أصبح من ضباط جيش الاسكندر و أنقذ حياته في معركة غرانيكوس عام ٣٣٤ ق. م.وارتقت رتبته فأصبح حاكماًلاحدى الولايات . وكان يحضر وليمة مع الاسكندر عام ٣٢٨ فجرؤ على نقد البذخ الذي يسود بلاط الاسكندر ، فقتله هذا بيده ، وهو ثمل ، ثم ندم على فعلته . — المعرب —

وغيره من اصدقائه ،وإلى هيرود في قضية مارياممي (Herod-Mariamne) (١).
والحقيقة ان ما قاله مؤرخنا عن طبيعة الجماهير ، لا يصدق على الجماهير التي تنتظمها القوانين كما كانت الحالة بالنسبة إلى الرومان ، وإنما يصدق على الجماهير التي لا نظام لها كجمهور سراقوزه ، وهو جمهور يرتكب نفس الاخطاء التي يرتكبها الناس عندما يستبد بهم الغضب ، ويفقدون الانضباط ، وهو ما حدث للاسكندر الأكبر وهيرود في الحادثتين المشار اليهما آنفاً .

وعلى هذا فأن طبيعة الجماهير ليست اكثر جدارة باللوم من طبيعة الامراء . إذ ان الجميع يخطئون ، وعلى نفس القياس ، عندما لا يكون هناك ما يحول بينهم وبين اقتراف الخطأ . وهناك امثلة كثيرة على هذا الموضوع ، بالاضافة إلى ما اوردته منها حتى الآن ، وقد وقعت مع أباطرة الرومان ومع غيرهم من الطغاة والامراء ، إذ نجد عندهم درجة كبيرة من الافتقار الى الثبات ومن التقلب في سلوكهم ،وهو ما لا نجده قط عند الجماهير .

وأصل الآن الى استنتاج يتعارض مع الرأي الشائع والقائل بأن العامة عندما تكون في وضع السلطان ، تكون متقلبة ومذبذبة وناكرة للجميل، وأؤكد ان هذه الاخطاء عند العامة ، لا تكون مختلفة في أي حال من الاحوال عن تلك التي توجد عند بعض الامراء ؛ ولو وجه هذا الاتهام الى كل من الجماهير والامراء لكان صحيحاً ، امـا ان يستثنى الامراء منه ، فشيء يخالف الحقيقة ، اذ عندما تكون العامة في الحكم ، وتكون حسنة التنظيم ، فان الاستقرار يكون طابعها ، والعقل والاعتراف بالجميل يميزانها ، بنفس الطريقة أو بطريقة أفضل من تلك التي يظهر فيها الأمير

---

١ المقصود بهيرود هنا ، هيرود اغربيا ، حفيد سالومي شقيقة هيروديا . وقد أعطاه الامبراطور كاليغولا حكم مملكة العبرانيين ، وارتكب فظائع كثيرة ، منها قتله للقديس جيمس وسجنه للقديس بطرس ، وقتله لمريامني ، التي ظل خيالها يلاحقه . — المعرب —

مهما كانت مكانته رفيعة وعالية في مجال الحكمة . ويكون الأمير الذي يزدري القوانين من الناحية الاخرى،اكثر نكراناً للجميل وتذبذباً وبعداً عن التعقل من العامة . يضاف الى هذا ان السلوك المتقلب ، لا يكون ثمرة اختلاف في الطبيعة ، اذ ان العامة والامراء متشابهون تمام الشبه ، واذا كان من واجبنا ان نؤثر احدهما على الآخر ، فـلا ريب في ان الايثار يتجه الى العامة ، وهذا يتوقف على ما يبدونه من درجة احترام كثرت او قلت ، للقوانين التي يعيش الفريقان في ظلها .

واذا ما امعنا النظر في تاريخ الشعب الروماني تبيّن لنا ان عامته ، كانوا طيلة أكثر من اربعمائة عام يكرهون لفظ الملكية،وكانوا يتعشقون المجد ، ويتعشقون مصلحة بلادهم العامة . ويقدم عامة الرومان أمثلـة بارزة وعديدة على كلتا الميزتين المذكورتين.ولو دفع احدهم في معارضته لرأيي ، بقصة ما اظهره العامة من نكران للجميل نحو شيبيو ، فان ردي عليه ، هو انني بحثت في هذا الموضوع بالتفصيل من قبل ،وانني أظهرت ان ما ابداه العامة من نكران للجميل يقل عما ابداه الامراء انفسهم. وما زلت اصر في موضوعي الروّية والثبات ، على ان العامة اكثر روية وتعقلاً وثباتاً ، وصواباً في الحكم من الامراء . ولا ريب في ان هنـاك مبرراً قوياً حمل الناس على تشبيه صوت الشعب بصوت الله ، وذلك لأن الرأي العام يكون دقيقاً الى حد كبير في دلالاته واشاراته ، ممـا يرمز الى ان قوة خفية توحي الى الشعب مقدماً بما سيصيبه من شر أو خير . أما بالنسبة الى احكامه ، فعندما يستمع الشعب الى خطيبين يتكافآن في البراعة الخطابية ، يدافعان عن وجهتي نظر متعارضتين فان من النادر كل الندورة ، ان نجد المرء الشعب وقد فشل في تبني الرأي الصحيـح منهما أو عجز عن تمييز الحقيقة في ما يستمع اليه من اقوال . أما اذا كان يبدو مخطئاً في بعض الأعمال التي تنطوي على الجرأة، كما سبق ان قلت، فان الامير يخطىء ايضاً ، عندما تكون عواطفـه داخلة في العمل الذي

ينتوي القيام به ، وهـــذه العواطف تكون على الغالب اكثر قوة من عواطف العامة .

ودللت الوقائع ايضاً على ان العامة أحسن قدرة على التمييز من الامير في موضوع اختيار الحكام اذ لا يمكن اقناع الشعب مطلقــاً ، بأن من الخير ان يختار الى احد هذه المناصب رجلاً عرفت عنه الخلاعة والعادات الفاسدة ، بينما قد يقتنع الأمير ، وغالباً ما يقتنع ، باجراء مثل هــذا التعين . ومن المعروف أيضاً ان العوام اذا ما بدأوا بالفزع من شيء ، فان هــذه الحالة تظل مسيطرة على عقولهم عدة قرون ، وهو أمر لا يلاحظ مطلقاً في الحالات المتعلقة بالامراء . وأرى ان اكتفي للتدليل على هاتين الميزتين ، بما تقدمه عامة الرومان لنا من أدلة ، اذ انها في مدى عدة مئات من السنين وابان انتخابات لعدد لا يحصى من القناصل وحماة الشعب (التربيون) ، لم تندم الا على نتائج اربعة انتخابات فقط من التي أجرتها طيلة هذه المدة الطويلة ، ولقد سبق لي ان قلت ، ان العامة كانت تكره لقب « الملك » الى حد كبير ، حتى انها لم تكن لتتسامح مطلقاً في ايقاع العقوبة بكل من يطمح الى هذا اللقب من ابنائها ، مهما كانت الخدمات التي قدمها الى وطنه متناهية في العظمة . يضاف الى هذا ان المرء يجد البلاد التي تكون فيها عامتها هي امراؤها وحكامها ، وقد توسعت في غضون وقت قصير ، ومدت في املاكها بشكل يفوق ما تستطيع القيام به مدن اخرى يحكمها امراؤها ، وهذا ما وقع في رومة فعلاً بعــد طرد الملوك ، وفي اثينا بعد ان تحررت من بيزيستراتوس (**Pisistratus**) (١) .

ويرجع الفضل في هذا كله الى سبب واحد ليس الا ، وهــو ان

---

١ بيزيستراتوس (١٦١٢ – ٥٢٧) ق. م. سياسي اثيني بارز ، حكم اثينا حكماً طغيانيــاً ثلاث مرات . كان صديقاً لصولون . رئس أحد الاحزاب الثلاثة المتنازعة وأصبح طاغية في أثينا ثم ثارت عليه المدينة ، وقــد تكررت الثورات عليه كما تكررت عودته إلى المدينة .

– المعرب –

حكومة العامة تفضل حكومة الامراء . ولا يهمني اذا ما عارض مؤرخنا فيما قاله من فقرات سبق لي ان نقلتها ، وغيره من المؤرخين رأيي هذا، وذلك لاننا اذا اجرينا احصاء بعدد الفتن التي كان العوام مسببيها، وتلك التي احدثها الامراء ، واحصاء آخر بعدد الامجاد التي كسبها العوام وتلك التي نالها الامراء ، لوجدنا ان العامة تتفوق على الامراء في اعمال الخير وفي الامجاد على حد سواء . واذا كان الامراء يبزون العامة في سن القوانين وشرائع الحياة المدنية والدساتير والانظمة الجديدة ، فان العامة تبزهم في الحفاظ على كل ما سن ، وفي اضفاء المجد على اولئك الذين سنّوها .

ولأصل بهذا الموضوع الى خاتمة ، أود ان اقول ، انه كما عاشت انظمة حكم الامراء هذا الأمد الطويل،فان انظمة الحكم الجمهوري عاشت آماداً لا تقل عنها طولاً ، وان كلا الفريقين كان في حاجة دائماً الى القوانين لتنظيمها . فالأمير الذي يفعل ما يشاء يكون معتوهاً ، والشعب الذي سيتصرف كما يهوى يفتقر الى الحكمة.وعلى هذا فاذا كان الموضوع ينطوي على مقارنة بين أمير يخضع للقوانين وبين شعب تقيده هذه القوانين، فان الفضيلة التي تكون موجودة عند الشعب ، تفوق ما يوجد منها عند الأمير ، واذا كان الموضوع ينطوي على تحلل كل من الفريقين من سيطرة هذه القوانين فان الاخطاء التي يقترفها الشعب تكون اقل من اخطاء الامير ، كما تكون اقل خطراً وأسهل على التقويم والاصلاح . فمهما غالى الشعب في هياجه وتطرفه ، فان من السهل اعادته الى صوابه عن طريق رجل صالح ، اذا تمكن من توجيه الكلام اليه ، بينما ليس ثمة من يستطيع الكلام الى أمير شرير ، كما لا يوجد علاج لشره سوى اللجوء الى حد السيف . ومن هذا يمكن لنا الوصول الى استنتاج هام ، بالنسبة الى ما في الفريقين من ادواء وعلل ، فاذا كانت الكلمة تكفي لشفاء الشعب من علته ، بينما لا يكفي الا السيف لشفاء الامير منها ،

فليس ثمة من لا يستطيع ان يرى ، انه كلما كان العلاج اكبر واضخم، كانت الخطيئة أقوى وأشد .

وعندمـا يقذف الشعب عرضاً بكل ما يزجره ، فان ما يقترفه من تصرفات مجنونة ليست هي التي ترعب وتخيف،كما ان الانسان لا يخشى الشرور الراهنة ، وانما يخشى ما يأتي به الغد ، من اثارها ، اذ قـد يظهر الطاغية وسط مثل هذه الحالة من الفوضى . اما بالنسبة الى الامراء الشريرين فان القضية على العكس من هذا تماماً . فالشرور الراهنة هي المرعبة ، أما بالنسبة الى المستقبل فثمة أمل ، اذ ان الناس مقتنعون من ان وسائل الأمير الشريرة ، قد تؤدي في النهاية الى الحرية . وعلى هذا ففي وسع المرء ان يرى ان الفرق بين الحالتين يصل الى نفس الفرق الذي يكون بين ما هو قائم وما يجب ان يأتي به الغد . وتتجه اعمال الجماهير الوحشية الى اولئك الذين تشك في تآمرهم على المصلحة العامة ، أما فظائع الامراء فتتجه الى اولئك الذين يشك في انهم يتـآمرون على مصلحته الخاصة . والسبب في تحيز الناس ضد العامة ، هـو ان الفرد يستطيع الحديث عنهم بالسوء ، دون خوف وبصراحة ، حتى عندما يكونون هم الحاكمين،أما عن الامراء فلا يتحدث الناس الا في منتهى الخوف والتحفظ .

ولا ارى خروجاً على الهدف طالما ان الموضوع يستهويني ، اذا ما تحدثت في الفصل التالي عن مدى الثقة في كل من الائتلافات التي تعقدها الجمهوريات والتي يعقدها الامراء .

٥٩

أي الائتلافات أو الاحلاف يمكن الوثوق بهـا أكثر: تلك التي تعقدهـا الجمهوريات أو التي يعقدها الامراء

لما كان من الامور المألوفة في كل يوم ، ان ينضم الامير إلى عصبة

او ان يشكل حلفاً مع أمير آخر او ان تتحالف جمهورية مع جمهورية اخرى ، ولما كانت الائتلافات والاتفاقات تعقد على هذا الغرار بين جمهورية وبين امير من الامراء ، فأنني أرى من واجبي ان أتحرى ، اي العقود اكثر استقراراً وايها اكثر ضمانة، تلك التي تعقدها الجمهوريات او تلك التي يرتبط بها الامراء . واذا ما درسنا جميع الامور المتعلقة بهذا الموضوع ، تبين لنا في رأيي، انها متشابهة في كثير من الحالات ، وان كانت تختلف في حالات اخرى . يضاف الى هذا انني اعتقد ان الاتفاقات التي يلازمها عنصر الارغام ، لا تكون محترمة لا عند الامراء ولا عند الجمهوريات . واني لاعتقد ايضاً ، انه عندما تضحي الامارة او الجمهورية ، خائفة على مصير ممتلكاتها ، فأن اياً منها ، تؤثر بدلاً من ان تفقد هذه الممتلكات ، ان تنقض اتفاقها معك ، وان تعاملك بشيء من نكران الجميل .

ولقد جاء ديمتريوس(١) الذي لقب بفاتح المدن ، بعدد لا حصر له من المنافع الى الاثينيين . ولكنه عندما هزم فيما بعد على ايدي اعدائه ، ولجأ الى اثينا، وهي مدينة صديقة كانت تدين له بالكثير من الالتزامات، رفضت المدينة قبوله ، وهو امر حز في نفسه ، وبعث فيها ألماً يفوق ما احس به من الم عندما أضاع شعبه وجيشه .

وبعد ان انتصر قيصر على بومبي في معركة تساليا، لجأ الى بطليموس في مصر ، الذي كان قد اعاده الى مملكته ، ولكن هذا قتله . ولا ريب في ان جميع هذه الحوادث تعود الى نفس الاسباب ، ومع هذا فأن ما تبديه الجمهوريات من ظلم يقل عما يبديه الامراء ، بينما يكون ما

---

١ ديمتريوس الاكبر ملك مقدونيا (٢٩٤ – ٢٨٦) ق. م. ولد عام ٣٣٥ ، وتمكن من انقاذ بلاد اليونان من حكم البطالسة وأصبح مسيطراً على اثينا ، ثم استدعي لتولي الملك في مقدونيا بعد مصرع ملكها الشاب الاسكندر ، ولكن ليزيماخوس تمكن من طرده عندما غزا مقدونيا فلجأ إلى اثينا حيث اسيئت معاملته ومنها إلى كليكيا . واستسلم للسلوقيين في سوريا حيث مات في السجن عام ٣٨٣ ق. م. – المعرب –

تبديه من اعتبار متفوقاً على ما يبدونه .

ويجد الانسان ايضاً ، انه حيث يوجد الخوف ، يكون نفس الموقف من الاتفاقات والمواثيق . واذا ما وجد الانسان اميراً او جمهورية ، يواجهان الدمار حرصاً منهما على الوفاء بالتزام او اتفاق،فأن هذا الموقف يرجع ايضاً الى اسباب مماثلة . وقد يحدث ايضاً ، على سبيل المثال ، بالنسبة الى امير من الامراء ، ان يكون حليفاً لأمير آخر من ذوي السلطان ، لا تتوافر لديه الفرصة للدفاع عنه في تلك الآونة،ولكنه يأمل عن طريقه في العودة الى امارته في الوقت المناسب ، او ان يكون بعد ان تعاون مع ذلك الامير ، كأحد انصاره ، قد وجد من المحال عليه العثور على اي من اعداء الامير ليعقد معه اتفاقاً او يصل الى تفاهم .

ولقد كان هذا مصير جميع الامراء في مملكة نابولي ، الذين تبنوا قضية الفرنسيين . وكان هذا ايضاً مصير بعض الجمهوريات ومصير ساغونتوم في اسبانيا التي وجدت نفسها تواجه الدمار ، لأنها كانت قد تبنت قضية رومة ، ومصير فلورنسة ، التي ظلت في عام ١٥١٢ على ولائها لقضية الفرنسيين .

واذا ما اخذنا جميع هذه الامور بعين الاعتبار ، على اي حال ، فأنني ارى ، انه في الحالات التي يكون فيها الخطر ماثلاً،يمكن الاعتماد على الجمهوريات اكثر من الامراء . اذ على الرغم من ان الجمهوريات قد تحمل نفس ما يحمله الأمير من نوايا ورغبات ، الا انها تكون في العادة اكثر بطئاً في العمل،وتحتاج الى وقت اطول من الامير في الوصول الى قرار . ولهذا فأن الجمهوريات تستغرق من الوقت في نقض اية معاهدة اكثر مما يستغرقه الأمير . وتنحل الائتلافات سعياً وراء بعض المنافع ، وتكون الجمهوريات في هذا الصدد اكثر تمسكاً باتفاقاتها من الامراء . وهناك امثلة عدة يمكن روايتها عن معاهدات خرقها الامراء سعياً وراء المنافع التافهة ، وعن معاهدات اخرى لم تنقضها الجمهوريات بالرغم من

المنافع الكبيرة التي كانت من نصيبها لو نقضتها .

وقدوقع هذا بالنسبة الى اقتراح عرضه ثيميستوكليس (Themistocles) (١) على اهل اثينا ، الذين اعلن اليهم في خطاب القاه ، انه يحمل نصيحة صغيرة اليهم ، فيها نفع عظيم لبلادهم، ولكنه يخشى ان يعلنها جهاراً ، اذ لو فعل ذلك، فقد يضيعون فرصتهم في العمل بموجبها . وهنا اختار الاثينيون ارستيديس ليستمع الى ما يود قوله، وليقرر ما يجب ان يعملوه طبقاً لما يراه مناسباً بصدد هذا الاقتراح . وهنا اشار ثيميستوكليس الى ان جميع سفن الاغريق الحربية ، التي يرتبطون بالنسبة اليها بالتزامات تعاهدية ، توجد في مكان يستطيع الاثينيون ان يضعوا ايديهم عليه بسهولة ، وان يدمروها تدميراً كاملاً ، مما يجعلهم سادة البلاد كلها . وعندما نقل اريستديس الى الشعب ان خطة ثيميستوكليس ، تنطوي على نفع عظيم ، ولكنها تجفو الشرف الى حد اعظم ، رفض الشعب لهذا السبب ان يعمل شيئاً بموجبها .

ولو كان فيليب المقدوني في وضع الأثينيين لما فعل ما فعلوه ، ولما فعله ايضاً اي من الامراء الذين نالوا من المشاريع والفتوحات التي قاموا بها ارباحاً اكثر عن طريق نقضهم لعهودهم من تلك التي حصلوا عليها من اللجوء الى اية وسائل اخرى . وانا لا اشير بشيء هنا الى المواثيق التي يسمح لها بالانتهاء من جراء عدم تطبيقها، لأن هذا اجراء عادي . ولكنني اتحدث عن تلك المواثيق التي تنقض لسبب يخرج على المألوف ، واني لأرى بالنسبة اليها ، وعلى ضوء ما سبق لي ذكره اعلاه ، ان العامة اقل اقترافاً لمثل هذه الاخطاء من الامير ، وانه تبعاً لذلك، تكون العامة اكثر جدارة بالثقة من الامراء .

---

١ ثيميستوكليس (٥٢٤ – ٤٥٩) ق. م. قائد وسياسي يوناني . كان طموحاً ، وعارض في صباه أصحاب السلطان ولا سيما ارسيديس وأصبح سيد اثينا . دعا إلى تقوية الاسطول لمحاربة الفرس . انتصر على اسطول الفرس في سلاميس (٤٨٣) . نفاه الاثينيون فيما بعد، إذ اتهم بالاستغلال. واستقر في مغنيسيا حيث عاش حتى مماته . – المعرب –

٦٠

كانت القنصليات وجميع المناصب الأخرى في رومة تعطى لمستحقيها دون أي أشتراط يتعلق بالسن

تشهد السجلات التاريخية انه بعد ان غدت مناصب القنصلية مفتوحة امام العامة ، كانت الجمهورية الرومانية تمنح هذه الرتبة الى مواطنيها دون اية قيود من ناحية العمر أو المولد . ولم تكن مدينة رومة في الحقيقة تلقي بأي اهتمام الى مسألة السن ، وكان كل ما تنشده هو الفضيلة ، سواء أوجدت عند الشبان او الكهول . ولقد اختير فالبريوس كورفينوس قنصلاً وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، مما يقيم الدليل على صحة ما قلت ، وذلك لانه قال في خطاب ألقاه في جنوده ، ان القنصلية هي « جائزة الفضيلة لا جائزة طيب المنبت » .

أما ان يكون هذا الاجراء صحيحاً وتجوز التوصية به ، أولاً فقضية تحتمل الكثير من الاسئلة . ولقد كانت الحاجة هي التي دفعت بالرومان الى تجاهل طيب المنبت ، ولا ريب في ان الحاجة التي مرت بها رومة، قد تعمل عملها في كل دولة ، يقدر لها ان تلقى نفس النجاح الذي حققته رومة ، كما سبق لنا ان لاحظنا في مناسبات اخرى . فليس في مكنة المرء ، ان يقذف بالناس في مواطن الازعاج ، دون ان يكافئهم كما لا يمكن ان يحرموا من الأمل في الحصول على المكافأة دون ان يتعرضوا الى الخطر . ولقد غدا من المصلحة تبعاً لذلك ، ان يعطي العوام كل فرصة تدعوهم الى الأمل في الوصول الى القنصلية ، وهو أمل كان يداعب مخيلتهم منذ أمد بعيد دون ان يتمكنوا من تحقيقه . ولم يعد مجرد الأمل كافياً ، وغدا من المصلحة ان يوضع موضع التنفيذ . واذا لم يكن في وسع دولة ان تفيد من عوامها ، في أي مشروع عظيم، فان

في وسعها ان تعاملهم على النحو الذي تشاؤه ، وهي نقطة سبق لنا بحثها في مكان آخر ، ولكن اذا رغبت هذه الدولة ، في ان تفعل ما فعلته روما ، فان عليها ان لا تبقي على أي تمييز .

ومتى تم منح هذا،فلا يمكن ان يقوم ثمة أي مبرر يدعو الى التمييز بالنسبة الى السن . بل على النقيض من ذلك ، يصبح من الضروري ، اهمال موضوع السن . والسبب في ذلك، انه في حالة تعيين رجل شاب في منصب يتطلب تعقل الكهول من الرجال ، يجد المرء انه اذا اصبح حق الانتخاب ملكاً للجماهير فانها لا تختار للمنصب الا رجلاً حقق بعض الأعمال العظيمة والضخمة . وعندما يتميز شاب بالفضيلة (الشجاعة) التي رافقت عملاً عظيماً من اعماله ، يغدو موضع حديث الجميع ، فان من العار كل العار ان لا تنتفع الدولة من خدماته ، وان يضطر هذا الشاب الى الانتظار حتى يكبر سنه ، ويكون في غضون ذلك قد فقد ما يميزه من نشاط عقلي ومن سرعة في العمل ، كان في وسع بلاده ان تستغلها في الوقت المناسب استغلالاً نافعاً . وهكذا افادت روما من فاليريوس كورفينوس ومن شيبيو وبومبي وكثير غيرهم من الذين نالوا لها انتصارات رائعة في شرخ شبابهم .

الكتاب الثاني

نموّ الامبراطوريّة الرّومانيّة

« يعالج الكتاب الثاني الوسائل التي اعتمدتها رومة في توسيع امبراطوريتها . ويستند هذا الكتاب على الوصف الذي جاء به تيتوس ليفي ، للحروب التي خاضتها رومة » .



الكتاب الثاني

المقدمة

يدأب الناس عادة ، ولكن ليس دائماً ، ولهم في ذلك كل ما يبرر لهم عملهم ، على اطراء الايام السالفة وانتقـاد الحاضر ، ويكون في اطرائهم للماضي نحو من التحيز،بحيث لا يكتفون بالاعراب عن اعجابهم بالعصور القديمة ، التي وصلت اليهم انباؤها في السجلات المكتوبة ، بل يقبلون عندما يطعن بهم السن ايضاً على تذكر كل ما مر بهم في شبابهم. وعندما يكون هذا الرأي خاطئاً ، وهو خاطىء على الغالب ، تكون ثمة كما اعتقد اسباب شتى ، تعود اليها هذه الخطيئة .

واول هذه الاسباب ، هي ما يلي . ان الحقيقة الكامـلة عن الايام الغابرة ، ليست في متناول الأيدي ، وذلك لأن ما يفضي الى الحط من شأنها ، كثيراً ما يمر به مر الكرام ، بينما ما يدعو الى ظهورها بمظهر المجد ، يتلى ويعاد بشكل مضخم ومفخّم ، بجميع تفاصيله . ويكون معظم الكتاب على نحو من الخنوع والاستكانة لطالع الفاتحين ، حتى انهم رغبة منهم في اظهار انتصاراتهم بالمظهر المجيد الذي يريدونه،لا يكتفون

بالمبالغة في اطراء اعمالهم التي تنطوي على الشجاعة ، بل يضخّمون ايضاً من مغامرات العدو ، بحيث اذا ولد بعد ذلك اي شخص في البلد المحتل او البلد المغلوب على أمره ، يجد ما يبرر له الابتهاج والاعجاب بمثل هؤلاء الناس وتلك الاوقات ، ويجد نفسه مضطراً ، بالاختصار ، لحبهم واظهار ميله اليهم .

وسبب آخر من هذه الاسباب ، هو انه لما كان الناس يشرعون في كراهية الاشياء نتيجة الخوف او الحسد ، فأنه بالنسبة الى الماضي ينعدم الدافعان الاساسيان والقويان للكراهية ، وذلك لأن الماضي لا يستطيع ايذاءك ، ولا اعطاءك المبرر لكراهيته . بينما يختلف الوضع بالنسبة الى الاحداث التي تلعب فيها دوراً والتي تراها بعينيك تمام الاختلاف ، وذلك لأنك تعرفها أدق معرفة،ولأنك تعيش على تماس مع تفاصيلها ، وتجد فيها كل ما هو سيء مختلطاً مع كل ما هو خير،بحيث لا تستطيع الامتناع عن التفكير بأنها تقل شأناً عن الماضي السحيق ، على الرغم من ان الحاضر اكثر جدارة بالثناء والشهرة من الماضي . وانا لا اشير هنا الى القضايا المتعلقة بالفنون ، لأن هذه الفنون تنطوي على الكثير من البريق الذي لا تستطيع الحدثان انتزاعه، او اضافة شيء جديد إلى المجد الذي تستحقه ، وانما اتحدث عن الأمور التي تمت الى الحياة الانسانية والاعراف البشرية ، وهي امور لا يبدو الدليل على جدارتها ماثلاً للعيان بوضوح .

وردي على كل هذا والحالة هذه ، ان من الصحيح وجود هذه العادة من اطراء الماضي ونقد الحاضر . ولا يعتبر القيام بهذا العمل ، خطيئة دائماً،اذ يجب الاعتراف ان مثل هذا الحكم يكون احياناً صحيحاً وسليماً،وذلك لأنه لما كانت الشؤون الانسانية في حالة دائمة من التمدد، فأنها تتحرك اما صعوداً او هبوطاً . وهكذا يكون في وسع الانسان ان يرى مدينة او امارة ، أتاح لها احد البارزين من ابنائها، نعمة الحصول

على دستور سياسي سليم ، وان يرى انها بفضل منشئها تمكنت من السير الى أمد ما قدماً في طريق التحسن والاصلاح . وكل من يولد في مثل هذه الدولة في مثل هذا الوقت ، يكون مخطئاً ، اذا اضفى ثناء اكبر على الماضي منه على الحاضر ، ويكون السبب في خطئه ، ما سبق لنا ذكره قبل قليل من عوامل . اما الذين يولدون في هذه المدينة او الامارة ، فيما بعد ، عندما يكون وقت تدهورها قد بدأ ، وتكون هي قد اخذت في طريق التأخر ، فأنهم لا يخطئون في حالة كهذه .

وعندما استعرض في ذهني ان الاحداث تتابع سيرها على هذا النحو ، يبدو لي ان العالم ، كان دائماً في نفس الوضع ، وانه انطوى دائماً على قدر من الخير يعادل ما انطوى عليه من الشر ، ولكن هذين ، اي الخير والشر ، كانا يختلفان دائماً من امارة الى اخرى . ويتضح لنا هذا مما نعرفه عن الممالك القديمة ، التي تبدل فيها الميزان بين الخير والشر من احدهما الى الآخر ، بسبب التبدلات التي وقعت في اعرافها بيما ظل العالم على حاله دون تغيير . والفرق الوحيد هو ان الفضيلة (الشجاعة) العالمية وجدت اولاً موطناً لها في بلاد اشور، ثم نمت وترعرعت في بلاد مادي، ومن ثم في فارس ، الى ان وصلت اخيراً الى ايطاليا وروما . واذا لم تكن هناك امبراطورية اخرى قد عمّرت بعد ايام الامبراطورية الرومانية ، حيث تركزت فيها الفضيلة العالمية ، فان المرء يستطيع ان يجد هذه الفضيلة وقد تبعثرت بين عدد من الشعوب ، التي عاش بينها رجال حياة فاضلة فلقد كانت هناك مثلاً مملكة الفرنجة ، ومملكة الاتراك ، أي مملكة السلاطين . وهناك اليوم جميع الشعوب في المانيا . وقبل ذلك كان هناك العرب ، الذين حققوا مآثر عظيمة ، واحتلوا اجزاء كبيرة من العالم ، بعد ان تمكنوا من تحطيم امبراطورية الرومان في المشرق . اذ بعد الخراب الذي حل بالرومان ظلت تلك الفضيلة التي يرغب فيها الجميع والتي يمتدحونها قائمة في جميع هذه

المناطق وهذه الوحدات المستقلة ، وما زالت تقوم في بعضها حتى الآن. فاذا قام هناك ممن ولد في هذه البلاد شخص يمتدح الماضي ويطريه مؤثراً اياه على الحاضر . فقد يكون هذا الشخص مخطئاً ايضاً . أما من يولد في ايطاليا ، ومن يكون من غير الواغلين في الجبال بقلوبهم ، او من يولد في اليونان ، ولا يكون في عواطفه تركياً ، فلهما الحق كل الحق ، في نقد عصريهما واطراء عصور الآخرين ، وذلك بسبب وجود الكثير من الامور في هذه العصور التي تستفز الاعجاب ، بينما لا يلقيان في عصريهما الا الشقاء الزائد ، وحياة الخزي والعار والمهانة ، اذ لا احترام للدين او للقوانين ، ولا توفير للتقاليد الحربية ، وانما هناك كل شيء وقد لطخته القذارة في مختلف صورها واشكالها . وتكون هذه الرذائل اكثر مدعاة للازدراء ، عندما تكون سائدة عند اولئك الذين يقتعدون مقاعد الحكم ، ويضعون القواعد للناس ، وينتظرون منهم العبادة والاعجاب .

ولكن لنعد الآن إلى نقطتنا الاساسية ، فأنا أرى انه إذا جاز ان يكون حكم الانسان متحيزاً اذ يحاول تقرير ما هو الافضل : العصر الراهن أو اي عصر سابق ، لا يستطيع الحصول على صورة واضحة وكاملة من المعرفة عنه ، كالصورة التي يحصل عليها بالنسبة الى عصره . وذلك لأن وقتاً طويلاً قد انقضى عليها ، فان هذا التحيز يجب ان لا يطبع ايضاً احكام اولئك الطاعنين في السن ، عندما يقرنون ايام شبابهم بالايام التي يعيشونها في شيخوختهم ، وذلك لأنهم قد حصلوا على درجة متساوية من المعرفة والخبرة ، بالنسبة إلى العصرين المذكورين . وليس من الحقيقي ايضاً ان يقال ان احكام الناس في المراحل المختلفة من حياتهم تكون دائماً على نفس الطريقة ، وتكون اذواقهم على نفس المنوال . ولكن لما كانت اذواق الناس تتبدل على الرغم من بقاء ظروفهم على ما هي عليه ، فمن المستحيل ان تبدو لهم الأمور على نفس الصورة ، بعد ان

تكون أذواقهم قد تغيّرت ، وتغيرت معها مصالحهم ووجهات نظرهم، عن تلك التي كانوا يحملونهـا في شبابهم . اذ لما كان الرجال عندما يطعنون في السن ، يصبحون مفتقرين الى الحيوية ، مع زيادة صواب الحكم وسداد الرأي ، فمن الحتمي الذي لا مناص منه ، ان ما بدا لهم في شبابهم خيّراً ومقبولاً ، سيصبح في شيخوختهم سيئاً وغير مقبول ، وهكذا بدلاً من الانحاء بالملامة على أوقاتهم ، يجب ان يوجهوا اللوم إلى أحكامهم .

يضاف الى هذا ان الاذواق البشرية من النوع الذي لا يشبع قط ؛ فقد خلقتنا الطبيعة على نحو لا نستطيع فيه مواصلة التوق لشيء واحد أمداً طويلاً ، ولكن طالعنا شاء لنا ان لا نحصل من هذه الاشياء إلا عـلى اقلها . وتكون النتيجة ان يظل العقل البشري مفتقراً الى القناعة بصورة مستمرة ويكون ملولاً في الغالب مما يملكه . وهذا يدفعه الى ايجاد الاخطاء في حاضره ، واطراء الماضي والتلهف على المستقبل ، مع العلم ان ليس ثمة من سبب عقلي يدفعه الى مثل هذه الحالات ، وعلى هذا فأنا لست بواثق ممـا اذا كنت استحق ان اعتبر واحداً من هؤلاء الذين يخدعون أنفسهم ، اذا كنت في مطارحاتي هذه قد بالغت في اطراء ايام الرومان القديمـة ، وعثرت على الاخطاء في ايامنا نحن . وفي الحق اذا لم تكن الفضيلة التي كانت سائدة تلك الايام ، والرذائل التي تسود يومنا هذا ، على نحو من الوضوح الذي يشبه وضوح الشمس ، فسأكون اكثر تحفظاً في اقوالي ، مخافة ان أقع في نفس الخطيئة التي ألوم الآخرين على الوقوع فيها . ولكن لما كانت الحقائق ماثلة ويستطيع كل انسان رؤيتها ، فسأكون جريئاً في أن أعلن بصراحة ما اظنه في تلك الأيام وما اظنه في أيامنـا هذه ، وذلك حتى تتحول عقول الشبان الذين سيقرأون ما كتبت من ظنوني الثانية الى الأولى ، وحتى يقلدوا ما يستطيعون تقليده منها عندما يتيح الحظ لهم الفرصة لهذا التقليد . فمن واجب الرجل الطيب ان يبيّن

للآخرين ما تم عمله باتقان،حتى ولو ان شرور العصور أو شرور الحظ لم تسمح له بالقيام بهذا العمل بنفسه ، مستهدفاً غـاية واحدة وهي ان يقوم واحد من الكثيرين يملك الطاقة ، وتحبوه السماء بعطفها ، فينفذ العمل كما يجب ان ينفذ .

ولما كنت في مطارحات الكتاب الأول قد تحدثت عن القرارات التي توصل اليها الرومان بالنسبة الى شؤون مدينتهم الداخلية ، فستتحدث في هـذا الكتاب عن الاجراءات التي قام بها الشعب الروماني لتوسيع امبراطوريته .

الكتاب الثاني
المطارحات من ١ ـ ٥

طرق التوسع

١

هل كانت الفضيلة أو كان الحظ السبب الرئيسي في حصول رومة على امبراطوريتها

يعتقد الكثيرون ومنهم بلوتارك (**Plutarch**)(١) ، وهو كاتب له وزنه الكبير ، ان الشعب الروماني ، كان مديناً للحظ في الامبراطورية التي حصل عليها أكثر من دينه فيها للفضيلة (الشجاعة) . وهو يعدد

---

١ بلوتارك (٤٦ – ١٢٠) ميلادية . فيلسوف و مؤرخ اغريقي ، حاضر في جامعة رومة ، وأصبح صديقاً للامبراطورين تراجان و هدريان . من اشهر كتبه « سير مشاهير الرجال » .
— المعرب —

أسباباً عدة حملته على اتخاذ هذا الرأي ، وبينهـا سبب يقول ان الشعب الروماني باعترافاته ، قد أقر بهذه الحقيقة ، بالنظر إلى انهم عزوا كل انتصاراتهم الى الحظ ، وأقاموا تماثيل لإلـه الحظ، اكثر من التماثيل التي أقاموها لأي إلـه آخر . ويبدو ان ليفي يتفق مع وجهة النظر هذه ، إذ يندر ان يضع على لسان أي روماني خطاباً يتحدث عن الفضيلة دون ان يجمع اليها الحظ مباشرة .

وأنا لا استطيع الموافقة على هذا الرأي مطاقاً ، ولا يمكنني ان اعتقد بإمكان الدفاع عنه.فإذا لم تكن هناك أية جمهورية على درجة من النجاح كرومة ، فإن السبب في ذلك يعود الى عدم وجود أية جمهورية اخرى تماثلها من ناحية تنظيمها بحيث تتمكن من القيام بالفتوحات التي قامت بها رومة. فلقد كانت شجاعة جيوشها هي التي حملت رومة على الحصول على امبراطوريتها، وكانت اجراءاتها الدستورية وعاداتها الغريبة التي تدين بوجودها الى مشرعها الأول،هي التي مكنتها من الحفاظ على ما حصلت عليه ، وهو ما سأوضحه مطولاً في عدد من المطارحات التالية .

ويزعم الكتاب المشار اليهم ، ان الفضل في ان رومة لم تشتبك قط في حربين كبيرتين في وقت واحد،يعود الى الحظ لا الى فضيلة الشعب الروماني ، اذ لم تشتبك رومة في حرب مع قبائل اللاتين ، حتى كانت قد هزمت السمنيين هزيمة نهائية،وأرغمت اللاتين على الدخول في الحرب للدفاع عنهم . ولم يشتبك الرومان في حرب مع التوسكانيين الا بعد ان تم اخضاع اللاتين،وبعد ان كان السمنيون قد اصابهم الانهاك من جراء ما لحق بهم من هزائم متلاحقة . ومع ذلك . فلو اتفق طرفان من هذه القوات واتحدا ، في الوقت الذي كانا لا يزالان فيه في منتهى قوتهما وتماسكهما . فإن من السهل ان يستخلص المرء ، دون ان يتطرق اليـه شك ، بأن في هذا الاتحاد نهاية الجمهورية الرومانية وخرابها . ولكن ، على أي حال ، وكيفما كان السبب، فإن الحقيقة الواقعة هي ان الرومان

لم يشتبكوا قط في حربين كبيرتين في آن واحد، وانه على النقيض من ذلك ، بجد المرء انه عندما كانت تشتعل احدى الحروب،تكون الحرب السابقة لها قد ذوت وانتهت . ويمكن للمرء ان يرى هذا الوضع بسهولة من النسق الذي وقعت فيه حروبها . ولو تركنا جانباً تلك الحروب التي نشبت قبل ان يحتل الغاليون رومة ، فإننا نجد انه في الوقت الذي كان الرومانيون يحاربون فيه « الايكوي » و « الفولسكي »لم يقم أي شعب آخر بمهاجمتهم طيلة الوقت الذي كان فيـــه اولئك ما يزالون في اوج قوتهم . ولكن بعد ان تمت الهزيمة عليهم،اشتعلت الحرب مع السمنيين، وعلى الرغم من ان اللاتين اعلنوا العصيان على رومة قبل ان يتم إخضاع السمنيين ، وتنتهي الحرب معهم ، الا ان هذا العصيان عندما وقع ، واجه تحالفاً بين الرومان والسمنيين ، الذين ساعدوا بجيوشهم الرومان على اخضاع اللاتين والقضاء على حماقتهم . وعندما انتهت الحرب مع اللاتين، عادت الحرب مع السمنيين الى الاشتعال من جديـــد . وعندما هزمت جيوش السمنيين بفضل السلسلة المتلاحقة من الانكسارات التي منوا بها ، اشتعلت الحرب مع التوسكانيين ، وما كادت هذه تضع اوزارها، حتى عاد السمنيون الى الحرب بعد وصول بيرّوس الى ايطاليا . وما كادت رومة تنتهي من أمر بيروس وترغمه على العودة الى بلاد اليونان ، حتى كانت حربها الاولى مع القرطاجنيين قد اشتعلت ، وعندما انتهت هذه الحـــرب ايضاً ، كان الغاليون جميعاً ، من جانبي جبال الألب ، قد تآمروا على الرومان،ونشبت معركة ضارية ذبح فيها الكثيرون من الغاليين بين بوبولينا وبيزا،في المكان الذي يقوم عليه الآن برج القديس فنسانت. وعندما انتهت هذه الحرب ، سادت فترة من الهدوء النسبي التي لم تقع فيها حروب هامة مدة عشرين عاماً،ولم يشتبكوا ابانها الا مع الليغوريين ومن تبقى من الغاليين في لومبارديا . وظلت الحالة على هـذا النحو الى ان نشبت الحرب « البونية » الثانية التي أدت الى احتـلال ايطاليا مدة

ستة عشر عاماً . وعندما انتهت هذه الحرب وسط الكثير من الأمجاد العظيمة ، نشبت الحرب المقدونية ، التي ما كادت تنتهي، حتى كانت الحرب مع انطيوخوس(١) وآسيا قد بدأت . وبعد ان حققت رومة الانتصارات في هذه الحروب لم تبق هناك في العالم جمهوريات او امارات تستطيع فرادى او مجتمعة ان تقف وقفة ناجحة في وجه قوات رومة .

واذا درسنا قبل ان نصل الى النصر النهائي ، النسق الذي دارت فيه هذه الحروب والاسلوب الذي اتبعه الرومان في اجراءتها دراسة وافية ، فسنرى ان هذه الحروب تميزت بطابع الامتزاج بين الحظ والفضيلة والروية ، وذلك في أوسع الحدود وأعلاها . واذا ما تطلع الانسان الى السبب في هذا الحظ ، امكنه ان يراه بسهولة ، فمن المؤكد انه عندما يكتسب امير او شعب شهرة داوية ،بحيث يخشى من يجاوره من الجيران من امراء وعامة ، من مهاجمته ، ويتملكه الخوف منه ، لا يفكر احد في مهاجمته الا اذا اضطر الى ذلك بدافع الضرورة . وهكذا يكون المجال فسيحاً أمام الدولة لتختار احدى جاراتها ، التي تؤثر ان تشن عليها حربها،في الوقت الذي تعمل فيه جادة على توطيد الهدوء والاستقرار بين جاراتها الباقيات ، وهاته الجارات ، بسبب ما توليها اياه من احترام ناتج عن قوتها وبسبب انخداعها بالأساليب التي لجأت اليها لتهدئتها وحملها على السبات،تؤثر ان تستسلم وتستكين . اما بالنسبة الى الدول الاخرى، التي تكون بعيدة ، ولا مجال للاتصال بها ، فإنها تنظر الى الموضوع وكأنه لا يهمها لبعده عنها ، ولعدم تأثر مصالحها به ، وتظل غارقة في هذه الخطيئة الى ان تجد ألسنة الحريق قد وصلت الى ابوابها ، وعندما يصل الحريق اليها ، لا تتوافر لديها الوسائل لوقفه الا عن طريق استعمال

---

١ انطيوخوس — ملك انطاكية و سورية و اجزاء من آسيا الصغرى . و هو اسم يطلق على عدد من الملوك الذين توالوا على عرش انطاكية بعد اقتسام امبراطورية الاسكندر بين قادته ، ووقوع سورية من نصيب انطيوخوس . — المعرب —

قواتها هي ، وهي قوات لن تكون كافية آنذاك ، لأن الدولة المهاجمة تكون قد غدت قوية للغاية .

وأنا لا اريد التحدث عن السمنيين الذين وقفوا يتفرجون على الشعب الروماني ، وهو ينتصر على « الفولسكي » و « الايكوي » ، مخافة ان اطيل وأسهب . وسأكتفي هنا بالحديث عن القرطاجنيين، الذين كانوا يؤلفون دولة عظمى ويحتلون مكانة كبيرة ، عندما كان الرومان يحاربون السمنيين والتوسكان ، وذلك لأنهم ، أي القرطاجنيين كانوا يحتلون كل افريقيا ويسيطرون على سردينيا وصقلية وكانت لهم السيادة على جزء من اسبانيا . وكانت هذه القوة التي يتمتعون بها بالاضافة الى الحقيقة الواقعة، وهي انهم بعيدون عن حدود الشعب الروماني ، هما السبب في عدم تفكيرهم ابداً بمهاجمة الرومان أو بمساعدة السمنيين والتوسكان . ولقد سلكوا على النقيض من ذلك، السلوك الذي يتبعه الناس عادة عندما تكون الأمور تسير سيراً سريعاً في مصلحة احد الاشخاص ، فسارعوا الى التفاهم مع رومة ، وسعوا لكسب صداقتها . ولم يدرك القرطاجنيون الخطأ الذي وقعوا فيه حتى كان الرومان قد أخضعوا كافة الشعوب التي تفصل بينهما وأخذوا ينازعونهم على السيطرة على صقلية واسبانيا . وقد وقع ما حدث للغاليين ولفيليب ملك مقدونية ولانطيوخوس ، فبينما كانت رومة تشتبك مع دولة اخرى ، كان كل واحد من هؤلاء يعتقد ان الدولة الثانية ستغلب رومة على امرها ، وان المجال فسيح أمامه لحماية نفسه منها اما بالوسائل السلمية أو بالحرب على حد سواء . واني لأرى تبعاً لذلك ، ان ما وقع للرومان من خطر في هذ القضايا ، قد يحدث لجميع الحكام الذين يسيرون على غرار الاساليب التي اتبعها الرومان، شريطة ان يكونوا مشبعين بنفس ما كان يشبعها من فضيلة .

وعلي أن اشير ونحن في هذا الصدد الى الطريقة التي كان الرومان يسلكونها عندما يدخلون مقاطعات اجنبية ، لو لم اكن قد تحدثت عنها

حديثاً مسهباً في الفصل المتعلق بالامارات ، وذلك لانني بحثتها آنذاك بحثاً وافياً . أما هنا فأرى ان اكتفي بهذه الملاحظة العابرة . وكان الرومان جد حريصين دائماً على ان يكون لهم أحد الاصدقاء في المقاطعات الجديدة ليعمل لهم بمثابة سلم يتسلقون عليه ، أو باب ينفذون منه ، أو وسيلة تمكنهم من الحفاظ عليها . وهكذا نرى ان الرومان تمكنوا بمساعدة اهل « كابوا » من الدخول الى بلاد السمنيين ، وبمساعدة « الكاميرتيني » من دخول توسكانيا وبمساعدة الماميرتيني من دخول صقلية ، وبمساعدة الساغونتين من دخول اسبانيا ، والمسينيين من دخول افريقيا، والايتوليين من دخول اليونان واليومينيين وغيرهم من شعوب الامارات من دخول آسيا ، والماسيليين والايدوي من دخول بلاد الغال(١) . وهكذا لم يكونوا مفتقرين قط الى الانصار من هذا النوع لتسهيل مشاريعهم لهم سواء في احتلال الامارة أو الحفاظ عليها . ولا ريب في ان الشعوب التي تحترم مثل هذه العادات ، تجد نفسها أقل حاجة الى الحظ من تلك التي لا تراعيها مراعاة صحيحة .

ولتعريف كل انسان بما كان للفضيلة (الشجاعة) من اثر في مساعدة الرومان على الحصول على امبراطوريتهم ، يفوق ما كان للحظ من اثر أرى ان ندرس في الفصل المقبل طبيعة الشعوب التي تحتم على الرومان قتالها ، وان نظهر مدى الاصرار الذي أظهرته هذه الشعوب في الدفاع عن حريتها .

---

١ الكابويين و الكامير تيني والماميرتيني والساغونتيين والمسينيين والايتوليين واليومينيين والماسيليين والايدوي ، اسماء قبائل واهل مدن ساعدوا الرومان في حروبهم الكثيرة التي أدت إلى بناء امبراطوريتهم طيلة قرون عدة امتدت من الرابع حتى الأول قبل الميلاد. وقد لعب جميع هؤلاء الدور الذي لعبه « الطابور الخامس » للألمان في الحرب العالمية المنصرمة . — المعرب —

٢

عن نوع الشعوب التي تحتم على الرومان قتالها ومدى الاصرار الذي اظهرته هذه الشعوب في الدفاع عن حريتهـا

لم يكن هناك من عامل صعّب على الرومان احتلال الشعوب الـتي كانت تقيم في أواسط ايطاليا وأطرافها النائية اكثر من عامل الحب الذي كانت تشعر به معظم الشعوب في تلك الآونة لأوطانها وتعشقها لحريتها . وكانت هذه الشعوب تدافع عن حريتها دفاعاً عنيـداً ، بحيث غدا من المتعـذر اخضاعهـا الا بفضيلة (شجاعة) بارزة كل البروز . وتقوم الدلائل العديدة شاهدة على المخاطر التي عرضت نفسها لها للحفاظ على حريتها او لاستعادتها ، وعلى اي مدى من الثارات التي واصلت القيام بها ضد اولئك الذين احتلوا اوطانها . وتكشف دراسة التاريخ ايضاً عن الأذى الذي لحق بالشعوب والمدن من جراء العبودية . وهناك في الحقيقة بلاد واحدة في ايامنا هذه ، يمكن ان يقال فيها انها تضم مدناً حرة ، بينما كان هناك في العهود الغابرة عدد لا بأس به من الشعوب الحرة حرية اصيلة وحقيقية ، في جميع البلدان . وفي وسع الانسان ان يرى، من الايام التي نتحدث عنها حتى اليوم ، ان شعوب ايطاليـا من جبال الالب التي تفصل الآن بين توسكانيا وبين لومبارديا ، حتى اصبع القدم في الجنوب كانت كلها حرة تمام الحرية . فلقد كان التوسكان والرومان والسمنيون مثلاً احراراً ، وكان كذلك غيرهم من الشعوب التي تقيم في انحاء اخرى من ايطاليا . ولم يكن احد ليسمع بوجود اي من الملوك فيها ، باستثناء اولئك الذين حكموا في رومة ، وباستثناء بورسينا ملك توسكانيا الذي انقرضت ذريته دون ان يحدثنا التاريخ عن طريقة انقراضها.

ومن الواضح كل الوضوح ، على أي حال، وانه في الوقت الذي فرض فيه الرومان الحصار على فيي ، كانت توسكانيا حرة تماماً . يضاف الى هذا انها كانت سعيدة بحريتها، وكانت تكره لقب الامير اشد الكراهية ، بحيث انه عندما عيّن شعب فيي ، ملكاً له في مدينته ، ليتولى الدفاع عنها، وطلب هذا الشعب معونة التوسكانيين ضد الرومان قرر التوسكانيون بعد مشاورات طويلة عقدوها ، ان لا يقدموا عوناً الى شعب فيي، طالما انه يعيش في ظل ملك يحكمه، وذلك لانهم اعتقدوا ان ليس باستطاعتهم ان يحسنوا الدفاع عن بلد وضع شعبه نفسه فيه ، تحت ظل استعباد شخص ما .

ومن السهل علينا ان نرى كيف يتولد هذا الحب عند الشعوب للحكم الذاتي ، وذلك لان التجارب تظهر ان المدن ما كانت تستطيع ان توسع من ممتلكاتها او تزيد من ثرائها الا اذا كانت مستقلة . ومن الجدير حقاً ان نلاحظ العظمة التي حققتها مدينة اثينا في غضون مائة عام ، بعد ان كانت قد تحررت من طغيان بيزيستراتوس . ولكن ما هو اكثر روعة من ذلك ، ان نلاحظ الامجاد التي حققتها رومة بعد ان تحررت من ملوكها . ومن السهل علينا ان نفهم السبب في ذلك ، فليست سعادة الافراد ورفاهيتهم هي التي تأتي للمدن بعظمتها، وانما هو رخاء المجموع وسعادته، وليس ثمة من شك في ان المصلحة العامة لا تراعى مراعاة صحيحة الا في الجمهوريات ، من حيث تنفيذ كل ما يعمل على دعمها وخيرها، ومهما خسر هذا الشخص العادي او ذاك من جراء هذه المصلحة ، فإن عدد الذين ينتفعون منها يكون كبيراً للغاية، مما يدعو الى تحقيق المصلحة العامة على الرغم من تلك الفئة القليلة التي قد تعاني من نتائجها .

ويحدث العكس من ذلك تماماً حيثما يوجد الامير ، لان ما يفعله لتحقيق مصلحته يكون مؤذياً في العادة لمدينته، ولان ما يكون في مصلحة المدينة ، يكون مؤذياً لمصلحته هو . وكنتيجة لهذا ، عندما يحل نظام

الطغاة محل الحكم الذاتي ، فإن أقل ما يفعله هذا الطغيان من شرور هو التوقف عن التقدم وعن النمو في مضماري السلطان والثراء ، مع العلم ان ما يحدث على الغالب ، بل اكثر من المعتاد ، هو ان يبدأ عهد التدهور والانحطاط . واذا شاء القدر ان يظهر طاغية ذو كفاية ، يمتاز بالحيوية والفراهة في الحرب ، ويقوم هذا الطاغية بتوسيع ممتلكاته ، فأن الفوائد التي تجنى من هذا التوسع لن تعود الى الدولة وانما له هو ، اذ انه لا يستطيع اضفاء اوسمة الشرف على المواطنين الشجعان والاخيار من الذين يتحكم في مصائرهم بطغيانه ، لانه لا يريد ان يجد مبرراً لديه للشك في امرهم . وهو لا يستطيع ايضاً ان يسمح للمدن التي يستولي عليها ، بأن تبدي خضوعها او تصبح تابعة للمدينة التي يحكمها هو بطغيانه ، لان تقوية هذه المدينة ليس من مصلحته في شيء . فمصلحته تقضي بالابقاء على الدولة مجزأة بحيث لا تقر كل مدينة او مقاطعة الا بوجوده هو كحاكمها الأوحد . وبهذه الطريقة وحدها يستطيع الانتفاع هو بشخصه لا ببلاده من ممتلكاته الجديدة . واذا أراد انسان ان يتأكد من هذا الرأي بمجموعة من الحجج الأخرى ، فان عليه ان يقرأ اكزونوفون (Xenophon) (١) في رسالته عن «قتل الطغاة» .

وليس من الغريب بعد هذا كله ، ان تكون الشعوب التي عاشت في ظل طغاة ممقوتين في العصور القديمة ، قد عملت على ان لا تتيح لهم فرصة من الراحة أو تذيقهم طعم السلام ، وان لا تكون هذه الشعوب مشغوفة بالحرية ، وتجل اسمها اجلالاً عظيماً ، كما حدث تماماً عندما قتل هيرونيموس، حفيد هيرو السراقوزي في سراقوزة ، وعندما وصلت

١ اكزونوفون (٤٣٥ – ٣٥٤) ق. م. مؤرخ اغريقي ، وكان قائداً عسكرياً في اثينا. كان من أصدقاء سقراط ومن حوارييه ، التحق بخدمة كورش ملك الفرس،وكان ميالا إلى اسبارطة وضع عدة مؤلفات تاريخية وفلسفية منها كتاب يدعى « هيرو » عن الطغيان .

– المعرب –

انباء مصرعه الى جيشه الذي لم يكن آنذاك بعيداً كل البعد عن المدينة . فقد وقع اضطراب في بادىء الامر ، وحمل بعض الرجال السلاح ضد اولئك الذين صرعوه،ولكن عندما أدركوا ان الهتاف في سراقوزة تعالى للحرية ، طربوا للغاية من سماع اسمها ، وسرعان ما هدأت ثائرتهم ، وتخلوا عن سخطهم على قتلة الطاغية ، وشرعوا في دراسة أحسن السبل لتنظيم الحكم الذاتي في المدينة .

وليس من المدهش ايضاً ان تكون الشعوب متعطشة كل التعطش للثأر من اولئك الذين اغتصبوا حريتها وقضوا عليها . وهناك أمثلة لا عد لها ولا حصر على هذا الوضع ، ولكنني اقترح الاكتفاء بواحد منها فقط، وهو ما وقع في كورسيرا ، احدى مدن اليونان ، ابان حرب البلوبونيز. وكانت اليونان منقسمة آنذاك إلى حزبين ، أحدهما يؤيد الاثينيين والآخر يؤيد الاسبارطيين . وكانت النتيجة وقوع خلافات داخلية في عدة مدن، اذ كان البعض ينادي بالتحالف مع اثينا بينما كان البعض الآخر يدعو إلى التحالف مع اسبارطة . وقد وقع الحادث في كورسيرا ، حيث كان النبلاء هم أصحاب الكلمة العليا ، وكانوا قد حرموا الشعب من حريته. وتمكن الشعب بمؤازرة الاثينيين من تجميع قواه ، والقبض على كافة النبلاء وحصرهم في سجن يتسع لهم جميعاً،حيث نقلوهم منه في جماعات تتراوح بين الثمانية والعشرة ، بحجة الرغبة في ابعادهم الى انحاء متعددة، ثم اعدموهم بقسوة متناهية في كثير من الحالات . وعندما سمع من تبقى منهم بما حدث أخذوا يتدارسون ما اذا كانت هناك اية وسيلة ممكنة لانقاذ أنفسهم من هذه الميتة المعيبة . وبعد ان سلحوا أنفسهم بكل ما وقعت عليه ايديهم ، دافعوا عن مدخل السجن ، واشتبكوا في معركة مع اولئك الذين حاولوا الدخول اليه . وكانت نتيجة ذلك ، انه عندما انتشرت شائعات ما حدث ووصلت الى الشعب ، جاء أفراده في حشد ضخم ، وانتزعوا الطابق الأعلى من البناء وسقفه ، وخنقوا من بداخله

تحت الانقاض . وقد حدثت وقائع مماثلة تحمل نفس هذا الطابع المرعب فيما بعد في هذه البلاد وهكذا نرى ما في القول بأن الحرية التي تغتصبها سرعان ما يثأر لها بعنف اشد من ذلك الذي يثأر به لحرية تحاول بوسائل ماكرة اغتصابها من حق وصدق .

واذا كان هنـــاك من يسأل نفسه ، كيف يحدث مثلاً ان تكون الشعوب القديمة اكثر تعشقاً للحرية من شعوب اليوم ، فانني اعتقد بأن الرد على هذا السؤال ، يقوم في ان هذا الوضع ناجم عن نفس السبب الذي يجعل الناس اليوم أقل جرأة مما كانوا عليه في الماضي ، وهو سبب يقوم كما اظن في الخلاف الموجود بين تعليمنا وبين التعلم في الايام الغابرة وذلك نتيجة للبون الموجود بين ديانتنا اليوم وديانة تلك الايام . فديانتنا التي علمتنا الحقيقة والطريقة الصحيحة في الحياة ، تقودنا الى التقليل مما نوليه من تقدير للتكريم الدنيوي . وهذا هو السبب الذي يدعو «السادة» الذين كانوا يجلون هذا التكريم الدنيوي اكثر من اجلالنا له ، والذين كانوا ينظرون اليه كخير ما يأتيهم من خير ، وهي نظرة تتمثل في اعمالهم التي انطبعت بطابع التفوق في العنف على ما يطبع اعمالنا منه . ويتضح هذا في الكثير من أنظمتهم . ولنبدأ أولاً بالمقارنة بين عظمة قرابينهم والتواضع الذي يميز قرابيننا . فطقوس تقديمنا للقرابين رقيقـة وناعمة ، بدل ان تكون آمرة وقوية ، وليس فيها من عرض للشجاعة او للشراسة . أما طقوسهم ، فلم تكن تفتقر إلى الفخفخـــة ولا إلى الروعة ،وكانت هناك بالاضافة اليها مراسيم قربانية يكثر فيها سفك الدماء وتتميز بالقسوة والشراسة ، اذ تذبح فيها اعداد كبيرة من الحيوانات . وكانت هذه المناظر بالنسبة الى فظاعتها ، تحمل الناس على اكتساب صفة الفظاعة ايضاً . يضاف الى هذا ان الديانة القديمة لم تكن تضفي الأمجاد السماوية عـــلى الرجال الا اذا كانوا مفعمين بالامجاد الارضية ، كقادة الجيوش مثلاً ، وحكام الجمهوريات . وقد مجدت ديانتنا المتواضعين من

الرجال والميالين الى التأمل بدلاً من تمجيد رجال العمل . وقد وضعت للرجل مثله العليا في الخير والتواضع وانكار الذات واحتقار الاشياء الدنيوية بينما وضعت الديانة الاخرى للرجل مثله العليا في العظمة والقوة البدنية ، وكل ما يدعو الى بعث الجرأة في قلوب الناس. واذا كانت ديانتنا تطلب من الرجل ان يكون قوياً، فأن القوة التي تطلبها فيه، هي ما يمكنه على احتمال الآلام لا على القيام بالامور التي تتطلب الجرأة .

ويبدو ان هذه الصورة من صور الحياة، قد أدت الى اضعاف العالم، والى تقديمه فريسة سائغة للشريرين الغلاظ القلوب ، الذين يقومون على ادارته بنجاح وامان ، طالما انهم يعرفون ان عامة الرجال الذين اتخذوا من الفردوس غاية لهم ، يدرسون الطريقة المثلى للاحتمال ، لا الطريقة المثلى للثأر لما اصابهم من اضرار . ولكن على الرغم مما يبدو على العالم من ضعف وتخنث ، وعلى الرغم مما يبدو على السماء من عجز ، فأن هذا الوضع ناجم ولا ريب عن احجام اولئك الذين فسروا ديننا في حدود « دعه يعمل » لا في حدود الشجاعة وتعابيرها . اذ لو فكر هؤلاء بأن الدين يسمح لنا بأن نمجد وطننا وان ندافع عنه ، لرأوا انه يريد منا ايضاً ان نحبه ونجله، وان ندرب انفسنا على النحو الذي يمكننا من الدفاع عنه .

ولا ريب في ان هذا الشكل من اشكال التربية ، وهذه التفاسير السيئة والخطيرة ، هي التي تدعو الى الحقيقة الماثلة وهي اننا نرى في العالم عدداً أقل من الجمهوريات مما كان عليه في الايام السالفة ، واننا لا نجد تبعاً لذلك لدى الشعوب نفس تعشق الحرية الذي كان قائماً لديها في الماضي . ومع ذلك ففي استطاعتي ان اصدق تماماً ان الامبراطورية الرومانية التي تمكنت بقواتها المسلحة وآرائها المهيبة ، من ازالة جميع الجمهوريات من خارطة الوجود بما تنطوي عليه من أنظمة مدنية ، كان السبب في كل ما وقع . وعلى الرغم من ان التفسخ قد اصاب الامبراطورية

الرومانية فيما بعد ، إلا ان مدنها لم تتمكن أبداً من العودة الى التجمع والالتحام ، او من اقامة نظام دستوري ، الا في جزء أو جزءين من الامبراطورية .

على أي حال ، ومهما كان الوضع ، واجه الرومان في جميع أنحاء العالم ، مهما كانت صغيرة ، التحاماً يضم عدداً من الجمهوريات الحسنة التسلح ، والعنيدة عناداً متطرفاً في الدفاع عن حريتها ، مما يظهر انه لو لم تكن فضيلة الرومان (شجاعتهم) ، من طراز نادر ورفيع للغاية لما تمكنوا أبداً من التغلب عليها . واني لأكتفي بسرد مثال واحد ، يقيم الدليل على صحة ما أقول ، وهو مثال السمنيين . فمن الامور البارزة كما يعترف ليفي ،ان يكونوا على هذا النحو من القوة وان تكون اسلحتهم على هذه الدرجة من المضاء ، بحيث استطاعوا ان يصمدوا أمام الرومان حتى ايام بابيريوس كيرسور ، القنصل ، وابن بابيريوس الاول ، أي ان يصمدوا امامهم مدة ست واربعين سنة على الرغم من الهزائم المفجعة التي منوا بها ، وعلى الرغم مما لحق بمدنهم من خراب ،وبسكان بلادهم من تقتيل وذبح ، وهي مذابح بلغت من ضخامتها الى الحد الذي غدت فيه هذه البلاد التي كانت مأهولة في الماضي بعدد كبير من المدن والسكان ، خالية مهجورة ، بعد ان كانت ذات يوم حسنة النظام قوية ، وكان في مكنتها ان لا تقهر لو لم تواجه فضيلة كفضيلة الرومان .

يضاف الى هذا ان من السهل علينا ان نعرف من اين نشأ هذا النظام ، وكيف جاءت الفوضى لتحل محله . فكل شيء راجع الى الاستغلال الذي كان سائداً آنذاك ، والى العبودية التي تسود اليوم . وذلك لأن جميع المدن والبلاد التي تتمتع بالحرية من جميع نواحيها ، كما سبق لنا ان قلنا ، تنتفع من ذلك انتفاعاً عظيماً . وحيثما توجد الشعوب المتزايدة في عدد سكانها ، فأن ذلك يرجع إلى الحرية ، التي تعقد فيها عقود الزواج ، والى ان هذه الحرية مشتهاة للغاية من الناس . ويحدث هذا

عندما يكون كل انسان على استعداد لانجاب الاطفال ، طالما يؤمن بأن في استطاعته تنشئتهم ، ويشعر بالطمأنينة الى ان ارثه لن يسلب منه ، ويعرف بأن اولاده لن ينشأوا احراراً ، لا عبيداً فحسب ، بل انهم اذا كانوا فضلاء (شجعاناً) ،اتيحت لهم الفرصة لكي يصبحوا حكاماً. ويلاحظ المرء أيضاً ، كيف ان الثروات تتضاعف هنالك وتكثر، سواء منها ما تنتجه الزراعة، او ما تنتجه الفنون والحرف . فكل انسان تواق الى اكتساب اشياء كهذه ، والى الحصول على الممتلكات ، شريطة ان يكون مقتنعاً من انه سينعم بها اذا ما اصبحت في حوزته.وهكذا يحدث بعد ذلك ، ان يتطلع الناس في ميدان منافسة الواحد منهم للآخر ، الى منافعهم والى منافع الجمهورية في وقت واحد،وهكذا يصبح في الامكان تحقيق تقدم رائع في كلا المجالين . ويحدث نقيض هذا تماماً في البلاد التي تعيش في عبودية ، وكلما كانت هذه العبودية اقوى وأشد ، كلما تدنى الرخاء الذي ألفوه .

ولا ريب في ان أقسى انواع الاستعباد ايضاً ، هو ذلك الذي يخضعك الى جمهورية . والسبب الأول في ذلك ، ان هذا النوع يكون أكثر خلوداً وبقاءً ، ولا أمل مطلقاً للخلاص منه ، أما السبب الثاني فهو ان هدف الجمهورية هو حرمان جميع الاتحادات الاخرى من حيويتها، واضعافها طمعاً منها في ان يؤدي ذلك الى زيادة الاتحاد الذي يلتف حولها . أما الأمير الذي يجعل منك فرداً من رعاياه ، فلا يقدم على هذا الا اذا كان متوحشاً يخرب البلاد ، ويدمر كل ما قام به الانسان من عمل للحضارة ، كما يفعل امراء المشرق تماماً . واذا كانت تنظيماته على النقيض من ذلك انسانية ، وسلك سلوكاً دستورياً ، فأنه يكون على الغالب مشغوفاً شغفاً متساوياً بكافة المدن الخاضعة له ، ويتركها وشأنها تملك كل ما لديها من فنون وما بيديها من تنظيمات عريقة . وهكذا فاذا لم تتح الفرصة لهذه المدن للتكاثر والتوسع كما تفعل ذلك المدن الحرة ،

فانها لن تصاب بالدمار الذي تصاب به المدن المستعبدة . وانا اشير هنا الى العبودية التي تحل بالمدن التي تخضع للحكم الاجنبي ، اذ سبق لي ان تحدثت عن تلك المدن التي تخضع لأحد مواطنيها .

وكل من يفكر تبعاً لذلك ، في كل ما سبق لي قوله ، لا يجد من المستغرب ما كان عليه السمنيون من قوة عندما كانوا احراراً ، ولا ما وصاوا اليه من ضعف فيما بعد عندما غدوا يعيشون في بلد خانع مستعبد. ويؤكد تيتوس ليفي هذه الحقيقة في أكثر من موضع ، ولا سيما عند وصفه للحروب التي دارت مع هانيبال ، حيث يظهر كيف ان السمنيين بعد ان عانوا من سوء المعاملة التي وجدوها عند فيلق كان يرابط في نولا ، بعثوا برسلهم الى هانيبال ، يطلبون نجدته وعونه . ولقد ذكروا في خطابهم الذي بعثوا به الى هانيبال ، انهم قد قضوا مائة عام في حروب مع الرومان ، لم يستخدموا فيها غير قواتهم وغير ضباطهم ، وانهم كثيراً ما تمكنوا من الصمود أمام جيشين قنصليين ،يقودهما قنصلان، بينما غدوا اليوم في وضع دقيق ، بحيث لا يستطيعون الصمود في وجه فيلق روماني صغير يرابط في نولا .

٣

غدت رومة مدينة عظيمة عن طريق تحطيمها المدن التي كانت حولها ، وسماحها للاجانب بالوصول بسهولة إلى أوسمة الشرف عندها

أخذت رومة في غضون ذلك ، تنمو وتكبر على انقاض ألبا(١) .

١ قرية قديمة في ايطاليا تقوم في المكان الذي بنيت فيه رومة ، كانت تقوم على تلال تحمل اسم التلال الالبية ، وعاد الرومان فبنوا مدينة جديدة بهذا الاسم في مقاطعة بيد مونت على بعد ٤٢ ميلا إلى الجنوب الشرقي من تورين . ويسكنها اليوم نحو من ١٧ الفاً . — المعرب —

وعلى اولئك الذين يخططون لتحويل مدينة الى امبراطورية عظيمة ان يلجأوا إلى كل وسيلة متوافرة لهم ، ليحشروا في مدينتهم اكبر عدد من السكان، اذ ما لم تكن المدينة تضم عدداً ضخماً من السكان ، فليس في وسعها ان تفعل الكثير.وهناك وسيلتان للحصول على زيادة عدد السكان احداهما وسيلة سلمية يكون سبيلها الود ، وثانيتها القوة . وتكون الطريقة الودود ممكنة ، عندما تظل الطريق مفتوحة امام الغرباء ، وسلمية بالنسبة اليهم، ولا سيما اولئك الذين ينوون الرحيل اليها والاقامة فيهـــا ، بحيث يشعر كل واحد منهم بالسعادة اذا ما تحققت له نيته . ويلجأ الى وسيلـــة العنف عندما يلحق الدمار بالمدن المجـــاورة ، ويبعث بأهلها للاقامة في تلك المدينة . وقد راعت رومة هذا العرف اصدق مراعاة،بحيث عندما حل عهد ملكهـــا السادس ، كان يقيم فيها نحو من ثمانين الف رجل يحملون السلاح . ولقد حاول الرومان ان يفعلوا في هذا الصدد ما يفعله المزارع الطيب ، الذي يقلّم الفروع الأولى التي تظهر من النبتـــة التي زرعها ، رغبة منه في نموها وفي إثمارها ثماراً ناضجة ، لان تقليمهـــا يمكن جذورها من جني ما تحتاج اليه من قوة ، وقد تنتج في الوقت المناسب فروعاً اكثر ايناعاً واغزر ثمراً .

ويظهر مثلا اسبارطة واثينا ما في هذه الطريقة المستخدمة في تأمين التوسع وتحقيق امبراطورية الغد ، من ضرورة ومن جدوى ، اذ على الرغم من ان هاتين الجمهوريتين ، كانتا مدججتين بالسلاح على أحسن وجه ، وكانتا تحكمان وفقاً لخير القوانين والانظمة ، الا انهما لم تستطيعا قط ان تصلا الى عظمة الامبراطورية الرومانية،مع العلم بأن رومة كانت تبدو في وضع اكثر اضطراباً منهما واقل اتقاناً في اساوب الحكم . فلقد تمكنت رومة بهذين الاسلوبين اللذين اتبعتهما من تضخيم مـــا تضمه من سكان ، واستطاعت ان تجند تحت السلاح مائتين وثمانين الف رجل ، بينما لم تستطع كل من اسبارطة او اثينا ، تجنيد اكثر من عشرين الفاً في

أي وقت من تاريخها . ولم يكن هذا ناجماً عن ان وضع رومة كان يفضل وضعيها،وانما نجم عن مجرد الفرق في طرق الاجراء التي اتبعتها. وكان ليكرجوس(١) منشيء الجمهورية الاسبارطية ، قد اعتقد بأن لا شيء ادعى الى احباط القوانين التي وضعها من امتزاج اهل مدينته بسكان جدد يفدون اليها ، ولذا فقد جهد طاقته للحيلولة دون أي اتصال بين الغرباء وبين مواطنيه . ولم يكتف بتحريم التزاوج من الغرباء، وانما حظر ايضاً تبادل المجاملات وغيرها من انواع التواصلات ، التي تقرب الناس بعضهم من بعض . يضاف الى كل هذا ، ما أعده من نقود جلدية ، بحيث لم يعد ثمة ما يغري انساناً من الخارج على المجيء الى مدينته اسباطة بتجارته او بأي من سلعه المصنوعة . وعلى هذا الاساس فقد تعذر على سكان تلك المدينة انماء عددهم بأي شكل من الاشكال .

ولما كانت جميع اعمالنا تشبه ما تقوم به الطبيعة من اعمال ، فليس من الممكن ولا من المعقول ابداً ، ان يتمكن جذع رقيق من حمل فرع ثقيل . وعلى هذا الاساس ليس في وسع جمهورية صغيرة ، الاستيلاء على مدن وممالك تفوقها قوة وتزيدها اتساعاً وضخامة ، واذا ما فعلت ذلك حقاً ، فأن ما يحدث لها هو عين ما يصيب شجرة ذات فروع تفوق جذعها ضخامة ، فمثل هذا الجذع لا يستطيع حمل الفرع الا بمشقة وصعوبة ، ويلحق به التكسر والانهيار عند اول هبة من الرياح . وهذا ما وقع بالنسبة الى اسبارطة ، فقد احتلت بلاد اليونان كلها ، ثم لما ثارت عليها طيبه ، اقتفت اثرها في العصيان جميع المدن الاخرى،وظل الجذع قائماً بلا فروع . ولم يكن في الامكان حدوث مثل هذا في رومة،

---

١ مؤسس الدستور الاسبارطي . كان من الاسرة المالكة وأصبح وصياً على ابن أخيه الصغير ، ارتحل كثيراً ، فزار كريت ومصر والجزر والمدن الايونية واسبانيا وليبيا والهند . هو الذي وضع قوانين اسبارطة العسكرية ، ومجلسي الشيوخ ،والمواطنين ووحد المملكة، وقسم الاراضي ووضع نظاماً للتعليم . — المعرب —

وذلك لضخامة جذعها الذي كان قادراً على حمل اية فروع . وقد مكنت هذه الطريقة في الاجراء ، رومة ، تبعاً لذلك ، مع عدة طرق اخرى سنتحدث عنها بعد قليل ، من ان تصبح عظيمة ومتفوقة في قوتها، وهو ما حمل تيتوس ليفي على ان يقول بسداد ما قاله : « وفي غضون ذلك نمت رومة على انقاض ألبا » .

٤

الطرق الثلاث التي اتبعتها الجمهوريات في التوسع

يجد دارس التاريخ القديم ان الجمهوريات اتبعت طرقاً ثلاثاً في توسعها . وكانت الطريقة الأولى هي التي اتبعها التوسكانيون منذ القدم ، وأعني بها تشكيل عصبة تضم عدداً من الجمهوريات التي لا أفضلية لاحداها فيها ، ولا سلطة ولا رتبة تفوق ما للاخريات فيها من سلطة ورتبة ، والتي اتبعت عند احتلالها مدناً اخرى جديدة ، نفس الطريقة التي يتبعها السويسريون اليوم ، من ضمها اليها كأعضاء مؤسسين ، أو تلك التي اتبعها الآخيون والايتوليون(١) في بلاد اليونان في العصور القديمة . ولما كان الرومان قد شنوا حروباً متكررة على التوسكانيين ، فاني سأولي هذه الحروب عناية خاصة ، لاظهر بطريقة افضل الطبيعة التي تنطوي عليها هذه الطريقة الاولى .

---

١ الاخيون احدى القبائل الثلاث التي يتألف منها الشعب اليوناني وقد هاجروا في القرن الرابع عشر قبل الميلاد وسكنوا الجنوب ، أما الايتوليون فقبائل سكنت في شمال اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد . — المعرب —

وكان التوسكانيون قبل ان يقيم الرومان امبراطوريتهم في ايطاليا ، على درجة كبيرة من القوة براً وبحراً على حد سواء . وعلى الرغم من ان التاريخ لا يتحدث حديثاً دقيقاً عن شؤونهم ، الا ان هناك سجلاً او سجلين ، وتمثالاً او تمثالين ، وكلها تعطي الدليل على ما كان لهم من عظمة . ونحن نعرف مثلاً ، انهم بعثوا الى « البحر الأعلى » ، بمستعمرة اطلقوا عليها اسم « ادريا » ، وان هذه المستعمرة كانت على درجة من النبل النسبي حتى انها منحت اسمها لذلك البحر الذي لا يزال يطلق عليه اسم « الادرياتيك » عند اللاتين . ونحن نعرف كذلك ان سلاحهم كان مسيطراً على المنطقة الممتدة من نهر التيبر الى سفوح الألب، التي تطوق هنا الجزء الرئيسي من ايطاليا ، على الرغم من انهم فقدوا سيطرتهم على تلك البلاد التي يطلق عليها اليوم اسم « لومبارديا » قبل مائتي عام من حصول الرومان على المزيد من السلطان . اذ احتل الغاليون هذه المنطقة ، بعد ان دفعت بهم الحاجة ، واستهواهم ما فيها من ثمار وخمور على الوجه الاخص الى غزو ايطاليا تحت قيادة بيللوفيزاس(١) ، زعيمهم ، فانتصروا على سكانها وأخرجوهم منها ، وأقاموا فيها حيث شيدوا عدداً من المدن الجديدة . واطلقوا على هذه المنطقة اسم بلاد الغال. نسبة الى الاسم الذي يحملونه ، وظلوا يحتفظون بها الى ان احتلها الرومان منهم . وعلى هذا الاساس ، عمل التوسكانيون وفقاً لقاعدة المساواة ، واتبعوا في التوسع الطريقة الأولى من الطرق التي سبق لي ذكرها.وكانت هناك اثنتا عشرة مدينة لعل اهمها شيوزي وفيي واريزو وفييزولي وفولتيرا وغيرها ، وكانت كلها اعضاء في العصبة وتشترك في حكم امبراطوريتها. ولكنها لم تفلح قط،على أي حال، في مد مكاسبها الى ما وراء ايطاليا، أما ايطاليا نفسها ، فقد ظل الجزء الاكبر منها سليماً، لاسباب سأعددها

---

١ قائد غالي (من قبائل الغال) مشهور . حرض قبائلها على غزو ايطاليا في القرن الرابع قبل الميلاد طمعاً في خيراتها . — المعرب —

فوراً .

وتتألف الطريقة الثانية من تشكيل الاحلاف التي تحتفظ لنفسك فيها بالقيادة ، وبالمركز الذي تقيم فيه السلطة المركزية ، وبالحق في المبادرة . وكانت هذه الطريقة هي التي اتبعها الرومان . أما الطريقة الثالثة فهي ان تحيل الدول الاخرى الى اتباع بدلاً من حلفاء ، وهي ما اتبعتها كل من اسبارطة واثينا . والطريقة الاخيرة بين هذه الطرق الثلاث غير مجدية ابداً ، وهذا يظهر بوضوح في موضوع الجمهوريتين المشار اليهما . فقد وصلتا الى حدود الكارثة ، لسبب بسيط واحد،وهو انهما بسطتا سيطرة لم تستطيعا الحفاظ عليها . فتحمّل مسؤولية حكم المدن بالقوة ، ولا سيما اذا كانت هذه المدن من النوع الذي ألف الحكم الذاتي ، عمل شاق وفي منتهى الصعوبة . وما لم تكن لديك قوات مسلحة ، على ان تكون من الطراز القوي ، فلن تستطيع فرض الطاعة عليها او حكمها . اذ لو كانت هذه خطتك ، لتحتم عليك كشيء أساسي ، ان يكون لك حلفاء يساعدونك ، وان تعمل على زيادة سكان مدينتك . ولما كانت هاتان المدينتان لم تقوما بشيء من هذين الشرطين ، فأن طريقتهما كانت غير مجدية . ولكن لما كانت رومة التي تمثل الطريقة الثانية قد نفذت هذين الشرطين،فأنها ارتقت بفضلهما الى درجة متفوقة في السلطان . ولما كانت هي الدولة الوحيدة التي سلكت هذا السلوك ، فقد كانت الدولة الوحيدة ايضاً التي غدت على هذا النحو من الحول والطول . ولما كانت أيضاً قد جعلت من عدد من الدول حلفاء لها في عرض ايطاليا وطولها،وكانت هذه الدول تعيش الى حد كبير في ظل قوانين مماثلة،ولما كانت من الناحية الاخرى قد احتفظت لنفسها ، كما سبق لنا قوله ، بمركز الامبراطورية وبحق اصدار الاوامر ، فأن هؤلاء الحلفاء، غدوا دون ان يشعروا بذلك خاضعين لنيرها ، وأخذوا يجهدون أنفسهم ويسفكون دماءهم في سبيلها. ولما بدأوا يمضون قدماً الى الامام مع الجيوش من ايطاليا،ويحيلون الممالك

الى مقاطعات تابعة ، ويخضعون اسلطانهم أقواماً لم يكن يهمها ان تغدو خاضعة تابعة لأنها الفت العيش في ظل الملوك ، وهي أقوام أخذت تجد حكامها من الرومانيين،وتجد ان الجيوش التي احتلتها كانت تحمل الشعار الروماني ، فلم تعترف بسلطة الا سلطة رومة، وجد هؤلاء الحلفاء نتيجة هذه الاوضاع أنفسهم قبل مضي وقت طويل ، وقد غدوا مطوقين من رعايا الرومان ، وتشرف عليهم مدينة هائلة كمدينة رومة، وعندما تبين لهم الخطأ الذي كانوا يقترفونه ، كان الوقت قد فات ، ولم يعـد في الامكان اصلاحه او تقويمه،لا سيا وان سلطة رومة التي اخذت تمارسها على المقاطعات في الخارج غدت متناهية في القوة ، كما غـدت الجيوش الموجودة تحت تصرفها في الداخل على جانب عظيم من الهول والضخامة، بسبب المدينة العظيمة الموجوده فيها ، وبسبب ما فيها من فائق التسلح، وعلى الرغم من ان حلفاءها ، رغبة منهم في الثأر منها على ما لحق بهم من أضرار ، بدأوا في التآمر عليها ، الا انهـم سرعان ما هزموا في الحرب،مما أدى الى تردي اوضاعهم بشكل أسوأ ، اذ تحولوا من حلفاء لرومة الى اتباع لها ورعايا . وكان الرومان وحدهم ، كما سبق لي ان قلت ، هم الذين ساروا على هذا الاسلوب من الاجـراء . وليس في وسع أية جمهورية تريد التوسع ، اتباع اسلوب آخر اذ اثبتت التجارب ان ليس ثمة من اسلوب يضاهيه في اليقين والتأكد من النتيجة .

والطريقة البديلة في تأسيس « العصبات » ، وهي التي ذكرتها آنفاً والتي تبناهـا التوسكانيون والآخيون والايتوليون في الماضي ، ويتبناها السويسريون اليوم ، هي الطريقة التي تحتل المرتبة الثانية في الأفضلية بعد طريقة الرومان . اذ على الرغم من استحالة التوسع بصورة غير محدودة عن هذه الطريقة ، الا ان لها مزيتين ، اولاهما ، انهـا لا تقحمك في الحرب بسرعة ، وثانيتهما ان في وسعك ان تحافظ بسهولة على كل ما تستطيع الحصول عليه . والسبب في ان مثل هذه الجمهوريات تعجز عن

التوسع ، هو ان اعضاءها متباعدون ولكل منهم عاصمته الخاصة ، مما يعقد عليهم امر التشاور واتخاذ القرارات ، وهي تعني أيضاً ، انهم اقل حرصاً على اكتساب الممتلكات ، اذ لما كانت جماعات عدة تشترك في تلك الاملاك ، فأنها لا توافق على مكاسب جديدة بنفس الطريقة التي تتشوق فيها جمهورية واحدة الى مثل هذه المكاسب التي تأمل في التمتع بها كلها . يضاف الى هذا ان مجلساً يدير شؤون هذه العصبة ، ومن الضروري ان يكون اكثر بطئاً في الوصول الى اي قرار من اولئك الذين يقيمون في دائرة واحدة . وتظهر التجارب ايضاً ، ان مثل هذه الطريقة في تأليف الاتحادات التعاونية (كونفيداريشين) ، تتميز بحد معين ، وليست هناك من حالة واحدة تشير إلى ان هذا الحد قد جرى تجاوزه . فهناك اثنتا عشرة او اربع عشرة جماعة ، تشترك مع بعضها ، وهي لا تريد ان تمضي الى أبعد من ذلك ، اذ بعد حصولها على المرحلة التي يخيل اليها فيها انها قد غدت قادرة على الدفاع عن نفسها ضد كل غاز، لا تحاول توسيع سيطرتها ، اما لأن الحاجة لا تتطلب منها الحصول على مزيد من السلطان او لأنها لا ترى فائدة في مكاسب جديدة للاسباب التي سبق لي شرحها . اذ يتحتم عليها في مثل هذه الحالة،ان تعمل احد امرين ، اما المضي في طلب الحلفاء ، الذين قد تؤدي زيادة عددهم الى الاضطراب ، او فرض السيطرة والتبعية على الآخرين ، وهو ما لا تأبه بعمله لما تراه فيه من صعوبة ولما تعتقده فيه من عدم جدوى .وعلى هذا فعندما تكون قد وصلت الى العدد الذي يبدو لها كافياً لتأمين سلامتها تكرس نفسها لشيئين اولها قبول الحماية التي يطلبها البعض والتعهد بها ، فتحصل بذلك على المال من كل ناحية وتتوزعه بين أعضائها ، وثانيها القيام بالحروب في سبيل الآخرين ، فتقبض من هذا الامير او ذاك من الذين يكونون على استعداد لانفاق المال تنفيذاً لمشاريعهم .

وهذا هو عين ما يفعله السويسريون اليوم، كما نشاهد ويشاهد الآخرون.

وهو عين ما فعلته الدول التي ذكرناها آنفاً ، طبقاً لما قرأناه عنهـا . ويشهد تيتوس ليفي على ذلك ، عندما يحدثنا انه في الاجتماع الذي عقده فيليب ملك مقدونيا وتيتوس كوينتيوس فلامينيوس ، تحدث الرجلان الى بعضهما حديثاً ودياً بحضور قاض (Praetor)(١) من الايتوليين وان هذا الايتولي جاء ليتحدث الى فيليب الذي عنّفه على ما يبديه قومه من جشع ومن خداع ومخاتلة زاعماً ان الايتوليين لم يخجلوا من الحـرب الى هذا الجانب اولاً ، ثم سمحوا لرجالهم بالخدمة في جانب عدوه ، بحيث يبدو شعار الايتوليين دائماً في جيشين متحاربين . وهكذا نجد ان هذا الاسلوب في تأليف « العصبات » كان دائماً هو نفس الاسلوب وقـد ادى ايضاً الى نفس النتائج . ونجـد ايضاً ان هذه الطريقـة في الحصول على الاتباع ، قد انطوت دائماً على الضعف ولم تؤد الا الى منافع ضئيلة . وان اولئك الذين مضوا بعيداً وراء الحدود المعقولة ، كانوا يلقون الدمار بسرعة . يضاف الى هذا انه في حالة كون هذا الاسلوب في الحصول على الاتباع غير مجد بالنسبة الى الجمهوريات المسلحة ، فانه غير مجد كلية بالنسبة الى اولئك الذين لا سلاح لديهم ، وهو ما قام الدليل على صحته في الحالة التي تعيشها الجمهوريات الايطالية في يومنا هذا .

ومن هـذا يتضح ان الطريقة المثلى التي يجب اتباعها هي تلك التي اتبعها الرومان ، وهي طريقة تبرز اهميتها في ان الرومان كانوا السبّاقين اليها ، وفي ان اية دولة اخرى لم تحذ حذوهم فيها منـذ ذلك التاريخ حتى اليوم . اما بالنسبة الى العصبات ، فاننا لا نراها اليوم قائمـة الا

١ – لقب قاض كان يطلق على القنصل الروماني الذي يقود الجيش في البداية . ثم أصبح بعد عام ٣٦٦ ق.م. يطلق على القاضي الذي ينتخب في كل عام لادارة شؤون القضاء ، و يكون تابعاً للقنصل. و غدا المركز متاحاً للعوام عام ٣٣٧ ق.م. ثم أخذ الرقم يرتفع إلى أن أصبح ثمانية عشر في عهد الاباطرة المتأخرين . – المعرب –

عند السويسريين والا عند العصبة السوابيه (Swabian) (١) التي اقتفت اثرهم فيها . وأود ان اقول في نهاية الحديث عن هذا الموضوع ، ان الكثير من الانظمة التي رعاها الرومان ، والتي تمت الى الشؤون الداخلية والخارجية لا يكتفى بعدم السير على منوالها في الوقت الحاضر فحسب، بل تعتبر شيئاً لا يستحق الاهتمام ، طالما ان بعضها ينظر اليه على انه من الاساطير والخرافات ، بينما ينظر الى البعض الآخر على انه اسلوب غير عملي ، والى البعض الثالث على انه غير مجد وغير مناسب . وهذا يؤدي الى انه بالنسبة الى هذا الجهل ، فاننا في ايطاليا غدونا فريسة هينة لكل طامع في اجتياح هذه البلاد ومع ذلك فاذا كان السير على منوال الرومان يبدو شاقاً للغاية ، فان اقتفاء اثر التوسكانيين القدامى قد لا يبدو على هذا النحو من الصعوبة ولا سيما بالنسبة الى توسكانيي اليوم . اذ على الرغم من انهم عجزوا عن اقامة امبراطورية كأمبراطورية الرومان للاسباب التي ذكرناها ، فقد تمكنوا من الحصول على سلطان في ايطاليا من النوع الذي يهيؤه ذلك الاسلوب من الاجراء . وكان هذا السلطان سليماً وأميناً الى أمد طويل،وقد صاحبه سجل طويل من الامجاد الامبراطورية وامجاد السلاح على مستوى عال،ومن الاعراف والتقاليد الدينية التي تستحق كل اطراء . ولم يضعف هذا السلطان وذلك المجد الا على ايدي الغاليين في البداية ، ثم انتهى امرهما على ايدي الرومان ، وكانت هذه النهاية كاملة أقصى حدود الكمال،حتى ان ذلك السلطان الضخم الذي تمتع به التوسكانيون قبل الفي عام ، قد عفي على اثره ، فلم يبق منه ما يشير الى وجوده. وهذا يقودني الى التفكير بالامور التي تضيع في عالم النسيان، وهي نقطة

١- نسبة إلى سوابيا وهي دوقية المانية في العصور الوسطى و تقع بين سكسونيا و بافاريا وفرانكونيا والراين . وقد الفت مدنها في عهد الامبراطور شارل الرابع (١٣١٦ - ١٣٧٨) عصبة اسموها العصبة السوابية تشرف على اقامة النظام فيما بينها و ظلت قائمة حتى عام ١٥٣٤ ، عندما حلت بصورة نهائية . - المعرب -

سأتولى البحث فيها في الفصل التالي .

٥

ما يحدث في الدين واللغة من تبدلات مع الكوارث التي تحل من فيضانات واوبئة تعفي على آثار الماضي وسجلاته

للرد على الفلاسفة الذين يودون القول بأن العالم سرمدي خالد ، أرى ان خير جواب يمكن تقديمه ، هو انه لو كان العالم ، حقاً على هذه الدرجة من القدم ، فان من المعقول ان نتوقع وجود سجلات تعود في تاريخها ، الى أكثر من خمسة آلاف عام ، ولكن الم نر كيف ان سجلات العهود الغابرة قد عفت عليها اسباب عدة يعود بعضها الى الناس والبعض الآخر الى اعمال السماء . والاسباب التي تعود الى الناس هي التبدلات التي تقع في الانظمة الدينية وفي اللغة . وذلك لانه عندما تظهر الى الوجود انظمة دينية جديدة ، اي دين جديد ، يتجه هم هذا الدين الأول ، حفاظاً على سمعته الخاصة الى ازالة الانظمة السابقة من الوجود، وعندما يكون منشئو الدين الجديد يتحدثون بلغة مختلفة ، فان اللغة السابقة سرعان ما تزول وتختفي . وتتضح الصورة لنا ، اذا درسنا الاجراءات التي قامت بها المسيحية لازالة الوثنية،من الغاء لجميع انظمتها، وطقوسها وقضاء على السجلات التي كانت تضم لاهوتها . ومن الحق ان يقال على أي حال،ان المسيحية لم تفلح تماماً في ازالة كل آثار ما قام به الرجال البارزون من اتباع الديانة القديمة وسجلاتهم ، وذلك بسبب الابقاء على

اللغة اللاتينية التي وجدت نفسها ملزمة بالابقاء عليها، لاستعمالها في تدوين شرائعها الجديدة . ولو تمكنت المسيحية من كتابتها بلسان جديد ، لما عثرنا على أي سجل من سجلات الماضي ، هذا اذا اخذنا بعين الاعتبار الطريقة التي اتبعتها في المسائل الاخرى .

وكل من يقرأ الاجراءات التي اتخذها القديس غريغوريوس(١)وغيره من قادة الديانة المسيحية يستطيع ان يرى،ما اثاروه من ضجة للخلاص من جميع سجلات الماضي ووثائقه ، وكيف أحرقوا ما وضعة الشعراء والمؤرخون ، ودمروا الصور والتماثيل ، وأتلفوا كل شيء يشير الى العهود الغابرة بأي شكل من الاشكال . حسناً ، فلو اضيفت الى جميع هذه الاجراءات ، لغة جديدة لوجد المرء بعد فترة قصيرة ان جميع آثار الماضي قد محيت من الوجود . ويستطيع المرء ان يعتقد تبعاً لذلك ان ما فعلته المسيحية مع الوثنية ، قد فعلته هذه مع الديانة التي سبقتها. ولما كانت الديانة قد تغيرت مرتين او ثلاثاً في غضون خمسة آلاف سنة او ستة آلاف ، فقد ضاع كل ما للاحداث السابقة من سجلات ، أو لم يبق منها الا اثرها ، الذي يعتبر خرافة او اسطورة ، ولا يحظى بأي قسط من التصديق والايمان،وهو ما وقع بالنسبة الى تاريخ «ديودوروس صيقلوس(**Diodorus Siculus**) (٢) الذي يتناول فترة تمتد اربعين او

١ – يقصد به القديس غريغوريوس التوري نسبة إلى مدينة تور « ٥٣٨ – ٥٩٤ » ، وهناك اربعة قديسين آخرين يحملون هـذا الاسم ولكنهم من مؤسسي الكنيسة الشرقية . وقد درس القديس في كليرمون فيران التوراة ، وسير القديسين ، كما قرأ الاينياده وتاريخ ساللوست ، وعندما أصبح اسقفاً للمدينة ، اتبع اجراءات صارمة لحماية ابرشيته ومدينته من كل افكار تخالف الديانة ومن أعمال ملوك الفرنجة ، واشتبك في منازعات عدة مع النبلاء .

٢ ديودوروس صيقلوس – مؤرخ اغريقي عاش في اغريوم في جزيرة صقلية ، في ايام يوليوس قيصر واوغسطس . زار مصر ورومة وعاش فيها سنوات . وضع كتاباً عنوانه تاريخ المكتبات يضم اربعين مجلداً في ثلاثة أقسام ، يتناول القسم الأول منهـا التاريخ الاسطوري للشعوب غير الهلينية ، ثم تاريخ القبائل الهلينية حتى دمار طروادة ، وينتهي الثاني بموت الاسكندر ، وينتهي الثالث حتى حروب قيصر في بلاد الغال . ولم تبق من الكتاب إلا بعض مجلداته ، وهناك مجلدات مفقودة . ولم يتبع الطريقة العلمية في وضعه . – المعرب –

خمسين الفاً من السنين ، ومع ذلك ينظر اليه على انه لا يستحق الثقة ، وهو ما اعتقد به ايضاً .

أما العوامل التي تعود الى السماء ، فهي تلك التي تتولى ازالة شعب كامل من الوجود ، وتخفض عدد السكان في بعض المناطق المعينة الى عدد لا يزيد على الفئة القليلة . وقد تأتي هذه النتائج ، اما عن يد طاعون او مجاعة أو طوفان ، ولعل أهمها هو الاخير لانه اكثر انتشاراً ، ولأن من يعيشون بعده هم جميعاً من غلاظ الجبليين ، الذين لا يعرفون شيئاً عن الايام الغابرة ، ولذا فليس في وسعهم ان ينقلوا شيئاً الى ذريتهم ، وحتى لو كان بين الناجين شخص واحد لديه مثل هذه المعرفة ، فانه يخفيها حتماً ، او يشوهها بطريقته الخاصة ، ليضمن الشهرة له ولأسرته مما يؤدي الى ان كل ما يخلفه لذريته لا يعدو ما اختاره من وثائق ليس الا.

ولا اعتقد ان هنـــاك من يشك في وقوع هذه الفيضانات والاوبئة والمجاعات لأن الكثير منها قد دونته كتب التاريخ في كل ارض وقطر ومن السهل على الانسان ان يرى ما لها من اثر في الاعفاء على رسوم الماضي وآثاره ، ويبدو ان من المعقول ان تكـون كذلك . وكما يحدث للاجساد العادية البسيطة ، عندما تكون الطبيعة قد جمعت ، اكثر ممـا يلزم من المواد الزائدة ، فانها تعمل في نفس الطريقة ، وتعاد الصحة الى الجسد ، عن طريق « المسهل » الذي يتناوله الانسان . وعلى نفس هذا الاسلوب ، ما يحدث بالنسبة الى تلك الهيئة التي تضم خليطاً من الاجناس البشرية ، فعندما تكون كل مقاطعة مترعـة بالسكان الذين لا يستطيعون الحصول على أودهم من ناحية ، ولا يستطيعون الرحيل عنهـا الى مقاطعة اخرى ، لأن جميـع هذه المقاطعات تكون محتلة وملأى بالناس. وعندما يكون دهاء الانسان وشره ، قد تجاوزا الحدود الى اكثر ممـــا يستطيعان المضي ، يحتاج العالم آنذاك الى مثل هذا «المسهل» عن طريق واحدة من هذه «المسهلات» الثلاث وهي الفيضان والطاعون والمجاعـة . وهكذا

عندما يهبط عدد الجنس البشري الى قلة نسبية ، وتذله الفاقة والعوز ، قد يلجأ من يتبقى منه الى شكل اكثر صلاحاً من اشكال الحياة ، يسير به في طريق التحسن .

وهكذا فقد مرت فترة ، كما رأينا قبل قليل ، كانت فيها توسكانيا بلاداً قوية ، يخيم عليها الدين وتنتشر في ربوعها الفضيلة ، لها عاداتها الخاصة ولغتها ، وكل ما نعرفه عما يتعلق بها ان سلطان رومة،قد ازالها ومعها كل معالمها من الوجود ، ولم يبق منها ، كما سبق لي ان قلت، الا ذكريات اسمها .

الكتاب الثاني
المطارحات من ٦ ـ ١٠

الاستبطانية والحرب : أسبابها وتكاليفها

٦

طريقة شن الرومان لحروبهم

أرى بعد ان تحدثت في الفصول السابقة عن الطريقة التي اتبعها الرومان في توسيع ممتلكاتهم ، ان اتحدث الآن عن الطريقة التي ساروا عليها في شن حروبهم . وسيظهر لنا هنا ، على ضوء جميع الاعمال التي قاموا بها ، ما كانوا يتمتعون به من حكمة ، في مخالفة الاساليب المعروفة والمعهودة ليمهدوا لانفسهم الطريق في تحقيق امجاد من الدرجة الاولى . ويستهدف الذين يشنون الحروب بدافع الاختيار او الطموح ، الحصول على شيء ما ، والحفاظ على ما يكسبونه ، وان يسيروا لتحقيق ذلك

من طريق يوصل بلادهم التي هي وطنهم الى الثراء لا الى الفقر . ومن الضروري والحالة هذه في حالتي الاكتساب والحفاظ ، تجنب الانفاق ، والقيام بدلاً من ذلك بكل ما يؤدي الى نفع الناس .

ومن المناسب على ضوء كل هذا ، ان يتبع الانسان طريقة الرومان في اجراءاتهم ، وهي اجراءات تقضي على حد تعبير الفرنسيين وفي الدرجة الاولى ، بجعل الحروب قصيرة وساحقة . اذ لما كان الرومان قد زجوا بجيوش ضخمة في الميدان ، فأن الحروب التي شنوها على اللاتين والسمنيين والتوسكان ، كانت تنتهي في وقت قصير للغاية . واذا ما رجع الانسان الى السجلات حقاً ، وجد ان كل حملاتهم من البداية حتى حصار فيي ، لم تستغرق اكثر من ستة ايام في بعض الحالات او عشرة او عشرين يوماً في حالات اخرى فلقد كانت طريقتهم بعد شن الحرب مباشرة ، ان يسوقوا جيوشهم على العدو وان يشتبكوا معه فوراً في المعركة . وعندما كان النصر يتحقق لهم ، فأن العدو ، رغبة منه في منعهم من تدمير المنطقة المجاورة وتخريبها،وقطع الزرع والضرع فيها ، كان يسارع الى صلحهم ، فكان الرومان يصادرون جزءاً من أراضيه التي يسلمونها ، اما الى افراد منهم لاستغلالها او الى جماعة مستوطنة (مستعمرة) يقيمونها على حدود العدو لحماية الحدود الرومانية، مما يفيد كلاً من المستوطنين الذين يملكون الارض . والشعب الروماني ، الذي اقام له حامية هناك دون ان يتكلف شيئاً للانفاق عليها وليس ثمة من طريقة اكثر امناً،ولا اقوى تأثيراً ، ولا اجزل نفعاً من هذه الطريقة . اذ طالما ان العدو يظل بعيداً عن الميدان،فأن هذه الحامية تكون كافية ، اما اذا مضى بقوات ضخمة لمهاجمة المستعمرة ، فأن الرومان يزحفون بسرعة وبقوات كبيرة ويشتبكون معه في معركة ضارية ، وعندما ينتهون من امره ويتقرر مصير المعركة بالفوز لهم ، يعودون الى رومة بعد ان يفرضوا عليه شروطاً اكثر قسوة وشدة.وهكذا أخذوا وبصورة متدرجة،

يكتسبون سمعة أعظم من سمعة العدو ، في الوقت الذي واصلوا فيه زيادة قوتهم في الوطن .

وقد حافظوا اصدق الحفاظ على هذه الطريقة في شن الحروب ، الى ما بعد انتهاء حصار فيي ، وآنذاك شرعوا في تبديل خططهم . فلقد قرروا رغبة منهم في التمكن من خوض حروب طويلة ، ان يدفعوا رواتب لجنودهم ، بعد ان كان هؤلاء الجنود لا يتقاضون شيئاً . ولكن على الرغم من ان فكرة الرومان في دفع الرواتب الى جنودهم ، كانت تستهدف تمكينهم من شن حروب اطول ، ومن مواجهة الحالات التي يصادفون فيها حروباً في مناطق نائية ، مما يقتضي من الجنود البقاء مدة اطول في الميدان ، الا انهم لم يتخلوا قط عن مبدئهم الاساسي في انهاء الحروب بسرعة،وفق ما تسمح به الظروف الزمانية والمكانية . ولم يتخلوا كذلك عما ألفوه ، من ايفاد جماعات المستوطنين لاقامة المستعمرات .

أما بالنسبة الى الطريقة الاولى ، وهي تقصير أمد الحروب،فبالاضافة الى انها غدت اجراءهم المألوف الذي تعودوه ، كان طموح القناصل يرغمهم على اتباعها . اذ لما كانت مدة ولاية هؤلاء القناصل لا تعدو السنة الواحدة ، وكان هؤلاء يودون دائماً قضاء ستة أشهر منها على الاقل في وطنهم ، فقد كانوا يتلهفون على انهاء الحرب والانتصار فيها ليعودوا وهم يجرّون أكاليل الغار . وحافظوا على اجرائهم في اقامة المستعمرات ، بالنظر الى ما في هذه المستعمرات من فائدة ، والى ما تتيحه من فرص عظيمة . وقد أبدلوا الى حد ما الترتيبات التي كانوا يستعملونها بالنسبة الى الغنائم ، ولم يكونوا في ترتيباتهم الجديدة ، على ذلك النحو من الكرم الذي كانوا عليه في البداية . ويعود ذلك الى سببين اولها ان الغنائم لم تعد ضرورية الآن في نظرهم ، بعد ان غدا الجنود يقبضون مرتباتهم،وثانيها ان هذه الغنائم قد غدت الآن أضخم مما كانت عليه في الماضي ، ولذا فقد خيل اليهم ان التخطيط الصحيح يقضي بأن

ينتفع الشعب بأسره منها ، وهكذا لا يجدون انفسهم ملزمين بفرض الضرائب على المدينة للانفاق على مشاريعهم . وقد أدى هذا الاجراء في وقت قصير الى اثراء الخزانة العامة .

وقد أدت هاتان الطريقتان من توزيع الغنائم ومن ايفاد المستعمرات، الى إثراء رومة من حروبها، بينما كانت الحروب تؤدي الى افقار غيرهم من الامراء والجمهوريات، بالنظر الى افتقارهم الى الحكمة . ولقد مضوا بعيداً للغاية في هذا السبيل ، الى الحد الذي جعل القناصل ، لا يبدون وقد حققوا أي نصر ، الا اذا اضافوا الى انتصاراتهم الكثير من غنائم الفضة والذهب وغيرها من الاسلاب من مختلف الانواع وذلك لمنفعة الخزانة. وهكذا استطاع الرومان عن طريق هذين الاجراءين وعن طريق انهاء حروبهم بسرعة انهاك أعدائهم على المدى الطويل لهزمهم والاغارة عليهم ، والمعاهدات التي عقدوها معهم والتي كانت نافعة لهم وحدهم، مما أضفى عليهم مزيداً من الثراء والقوة .

٧

مساحة الاراضي التي كان الرومان يمنحونها إلى مستعمراتهم

أرى من الصعب علي ان اكتشف الحقيقة عن مساحة الاراضي التي كان الرومان يوزعونها عندما يشرعون في اقامة احدى مستعمراتهم ، اذ اعتمدت هذه المساحة الى حد ما ، كما اظن، على الاماكن التي كانوا يوفدون اليها جماعات مستوطنيهم . ويبدو على أي حال ، ان المستوطن

لم يكن يحصل في جميع الحالات ، وفي مختلف الاماكن على اكثر من مجرد حصة صغيرة . وكان القصد منها ان يذهب عدد كبير من الرجال اولاً الى المستعمرات ، ليؤلفوا حاميات تتولى الدفاع عن منطقة معينة ، وكان من غير المعقول ثانياً انه في الوقت الذي يعيش فيه الشعب في الوطن عيشة الفقراء ، ان يكون لمستوطنين في المستعمرات فائض في سبل العيش . ويحدثنا تيتوس ليفي ، كيف ان الرومان بعد ان احتلوا فيي ، قد أوفدوا مستعمرة ومنحوا لكل مستوطن ثلاثة « جوغيرات Jugera » ، وسبعة « اونسيات Unciae » من الارض ، وهي ما يعادل في قياساتنا الحالية ستة « افدنة » من الارض ... وقد برروا هذا التوزيع الذي يعتبر قليلاً بسبب آخر ، وهو ان المزارع لا يحتاج الى المساحة الكبيرة من الارض وانما يحتاج الى العمل فيها للافادة من فلاحتها . ولكن جميع المستعمرات ، كانت تضم بالطبع ، وبصورة حتمية اراضي عامة ، تنتجع فيها ماشيتها الكلأ والمرعى ،ويجمع منها المستوطنون اخشابهم لاشعال النيران . وهي أراض لا يمكن لأية مستعمرة ان تعيش بدونها .

٨

الاسباب التي تدفع الشعوب إلى الهجرة من بلادها وإلى اغراق أراضي غيرها ، بالهجرات الكاسحة

لما كنا قد بحثنا قبل قليل ، في الاساليب التي اتبعها الرومان في حروبهم ، وفي الطريقة التي هاجم الغاليون توسكانيا ، أرى ان ليس مما يبعد بنا عن الموضوع هنا ان نشير الى ان هناك طريقتين ، تؤديان

الى نشوب الحروب . فقد تعود الحروب احياناً الى مطامع الامراء او الجمهوريات ، وهي المطامع التي تستهدف اقامة الامبراطوريات ، والتي تنطوي تحت موضوعها ، الحروب التي شنها الاسكندر الاكبر ، وتلك التي شنها الرومان ، أو تلك التي تخوضها هذه الدولة او تلك بصورة مستمرة . وتكون مثل هذه الحروب خطرة كل الخطورة ، ولكنها لا تؤدي الى ترحيل سكان المناطق التي تتعرض للغزو ترحيلاً كلياً ، اذ ان الظافر فيها يقتنع عادة، بأن يعلن الشعب المقهور تبعيته له عن طريق الطاعة ، وكثيراً ما يدع له قوانين ، ويتركه يعيش في دياره وينعم في أثاثه . أما الطريقة الثانية التي تقع الحروب فيها فهي عندما يرتحل شعب بكامله مع أفراد عائلاته من مكان ، بسبب مجاعة او حرب ، ويمضي باحثاً عن وطن جديد ، وبلاد جديدة يعيش فيها . ولا يكتفي الشعب الغازي في هذه الحالة ، كما في الحالة السابقة بحكم البلاد التي يحتلها ، وانما يستولي على كل ما فيها ، طارداً اهلها السابقين ، او مبيداً اياهم بتقتيلهم . ولا ريب في ان هذه الحرب من أشد أنواع الحروب فظاعة وارهاباً . ولا ريب في ان سالدّوست (Sallust)(١) يشير الى هذا النوع من الحروب في نهاية كتابه « يوغورتا » (Yugurtha)،عندما يقول ، انه عندما هزم يوغورتا(٢) ، بدأ الناس يشعرون بتقدم الغزو الغالي في ايطاليا ، ويمضي متحدثاً عن هذا الغزو فيقول،انه بينما حارب الشعب الروماني الشعوب الاخرى طلباً للتفوق ، كان قتاله مع الغاليين،

١ كريسيوس غايوس ساللوست (٨٦ – ٣٤) ق. م. مؤرخ روماني من عائلة من العوام ، كان من حماة الشعب ، ولكن القنصل بولشر عزله من مجلس الشيوخ لميوله إلى قيصر ، عينه هذا حاكماً في افريقيا ، له عدة مؤلفات منها « الصراع ضد يوغورتا » .

٢ يوغورتا مات عام ١٠٤ ق. م. كان ملكاً في نوميديا (مقاطعة بين طرابلس الغرب وتونس) دارت الحرب بينه وبين رومة بعد ان هاجم يوغورتا مدينة سيرته . وقد انتصر يوغورتا في البداية على رومة ولكنه ما لبث أن هزم ، وأخذ أسيراً إلى رومة حيث مات في احد سجونها .

– المعرب –

في سبيل البقاء . ويكفي بالنسبة الى الامير او الجمهورية ، عند غزو أية مقاطعة أجنبية ، ان يخلص من اولئك الذين يحكمونها ، أما بالنسبة الى الشعوب الكاملة ، فأن من الضروري كل الضرورة ، الخلاص من جميع السكان، طالما ان الشعب الجديد يريد ان يعيش على ما كان يعيش عليه الشعب الاول .

وقد احتمل الرومان ثلاثاً من هذه الحروب المتناهية في الخطورة . وقد احتل الغاليون رومة في اولى هذه الحروب ،بعد ان كانوا كما سبق ان ذكرنا ، قد استولوا على لومبارديا من التوسكانيين ووطدوا أقدامهم فيها . ويحدد ليفي لهذه الحرب سببين ، اولهما كما سبق لنا ان قلنا ، هو ان الغاليين استهواهم ما في ايطاليا من ثمار جنية ومن خمور معتقة، وهي ما كانت بلادهم الاصلية محرومة منها . أما السبب الثاني فهو ان عدد سكان مملكة الغال ، كان قد تضاعف الى الحد الذي لم يعد ما ينتج من المواد الغذائية في بلادهم كافياً لاعاشتهم،مما حمل بعض امرائهم على الاقتناع بضرورة الرحيل طلباً لاراض جديدة . وبعد ان قلبوا الامر على وجوهه ، اختاروا لقيادة من تقرر رحيلهم اثنين من ملوكهم هما بيلّوفيزاس وسيفوفيزاس ، وقد مضى أولهما الى ايطاليا ، بينما عبر الثاني الحدود الى اسبانيا . وكانت ثمرة هجرة بيلوفيزاس ، احتلال لومبارديا الذي نشأت عنه الحرب الاولى التي خاضوها مع رومة . أما الحرب الثانية فقد وقعت بعد الحرب البونية الاولى عندما قتل الرومان بين بيومبينو وبيزا أكثر من مائتي الف من الغاليين . وكانت الحرب الثالثة عندما غزا الالمان و « الكيمبري » ايطاليا،وبعد ان قهروا عدة جيوش رومانية انتصر عليهم ماريوس . وهكذا كسب الرومان هذه الحروب الثلاثة المفعمة بالأخطار،وقد تطلب الفوز فيها اكثر من قسط ضئيل من الفضيلة. ولقد رأينا ، كيف ان الرومان عندما تدهورت فضيلتهم (شجاعتهم) فيما بعد ، وفقدت جيوشهم فضائلها السابقة ، تحطمت امبراطوريتهم على

أيدي شعوب من عين الطراز ، كالقوطيين والفاندال وما شابههم من الشعوب التي احتلت الامبراطورية الغربية بأسرها .

وتهجر مثل هذه الشعوب اراضيها الخاصة عندما ترغمها الحاجة على هذه الهجرة . وهذا ما سبق لنا قوله،وتعود هذه الحاجة اما الى مجاعة أو حرب أو مشقة تحل ببلادهم،اذ يرغمون في حالة كهذه على الهجرة بحثاً عن الاراضي الجديدة. وعندما تكون مثل هذه الشعوب وفيرة العدد للغاية ، ثم تشرع بعد ذلك في غزوات عنيفة على بلاد الآخرين ، فانها تقتل اهل هذه البلاد،وتغتصب سلعهم ، وتقيم مملكة جديدة في اراضيهم تحمل اسماً جديداً . وهذا ما فعله موسى ، وما فعلته الشعوب التي اجتاحت الامبراطورية الرومانية . وما الاسماء الجديدة التي تستعمل في ايطاليا اليوم وغيرها من المقاطعات الا تلك التي أطلقها عليها محتلوها الجدد . فلقد كانت لومبارديا تسمى من قبل بسيزالبين غال ، وكانت فرنسا تدعى بغال ما وراء الألب ، ثم حملت اسمها الجديد من قبائل الفرنج ، الذين أعطوها هذا الاسم بعد احتلالهم لها . وكانت سلافونيا تحمل اسم ايلّيريا من قبل ، بينما كانت المجر نبانونيا ، وكانت انكلترا تسمى بريتانيا ، وهذا يصح بالنسبة الى عدد كبير من المقاطعات ، التي تبدلت اسماؤها،والتي يلحق بنا التعب من تعدادها . وكذلك اطلق موسى اسم اليهودية على ذلك الجزء الذي احتله من سوريا .

ولما كنت قد ذكرت آنفاً ان مثل هذه الشعوب ، ترغم احياناً على الرحيل بحثاً عن اراض جديدة بسبب اخراجهم من اراضيهم السابقة ، من جرّاء الحرب ، فانني أرى، أن اورد مثلاً واحداً على هذه الحالة، وهو مثل المغاربة (Moors) (١) الذين كانوا يعيشون في سوريا في البداية. وعندما سمعت هذه الشعوب ان العبرانيين في الطريق الى البلاد ، خيل

---

١ ليس في كتب التاريخ العربي ، أو كتب التاريخ القديم ما يؤيد هذه الرواية .
– المعرب –

اليهم ان المقاومة مستحيلة ، ولذا فقد قرروا ان من الافضل لهم ، ان يغادروا بلادهم ، وان ينجوا بأرواحهم ، بـدلاً من ان يضيعوها في محاولة لانقاذ بلادهم . وهكذا ارتحلوا مع عائلاتهم، ومضوا الى افريقيا، حيث وطدوا أقدامهم فيها بعد ان طردوا منها السكان الذين عثروا عليهم وهم يقيمون فيها . وهكذا أفلح شعب لم يستطع الدفاع عن بلاده في اخذ بلاد شعب آخر . ويحدثنا بروكوبيوس (Procopius) (١) الـذي أرّخ الحرب التي شنها بليزاريوس على قبائل الفاندال التي احتلت افريقيا، انه وجد كتابات منقوشة على بعض الاعمدة التي شاهدها في الاماكن التي كان يعيش فيها المغاربة ، وهذا نصها : « نحن المغاربة ، وقد هربنا من وجه يوشع بن نون قاطع الطريق » . ولعل هذه العبارة توضح لماذا هجر المغاربة سوريا .

وتكون الشعوب التي تهاجر بسبب الحاجة قوية للغاية ، وما لم تواجه هذه الشعوب جيوشاً قوية ، فلا يكون في الوسع صدها . ولكن عندما لا تكون تلك الشعوب التي ترغم عـلى ترك بلادها ، وفيرة العدد ، لا يكون خطرهـا كبيراً كخطر الشعوب التي سبق لنا الحديث عنها . بسبب عدم توافر القوات لديها مما يضطرها الى اللجوء الى المكائد والخدع للحصول على الارض الجديدة التي تطمع فيها ، واذا ما حصلت عليها، تحتم عليهـا ان تعقد الاحلاف ، وتقيم الاتحادات التعاونية للحفاظ عليها

---

١ مؤرخ روماني متأخر عاش في القرن السادس بعد الميلاد ، وكتب تاريخاً عن حروب القائد الروماني بليزاريوس (البيزنطي) ، الذي عمل سكرتيراً له . وقـد ولد بليزاريوس عام ٥٠٥ ومات عام ٥٦٥ ميلادية . وفي أيام الامبراطور جوستنيان . وحارب الفرس عدة مرات ، كما حارب قبائل الفاندال في افريقيا الشمالية بعد ان جاءت من اسبانيا . وغزا ايطاليا واحتل عدداً من مدنها كنابولي ورافينا واستعاد رومة من القوط . — المعرب —

وهو ما رأينا اينياس وديدو(١) والماسيليين(٢) ومن شابههم يقومون به، فقد تمكنوا جميعاً من توطيد اقدامهم في الاماكن التي اقاموا فيها بالاتفاق مع جيرانهم .

وقد جاءت جميع الهجرات الكبيرة التي ضمت شعوباً بكاملها ، من سيثيا(٣) وهي بلاد تمتاز بالطقس البـــارد والفقر المدقع ، وعندما يزيد عدد السكان فيها ويصبح ضخماً ، لا تستطيع أرضها بسبب جدبها ان تقيتهم ، فيجدون أنفسهم مرغمين على الهجرة ، فهناك اكثر من سبب واحد لرحيلهم ، بينما لا يوجد سبب واحد يدعوهم الى البقاء . واذا لم تكن قد وقعت في الخمسمائة عام الاخيرة،مثل هذه الهجرات الكاسحة، فهناك اسباب عدة لهـــذا التوقف . وأول هذه الاسباب الجلاء الضخم الذي وقع في تلك البلاد ابان عهد انحلال الامبراطورية ، عندما هاجر اكثر من ثلاثين شعباً من تلك البلاد . وثاني هذه الاسباب ، ان المانيا والمجر ، وهمـــا بلدان كانت الهجرات تقع منهما ايضاً ، اصبحتا الآن مزدهرتين ويستطيع اهلوهما ان ينعموا في ارضيهما بالحياة الرغدة ، فلم تعد هناك حاجة تدفعهم الى تغيير موطن اقامتهم . ولما كانت هذه الشعوب التي تقيم في هذين البلدين ، على النقيض من ذلك ، شعوباً محاربة ، فقد غدت حصناً منيعاً يصد اهل الشمال (السيثيين) الذين يعيشون على مقربة من حدودهم ، عن محاولة اخضاعهم أو المرور في اراضيهم. ولقد وقعت أيضاً تحركات دائمة وكبيرة بين التتر ، ولكن شعبي المجر وبولنده

---

١ اينياس الطروادي وقد سبق لنا الحديث عنه . أما ديدو وتسمى (اليزا) فهي ابنة بيلوس ملك صور كما تقول الاساطير و أخت بيجماليون التي قتلت زوجهاما اضطرديدو إلى الفرار مع كنوز أبيها إلى شمال افريقيا حيث أقامت قرطاجنة التي ابتاعت ارضها من ملك ليبيا . ويقال انها انتحرت لئلا تتزوج من ايارياس ملك ليبيا .

٢ اقوام سكنت في جنوب صقلية منذ أقدم العصور .

٣ الاسم الذي اطلقه الرومان على المنطقة الواقعة بين نهري الدانوب والدون في روسيا .

– المعرب –

تمكنا من الصمود في وجهها ، وكثيراً ما تفاخر هذان الشعبان بأنه لولا وجودهما ، لكانت ايطاليا والكنيسة قد شعرتا في اكثر من مناسبة بوطأة جيوش التتر . وأعتقد انني قد تحدثت ما فيه الكفاية عن هذه الشعوب.

٩

الاسباب المألوفة في اشعال الحروب بين الدول المختلفة

كان من بين الاسباب التي أدت الى الحرب بين الرومان والسمنيين، بعد ان كان التحالف يسود العلاقات بينهما مدة طويلة ، سبب هو من الدواعي المعروفة للحروب بين الدول القوية . وينطوي هذا السبب على حادث معين يكون عادة وليد الصدفة المجردة ، او نتيجة استفزاز من اولئك الذين يرغبون دائماً في ايقاد نيران الحروب . وهكذا كان الحظ الذي اشعل الحرب بين الرومان والسمنيين ، اذ عندما شن السمنيون حربهم على السديسينيين ، وبعدهم على الكمبانيين(١) ، لم يكونوا ينوون مطلقاً ان يشنوا الحرب على رومة . ولكن عندما هوجم الكمبانيون واستنجدوا برومة،وهو ما لم يكن يتوقعه الرومانيون أو السمنيون،اضطر الرومان الى الدفاع عنهم بعد ان أعلنوا ولاءهم لسيادة رومة،وان يخوضوا حرباً ، بدا لهم ان ليس في استطاعتهم تجنبها مع احتفاظهم بشرفهم . وعلى الرغم من انه لم يكن من المعقول في بادىء الأمر ان يدافعوا عن

١ من القبائل التي كانت تقيم في ايطاليا عندما أخذ الرومان في الظهور ، وكانت هاتان القبيلتان تقيمان إلى الجنوب من رومة على مقربة من نابولي .

— المعرب —

حلفائهم الكمبانيين ضد حلفائهم الآخرين ، السمنيين ، الا انه بعد ان اعلن الأولون انهم قد غدوا تحت سيادتهم ومن رعاياهم ، بدا لهم ان من العار ان لا يدافعوا عنهم ، اذ اعتقدوا بأنهم اذا لم يسارعوا الى الدفاع عنهم،فأن هذا قد يقيم العوائق في طريق كل من يفكر بالخضوع لسيطرتهم . ولما كانت رومة تستهدف الفتح والمجد،لا الهدوء والاخلاد الى الراحة ، لم يكن في وسعهم التخلي عن مسؤوليتهم في هذه القضية.

وقد لعبت نفس هذه الاسباب دورها في مستهل الحرب البونية الاولى، والتي نجمت عن تعهد الرومان السابق بالدفاع عن المسّينيين في صقلية ، وهو تعهد أرغمتهم الظروف العارضة ايضاً على الوفاء بـه . ولكن هذه الحالة لم تكن هي عين الوضع الذي نشأ فيما بعد ابان الحرب الثانية التي نشبت مع القرطاجنيين ، وذلك لأن هانيبال قائد القرطاجنيين هاجم الساغونتيين حلفاء الرومان في اسبانيا ،.لا بدافع العداء لهم ، بل لارغام الجيوش الرومانية على الحركة ، وذلك ليتيح لنفسه الفرصة لمهاجمتهم ، والعبور الى ايطاليا .

وكانت هذه الطريقة في شن الحروب الجديدة دائماً ، الاجراء الذي تتبعه الدول القوية ، التي تولي احترامها للمعاهدات التي تعقدها والتي تحترم بعضها البعض . فأذا أردت ان أشن حرباً على أحد الامراء وكانت بيننا معاهدة ، راعينا موادها بعض الوقت ، فأنني بدلاً من المبادرة الى مهاجمته ، أتطلع الى نوع من المبررات والأسس لمداهمة أحد حلفائه ، واثقاً تمام الوثوق من ان هذا الهجوم على حليفه سيؤدي اما الى ثورته وسخطه،وفي تلك الحالة احقق ما اريده بدفعه الى الاشتباك في الحرب، او ان يتجاهل الموضوع ، فيعرض بذلك ضعفه او عدم امكان الركون اليه ، لأنه تقاعس عن الدفاع عن دولة مستقلة ، وسيخسر سمعتـه في كلتا الحالتين ويكون من الأسهل علي تحقيق ما أرمي اليه من أهداف .

وهكذا فبالنسبة الى استفزاز الحرب ، علينا ان نلاحظ تماماً ، ما

سبق لنا ان قلناه عن اذعان الكمبانيين واعلانهم الخضوع . ومن الواجب ان يلاحظ المرء أيضاً ، ان المدينة التي لا تكون كافية للدفاع عن نفسها تستطيع ان تجد العلاج ، اذا كانت راغبة حقاً في الدفاع عن نفسها ضد الهجوم مهما كان الثمن . وينطوي العلاج على الخضوع طواعيـــة للدولة التي ترى ان تطلب حمايتها . وهكذا أعلن أهل كابوا خضوعهم للرومان، كما أعلن الفلورنسيون اذعانهم لروبرت ملك نابولي ، الـذي سارع الى الدفاع عنهم عندما غدوا من رعاياه ضد قوات كاستروكيو دا لوكا(١) ، التي كانت تهاجمهم ، بعد ان رفض هذا الملك نفسه ان يدافع عنهـــم بوصفهم من رعاياه .

١٠

ليست الحقيقة في ان المـال هو عصب الحرب

لما كان من المتيسر لكل من يملك السلطة اللازمة ، أن يبدأ أية حرب يشاؤها ، دون ان يتيسّر له انهاؤها ، فان على الحاكم قبل ان يلتزم بمثل هذه المغامرة ، ان يحسب حساباً دقيقاً ، ما يتوافر لديه من قوات وان يتخذ قراره على ضوء هذا الحساب . وعليه بالاضافة الى هذا ان يكون حريصاً في عدم ارتكاب اية هفوة من ناحية حساب قواته ،كما قد يخطىء دائماً عندما يقيم حساباته على اساس المال ، أو على اساس طبيعة

١ كاستروكيو دالوكا (١٢٨١ - ١٣٢٨) قائد ايطالي مغامر من اسرة نبيلة من لوكا . حارب في شبابه في فرنسا وانكلترا ولومبارديا . ثم أصبح رئيساً لجمهورية لوكا،وعينه الامبراطور لويس الباڤاري دوقـاً . حارب الفلورنسيين خمسة عشر عاماً.ومات قبل ان يحقق آماله في انيصبح السيد المطلق لتوسكانيا . — المعرب —

الارض ، أو حسن نوايا الناس ، مع افتقاره من الناحية الاخرى لقواته الخاصة . وعلى الرغم من ان هذه العوامل تكسبك مزيداً من القوة ، الا انها لا تؤمن لك بأي حال من الاحوال القوة التي تنشدها ، وقد لا تكون مجدية مطلقاً أو ذات نفع اذا لم تعتمد على قواتك الامينة . ومهما كان لديك من المال ، فلا قيمة له ، اذا لم تكن لديك قواتك ، ولن تجديك طبيعة البلاد شيئاً ، كما لن يقدر لحسن نوايا الناس ان يدوم ، اذ لا يمكن لهؤلاء ان يظلوا على ولائهم لك اذا عجزت عن الدفاع عنهم . وعندما تفتقر البلاد الى الحماة الاقوياء ، فكل جبل فيها وكل بحيرة ، وكل معقل منيع ينقلب الى سهل منبسط ومكشوف . ولا يقتصر أثر المال ايضاً ، على عدم تأمين الحماية لك ، وانما يعرضك للوقوع فريسة في أقصى سرعة ممكنة ايضاً . وليس ثمة من رأي اكثر خطأ من ذلك الذي يؤكد بأن المال هو عصب الحروب .

وقد دافع كوينتاس كيرتياس(Quintus Curtius)(١) عن هذه النظرية بالنسبة الى الحروب التي وقعت بين انتيباتر المقدوني (Antipater) (٢) وملك اسبارطة ، اذ يقول ان ملك اسبارطة بدافع الحاجة الى المال ، اضطر الى الاشتراك في الحرب التي انتهت الى هزيمته ، مع انه لو اجّل المعركة بضعة ايام،لوصلته الانباء من اليونان عن موت الاسكندر ولظل المنتصر،دون ان يضطر الى خوض المعركة . ولكن افتقاره الى الاموال وخوفه من أن يؤدي هذا الافتقار الى تخلي جنوده عنه ، أرغماه على تجربة حظه في المعركة ، وهذا ما دعا كوينتاس كيرتياس الى القول بأن المال هو عصب الحرب .

---

١ كوينتاس كيرتياس – مؤرخ روماني يعتقد انه عاش في القرن الأول الميلادي . كتب تاريخ الاسكندر الاكبر في عشرة كتب فقد منها الكتابان الأولان وبعض الاجزاء الاخرى .

٢ قائد من قواد الاسكندر ، ونائبه على مقدونيا . اخضع المدن اليونانية عندما ثارت عام ٣٢٣ وقضى على مقاومة اسبارطة وتراقية . – المعرب –

ويتكرر هذا الرأي الذي تبناه كوينتاس كيرتياس كل يوم ، ويؤمن به حكام لا يصل تعقلهم الى الحد المطلوب . فهم يجعلون منه مبدأهم الاساسي ، ويخيل اليهم تبعـاً لذلك ان في وسعهم الدفاع عن انفسهم اذا كانت خزائنهم ملأى بالمال، دون ان يفكروا بأنه لو كانت الكنوز تضمن النصر ، لتغلب داريوس (ملك الفرس) على الاسكندر، ولقهر الاغريق رومة ، ولتمكن الدوق شارل في يومنا هـذا من السيطرة على السويسريين ، ولمـا وجدت قوات البابا والفلورنسيين المشتركة ، قبل بضعة ايام اية صعوبة في التغلب على فرانسيسكو ماريا ، قريب البـابا يوليوس الثاني في حرب اوربينو . ومع ذلك فقد قهر جميع هؤلاء ، وكان قاهروهم من اولئك الذين اعتقدوا بأن عصب الحرب لا يقوم في المال ، وانما في خبرة الجنود .

وكان بين الاشيـاء التي عرضها كروزيوس ملك ليديا على انظار صولون الاثيني ، كنز لا يقدر بثمن . وسئل صولون بعـد ذلك عن الفكرة التي كونهـا عن مدى قوة الملك وسلطانه ، فكان رده ، بأن الكنز الذي رآه ، لم يزد شيئاً في تقدير قيمته لقوته ، لأن الحرب لا تخاض بالذهب وانما بالحديد والفولاذ، وانه اذا تعرض هذا الملك لهجوم من شخص يملك من الفولاذ ما يزيد على ما يملكه ، فان في وسع هذا المهاجم ان ينتزع منه سلطانه .

وهناك حادثة اخرى ، فبعد موت الاسكندر الاكبر ، عبرت جماعات من الغاليين الى بلاد اليونان ومنها الى آسيا ، وبعثوا بسفرائهم ، لعقد معاهدة مع ملك مقدونيا ، فأراد هذا أن يعرض عليهم سلطانه ، وان يبهرهم بـه ويرهبهم ، فأراهم كميات كبيرة من الذهب والفضة ، وسرعان ما اوقف الغاليون الذين كانوا حتى تلك الساعة ينشدون السلام، المفاوضات ، اذ تاقت نفوسهم الى سلبه ما لديه من الذهب . وهكذا لحق الدمار بالملك ، بسبب ما كان قد جمعه للدفاع عن نفسه .

وكانت لدى البنادقة قبل بضع سنوات ، خزانة ملأى بالنقود، ومع ذلك فقد اضاعوا جميع ممتلكاتهم ، دون ان يستطيعوا استخدام كنوزهم في الدفاع عنها .

وعلى ضوء كل هذه الشواهد ، اكاد اؤكد ، ان الذهب لا يؤلف عصب الحرب كما يفترض الكثيرون وانما عصبها خيرة الجنود، فالذهب لا يستطيع ان يخلق الجنود الصالحين ، ولكن الجنود الصالحين يستطيعون العثور على الذهب . ولو كان الرومان قد اختاروا لشن حروبهم المال وسيلة لهم لا السيف ، لما كانت كنوز العالم كلها كافية لهم ، بالنسبة الى ضخامة المشاريع التي قاموا بها، والمصاعب التي قدر لهم ان يواجهوها في تنفيذ هذه المشاريع . ولكنهم لما كانوا قد جعلوا من السيف وسيلتهم للحرب ، فانهم لم يعانوا من افتقارهم الى الذهب ، وذلك لأن اولئك الذين أرعبتهم جيوشهم ، قد حملوا بأنفسهم الى معسكرات الرومان ما طلبوه من ذهب . واذا كان ملك اسبارطة قد دفع الى تجربة حظه في الميدان بسبب افتقاره الى المال ، فان ما وقع له بسبب هذا المال ، قد وقع لآخرين بسبب عوامل اخرى ، فمن الواضح ان الجيش عندما تنقصه المؤن والذخائر ، ويواجه احد احتمالين اما الموت جوعاً أو القتال، فأنه يؤثر دائماً ان يقاتل ، طالما ان هذا السبيل اكرم عليه ، وطالما انه الذي يفسح المجال للحظ ، ليقف الى جانبه . وكثيراً ما يحدث ايضاً، انه عندما يرى قائد عسكري ، ان النجدات توشك على الوصول الى جيش خصمه ، يتحتم عليه أحد أمرين ، اما الاشتباك معه قبل وصول النجدات وتجربة حظه معه في الميدان،أو الانتظار الى ان تكون النجدات قد وصلت،وتضاعفت قوات خصمه ، فيضطر آنذاك الى خوض المعركة معه على أي حال ، مع ما فيها من خطورة بالغة وكبير مجازفة . ويرى الانسان كذلك – كما وقع لهاسد روبال،عندما هاجمته قوات كلوديوس

نيرو والقنصل الروماني الاخر سوية(١) – كيف ان القائد عندما يجد نفسه مضطراً للقتال أو لمواجهة الهزيمة ، يؤثر دائماً الفرار ، اذ يبدو له ان هذا السبيل ، رغم ما في نتائجه من شك ، يمنحه الفرصة للانتصار ، بينما لا يعني السبيل الآخر ، الا الفشل على أي حال.فهناك والحالة هذه ، أوضاع عدة ، ترغم القائد على ايثار سبيل القتال، حتى ولو لم يكن يعتزمه ، وقد يكون الافتقار الى المال احيانا واحداً من هذه الاوضاع . ولكن على المرء ان لا يستنتج على ضوء هذا السبب ، بأن المال هو عصب الحرب ، وانه يفوق غيره من الاوضاع الاخرى التي تضع الناس في مآزق حرجة مماثلة .

وأعود فأكرر ، ان المال لا يكوّن عصب الحرب ، بل ان الجنود الصالحين هم عصبها . والذهب ضروري ، ولكن قيمته ثانوية ، وفي وسع خيرة الجنود الحصول عليه ،اذ يستحيل علي الجنود البواسل الفشل في العثور على الذهب،بينما يستحيل على الذهب العثور على الجنود البواسل . وتقوم شواهد التاريخ الكثيرة أدلة على صدق ما نقول على الرغم من الحقيقة الواقعة وهي ان بيركليس (Pericles)(٢) قد نصح أهل اثينا بشن الحرب على البلوبونيز كلها ، على اعتبار ان صناعاتهم ومواردهم المالية ستمكنهم من النصر . وعلى الرغم من ان الاثينيين قد حققوا بعض الانتصارات ابان الحرب ، الا انهم خسروها في النهاية ، بحيث

---

١ هاسدروبال شقيق القائد القرطاجي هانيبال ، سارع في عام ٢٠٧ ق. م. من اسبانيا حيث كان مرابطاً على رأس جيشه إلى ايطاليا لمساعدة أخيه هانيبال . ولكنه هزم في معركة ميتوروس أمام القنصلين الرومانيين كلوديوس نيرو وليفيوس ساليناتور ..وقد قتل في المعركة وقطع رأسه وقذف به في معسكر هانيبال .

٢ بيركليس (٤٩٠ – ٤٢٩) ق . م . من أكبر الساسة في اثينا . يمت إلى أنبل عائلات المدينة . وقد ثقف في حداثة عهده ثقافة عظيمة . أحرز انتصارات عظيمة بعد ان تولى الحكم على جميع المدن اليونانية وبينها سبارطة . قام باصلاحات عظيمة في اثينا . اشتهر بالخطاب الذي القاه دفاعاً عن نفسه وأصدقائه . يلقب عصره بعصر اثينا الذهبي . – المعرب –

أثبتت سبارطة في حكمتها ، وبسالة جنودها ، انها أكبر قيمة من اثينا في صناعتها وأموالها . ولا ريب ان تيتوس ليفي هو خير شاهد في هذه القضيــة . وأنا اشير هنا الى الفقرة التي بحث فيها ، ما اذا كان من المحتمل ان يفوز الاسكندر لو غزا الرومان في ايطاليا . وقد اوضح ان هناك ثلاثة امور على جانب كبير من الضرورة للحرب ، وهي وفرة الجنود البواسل ، وحكمة القادة ، وحسن الطالع . وبعد ان قارن بين أوضاع الرومان ووضع الاسكندر بالنسبة الى هذه الامور الثلاثة، توصل الى النتيجة التي يريدها دون ان يذكر شيئاً عن المال . ولا ريب في ان أهل كابوا ، الذين كانوا في تلك الآونة أكثر السديسيين مالاً ، والذين أعلنوا الحرب على السمنيين ، قد أخطأوا حساب قوتهم، اذ بنوا حساباتهم على أساس المال ، لا على أساس الجنود ، ولما قرر الرومان مساعدتهم، بعد ان كان هؤلاء قد منوا بهزيمتين متعاقبتين ، اتضح للكابويــين ان عليهم ان يصبحوا أتباع رومة اذا أرادوا لأنفسهم البقاء .

الكتاب الثاني
المطارحات من ١١ ـ ١٥

الدبلوماسية والحرب

١١

من الخطأ أن تعقد حلفاً مع حاكم شهرته أعظم من قوته

ليست هناك من صورة أوضح من الصورة التي رسمها تيتوس ليفي للخطيئة التي ارتكبها السديسيون في الركون الى نجدة الكامبانيين ومن الخطيئة الاخرى التي ارتكبها هؤلاء في الاعتقاد بأن في وسعهم الدفاع عنهم ، عندما كتب يقول : « لقد حمل الكامبانيون اسمهم لمعاونة السديسيين في حربهم بدلاً من قواتهم لتتولى حمايتهم ». وعلينا ان نلاحظ هنا ، ان الاحلاف التي يعقدها البعض مع حكام يفتقرون اما الى وسائل المعونة بسبب نأيهم او الى القدرة على العون بسبب حاجتهم الى التنظيم او

بسبب عوامل اخرى تجعلهم يحصلون على سمعة الذين يتكلون عليهم لا على عونهم .

وقد حدث هذا في ايامنا الراهنة بالنسبة الى الفلورنسيين في عام ١٤٧٩ عندما قام البابا وملك نابولي بمهاجمتهم . فلقد كانوا حلفاء لملك فرنسا، ولكنهم لم يغنموا من حلفهم هذا الا السمعة والشهرة « بدلاً من الحماية » . وسيحدث مثل هذا حتماً للحاكم الذي يعتمد على الامبراطور مكسمليان ، اذ ان التحالف مع الامبراطور لا يعدو ان يكون واحداً من تلك الاحلاف التي تأتي « بالسمعة بدلاً من الحماية »،وهو ما يحدد ليفي ان الكابويين قد حملوه الى السديسيين بحلفهم معهم . وعلى هذا فقد أخطأ الكابويون هنا ، لأنهم اعتقدوا ان قوتهم تفوق حقيقتها .

وكثيراً ما يكون بعض الناس على جانب كبير من عدم التعقل، بحيث يندفعون في التعهد بالدفاع عن غيرهم ، في الوقت الذي يجهلون فيه طريقة هذا الدفاع ، او يعجزون حتى عن الدفاع عن أنفسهم . فقد حدث عندما اعلن الجيش الروماني الحرب على جيش السمنيين، ان بعث التارنتيانيون(١) بسفرائهم الى القنصل الروماني لابلاغه رغبتهم في قيام حالة من السلام بين السمنيين وبين رومة ، واستعدادهم لمحاربة كل من يفكر في تعكير صفو هذا السلام . واستغرق القنصل في الضحك، وأمر رجاله ، في حضور السفراء ، بنفخ الأبواق ايذاناً بالقتال . وأصدر أوامره الى جيشه بالشروع في الهجوم،وأعطى لهم بعمله هذا الرد الفعلي، الذي اعتقد انهم يستحقونه .

ولما كنت قد تناولت في هذا الفصل بالحديث الوسائل التي يلجأ اليها الحكام ، للدفاع عن الآخرين ، مع ما يصيبهم من أذى من ورائها ، فأني سأتناول في الفصل التالي الوسائل التي يلجأون اليها

---

١ اقوام سكنت ايطاليا منذ القدم . وكانت تقيم في الجنوب على مقربة من المدينة التي تدعى اليوم تورنتو . — المعرب —

للدفاع عن أنفسهم »

١٢

هل من الخير عندما يهددك عدو بالهجوم ان تبدأ أنت بمهاجمته أو تنتظر نشوب الحرب ؟

كثيراً ما سمعت رجالاً لهم تجاربهم الضخمة في الشؤون المتعلقة بالحرب، يتناقشون فيما اذا كان من الافضل ، في حالة وجود حاكمين متساويين تقريباً في القوة،وقيام أكثرهما نزعة عدوانية باعلان الحرب على الآخر، ان ينتظر هذا وصول عدوه الى داخل حدوده ، أو يبادره بالهجوم في بلاده هو ، وسمعت الحجج تعدد دعماً لكل من النظريتين . ويستشهد المدافعون عن نظرية المبادرة بالهجوم ، بالنصيحة التي كان كرويزوس (Croesus) (١) قد قدمها الى الامبراطور كورش الفارسي ، عندما وصل هذا الى حدود بلاد الميساجيتانيين ، ليشن الحرب عليهم ، فبعثت اليه ملكتهم « توميريس » رسالة تخيّره بين دخول مملكتها حيث تنتظر مقابلته في المعركة ، أو ان تخرج هي اليه برجالها باحثة عنه . وعندما عرض الموضوع على المناقشة،عارض كرويزوس كل ما قاله الآخرون ، ونصحه بأن يمضي هو الى طلبها ، على اعتبار انه اذا قهرها ، وهي في

١ آخر ملوك الليديين مات عام ٥٤٠ ق. م. استولى على المدن الايونية والايولية وأصبح سيد آسيا الصغرى كلها ، ثم اشتبك في حرب مع كورش ملك الفرس فانتصر هذا عليه في سرديس وأخذه أسيراً ، ولم يقتله ، وإنما جعله من رجال بطانته . — المعرب —

خارج مملكتها ، فلن يستطيع استخلاصها منها ، اذ يكون في وسعها ان تعود فتنتظم قواتها من جديد ولديها الوقت الكافي لذلك ، بينما اذا قهرها على أرضها ، أصبح في مكنته مطاردتها عندما تلجأ الى الفرار ، ولما كان فرارها لن يتيح لها الفرصة لاعادة تنظيم قواتها ، فأنه سيتمكن من استخلاصها منها .

وهم يوردون ايضاً النصيحة التي قدمها هانيبال لأنطيوخوس(١) ، عندما فكر الأخير بمحاربة الرومان . فقد ذكر هانيبال ، ان النصر على الرومان لا يتحقق الا في ايطاليا ، حيث يمكن للآخرين فيها ، ان ينتهزوا فرصة هزيمتهم ، فيسلبون منهم سلاحهم وأموالهم وحلفاءهم ، اما اذا دارت الحرب في خارج ايطاليا ، وظلت هي سليمة لا تمس ، فان هذه الحركة ستترك لهم المصدر الذي لا ينضب ، للحصول على القوات الاضافية عندما تدعوهم الحاجة اليها . وانتهى الى القول بأن على انطيوخوس ان يحاول اولاً احتلال رومة قبل مهاجمة امبراطوريتها ، واحتلال ايطاليا قبل مهاجمة غيرها من المقاطعات .

ويشيرون كذلك الى ما فعله اغاثوكليس (Agathocles) (٢) ، عندما شعر بعجزه عن المضي في الحرب في بلاده ، فمضى الى القرطاجنيين الذين يحاربونه يهاجمهم في عقر دارهم ويرغمهم على طلب الصلح . ويستشهدونه كذلك بما فعله شيبيو من الهجوم في افريقيا لوقف الحرب في ايطاليا .

أما اصحاب الرأي المعارض ، فيقولون انه اذا أراد المرء لعدوه

---

١ ذكرنا في هامش سابق ان هانيبال لجأ بعد هزيمته إلى انطيوخوس ملك انطاكية .

٢ اغاثوكليس (٣٦١ – ٢٨٩) ق. م. طاغية سراقوزه . تزوج ارملة ثرية ، ثم ابعد عن المدينة متهماً بمؤامرة على حكومتها ، ولكنه عاد اليها على رأس جيش من المرتزقة فأخضعها وقتل الفاً من أهلها . اشتبك في حرب مع القرطاجيين وانتصروا عليه وحاصروه في سرقوزه ، فنجا من الطوق ، وذهب يهاجمهم في افريقيا . – المعرب –

الفشل فعليه ان يرغمه على الخروج بعيداً من وطنه . ويستشهدون بما وقع لأهل اثينــا ، اذ كانوا في جميع الحروب التي خاضوها في بلادهم اصحاب اليد العليا ، ولكنهم عندما غادروها ، ومضــوا بجيوشهم الى صقلية ، اضاعوا حريتهم . ويدعمون نظريتهم بالاستشهاد ببعض الاساطير الشعرية التي تتحدث عن انطايوس ملك ليبيا ، عندمــا هاجمه هرقل ارجيديوس ، اذ ظل متفوقاً عليه طالما ظل يحاربه داخل حدود مملكته ، ولكن عندما تمكن هرقل بدهائه الآن من اقناعه بالخروج منها ، فقــد عرشه وحياته . وقد أدت هذه القصة الى نشوء الاسطورة الاغريقية التي تصور انطايوس ملقى على الارض يستمد القوة من أمه « الهة الارض » وهرقل وقد رأى ذلك ، يرفعه عنها ليبعده عن امه .

وهم يستشهدون ايضاً بالآراء العصرية . فكل واحد منا يعرف ان فرديناند ملك نابولي، كان يعتبر من الامراء العقلاء جداً ، وان الشائعات انطلقت قبل عــامين من موته تقول ان شارل الثامن ملك فرنسا ينوي المجيء لغزو بلاده ، مما حمل فرديناند على اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمقابلته ولكن المرض داهمه فجأة . وعندما كان على فراش الموت، وجه الى ولده الفونسو عدداً من المذكرات ، بينها واحدة يطلب اليه فيها ان ينتظر مجيء العدو في بلاده ، وان لا يسمح لأي شيء في العالم بأقناعه على اخراج قواته من أرضه ، بل ان يعمل على الحفاظ عليها قويــة متماسكة تنتظر وصول العدو وغزوه . ولكن ولده لم يأبــه بنصيحته ، وبعث بجيشه الى رومانا حيث مني بهزيمة لم يخض فيها معركة ، وكافته جيشه وعرشه .

وبالاضافة الى جميع هذه الأدلة والاسباب، يستشهد الفريقان ببراهين أخرى ، كقولهم ان من يبادر بالهجوم يبدي عزماً أشد من ذلك الذي ينتظر وقوعه ، وانه تبعاً لذلك يوحي لجيشه بالمزيد من الثقة . وبالاضافة الى ذلك ، فأنه يحول بين العدو وبين القدرة على استخــدام موارده ،

بالنظر الى عجزه عن الافادة من اولئك الرعايا الذين تم سلبهم ما يملكونه. وعلى الحاكم ان يكون أكثر حرصاً في فرض الضرائب وغيرها من الاعباء التي لا تطاق على رعاياه ، وذلك بسبب وجود العدو داخل أراضيه ، مخافة ان ينضب،في النهاية ، النبع الذي يستمد منه حاجاته للحرب،على حد تعبير هانيبال . يضاف الى هذا كله ، ان وجود قوات الغازي في أرض أجنبية ، يدفعها بحكم الضرورة والحاجة الى القتال ، والحاجة تولد الفضيلة (الشجاعة) كما سبق لنا ان رأينا في فصول سابقة .

أما بالنسبة الى الرأي الثاني فهناك من يقول،ان لانتظار هجوم العدو فوائد جمة ، اذ انك دون ان ترهق نفسك تستطيع ان تفرض عليه الكثير من المزعجات في موضوع التموين وفي غيره من المسائل التي يحتاج اليها كل جيش ، كما ان في وسعك احباط خططه بصورة أفضل بسبب معرفتك للبلاد التي يدور فيها القتال معرفة تفضل ما يعرفه عنها،وكذلك فأن في مكنتك ان تجبهه بقوات أضخم بسبب السهولة التي تستطيع عن طريقها حشد قواتك الى بعضها ، وهو ما قد لا يتوافر لك اذا كانت هذه القوات بعيدة عن ديارها ، وهكذا فأنك على الرغم من انك قد تجازف بكل قواتك،الا انك لن تغامر بكل ما تملكه ، بينما اذا خرجت بجيوشك جازفت بكل ما تملك دون ان تغامر بكل قواتك . وهناك ايضاً بعض القادة الذين يسمحون للعدو الغازي ، رغبة في اضعافه ، بالتقدم عدة ايام في أراضيهم ، واحتلال عدد من المدن ، مما قد يؤدي الى اضعاف جيشه عن طريق الحاميات التي يضطر الى تركها في جميع هذه المدن فيصبح من الأسهل مواجهته في المعركة الحاسمة .

واسمحوا لي ان ابدي الآن رأيي في هذا الموضوع ، فأنا أعتقد بوجوب ايجاد تمييز او حد فاصل . فأما ان تكون بلادي مجهزة تمام التجهيز بالأسلحة ، كما كانت بلاد الرومان في الماضي وكما هي عليه بلاد السويسريين في الوقت الحاضر . واما ان تكون بلادي سيئة الاعداد

والتسلح ، كما كانت بلاد القرطاجيين في الماضي ، وكما هي عليه الآن بلاد ملك الفرنسيين وايطاليا . واذا كانت الحالة الثانية هي القائمة، فمن الواجب الابقاء على العدو بعيداً عن البلاد ، اذ لما كانت فضيلتك ترتكز الى المال ، لا الى الرجال ، فأنك قد تتعرض الى الدمار في حالة وقوع ما يحول دون حصولك عليه ، ولا شيء قد يعيقك عن الحصول عليه اكثر من وقوع الحرب في أراضيك . ولا ريب في ان وضع القرطاجيين كان يشرح هذه الحالة تماماً ، اذ انهم طالما كانت بلادهم غير محتلة ، كان في وسعهم استخدام مواردهم في شن الحروب على الرومان، ولكن عندما وقع الهجوم على بلادهم نفسها تعذر عليهم الصمود ، حتى أمام أغاثوكليس . ولم يستطع الفلورنسيون كذلك الحصول على أي علاج يمنعهم أمام كاستروكيو سيد لوكا، لأنه شن عليهم الحرب داخل بلادهم، وتحتم عليهم لتأمين الدفاع عن أنفسهم، اعلان الطاعة لروبرت سيد نابولي. ومع ذلك، فقد تمكن هؤلاء الفلورنسيون أنفسهم بعد موت كاستروكيو ، من التحلي بالشجاعة ومهاجمة دوق ميلان في بلاده ، وكادوا ينتزعون منه مملكته . وهكذا أثبتوا شجاعة فائقة في الحرب التي شنوها بعيداً عن ديارهم ، وجبناً كبيراً ، عندما كانت الحرب في عقر دارهم .

أما عندما تكون الدول قوية التسلح كرومة في الماضي والسويسريين اليوم ، فأن الحرب كلما اقتربت من وطنها ، كلما صعب عليك التغلب عليها ، لان مثل هذا التنظيم يستطيع حشد قوات أضخم لمقاومة الغزو من تلك التي يستطيع حشدها لغزو الآخرين. ولا أستطيع في هذا الموضوع ان آخذ بوجهة نظر هانيبال ، التي لم أتأثر بها مطلقاً، وذلك لأن السخط على رومة ، والمصلحة الذاتية هما اللذان دفعاه على ان يقول ما قاله لانطيوخوس . اذ لو حلت الهزائم المفجعة الثلاث التي أوقعها هانيبال بالرومان في ايطاليا بجيوشهم وهي في بلاد الغال ، لانتهى أمر الرومان دون شك ، اذ كان لا بد وان يتعذر عليهم الافادة من القوات التي

بقيت بعد هذه الهزائم ، وهو ما فعلوه في ايطاليا،ولما كان في امكانهم ان يعيدوا تنظيم صفوفهم بسهولة ، وحتى لو تمكنوا من تنظيمها، فأنهم كانوا سيعجزون حتماً عن الصمود أمام العدو كما صمدوا في ايطاليـــا . ولا يعثر الانسان في وثائقهم التاريخية على انهم زجوا بأكثر من خمسين الف جندي من رجالهم ، في أي هجوم شنوه على بلد أجنبي ، ولكنهم جندوا للدفاع عن بلادهم ضد الغاليين بعد الحرب البونية الاولى اكثر من مائة وثمانين الف جندي . وما كان في مكنة الرومان فيما بعد ، ان يقهروا الغاليـــين في لومبارديا كما قهروهم في توسكانيا ، وذلك لأنهم كانوا أعجز من ان يدفعوا لمواجهة مثل هذا العـدو القوي ذي القوات الهائلة العدد،بقوات ضخمة الى مثل تلك المسافة النائية ، كما انهم كانوا في الوضع الجديد أقـــل قدرة على حربهم في نفس الظروف والاوضاع المواتية السابقة . وقد حطم الكمبريون (Kimbri)(١) جيشاً للرومان في المانيا ، ولم يكن هؤلاء قادرين على اصلاح الهزيمة التي لحقت بهم . ولكن عندما وصل الكمبريون الى ايطاليا ، ودفع الرومان ما يملكونه من قوات ضدهم ، انتهـــى امـرهم وانقضى . وفي وسعك الانتصار على السويسريين بسهولة وهم بعيدون عن وطنهم،وعندما لا يستطيعون ارسال قوات تزيد على الثلاثين او الاربعين الفاً ، اما ان تهزمهم في وطنهم ، حيث يستطيعون حشد مائة الف ، فهذا أمر شاق .

---

١ الكمبريون من الأقوام القديمة يعتقد بعض المؤرخين انهم كانوا يقيمون في شبه جزيرة جوتلند في شمال المانيا و البعض الآخر انهم كانوا على شواطئ البلطيق.وكانوا أول القبائل التيوتونية (البرابرة) الذين تماسوا بالرومان . اضطروا بسبب فيضان البحر على بلادهم إلى الهجرة فجالوا مدة على الدانوب ، ثم انتصروا على جيش روماني يقوده القنصل كاربو في كارنثيا في المانيا عام ١١٣ ق. م. احتلوا بلاد الغال ، ثم عبروا جبـال الألب بقيادة ملكهم بويوريكس،واستولوا على لومبارديا ، ولكن ماريوس انتصر عليهم في سهل بودين وقتل ملكهم وأبادهم ، عام ١٠٢ ، فأنقذ روما منهم . — المعرب —

وختاماً أعود فأقول ،ان على الحاكم الذي يرئس شعباً حسن التسلح، وكامل الاعداد للحرب، ان ينتظر في وطنه خوض المعركة ضد عدو قوي وشديد الخطورة ، وعليه ان لا يمضي للقاء هذا العدو ، أما الحاكم الذي يكون رعاياه سيئي التسلح ، وتكون بلاده لم تألف الحرب، فعليه ان يلقى عدوه دائماً بعيداً عن وطنه ، بل وفي أبعد نقطة يستطيعها . وهكذا يتمكن كل من الحاكمين،من اجادة الدفاع عن نفسه كل حسب طاقته وامكاناته .

١٣

يرتقي الناس من المراتب الخفيضة إلى المراتب العالية عن طريق الحيلة لا عن طريق القوة

اعتقد ان من الحق ان يقال ، بأن ارتقاء الانسان من رتبة خفيضة إلى رتبة عالية لا يقع الا نادراً ، وعن طريق القوة أو الخداع . مع ان هناك آخرين بالطبع ، تصل اليهم المراتب طائعة عن طريق المنح أو الوراثة . ولا اعتقد ايضاً ان القوة وحدها كافية ، بينما هنالك شواهد عدة ، تقيم الدليل على ان الحيلة كانت كافية وحدها . فكل من قرأ حياة فيليب المقدوني او حياة اغاثوكليس الصقلّي مثلاً ، أو غيرهما من الذين هم على هذه الشاكلة يرى انهم جميعاً قد ارتقوا من أوضاع مغرقة في الانخفاض ، أو منخفضة على الأقل بعض الانخفاض الى ان وصلوا الى مرتبة الملك،أو إلى مرتبة السلطان العظيم . ويافت اكزونوفون

النظر في «تاريخ حياة كورش» (١) الذي وضعه ، إلى ضرورة الخداع . فلقد عجزت قوته عن اخضاع مملكة أرمينيا مما اضطره الى اتباع اساليب الخداع مع ملكها ، فحقق غايته بعد الكثير من الحيل وألوان الخديعة. ولا يستطيع المرء على ضوء هذا الا ان يستخلص ان على الامير الذي يرغب في ركوب مراكب العظمة ان يتعلم ممارسة الخديعة . ونرى اكزونوفون يصوره أيضاً ، على انه خدع كياكزيراس ملك « مادي » ، وهو خاله بطرق شتى ، وينتقل من ذلك إلى الاستنتاج بأن كورش ما كان ليصل إلى ما وصل اليه من عظمة دون مثل هذه الوسائل التي تنطوي على التدليس والغش .

ولا أعتقد بأن في وسعنا العثور على أي رجل كان وضيعاً في مستهل عهده ، ثم تمكن من الحصول على سلطان واسع ، عن طريق استخدام القوة المكشوفة وغير المتنكرة دون سواها ، بينما نستطيع ان نرى أمثلة على من حققوا مثل هذا عن طريق الحيلة وحدها ، ولعل في طليعتهم جيوفاني غاليازو ، في مسعاه لاخراج عمه بيرنابو من منصبه كحاكم للومبارديا . وما ينطبق على الامراء في مستهل حياتهم ، ينطبق على الجمهوريات ايضاً من ناحية توجب سيرها على هذا المنوال ، إلى أن يتاح لها ان تغدو قوية ، وان يصبح في مكنتها الاعتماد على قوتها وحدها .

ولما كانت روما قد اتخذت في جميع القرارات التي توصلت اليها طواعية أو بمحض الصدفة ، كل الخطوات التي رأتها ضرورية لاكتساب العظمة ، فانها والحالة هذه لم تتجاهل الحيلة مطلقاً . ولم يكن في وسعها أن تكون أكثر احتيالاً ومخادعة في مستهل عهدها ، مما لجأت اليه من

---

(١) كورش ويلقب بالاكبر ، مات عام ٥٢٨ قبل الميلاد . هو مؤسس امبراطورية فارس ، ثار على ملك الماديين الذي زوجه من ابنته واستولى على عرشه . ثم شرع في حروبه التي أخضع فيها آسيا وما بين النهرين وسوريا وفلسطين ، وهو الذي أعاد العبرانيين من منفاهم في بابل إلى القدس. — المعرب —

وسائل أشرنا اليها قبل قليل ، لاكتساب الحلفاء ، لأنها كانت تحيلهم تحت هذا الاسم الزائف إلى اتباع ،كما وقع للاتين ولغيرهم من الشعوب الاخرى التي تحيط بها . وقد أفادت في البداية من اسلحتهم في اخضاع الشعوب المجاورة ، وفي بناء مكانتها كدولة ،وبعد أن تم لها ذلك ،غدت من الضخامة بحيث أصبح في امكانها أن تقهر من تشاء . ولم يكن في وسع « اللاتين » أن يدركوا قط انهم لا يخرجون في الواقع عن مركز العبودية المجردة لروما ،لولا انهم رأوا بأم أعينهم روما تنتصر مرتين متعاقبتين على السمنيين وترغمهم على قبول شروطها . ولما كان هذا النصر قد وسّع من ضخامة السمعة التي كانت قد حققتها ، في عيون الحكام النائين عنها والذين أحسّوا بوطأة شهرتها أكثر من احساسهم بوطأة سلاحها ، فان الحسد والشك قد تولدا عند اولئك الذين أحسوا ورأوا في آن واحد وطأة سلاحها في عقر ديارهم كاللاتين مثلاً . وقد بلغ هذا الحسد حداً امتزج فيه بالرهبة ، ودفع اللاتين والمستعمرات التي كانت روما قد اقامتها في « لاتيوم » — أرض اللاتين — والكامبانيين الذين كانوا في وضع يائس قبل فترة قصيرة إلى التآمر عليها . وقد استفز اللاتين هذه الحرب بالطريقة التي تستفزّ فيها معظم الحروب والتي أشرت اليها من قبل ، أي لا بمهاجمة الرومان أنفسهم ، بل بحماية السديسيين من السمنيين الذين كان الرومان قد دفعوهم الى محاربتهم . وقد فسر تيتوس ليفي عمل اللاتين هذا على انه نتيجة تبنّيهم لخديعة روما لهم ، وأطلق تفسيره على لسان آنيوس ساتينوس ، الحاكم اللاتيني اثناء خطابه في مجلس الحلف اذ قال : « لقد أصبحنا تحت ستار المعاهدة المعقودة بين انداد ، في وضع لا يعدو العبودية » .

ويتضح لنا من كل ما قلت ، ان الرومان في عهد طلوع قوتهم ،لم يتورعوا عن الخديعة التي يجب ان يلجأ اليها كل من يرغب في الارتقاء من بدايات تافهة الى أرفع الذرى ، وكلما اجادوا اخفاءها، كما فعل الرومان،

كلما كانت اقل استثارة للملامة .

١٤

كثيراً ما يخطىء الناس في الظن بأن التواضع يقهر الكبرياء

هناك حالات عدة ، لا يجدى التواضع فيها فتيلاً ، ويكون فيها بالاضافة الى ذلك عائقاً ولا سيما عندما يستخدم في التعامل مع أناس متغطرسين ، قد يدفعهم الحسد أو أي سبب آخر ، إلى حمل الكراهية لك . ويؤكد لنا مؤرخنا ، ان هذا الوضع كان سبباً في الحرب بين الرومان واللاتين . اذ لما لجاء السمنيون بالشكوى إلى الرومان من ان اللاتين قد هاجموهم ، لم يكن هؤلاء على استعداد لمنع اللاتين من المضي في حربهم ، وذلك لأنهم لم يرغبوا في استفزازهم وازعاجهم . ولكن لم يقتصر تأثير عمل الرومان هذا على ازعاج اللاتين فحسب ،بل أدى الى مضاعفة ما يحملونه من عداء للرومان ، وحملهم على الاسراع في كشف عدائهم لرومة . وقد ظهر هذا جلياً في الخطاب السالف الذكر الذي ألقاه الحاكم اللاتيني آنيوس امام مجلس الحلفاء اذ قال : « لقد اختبرتم أناتهم بالضنّ عليهم بالجنود ، وهل ثمة من ينكر ان هذا الضنّ قد استفزّ غضبهم ؟ ومع ذلك فقد احتملوه وسكتوا عليه . ثم سمعوا بأننا قد أعددنا جيشاً لحرب حلفائهم السمنيين ، ومع ذلك فأنهم لم يحركوا ساكناً في مدينتهم. فهل يمكن تفسير السبب في هذا التواضع،الا بالقول بأنهم يعرفون تمام المعرفة مدى الفرق بين قواتنا وقواتهم؟ ». ولا ريب

في ان هذه الاقوال تظهر جلياً المدى الذي بلغته غطرسة اللاتين من جرّاء صبر الرومان واحتمالهم .

وعلى هذا فمن واجب الحاكم ان لا يتخلى مطلقاً عن أنفته ، وان لا يثير ابداً نقطة تم الاتفاق عليها ، إلا اذا كان يستطيع ان يفرض تنفيذها ، أو كان يعتقد بنفسه القدرة على فرضها . ومن الافضل دائماً اذا كنت عاجزاً ، عن التساهل في احدى النقاط ان ترغم خصمك على انتزاعها منك بالقوة على ان تتخلى عنها متأثراً بالتهديد باستعمال القوة ، ولو انك أذعنت للتهديد ، فأنك انما تفعل ذلك تجنباً للحرب ، ولكنك لن تستطيع تجنبها في معظم الحالات . وذلك لأن اولئك الذين كشفت عن نفسك أمامهم بأذعانك ، لن يقفوا عند هذا الحد ، بل سيعملون على اغتصاب تساهلات اخرى منك ، وكلما قل تقـديرهم لك ، ازدادت ثورتهم عليك . وستجد من النـاحية الاخرى ان انصارك ومؤيديك،قد فتر حماسهم لك ، لأنهم رأوا فيك شخصاً ضعيفاً وخوّاراً. أما اذا بادرت الى الاعداد لاستخدام القوة حال معرفتك بنوايا خصمك حتى ولو كانت قواتك اضعف من قواته ، فانه يأخذ في احترامك ، ولما كان الحكام الذين سبق لك ان تحالفت معهم سينظرون اليك نظرة التقدير بعد ان يروا موقفك هذا فانهم سيكونون على استعداد لمساعدتك عندما تشرع في التسلح،وهو شيء ما كانوا ليفعلوه قط لو انك استسلمت منذ البداية .

وتنطبق هذه الحالة ، عندما يكون لك عدو واحد فقط . امـا اذا واجهت عدداً كبيراً من الاعداء ، فان السبيل الأكثر حكمة ، هو ان تتخلى عن بعض ممتلكاتك لاحد هؤلاء الاعداء ، لتجتذبه الى صفك ، حتى ولو بعد نشوب الحرب ، وبـذلك تستطيع ان تنتزع من صفوف الاتحاد التعاوني الذي يعاديك أحد اركانه .

١٥

تكون قرارات الدول الضعيفة عادة مشحونة بالغموض ويكون البطء في الوصول اليها مؤذياً كل الاذى

قد يقال ، بالنسبة الى الموضوع الذي كنا نعالجه في الفصل السابق والمتعلق باندلاع الحرب بين الرومان واللاتين، ان من الأفضل في جميع المشاورات ، الوصول الى النقطة الرئيسية في موضوع التشاور رأساً دون البقاء في حالة من التردد والشك تجاهها . وقد اثيرت هذه النقطة بوضوح ابان المشاورات التي كان اللاتين يجرونها ، اثناء دراستهم موضوع التخلي عن تعاونهم مع رومة اذ عندما أدرك الرومان ما رسخ في قلوب الشعوب اللاتينية من مشاعر سيئة تجاههم ، ارادوا ايضاح الموقف ، والتأكد مما اذا لم يكن في امكانهم استعادة ولاء هذه الشعوب دون اللجوء الى السلاح، ولذا فقد اقترحوا عليها ايفاد ثمانية من مواطنيها الى رومة لبحث القضية. وعندما سمع اللاتين بذلك ، وكانوا واعين للحقيقة وهي انهم قد تصرفوا في كثير من القضايا تصرفاً معاكساً لرغبات الرومان،عقدوا مجلساً لتقرير من سينتدبونه لاداء هذه المهمة، ولافهام اعضاء الوفد ما يجب عليهم قوله عند وصولهم الى رومة . وهب آنيوس حاكمهم، اثناء مناقشة الموضوع في المجلس على قدميه قائلاً : « أرى ان من الأهم في هذه القضية ، ان تبحثوا فيما يجب عمله لا فيما يجب قوله . وسيكون من الأسهل عليكم عندما تصلون الى قرار ، ان تكيفوا الاقوال على أساس الاعمال » .

ولا ريب في ان هذا القول الحاسم ، صادق كل الصدق،وعلى كل امير ، او جمهورية ان يحسنا التفكير فيه . اذ عندما يسود الغموض وعدم اليقين تجاه ما يريد الآخرون فعله ، يصبح من المستحيل اختيار الكلمات المناسبة ، ولكن عندما يحزم المرء رأيه ويقرر الطريقة التي سينفذ

فيها قراره ، يصبح من السهل عليه العثور على العبارات الصالحة . واني لعلى أتم الاستعداد للدعوة الى الاهتمام بهذه الناحية ، بعد ان لاحظت أكثر من مرة ما ساقه الغموض في الشؤون العامة الى جمهوريتنا هذه من ضرر أصاب سمعتها في الصميم . فحيثما يقوم الشك في اختيار السبيل، وتطلب الشجاعة للتقرير ، يكون هذا الغموض قائماً ومسيطراً دائماً ، لا سيما اذا كان القرار في القضية المعروضة للنقاش ، متوقفاً على زمرة من ضعفاء الرجال .

وليست القرارات البطيئة والمتوانية أقل ايذاء من القرارات الغامضة ، ولا سيما عندما تكون القضية متعلقة بتقرير ما اذا كان العون سيبذل الى حليف ، وذلك لأن هذا البطء لا يفيد اي انسان ، وانما يلحق الأذى بصاحبه نفسه . وينشأ البطء في الوصول الى القرارات اما من الافتقار الى الشجاعة والعزيمة ، او الى سوء النية عند الذين يتوقف عليهم القرار نفسه . ويحاول الرجال الذين يتأثرون بأذواقهم الخاصة في الحالة الأخيرة، تحقيق سقوط الحكومة او تحقيق أية أهداف اخرى تعنيهم، ولذا يلجأون الى الحيلولة دون سير المناقشات في طريقها الطبيعي ، وعرقلتها بواسطة اقامة العقبات في وجهها، أما المواطنون الصالحون ، فعلى الرغم من انهم يرون أحياناً ان سخط الجماهير متجه الى اتخاذ سبيل مؤذ ، الا انهم لا يقيمون العراقيل أبداً في طريق الوصول الى قرار، ولا سيما اذا كانت القضية على جانب كبير من الالحاح الذي يتطلب السرعة .

وقد نشب في سراقوزه بعد موت طاغيتها هيرونيموس ، وكانت الحرب الكبرى لا تزال مستعرة الاوار بين القرطاجنيين والرومان صراع حول ما اذا كان من واجب المدينة التحالف مع رومة او مع قرطاجنة . وكان حماس الفريقين المتصارعين شديداً الى الحد الذي ترك القضية دون قرار وموضع الشك ، الى ان القى ابولونيدس ، وهو من أبناء المدينة البارزين خطاباً حتمه التعقل ، أظهر فيه ان اللوم يجب ان لا يوجه الى

المطالبين بالتحالف مع الرومان ولا الى اولئك الذين يؤيدون التحالف مع القرطاجنيين ، ومع ذلك فأن الغموض والبطء في الوصول الى قرار يجب ان ينتهيا ، وذلك لأن من الواضح بالنسبة اليه،ان هذا التذبذب سيسبب الخراب للجمهورية ، بينما اذا توصلت المدينة الى قرار ، في اي اتجاه كان ، فأن هذا القرار سيكون لنفعها وخيرها .

ولم يكن في وسع تيتوس ليفي ، ان يعرض بشكل أوضح ، مغبة ما يؤدي اليه التردد من ضرر بالغ . وهو يعرض الحالة هذه أيضاً في حادثة اخرى يرويها عن اللاتين ،اذ عندما طلب هؤلاء العون على الرومان من اللافينيين ، تأخر هؤلاء في الوصول الى قرار،وعندما وصلوا اليه ، وزحفوا بجيوشهم ، خارجين بها من أبواب مدينتهم لمساعدة اللاتين ، كانت الأنباء قد جاءت حاملة هزيمة هؤلاء . وهنا قال حاكمهم ميليونيوس : « سيحملنا الرومان على ان ندفع غالياً ثمن هذه الرحلة القصيرة ». اذ لو قرروا منذ البداية مساعدة اللاتين أو عدم مساعدتهم، لأمكنهم تجنب ازعاج الرومان في الحالة الثانية ، أو تحقيق النصر معهم في الحالة الاولى،عن طريق قواتهم المشتركة،ولكنهم بترددهم وتسويفهم، عرضوا أنفسهم للخسارة على أي حال ، كما وقع فعلاً .

ولو كان الفلورنسيون قد لاحظوا أهمية هذا الحادث، كما عانوا كل تلك الخسائر على أيدي الفرنسيين ، ولما أثاروا سخطهم ، عندما عبر ملكهم لويس الثاني عشر ايطاليا في طريقه لمهاجمة لودفيكو سفورزا دوق ميلان . اذ عندما كان الملك يدرس القضايا المتعلقة بهذه الحملة ، حاول الفلورنسيون الوصول الى تفاهم معه ، ووافق ممثلوهم الذين كانوا آنذاك في بلاطه على الوقوف على الحياد ، مقابل ان يشملهم الملك بحمايته عند مجيئه الى ايطاليا ، وان يحافظ على اوضاع حكومتهم . وأعطى الملك للمدينة مهلة شهر واحد لابرام هذا الاتفاق ، ولكن هذا الابرام تأجل بسبب ما أبداه العاطفون من أهل المدينة على قضية لودفيكو ، من عدم

تبصرة،وهكذا عندما غدا الملك فعلاً على أهبة الغزو وأراد الفلورنسيون ابرام الاتفاق ، رفض الملك ذلك ، لأنه أدرك انهم أرغموا على اتباع هذا السبيل ، وانهم لم يكونوا مدفوعين الى اتباعه طواعية وبسبب ما يحملونه له من ود وصداقة . وقد كلف هذا الموقف مدينة فلورنسة ثمناً غالياً من المال ، وكاد يؤدي بها الى الثورة،التي وقعت فعلاً في مناسبة اخرى لعين السبب . وكان السبيل الذي اتبعه الفلورنسيون اكثر ايذاء لهم ، اذ لم يؤد الى مساعدة دوق ميلان على اي حال،مع العلم ان الدوق لو انتصر ، لكشف عن عداء لفلورنسة يفوق عداء ملك الفرنسيين .

وعلى الرغم من انني بحثت في فصل سابق ، الشرور التي تنجم عن مثل هذا الضعف من الجمهوريات ، الا انني قررت ان اغتنم الفرصة التي أتاحتها لي الحادثة الجديدة لتكرار ما سبق لي قوله ، لا سيما وانه يبدو لي ان من واجب الجمهوريات،ولا سيما ما يشبه منها جمهوريتنا ، العناية بهذه القضية كل العناية .

الكتاب الثاني

المطارحات من ١٦ الى ١٨

الجيش : انضباطه والاجزاء التي تؤلفه

١٦

لا يبلغ انضباط الجيوش في شأوه هذه الأيام ما كان عليه في الايام الخوالي

كانت المعركة التي خاضها الرومان مع شعوب اللاتين ، في عهد قنصلهم توركواتوس رديسيوس(١) ، أهم معركة خاضوها في تاريخهم

١ توركواتوس (تيتوس مانليوس) و قد أحرز لقبه توركواتوس من انتصاره على الغالي في المبارزة وأخذه الطوق من عنقه . عين ديكتاتو رأ مرتين وقنصلا اربع مرات ، وانتصر مع زميله ديسيوس بوبليوس ، القنصل الثاني على اللاتين في معركة فيزوف . وقد انتحر ديسيوس ليضمن النصر للرومان ، لأن العرافة قالت ان الجيش الذي يقتل قائده سينتصر . — المعرب —

العسكري مع أي جيش آخر . فقد اشارت جميع الدلائل الى ان الرومان كانوا سيغدون شعباً مستعبداً لو خسروا هذه المعركة ، وذلك لأن اللاتين قد غدوا كذلك بعد خسارتهم لها . وهذا هو الرأي الذي أورده تيتوس ليفي ، وذلك لأن الجيشين كانا متماثلين في الانضباط والفضيلة (الشجاعة) والعناد ووفرة العدد وكان تفوق القادة الرومانيين على اقرانهم اللاتين في المقدرة والكفاية ، هو الفارق الوحيد بينهما .

ويلاحظ المرء ، أن سير هذه المعركة قد شهد حادثين لا سابق لهما ، ولم يحدث نظيرهما ، فيما بعد الا فيما ندر ، اذ أقدم احد القنصلين رغبة منه في تشديد عزائم الجنود ، وحملهم على طاعة أوامره ، على قتل نفسه ، بينما أقدم القنصل الثاني على قتل ولده . ويرد تيتوس ليفي هذا التعادل بين الجيشين الى ما دار بينهما من حروب طويلة في الماضي ، وإلى ما تميزا به من تعادل في الروح الانضباطية ، ومن تشابه في اللغة ، ومن تماثل في الاسلحة التي يستعملانها وكانا في تنظيم صفوفهما للقتال يتخذان نفس التشكيلات ، وتحمل وحداتهما وضباطهما نفس الاسماء . ولما كانا على هذا النحو من التكافؤ في القوة والشجاعة ، فقد بات من الضروري ، وقوع شيء خارق للعادة ، لتقوية حماس الجنود وتشديـــد عزائمهم من رجال احد الفريقـــين ، لا سيما وقد رأينا في مناسبات سابقة ان النصر يعتمد على التصميم ، وانه طالما وجد هذا العنصر في صدور من يقاتلون فانهم لا يولّون الادبار ابداً ، ولما كان هذا العزم قد ثبت في صدور الرومان مدة أطول من ثباته في صدور اللاتين ، فقد كان هذا وليـــد الصدفة من ناحية ووليد ما يتمتع به القنصلان من ناحية أخرى من فضيلة تمثلت في قتل توركواتوس لولده ، وقتل ديسيوس لنفسه .

وقد شرح تيتوس ليفي ، عند تحدثه عن هذا التكافؤ بين الفريقين ، الطريقة التي كان الرومان ينظمون فيها جيوشهم ويعدونها لخوض المعركة شرحاً وافياً . ولما كان قد أطال في هذه الناحية اطالة مستفيضة ، فانني

لا أرى تكرار كل ما قاله ، مكتفياً ببحث النقاط التي أعتبرها جديرة بالملاحظة ، والتي أرى ان جميع قادة اليوم يهملونها ، مما أدى الى هذا الافتقار الفاضح في نسق جيوشهم الصحيح ، وذلك عند تنظيمها وعند خوضها المعارك . وكان الجيش الروماني على حد شرح تيتوس ليفي يضم ثلاث فرق رئيسية، يمكن ان نطلق عليها اسم التعبير التوسكاني « ثلاثة صفوف » . وكانوا يطلقون على الأول اسم «هاستاتي» والثاني اسم « برينسيبس » والثالث اسم « ترياري » . ولكل صف من هذه الصفوف فئته الخاصة من الفرسان الملحقة به . وكانوا عند اعداد الجيش للمعركة ، يضعون الصف الأول في الطليعة ، والثاني وراءه مباشرة ، والثالث في المؤخرة، وعلى بعد مماثل للبعد بين الصفين الأولين . وكانوا يوزعون فئات الفرسان الملحقة بها على الميمنة والميسرة ، ويطلقون عليها اسم « الجناحين » . لأنها تشبه في تشكيلها وفي وضعها الجناحين تمام الشبه . وكانت تشكيلات الصف الأول متقاربة ومتماسكة بحيث تتمكن من الاندفاع كقوة واحدة ، ومن الوقوف في وجه العدو ان هاجمها . أما الصف الثاني ، فلا تكون تشكيلاته على هذا النحو من التقارب ، لأن ليس من شأنه الاشتباك مع العدو في بداية المعركة ، وانما مهمته ان يسارع الى نجدة الصف الأول في حالة هزيمته أو اشتداد الضغط عليه ، ولهذا كانت صفوفه « رقيقة » لتتمكن من سرعة الحركة ، ومن تقبل الصف الاول ليندمج فيها في حالة تراجعه مهزوماً أمام العدو . وكان الصف الثالث أقل كثافة من الثاني أيضاً ، بحيث يستطيع تقبل الصفين الأولين في تشكيلاته في حالة تراجعها . وعندما تتهيأ قوات الرومان على هذا النحو كانت تمضي الى المعركة ، فاذا ما اضطر الصف الأول الى التراجع أو غلب على أمره ، انسحب ليلتئم فوراً مع الصف الثاني في تشكيلاته الرقيقة ، وعاد الصفان يؤلفان جسماً واحداً متماسكاً ، يستأنف القتال . واذا ما اضطر الصفان من جديد الى التراجع أو منيا بالهزيمة ،

انسحبا الى تشكيلات الصف الثالث يندمجان فيها ويؤلفان معها جسماً واحداً يستأنف القتال . أما اذا غلبت الصفوف الثلاثة على أمرها ، فان المعركة تكون قد انتهت ، اذ لم يكن امامها فرصة لاعادة تشكيلها . ولما كان اشتباك الصف الثالث في القتال يعني تزايد الخطر على الجيش ، فقد انتشر المثل السائر ... « كل شيء يعتمد على الصف الثالث » ، وهو يعني ما نعنيه في لغتنا التوسكانية « لقد جازفنا بآخر ورقة » .

ولما كان قادتنا العسكريون قد تخلوا عن جميع التقاليد الاخرى ، ولم يعودوا يكترثون بأية نقطة من نقاط التنظيم العسكري القديم ، فقد أهملوا هذه النقطة ايضاً ، وهي ليست بالضئيلة الأهمية على أي حال . اذ لما كان في وسع الجيش عن طريق هذا التشكيل ، ان يعيد تنظيمه ثلاث مرات في غضون معركة واحدة ، فان خسارة هذه المعركة تعني ان سوء الطالع يجب ان يرافقه ثلاث مرات . وان شجاعة المهاجمين يجب ان تكون كافية الى الحد الذي تستطيع ان تقهره ثلاث مرات متعاقبة . أما الجيش الذي لا يستطيع الصمود الا لهجوم واحد ، وهو شأن جميع الجيوش المسيحية ، فانه قد يخسر المعركة بسهولة ، اذ أن ارتكابه مرة واحدة ، أو اهمال الشجاعة فيه لحظة واحدة ، يعرضه الى فقد كل أمل في النصر . ويعود عجز جيوشنا عن اعادة تنظيم أنفسها مرات ثلاثاً في معركة واحدة إلى تخليها عن التقليد الروماني في دمج صف متراجع في الصف الذي يليه . ويرجع هذا العجز ايضاً ، الى وجود احدى نقيصتين في التشكيلات الراهنة ، وأولاهما ، ان يصف الجيش في صف واحد طويل ، يتميز باتساع الجبهة وضحالة العمق في خط الهجوم ، مما يعرضها الى الضعف في حالة القتال لأنها لا تجد ما تركن اليه ، وثانيتهما ، ان يصف الجيش رغبة في تقويته على الطريقة الرومانية ، أي على صورة كثيفة، ولكن بالنظر الى عدم وجود ترتيب يسمح للصف الأول بالتراجع الى الصف الثاني في حالة الهزيمة ، فان

هزيمته تعني اشتباك الحابل بالنابل ، وتعرض الجيش كله للانكسار ، اذ عندما يسوء وضع الصف الأول يصطدم بالثاني ، ولا يتاح لهذا المجال للتقدم اذا اراد ، بالنظر الى ما يضعه الصف الأول المهزوم من عقبات في طريقه . وهكذا عندما تتراجع الصفوف على بعضها يسود الاضطراب، ويتعرض الجيش كله للدمار عند وقوع أول نازلة به .

وكان الجيشان الفرنسي والاسباني قد اصطفا على النحو الذي ذكرته في معركة « رافينا » ، وهي المعركة التي قتل فيها المسيو دي فوا قائد الجيوش الفرنسية ، والتي كانت من أروع المعارك ، طبقاً لما يجري عليه القتال الآن من أساليب ، اي ان كلاً من الجيشين ، تقدم الى المعركة وقد سار رجاله كتفاً الى كتف ، وعرض جبهة واحدة ، أعظم في مداها واتساعها من عمقها. وهذا هو الاجراء الذي تتبعه الجيوش العصرية عندما تكون عاملة في سهل فسيح ، كالسهل الذي دارت فيه معركة رافينا ، اذ ان ادراكها لما يحدثه الانسحاب من اضطراب. عندما تكون الصفوف ممتدة عمقاً ، يدفعها الى تجنب ذلك، عندما تستطيع ، بمد جبهتها عرضاً ، كما سبق لي قوله من قبل . أما اذا كان المجال في منطقة المعركة ضيقاً ، فأنها تلجأ الى الترتيب السيء السابق دون ان تقدم له أي علاج . وهكذا تتقدم في هذا التشكيل السيء مجتازة بلاد العدو ، سواء بقصد النهب او بقصد اداء أية مناورة عسكرية أخرى .

وعزيت الكارثة التي منيت بها جيوش الفلورنسيين في سان ريفولو في منطقة بيزا ، وفي غيرها من الاماكن التي التقى الفلورنسيون فيها في معارك مع البيزيين والتي هزموا فيها ، وذلك ابان الحرب التي نشبت بينهما بعد ان مر شارل ملك فرنسا بجيوشه عبر ايطاليا ، وبعد ان ثارت بيزا على فلورنسة، الى تراجع فرسان الفلورنسيين الذين كانوا في الطليعة عندما صدتهم قوات العدو ، فانقلبوا موقعين الفوضى في صفوف مشاتهم التي تحطمت ، مما أدى الى هزيمة كافة القوات . ولقد ذكر لي السيد

سيرياكوردال بورجو ، الذي كان في وقت ما قائداً لمشاة الفلورنسيين انه لم يهزم قط الا على أيدي فرسان القوات الحليفة له . ويعني السويسريون الذين يعتبرون اساتذة الفنون الحربية اشد العناية ، عندما يحاربون الى جانب الفرنسيين ، بالبقاء في الجناحين، حتى اذا ما ارغم فرسان حلفائهم على التراجع ، لم يصطدموا بهم ، ليوقعوا بهم الاضطراب . وعلى الرغم من سهولة فهم هذه الامور ، ومن سهولة تطبيقها أيضاً ، لا يبدو ان اياً من قادتنا العسكريين المعاصرين قد تبنى في تشكيلات جيشه ما كان يتبعه الأقدمون ، مصلحاً نظام تشكيلاته الحاليـة . وعلى الرغم من ان بعضهم قد لجأ الى تشكيلات عسكرية ثلاثية ، يطلق عليها أسماء المقدمة والقلب والمؤخرة، الا ان هذا الترتيب لا يخدم أي غرض من الاغراض سوى توزيع الجنود على كتل . يضاف الى هذا ، ان القادة المعاصرين عندما يلجأون الى الافادة من هذه الطريقة في التوزيع ، فأن من النادر ان لا تتعرض قواتهم للمصير الذي سبق لي ذكره والذي ينزل بجميع هذه الفئات العسكرية .

ولما كانت رغبة الكثيرين تتجه الى اخفاء ما هم عليه من جهل ، بالادعاء بأن قوة المدفعية التدميرية ، لا تسمح في هذه الايام باستخدام الكثير من الاجراءات العسكرية السابقة ، فقد رأيت ان أتحدث عن هذا الموضوع في الفصل التـالي ، متحرياً عما اذا كانت المدفعيـة تجعل من المستحيل على جيوش اليوم ، ان تعرض ما كانت تعرضه جيوش الأمس من شجاعة نادرة .

١٧

أهمية المدفعية بالنسبة إلى الجيوش العصريـة وهل ما يقال عنها من آراء عامة صحيح كل الصحة؟

عندما افكر بالاضافة الى ما أوردتـه في الفصل السابق ، بما خاضه

الرومان في أوقات متباينة من معارك مكشوفة يطلق عليها الفرنسيون اسم «الايام الحاسمة» ،ونطلق عليها نحن الايطاليين اسم «معجزات الحرب» ، تتوارد الى خاطري فوراً الاراء الشائعة ، والتي يؤمن بها الكثيرون، من ان المدفعية لو كانت معروفة في عهد الرومان ، لما تمكنوا من احتلال كل ما احتلوه من مقاطعات ،واخضاع جميع من أخضعوهم من شعوب بنفس تلك السهولة،ولما تيسر لهم الاحتفاظ بممتلكاتهم بكل ذلك اليسر . ويزعم هؤلاء الناس أيضاً ، ان استخدام هذه الاسلحة المدمرة يحول بين الناس وبين ابراز شجاعتهم واستخدامها ، على النحو الذي كانوا يفعلونه في الماضي . ويوردون كنقطة ثالثة ان الاشتباكات غدت اليوم أصعب مما كانت عليه في الماضي،وان من المستحيل اللجوء الى ما كان الاولون يفعلونه ويطبقونه من أساليب ، وذلك لأن الحرب ستتحول قبل مضي عهد طويل الى مجرد قوة مدفعية .

ولا أرى في درس ما ينطوي عليه هذا الرأي من صحة ، خروجاً على الموضوع ، كما لا أرى مثل ذلك في البحث عما اذا كانت المدفعية قد عززت قوة الجيوش او أضعفتها ، وما اذا كانت قد حرمت القادة الممتازين من الفرصة لاظهار شجاعتهم او زودتهم بمثل هذه الفرصة . والآن لنبدأ البحث في اول هذه المزاعم ، وهو انه لو كانت المدفعية موجودة في ايام الجيوش الرومانية لما تمكنت هذه الجيوش من احتلال ما احتلته .

وأقول للرد على هذه النقطة،ان الحروب تكون على نوعين، هجومي ودفاعي ، وعلينا ان نجد أولاً،في اي من هذين النوعين تكون المدفعية أكثر نفعاً ، وفي ايهما تكون اكثر خطورة . وعلى الرغم من وجود ادلة تعزز كلاً من الناحيتين ، الا انني واثق من ان المدفعية تكون الى حد بعيد عن القياس ، اكثر ضرراً للمدافعين منها للمهاجمين . والسبب في ذلك ، كون المدافعين دائماً اما وراء اسوار مدنهم ، او مرابطين

وراء متاريسهم . وقد تكون المدينة التي يدافعون عنها صغيرة كما هي الحالة في معظم القلاع ، او كبيرة . فأذا كانت صغيرة،فعلى المدافعين السلام ، لأن قوة المدفعية من الهول بحيث لا تستطيع اية أسوار مهما كانت على درجة كبيرة من الضخامة الصمود امامها اكثر من ايام معدودات . وهكذا اذا لم يتوافر لحماتها المجال الفسيح الذي يستطيعون التراجع اليه في حالة انهيار الاسوار وحفر الخنادق فيها واقامة المتاريس، فأن مصيرهم حتمي ، ولن يكون في وسعهم الصمود امام هجوم يقوم به عدو صمم على شق طريقه عنوة ، عبر فجوة شقها في الاسوار،حتى ولو كانت لديهم قوة مدفعية تؤيدهم ، اذ من القواعد العسكرية المعترف بها ، ان المدفعية تكون عاجزة امام هجوم كثيف مركز . ولم يفلح الدفاع عن هذه المدن ، امام هجمات اهل الجبال لهذا السبب ، بينما نجح امام هجمات الايطاليين نجاحاً بارزاً للغاية ، وذلك لأن هؤلاء لا يهاجمون بوحدات كثيفة وانما بفصائل ، وبشكل هو اقرب الى الاشتباك منه الى الهجوم . اذ ان التقدم على هذا النحو المسترخي من التشكيلات الضعيفة، من فجوة تم احداثها في الاسوار التي تخفي وراءها قوات مدفعية ، لا يعني الا شيئاً واحداً وهو التقدم من الموت المؤكد ، وذلك لأن المدفعية تفعل في مثل هذه الحالات فعلها . اما اذا كان المهاجمون يؤلفون حشداً ضخماً يتقدم بقوة من الفجوة ، فأنه يقتحمها حتماً في اية ناحية من نواحيها ، الا اذا اوقفته الخنادق والمتاريس ، ولن تستطيع المدفعية وقفه اذ على الرغم من قتل بعض المهاجمين الا ان عدد القتلى لن يكون من الضخامة بحيث يحول دون تحقيق النصر .

ويظهر العدد الكبير من المدن الايطالية التي اقتحمها أهل الجبال ، وبينها بريسكيا طبعاً ، صحة ما قلت . فعندما ثارت هذه المدينة على الفرنسيين الذين ظلوا يحتلون قلعتها باسم ملكهم ، قام البنادقة رغبة منهم في منع اي هجوم قد يشن من القلعة من تحقيق هدفه باحتلال المدينة ،

بنصب مدافعهم على طول الشارع الذي يصل بين القلعة والمدينة ، باثينها في المقدمة وعلى الأجنحة وفي كل مكان تيسر لهم . ولكن القائد الفرنسي المسيو دي فوا ، لم يهتم بكل هذا ، وتمكن بسريّة من فرسانه الذين ترجلوا عن جيادهم من اقتحام نيران المدفعية واحتلال المدينة، ولم نسمع بأن المدفعية سببت له اي ازعاج او خسارة تذكر . وهكذا فأن مصير حماة اية مدينة صغيرة ، يغدو محتوماً كما قلنا، عندما يرون ان اسوارهم قد تحطمت ، وانه لم يبق لديهم مجال يتراجعون اليه ليتحصنوا وراء خنادقهم ومتاريسهم ، معتمدين فقط على مدفعيتهم .

وتظل المدفعية أكثر نفعاً للمهاجمين منها للمدافعين حتى في الحالة التي يكون الدفاع فيها عن مدينة كبيرة تضم كل ما يحتاجه الحماة لتراجعهم. ولهذا أسباب عدة اولها،انك اذا أردت لمدافعك ان تلحق ضرراً بمهاجميك توجّب عليك رفعها عن الارض ، اذ لو ظلت على مستواها فان أي خندق يحفره العدو مهما صغر ، وأي متراس يقيمه يضمن له السلامة ، ولا يكون في مكنتك ان تلحق به أي اذى ، ولكنك اذا تبنيت هذه الحقيقة ، وارتفعت بمدفعيتك وسحبتها الى فجوة في الاسوار ، أو علوت بها عن الأرض بأية طريقة اخرى ، فستواجه صعوبتين ، اولاهما انك لا تستطيع استخدام مدفعية تعادل ما يستخدمه مهاجموك من ناحية الحجم والقوة النارية ، اذ يستحيل في مجال ضيق استخدام مدافع ثقيلة، وثانيتهما انك حتى مع نجاحك في الوصول بها الى ذلك المكان المرتفع،لن تتمكن من اقامة متاريس أمينة وموثوقة تحمي بها مدافعك ، بينما يكون هذا سهلاً على مهاجميك بالنسبة الى ما يتوافر لهم من مزايا ومن مجال فسيح. وعلى هذا يستحيل على حماة أية مدينة ان ينصبوا مدافعهم في اماكن مرتفعة، عندما تكون في حوزة المهاجمين مدافع ثقيلة وكافية ومن طراز قوي ، أما اذا اضطروا إلى وضعها في اماكن منخفضة غدت غير مجدية لهم كما سبق لنا قوله . ويكون الدفاع عن المدينة بالنتيجة ، عن طريق

الاشتباك بالسلاح الابيض كما كان يقـــع في العصور القديمة ، على ان تدعمه بعض وحدات المدفعية الخفيفة . وعلى الرغم من ان هذه المدفعية الخفيفة قد تجدي بعض الشيء ، الا انها تنطوي في الوقت نفسه عـــلى مساوىء توازي منافعها ، وذلك لأن المدفعية الثقيلة التي يملكها المهاجمون، تدمر اسوار المدينة وتحيلها الى ارض مستوية ، أو الى خنادق تدفنهـــا فيها بحيث عندما تتحول المعركة الى القتـــال بالسلاح الابيض ، يغدو المدافعون في وضع اسوأ مما كانوا عليه في السابق ، وذلك لأن اسوارهم قد تحطمت،وخنادقهم قد امتلأت بالحطام . وعلى هذا فان هذه الادوات الحربية ، اجدى للمحاصرين منها للمدافعين كما سبق لنا ان قلنا من قبل.

ونصل الآن الى النقطة الثالثة ، فاذا كان معسكرك قائماً وراء متاريس تجنبك المعارك المكشوفة الا عندما يكون من مصلحتك خوضها ، فانني أرى ان وضعك في هذه الحالة ، لن يكون أفضل بشكل عام من ناحية قدرتك على منع الاشتباك مما كان عليه وضع الاقدمين ، بل قد تكون في بعض الاحايين ، وبسبب وجود المدفعيـــة في وضع اسوأ . اذ لو داهمك العدو وكان يفضلك بعض الشيء في موقعه ، كما يحدث دائماً ، اذا كان على ارض اكثر ارتفاعاً من الارض التي تعسكر عليها ، او اذا لم تكن عند وصوله ، قد اكملت حفر خنادقك بعد ، وتمترست وراءها ، بصورة قوية ، فانك ستجد نفسك مرغماً على الفور ، ودون ان تستطيع ان تعمل شيئاً ، وقد تزحزحت من موقعك الحصين،وتركته لتشتبك معه في معركة حاسمة . وقد حدث هذا للاسبان في معركة رافينا (Ravenna)(١) فلقد حصّنوا انفسهم على ضفاف نهر « رونكو » ،

١ رافينا اسم مدينة تقع في سهل المستنقعات في شمال ايطاليا إلى الجنوب الشرقي من فيرارا وتبعد ستة أميال عن ساحل الادرياتيك . وتضم آثاراً رائعة بينها كاتدرائية جميلة . ويبلغ عدد سكانها الآن ٨٦ الفاً . وقعت فيها المعركة المشهورة باسمها عام ١٥١٢ بين الجيش الفرنسي من ناحية والقوات الاسبانية والبابوية من الناحية الأخرى ، وقد انتصر فيها الفرنسيون وإن فقدوا قائدهم غاستون دي فوا . – المعرب –

ولكن الاتربة التي اقاموا منها متاريسهم لم تكن كافية العلو ، ووجـد الفرنسيون أنفسهم في وضع أفضل واكثر ارتفاعاً ، فأرغموهم على ترك حصونهم والاشتباك في المعركة . ولو افترضنا وهذه حالة شائعة ، انك اخترت موقعاً يعلو الموقع الذي اختاره عدوك،وان الخنادق التي حفرتها كانت متينة وصالحة، بحيث تعذر على العدو بسبب موقعك واستعداداتك ان يجرؤ عـلى مهاجمتك ، فانه سيلجأ في هذه الحالة حتماً الى نفس الاساليب التي كانت تتبع في العصور الغابرة،عندما يكون احد الجانبين في موقع لا يستطيع الجانب الآخر ان ينـاله فيه ، وهي احراق الزرع والضرع حولك ومحاصرة المدن الصديقة لك وقطع سبل تموينك ، ممـا يحملك مرغماً في النهاية، بسبب هذه الاوضاع، على التخلي عن معسكرك والخروج الى العراء ، حيث لا يكون للمدفعية كما سأشرح فوراً ، أي تأثير كبير . وعلى هذا ، فبالنظر الى الاسباب التي كانت تدعو الرومان للحرب ، والى ان معظم حروبهم كانت من النوع الهجومي لا الدفاعي، فان ما سبق لي قوله صحيح كل الصحة ، وهو انه لو وجدت المدفعية في ايام الرومان لكان هذا من مصلحتهم ، ولكان عاملاً في الاسراع بفتوحاتهم .

أما بالنسبة الى الزعم الثاني ، القائل بأن المدفعية تحول بين النـاس وبين عرض شجاعتهم على النحو الذي كانوا يعرضونها فيه في الماضي، فأنا أقر بصحته ، بالنسبة الى الحالة التي يكون فيهـا هذا العرض من وحدات صغيرة، اذ ان الخطر اليوم اكبر مما كان عليه في الماضي بالنسبة إلى هذه الوحدات اذا حاولت تسلق أسوار مدينة محاصرة ، أو الهجوم عليها على هـذا النحو ، لا في صورة مكثفة ، بل في صورة فردية يتعرض فيها جندي بعد آخر للخطر . وصحيح ان قادة الجيش وضباطه اصبحوا اليوم اكثر عرضة لخطر الموت من الماضي،لأنهم أصبحوا معرضين لنيران المدفعية في كل مكان يقفون فيه . ولا يجديهم قط ان يقفوا في

المؤخرة أو ان يحيط بهم لفيف من جنودهم البواسل . ويجد المرء مع ذلك ان اياً من هذين الخطرين لا يسبب الخسارة الا فيما ندر فالتسلق لم يعد مألوفاً بالنسبة لاسوار المدن المحصنة ، ولم يعد الهجوم عليها عملاً تقوم به قوات ضعيفة . واذا اتجهت النية إلى احتلال مدينة ، حوصرت كما كانت تحاصر في الماضي. ولم تغد الاخطار ، حتى في حالة اقتحامها اكبر مما كانت عليــه آنذاك ، اذ ان المدافعين كانوا لا يفتقرون في الماضي الى المعدات المتحركة ، التي وان لم تكن مماثلة في هولها للمدافع إلا انها لم تكن أقل منها تأثيراً في موضوع قتل الجنود . وأما بالنسبة الى مصرع القادة والضباط فلم يفق عدد من قتل منهم في الاربع والعشرين سنة الاخيرة التي اتخمت بالحروب في ايطاليا،عما قتل من القادة والضباط في غضون عشر سنوات من القتال . اذ لو استثنينا الكونت لودفيكو ديلا ميراندولا ، الذي قتل في معركة «فيرارا» عندما هاجمها البنادقة قبل بضع سنوات ، والدوق دي نيمور ، الذي قتل في « كيريغنولا » (١) ، فان المدفعية لم تقتل احداً ، لأن المسيو دي فوا قتل بالسيف لا بشظية قنبلة . وعلى هذا ، فــاذا كان الجنود كأفراد ، لا يعرضون شجـاعتهم،فان السبب في ذلك لا يعزى الى المدفعية ، وانما الى الاساليب السيئة ، والى ضعف الجيوش العصرية ، اذ لما كانت هـذه الجيوش تفتقر الى الشجاعة في مجموعها ، فانها لا تستطيع ان تعرضها في شخص أفرادها .

وارد على زعمهم الثالث الذي يقول باستحالة القتال بعد اليوم بالسلاح الابيض ، وبأن الحرب ستغدو في النهاية مقتصرة على المدفعية ، فأؤكد ان هذا القول باطل كل البطلان ، وسيظل كذلك ، بالنسبة الى كل من يتوق الى رؤية جيشه يعرض في عملياته الحربية شجاعة الأقدمين. ويجدر

---

١ اسم مدينة في مقاطعة فوجيا في ايطاليا ، ويبلغ عدد سكانها الآن اربعين الفاً . وقد دارت فيها معركة في عام ١٥٠٣ بين الجيشين الفرنسي والاسباني . وانتصر فيها الاسبانيون بقيادة قــائدهم كونسالفودا قرطبه (كوردوفا) ، كما قتل القــائد الفرنسي الدوق دي نامور .

— المعرب —

بكل من يريد تأليف جيش صالح ، ان يعوّد رجاله بالمعارك الوهمية التي يعدها لهم ، على العدو ، عن مقربة ، والسيوف في ايديهم . وعليه ان يعتمد بعد الآن على المشاة اكثر من اعتماده على الفرسان ، للاسباب التي سأوردها فوراً . وإذا ما اعتمد على المشاة بعد تدريبهم على النحو الذي ذكرت ، غدت المدفعية غير مجدية ، اذ من الاسهل على هؤلاء تجنب قنابل المدافع عند الاشتباك مع العدو ، من تجنب الفيلة أو العربات المجهّزة بالمناجل او غيرها من الاسلحة غير المعروفة ، والتي كان على مشاة الرومان مواجهتها في معاركهم . وكانوا يجدون العلاج الواقي من هذه الابتكارات والاساليب،ولا ريب انه كان من الاسهل عليهم ايجاد علاج ضد المدفعية بالنسبة إلى أن الوقت الذي ينقضي قبل وقوع ضررها يكون أقصر من الوقت الذي تحتاجه الفيلة والعربات ذات المناجل.فالاساليب القديمة توقع الاضطراب في الجيوش ابان المعركة ، أما المدفعية فتكون مصدر ازعاج قبل وقوع القتال الفعلي ، وفي وسع المشاة تجنب هــذا الازعاج بسهولة اما بالانتفاع من التغطية التي تتيحها لهم طبيعة الارض، او بالامتداد ارضاً في حالة وصول القذيفة . وقد اثبتت التجارب عـلى اي حال ، ان لا ضرورة لذلك ، ولا سيما بالنسبة للدفاع ضد المدفعية الثقيلة،اذ لا يمكن ضبط حساب المدى في هذه المدافع ضبطاً صحيحاً ، ولذا فقد تكون القذائف عالية للغاية فتتجاوزك ، أو منخفضة للغاية فتسقط أمامك .

ومن الواضح وضوح النهار،انه عندما يقع الاشتباك بالسلاح الابيض، لا تغدو للمدافع الثقيلة او الخفيفة اية قيمة من ناحية الاضرار بك . اذ لو وضعها العدو في الطليعة امكنك الاستيلاء عليها ، اما اذا وضعها في المؤخرة فأنها تصيب رجاله قبل ان تصيبك،واذا ما وضعها في الجناحين، لم يكن في امكانها ان تلحق بك كبير أذى ، واصبح في وسعك المضي للحصول عليها ، مما يؤدي الى نفس النتيجة تماماً . ولا تتعــرض هذه

القضية لكثير من الشك والتساؤل . فقد اتضح في معركة نوفارا عام ١٥١٣ ، ان السويسريين الذين لم يكونوا يملكون اية مدافع او اي قوة من الخيالة ، مضوا يهاجمون الجيش الفرنسي الذي تعززه المدفعية في مراكزه المنيعة ، ولم يجدوا كبير صعوبة في تحطيمه .

وهناك سبب آخر ، بالاضافة الى كل ما أوردته من اسباب ، وهو انه اذا كان المقصود من المدفعية ان تعمل ، فمن الواجب حمايتها اما بأسوار او بخنادق او بأكوام ترابية ، واذا ما افتقر الى هذا الطراز من الحماية ، تعرضت المدافع للوقوع في ايدي العدو ،او غدت غير مجدية ، وهو ما يحدث عادة ، عندما يجد الناس انفسهم مضطرين للدفاع عنها في معارك ثابتة واشتباكات مكشوفة . ولا يمكن استخدامها ايضاً في الجناحين ، مخافة ايجاد حيلة كتلك التي كانت تتبع في الماضي لاجتذاب معدات الحرب ، الى مواقع ثابتة خارج الصفوف ، وذلك بالنظر الى استعمالها في القتال ، خارجها ، فأذا ما غلب اصحابها على امرهم ، على ايدي فرسان العدو او اية قوات اخرى ، لجأوا الى معداتهم هذه ، يجعلون منها متاريس لهم ، ويختفون وراءها للتسلل الى الصفوف الخلفية النظامية ، ولا ريب في ان من يتوقع من المدفعية اكثر من هذا يخطيء كل الخطأ ويفتقر الى الفهم الصحيح ، ويضع ثقته في ما قد يطيح به بسهولة . واذا كان الاتراك قد انتصروا على القسطنطينية (صوفيا) ، وعلى سلطان مصر ، باستعمال مدافعهم ، فأن هذا النصر لا يرجع الا الى الفزع الذي كان يبعثه فرسانهم بأصواتهم غير المألوفة في صفوف العدو .

وعندما اصل الى نهاية هذه المطارحة ، اود ان اؤكد بأن المدفعية تكون نافعة للجيش اذا تعززت بالشجاعة التي كان يعرضها الأقدمون ، ولا فائدة لها بدون هذه الشجاعة ، في مواجهة جيش باسل .

١٨

يقوم الرومان دليلاً على أفضلية المشاة على الفرسان
كما تثبت ذلك الاجراءات العسكرية القديمة

يسهل على المرء ان يورد الاسباب الكثيرة للبرهنة على ما كان الرومان يولونه من تقدير عظيم جداً لمشاتهم يفوق تقديرهم لفرسانهم في جميع عملياتهم العسكرية ، وان يستشهد بالعديد من الحوادث التي تقوم دليلاً على هذا التفضيل ، وعلى انهم اقاموا جميع خططهم على هذا الاساس. فهناك شواهد عدة تؤيد هذه الحقيقة ، وبينها ان الرومان عندما خاضوا المعركة مع اللاتين على مقربة من بحيرة « ريغيلتوس »(١) اخذ الجيش الروماني يتجه نحو الهزيمة فصدر الامر الى بعض قوات الخيالة، بالترجل عن جيادهم والقتال كمشاة ، واستؤنفت المعركة من جديد وتحقق النصر لهم . ويتضح من هذه الحادثة ان الرومان كانوا اكثر ثقة بمشاتهم منهم بفرسانهم . وقد لجأوا الى هذه الواسطة في كثير من معاركهم ، وكانوا يجدونها دائماً خير علاج للأوضاع الكثيرة الخطر .

ولا يقف الرأي الذي عبّر عنه هانيبال ، في معارضة هذه الحقيقة على قدمين ثابتتين فقد لاحظ القائـــد القرطاجي في معركة كانيه ، ان القنصلين الرومانيين قد اصدرا اوامرهما الى الفرسان بالترجّل ، فسخر من ذلك قائلاً : «كنت اوثر لو سلّموا الي فرسانهم مشدودي الوثاق» . وعلى الرغم من صدور هذا الرأي عن قائد عسكري من الطراز الاول، الا انه اذا كان الموضوع متعلقاً بالثبت والحجة،فأن في وسع المرء ان يضع ثقة أكبر بالجمهورية الرومانية وبقادتها العسكريين وكلهم من الطراز الاول، منه بالثقة التي يوليها هانيبال وحده . يضاف الى هذا اننا لو لم نلجأ إلى الاقوال

١ بحيرة قديمة في ايطاليا على مقربة من جبال توسكانيا في بلاد اللاتين . وقد شهدت معركة بين الرومان و اللاتين في عام ٤٩٦ قبل الميلاد . — المعرب —

كحجج نستند اليها ففي وسعنا اللجوء الى المنطق السليم ،إذ من السهل على الراجل ان يصل إلى أماكن عدة لا يستطيع الفارس الوصول اليها ، كما يمكن تدريب المشاة على الحفاظ على صفوفهم ، وعلى إعادة تنظيمها في حالة تحطمها ، بينما يصعب تعليم الفرسان على الوقوف في صف واحد ، ويستحيل عليهم إعادة تشكيل هذا الصف إذا تعرض للانهيار والفوضى. ناهيك عن ان الجياد كالبشر تماماً ، تتعرض لحالات متباينة ، فتكون أحياناً فاقدة النشاط وأحياناً اخرى متوقدته،وكثيراً ما يمتطي فارس جبان جواداً نشيطاً او يستقل فارس مغوار جواداً خوّاراً ، وفي جميع هذه الحالات ، تكون النتيجة مقوّضة للجدوى والنظام .

وفي وسع المشاة إذا ما كانوا في تنظيم طيب الانتصار على الفرسان بسهولة ، بينما لا تنالهم الهزيمة على أيديهم إلا بمشقة بالغة . ولا تؤيد هذه النظرية بالعديد من الشواهد فحسب من قديمة وحديثة،وإنما يؤيدها أيضاً المؤلفون الذين يضعون قواعد لتسيير الشؤون المدنية ، فقد أظهر هؤلاء ان الاعتماد في الحروب كان في البداية على الفرسان ، إذ لم تكن ثمة قواعد قائمة لتنظيم صفوف المشاة ، ولكن بعد ان تم الوصول إلى هذه القواعد تبين فوراً ان المشاة أكثر نفعاً من الفرسان ، فالحاجة اليهم جوهرية لاغراض لاستكشاف،والاغارة على البلاد ونهبها ومطاردة العدو عند الهزيمة ، والتوازن مع فرسانه . لكن المشاة يجب ان يظلوا قاعدة الجيش وعصبه وان يولوا مكان الأفضلية والتقدير العظيم .

وبين الاخطاء الكثيرة التي اقترفها امراء ايطاليا الذين جعلوا بلادهم مستعبدة للاجانب ، خطيئة تفوقها كلها في خطورتها ، وهي احتفاظهم بهذا السلاح التافه القيمة ، وتكريس كل عنايتهم واهتمامهم له . ويعود سوء التدبير هذا إلى تشبث القادة بآرائهم ، وإلى جهل وزراء الدولة . إذ لما فقدت فرق المتطوعة الايطالية في غضون الخمس والعشرين سنة الماضية كل ما كان لها من مكانة رسمية، وغدت أشبه ما تكون بقوات

المرتزقة والمغامرين ، دار في خلد القادة العسكريين ذات يوم ، ان في وسعهم توطيد شهرتهم ، إذا وجدت لديهـــم قوات مسلحة في الوقت الذي لا يكون لدى الحكام مثلها . ولما لم يكن في وسعهم الاحتفاظ بعدد ضخم من المشاة ، بصورة دائمة ، يدفعون لرجالها رواتبهــم من جيوبهم، ولما لم يكن لدى هؤلاء القادة — وهم من المحاربين المأجورين بالطبع — رعايا يستطيعون تجنيد فتيانهم ، استداروا ناحية الفرسان، ففي وسع القائد المأجور إذا توافر له مائتان أو ثلاثمائة من الفرسان الذين يدفع لهم رواتبهم ان يضمن لسمعته مكانتها ، ولم تكن الرواتب ضخمة بحيث يتعذر عليه ان يحصل عليها من وزراء الدولة لدعم مراكزهم . وهكذا تحقيقاً منهم لغايتهم على السبيل الأسهل والأكثر هيناً ، استخف هؤلاء القادة العسكريون بكل ما كان للمشاة من مكانة وقيمة ، واضفوهما على فرسانهم ، وهي اساءة لا تغتفر ، قدر لها ان تنمو إلى الحد الذي غدا فيه المشاة لا يؤلفون إلا جزءاً ضئيلاً من اكبر الجيوش وأضخمها . ولا ريب في ان هذا الاجراء ، بالاضافة الى عدد لا يحصى من المساوىء المترابطة معه ، كان السبب الرئيسي في إضعاف فرق المتطوعة الايطالية إلى الحد الذي عرض البلاد لكي تصبح فريسة تدوسها أقدام جميـــع الجبليين .

ولايضاح ما في ايثار الفرسان على المشاة من خطأ فاضح،اود الاستشهاد بمثل آخر من التـــاريخ الروماني . فلقد كان الرومان يعسكرون امام « سورا » (١) . وخرجت من المدينة قوة من الفرسان لمهاجمة معسكرهم. وسارع قائد الفرسان الروماني مع رجاله الى لقائهم . وشاء الطالـع ان يقتل قائدا الفريقين المتحاربين عند اول لقاء . ومع ذلك مضت المعركة على اشدها ، وترجل الرومان عن جيادهم ليسهل عليهم التغلب عـــلى

---

١ بلدة قديمة في ايطاليا يعود عهد بنائها إلى أيام الرومان وتقع في مقاطعة فروزيوني على نهـــر ليري . و يبلغ عدد سكانها ٢٤,٥٠٠ . — المعرب —

اعدائهم ، فاضطر هؤلاء دفاعاً عن انفسهم الى احتذاء حذوهم، وتمكن الرومان عن هذا السبيل من تحقيق النصر . ولا ريب في ان هذا الحادث يظهر اكثر من اي حادث آخر ما للمشاة من فضيلة تفوق ما للفرسان اذ كان القناصل في العمليات الاخرى يأمرون فرسانهم بالترجل لمساعدة المشاة عندما يشتد الضغط عليهم ويصبحون في حاجة الى العون ، اما في هذا الحادث فقد ترجل الفرسان ، لا لمساعدة المشاة ، ولا للاشتباك مع مشاة العدو ، بل لانهم ابان قتالهم كفرسان ضد فرسان ، تبيّن لهم ما في تحقيق النصر من صعوبة على هذا النحو ، واعتقدوا ان بأمكانهم الفوز بسهولة اكثر اذا ترجلوا . واني لاستخلص من هذا الحادث ، انه لا يمكن للتغلب على مشاة في وضع حسن التنظيم الا عن طريق المشاة ، او الا بعد مشقة بالغة للغاية .

وقد تمكن الرومانيـــان كراسّوس (Crassus) (١) ومارك انطونيوس (Mark Antony) من اجتياح مملكة البارثيين(Parthians) (٢) بقوات

---

١ ماركوس كراسوس (١٠٨ – ٥٣) ق . م . قائد وسياسي رومـــاني من اسرة بارزة وثرية للغاية . انضم إلى صولا في صراعه مع ماريوس وتولى قيادة الجيش الذي عهد اليـه باخضاع ثورة المصارعين العبيد الذين يقودهم سبارتاكوس ، فانتصر عليهم وقتل قائدهم وأغدقت عليه روئة المكافآت . انتخب عام (٧٠) قنصلا مع بومبي . اتهم في مؤامرة كاتيلين ونجا منهـا باعجوبة . ثم اشترك مع بومبي وقيصر في الحكم الثلاثي . أعيد انتخـابه قنصلا مع بومبي عام ٥٥ ومضى يقود الجيش الروماني في سـوريا لقتال البارثيين ، فعبر الفرات حيث انتصر عليه القـائد البارثي سورنياز ، وقتل هنـاك غيلة وغدراً . اشتهر بالطمع وتجـارة الرّقيق .

٢ البارثيون الاسم الذي يطلق على أحد الاقوام الثلاثة التي يتألف منها الشعب الايراني، ويسميهم البعض بالفرس وان كان هذا الاسم (Persians) هو للفئة الثـالثة وكانت تقيم في الجنوب . أما الفئة الثانية فهم الماديون. وكان اسم « بارثيا » يطلق على البلاد الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين والتي تسمى اليوم خراسان . وكانت البلاد خاضعة للفرس ثم أصبحت خاضعة للسلوقيين إلى ان استقل فيها عاملها بارنيانز عام ٢٥٠ ، ثم قتله ارزاكس ، الذي شرع يوسع مملكته . وأقام ميثريداتيس الأول امبراطورية امتدت من الفرات إلى نهر السند ومن بحر قزوين إلى المحيط الهندي، واشتبكت البلاد في حروب متواصلة مع الرومان منذ القرن الأول قبـل الميلاد . ونقلوا أخيراً عاصمتهم إلى المدائن (Ctesiphon) التي تقوم قرية « سلمان باك » نسبة إلى الصحابي سلمان الفارسي على آثارها . – المعرب –

ضخمة من المشاة تعززها وحدات صغيرة من الفرسان ، بينما كانت لدى اعدائهم قوات ضخمة من الفرسان . وقد لقي كراسوس مع قسم من الجيش حتفه ، ولكن انطونيوس حارب ببسالة ، ونجا على الرغم من ذلك ، ومع ما عاناه الرومان من مصائب ، فلقد كانت للمشاة قيمة تفضل الفرسان ، لأن البلاد التي وقعت فيها المعركة ، كانت واسعة ، تندر الجبال فيها كما تندر الانهار ، وكانت البحار نائية عنها، والمتاعب والمزعجات متوافرة فيها ، ومع ذلك فقد حارب انطونيوس ، كما اعترف البارثيون انفسهم ، ببسالة وأنقذ نفسه ورجاله ، ولم يتمكن فرسان البارثيين من التجرؤ على القيام بمحاولة فاصلة مع جيشه . واذا كان كراسوس ، قد قتل ، فان كل من يقرأ السجلات التاريخية بعناية يدرك ، ان الخديعة لا القوة كانت السبب في مصرعه ، اذ على الرغم من جميع المتاعب التي مر بها لم يجرؤ البارثيون على مهاجمته . وقد ظلوا على النقيض من ذلك يطوفون حول جنوده ، قاطعين على قوافله طريقها ومغدقين الوعود التي لم يحافظوا عليها قط ، حتى تمكنوا من الوصول به الى مرحلة الاجهاد والعوز .

ولو لم تكن هناك شواهد عصرية متوافرة ، لوجدت صعوبة اكبر في اقامة الدليل على ان « فضيلة » (شجاعة) المشاة ، تفوق فضيلة الفرسان . فهناك قصة التسعة آلاف سويسري من المشاة الذين ذكرناهم من قبل ، والذين مضوا في معركة نوفارا ، يهاجمون عشرة آلاف فارس ، وعدداً ضخماً من المشاة معهم ، ويتغلبون عليهم ، وذلك لأن الفرسان لم يتمكنوا من الوصول اليهم، ولأن المشاة لم يكونوا من الطراز الذي يؤبه به كثيراً لأنهم من الغاسكونيين ،وكانوا يفتقرون الى السلاح. وهناك قصة ستة وعشرين الفاً من السويسريين ايضاً ، توغلوا حتى وصلوا الى ميلان ، طلباً للقاء فرنسيس ملك فرنسا ، الذي كان يقود عشرين الفاً من الفرسان وأربعين الفاً من المشاة ، ومائة قطعة من المدفعية ، واذا

كان هؤلاء السويسريون، لم يكسبوا المعركة الحاسمة كما فعلوا في نوفارا، فقد حاربوا ببسالة يومين متعـــاقبين ، وتمكنوا رغم هزيمتهم من انقاذ نصف قواتهم.وقد توافرت لماركوس ريغولوس اتيليوس (Marcus Rigulus) (١) الشجاعة الكافية لا لمقاومة الفرسان فحسب بل ولمقـــاومة الفيلة مع المشاة ، واذا كان لم يقدر له النجاح في مشروعه ، فان السبب في ذلك لا يعود الى افتقار مشاته للفضيلة ، بل الى عدم ثقته الكافية فيهم وفي قدرتهم على التغلب على الصعوبة التي تواجههم . وهنا أعود فأكرر القول بأننا اذا اردنا التغلب على قوات مشاة حسنة النظام فمن الضروري ان نزج أمامهم بقوات من المشاة تفوقهم نظاماً ، وإلا فان القضية يائسة تماماً .

وقد أغار نحو من ستة عشر الف سويسري في ايام فيليب فيسكونتي دوق ميلان على لومبارديا . ولم تكن قوات الدوق التي بعث بها لمقابلتهم تحت قيادة كارميغنولا الا لتعدو الفاً من الفرسان وبعض الوف من المشاة . وكان هذا يجهل طريقتهم في القتال ، فهاجمهم بفرسانـــه مفترضاً انه يستطيع ان يحطمهم فوراً وبضربة واحدة . ولكنهم ثبتوا للهجوم ، ولما كان قد فقد الكثيرين من رجاله ، فقد اضطر الى الانسحاب ، ولكنه كان رجلاً باسلاً على أي حال،وكان يحسن اهتبال الفرص عند سنوحها، اذا تبدلت الظروف ، فلما وصلته نجدات جديدة لتعزيز قواته ، سارع إلى لقاء السويسريين ، وطلب الى فرسانه الترجل ، ووضعهم في مقدمة ما لديه من المشاة ، ثم شرع يهاجم أعداءه . ولم يكن ثمـة مناص من

---

١ ماركوس ريغولوس اتيليوس مات عام ٢٥٠ ق. م. ، قنصل روماني تولى القنصلية عام ٢٦٧ ق. م. انتصر مع زميله لوشيوس مانليوس اونغوس على اسطول قرطاجنة ثم نزلا بجيشيهما في افريقيا عام ٢٥٥ . وقد انتصرا في البداية ، ولكن ريغولوس ما لبث أن انهزم وأخذ اسيراً . وبعد خمس سنوات طلبت قرطاجنة الصلح من رومة وبعثت سفراءها ومعهم ريغولوس الذي وعد القرطاجنيين بالعوده إذا لم يتحقق الصلح . واقنع مجلس الشيوخ الروماني بعدم قبول الصلح، ثم عاد مع السفراء حيث أعدمه القرطاجيون . — المعرب —

تقرير مصير المعركة ، اذ ان هؤلاء الفرسان بعـــد ان ترجلوا وكانوا مسربلين بالدروع والسلاح،تمكنوا من اختراق صفوف السويسريين دون ان يلحق بهم أذى ، وتيسر لهم ان يتغلبوا عليهم . وكانت النتيجة انه لم يبق من السويسريين حياً الا اولئك الذين شاءت انسانية كارميغنولا الابقاء عليهم .

واعتقد ان الكثيرين قد اصبحوا يدركون الآن الفرق في الفضيلة بين هذين النوعين من الجنود ، ولكن ايامنا هذه على درجة من التعاسة ، بحيث ان الشواهد العصرية والقديمة ، وكذلك ادراك الاخطاء على انهـــا أخطاء ، كلها امور لا تكفي لحمل الحكام المعاصرين عـلى اعادة النظر في آرائهم ليدركوا انه اذا أرادت جمهورية او امارة ، ان تحافظ على سمعتها العسكرية ، فأن من الضروري ، بعث هذه الأنظمة العسكرية ، وهذه القوات المسلحة وجعلها متوافرة ، واعادة قيمتها اليهـا ، وبعث حياة جديدة فيها ، لتستطيع ان تأتي للحاكم بالحياة والشهرة . ولكن لما كان الحكام قد هجروا هذه الأساليب ، فقد هجـروا أيضاً غيرها من الاساليب التي سبق لنا ذكرها ، وغدت الممتلكات نتيجة لذلك ، مؤذية لأية دولة تملكها بدلاً من ان تسهم في عظمتها وهو ما سنتناوله فوراً بالدرس والبحث .

الكتاب الثاني

المطارحات من ١٩ الى ٢٣

إدارة الأراضي المحتلة

والمشاكل الأخرى التي لا تقبل حلاً وسطاً

١٩

تسهم الممتلكات التي تحتلها أية جمهورية إذا لم تحكم حكماً صالحاً ، وتعامل كما كان الرومان يعاملون ممتلكاتهم في اسقاط تلك الجمهورية لا في تقدمها

تحول الآراء الخاطئة القائمة على أسوأ الشواهد المختارة ، والتي جاء بها عصرنا الفاسد الراهن ، دون تمكين الناس من التمحيص فيما اذا كان من الأفضل التخلي عن الأساليب المألوفة . وهل كان في وسع انسان ان

يقنع ايطالياً مثلاً ، قبل نحو من ثلاثين عاماً ، بأن في وسع عشرة آلاف من المشاة ان يهاجموا عشرة آلاف من الفرسان،ومعهم ما يماثلهم من المشاة في سهل مكشوف ، وان لا يقتصر الأمر على مجرد الاشتباك في معركة ، بل يتعداه الى قهرهم والتغلب عليهم ، كما وقع فعلاً في نوفارا ، وهي حادثة أشرنا اليها اكثر من مرة ؟ وحتى لو أتخم التاريخ بمثل هذه الشواهد ، فأن أحداً ما كان ليصدقها ابداً،وحتى لو صدقها، لوجد هناك من يعترض قائلاً ان الأسلحة في هذه الايام تفضل سابقتها، وان في وسع كتيبة من الفرسان ان تناطح الصخر، لا ان تكتفي بمجرد التغلب على فوج من أفواج المشاة.وكان الناس بمثل هذه الذرائع الخاطئة، يتلفون ما لديهم من صواب في الحكم ، ويتجاهلون ان لوكلوس ، (Lucullus) (١) قد تمكن بقوة صغيرة من المشاة من هزم مائة وخمسين الفاً من الفرسان يقودهم تيغرانيس(٢) ، وان بين هؤلاء الفرسان،طراز من الخيالة كان يشبه تماماً الطراز الموجود عندنا اليوم،وكيف ان رجال الجبال قد اثبتوا ايضاً ما في هذه المغالطة من زيف واضح .

ولما كان ما يقوله التاريخ عن المشاة ، قد ثبت صحته ، فأن من واجبنا ان نولي الثقة ايضاً لجميع الاجراءات القديمة الاخرى،وان نحاول الافادة منها . ولو تحقق هذا ، لكان في مكنة الجمهوريات والامراء ، الاقلال من ارتكاب الاخطاء ، والحصول على المزيد من القوة لدفع ما

---

١ لوشيوس لوكلوس (١١٠ – ٥٧) ق. م. من أشهر قادة رومة العسكريين من أصل عامي . انضم إلى صولا في حربه مع ماريوس، ثم انتخب قاضياً عام٧٧ فقنصلا عام ٧٤ . حارب في آسيا ثماني سنوات وانتصر على البارثيين وملك ارمينيا ، واحتل عاصمته ، ثم عاد إلى رومة حيث تقاعد ، وعاش حياة البذخ والترف في دارته .

٢ تيغرانيس أو ديكران . اسم لعدة ملوك من أرمينيا . والمقصود به هناديكر انملكارمينيا بين عامي ٩٦ و ٥٥ ق. م. وصهر ميثريدايتسالكبير ملك البارثيين . وقد سيطر على جميع انحاء سوريا حتى البحر . وقد انتصر عليه لوكولوس الروماني عام ٦٩ وبومبي عام ٦٦ ق. م.

– المعرب –

يتعرضون له من هجمات مباغتة ، وعدم تعليق الآمال في سراب خادع . ولكان في استطاعة من يعالج شؤون الهيئات السياسية ان يعرف بطريقة أفضل سبيل توجيه سياستها ، سواء استهدفت التوسع او الحفاظ على ما تملك . ولأدرك ان الطريقة المثلى للوصول بالجمهورية الى مراتب العظمة، ولاكتساب هذه الجمهوريـــة ما تشاؤه من توسع امبراطوري ، هو ان يزداد عدد سكانها ، وان يجعل من الدول الاخرى حلفاء لها لا رعايا، وان يبعث بجماعات المستوطنين لاقامة مستعمرات للحفاظ على سلامة البلاد المحتلة ، وان يودع خزائن الدولة ما يجمعه من الأسلاب والغنائم، وان يخضع العدو بالغارات والمعارك لا بالحصار ، وان يغني الخزينة العامة مع الابقاء على الأفراد فقراء ، وان يعنى أشد العناية بالتدريب العسكري . اما اذا كان يرى ان جميع هذه الأساليب لا تؤمن له التوسع ، ولا تحظى بموافقته،فأن عليه ان يفكر بأن كل احتلال يأتي عن سبيل آخر، سيؤدي الى خراب جمهوريته ، وان عليه تبعاً لذلك ، كبح مطامحه ، وتأمين السبل لتحسين ادارته الداخلية لبلاده نفسها عن طريق القوانـــين والعادات ، وان يحول بينها وبين احتلال مناطق جديدة ، متطلعاً فقط الى تأمين الدفاع عنها ، محسناً اعداداته التي تستهدف هذا الدفاع. وهذا ما تفعله الآن جمهوريات المانيا التي أحسنت القيام بمثل هذه الخطوات، ولذا فهي تنعم بالحرية ، وقد دام تمتعها بها فترة طويلة .

ومع ذلك، فقد سبق لي ان أوضحت في مكان آخر ، عندما بحثت في الفرق بين انشاء دولة تستهدف التوسع، وبين اقامة اخرى تستهدف الحفاظ على اوضاعها الراهنة ، ان من المستحيل على اية دولة ان تظل طيلة حياتها ، متمتعة تمتعاً هانئاً بحرياتها وبحدودها الضيقة ، اذ عـــلى الرغم من انها قدلا تتحرش بدول اخرى الا ان الآخرين قد يتحرشون بها ، واذا ما وقع هذا التحرش ، تولدت لديها الرغبة ، بل الحاجة في الغزو والفتح . وستجد هذه الدولة ايضاً ، انه على الرغم من عدم

وجود عدو لها في الخارج ، فان عدواً لها قد يظهر في الداخل ، ومثل هذا أمر حتمي في المدن الكبيرة .

ويعود الفضل في تمكن الجمهوريـــات الألمانية من العيش على هذا المنوال ، أي الحفاظ على اوضاعها الراهنة ، ومن البقاء وقتاً طويلاً ، الى الاوضاع التي تسود تلك الجمهوريات، والتي لا توجد في أي مكان آخر ، وهي اوضاع لا يمكن بدونها الحفاظ على هذا الطراز من نظام الحكم . ولقد كان هذا الجزء من المانيـــا الذي اتحدث عنه خاضعاً كما كانت فرنسا واسبانيا خاضعتين للامبراطورية الرومانية ، ولكن بعد ان اخذت الامبراطورية تسير في طريق التدهور والانحطاط . وبعد ان انتقل اللقب الامبراطوري الى المانيا ، بدأت المدن القوية فيها تحرر نفسها ، إما بسبب ما تميز به الاباطرة من ضعف ، أو ما تمثل فيهم من حاجة ماسة الى المال ، معوضةً على الامبراطور مقابل السيادة التي اضاعها عن طريق جزية سنوية تدفعها اليه ، وهكذا تمكنت جميع المدن التي كانت تتبع الامبراطور مباشرة ولا تخضع الى أي امير آخر ، من شراء حريتها بصورة متدرجة ومماثلة . وحدث في الوقت الذي كانت فيه هذه المدن تستعيد حريتها ، ان ثارت « كوميونات » ومدن أخرى ، كانت في وقت ما خاضعة لدوق النمسا ، على هذا الدوق ، وكان بينها فرايبورغ والمدن السويسرية وغيرها . وقد سارت هذه المدن في طريق الازدهار منذ البداية ، وارتفع شأنها شيئاً فشيئاً ، الى ان بلغت شأواً لم يمكنهـا من عدم تعريض أنفسها من جديد لنير النمسويين فحسب ، بل مكنها من ان تصبح مصدر الارهاب والفزع لجميع جيرانها . وانا أعني بهذه الكوميونات البلاد التي يطلق عليها اسم سويسره .

وهكذا تقسّمت المانيا بين السويسريين وبين الجمهوريات التي يطلق عليهـا اسم الدول الحرة ، وبين الامراء والامبراطور . ويرجع السبب في عدم نشوب الحرب بين هذه الاشكال المختلفة من انظمة الحـــكم ،

أو في عدم اطالتها فيما لو نشبت فعلاً ، الى وجود اللقب الامبراطوري ، اذ على الرغم من ان الامبراطور لا يملك السلطان الذي يمكّنه من تنفيذ مشيئته ، الا انه يتمتع بمكانة بين جميع هذه الفئات المختلفة تضمن له صفة الحَكَم بينها في نزاعاتها ، فهو يتدخل بينها بسلطته ، متوسطاً وواضعاً حداً فورياً لكل خلاف قد ينشأ بينها . وكانت الحرب التي نشبت بين السويسريين ودوق النمسا اطول هذه الحروب وأهمها ، وعلى الرغم من ان الدوق كان في هذا الوقت ولمدة طويلة هو الامبراطور نفسه ، إلا ان هذا الوضع لم يمكنه من التغلب على جرأة السويسريين وبسالتهم ، وهم قوم ما كان الاتحاد ليضم حكوماتهم الشعبية (الكوميونات) ، لولا انهم وجدو أنفسهم مرغمين عليه . ولم تقدم بقية انحاء المانيا مساعدة كبيرة للامبراطور ، وذلك لان حكومات المدن الالمانية الشعبية (الكوميونات) لم ترغب في ايقاع الاذى باولئك الذين يودون العيش احراراً كما تعيش هي من ناحية ، ولأن الامراء ، كانوا من ناحية اخرى وفي بعض الحالات عاجزين عن مد يد العون بسبب ما هم فيه من فقر ، ولانهم كانوا في حالات اخرى ، لا يهمهم ان يساعدوا الامبراطور لما يحملونه له من حسد وغيرة .

وهكذا تمكنت هذه الجماعات من العيش قانعة بما تحت ايديها من ممتلكات صغيرة ، طالما انه لم يكن ثمة من سبب يدعوها الى الرغبة في المزيد منها ، مع وجود السلطة الامبراطورية . ويعيش افراد كل جماعة منها داخل اسوارهم ، في ظل العروة الوثقى ، اذ يقبع على مقربة منهم ، عدو لو رأى اضطراباً داخلياً في صفوفهم ، لاهتبل الفرصة لاخضاعهم . ولو كانت الاوضاع في المانيا مختلفة عمّا كانت عليه ، لكان من المحتمل جداً ، ان تسعى هذه الجماعات الى التوسع ، وبذلك يضطرب حبل السكينة التي عاشت في ظلها . ولما كانت هذه الاوضاع لا توجد في مكان آخر ، فليس في وسع الدول الاخرى ان تتبنى هذا الطراز

من نظام الحكم؛ بل يتحتم عليها ان تعمل للتوسع اما عن طريق الاتحادات التعاونية ، أو عن طريق تماثل تلك التي اتبعها الرومان . ويعني اتباع أية سياسة اخرى البحث عن الموت والدمار لا عن الحياة ، وذلك لأن الفتوحات مؤذية في أكثر من الف طريق وطريق ولاكثر من سبب وسبب. فمن الرائع حقاً اكتساب الممتلكات الجديدة دون اكتساب القوة العسكرية اللازمة معها في نفس الوقت ، ومصير من يحاول مثل هذا الاكتساب الدمار حتماً . وليس في استطاعة من افقرته الحروب الحصول على قوات عسكرية جديدة حتى ولو خرج منتصراً من حروبه ، وذلك لانه ينفق على هذه القوات اكثر من الموارد التي حصل عليها من ممتلكاته الجديدة. وهذا ما فعله البنادقة والفلورنسيون،وعندما استولت الأولى على لومبارديا والثانية على توسكانيا، وحاولتا الحفاظ عليهما ، اصبحتا في وضع اضعف مما كانتا عليه،عندما كانت الأولى راضية ببحرها والثانية قانعة بحدودها التي لا تبعد عنها أكثر من ستة أميال .

وتكون المشكلة في جميع هذه الحالات ، ان العـــزم على اكتساب الممتلكات ، لا يكون مصحوباً عادة بالحكمة التي تقضي باتباع الاسلوب الصحيح . ويكون مثل هذا الوضع ادعى للملامة اليوم منه بالأمس ، اذ ليس ثمة ما يبرره ، بعد ان غدا سلوك الرومان في هذا الصدد معروضاً على الجميع ، وفي وسع كل انسان ان يتبعه ، بينما لم يكن أمام الرومان من مثال سابق يسيرون على منواله ، وكان عليهم ان يستعملوا ذكاءهم في اكتشاف خير السبل التي يستطيعون اتباعها .

يضاف الى هذا ان ضرر الفتوحات قد يكون كبيراً جداً احياناً حتى بالنسبة إلى الجمهوريات الصالحة التنظيم ، وذلك عندما تكون المقاطعة او المدينة المحتلة من الطراز الذي ألف أهله الترف والبذخ في عاداتهم ، مما قد يتسرب بطريق العدوى الى ابناء المدينة الفاتحة الذين يتصلون بهـم . وهذا ما وقع اولاً للرومان عندما احتلوا كابوا ولهانيبال ثانيـاً . ولو

كانت كابوا بعيدة جداً عن رومة بحيث تعذر علاج الاخطاء التي كان جنودها يرتكبونها فيها ، او لو كانت رومة حقاً فاسدة في ذلك الحين بأي شكل من الأشكال، لأدى احتلالها لكابوا حتماً الى نهاية الجمهورية الرومانية . ويشهد تيتوس ليفي على هذا الرأي عندما يقول : « لم تكن كابوا صالحة في اي حال من الأحوال للانضباط العسكري ، اذ كانت تعرض جميع انواع الفرص للجنود،للانغماس في الشهوات والاسترخاء ، مما طمس من عقولهم الضعيفة ذكريات وطنهم » . وتثأر المدن والمقاطعات المحتلة بهذه الطريقة من فاتحيها ، دون حاجة إلى معارك او سفك دماء، إذ عندما يتشرب المحتلون عاداتها القبيحة ، يغدون في وضع يعرضهم للهزيمة على أيدي كل من يقدم على مهاجمتهم . وليس ثمة من وصف افضل لهذا الوضع ، مما جاء على لسان جوفينال (**Juvenal**)(١) في قصائده الانتقادية،عندما قال في معالجته له، ان احتلال الرومان للأراضي الأجنبية ، عرّفهم بعادات الأجانب،فاستعاضوا عن الاقتصاد الذي كان طابعهم ، وعن غيره من الفضائل السامية،« بالنهم والاغراق في الملذات التي سيطرت عليهم والتي ثأر العالم الذي احتلوه منهم عن طريقها » .

واذا كان احتلال المناطق ، قد ألحق بالرومان مثل هذا الأذى ، في الوقت الذي اشتهروا فيه،عن طريق سلوكهم بواسع التعقل والفضيلة ، فأي أثر يمكن ان يتركه هذا الاحتلال ، بالنسبة الى دول اخرى،تكون في سلوكها بعيدة كل البعد عن سلوكهم ؟ واي اثر يمكن ان يتركه في تلك الدول ، التي تلجأ بالاضافة الى ما ترتكبه من اخطاء تحدثت عنها الكثير فيما سبق ، الى قوات المرتزقة ، او القوات الاضافية غير المدربة؟

---

١ ديسيوس جونيوس جوفينال (٦٠ – ١٤٠) ميلادية – شاعر روماني نقادة . درس البلاغة . أثار بقصائده الانتقادية غضب الامبراطور دوميتيان لاشاراته المتكررة إلى عشيقته.نشرت قصائده في عهد الامبراطور تراجان و هي تصور حياة الفسق و العهر التي عاشتها رومة تلك الايام . و يعتبر من الشعراء الواقعيين . – المعرب –

لا ريب في ان الاضرار التي قد تنجم عنه ، كثيرة ، ومختلفة الاشكال والصور ، وسأجعل منها موضوع حديثي في الفصل المقبل .

٢٠

عن الاخطار التي تنشأ للأمير أو للجمهورية من اللجوء إلى استخدام قوات المرتزقة أو القوات الاضافية

لما كنت قد تحدثت بصورة مسهبة ، في احد مؤلفاتي الاخرى(١) عن تفاهة القوات المرتزقة والاضافية وعدم جدواها ، وعن الفائدة من استخدام القوات الذاتية ، فأني اوثر عدم الاطالة هنا في بحث هذا الموضوع ، ولكنني لا استطيع على اي حال من الاحوال ان أتغافل الاشارة الى مثل مهم كل الأهمية عثرت عليه عند تيتوس ليفي. ويتناول موضوع القوات الاضافية ، واعني بها تلك القوات التي يبعث بها أمير او جمهورية لنجدتك والتي يقودها قادة عينهم من ارسلهم ، وهو الذي يتولى دفع مرتباتهم لهم .

ولنعد الآن الى المثال الذي جاء به ليفي ، فقد ذكر ان الرومان تمكنوا في موضعين مختلفين من هزم جيشين سمنيين بالجيوش التي بعثوا بها لنصرة أهل كابوا ، فحرروهم بذلك من خطر الحرب مع السمنيين ، وقرروا العودة اثر ذلك الى رومة . وحملهم الخوف من ان يقع الكابويون فريسة من جديد في ايدي السمنيين اذا تخلوا عن نصرتهم ، على استبقاء

١ يعني بذلك كتابه « الأمير » ، وقد نقلناه إلى العربية قبل فترة وجيزة . — المعرب —

فرقتين من فرقهم في ضواحي كابوا ، للدفاع عنها عند الحاجة . واخذ رجال هاتين الفرقتين ينعمون بنوع من البطالة الضارة بهم ، ورغبة منهم في التخلص من خطرها ، فكروا، على الرغم مما في تفكيرهم من خيانة لوطنهم ولما يحملونه من اجلال لمجلس شيوخهم ، بامتشاق السلاح ، واعلان أنفسهم أسياداً للبلاد التي دافعوا عنها ببسالتهم ، اذ اعتقدوا ان اهلها ليسوا جديرين بأن يملكوا تلك الاشياء الطيبة التي لا يعرفون كيفية الدفاع عنها . وعندما سمعت رومة بما ينوونه من عمل ، اوقفتهم عند حدهم،وأعادت الامور الى نصابها الصحيح ، وهو ما سأوضحه بالتفصيل عندما نصل في فصل لاحق إلى الحديث عن المؤامرات .

واعود فأكرر القول ، ان القوات الاضافية أو القوات المساعدة ، كثيرة الضرر للغاية ، اذ ان من يقبل عونها ، سواء اكان اميراً او جمهورية ، لا يستطيع ان يفرض عليها سلطته ابداً ، لأن صاحب السلطة الوحيد عليها ، هو الذي أوفدها . وليست هذه القوات المساعدة الا تلك التي يبعث بها اليك احد الحكام تحت قيادة قادتها . فتظل على مقاييسها الخاصة ، تتلقى منه مرتباتها ، كتلك القوات التي بعث بها الرومان الى كابوا لمساعدتها . وعندما ينتصر مثل هؤلاء الجنود، يفتكون غالباً باولئك الذين جاءوا لنصرتهم ، كما فتكوا بأولئك الذين وفدوا لحربهم ، ويدفعهم إلى ذلك ، اما ما ينطوي عليه الأمير الذي أوفدهم من سوء نية ، او ما تنطوي عليه نفوسهم من اطماع خاصة . وعلى الرغم من ان الرومان لم يكونوا يقصدون نقض تحالفهم واتفاقهم مع اهل كابوا ، الا ان احتلال المدينة بدا في غاية السهولة بالنسبة الى جنودهم حتى انهم اقتنعوا بسرعة،بفكرة حرمان الكابويين من اراضيهم ومن استقلالهم .

وفي وسعنا ان نأتي بأمثلة عدة على هذا الموضوع ، ولكنني ارى

ان اكتفي بما وقع لريغيوم (Rhegium)(١) التي اغتصب منها استقلالها وانتزعت ارضها على ايدي فرقة بعث بها الرومان اليها لحمايتها . ولذا على الأمير او الجمهورية، ان يعمدا الى أي سبيل سوى استقدام قوات مساعدة للدولة للدفاع عنها ، لا سيما اذا كان من الواضح ان هذا الدفاع يعتمد على مجيئهم كل الاعتماد ، لأن اية معاهدة او ميثاق قد يعقدانهما مع العدو ، مهما كانت قسوته سيكونان اخف وطأة من ذلك الخطر الذي يهددهما من الناحية الاخرى . ويتبين لكل من يدرس وقائع الماضي محاولاً مقارنتها بالحاضر ، ان مقابل كل حادثة واحدة من هذا النوع اسفرت عن نتائج طيبة ، توجد حوادث عديدة كانت اخطاء جساماً . وليس ثمة من فرصة افضل بالنسبة الى امير طموح أو جمهورية طامعة، لاحتلال مدينة او مقاطعة ، من ان يطلب اليه او اليها ، ارسال الجيوش لحمايتها . اما إذا كان طالب العون طموحاً ، وكان ينشد من طلبه الهجوم على الآخرين لا الدفاع عن نفسه ، فانه لا يحقق امله ، اذ انه ينشد الحصول على ما يستطيع الحفاظ عليه ، لأن الوسيلة التي استخدمها لنوال ما يريد قد تكون سبباً في انتزاع ما اخذه منه . ولكن مطامع الانسان دائماً كبيرة الى الحد الذي يصرفه ، رغبة منه في اطفاء غلتها آنياً، عن التفكير بالشرور التي قد تتوالى عليه بعد وقت قصير من ارواء هذه المطامع. ولا تؤثر عليه ، في الوقت نفسه ، بالنسبة الى وقوعه فريسة هذه المطامع دروس الماضي وعبره ، كما بينت بالنسبة الى هذه القضية والى غيرها من المسائل ، اذ لو تأثر بهذه العبر ، لتبين له انه كلما كان التسامح

---

١ ريغيوم وتسمى اليوم (ريغيو Reggio) . وهي مدينة في كالابريا وعاصمة مقاطعة ريغيو على مضيق مسينا ويبلغ عدد سكانها اليوم ١٤٤,٣٠٠ . بنيت المدينة أول مرة عام ٧٢٠ قبل الميلاد ، وكانت من المدن المزدهرة . استولى عليها الرومان عام ٢٨١ ق. م. عانت مرات عدة من الزلازل ، ومات نحو ٣٥ الفاً من سكانها في زلزال وقع في كانون الأول عام ١٩٠٨
– المعرب –

الذي يبديه نحو جيرانه ، اكبر وأعظم ، وكلما كان الترفع الذي يبديه تجاه فكرة اغتصابه لاراضيهم اكثر وضوحاً ، كان هؤلاد الجيران اكثر استعداداً للقذف بأنفسهم في احضانه ، وهذا ما سيظهر لنا جلياً في الفصل اللاحق ، بالنسبة الي ما وقع لأهل كابوا .

٢١

بعث الرومان بأول قاضٍ يخرج من رومة إلى كابوا بعد اربعمائة عام من بدء شنهم للحروب

سبق لي ان شرحت في فصل سابق الأساليب التي اتبعها الرومان في اغتنام الاراضي الجديدة وبينت اختلافها عن الطرق المستعملة حالياً في توسيع رقعة اية دولة من الدول،وبينت كذلك كيف ان الرومان سمحوا للمدن التي لم يدمروها ، بالعيش في ظل قوانينها الخاصة ، حتى بالنسبة الى تلك المدن التي لم تعد حليفة لرومة والتي غدت من رعاياها بعد اخضاعها ، فلقد كان الرمز الوحيد للسلطة التنفيذية التي تمارسها رومة، هو فرضها على مثل هذه المدن بعض الشروط ، التي ان نفذتها ، سمح لها الرومان بالحفاظ على شكل حكومتها ، وعلى مكانتها الخاصة بها . وقد حافظ الرومان على هذه الأساليب الى ان خرجوا من ايطاليا،وبدأوا في تحويل الممالك والدول الى مقاطعات تابعة لهم .

ولعل خير مثل على هذا،هو ان الرومان اوفدوا اول قاض (بريتور) من قضاتهم يخرج من المدينة ، الى كابوا ، ولم تكن الاطماع هي التي

حفزتهم على ايفاده ، وانما كان السبب فيه ، طلب الكابويين ارسال قاض روماني اليهم ، ليفض الخلافات التي كانت محتدمة بينهم ، وليعيد الامور الى نصابها في مدينتهم ، ويعمل على اعادة وحدتهم . وتأثر أهل انتيوم (**Antium**)(١) بهذا المثل،عندما وقعوا في ورطة مماثلة ووجدوا أنفسهم مجبرين على طلب حاكم روماني ليوفد اليهم . ولا ريب في ان تيتوس ليفي كان محقاً في تعليقه على هذه الحادثة وعلى الطريقة الجديدة التي شرع الرومان يمارسون سلطتهم فيها اذ قال : « لم تكن اسلحة الرومان هي التي سيطرت فحسب ، بل ان قانونهم أيضاً بدأ الآن في السيطرة » .

ونرى تبعاً لذلك كيف أسهم هذا الاجراء في زيادة سلطان رومة . فالمدن التي ألفت بصورة خاصة حياة الحرية،او ان يحكمها احد ابنائها، تقبع هادئة راضية ، في ظل حكومة لا ترى منها اثرها ، على الرغم من انها تفرض عليها مشيئتها بقوة وخشونة ، اكثر من هدوئها في ظل حكومة تكون معها على اتصال يومي،وتذكرها في كل يوم بعبوديتها . وهناك فائدة اخرى يجنيها الحاكم.اذ لما كان القضاة والحكام الذين يمارسون السلطات المدنية والجزائية على المواطنين ليسوا من وزرائه، فأن احكامهم لا تسبب له المتاعب أو تأتي له بالمذمة ، وهكذا تزول اسباب كثيرة من الدواعي التي تحمل الناس على كراهيته واغتيابه .

وبالاضافة الى الأمثلة الاخرى التي يستطيع المرء استخلاصها من التاريخ الغابر ، لاقامة الدليل على صحة هذه الآراء،فقد وقع حادث يؤيدها ،

---

١ انتيوم الاسم القديم لمدينة انزيو الحالية في ايطاليا والتي اشتهرت بمعاركها في الحرب الأخيرة. كانت من مدن الفولسكي واشتهر أهلها بالقرصنة . احتلها الرومان عام ٤٦٨ قبل الميلاد ، ثم ثارت عليهم واستعادوها عام ٣٣٨ ، وجعلوها مستعمرة ، وصادروا جميع سفنها . أصبحت مقراً لقصور الاباطرة ونبلاء الرومانيين في العهود المتأخرة . وقد ولد فيها نيرون .

— المعرب —

مؤخراً في ايطاليا . فلقد احتل الفرنسيون ، كما يعرف الجميع جنوا ، اكثر من مرة ، وكان الملك الفرنسي يوفد في جميع الحالات ، حاكماً من فرنسا يتولى حكم المدينة باسمه ، إلا في الحالة الأخيرة ، ففي هذه المرة ، سمح الملك للمدينة لا بمحض اختياره وانما رغماً عنه ، بأن تحكم نفسها بنفسها وانتدب لها حاكماً من أبنائها . ولو سأل انسان عن اي الطريقتين كانت اضمن للملك ، واكثر تأكيداً لسلطته على المدينة واشد رضاء للشعب ، لكان الرد بكل تأكيد في جانب الطريقة الثانية .

يضاف الى هذا ، انه كلما كان الناس اكثر ميلاً الى القاء انفسهم في احضانك فأنك تغدو أقل رغبة في رؤيتهم في هذه الأحضان ، وكلما كان الناس اقل تخوفاً على حرياتهم، كلما كنت بالنسبة اليهم اكثر انسانية وأسهل تعاملاً . ولا ريب في ان سهولة تعامل الرومان وتساهلهم وكرم معاملتهم ، هي التي دفعت اهل كابوا الى الاسراع في استدعاء القاضي الروماني ، ولو كان الرومان هم الذين ابدوا أقل رغبة في ارسال ممثل عنهم الى المدينة لسارع اهلها الى الشك فيهم ، ولنأوا بجانبهم عنهم .

ولكن لِمَ نمضي بعيداً إلى ايام كابوا وروما ، طلباً للشواهد ، وهي متوافرة لدينا في حاضرنا في فلورنسة وتوسكانيا ؟ فكلنا يعرف ان وقتاً طويلاً قد انقضى منذ غدت مدينة « بيستويا » بمحض رغبتها تحت سيطرة فلورنسة ، وكلنا يعرف ايضاً ، ما كان هناك من عداء مستحكم بين الفلورنسيين وبين اهل بيزا ولوشي وسيينا . ولا يعود التباين في الموقف ، الى ان اهل بيستويا لم يكونوا يعلقون اهمية كبيرة على حريتهم كما كان اهل المدن الثلاث الاخرى يفعلون ، ولا الى انهم لم يكونوا معتزين بأنفسهم كغيرهم من الناس، بل الى ان الفلورنسيين كانوا ينظرون اليهم دائماً نظرة الأخوة ويعاملونهم علي اساسها ، بينما كانوا ينظرون الى الآخرين كأعداء لهم . ولا ريب في ان هذا السبب هو الذي دفع البيستويين الى الاسراع والى الرغبة في تقبل سيادة فلورنسة بينما كان في

الوقت نفسه العامل الذي دفـــع الآخرين وما زال يدفعهم الى بذل كل جهد ممكن للحيلولة دون وقوع هذه السيادة عليهم . ولو كان الفلورنسيون قد احسنوا معاملة جيرانهم بدلاً من القسوة عليهم ، واتبعوا هذا السبيل اما عن طريق عقد الاتحادات التعاونية معهم،أو عن طريق مساعدتهم ، لكانوا اليوم ولا شك سادة توسكانيا كلها . وانا لا ادعو هنا الى عدم استخدام القوات المسلحة،ولكنني اقول انها يجب ان تكون الموئل الاخير، عندما تثبت جميع الوسائل الاخرى فشلها .

٢٢

مدى الخطـأ في آراء الناس تجـاه قضايا الساعة

يلاحظ كل من يشهد ما يتخذه الناس من قرارات ، كثرة ما يقعون فيه من خطأ في آرائهم ، وتجيء قراراتهم ، اذا لم يكونوا من رجال الطراز الأول في القدرة والكفاية ، عكساً كلياً على الغالب ، للصواب والسداد . ولما كان رجال الطراز الأول من اكفياء الرجال ، يبعـدون عن الحكم في الجمهوريات الفاسدة ، ولا سيما في أوقات الازمات، نتيجة ما يلقونه من حسد عند ذوي المطامع من الناس ، فان الناس يرجعون إلى الأحكام التي تعتبر بواقع الخطأ العام الشامل صالحـة ، أو الى تلك التي يصدرهـــا طلاب الشعبية لا طلاب المصلحة العامة . وعندما تسير الأمور سيراً سيئاً، تكتشف هذه الاخطاء بعد لأي ، ويلجأ الناس آنذاك بدافع الضرورة ، الى اولئك الذين تناسوهم في ايام الهدوء والسلام، كما سبق لنا أن قلنا ، والذين سنتحدث عنهم في الوقت المناسب حديثـــاً

شاملاً . وقد تقع احيـــاناً احداث يخطىء فيها بسهولة اولئك الذين لم يكن لهم كبـــير تجربة في الشؤون العامة ، لأن لهذه الاحداث ظواهر مستحبة ، تدفعهم الى الاعتقـــاد بأن نتائجها ستكون على الشكل الذي يأملون فيه تماماً . وانا اشير في هذه الملاحظـات الى ما حاول القاضي نوميكيوس ، اقناع اللاتين بعمله ، بعد ان هزمهم الرومان ، والى ما اعتقده الكثيرون قبل بضع سنوات ، عندما خرج الملك الفرنسي فرنسوا الأول لاحتلال ميلان التي كان السويسريون يتولون الدفاع عنها .

وأود ان اشير الى انه بعد موت لويس الثاني عشر ، ارتقى فرنسوا دوق انجوليم عرش فرنسا ، وكان تواقاً الى استعادة دوقية ميلان ، التي كان السويسريون قد احتلوها قبل بضع سنوات ، بتأييد من البابا يوليوس الثاني . ورغب الملك الفرنسي تسهيلاً لمهمته وهجومـــه ، في الحصول على تأييد له في ايطاليا ، وتقدم بالاضافة الى البنادقة الذين كان قـــد كسبهم الى صفه ، من الفلورنسيين ومن البابا ليو العاشر ، معتقداً ان مهمته ستكون اسهل بكثير اذا تمكن من كسب هاتين القوتين الى جانبه ، لا سيما وان قوات ملك اسبانيـــا كانت مرابطة في لومبارديا ، وكانت قوات اخرى تابعة للامبراطور مرابطة في فيرونا . وامتنع البابا ليو عن الاذعان لرغبة الملك ، ولكن مستشاريه اقنعوه ، كما يقال بالبقاء على الحياد ، فقد اشاروا عليه ، انه باتباعه هذا السبيل ، سيخرج في النهاية ظافراً ، اذ لا يناسب الكنيسة مطلقاً ، ان يكون هناك سلطان آخر في ايطاليا غير سلطانها ، سواء أكان هذا السلطان للملك الفرنسي او للسويسريين ولما كانت رغبة الكنيسة متجهة الى استعادة حرية ايطاليا السابقة اليها ، فقد كان من الضروري بالنسبة اليها ، ان تحررها من عبودية هذا الجانب أو ذاك . ولما كان من المستحيل عليها ان تقهرهما معاً ، سواء فرادى أو مجتمعين ، فان السبيل الأمثل ، هو ان تتيح الفرصة لاحدهما للتغلب على الآخر ، ثم تبادر مع حلفائها الى مهاجمة الظافر . وكانت الفرصة

الراهنة خير ما يمكن الأمل فيه ، اذ كانت جيوش الفريقين في الميدان وكانت قوات البابا على اتم استعداد ، وفي وسعه ان يبعث بها الى حدود لومبارديا ، لتكون قريبة من الجيشين المتصارعين ، تحت ستار الادعاء بحماية ممتلكاته الخاصة ، حيث تظل قابعة الى ان تدور المعركة . وكان من رأي هؤلاء المستشارين ايضاً ، ان المعركة ستكون دامية للغاية بالنسبة الى الفريقين ، بالنظر الى قوة الجيشين المتقابلين ، مما يؤدي الى خروج المنتصر منها في اشد حالات الضعف ، ويصبح من السهل على البابا ان يهاجمه وان يحطمه ، مما يسفر عن نتيجة مجيدة ، اذ يصبح البابا بعدها سيداً على لومبارديا كلها ، والحاكم بأمره في جميع انحاء ايطاليا .

ولكن الوقائع دللت على خداع هذا الرأي وكذبه ، اذ بعد ان تم قهر السويسريين اثر حرب ضروس لم تجرؤ قوات البابا وقوات ملك اسبانيا على مهاجمة الظافر ، وانما تأهبت للفرار ، وان كان هذا التأهب ما كان ليجديها نفعاً ، لولا ان الملك لدافع انساني ، أو تحت تأثير عدم الاكتراث ،لم يتطلع الى الحصول على نصر جديد ، واكتفي بالوصول الي صلح مع الكنيسة .

وعلى الرغم من اننا اذا القينا نظرة من بعيد على هذا الرأي ، عثرنا على بعض المبررات التي تؤيد سداده ، الا انه كان في الحقيقة رأياً خاطئاً كل الخطأ . فمن النادر الوقوع ان يخسر الظافر الكثير من قواته ، لأن من يخسرهم ، يقتلون في المعركة لا ابان الهزيمة ، ومن المعروف ان عدد من يقتل في وطيس المعركة ، عندما يكون الرجال المتحاربون وجهاً الى وجه ، لا يكون كبيراً ، لا سيما اذا كانت المعركة قصيرة ، وهو ما يقع الآن عادة . وحتى لو طال أمر القتال ، وقتل عدد كبير من جنود الظافر ، فان السمعة الداوية التي يحققها بانتصاره ، والرعب الذي يلقيه في الصدور ، يكونان اكثر من تعويض للخسارة التي مني بها في عدد قتلاه . وعلى هذا فان كل من يعد نفسه لمهاجمة جيش ،

يرى انه قد اصبح ضعيفاً من جراء القتال الذي خاضه ، يجد نفسه في النهاية مخطئاً ، الا اذا كان جيشه من النوع الذي يستطيع ان يخوض المعركة في كل وقت ، وحتى قبل ان يتحقق النصر لخصمه . وفي هذه الحالة قد يمنى بالخيبة او بالفوز ، وفقاً لطالعه ولما يتحلى به من فضيلة (شجاعة) اما نتيجة المعركة بالنسبة للجيش الخارج من معركة ظافرة، فتكون دائماً الى مصلحته ، لا في الجانب المعاكس لها .

وتقوم التجربة التي مر بها اللاتين دليلاً على صحة هذا القول،وذلك اثر الخطيئة التي ارتكبها القاضي نوميكيوس بنصيحته ، وبالنسبة الى ما وقع لاولئك الذين صدقوا نصيحته . فعندما قهر الرومان اللاتين ، مضى نوميكيوس يطوف انحاء بلاد اللاتين « لاتيوم » ،صارخاً بأعلى صوته، ان الوقت قد حان للهجوم على الرومان ، بعد ان اضعفتهم المعركة التي خاضوها معهم ، وان ما حصلوا عليه لا يعدو ان يكون نصراً اسمياً ، هو في الحقيقة الهزيمة بعينها بسبب ما منوا به من خسائر . واضاف ان في وسع اية قوة صغيرة ، تهاجمهم من جديد ان تقضي عليهم وصدقه بعض الناس ، وأعدوا جيشاً جديداً، ولكن هذا الجيش غلب على امره فوراً، واحاقت به خسارة تحيق بكل من يصغي الى مثل هذه النصيحة .

٢٣

الرومان يتجنبون أواسط الحلول
عندما يتحتم لديهم اصدار حكم على شعب خاضع لهم

غدت الاوضاع في بلاد اللاتين (لاتيوم) الآن، وكأنها لا تستطيع

احتمال اي من الحالتين ، حالة السلام وحالة الحرب . ولعل اسوأ وضع يمكن ان يصل اليه أمير او جمهورية ، هو عندما يصبح هذا ، او تلك في حالات لا يستطيعان فيها قبول السلام ولا احتمال الحرب . وينشأ مثل هذا الوضع ، عندما تكون شروط السلام بالغة في شدتها ، وعندما تعني الحرب لأي منهما ، ان يغدو فريسة لحلفائه ، وان يظل فريسة لاعدائه. ويصل الانسان الى هذه المواقف المفرطة في اليأس ، عندما يستمع الى المشورات السيئة ويتخذ على أساسها قرارات في منتهى السوء، دون تقدير سابق ودقيق لما تحت تصرفه من قوات كما سبق لنا ان قلنا . فكل من يقدر ما لديه من قوات تقديراً صحيحاً ، سواء أكان حاكم جمهورية او أميراً ، لا يمكن ان يصل الا بصعوبة بالغة الى هذه الورطة التي وصل اليها اللاتين . فلقد تفاهموا مع الرومان في الوقت الذي كان عليهم ان لا يتفاهموا معهم ، وأعلنوا عليهم الحرب في الوقت الذي لم يكن من مصلحتهم ان يعلنوها فيه ، وخلقوا بذلك لأنفسهم وضعاً غدت فيه صداقة الرومان وعداوتهم سيان في أذاهما ، من وجهة نظرهم . وهكذا تم اخضاع اللاتين واستعبادهم استعباداً كاملاً، وقام بهذه العملية مانليوس توركواتوس أولاً ، ومن ثم كاميلوس ، الذي ارغمهم على الاستسلام بلا قيد او شرط ، وبعد ان وزع حامياته في جميع مدنهم ، واستاق منها الرهائن عاد الى رومة يعلن لمجلس شيوخها ، ان « لاتيوم » كلها غدت في ايدي الرومان .

ولما كانت الكلمات التي استعملها كاميلوس في اعلانه هذا ، على جانب من الأهمية ، وتستحق اهتمام جميع الحكام الذين قد يسيرون على منواله اذا أتاحت لهم الفرصة ذلك ، فسأقتبس هنا العبارات التي أوردها ليفي على لسان كاميلوس ، لأنها تقيم الدليل على الطريقة التي استخدمها الرومان في توسيع رقعة ممتلكاتهم ، ولأنها تثبت الحقيقة الواقعة وهي ان الرومان كانوا في اعلان الاحكام التي تصدرها حكومتهم يتجنبون اواسط

السبل ، ويؤثرون المضي الى التطرف . فليست الحكومة في رأيهم شيئاً اكثر من السيطرة على الرعايا الذين يجب ان يكونوا عاجزين من ناحية، وغير مجبرين من الناحية الاخـــرى على إلحاق الأذى بك . وهي نتيجة يمكنك الوصول اليها باتباع إحدى وسيلتين تضمنهما تمام الضمان، واولاهما ان تحرمهم من كل الوسائل التي يستطيعون عن طريقها ايذاءك ، وثانيتهما الاحسان في معاملتهم بحيث يغدو من غير المعقول بالنسبة اليهـــم ، ان يرغبوا في استبدال حظهم . وقد أوضح هذا كله ايضاحاً كافياً للغايـة اولاً في البيان الذي القاه كاميلوس ، ومن ثم في القـرار الـذي توصل اليه مجلس الشيوخ في هذا الصدد . واليك الكلمات التي استخدمها ليفي:
« لقد تكرمت عليكم الآلهة الخالدة بالسلطان لتقريـــر وجود لاتيوم او زوالها ، فمصيرها بين أيديـكم . أما بالنسبة الى اللاتين ، فعليـكم يتوقف عقد سلام معهم يقدر له الخلود ، اما بانزال العقوبـة بهم بمنتهى الشدة والصرامة ، او بالصفح عنهم . فهل تعتقدون ان من الخـير ان نكون غلاظ القلوب مع هؤلاء الذين استسلموا وتم اخضاعهم ؟ اذا كنتم ترون ذلك،ففي وسعكم ان تزيلوا لاتيوم كلها من عالم الوجود . او هل تريدون السير على ما سار عليه اسلافنا من توسيع الدولة الرومانية عن طريق قبول المغلوبين على أمرهم في رعويتها ؟ والمادة التي تستطيعون عن طريقهـــا تحقيق هذا التوسع والبلوغ به الى ذرى المجد في متناول ايديـكم . ومن المؤكد ان الامبراطورية تكون اكثر امناً وسلامة ، عندما تكون الطاعـة فيها رفيقة الرخاء والسعادة . ويجدر بكم والحالة هذه ان تدلّوهم في هذا الوقت الذي تسيطر الحيرة فيه على عقولهم فلا يدرون ما ينتظرون ، اما بايقاع العقوبة فيهم او بالتحول الى محسنين لهم » . وعندما استمع مجلس الشيوخ الى هذا الاقتراح ، توصل الى قرار يتفق مع السبيل الذي رسمه القنصل ، وهو ان تدرس اوضاع كل مدينـــة على حدة دراسة دقيقة وبحسب أهميتها ، ومن ثم يتخذ القرار بالنسبة الى كل منها،اما بمعاملتها

معاملة سخيّة او بازالة معالمهـــا من الوجود ، وذلك باضفاء الامتيازات والاعفاءات على المدن التي يقرر المجلس إحسان معاملتها ، ومنح اهلها الرعوية ، وبذل كل محاولة لحملهم على الولاء ، وبتدمير المدن الاخرى تدميراً كاملاً ، وايفاد جماعات المستوطنين اليها ، ونقل اهلها الى رومة او تشتيت شملهم في مختلف المناطق ، بحيث يتعذر عليهـم ايقاع الاذى سواء باللجوء الى السلاح او التآمـــر والخداع . وتقوم الأهمية في كل هذا ، في ان الرومان لم يتبعوا قط طريقاً وسطاً،وعلى الحكام ان يحذوا حذوهم في ذلك .

وكان على الفلورنسيين ان يفعلوا ذلك عندما ثارت عليهم مدينة اريزو في عام ١٥٠٢ وجميع ارجاء « فال دي شيانا » . ولو اتبعوا هـــذا السبيل لضمنوا سلامـــة ممتلكاتهم ، ولاصبحت فلورنسة مدينة عظيمة ولاستطاعوا تحقيق ذلك المجال الحيوي **(Lebensraum)** (١) الذي كانوا يفتقرون اليه . ولكنهم آثروا اتباع ذلك السبيل الوسط ، الذي يعتـــبر اكثر السبل التي يتبعها الانسان ضرراً . فلقد أبعدوا بعض الاريتيين عن مدينتهم ، وحكموا علي بعضهم بالموت ، وانتزعوا منهم جميعاً مراتب الشرف والمراكز التي تقرها اعراف مدينتهم وتقاليدها . ولكنهم ابقوا على المدينة سليمة في موضعها . ولو اشار مواطن اثناء المنـــاقشات التي جرت بوجوب تدمير اريزو، لكان رد اولئك المواطنين الذين يتظاهرون بالحكمة وواسع العقل ، بأن تدمير المدينة يفقد فلورنسة سمعتها ويظهرها بمظهر العاجز عن الاحتفاظ بها . وتستند مثل هذه الحجج على المظاهر لا على الحقائق . اذ لو طبقنـــاها على مسائل اخرى ، لما كان اعدام القتلة والمجرمين وقطاع الطرق ممكناً ، بحجة ان اقدام الحاكم على اعدام أي منهم سيوحي بعجزه عن ايجاد القوة اللازمة لكبح جماح فرد معين،

---

١ هذه هي الكلمة التي استخدمها كل من هتلر و موسوليني في عقيدتيهما الفاشيتين ويبدو انهما كانا يدرسان مكيافلي دراسة دقيقة . — المغرب —

ولا يرى من يؤيدون هذا الرأي أن من واجب الحاكم ولا واجب غيره عندما يخطىء فرد أو مدينة بكاملها في حق الدولة ، ان يزيل هذا الفرد أو تلك المدينة من الوجود ، ليكون في ذلك عبرة للغير ، وضماناً لسلامة الحاكم الشخصية . ويقوم الشرف هنا في القدرة على ايقاع العقوبة لا في الطاقة على الاحتفاظ بالمدينة ، متعرضاً بعدها لالوف المخاطر . ويعتبر الحاكم الذي لا يعاقب المسيء ، أياً كان بطريقة لا تمكنه من اقتراف الاساءة ثانية او جاهلاً اما رعديداً .

وقد تأكدت سياسة الرومان في هذا الموضوع ثانية ، اذا كان ثمة من حاجة الى تأكيدها، في القرار الذي اصدروه على اهالي بريفيرنوم(١). وعلينا ان نلاحظ نقطتين فيما يورده ليفي عن هذه القضية وأولاهما ما سبق لنا ذكره من قبل ، وهو ان من الواجب معاملة الشعوب التابعة اما بالسخاء المتناهي أو بأزالتهم من الوجود ، وثانيتهما مدى ما في الاتجاه المتسامح من فائدة ، ومدى ما في قول الحق من فائدة عندما يدعى المرء للشهادة امام عقلاء الناس . وكان مجلس الشيوخ قد عقد اجتماعاً للتداول في اصدار حكم على اهل المدينة المذكورة ، الذين ثاروا على سلطان رومة ، ولكنهم ارغموا في النهاية على العودة الى طاعتها . وكان اهل بريفيرنوم ،قد أوفدوا عدداً من مواطنيهم الى رومة ليسألوا المجلس صفحه وغفرانه . وعندما ظهروا امام المجلس ، وجه احد الشيوخ الى عضو في الوفد السؤال التالي : « ما هو رأيك في العقوبة التي يستحقها مواطنوك ؟ » فرد الرجل قائلاً : « انهم يستحقون العقوبة التي يستحقها كل من يؤمن بحقه في الحرية » . فرد الشيخ قائلاً : « ولو افترضنا اننا خففنا العقوبة ، فأي سلام نستطيع توقعه منكم ؟ » وقال الرجل : « اذا احسنتم معاملتنا، ففي وسعكم توقع سلام ينطوي على الولاء والدوام، أما اذا اسأتموها ، فلن يعمر السلام طويلاً . وقال اكثر الشيوخ حكمة

١ مدينة من مدن لاتيوم القديمة في ايطاليا إلى الجنوب من رومة . —المعرب—

رغم معارضة الكثيرين من زملائه : « لقد كنا نستمع الى هؤلاء الرجال الذين يجمعون بين الرجولة والحريـة ، وانا لا أعتقد ان في امكان أي شعب او أي رجل البقاء اكثر مما يمكن ، في وضع غير مستساغ ولا مستحب . ولا يمكن الركون الى عهود السلام ، الا اذا عقدت تطوعاً لا اكراهاً . وليس في وسع انسان ان ينتظر الولاء من اناس على استعداد لكي يصبحوا عبيداً » . وقرر المجلس على ضوء هذا الخطاب ان يصبح اهل بريفيرنوم مواطنين رومانيين ، وان يشتركوا مع أهل رومـة ، في كل ما تمنحه رعويتها من امتيازات ومن مراتب الشرف . وقديماً قيل: « ان من يتجهون بأفئدتهم الى الحرية ولا شيء غير الحرية ، جديرون بأن يكونوا رومانيين صادقين » .

هذه هي المتعـــة التي اوحى بها هذا الرد الصريح والكريم الى تلك العقول الكريمة . ولو كان الرد من طراز غير هـــذا لانطوى على الخداع والوضاعة . ويخطىء الذين يعتقدون ان الرجال الذين الفوا الحرية أو الفوا اعتبار أنفسهم احراراً . لا يسلكون مثل هذا المسلك ، وتكون الاحكام التي ترتكز على خطيئة كهذه ضارة بالذين اصدروها ، وغير مرضية للآخرين في الوقت نفسه . ومن هنا تنشأ الثورات عادة ، ويأتي خراب الدول ودمارها .

ولنعد الآن الى موضوعنا الرئيسي. فاستنتاجي الوحيد من هذين القرارين اللذين أصدرهما الرومان على هذين الشعبين اللاتينيين ، ان القرار الذي يصدر في حق مدينة قوية ألفت حياة الحرية ، يجب ان يتوخى احـــد سبيلين اما ازالتها من الوجود أو « تدليلها » . وكل قرار آخر ، غير مجد ولا نافع . ومن الواجب تجنب اواسط الحلول كافة ، لما فيها من ضرر بالغ ، كما حدث للسمنيين الذين وقع الرومان في اسرهم في « كودين فوركس » (١) ، وابوا العمل بنصيحة احد عقلائهم من الشيوخ الذي اشار

١ مضيق جبلي في بلاد السمنيين القديمة على مقربة من مدينة كوديوم الواقعة على طريق كابوا ، وتحيط به الغابات من جهتيه وفي الوسط منبطح من الا رض السهلية تملأه المياه والاعشاب ولكن الجبال تحيطه تماماً . مني الرومان هنا بهزيمة ساحقة على أيدي السمنيين عـام ٣٢١ ق. م. — المعرب —

عليهم ، اما باطلاق سراحهم او بقتلهم عن بكرة ابيهم ، وانما اتبعوا سبيلاً وسطاً ، اذ انتزعوا من الرجال سلاحهم ، ووضعوا النير في رقابهم ، ثم اطلقوا سراحهم ، وهم يلتهبون شعوراً بالخزي والسخط .
وقد عرف السمنيون فيما بعد،وكلفتهم معرفتهم غالياً ، ان نصيحة الرجل الشيخ كانت صائبة،وان قرارهم كان مؤذياً ، وهو ما سنظهره بأسهاب في فصل لاحق .

الكتاب الثاني
المطارحات من ٢٤ ـ ٢٧

أخطاء الحروب

٢٤

ضرر القلاع أكثر من نفعها

قد يبدو من الحمق ، بالنسبة لأدعياء الحكمة في عصرنا ، ما اقدم عليه الرومان عندما أرادوا ضمان ولاء شعب لاتيوم ، واهل مدينة بريفيرنوم،دون ان يحاولوا او حتى يفكروا في بناء اي نوع من القلاع لكبح جماحهم والحفاظ على ولائهم ، لا سيما وان من القواعد المقررة في فلورنسة ، كما يقول هؤلاء الادعياء ، وجوب الحفاظ على بيزا وغيرها من المدن المماثلة عن طريق تشييد القلاع فيها . ولو كان الرومان من طراز آخر ، لما لجأوا الى هذا السبيل . ولقد ظلت رومة بعيدة

عن محاولة الحفاظ على ما يتبعها من مدن ومقاطعات عن طريق القلاع ، باستثناء ما كان مبنياً منها من قبل ، طيلة المدة التي كانت فيها تنعم بحريتها وتوالي تنظيماتها وتخلص الى دستورها الفعّال . وبالنظر الى هذا التباين في الطريقة التي اتبعها الرومان ، والطريقة التي يتبعها حكام اليوم، يبدو لي ان من المناسب ان ندرس ما اذا كان بناء القلاع أمراً صالحاً، وما اذا كان بناؤها نافعاً او ضاراً لمن يقومون به .

ويجب قبل كل شيء ، ان نعي في افكارنا ان القلاع تبنى لغاية واحدة ، هي الدفاع اما ضد الاعداء او ضد الرعايا ، وهي في الحالة الاولى لا لزوم لها وفي الثانية ضارة ومؤذية . ولنبدأ الآن ببيان ما فيها من ضرر في الحالة الثانية . فأنا أرى انه عندما يخشى أمير او تخاف جمهورية من ثورة الرعايا فأن هذه الخشية تكون ناجمة عن جذور عميقة من الكراهية التي يحس بها هؤلاء الرعايا لحكامهم ، والتي تنشأ عما يبدو من هؤلاء الحكام من سوء تصرف ناجم عن تخيلهم بأن في وسعهم حكم رعاياهم بالقوة ، او عما يتبعونه من اساليب حمقاء في الحكم . ولعل بين الاسباب التي تحمل الحكام على الايمان بالقوة ،وجود قلاع لديهم يستطيعون اللجوء اليها والاعتماد عليها . فعندما يؤدي سوء الادارة الى الكراهية ، فأن هذا ينجم بصورة رئيسية عن وجود قلاع لدى الامير او الجمهورية، وفي هذه الحالة ، يكون ضرر القلاع اكثر بكثير من نفعها . فهي تدفعك كما قلنا الى التهور كل التهور والى العنف غاية العنف في معاملة رعاياك . وهي لا تمنحك ايضاً ذلك الأمن الداخلي الذي تتخيل وجوده عن طريقها . اذ لا تنفع القوة او العنف في السيطرة على شعبك الا في احدى حالتين اولاهما ان يكون لديك جيش قوي تستطيع ان تزج به في الميدان كما كان شأن الرومان وثانيتهما ان يكون شعبك قد بلغ به الانهاك والتعب وسوء التنظيم والتفرقة كل مبلغ بحيث غدا من المتعذر عليه ان يتحد ليلحق بك الأذى . اذ لو تمكنت حتى من إفقاره ، فستظل

الاسلحة في يديه رغم تعريتك اياه »،وحتى لو جردته من سلاحه « فأن سورة غضبه عليك ستؤمن له السلاح » ، ولو ذبحت قادته وقضيت على جميع مظاهر العصيان عنده ، فأن قادة آخرين سيظهرون تماماً كما تظهر رؤوس التنين بعد قطع رأسه . واذا بنيت القلاع والحصون،فأنها ستنفعك في ايام السلم ليس الا ، اذ ستمكنك من اكتساب ما تحتاج اليه من شجاعة زائدة لتسيء معاملة رعاياك ، اما في اوقات الحرب والشدة ، فأنها لن تجديك فتيلاً ، اذ ستتعرض الى الهجوم من ناحيتين ، ناحية اعدائك وناحية رعاياك،وليس في وسعها ان تصمد لهذا الهجوم المزدوج. وهذا الوقت الذي نعيش فيه،هو اكثر وقت فقدت فيه القلاع أهميتها بسبب اختراع المدفعية، اذ لا يمكن الدفاع عن مثل هذه الأماكن الصغيرة ضد نيرانها لافتقارها الى المتاريس التي يستطيع الرجال التراجع الى ما وراءها كما سبق لنا ان ذكرنا .

وأود في بحث هذا الموضوع ان انتقل الى التخصيص من التعميم . أو تريد يا أميري عن طريق قلاعك ، ان تفرض سيطرتك بثبات على رعايا دولتك ؟ أو تريد سواء اكنت اميراً او كنت حاكماً في جمهورية ان تشدد من قبضتك على مدينة استوليت عليها في حرب من الحروب؟ انني اصارحك القول، بأنك اذا كنت اميراً ، فان القلعة هي أقل شيء ذي جدوى لك في السيطرة على رعاياك للاسباب التي سبق لي ذكرها، وذلك لأنها تحملك على التسرع ، في استخدام الوسائل الصارمة دون العناية باستعمالها ، ومثل هذه الوسائل ، كفيلة بأن تحملهم على التشوق إلى سقوطك ، وتدفع بهم الى الهياج عليك ، وفي مثل هذه الحالة، لن تؤمن لك القلعة ما تتطلع اليه من حماية . وهذا السبب من الوضوح بحيث يحمل أي أمير صالح ، على عدم التفكير مطلقاً في بناء أية قلعة ، اذا كان يود البقاء صالحاً ، ويود ان يتجنب تزويد اولاده بالمبرر للتحول الى السوء والطلاح ، لأنه يريد منهم ان يركنوا الى محبة رعاياهم وحسن

نواياهم بدلاً من ركونهم الى القلاع .

واذا كان الكونت فرانسيسكو سفورزا(١) الذي غـدا دوق ميلان والمعروف بواسع حكمته ، قد بنى قلعة في المدينة ، فانني أرى انه لم يكن حكيماً فيما صنعه ، وقد ثبت هذا بالبرهان القاطع ، لأن القلعـة اضرّت بذرّيته أكثر من نفعها لهم . فقد خيل اليهم لوجود القلعـة عنـدهم ، انهم يعيشون في أمن وطمأنينة ، وان في وسعهم اضطهاد مواطنيهم ورعاياهم ، ولذا لم يتركوا فرصة الا ولجأوا فيها الى العنف مما اسفر عن كراهية الشعب لهم كراهية فاقت كل مقيـاس ونطاق ، وعن فقدهم دولتهم أمام اول عدو هاجمهم . ولم تؤمن لهم هذه القلعة أية حماية أو خدمة في اوقات الحرب ايضاً ، بينما آذتهم كل الايذاء في اوقات السلام والهدوء ، اذ لو لم تكن قائمة عندهم ، وكانوا عـلى نفس الدرجة من عـدم التعقل بحيث اخشنوا معاملة مواطنيهم ، فانهم كانوا سيدركون حتماً الخطر الـذي يواجههم ان عاجلاً وان آجلاً ، وكانوا ينسحبون من احتمالاته ، ويكونون في مثل هذه الحالة أقدر على ابداء مقاومة أعنف واكثر نشاطاً للهجوم الفرنسي ،معتمدين على رعاياهم الموالين لهم دون الاعتماد على قلعة ، بدلاً من الاعتماد على القلعة دون ولاء المواطنين .

ولن يكون في وسع القلاع ان تجديك شيئاً في اية حالة من الاحوال إذ انك ستفقدها اما بخيانة حراسها ، أو نتيجة هجـوم عنيف تتعرض اليه ، أو اثر فرض الحصار عليها وتجويع من فيها . أما اذا اردت من مواطنيك نجدتك ، وان يمكنوك من استرجاع الدولة التي فقدتها ، ولم

---

١ فرانسيسكو سفورزا (١٤٠١ – ١٤٦٦) ، ينتمي إلى اسرة من العسكريين . كان قائد جيش فيليبو فيسكونتي دوق ميلان وتزوج ابنته الوحيدة بيانكا . وعندما مات الدوق عام ١٤٤٧ ، هزم البنادقة اعداء ميلان التقليديين ، وغدا دوقاً لميلان عام ١٤٥٠ . كان حكمه صالحاً وايد رجال العلم والادب . – المعرب –

يبق لك فيها الا قلعتها فقط ، فان عليك ان تتدرع بجيش يمكنك من مهاجمة من اخرجوك من دولتك ، وعندما يتيسر لك هذا الجيش يكون في وسعك استعادة دولتك بأي حـــال من الاحوال ، حتى ولو لم تبق لك قلعة فيها ، ويصبح استرجاعك لها اكثر سهولة عندما يكون رجالك مخلصين لك ، وتكون انت لم تسيء معاملتهم قط بسبب ما يركبك من رعونة وغطرسة يوحي بهما وجود القلعة لديك . وقـــد دلت التجارب على ان هذه القلعة الميلانية لم تجد آل سفورزا ولا الفرنسيين فتيلاً عندما ساءت الأمور مع الجانبين . وقد جاءت للفريقين بالخراب والكوارث ، على العكس ، لانها حالت بينهما ، وبين الادراك بأن ثمة طريقة اكثر نبلاً للحفاظ على مركزيهما .

وقد قام قيصر بورجيا نجل البابا الاسكندر السادس، بطرد غيدوبالدو دوق اوربينو ، وابن فريدريك الذي اشتهر امره في ايامه ، بأنه من خيرة القادة العسكريين من دولته التي يحكمها . وعندما عاد الى دوقيته، بفضل حادث عارض أمر بهدم جميع القلاع منها واجتثاثها من اسسها، لايمانه بمضرتها . فقد أحس بعدم حاجته الى القلاع بالنسبة الى الشعب الذي يعبده ويحبه ، أما بالنسبة الى اعدائه ، فقد ادرك انها لا تجديه فتيلاً معهم ، وان ما يحتاج اليه لحمايته هو جيش يقاتل في الميدان دفاعاً عنه . وهكذا حزم أمره على التخلص منها .

وعندما طرد البابا يوليوس ؛ اسرة البونتيفوغلي من بولونا ، شيـــد قلعة في المدينة ، ثم سبب اضطهاد اهلها بالأعمال الجائرة التي قام بهـا الحاكم الذي فرضه عليهم مما ادى الى ثورتهم، وسرعان ما اضاع القلعة، التي لم تجده والحالة هذه فتيلاً ، وانما اساءت اليه بوجودها ، اذ لو سلك سلوكاً مغايراً ، لكن ذلك انفع له وأجدى .

وعندما عاد نيقولو دا كاستيلّو ، مؤسس اسرة الفيتيلّي الى بلاده التي كان قـــد أبعد عنها ، أمر فوراً بهدم قلعتين فيها ، كان البابا

سيكستوس الرابع قد بناهما فيها ، اعتقاداً منه بأن محبة شعبه لا القلعتين ، هي التي اعادت اليه دولته .

ولعل أقرب الحوادث التي تبرهن على عـــدم جدوى بناء القلاع ، وعلى الفائدة من هدمها واكثرها اهمية ، من كل ناحية ، هو ما وقع في جنوه قبل مدة قريبة . وكلنا يعرف ان جنوه قد ثارت في عـــام ١٥٠٧ على لويس الثاني عشر ملك فرنسا ، فجاءها هذا شخصياً على رأس جيش لجب يضم كل قواته واعاد احتلالها ، وبنى على الفور فيها قلعة تفوق في مناعتهـــا اية قلعة معروفة ، وذلك لأنه اقامها في نقطة اندفاع الجبل نحو البحر ، والتي يطلق عليها الجنويون اسم «كوديفا» ، وكانت هذه القلعـة بالنسبة الى موقعها ، والى عدد آخر من الظروف التي تحيط بها ، صعبة على الاقتحام ، وتسيطر على الميــنـاء وعلى قسم كبير من المدينة نفسها . وحدث مع ذلك ، انه عندما تم طرد الفرنسيين من ايطاليا عام ١٥١٢ ان ثارت جنوه من جديد ، رغم وجود القلعة فيها ، واستولى اوتافينو فريغوسو على الحكم في المدينة . وفرض حصاراً على القلعة استطال ستة عشر شهراً ، ارغمها بعده على التسليم بعـد ان تضوّر حماتها جوعاً . وتوقع كل انسان من فريغوسو الابقاء على القلعة ، وفعلاً نصحه البعض بالحفاظ عليها لتكون ملجأً في حالة الطوارىء ، ولكن هذا ، تميز برجاحة العقل ، فأمر بهدمها لأنه ادرك ان الابقـاء على الحاكمين في مركز السلطان ، لا يكون عن طريق القلاع وانمــا عن طريق ارادة الشعب . وهكذا استند على المنطق السليم والفضيلة بدلاً من الاستناد على قلعة ، واحتفظ بمركزه وما زال يحافظ عليه . وبينما لم يكن يحتاج تبديل الحكم في جنوه من قبل الى اكثر من الف جنـدي من المشاة ، أخذ يهاجمها الآن اكثر من عشرة آلاف من جنود خصومها ، ولا يلحقون بها اي اذى ويظهر من هذا ان هدم القلعة لم يضر اوتافينو من ناحية وان بناءها لم يجد الملك فتيلاً . فطالما كان الملك قادراً عـلى

المجيء الى ايطاليا على رأس جيش لجب ، كان في وسعه ان يستعيد جنوه دون حاجة الى وجود قلعة فيها ، ولما اصبح عاجزاً عن المجيء لم يستطع الاحتفاظ بها رغم وجود القلعة فيها . وهكذا فقد كان بناؤها باهظ التكاليف بالنسبة الى الملك ، وكانت خسارتها معيبة ومخزية له ، بينما جاء احتلالها لاوتا فينو بالمجد وتدميرها بالفائدة .

ونصل الآن الى الجمهوريات التي تقيم قلاعاً لها لا في أراضيها الاصلية، بل في المدن التي تحتلها . واذا كان المثل الذي ضربته عن جنوه وفرنسا لا يقنع القارىء بخطأ الفكرة، فأعتقد ان في سردي لما وقع بين فلورنسة وبيزا ما فيه الكفاية . فلقد أقام الفلورنسيون قلاعاً في بيزا للمحافظة عليها، دون ان يفكروا بأنه لما كان البيزيون يحملون شعور العداء الدائم لسلطان فلورنسة ، ولما كانوا قد سعدوا بالحرية أمداً طويلاً ، واعتبروا الثورة وسيلة لاستعادة الحرية ، فقد كان من واجبهم اي الفلورنسيين ، اذا ارادوا الاحتفاظ ببيزا ، ان يلجأوا الى الطريقة الرومانية ، وهي اما ان يجعلوا من المدينة حليفة لهم او يزيلوها من عالم الوجود . ولقد تبينت قيمة هذه القلاع عندما وصل الملك شارل الفرنسي اليها اذ استسلمت بسبب خيانة حراسها ، او بسبب الخوف من الاحتمال الأسوأ . ولو لم تكن هذه القلاع موجودة لما ركز الفلورنسيون عليها خططهم في الدفاع عن بيزا،ولما تمكن الملك عن طريقها من حرمان الفلورنسيين من المدينة، إذ لو لم توجد هذه القلاع لكان في امكان الاساليب الاخرى التي كانوا سيلجأون اليها حتماً الاحتفاظ بها ، ولا ريب في انها لن تكون اكثر فجيعة من الكارثة التي أنزلها بهم وجود القلاع .

واستخلص من كل ما ذكرت ان القلاع مؤذية اذا كان الغرض منها الاحتفاظ ببلاد اصحابها انفسهم ، وانها غير مجدية اذا كان القصد منها الحفاظ على المدن المحتلة . ولا ريب في ان الرومان كانوا حجة في هذا

الموضوع وغيره ، إذ كانوا بدلاً من اقامة الاسوار حول المـدن التي يعتزمون الحفاظ عليها بالقوة ، يلجأون الى تهديم اسوارها القائمة . اما اذا استشهد احد ، عند مخالفته لرأيي بما وقع « لتارنتيوم » في القرون الغابرة ، وبما وقع « لبريسكيا » في عصرنا الحالي ، اذ تمكن أصحابها من استعادتها بفضل ما فيها من قلاع ،بعد ان ثار الشعب عليهم فيها ، فأنني أرد عليه قائلاً :ان فابيوس مكسيموس اوفد في بداية عهد قنصليته، على رأس جيش ضخم لاستعادة تارنتيوم ، وان هذا الجيش كان كافياً لاستعادتها ، حتى ولو لم توجد فيها القلاع ، وعلى الرغم من ان فابيوس افاد من وجودها،الا انه لو لم توجد،للجأ حتماً الى وسائل اخرى ، ادت الى عين النتيجة التي يتوخاها . ولا ادري اية فائدة يمكن ان تكون للقلعة ، اذا كانت استعادة المدينـة الموجودة فيها تتطلب جيشاً قنصلياً كاملاً ، يقوده شخص كفابيوس ماكسيموس . ولا ريب في ان مثال كابوا يقوم دليلاً على ان الرومان كانوا سيسترجعونهـا حتماً ، اذ ان كابوا كانت تخلو من القـلاع ، ومـع ذلك فقد احتلها الرومان ببسالة جيشهم .

ولنعد الآن الى قصة بريسكيـا . واني لأرى ان ما حدث في تلك الثورة ، كان شيئاً نادر الوقوع . فمن النادر عندما تثور احدى المدن ، ان تظل قلعتها في يديك ، مع وجود جيش لجب لك على مقربة منها، كما كان الوضع بالنسبة الى الفرنسيين . فلقد كان المسيو دي فوا ، قائد الملك ، على رأس جيش في بولونا ، وعندما وصلت الى مسامعه انباء ضياع بريسكيا،سارع فوراً لمعالجة امر الثورة ، ووصل الى بريسكيا في غضون ثلاثـة ايام ، وتمكن عن طريق العون الـذي تلقاه من القلعة من استعادة المدينة . وهكذا فقد تحتم،لكي يكون لقلعة بريسكيا اي جدوى، وجود المسيو دي فوا والجيش الفرنسي ، لاستعادة المدينة بعـد زحف

ثلاثة ايام . وعلى هذا فأن مثال بريسكيا لا يكفي والحالة هذه، لدحض الأمثلة التي تقف الى الجانب المعاكس . ولقد تم في الحروب التي وقعت مؤخراً ، احتلال عدد من القلاع ، واعيد احتلالها من جديد ، طبقاً للطالع الذي رافق احتلال الاراضي المكشوفة واعادة احتلالها ، لا في لومبارديا وحدها بل وفي رومانا ، وفي مملكة نابولي ، وكل جزء من اجزاء ايطاليا ايضاً .

واني لأرى انه لا ضرورة مطلقاً الى انشاء القلاع لاغراض الدفاع ضد الأعداء الأجانب ، وذلك عندما تكون للشعوب او للممالك جيوشها الصالحة كما ان هذه القلاع لا تكون مجدية لمن لا يملك مثل هذه الجيوش، وذلك لأن الجيوش الصالحة تكفي للدفاع دون قلاع ،اما القلاع فلا تؤمن شيئاً للدفاع اذا لم توجد الجيوش الصالحة . وقد اقامت التجارب التي قام بها رجال برزوا في الحكم وفي القضايا الاخرى كالرومان والاسبارطيين، الدليل على صحة هذا القول . واذا كان الرومان قد اكتفوا بعدم بناء القلاع ، فأن الاسبارطيين لم يكتفوا بهذا الامتناع فقط، وانما لم يسمحوا لمدنهم ايضاً ببناء الاسوار حولها، لأنهم آثروا ان يعتمدوا في الدفاع عنها على شجاعة الفرد ، ولم يطلبوا شيئاً آخر غير هذه الشجاعة . وعلى هذا الاساس يقال ان اثينياً سأل اسبارطياً ، عن رأيه في اسوار اثينا ، وعما اذا كانت لا تبدو رائعة في نظره ، فرد الاسبارطي قائلاً : « نعم ، انها رائعة،شريطة ان يكون من يعيش وراءها من السيدات ليس الا ».

وقد يجد الحاكم الذي يملك جيوشاً قوية ، ان من المجدي له احياناً ، ان تقام قلاع على شواطىء بلاده ، وعلى حدود ممتلكاته،لتتولى الصمود في وجه اي هجوم يقوم به العدو الى ان تصل جيوشه لمواجهة الغزاة وان كان لا يشعر بضرورة هذه القلاع . أما اذا لم يكن جيشه قوياً ، فأن وجود القلاع داخل بلاده او على حدودها ، يكون اما مؤذياً او

غير مجد ، ويكون الأذى فيها عندما يسهل ضياعها منه،فأذا ما ضاعت انقلبت الى صفوف اعدائه وأصبحت تحاربه ، ويكون عدم النفع فيها في حالة تمتع هذه القلاع بالقوة والقدرة على الصمود ، بحيث يصعب على العدو اقتحامها ، فيخلفها وراءه ، زاحفاً الى الأمام ، وتغدو بذلك ولا نفع منها مطلقاً . فعندما تدخل الجيوش القوية الى بلاد غازية لها ، ولا تجد في سبيلها مقاومة بالغة القوة ، فأنها في هذه الحالة لا تأبــه بالمدن والقلاع ، وانما تمضي في زحفها مسرعة الى الامام،مخلفة اياها وراءها . ونجد هذا الوضع في سير التاريخ القديم كما نجده فيما فعله فرانسيسكوماريا، في الأزمنة القريبة جداً ، عندما مضى زاحفاً عـلى اوربينو . اذ خلف وراءه عشراً من مدن العدو دون ان يكترث بوجودها .

ويتبين من هذا ان في وسع الحاكم الذي يستطيع ان يحشد جيشاً قوياً الاستغناء عن القلاع ، وان من واجب الحاكم الذي لا يملك مثــل هذا الجيش ان لا يبني مثل هذه القلاع . ولعل خير ما يستطيع ان يعمله ، هو ان يحصّن المدينة التي يقيم فيها وان يملأها بالذخائر والمؤن،ويحتفظ بحسن نوايا اهلها تجاهه ، حتى يتمكن من الصمود في وجه هجوم العدو امداً يسهّل له اما الوصول الى تفاهم مع العدو ، او الحصول على نجدة خارجية لمساعدته . اما ما عدا ذلك من خطط ، فبالغ التكاليف في زمن السلم ، وعديم النفع في وقت الحرب . ويمكننا ان نرى على ضوء جميع ما قلته ان الرومان كانوا جد عاقلين عندما قرروا بالنسبة الى اللاتين والى اهل بريفيرنوم ، هدم جميع القلاع في بلادهم ، واللجوء الى وسائـل أكثر فضيلة وأوفر حكمة في الحفاظ على ولائهم ، وهذا شأنهم دائماً، فقد كانوا حكماء في جميع تنظيماتهم وتصرفاتهم .

٢٥

من خطل الرأي والسياسة الهجوم على مدينة منقسمة على نفسها أملاً في أن يؤدي انقسامها إلى تذليل احتلالها

وقعت خلافات شديدة بين عامة الرومان ونبلائهم ، مما حمل أهل « فيي » بالتعاون مع «الاتروسكانيين» على الاعتقاد بأن هذه الخلافات، ستمكنهم من تحطيم سلطان رومة . وعندما شكل هؤلاء جيشاً غزوا به الارض الرومانية ، اوفد مجلس الشيوخ القنصلين غايوس مانليوس ، وماركوس فابيوس على رأس جيش للاشتباك معهم.وعندما اقترب جيشهما من الجيش « الفيينتي » ، أخذ افراد هذا الجيش ، يهاجمون الرومان بأقذع السباب وأفحش الشتائم . وكانوا على درجة من السلاطة والحماقة والتهور ، بحيث حملوا الرومان على الاتحاد في صف واحد بعد تفرقهم، وعندما حان وقت القتال،انتصر الرومان عليهم ، وهزموهم شر هزيمة . وهكـذا يستطيع المرء ان يرى ، كما سبق لنا ان قلنا من قبل ، ان الناس يخطئون عندما يقيمون القرارات التي يتخذونها على الخلاف بين الخصوم ، وانهم كثيراً ما يخسرون عندما يتوهمون بأن في متناولهم شيئاً مضموناً . ولقد خيل الى أهل فيي انهم اذا هاجموا الرومان في حالة تفسّخهم فان في وسعهم التغلب عليهم ، ولكن هجومهم دفع الرومان الى الاتحاد،وساقهم الى دمارهم . وكثيراً ما تنشأ المنازعات في الجمهوريات بسبب البطالة والتكاسل الناجمين عن السلام،وتتولد الوحدة عن الخوف والحرب . ولو كان أهل فيي على شيء من التعقل والحكمة ، لظلوا ممتنعين عن الاشتباك في حرب مع الرومان طالما انهم متفسخون،ولحاولوا التغلب عليهم بالاساليب الماكرة التي يلجأ اليها الناس في اوقات السلام .

ولعل الطريقة المثلى التي تتبع في مثل هـــذه الحالة ، هي ان يحاول الخصم كسب ثقة المدينة التي تسودها التجزئة ، وان يمثل دور الحكم بين الفريقين المتخاصمين فيها ، طالما انهما لم يشتبكا في صراع عملي بعد، وان يقدم عوناً متأخراً الى الفريق الاضعف بعد ان يقع الاشتباك،وهدفه من ذلك ، الابقاء على الصراع قائماً بينهما ، لانهاكهما ، ممتنعاً قـــدر الطاقة عن اتخاذ اية اجراءات قوية ، اذ ان اتخاذها ، لا يدع مجالاً للشك عند اي انسان في ان هذا الخصم يستهدف اخضاع المدينة واعلان نفسه حاكماً عليها . وعندما تنفذ هذه الخطة تنفيذاً حاذقاً ، يصبح في امكانه دائماً الوصول الى الغاية التي توخاهـــا . وقد تمكنت جمهورية فلورنسة من الاستيلاء على مـدينة بيستويا ، بمثل هذه الاساليب الماكرة، كما سبق لي ان ذكرت في مطارحة ماضية ، وفي موضع الحديث عن موضوع آخر ، فقد كانت بيستويا مجزأة ومنقسمة الى فريقين ، وكان الفلورنسيون يؤيدون هذا الجانب حيناً ، وذاك حيناً آخر ، وبدون ان يعرضوا انفسهم للشك من احد الفريقين ، واصلوا اتباع هذه الخطة ، الى ان ملّ اهل المدينة من هذه الطريقة المضطربة من الحياة التي يعيشونها وقذفوا بأنفسهم في النهاية طواعية في احضان فلورنسة .

ولم تبدل مدينة سيينا حكومتها قط ، بمساعدة الفلورنسيين الا عندما كانت هذه المساعدة ضعيفة ونادرة ، اذ عندما كانت هـــذه المساعدة تتخذ شكلاً قوياً ومنطوياً على الالحاح ، كان تأثيرهـــا يصبح عكسياً على الفور ، ويحمل اهل المدينة على الاتحاد في الدفاع عن حكومتهم القائمة .

واود ان اضيف إلى مـا سبق من امثلة ، مثلاً آخر ، فقد اعلن فيليبو فيسكونتي دوق ميلان الحرب عدة مرات على الفلورنسيين متكلاً على ما يسودهم من منازعات ، وكان يخرج خاسراً في جميع الحالات وعندما كان يندب حظه لفشله في هذه الهجمات ، كان يقول دائماً ان

حماقات الفلورنسيين قد ورّطته في انفاق ما يربو على المليونين من الليرات الذهبية دون نتيجة .

وهكذا فقد كان اهل في والتوسكانيون مخطئين في هذه الناحية كما قلنا سابقــاً ، لأن نتيجة ما قاموا به من عمل ، ادت الى اليوم الذي احتلهم الرومـــانيون فيه . وسيجد الآخرون انفسهم مخطئين على نفس النحو ، اذا توهموا انهم بمثل هذه الوسائل وفي مثل هذه الظروف يستطيعون اخضاع شعب لسيطرتهم .

٢٦

يثير الاحتقار والزراية الكراهية ضد من يوجههما دون أن يأتيانه بأيــة فــائــدة

أعتقد ان من سداد الرأي وبالغ الحكمة عند بعض الناس ان يمتنعوا عن التهديد وعن استعمال العبارات الجارحة المنطوية على الازدراء ، لان اياً من هاتين الوسيلتين لا تحرم الخصم من سلطانه ، وانما تحمله الاولى على الحيطة والحذر ، بينما تزيد الثانية في كراهيته لك ، وتجعله اكثر اصراراً ونشاطاً في ابتكار الوسائل لالحاق الاذى بك . وتظهر صحة هذه القاعدة من المثل المتعلق بأهل في ، والذي كنا ندرسه في الفصل السابق . فلقد شرعوا ، بالاضافة إلى ما وجهوه إلى الرومان من أذى باعلانهم الحرب عليهم في توجيه كلمات التحقير اليهم ، وهو أمر يجدر بكل قائد عاقل ان يمنع جنوده عنه ، إذ ان مثل هذه العبارات لا تفعل شيئاً سوى إثارة سخط العدو وحفزه على الثأر ، ولا تتدخل ، كما سبق لي ان قلت ،

في أي شكل من الاشكال بالهجوم الذي يقوم به ، وعلى هذا فهي في الحقيقة أسلحة تنقلب عليك .

وقد وقع حادث بارز من هذا النوع في آسيا . فعندما كان كوباديس (Cobades) (١) القائد الفارسي البارز يحاصر مدينة اميدا،وقد انقضت مدة طويلة على فرضه الحصار عليها ، شعر بالتعب من المهمة الشاقة ، وقرر الانسحاب عنها والغاء الحصار . وعندما شرع في تقويض مخيمه، خرج أهل المدينة وقد انتشوا بالنصر الذي حققوه ، إلى الاسوار جميعاً ووجهوا كل ما استطاعوا توجيهه من عبارات الزراية والامتهان، شاتمين العدو ، وموبخينه ، ومعنفينه على ما ابداه من جبن ومن نذالة.وضايقت هـــذه الشتائم كوباديس الى الحد الذي حمله على تغيير رأيه ، واستفزه الغضب على هذه الاتهامات الباطلة ، فعاد الى الحصار يفرضه ، وتمكن في غضون بضعة ايام من احتلال المدينة ونهبها .

وقد وقع نفس الشيء لأهل فيي ، الذين لم يكتفوا كما قلت،باعلان الحرب على الرومان ، وانما وجهوا اليهم عبارات المهانة والازدراء ، صاعدين الى المتاريس التي تحيط بمعسكرهم ، ورافعين اصواتهم بهـذه الشتائم يوجهونها اليهم . وقد ازعجت هذه الاهانات جنود الرومان اكثر من تضايقهم من الحرب ، وبينما كانوا في السابق يحاربون حرباً تنبض بعدم الحماس والرغبة ، اصروا الآن على قنصليهم طالبين اليهما الاسراع الى المعركة ، ممـــا ادى الى ايقاع العقوبة بأهل فيي كما وقعت بأهل المدينة المادّية ، التي ذكرناها على ما أبدوه من شكاسة،وكانوا يستحقون هـــذا العقاب . وعلى القادة العسكريين البارزين والحكام الجمهوريين الصالحين،ان يتخذوا كل اجراء ممكن ، للحيلولة دون استخدام جنودهم

١ كوباديس ، اسم قائد كبير من قادة الفرس في عهد اكزير سيز (كسرى) الثاني ، وقـــد خاض معارك كثيرة في آسيا الصغرى ضد المدن الايونية ، كما اخمد ثورة قام بها الماديون واميدا هي احدى مدنهم . — المعرب —

للعبارات الجارحة والسباب ، سواء في المدينة أو في صفوف الجيوش ، وسواء وجهت الى بعضهم البعض أو الى العدو ، اذ ان توجيهها الى العدو يثمر متاعب كالتي اشرنا اليها ، بينما تكون المتاعب، اذا استعملت بين الجنود أنفسهم اكثر واشد ، الا اذ اتخذت الاحتياطات اللازمة ، التي يتخذها عادة عقلاء الرجال .

وعندما تآمرت الألوية الرومانية ، التي اسند اليها أمر الدفاع عن كابوا ضد الكابويين ، كما سنشرح في حينه ، وقامت فتنة بين رجال الجيش بسبب هذه المؤامرة ، سارع الى اخضاعها فاليروس كورفينوس وقد أصدر بياناً حدد فيه أقسى العقوبات الصارمة لكل من يوجه اللوم إلى أي من الجنود لاشتراكه في الفتنة .

وعندما عهد الى تايبريوس غراشوس ، ابان الحرب مع هانيبال ، بقيادة فئات من العبيد ، كان الرومانيون قد سلحوهم بسبب افتقارهم الى الرجال ، اصدر بياناً خاصاً حدد فيه عقوبة الموت لكل من يعيّر عبداً على حالة الرق التي يعيشها .

وهكذا نرى ان الرومان كانوا يعتبرون من الضار كل الضرر، غيبة الناس أو تعنيفهم على ارتكابهم عملاً مخزياً ، اذ لا شيء ادعى الى استثارة المشاعر والهابها من مثل هذه العبارات ، ولا شيء ادعى الى السخط، من تعيير الانسان بشيء عمله ، سواء اكان التعيير صادقاً أو على سبيل المزاح . وقديماً قيل : «تترك الاقوال اللاذعة عندما تصل جوانب الحقيقة مذاقاً مراً وراءها » .

٢٧

على العقلاء من الامراء وحكام الجمهوريات ان يقنعوا بالنصر ، إذ عندما يبعدون عن القناعة يغدو الفشل نصيبهم دائماً

يرجع الاستخفاف بالعدو عند الحديث عادة الى ما يبعثه النصر أو الأمل الزائف في النصر في نفسك من غطرسة وتكبر . ولا تدفع الآمال الكاذبة التي هي من هذا النوع بالناس إلى ارتكاب الاخطاء فيما يقولونه فحسب ، بل إلى ارتكابها فيما يفعلونه أيضاً . فعندما تتسرب مثل هذه الآمال إلى صدور الناس ، تحملهم على التخلي عن الحيطة والحذر ،وعلى إضاعة الفرصة غالباً في تحقيق شيء مضمون ، أملاً في تحقيق ما هو أفضل منه ، مع العلم بأن هذا الامل لا يصل مرتبة الوثوق ابداً . وهذه القضية جديرة بالدرس ، لأن الناس كثيراً ما يخطئون بصددها اخطاء تكلف بلادهم غالياً وتعرضها لاخطار قاتلة . ولما كان من الواضح ان مثل هذه المسألة لا يمكن تثبيتها عن طريق التحدث بالمنطق فحسب ، فسأورد الامثلة والاستشهادات القديم منها والحديث ، لتأييدها .

فبعد ان تحقق النصر لهانيبال على الرومان في معركة كانيه ،بعث هذا برسله الى قرطاجنة ، معلناً لاهلها انتصاره ، وطالباً ارسال النجدات والذخائر اليه . وحث هانو ،وهو من عقلاء المواطنين القرطاجيين زملاءه اثناء النقاش الذي دار في مجلس الشيوخ القرطاجي ، حول ما يجب عمله بعد هذا النصر ، على ان من الحكمة استخدام النصر كسلّم لتحقيق سلام دائم مع الرومان الذين يجب ان يحصلوا عليه بشرف وكرامة ، بعد ان هزموهم ، بدلاً من انتظار مجيء العرض من الرومان أنفسهم ،

ملفوعين اليه بهزيمتهم. واضاف ان على القرطاجيين ان يستهدفوا الايضاح للرومان ، بأنهم قد اكتفوا من الحرب معهم ، وان عليهم وقد انتصروا ان لا يمضوا بعيداً فيضيعوا الفرصة المتاحة لهم الآن على امل ان يحصلوا على نصر أحسن . ولم يأخذ مجلس الشيوخ القرطاجي بهذا الرأي في حينه، على الرغم من انه أقر بحكمته وتعقله فيما بعد ، وكانت الفرصة قد ضاعت .

وعندما أتم الاسكندر الاكبر ، اخضاع الشرق كله،اعترفت بعظمته جمهورية صور ، التي كانت تحتل تلك الايام مكانة بارزة في عالم القوة والعظمة ، بسبب موقعها الذي يشبه موقع البندقية على البحر واوفدت سفراءها لينقلوا اليه استعدادها ، لكي تصبح من رعاياه الموالين، ولتطيع مشيئته مع افهامه انها ليست على استعداد لقبوله او قبول جنوده في مدينتها . وثار الاسكندر على هذه المدينة التي تريد ان تغلق في وجهه أبوابها بعد ان فتح له العالم بأسره ابوابه كلها على مصراعيها ، فرفض عروضها ، ومضى يحاصر المدينة . ولكن هذه المدينة التي يحيطها البحر من جوانبها والسعيدة في جدها ، كانت مجهزة احسن تجهيز بالذخائر والمؤن التي تحتاج اليها للدفاع عن نفسها ، وتبين للاسكندر بعد اربعة شهور طويلة من الحصار ، ان الانتصار على هذه المدينة قد كلفه وقتاً اطول من الوقت الذي استغرقه في احتلال الكثير من الاماكن الاخرى، ولذا قرر ان يتلمس طريقه للسلام معها،وان يقبل بالشروط التي كانت المدينة قد عرضتها عليه في الماضي. ولكن اهل صور وقد اعماهم النجاح الذي حققوه واستخفت بهم نشوته ، لم يكتفوا برفض عروضه فحسب، بل قتلوا الرسول الذي اوفده لعمل الترتيبات اللازمة للصلح. وثار سخط الاسكندر على ذلك ، وافاض الحماس على الحصار الذي فرضه ، فتمكن من الاستيلاء على المدينة وقام بتدميرها ، وقتل جميع اهلها او اخذهم عبيداً .

وغزا جيش اسباني في عام ١٥١٢ الاراضي الفلورنسية مستهدفاً اعادة آل مديشي الى حكمها ، وفرض جزيته عليها، معتمداً على رجال الرتل الخامس من اهلها ، الذين دفعوه الى الاعتقاد بأنه اذا عبر الحدود، فأن أفراد الرتل الخامس سيمتشقون الحسام لنصرته وتأييده . وعندما دخل الجيش الاسباني سهل الارنو ، لم يعثر على أحد منهم، ولما كان مفتقراً إلى الذخائر فقد سارع الى الفلورنسيين يعرض عليهم شروطه لعقد الصلح. وأخذت الكبرياء بصدور الفلورنسيين فأبوا قبولها مما أدى الى استمرار الحرب وضياع مدينة براتو (Prato)(١) ، وخراب الدولة كلها .

وعلى هذا فلا يمكن لحكام الدول ان يرتكبوا خطيئة أكبر ، من رفض الوصول الى تفاهم مع العدو عندما تكون قواته المهاجمة لهم اقوى بكثير من قواتهم،ولا سيما اذا جاءت عروض الصلح من العدو نفسه ، اذ ان مثل هذه الشروط لا يمكن ان تكون قاسية أبداً ، بل انها تضم بعض الفوائد التي يمكن ان ينتفع منها من يقبل بها ، ويكون في الواقع قد اسهم في تحقيق النصر . فلقد كان على اهل صور مثلاً ، ان يقنعوا بأن الاسكندر قد قبل الشروط التي سبق له ان رفضها ، وكان عليهم الاكتفاء بهذا النصر الذي حققوه ، لا سيما وقد ارغموا بقواتهم المسلحة رجلاً عظيماً كالاسكندر على الاذعان لرغباتهم . وكان من واجب اهل فلورنسة كذلك القناعة بما حققوه من نصر ، اذا كان الجيش الاسباني قد أذعن الى اي من طلباتهم بدلاً من ان يغتصب منهم كل شيء . وكان جل ما يريده الجيش الاسباني منهم ، ابدال شكل حكومتهم ، ووضع حد لتعلقهم بفرنسا ، وجبي جزية منهم . ولو كان الاسبانيون

---

١ براتو مدينة في مقاطعة فلورنسة وتبعد عن مركزها احد عشر ميلا ، ويحيطها سور ، وفيها احدى القلاع . ومن الآثار الرائعة فيها كاتدرائية يعود بناؤها إلى القرن الثاني عشر . ويبلغ عدد سكانها ٧٦ الفاً . — المعرب —

قد حققوا المطلبين الاخيرين فقط ، ونجا الفلورنسيون من تنفيذ المطلب الاول ، فاحتفظوا بحكومتهم ، لكان كل فريق من الجانبين قد حقق شيئاً من الكرامــة ، ومن الارضاء الذاتي ، وما كان الطلبان الآخران ليؤثرا كثيراً على الشعب ، بعد ان نجا بجلده من هول الكارثة . وحتّى لو تراءى لهم ، ان ثمة املاً طيباً بل ومؤكداً في الحصول على نصر أعظم ، فما كان يجدر بهم ان يسلّموا قيادهم الى الحظ وحده،فيغامروا بآخر ورقة رابحة في ايديهم وهي ورقة يجب ان لا يغامر بها انسان مطلقاً الا اذا وجد نفسه مرغماً على ذلك .

وعندما غادر هانيبال ايطاليا بعد ان قضى فيها وقتاً مجيداً طال ستة عشر عاماً ، عائداً الى قرطاجنة تلبية لدعوة اهلها ، لمساعدة بلاده ، وجد صهره هاسدروبال(١) وسيفاكس ، وقد هزما شر هزيمة ، ووجد ان مملكة نوميديا قد ضاعت وان القرطاجنيين قد حصروا ضمن اسوار مدينتهم ، وقد فقدوا كل امل الا ما يحمله لهم وهو وجيشه منه . ولما كان قد ادرك بأن بلاده قد قامرت بورقتها الاخيرة ، صمم على ان لا يجازف بها الى ان يكون قد استنفد جميع وسائل العلاج الاخرى .ولهذا فلم يجد من العار ان يسعى الى الصلح ، وذلك لأنه اقتنع بأنه لو كان ثمة من امل لبلاده فأن هذا الامل يقوم في السلام لا في الحرب وعندما رفض الرومان عرضه للصلح ، لم يتردد في القتال على الرغم من ثقته بالفشل ، شاعراً بأنه اذا لم يكن قادراً على الفوز ، وان الخسارة محتومة عليه،فأن في وسعه ان يخسر بشرف وكرامة . واذا كان رجل كهانيبال يتميز بالكفاية العظيمة ، ويسيطر على جيش ما زال قوياً ومتماسكاً ، قد آثر السلام على الحرب ، عندما ادرك ان خسارتها ستعــرض بلاده الى

---

١ هاسدروبال ، هو غير اخي هانيبال الذي قتل في ايطاليا . فهو صهره . وكان قائداً في اسبانيا وحارب شيبيو فيها . — المعرب —

العبودية ، فماذا يجب ان يفعل رجل آخر ، ليست له كفاية هانيبال ولا خبرته وتجاربه ؟ ومع ذلك فهناك من يقترفون هذه الخطيئة ، ولا يضعون حداً لآمالهم، ولذا فسرعان ما يكون الدمار نصيبهم لأنهم يعتملون على هذه الآمال وحدها ، دون الاكتراث بأي شيء آخر .

الكتاب الثاني
المطارحات من ٢٨ ـ ٣٣

تعامل روما مع الدول والمدن المجاورة
أيام الحرب والسلم

٢٨

مدى الخطورة في تغافل الجمهورية أو الأمير عن الثأر لاساءة لحقت بالشعب أو بشخص فرد

يمكننا فهم الاسباب التي تدعو الانسان الى الحنق على الآخرين بسهولة مما وقع للرومان عندما أوفدوا الفابيين الثلاثة كسفراء لهم الى الغاليين الذين كانوا يوشكون على غزو توسكانيا ومدينة كلّوسيوم بوجه خاص. وكان شعب كلوسيوم قد استنجد بالرومان طالباً عونهم ضد الغاليين ،

وهنا أوفد الرومان هؤلاء الفابيين(١) الثلاثة كسفراء لهم الى الغاليين ، للاصرار عليهم باسم الجمهورية الرومانية بالامتناع عن شن الحرب على التوسكانيين . وعندما وصل هؤلاء السفراء الى غاية رحلتهم ، وكانوا يجيدون العمل اكثر من اجادتهم للقول ، وجدوا الغاليين والتوسكانيين على وشك الاشتباك في المعركة ، فكانوا أول من سارع الى الدخول في خضمها . ولما انضح ذلك للغاليين ثارت ثائرتهم وانقلب سخطهم من التوسكانيين إلى الرومان . وقد ازداد حنقهم عندما شكوا الى مجلس الشيوخ الروماني عن طريق سفرائهم من هذا العمل المجحف ، وطالبوا بتسليمهم الفابيين الثلاثة ، تعويضاً لهم عما ألحقوه بهم من ضرر، ولكن الرومان لم يكتفوا بعدم تسليمهم فحسب،أو بعدم عقابهم بطريقة اخرى، وانما سارعوا الى انتخابهم في الانتخاب الذي أجروه آنذاك حماة للشعب (تريبيونات) وخولوهم سلطات القناصل . وعلى اثر ذلك ، رأى الغاليون ، ان التكريم قد لحق بهؤلاء الذين كان من حقهم ان يعاقبوا، فاعتبروا تكريمهم بمثابة تحد لهم ، واهانة تصيبهم في الصميم ، فاستشاط غضبهم وثار حنقهم ، وزحفوا على رومة فاحتلوها كلها باستثناء تل الكابيتول . وهكذا جاء الرومان بالكارثة على انفسهم بتجاهلهم للعدالة، اذ طالما ان سفراءهم قد خرقوا « القانون الدولي » فقد كان من واجبهم ايقاع العقاب بهم بدلاً من تكريمهم .

ويحملنا هذا الحادث على التفكير بالاهمية التي يجب ان يعلقها الأمير او الجمهورية على مثل هذه الاخطاء ، لا عندما ترتكب الاساءة بحق الشعب بكامله فقط ، وانما عندما تؤثر على فرد واحد ايضاً . اذ عندما

---

١ نسبة إلى اسرة فابيا الرومانية المشهورة ، التي تعتبر من أقدم اسر النبلاء في رومة ، وتزعم الانتماء إلى هرقل البطل الأسطوري . وقد برز منها عدد كبير لعبوا أدواراً بارزة في تاريخ رومة ومنهم امبوستوس ،ويوثيو ، ولابيو ، وليسينوس ودورسو وفيبيولانوس وبيكتوروكسيموس.
— المعرب —

تلحق اساءة بالغة بفرد من الافراد ، سواء اكان الشعب هو الذي قام بها ، أو كان فرداً عادياً ، وعندما لا يجد هذا الشخص ترضية كافية لما لحق به ، فانه سيحاول اذا كان يقيم في جمهورية ، الثأر لنفسه ، حتى ولو أدت محاولته الى خراب تلك الجمهورية ، أما اذا كان يقيم في ظل احد الامراء ، وكانت لديه قطرة من رجولة ، فانه لن تهدأ له ثائرة ، حتى يكون قد صب انتقامه على هذا الامير ، بأي شكل من الاشكال ،حتى ولو رأى انه في عمله هذا سيأتي بالكارثة الى نفسه .

وليس أروع ولا أصدق من مثل يؤتى به لتزكية هذه الحقيقة من مثل فيليب ملك مقدونيا ووالد الاسكندر ، فقد كان يعيش في بلاطه شاب نبيل وجميل الصورة يدعى بوزانياس . وكان لرجل آخر يحتل مكانة رئيسية في بلاط الملك فيليب ويدعى آتالوس ، عشق مفرط بهذا الشاب ، وقد حاول في مناسبات عدة ، حمله على الاذعان لرغباته ، ولكنه وجد عنده عزوفاً عن مثل هذه الأمور ، ولما رأى انه لا يستطيع تحقيق ما يريده منه بالرضى والقبول ، قرر ان ينصب له شركاً ، وان يلجأ الى القوة لنوال ما يصبو اليه . وأقام لتحقيق غايته وليمة كبرى، حضرها بوزانياس وغيره من النبلاء،وعندما ارتوى الجميع اكلاً وشرباً، أمر بالقبض عليه وحمله الى غرفة ضيقة ، حيث لم يكتف باستعمال القوة لارواء شهوته منه وحده ، بل حمل آخرين ، دون ان يخجل أو يرعوي على معاملته بنفس هذه الطريقة المعيبة . وشكا بوزانياس أمره عن هذه الاساءة للملك عدة مرات ، فمنّاه الملك بعض الوقت بالثأر له ، ولكنه لم يكتف اخيراً بعدم معاقبة اتالوس ، بل عينه حاكماً على احدى المقاطعات اليونانية ، ولما رأى الشاب عدوّه يلقى التكريم بدل العقاب، اتجه سم حقده وسخطه ، لا ضد مرتكب الجريمة معه فحسب، بل ضد فيليب ايضاً ، لانه تقاعسى عن الثأر له . وهكذا ففي صبيحة ذات يوم،وكان الملك قد مضى الى المعبد للاحتفال بزواج كريمته من الاسكندر

حاكم ابيروس ، ووقف بين الاسكندرين ، ولده وصهره ، جاء الشاب فقتله وهو في المعبد . وعلى كل من يحكم بلداً ، ان يعي هذا الحادث والحادث السابق الذي روييتـــه عن الرومان ، وان لا يستصغر شأن أي انسان فيعتقد ان بوسعه ان يلحق به الاساءة تلو الاساءة ، دون ان يفكر هذا بالثأر لنفسه ، اذ انه سيثـــأر حتماً ، حتى ولو انطوى عمله على جميع صور المخاطر ، وأدى به الى الضياع .

٢٩

الحظ يعمي بصائر الناس ويطمس على عقولهم عندما لا يريد منهم الوقوف في طريق مشاريعه

لو فكر الانسان تفكيراً عميقاً في سير الشؤون الانسانية، لرأى احداثاً تقع ، وكوارث عديدة تنزل ، دون ان تكون العناية الإلهية قد شاءت وقفها عن طريق السماح للناس بأخذ احتياطاتهم منها . ولما كان هذا القول ينطبق تمام الانطباق على رومة التي عرف عنها اشتهارها بالفضيلة والتمسك بأهداب الدين والسلوك الصحيح . فليس من الغريب أبداً ، ان ينطبق وبصورة أكثر تكرراً ، على المدن والمقاطعات التي تفتقـــر للمزايا التي تميزت بها رومة . وهناك فقرة مشهورة جداً ، وردت على لسان تيتوس ليفي ، يعرض فيها بتفصيل ، وبالكثير من التأثير، السلطان الذي تمارسه السماء ، على الشؤون الانسانية . فهو يقول ، ان السماء رغبـة منها في حمل الرومان على ادراك سلطانها والاقرار به ، دفعت بالفابيين الثلاثة ، عندما اوفدوا كسفراء الى الغاليين الى التصرف على ذلك النحو الخاطىء

الذي أثار الغاليين ، وحملهم على محاربة رومة ، ثم شاعت ان لا يتخذ في رومة أي اجراء يليق بشعبها ، ويكون كافياً لدرء الهجوم عنها ، اذ انها هي التي سببت ابعاد كاميلّوس(١) عن المدينة ونفيه الى آرديا، في الوقت الذي كان فيه هذا الرجل يصوّر الامل الوحيد لرومة في ايام شدتها تلك ، وهي التي صرفت الرومان ايضاً عن تعيين ديكتاتور يتولى زمام القيادة ، عندما كان الغاليون يزحفون على مدينتهم ، فيخالفون بذلك الاجراء الذي سبق لهم ان اتخذوه في كل مناسبة مماثلة كزحف « الفولسكي » او غيرهم من الاعداء المجاورين لهم . وبعثت السماء فيهم روح الضعف أيضاً، فجعلتهم متراخين في دعوة الجنود الى الاستعداد، كما أوحت لهؤلاء بالابطاء في حمل السلاح ، بحيث ضاق الوقت بهم ولم يستطيعوا مواجهة الغاليين على ضفاف نهر « آليا » ، الذي لا يبعد الا ثمانية أميال عن رومة ، الا في اللحظة الاخيرة . وقد اقام حماة الشعب هناك مخيمهم ، دون ما عرف عنهم من حرص ومواظبة ، لأنهم لم يفحصوا الموقع الذي اقاموا فيه مخيمهم من قبل، كما لم يحيطوه بالخنادق والمتاريس ، كما لم يتخذوا أية احتياطات اخرى من أرضية او سماوية ، بينما نظموا الصفوف عند اعداد الجيش للمعركة، على شكل رخو ضعيف، ولم يسلك الجنود او الضباط سلوكاً يليق بما عرف عن الرومان من روح انضباطية رائعة . ولم تسفك أية دماء في المعركة ، وذلك لان الرومان ، منذ وقع الاشتباك اصيبوا بالاستخذاء فمضى القسم الأكبر منهم الى فيي بينما مضى الباقون الى رومة ينشدون الملجأ الامين في الكابيتول ، دون ان يمضوا اولاً إلى بيوتهم . وتغافل مجلس الشيوخ عن اعداد المدينة للدفاع ، فمثلاً ، اهمل اعضاؤه اغلاق ابواب الاسوار، وبينما فر البعض منهم ، لجأ البعض الآخر الى الكابيتول ، اذ لم يحشروا داخله جميع

---

١ ماركوس فيوريوس كاميليوس (٤٤٥ – ٣٦٥) ق. م. سبق لنا أن تحدثنا عنه في الهوامش.
– المعرب –

الناس الذين لا نفع فيهم ، بل جمعوا فيه كل ما أمكنهم من قمح ، ليتمكنوا من الصمود لحصار طويل ، وخرج معظم الذين لا يصلحون للدفاع من شيوخ وعجز ونساء واطفال ، يهيمون فراراً في الارياف القريبة ، بينما ظل بعضهم في رومة تحت رحمة الغالبين . وكل من يقرأ ما كان يفعله الرومان عادة في السنوات السالفة ، وما فعلوه هذه المرة ، لا يستطيع ان يصدق ، انهم نفس الناس بل ونفس الشعب .

وليس ثمة من نتيجة افضل من هذه التي توصل اليها ليفي ، وعلى هذا فان الناس الذين يتعرضون في الحياة العادية الى متاعب العيش وشقائه أو ينعمون برخائه وازدهاره ، لا يستحقون مدحاً او لوماً ، اذ ان في وسع المرء ان يلاحظ ، انهم سيقوا اما الى الدمار أو الى العظمة ، يدفعهم الأمل في الوصول الى منفعة عظيمة لوحت لهم السماء بها ، ثم اما ان تكون قد منحتهم الفرصة للتمكن من العمل بشجاعة أو حرمتهم منها . ويحسن الحظ وضع خططه وترتيبها . اذ عندما يريد شخصاً لتولي القيادة في القيام بجلائل الاعمال ، يختار رجلاً يمتاز بالحيوية المتدفقة والفضيلة (الشجاعة) الفائقة للقيام بهذه المهمة ، فيغتنم الفرصة المتاحة له بنجاح. وعندما يريد بصورة مماثلة انساناً يأتي بالنوازل العظيمة ، فانه يعطي الأولوية في تنفيذ الغاية التي يريدها ، الى اناس من طبيعتهم المساعدة على الحاق الكوارث بالناس ، واذا ما اعترض انسان طريقهم ، قضى الحظ اما بقتله أو بحرمانه من كل طاقة على عمل الخير .

ويتضح مما قاله ليفي ، واستشهد به من قصة ، ان الحظ رغبة منه في ان يعظم من شأن رومة ، وان يقودها في طريق مجدها المقبل ، قرر ضرورة الاقتصاص منها اولاً بطريقة سأتولى شرحها شرحاً مسهباً في مستهل الكتاب المقبل ، ولكنه لم يشأ تدميرها تدميراً كاملاً . وعلى هذا فقد رأيناه يبعد كاميلوس عن رومة ، ولكنه لا يقضي عليه بالموت أو يتسبب في موته ، ورأيناه يعمل على احتلال رومة ويبقي على كابيتولها ،

ورأيناه يدفع الناس الى تجاهل كل ما يؤدي الى الدفـاع عن رومة بينما يدفعهم الى عدم اهمال أي شيء في وسائل اعداد الدفاع عن الكابيتول. ولما كان الحظ قد قرر ان يحتل الغاليون رومة ، فقد دفع بالقسم الاكبر من قواتهم بعد هزيمة « ألبا » للفرار الى فيي ، تاركين المدينـــة دون دفاع ، ولكنه ممهـــداً في ذلك الطريق لاستعادة رومة ، اذ ان وجود الجيش الروماني في فيي ووجود كاميلوس في ارديا ، قد جعل في حيز الامكان ، القيام بمحاولة اخرى اكثر حيوية ، لانقاذ الوطن على يدي قائد لم يلطخ وحل الهزيمة سيرته العسكرية ، وظلت شهرته فوق مستوى الطعن والشبهات .

وفي وسع الانسان الاتيان بأمثلة اخرى ، لتأكيد هذا الرأي ، ولا سيا من الأزمنة الراهنة ، ولكنني لا ارى ضرورة لذلك،ولذا فسأتجاوز عن هذه الأمثلة ، طالما ان مـــا أوردته منها حتى الآن يجب ان يكون كافياً لاقنـــاع كل انسان . واود ان اؤكد مرة ثانية ، كحقيقة يقوم التاريخ كله شاهد صدق عليها ، ان الناس قد يستطيعون تأييد ما اقرّه الحظ ، ولكنهم لا يستطيعون معارضته ، وانهم قد يتمكنون من العمل بصورة تتفق مع مشيئته ، ولكنهم لا يقدرون عـلى المساس بأوامره أو تحديها . وعليهم مع ذلك ان لا يستسلموا ، اذ ان الأمل يظل قائماً بصورة دائمة ، على الرغم من جهلهم بالنهاية ، ومن سيرهم نحوها في طرق متقاطعة ، وما زالت تفتقر الى الاكتشاف . وما دام الأمل قائماً فعليهم ان لا يقنطوا مهما جاءهم به الحظ ، ومهما جابهوا من صعوبات.

٣٠

المال ليس سبيل الاقوياء من الجمهوريات
والامراء إلى شراء الاحلاف
ولكن سبيلهم اليها التحلي بالفضيلة
وما لقواتهم العسكرية من شهرة

كان الرومان محاصرين في الكابيتول، وعلى الرغم من توقعهم مساعدة تأتيهم من في ، ومن كاميلوس ، الا انهم كانوا في وضع سيء بسبب المجاعة التي تعرضوا لها ، مما دفعهم الى التفاهم مع الغاليين ، والموافقة على ان يدفعوا لهم كميات ضخمة من الذهب . وكانوا في طريقهم الى وزن الذهب الذي اتفقوا مع الغاليين على دفعه ، عندما وصل كاميلوس على رأس جيشه ، وهنا شاء الحظ ، كما يقول المؤرخ ، ان « لا ينقذ الرومان أرواحهم بطريق الشراء » .

ولا يقتصر ظهور هذا الطراز من الاتجاه على هذه الحالة وحدها ، وإنما كان الصبغة الغالبة على تصرف هذه الجمهورية في تاريخها الطويل. ولم نعثر قط على حادثة واحدة تشير الى ان الرومان ابتاعوا في يوم ما مدينة من المدائن ، او دفعوا ثمناً للوصول الى السلام ، ولكنهم كانوا دائماً يحققون الأمرين معاً عن طريق ما تميز به سلاحهم من شجاعة . ولا اعتقد ان هذا الامر قد وقع أيضاً بالنسبة الى أية جمهورية من الجمهوريات . ويعتمد المرء في تقديره لما تتمتع به دولة قوية من سلطان على عدة مظاهر منها فحص الاوضاع التي تسود علاقاتها مع جيرانها . وعندما يكون الوضع السائد ان يصبح الجيران بحكم رغبتهم في اكتساب صداقة دولة من الدول ، روافد لها وفروعاً ، فأن هذا الوضع يشير بصورة مؤكدة الى ما تتمتع به الدولة من قوة ، أما عندما يتمكن هؤلاء

الجيران ، رغم تدنّيهم عنها في ميدان القوة ، من ابتزاز أموالها ، فأن هذا الوضع يشير إلى ضعفها .

وعندما يستعرض المرء تاريـخ الرومان يجد ان المسّيليين والايدوي والروديين وهيرو السراقوزي،والملك يومينيمس(١) ،والملك ماسينيسا (٢) ، وكلهم من جيران الامبراطورية الرومانية ولهم ممتلكات تقع على حدودها، في حاجة الى صداقة رومة،حتى انهم كانوا على استعداد لتحمّل النفقات ودفع الجزية لها ، للحصول على هذه الصداقة ، دون ان يطلبوا منهـا شيئاً سوى حمايتها . أما إذا درس الانسان تواريخ الدول الضعيفة ، فأنه يعثر على عكس هذا الوضع تماماً . ولنبدأ بالتمثيـل بدولتنا فلورنسة ، فقد كانت حتى في الاوقات المنصرمة ، عندما كانت شهرتهـا أرفع مما هي عليه الآن ، تدفع المال للحصول على صداقة كل من يسود رومانا (من البابوات) . وكانت تدفع منحاً اخرى لبيروجيـا وللكاستيلانيـين ولغيرهم من جيرانها . ولو كانت مدينتنا قوية وحسنة التسلح ، لانقلب الوضع رأساً على عقب ، ولرأينا دولاً عدة ترفـع اليها طلباً لحمايتها ، وتسعى لشراء صداقتها بدلاً من ان تبيعها هي صداقتها .

ولم يكن الفلورنسيون هم الوحيدين في هذا الاجراء المحط لشأنهم ، إذ كان يتبعه أيضاً كل من البنادقة وملك فرنسا،وعلى الرغم من عظمة ما لهذا الاخير من مملكة ، فقد دأب على دفع جزية دائمة للسويسريين وللملك انكلترا . وينجم هذا الوضع عن حرمان الشعب من سلاحه،وعن الحقيقة الواقعة وهي ان هذا الملك وغيره من الدول التي ذكرتهـا ، قد آثروا الميزة الراهنة في تمكنهم من نهب شعوبهم، وفي قدرتهم على تجنب

١ اسم عدة ملوك في بيرغوماسوس ، في القرون التي سبقت الميلاد،وقد اشترك أحدهم في حروب ضد انطيوخوس .

٢ ماسينيسا (٢٣٨ – ١٤٩) ق . م. ملك نوميديا في شمال افريقيا . اشترك في الحرب البونية الثانية كحليف لرومة ضد قرطاجنة ، وهي الحرب التي أدت إلى احتلالها . – المعرب –

خطر وهمي لا حقيقي ، على ان يعملوا بطريقة يضمنون فيها حسن نية شعوبهم،وسعادة بلادهم الدائمة . وعلى الرغم من ان مثل هذا الاجراء السيء قد يؤدي إلى بعض الهدوء المؤقت ، إلا انه يغدو مع الزمن ، سبباً في كوارث ودمار لا يمكن اصلاح نتائجها . وقد يطول بي الشرح إذا سردت الحوادث العديدة التي ابتاع فيها الفلورنسيون والبنادقة وهذه المملكة (أي فرنسا) ، الخلاص من الحروب عن طريق ما دفعوه من أموال، وأذعنوا فيها لاوضاع مخزية لم يمر بها الرومان في تاريخم الطويل الا مرة واحدة . ويطول بي الحديث أيضاً ، اذا عددت المدن الكثيرة التي ابتاعها الفلورنسيون والبنادقة ، والتي سرعان ما وقعت الاضطرابات فيها ، وفشلوا في استخدام الفولاذ للحفاظ على ما اشتروه بأموالهم . وقد تمسك الرومان بطريقتهم المجيدة في الحياة طيلة بقائهم أحراراً ، ولكن عندما وقعوا تحت نير الاباطرة،وعندما بدأ هؤلاء يسلكون سلوكاً سيئاً ويؤثرون الظل على الشمس، شرعوا هم أيضاً في تقديم المنح أحياناً للباريثيين ، واخرى للجرمان ، وثالثة لبعض الشعوب المجاورة ، فكان ذلك بمثابة الخطوة الأولى في طريق سقوط تلك الامبراطورية العظيمة .

وهذه هي المتاعب التي تنشأ عن حرمانك شعبك من السلاح . وهناك مشكلة اخرى ايضاً ، اذ كلما كانت قوة هجوم العدو اشد،كلما وجدت نفسك اكثر ضعفاً ، لأن من يعيش على هذا النحو الذي ذكرناه يسيء معاملـة رعاياه والمقيمين في اراضيه ، بينما يحسن معاملة اولئك الذين يقيمون على حدودها ، رغبة منه في استبقاء عواطفهم الى جانبه لمساعدته في درء العدو عن بلاده . وتكون النتيجة انه سعياً وراء ابقاء العدو بعيداً يدفع المرتبات الى النبلاء وأفراد الشعوب التي تعيش في جواره ، ممـا يساعد هذه الدول التي موّلها بمدفوعاته على ابداء مقاومة يسيرة على الحدود. فاذا ما عبرهـا العدو ، لم يكن في امكانه العثور على أي علاج آخر . ولا يمكن لمثل هـذه الدول ان تدرك أن الطريقة التي تسير عليها ، لا

تتفق مع أي شكل من اشكال حسن النظام . فمن الواجب تقوية القلب والاطراف الحيوية من الجسم لا الاطراف البعيدة والنسائية ، ذلك لأن الجسم يستطيع العيش بدونها ، بينما اذا اصيبت الأولى فقد الحياة فوراً، وهكذا فان مثل هذه الدول تبقي على القلب اعزل من السلاح ، بينما تسلح القدمين واليدين .

ولا ريب في ان ما اوقعه هذا الافتقار إلى النظام بفلورنسة ، واضح كل الوضوح وفي مكنتنا ان نراه كل يوم، اذ ان العدو اذا ما اجتاز حدودها واقترب من قلبها ، وجدت نفسها عاجزة عن الاتيان بأي علاج . وقد مثّل البنادقة على هذا الواقع ايضاً قبل بضع سنوات ، ولو لم تكن مدينتهم محاطة بالماء ، لكانت نهايتها قد حانت آنذاك . ولا نجد امثلة كثيرة على هذه الحالة في فرنسا ، وذلك لأنها مملكة ضخمة ، ولأن عدد المتفوّقين ضئيل للغاية . ومع ذلك فعندما هاجمها الانكليز في عام ١٥١٣ ، سادت حالة من الهلع ارجاء المملكة كلها ، واعتقد الملك وكل انسان ، ان هزيمة واحدة ستؤدي الى الحاق الدمار بالمملكة وحكومتها . اما رومة ، فقد كان الوضع عندها مختلفاً كل الاختلاف ، اذ كلما دنا العدو من المدينة ، كلما وجد قدرتها على المقاومة تقوى وتشتد. ويستطيع كل انسان ان يرى ، ان رومة عندما غزا هانيبال ايطاليا ، قد تمكنت رغم الهزائم الثلاث التي لحقت بها ، ورغم مصرع الكثيرين من قادتها وجنودها ، لا من الصمود فحسب امام العدو ، بل ومن الفوز في الحرب ايضاً، وينجم كل هذا عن تحصين القلب وتقويته دون الاكتراث بالاطراف الا بشكل محدود . ولقد كانت العناصر المهمة في هذه الدولة شعب رومة ، والشعب المعروف بالشعب اللاتيني ، والاجزاء الاخرى من ايطاليا المترابطة معها ومستعمراتها . ومن هذه العناصر كلها، كانت تتجمع الاعداد الضخمة من الجنود الذين مكنوها من القتال، ومن السيطرة على العالم المعروف كله. وتبدو حقيقة هذا ، في السؤال الذي وجهه هانو

القرطاجي الى الرسل الذين اوفدهم هانيبال بعد معركة كانيه . فبعد ان بالغ الرسل في التحدث عن انتصارات هانيبـال ، سألهم هانو اذا كان الشعب الروماني قد بعث يطلب الصلح ، او اذا كانت قبائل اللاتين أو بعض مدن المستعمرات، قد ثارت على سلطان الرومان . وكان الرد على السؤالين بالنفي ، فعلق هانو على ذلك قائلاً : « اذن فهذه الحرب ما زالت في استعارها ، كما كانت عليه عند بدايتها » .

ونرى من هذه المطارحة ومما سبق لي قوله في مواضع اخرى، مدى البون الشاسع بين اجراءات جمهوريات اليوم ، والجمهوريات القديمة . ونرى ايضاً بسبب هذا ، ما يقع من مصادرات مذهلة ، ومن خسائر تحيّر العقول كل يوم . اذ عندما لا يكون ثمة الا القليل من الفضيلة، يعرض الحظ عضلاته ويبرز سلطانه ابرازاً كبيراً ، ولما كان الحظ كثير التبدّل ، فان الجمهوريات والحكومات تتبدل بتبدله ايضاً ، وستستمر في تبدلها الى ان يأتي انسان اشبع بحب القديم، فيقبل على تنظيم الأمور بشكل لا يستطيع معه الحظ ان يجد فرصة مع طلوع كل شمس لاظهار سطوته وسلطانه .

٣١

خطر الثقة في اللاجئين

قد لا يكون من الخطأ ان ندرج بين المواضيع الاخرى مدى الخطورة في الثقة بأولئك الذين أخرجوا من بلادهم ، لا سيما وان هـذه القضية من الامور التي يجب ان يعالجها كل من يتسلم زمام الحكم . ومن الممكن

تأييداً لهذا الرأي،الاستشهاد بقضية مهمة أوردها تيتوس ليفي في تاريخه، على الرغم من وقوعها خارج نطاق المواضيع التي يعالجها في كتابه. فهو يقول ان الاسكندر الاكبر ، عندما عبر بجيوشه الى القارة الاسيوية ، مضى الاسكندر الابيروسي ، وهو قريب للاسكندر الكبير ، بل هو خاله(١) في الحقيقة ، على رأس بعض القوات إلى ايطاليا،بعد ان دعاه بعض اللاجئين اللوكانييـــن اليها ، موهمينه بالوعود ، انه سيتمكن عن طريق وساطتهم من احتلال تلك البلاد كلها . وقد ذهب هذا معتمـداً على وعودهم ، ومتأثراً بالآمال التي اثاروهـا في نفسه ، إلى ايطاليا ، حيث قتلوه هم ، وذلك لان مواطنيهم وعدوهم بأنهم إذا تولوا قتله ، سمحوا لهم بالعودة إلى بلادهم . وعلى الانسان تبعاً لذلك ان يفكر طويلاً بمدى ما في الاتفاقات التي يعقدها رجال وجدوا أنفسهم بعيدين عن بلادهم، والوعود التي يغدقونهـــا من صدق يمكن الركون اليه ، إذ عندما يقرر الانسان هذا المدى وما لوعودهم من قيمة،يجب ان يذكر شيئاً واحداً ، وهو انه اذا اتيحت لهم الفرصة للعودة الى بلادهم بدون عونك ، فأنهم سيتخلون عنك ، ويستديرون بوجوههم الى الآخرين ، غير مكترثين بما سبق لهم اغداقه من وعود عليك. أما بالنسبة الى الوعود المعسولة والآمال الكاذبة البراقة ، فأن رغبتهم في العودة الى ديارهم تكون قوية الى الحد الذي يدفعهم الى الايمان بصورة طبيعية بالكثير من الاشياء الزائفة، والى اضافة امور مصطنعة اليها من ذاتهم ، وهكذا يشبعونك،بين ما يعتقدونه وبين ما يزعمون الايمان به،بآمال براقة تكون من النوع الذي اذا أركنت اليه ، أثقلك بالتكاليف التي لا جدوى منها ، أو دفعك الى ارتكاب ما

---

١ يروي مكيافلي في مكان سابق انه صهره لا خاله ، أي زوج ابنة فيليب . أما دائرة المعارف البريطانية فتقول انه خاله ، وشقيق أمه (اولمبيا) . وقـد ارتحل عام ٣٣٢ قبل الميلاد إلى ايطاليا لمساعدة التورنتيين ضد أهل لوكا . وقد هزم في معركة على ضفاف الأشيرون وذبح فيها .

— المعرب —

يؤدي بك الى الخراب .

وانا اري الاكتفاء بهذا المثال الذي أوردته عن الاسكندر، مع اضافة الحادث الذي يتناول ثيموستكليس (Themistocles) (١) الاثيني ، الذي اعتبر ثائراً على مدينته، فنشد اللجوء عند دارا (ملك الفرس) في آسيا، وهناك أخذ يمنية بالوعود السخيّة اذا هاجم بلاد اليونان مما دفع هـذا الى تقرير مهاجمتها . وعندما عجز ثيموستكليس عن الوفاء بوعوده فيما بعد ، اما بدافع الخزي الذي أحس به أو بنتيجة الخوف من العقاب ، آثر الانتحار . واذا كان رجل عظيم كثيموستكليس ، قد وقع في هذه الخطيئة ، فحري بمن هم اقل منه شأنـاً وفضيلة ، ان يتركوا المجال لرغباتهم وعواطفهم تتحكم فيهم كما تشاء وتهوى . وعلى الحاكم، والحالة هذه ان يكون شديد الأناة في تنفيذ مشروع يقترحه عليه احد المبعدين، اذ لن يحصل على الغالب من مثل هذا المشروع الا على العار والضرر المفجع .

ولما كان احتلال المدن عن طريق التسلل ، والمعلومات التي تتسرب من ساكنيها لا ينجح إلا نادراً ، فانني لا أرى في بحثي في هذه القضية في الفصل التالي أي خروج على الموضوع ، لا سيما وانني سأتناول في بحثي ايضاً الطرق التي كان الرومان يتبعونها في احتلال المدن .

---

١ ثيموستكليس (٥٢٤ — ٤٥٩) ق. م. قائد وسياسي يوناني ، كان طموحـاً ، وعارض منذ صباه أصحاب السلطان ولا سيما ارسيديس وأصبح سيد اثينا . دعي إلى تقوية الأسطول لمحـاربة الفرس . انتصر على اسطول الفرس في سلاميس (٤٨٣) . نفاه الأثينيون فيما بعد إذ اتهم بالاستغلال واستقر في مغنيسيا حيث عاش حتى مماته . — المعرب —

٣٢

أساليب الرومان المختلفة في احتلال المدن

لما كان الرومان من اشد الناس اهتماماً بالحرب ، فانهم كانوا يستغلون كل ما يمكن ان يأتي لهم بالعون من نفقات وما شابه ذلك ، في تحقيق هدفهم . ولا ريب في ان هذا هو السبب الذي دفعهم الى الحرص على عدم احاطة المدن التي يحتلونها بالاسوار وتطويقها ، وذلك لاعتقادهم بأن هذا الاسلوب باهظ التكاليف للغاية وكثيراً الرعونة ، بحيث تكون الخسائر التي تتكلفها أكثر بكثير من المنافع التي يمكن الحصول عليها من الفتوحات التي حققوها . وقد حملهم هذا الاعتقاد على اعتبار ان من الافضل والأجدى اخضاع هذه المدن بأية وسائل اخرى ، غير وسيلة حصارها ، وعلى هذا فلا نرى في جميع الحروب التي شنوها وفي جميع السنوات التي قضوها في هذه الحروب الا امثلة قليلة للغاية على حصارات فرضوها على أية مدن هاجموها .

وقد لجأ الرومان في استيلائهم على أية مدينة الى إحدى طريقتين اما اقتحامها عنوة ، او ارغامها على الاستسلام . وكانت هجماتهم تتسم اما بطابع القوة الصريحة والعنف ، او بطابع القوة الملتحمة بالحيلة . وكانوا يستعملون اسلوبين في اقتحام المدن عنوة واقتداراً ، اولهما مهاجمة المدينة من جميع أطرافها دون اللجوء الى تدمير الاسوار اولاً ، وكانوا يطلقون على هذه الطريقة اسم « احاطة المدينة بالتاج » ، لأن الجيش كان يلفها من جميع الجهات ، ويشتبك معها في كافة النقاط ، وكثيراً ما أفلحوا في احتلال المدينة مهما كانت كبيرة . من اول هجوم يقع عليها تماماً كما وقع في قرطاجنة الجديدة في اسبانيا عندما اقتحمها شيبيو . اما الاسلوب الثاني ، فكانوا يلجأون اليه عندما يفشل الهجوم إذ يشرعون في تحطيم

الاسوار بالمجاليق وغيرها من أدوات الحصار ومعداته، او يرتبون تسللاً يتمكنون عن طريقه من دخول المدينة كما فعلوا في فيي مثلاً، او يبنون ابراجاً من الخشب ، ليصبحوا في مستوى المدافعين عن الاسوار ، او يقيمون أكواماً من التراب في خارج الاسوار يغدون بواسطتها على ارتفاع واحد مع حماة المدينة .

وكان المدافعون عن المدينة ، يتعرضون بسرعة الى الخطر ، عندما يواجهون مثل هذا الهجوم الذي يداهمهم طبقاً للاسلوب الأول من جميع جهاتهم ، وتكون وسائل معالجته عندهم مبهمة وتستثير الشك في جدواها لأنها غير موثوقة.اذ ان الحاجة الى انتشار المدافعين في كل مكان تجعلهم يفتقرون الى العدد الكافي منهم ، وحتى لو وجد هذا العدد،فلن يتوافر لهم امدادهم بالقوات الاحتياطية والبديل الذي يتولى عنهم الدفاع عندما يحتاجون الى الراحة ، واذا توافر المدد والاحتياطي ، فأن هذه القوات كلها لن تكون متعادلة في الشجاعة وفي القدرة على الصمود والمقاومة ، واذا ما انهار قطاع واحد ضاعت المعركة كلها . وهكذا فقد اثبت هذا الاسلوب نجاحه في معظم الحالات، كما سبق لي ان قلت . اما اذا فشل الهجوم الأول ، فانهم كانوا لا يمضون فيه لما في المضي فيه من خطر بالغ على الجيش كله ، اذ لمـــا كان الجيش ينتشر فوق ارض فسيحة الارجاء ، فأنه لا يكون في وسعه الصمود الا صموداً ضعيفاً أمام هجوم قد يشنه المدافعون محاولين الخروج من المدينة . وكانوا يخشون ايضاً ، اذا ما واصلوا الهجوم عليها ، ان يصيب الانهاك جيشهم ، ويخرج على سيطرتهم ، وكان المدافعون ، عندما يتمكن العـدو من فتـــح ثغرة في الاسوار يسارعون الى مواجهة الخطر الناجم عنها باقامـة المتاريس ، كما هو الحال في الوقت الحاضر. وكانوا يواجهون العدو بأسلحتهم او بغيرها من الحيل والابتكارات،وبين هذه الابتكارات حشو الاكياس بالريش ، ثم اشعال النار فيها وعندما تشرع الاكياس في الاحتراق ، يضعونها في

الفجوة ليحول لهيبها ودخانها دون مرور قوات العـــدو . أما اذا كان الهجوم موجهاً من القلاع الخشبية فأنهم كانوا يحاولون تدميرها باحراقها، أما إذا كان موجهاً من الاكوام الترابية ، فأنهـم كانوا يثقبون الجدار الذي ترتكز عليه هذه الاكوام، ثم يسحبون الاتربة التي كان المهاجمون قد وضعوها . وهكذا يتعذر على المهاجمين رفعها وزيادة علوها .

ولم يكن في الامكان الاستمرار في مثل هذه الاساليب لاقتحام المدن مدة طويلة ، وكان على الرومـــان اما ان ينقضوا معسكراتهم ويعودوا عن المدينة التي يهاجمونها،أو يبتكروا وسيلة جديدة في مهاجمتها لكسب الحرب ، كما عمل شيبيو عندما وصل الى افريقيا ، اذ عندمـــا هاجم اوتيكا (Utica) (١) ، ولم يفلح في الاستيلاء عليها ، هـدم معسكره وراح يبحث عن جيوش القرطاجيين ليشتبك معها ويدمرهـــا . وكانوا احياناً يلجأون الى فرض الحصار، كما فعلوا تماماً في فيي وكابوا وقرطاجنة والقدس وغيرها من المدن التي استولوا عليها بعد محاصرتها .

ويرمز احتلال مدينة باليوبوليس (Palaepolis) (٢) ، الى الطريقـة التي كان الرومان يتبعونها احياناً للاستيلاء على بعض المدن وهي طريقة العنف المصحوب بالحيلة ، فقد رتبوا امورهم بالنسبة الى هذه المدينـــة مع جماعة الرتل الخامس في داخلها . وكثيراً ما جرّب الرومان وغيرهم من الشعوب هذه الطريقة ، ولكنهـــا لم تكن ناجحة معهم الا نادراً . والسبب في ذلك ان الخطة قد تتحطم عند أقل نكسة ، وكثيراً ما تحدث

---

١ اوتيكا اسم مدينة قديمة في افريقيا الشمالية تبعد ٢٥ ميلا إلى الشمال الغربي من قرطاجنة في بلاد تونس الحالية . وقد أقامها الفينيقيون عام ١١٠١ ق. م. وارتفع مرها بعد تدمير قرطاجنة وأصبحت عاصمة المقاطعة الرومانية ، وهناك مدينة بهذا الاسم إلى الشمال من نيويورك اليوم ويبلغ عدد سكانها مائة الف . — المعرب —

٢ باليوبوليس هو الاسم الحديث لمدينة قديمة كانت تدعى « اليس Elis » في بلاد اليونان تقع على مقربة من وادي الاوليمب . وقد ضمها الرومان إلى مقاطعة آخيا فيما بعد . ويبلغ عدد سكان المدينة الحديثة (١٤٨,٥٠٠) . — المعرب —

مثل هذه النكسات . فقد تكتشف المؤامرة في الدرجة الأولى قبل السير فيها خطوة فعلية وليس ثمة صعوبة كبرى في اكتشافها ، وذلك بسبب خيانة اولئك الذين علموا بها احياناً ، وأحياناً اخرى بسبب بعض المتاعب العملية . فعليك ان تكون على اتصال بالعدو ، ولا تسمح بمثل هـذا الاتصال الا اذا وجدت مبرراً له . وحتى لو فرضنا ان المؤامرة لم تكتشف اثناء القيام بترتيباتهـا ، فان عدداً كبيراً من المتاعب سيثور في طريقك عندمـا يحين وقت العمل . فاذا وصلت قبل الموعد المعين او وصلت متأخراً عنه ، فقد يحدث أي شيء يقلب خطتك رأساً على عقب . وقد يحدث ايضاً ، ان تسمع اصوات غـير متوقعة ، كصوت الأوز في الكابيتول ، او ان يتقطع سير الاحداث الطبيعي بك . واذا ما وقـع أي خطأ أو زلل ، فان الهجوم مقضيٌ عليه بالفشل . وبالاضافـة الى كل هذا،فان هناك ظلمة الليل التي يجب ان تضاف الى مخاوف جميع الذين يعملون في مثل هذه المهمات الخطرة ، كما ان معظم الرجال الذين يتولون مثل هذه المهام ، لا يعرفون شيئاً عن البلاد أو الامـاكن التي يقادون اليها ، وقد تتعثر اقدامهم في الوحول ، أو قد يغمى عليهم ، وقد يضطرب امرهم من مجرد وقوع حـادث عرضي بسيط ، ومجرد تأثرهم بأي انطباع زائف قد يكون كافياً لحملهم على ان يولوا الادبار.

ولا يمكن للمرء ان يعثر على انسان اكثر حظاً في مثل هذه المغامرات الغسقية المتلصصة ، من اراتوس السيكيوني (Aratus)(١) ، ولكن عـلى الرغم من شجاعته ، فانه كان يبدو عصبي المزاج اثناء القيام بمغامرات مكشوفة وفي وضح النهار . وقد نغزو هذا الى سلطان سحري ، كان

---

١ اراتوس السيكيوني (٢٧١ – ٢١٥) ق. م. سياسي يوناني ولد في سيكيون ودرس في اثينا. وكان الطاغية ابانينداس قد أعدم والده في صباه . و تمكن آراتوس عام ٢٥١ ق. م.من قلب الطاغية واقام لنفسه حكماً زاهراً في اثينا . وانضم إلى العصبة الآخية فجعل منها قوةبارزةضد جميع الطغاة ومات مسموماً . – المعرب –

الرجل قد حبي به ، لا الى أي امر آخر يتصل بطبيعة الحملات الليلية التي تجعلها اكثر حظاً من الحملات الاخرى . وعلى الرغم من وضع الخطط بصورة متكررة لاعداد هذه الوسائل ، الا ان بعضها فقط يصل الى نتيجة مثمرة ، ويكلل البعض القليل جداً منها بالنجاح .

وعندما يكون الاستسلام هو وسيلة الاستيلاء على المدن ، فان هذا الاستسلام قد يكون طوعياً ، وقد يكون الزامياً . وعندما يكون طوعياً فانه اما ان ينجسم عن بعض الظروف الخارجية التي ترغم مدينة من المدن على طلب الحماية في ظل جناح مدينة اخرى ، كما فعلت كابوا عندما سعت الى الحصول على حماية رومة ، او ينتج عن رغبة المدينة في ان يصلح حكمها ، وهي رغبة يستفزها وجود الحكم الصالح الذي يمارسه الحاكم موضوع الحديث على اولئك الذين اختاروا بمحض ارادتهم ان يضعوا انفسهم بين يديه ، وهو ما فعله الروديون والمسيليون وغيرهم من ابناء المدن الاخرى التي استسلمت الى الشعب الروماني . أما عندما يكون الاستسلام الزامياً ، فيكون هذا نتيجة حصار طويل كما رأينا من قبل ،أو نتيجة الغيظ المستمر الناجم عن الغارات واعمال الاجتياح والسلب وغيرها من المضايقات الاخرى مما يرغم المدينة على استسلام .

وكان الرومان يكثرون من استخدام الطريقة الاخيرة مؤثرينها على الطرق الاخرى . وكانوا يعملون اكثر من اربعمائة وخمسين عاماً على انهاك جيرانهم بالهزائم التي يوقعونها بهم في الميدان وبالغارات وبالمعاهدات التي يعقدونها والتي استطاعوا الحصول عن طريقها على شهرة اوسع من تلك التي حصل عليها منافسوهم ، كما سبق لنا ان اشرنا في مكان آخر. وكانوا يركنون الى هذه الوسيلة اكثر من سواها ، على الرغم من انهم حاولوا جميع الوسائل ، ولكنهم وجدوها اما ان تكون مشحونة بالخطر أو غير نافعة او مجدية . ففرض الحصار أمر باهظ التكاليف ويستغرق وقتاً طويلاً ،والاقتحام غير مضمون النتيجة وكثير الخطر ، والمؤامرات

... الوثوق بها . وقد أدركوا ايضاً ، انه اذا هزم جيش العدو، فانهم يسيطرون على مملكته في يوم واحد، بينما اذا حاصروا مدينة شديدة العناد ، فقد يقتضيهم الاستيلاء عليها عدة سنوات .

٣٣

الرومان يمنحون قادتهم العسكريين حرية التقرير والاختيـار

على الانسان اذا أراد الانتفاع من تلاوة تاريخ ليفي ، ان يهتم، كما أعتقد ، بجميع طرق الاجراء التي اتبعها شعب رومة ومجلس شيوخها ، ولعل بين أكثر النقاط أهمية من التي تستحق الملاحظة الصلاحيات التي كانا يمنحانها الى القناصل والديكتاتورين وغيرهم من قادة الجيش عندما يكونون في الميدان . ولقد كان تنظيمهم رفيعاً الى حد كبير ،اذ احتفظ مجلس الشيوخ لنفسه بسلطة شن الحروب الجديدة وابرام معاهدات الصلح ليس الا وكان يترك كل شيء آخر لتقدير القناصل وصلاحياتهم. فعندما قرر الشعب ومجلس الشيوخ مثلاً ، المضي الى الحرب ضد اللاتين، تركا كل شيء آخر لتقدير القنصل ، الذي كان في وسعه ان يخوض المعركة او لا يخوضها ، وان يهاجم هذه المدينة أو تلك وفق ما يراه مناسباً .

وتؤيد الامثلة العديدة هذه الحقيقة ، ولا سيما ما وقع منها في الحملة التي شنها الرومان على التوسكانيين.وكان القنصل فابيوس قد هزم الاعداء القريبين من سوتريوم،وأخذ يعد العدة للمضي بجيشه عبر غابة سيمينيا في طريقه الى توسكانيا . ولم يكتف بعدم استشارة مجلس الشيوخ في خطته، بل انه لم يقم بابلاغه هذه الخطة أيضاً،على الرغم من ان الحرب كانت

ستنتقل الى بلاد جديدة وخطرة وغير مكتشفة . ويقدم لنا عمل المجلس في هذا الصدد وهو من طراز معاكس، تأكيداً آخر لنظريتنا ، اذ عندما سمع المجلس بالنصر الذي احرزه فابيوس، وتساءل ما اذا كانت خطوته الثانية ستستهدف عبور الغابة المذكورة الى توسكانيا ، خيل اليه ان خير ما يفعله هو ان يوفد الى فابيوس رسولين يحولان بينه وبين المضي في طريقه الى توسكانيا مخافة المجازفة بما قد تنطوي عليه هذه الحرب من مخاطر . وعندما وصل الرسولان ، كان فابيوس قد مضى فعـلاً في سبيله وحقق انتصاراً ، وهكذا بدلاً من الحيلولة دون الحرب الجديدة عاد الرسولان الى رومة يحملان انباء النصر والاحتلال واكتساب الامجاد.

وكل من يدرس هذا الاسلوب بعناية ، يدرك انه اسلوب حكيم ، ووافر المنفعة ، اذ لو كان مجلس الشيوخ يطلب الى القنصل الذي يشرف على ادارة الحرب ، السير خطوة خطوة وفق تعليمات المجلس، فأن هذا الاجراء كان كفيلاً بأن يكبل يديه ، ويدفعه الى الابطاء في العمل ، اعتقاداً منه بأن أمجاد النصر لن تعود اليه بكاملها ، بل سيشاطره اياها مجلس الشيوخ ، لأن هذا النصر قد تحقق وفق توجيهاته . يضاف الى هذا ان مثـل هذا الاجراء كان يتطلب من المجلس تقديم المشورة في قضايا لا علم له بها بصورة سريعة ، اذ على الرغم من ان أعضاء مجلس الشيوخ كانوا جميعاً من الخبراء المهمين في القضايا العسكرية ، الا ان عدم وجودهم في الميدان كان كفيلاً بأن يجعلهم جاهلين بالتفاصيل العديدة التي يجب على المرء ان يعرفها مسبقاً قبل ان يقدم نصيحة سديدة، ويؤدي هذا الى ارتكاب أخطاء فاحشة وكثيرة . وعلى هـذا كانوا يؤثرون ان يقرر القنصل ما يريد ان يعمله ، وان يكون الفخر والمجد من نصيبه وحده ، اذ اعتقدوا بأن تعشقه للمجد، سيكون المسيطر على جميع أعماله والمنظم لها ، بحيث يبذل طاقته .

وقد آثرت ان الفت النظر الى هـذه الحقائق ، لانني ألاحظ ان

جمهوريات اليوم ولا سيما البندقية وفلورنسة ، تعمل بشكل مغاير ، اذ لو أراد قادتها العسكريون او حكامها الاداريون أو مفوضوها، وضع قطعة مدفعية في مكان ما ، فأن حكومة الجمهورية تريد ان تعرف كل شيء عن عملهم ، وان تقدم رأيها فيه ، وهو اجراء لا يستحق منا الثناء ولا يستحق الا ان نقول بأنه وما شابهه من اجراءات مماثلة قد أوصلنا الى ما نحن فيه من ورطات .



الكتاب الثالث

أمثولة عظماء رومة

« إن الغرض من الكتاب الثالث ، اظهار ما حققته أعمال بعض الرجال ، في كسب العظمة لرومة ، وما حملته من ثمار نافعة اليها. ومعظم هذه الأمثلة مستقاة من كتب ليفي من الثاني حتى الثامن » .



الكتاب الثالث
المطارحات من ١ الى ٥

الإصلاح ، الأمن ، والقضاء على المنافسين

١

من الضروري لبقاء اية منظمة دينية أو حكومة شعبية مدة طويلة ، أن تعودا دائماً إلى بدايتيهما

من الحقائق الثابتة والمقررة ، أن لحياة كل شيء دنيوي اجلاً محدوداً ولكن اكمال السير الذي رسمته السماء لا يكون الا للاشياء ، التي لا تقبل هياكلها التحلل عامة ، وانما تحافظ على نفسها في هيئة منظمة دون أي تبدل ، او التي حتى ان تبدلت ، مالت دائماً الى الابقاء على هـــذه الهياكل لا الى تدميرها . وانا اعني هنا بالاجساد المركبة الدول مثلاً والمنظمات الدينية ، واكاد اقطع بان التبدلات التي تطرأ عليها ، تعمل على حفظها من التحلل، وتعود بها الى منشئها . ومن هنا تكون المنظمات

القابلة للتجديد الدائم،احسن تركيباً واطول عمراً ، وكذلك الحالة بالنسبة الى تلك المنظمات التي يمكن تجديدها عن طريق حادث لا يمت بصلة من الصلات الى تركيبها . فمن الواضح وضوح الشمس ، ان هذه الاجساد اذا لم تتجدد لا تخلد ولا تعمر طويلاً .

وتكون طريقة التجديد بالنسبة اليها ، كما قلت في العودة بها ، الى نقطة نشوئها . فمن المعروف ان المنظمات الدينية والجمهوريات والممالك ، تنطوي عند نشأتها على بعض العناصر الطيبة في جميع الحالات ، ويعود الفضل الى هذه العناصر ، فيما يكون لها من شهرة مبكرة ، وما تحققه من تقدم سريع . ولكن لما كانت هذه الطيبة تتعرض للفساد مع مرور الزمن ، فان مثل هذا الجسم لا بد وأن يموت حتماً ، ما لم يطرأ عليه شيء يعيده الى مستواه الطبيعي . ويقول اطباؤنا على هذا الاساس عندما يتحدثون عن الجسم البشري ، ان هذا الجسم « يمتص كل يوم شيئاً يتطلب العلاج من وقت الى آخر » .

وتكون عودة الجمهورية الى نقطة نشوئها ، اما بفعل حادث خارجي معين ، أو بفضل ما تتميز به من منطق فطري سليم . وقد رأينا كمثال على العامل الأول ، كيف كان من الضروري ان يحتل الغاليون رومة لتعود فتولد من جديد ، وتكتسب في ولادتها هذه ، حيوية جديدة ، وفضيلة جديدة ايضاً ، وتعود الى احترام الدين والعدالة ، بعد ان كان هذا الاحترام قد تعرّض لبعض الشوائب. ويبدو هذا بوضوح من سرد ليفي للقصة ، عندما يقول ان الرومان لما ساقوا جيوشهم ضد الغاليين وخلقوا مناصب لحماة الشعب يتمتع شاغلوها بالصلاحيات القنصلية ، لم يراعوا مطلقاً الاجراءات الدينية الاحتفالية . ورأينا على نفس النمط كيف انهم عندما اخترق الفابيون الثلاثة « القانون الدولي » بهجومهم على الغاليين ، لم يعاقبوهم، وانما عينوهم حماة للشعب . ونستطيع ان نستنتج من هذا بسهولة انهم بدأوا يستهينون بالانظمة الطيبة التي وضعها رومولوس

وغيره من الامراء العقلاء ، استهانة اكثر من المعقول ، خلافاً لمتطلبات الحفاظ على دولة حرة وهكذا فقد حلّت هذه الهزيمة على ايدي الغرباء والحالة هذه ، لتأمين تجديد ما في المدينة من منظمات ، ولتبصير هـذا الشعب ، لا بضرورة الحفاظ على الدين والعدالة فحسب، بل وبضرورة النظر بعين الاجلال الى المواطنين الشرفاء ، واعتبار ما يتمتعون به من فضيلة شيئاً اثمن من تلك المتع ، التي بدا لهم ان ثمة افتقاراً اليهـا بسبب ما قام به هؤلاء الرجال الافاضل . وقد تحقق كل هـذا فعلاً . اذ ما كادت تستعاد رومة ، حتى جدد اهلها جميع المراسيم المتعلقـة بديانتهم القديمة ، وعاقبوا الفابيين الثلاثة الذين عملوا خـلافاً « لقانون الأمم » . وركزوا كذلك اجلالهم على ما يتمتع به كاميلوس من فضيلة وطيبة ، حتى ان مجلس الشيوخ والباقين تخلوا عن كل شعور عندهم بالغيرة منه ، ووضعوا على اكتافه اعباء هذه الجمهورية كلها .

وهكذا فمن الضروري كما قلت ، ان يلفت انتباه من يعيشون معاً في ظل أي دستور بصورة متكررة ، الى هذا الدستور اما بفعل حادث خارجي أو آخر داخلي . وتكون مثل هذه الاحداث الداخلية عائدة على الغالب الى قانون ما، يحمل الاعضاء في هذه الهيئة من وقت الى آخر ، على اعادة النظر في وضعهم ، أو الى رجل طيب ما ، قد يظهر وسط هؤلاء الاعضاء ، ويحدث بالمثل الذي يقدمه وباعماله الفاضلة نفس الاثر الذي يحدثه الدستور .

وهكذا تأتي هذه المنافع عادة للجمهوريات اما بفضل فرد معين أو بفضل تنظيم معين . وكانت التنظيمات التي حملت الجمهوريـة الرومانية على العودة الى نقطة بدايتها ، ادخال تعيين حماة الشعب (التربيون) ،

وتعيين المراقبين(١) ،وجميع القوانين الأخرى التي وضعت حداً للمطامع الانسانية وللغطرسة والجبروت، وتحتاج هذه التنظيمات الى ان يقوم مواطن صالح بادخال حياة جديدة اليها ، عن طريق تعاونه الجدي في اضفاء التأثير عليها وانفاذها على الرغم من سلطان من يعارضونها . ولعل ابرز الاجراءات الجذرية التي هي من هذا النوع ، والتي اتخذت قبل احتلال الغاليين روما اعدام اولاد بروتوس ، واعدام المواطنين العشرة، واعدام مايليوس تاجر الحبوب . أما الاجراءات التي اتخذت بعد احتلال رومة فكان بينها مصرع مانليوس كابيتولينوس،ومقتل ابن مانليوس توركواتوس، والاجراء الذي اتخذه بابيريوس كيرسور ضد فابيوس ، آمر الفرسان عنده ، والتهمة التي وجهت ضد الشيبويين . وكانت مثل هذه الحوادث بسبب ما فيها من صرامة غير مألوفة ، وما فيها من سمعة سيئة ، تعيد الناس الى صوابهم في كل مرة تقع ، ولكن عندما بدأ وقوعها يقل تدريجياً ، أخذ هذا الوضع يفسح المجال للناس لممارسة الفساد ، واصبح اكثر خطورة واكثر شغباً وهرجاً ومرجاً ولا بد ان تنقضي عشر سنوات على الاقل بين وقوع حادث انضباطي من هذا النوع ووقوع الحادث الذي يليه ، اذ ان الناس يبدأون بعد انقضاء مثل هذه الفترة في تبديل عاداتهم وفي خرق القوانين ، وما لم يحدث شيء يعيد الى الاذهان العقوبة التي انزلت في الماضي،ويوقظ شعور الخوف عند الناس، فسيتكاثر عدد الجانحين بحيث يستحيل عقابهم دون التعرض للخطر .

وكان الذين تولوا حكم فلورنسة بين عامي ١٤٣٤ و ١٤٩٤ قد دأبوا

---

١ المراقبون (Censors) – كان هذا المنصب وقفاً على القناصل في بداية العهد الجمهوري ثم أصبح من اختصاص قضاة يعينون له ، وكانوا من النبلاء في البداية ثم أتيح للعامة الوصول اليه . وعدد المراقبين اثنان ينتخبان لخمس سنوات ثم خفضت المدة إلى ثمانية عشر شهراً . وهذه الوظيفة هي أهم منصب بعد منصب الديكتاتور . ومهمة مشغله اجراء الاحصاء وتسجيل المواطنين واملاكهم ومراقبة الاخلاق العامة وادارة الشؤون المالية للدولة ، وعزل الشيوخ أو تعيينهم .

— المعرب —

على القول بضرورة اعادة تأليف الحكومة مرة كل خمس سنوات ، والا أصبح من الصعب الحفاظ عليها،وكانوا يعنون « باعادة تأليف الحكومة» بث نفس الفزع والرعب في قلوب الناس ، الذي كانوا قد بثوه عند تأليف الحكومة أول مرة ، وذلك بمعاقبة الذين اعتبرهم العهد من وجهة نظره قد أساءوا السلوك . ولما كانت ذكريات هذا العقاب تختفي بسرعة على أي حال ، فأن الناس يتشجعون لمحاولة شيء جديد، وللتحدث عن المشاغبات والفتن . وعلى هذا يجب اتخاذ الاجراءات الاحتياطية ضد مثل هذا الوضع عن طريق اعادة الحكومة الى ما كانت عليه في مستهل عهدها.

ويرجع الفضل في مثل هذه العودة الى نقطة البداية في الجمهوريات أحياناً ، الى فضيلة انسان واحد ليس الا ، مع استقلال هذا الفرد عن أية قوانين تحفز الناس على العمل . فالسمعة العاطرة ، والمثل الطيب يتركان أثراً عظيماً ، يحاول الناس تقليده ، بينما يخجل أصحاب السلوك السيء ، من التصرف تصرفاً مناقضاً له . وكان بين الأشخاص البارزين الذين رسموا بسلوكهم الطيب أمثلة رائعة للشعب الروماني عدد لا يستهان به وفي مقدمتهم هوراتيوس كوكليس وسكيفولا وفرابيكيوس(١) ،والاخوان ديسي ، وريغيولوس اتيليوس وغيرهم كثر ، وكان لهذه الأمثلة الفاضلة والنادرة التي رسموها أثر لا يقل عن الاثر الذي تركته في رومة قوانينها وأنظمتها . واذا كان العمل الفعّال من النوع الذي شرحناه قبل قليل ، قد وقع في المدينة مصحوباً بهذه الأمثلة الرائعة مرة كل عشر سنوات على الأقل ، فأن من المحتوم والحالة هذه ان لا تتعرض رومة للفساد مطلقاً . ولكن عندما بدأ حدوث هذين الأمرين يسير في اتجاه الندرة ، فأن الفساد أخذ يستشري وينتشر، ولم يظهر بعد ماركوس ريغولوس اي

---

١ مواطنون رومانيون كانوا مضرب المثل في الاخلاص والشجاعة والنزاهة ، فلقد ذكر مثلا ان رومة اوفدت فرابيكوس إلى بيروس ملك مقدونيا لافتداء اسراها بعد هزيمة معركة هيراقليا ، فحاول الملك رشوته بمبالغ ضخمة ولكنها ذهبت عبثاً . — المعرب —

مثل آخر من هذا النوع ،وعلى الرغم من ظهور الشخصين اللذين يحملان اسم « كاتو » في رومة ، فقد امتدت فترة طويله بين ظهورهما وبين ما سبق ذلك من حوادث مماثلة ، كما كانت هناك فترة طويلة اخرى بين ظهور الرجلين نفسيهما،وهذا أدى الى انهما ظلا وحيدين في عصرهما، ولم يستطع مثلهما الطيب ان يترك أثراً فعالاً ، ولا سيما بالنسبة الى كاتو الأصغر ، الذي وجد القسم الأعظم من المدينة وقد انتشر فيه الفساد ، بحيث لم يستطع بالمثل الذي قدمه ان يترك أى أثر في تحسين أحوال المواطنين . وأرى ان نكتفي بهذا القدر عن الجمهوريات .

ويرى المرء أيضاً من ناحية المنظمات الدينية ضرورة مثل هذا التجديد، في المثل الذي تضربه ديانتنا التي لو لم تعد الى نقطة بدايتها على أيدي القديسين فرانسيس ودومنيك ، لقضي عليها بالزوال . فقد أحيا هذان الرجلان بما قضياه من حياة الفقر ، وبتمثلهما بحياة السيد المسيح ، الديانة في عقول الناس ، بعد ان كانت قد ماتت فيها ، وكان نظاما الرهبنة اللذان اقاماهما من القوة بحيث حالا بين غواية أحبار الكنيسة ورؤوسها وبين الوصول بالدين الى الدمار والخراب . وقد عاش هذان القديسان أيضاً حياة خشنة لا انفاق فيها ونالا من المكانة عند الجمهور ، كشخصين يتقبلان الاعترافات ، ويعظان بأمور الدين ، الحد الذي مكنهما من اقناع الناس بأن من الشر ان يتحدث الانسان بالسوء عن عمل الشر، وان من الخير ان يعيش الانسان مطيعاً لمثل هؤلاء الاحبار، تاركاً تقدير ما يعملونه من خير أو شر الى الله وحده الذي يستطيع عقابهم . ولما غدا الوضع على هذا النحو ، فأن هؤلاء أصبحوا يتصرفون على أسوأ نحو يمكنهم التصرف فيه ، وذلك لأنهم لا يخشون اي عقاب ، من ذات لا يرونها ولا يؤمنون بها . ولا ريب في ان هذه الحركة البعثية هي التي حفظت وجود الدين وما زالت تحفظه حتى اليوم .

وتحتاج الممالك أيضاً الى التجدد والى اعادة القوانين الى نقطة البداية

فيها . ويظهر الأثر النافع لهذا الاجراء ، في مملكة فرنسا ، وذلك لأن سير الأحوال في هذه المملكة تنظمه مجموعة من القوانين والأنظمة تفوق في عددها ما في أية بلاد أخرى من مثيلاتها . وتحافظ البرلمانات ولا سيما برلمان باريس(١) على هذه القوانين والأنظمة ، كما ان الاجراءات التي تتخذها في عقاب أحد الامراء الاقليميين او في اصدار حكم يدين الملك نفسه،هي التي تتولى تجديد القوانين والأنظمة . وقد تمكنت هذه البرلمانات من المحافظة على مكانتها ، بفضل ما أبدته حتى الآن من تصلب وعناد ضد نبلاء المملكة واشرافها . أما اذا تركت جريمة دون عقاب في اي وقت من الأوقات ، واذا أخذ عدد هذه الجرائم في التزايد،فأن النتيجة الحتمية ستكون قطعاً اما اصلاح القوانين والانظمة لتتفق مع الاضطرابات المفجعة الواقعة في البلاد،او تعريض المملكة كلها الى التفسخ والانحلال .

والنتيجة التي نصل اليها ، في نهاية هذا الحديث ، هي ان ليس ثمة من ضرورة اشد لأية جماعة ، سواء أكانت هذه الجماعة مؤسسة دينية او مملكة أو جمهورية ، من ان تعاد اليها المكانة التي كانت لها في بداية عهدها . وان يعنى عناية فائقة ، بأن تتولى الأنظمة الصالحة او الرجال الطيبون تحقيق ذلك ، بدلاً من ان يعهد به الى قوى وعوامل خارجية. اذ على الرغم من ان هذه العوامل قد تكون مرة وبمحض الصدفة خير علاج للوضع،كما وقع بالنسبة الى رومة مثلاً ، الا ان من الخطر كل الخطر الركون اليها ، اذ انها تكون دائماً على النحو الذي لا يشتهيه اي انسان .

ولايضاح ما أسهمت به أعمال بعض الرجال المعنيين في تحقيق العظمة لرومة ، وما أتت به الى المدينة من ثمار نافعة ومفيدة ، فسأمضي في في سرد ما قاموا به من اعمال والتحدث عنها. وسأحصر أحاديثي ضمن

---

١ كان هناك في فرنسا في القرون الوسطى ، عدة برلمانات ، إذ لكل مقاطعة برلمانها ، بالاضافة إلى البرلمان المركزي في باريس . — المعرب —

هذا النطاق في هذا الجزء الثالث والاخير من كتابي الذي يتناول الحقبة الاولى من تاريخ ليفي . وعلى الرغم من ان أعمال الملوك الأولين كانت عظيمة وجديرة بالتسجيل، الا ان التاريخ قد تناولها بالاسهاب والتفصيل، ولذا فلن أشير اليها هنا، الا اذا كانوا قد قاموا بأعمال استهدفت منافعهم الخاصة . ولذا فسأبـدأ بالحديث عن بروتوس الذي يعتبر منشىء الحرية الرومانية .

٢

من الخير ان يدعي الانسان الحمق أحياناً

لم يستطع انسان في التاريخ ان يحقق عن طريق التظاهر بالبلادة ، ما حققه جونيوس بروتوس(١) الذي تظاهر بالبلادة، وحقق بواسطة تظاهره هذا اعمالاً كبيرة تنطوي على التعقّل والروية ، واكتسب شهرة عظيمة في مجالات الحكمة. وعلى الرغم من ان تيتوس ليفي ، يعزو اعماله هذه الى سبب واحد ، حمله على الاقتناع بممارسة هذا النفاق والمواربة ، وهو الرغبة في العيش بأمن وطمأنينة والحفاظ على ممتلكاته ، الا ان في وسع المرء ، ان يحكم على ضوء سلوكه ، على انه سار على هذا السلوك ، رغبة منــه ايضاً في تجنّب المراقبة ، الى ان تحين له الفرصة الطيبة ، للتخلص من الملوك وتحرير بلاده من حكمهم ، ويتضح تفكيره في هذا الهدف الذي جعله نصب عينيــه ، اولاً من التفسير الذي توصل اليه

١ جونيوس بروتوس أحد القنصلين الأولين اللذين توليا الحكم في رومة بعد طرد الملوك عام ٥٠٩ قبل الميلاد . تظاهر بالغباء في عهد آخر الملوك الترقونيين ، وهو قريب له لينجو من الموت. وقد اتخذ من قضية لوكريثيا والاعتداء عليها وسيلة لطرد الملوك من المدينة . — المعرب —

لشرح ما قاله عرّاف الالـه ابولو ، عندما تظاهر بالسقوط على الارض، ليجد الفرصة لتقبيلهـــا ، مستنتجاً من ذلك ان الالهة راضية عما وضعه نصب عينه ، وثانياً من انه كان الرجل الأول بعد مصرع لوكريشيا ، الذي انتضى الخنجر من صدرها عـــلى مرأى من والدها الذي قتلها ، وبحضور زوجها وعدد من اقربائها.وحمل الواقفين جميعاً على ان يقسموا بأنهم لن يسمحوا ، لأي ملك بعد اليوم بالحكم في رومة .

وعلى جميـع الناقين على أمير من الامراء ، ان يتخذوا عظة من المثل الذي ضربه هذا الرجل بسلوكه ، وان يزنوا بدقة اولاً مدى القوة المتوافرة عندهم . فاذا رأوا انهم على درجة من القوة تمكنهم من اعلان عدائهم له ، وشن الحرب عليه بصراحة ، فان عليهم بالطبع ان يسلكوا هذا السبيل لانه اقل السبل خطراً واكثرها كرامة وشرفاً . واما اذا كان وضعهم من النوع الذي لا يوفر لهم القوات الكافية لاعلان الحرب عليه صراحة،فان عليهم ان يبذلوا كل محاولة ، للحصول على صداقة الأمير ، وعليهم في مثل هذه الحالة،الافادة من كل منفذ يحقق لهم هذا الهدف ، كالخنوع لرغباته ، وابداء السرور بكل ما يعتقدون انه يبعث المسرّة في نفسه . وتضمن مثل هذه الصلة المألوفة والشائعة لك سلامـــة حياتك اولاً ، كما تسمح لك دون ان تعرضك الى أي خطر ، بالتمتع بكل ما يحققه حسن الطالع للأمير من متعة . وهي بالاضافة الى ذلك ، تؤمن لك الفرصة المناسبة لتحقيق نواياك .

وهناك في الحقيقة من يقول ، ان عليك ان لا تعيش قريباً جداً من الامراء ، بحيث يشملك سقوطهم ، ولا بعيداً جداً عنهم ايضاً ، بحيث اذا سقطوا ، تعذر عليك الافادة من سقوطهم ، وان من الخير حتماً اتباع الطريق الاوسط ، اذا كان في امكانك اتباعه . ولما كنت مقتنعاً من لا عملية هذا الطريق الاوسط ، فان من الجدير بالمرء في رأيي ان يتبع احد السبيلين الأولين ، اما العمل جهاراً ، أو الارتبـاط بالامراء

ارتباطاً وثيقاً . أما الرجل الذي يسلك سلوكاً مغايراً ، فـانه يعيش في رأيـي في خطر دائم اذا كانت مواهبه قد حققت له البروز والظهور . ولا يكفيه ان يحدث نفسه قائلاً : « ليس ثمة ما اسعى للحصول عليه . فأنا لا اريد مرتبة ولا مزايا . وكل ما انشده هو العيش بدعة وهدوء، دون مضايقة او ازعاج » . وكثيراً ما نسمع بمثل هذه المبررات،ولكننا لا نرى لها تطبيقاً . فلا يمكن للرجال البارزين ان ينحوا هذا المنحى ، حتى ولو رغبوا مخلصين في سلوكه ، ولم يكن لديهم أي طموح آخر، اذ لن يصدقهم انسان ، وحتى لو رغبوا في ان يتركوا وشأنهم ، فان الناس لن يتركوهم كذلك . ويجدر بهم ، والحالة هـذه ان يتظاهروا بالحمق ، كما فعل بروتوس تماماً ، وان يعملوا كما يعمل المجانين ، فيبدون استحسانهم ويتحدثون ، ويصغون ، ويفعلون اموراً لا تهم على الاطلاق ، وانما هدفهم ارضاء الامير .

ولقد كنا ندرس ما ابداه بروتوس من تعقل وحكمة في محاولته اعادة الحرية الى رومة . وأرى ان ننتقل الآن الى ما اظهره من صرامـة في الحفاظ عليها .

٣

عندما تكون الحرية حديثة عهد بالوجود يشترط للحفاظ عليها « قتل اولاد بروتوس »

لم تكن القسوة التي استعملها بروتوس في الحفاظ على الحريـة التي حصلت عليها رومة بفضل مساعدته ، أقل ضرورة من جدواها . ويندر

ان يمر الانسان في التاريخ بحادث يشبه في صرامته ما ابداه بروتوس ، اذ لم يكتف بالجلوس على منصة القضاء واصدار الحكم بالموت على اولاده فحسب ، بل وحضر اعدامهم أيضاً . ولكن كل من يعرف شيئاً عن التاريخ القديم يدرك ايضاً ضرورة اتخاذ اجراءات نموذجية ، في جميع الحالات التي تتحول فيها أنظمة الحكم من جمهورية الى طغيانية او من طغيانية الى جمهورية ، ضد اولئك الذين يظهرون عداءهم لنظام الحكم الجديد . فكل من يقيم نظاماً طغيانياً ولا يقتل « بروتوس » ،وكل من يقيم نظاماً ديموقراطياً «ولا يقتل اولاد بروتوس» يعرض ما يقيمه للانهيار السريع .

ولما كنت قد عالجت هذا الموضوع بتفصيل أوفى في مكان آخر ، فأنني احيل القارىء ، الى الموضع الذي سبق لنا ان تناولناه فيه،واكتفي هنا بايراد مثل واحد ليس الا من الأمثلة المعاصرة،وقد حدث في ايامنا هذه وفي بلادنا نحن . ويتعلق هذا المثل ببطرس (بييرو) سوديريني، الذي خيل اليه ان في امكانه عن طريق الأناة والطيبة ان يخمـــد الرغبة الساعرة عنـد « اولاد بروتوس » في العودة الى شكل آخر من أشكال الحكم،ولكنه كان مخطئاً في ظنه . وعلى الرغم من ان تعقله كان يقضي عليه بادراك الحاجة الى العمل،وعلى الرغم من ان طراز الرجال الطموحين الذين كانوا يعارضونه ويناوئونه،كان يبرر له اتخاذ الاجراءات للخلاص منهم ، الا انه لم يستطع قط ان يحزم أمره على اتخاذ هذه الخطوة ، اذ بالاضافة الى ما ظنه من قدرته عن طريق الاناة والطيبة ، على اطفاء ما لديهم من نوايا شريرة ، وبالاضافة الى ان ما وزعه من مكافآت عليهم قد وضع حداً ما الى شيء من عدائهم ، الا انه كان يعتقد ، وكان يسر الى بعض أصدقائه باعتقاده هذا ، انه اذا اتخذ اجـراء عنيفاً ضد خصومه،او اذا حارب أعداءه،فأنه سيحتاج الى تحمل سلطات استثنائية، وادخال قوانين تهدم المساواة المدنية ، وان مثل هذا السبيـل ومثل هذه

السلطات ، على الرغم من عدم استعمالها بصورة طغيانية، سيثيران الفزع عند جمهرة الشعب ، مما يحمل هذه الجماهير على عدم الاتفاق بعد موته على تعيين أي حامل للراية (بيرقدار) مدى الحياة، وهو منصب كان يعتقد بضرورة تقويته والحفاظ عليه .

وكان مثل هذا الرأي حكيماً وطيباً . ولكن يجب ان لا يسمح على اي حال للشر بالبقاء والاستمرار نتيجة الحرص على الخير ، طالما ان في الامكان تغلب الشر على الخير بيسر وسهولة . وكان على سوديريني ان يرى انه عندما يحكم على أعماله على ضوء غايتها ، وعلى ضوء ما يرافقها من طالع حسن ، ومن حياة ، سيكون في امكانه ان يقنع كل انسان ، بأن ما فعله ، قد تم بدافع الحرص على سلامة بلاده وأمنها ، لا بدافع أية مطامح شخصية . وكان في وسعه أيضاً ، ان ينظم الامور بحيث لا يتمكن اي من خلفائه ان يفعل مدفوعاً بسوء النية ما فعله هو بدافع حسن النية . ولكن الرأي الذي تبناه في البداية قد ضلله ، وذلك لانه لم يستطع ان يدرك ان عنصر الوقت لا يتغلب على الشر،وان الهبات والعطايا لا يمكن لها ان تهدىء من ثائرته وهكذا أسفر عجزه عن تقليد بروتوس ، عن اضاعة مكانته وسمعته ، وهو ضياع ساهمت بلاده فيه أيضاً .

وكما ان من الصعوبة بمكان عظيم تأمين السلامة لدولة تحكم نفسها بنفسها ، فأن من الصعوبة أيضاً،تأمين السلامة للمملكة،وهو ما سنعرضه في الفصل التالي .

٤

لا يستطيع الأمير العيش بأمن وطمأنينة في الامارة التي اغتصبها ، بينما أصحابها السابقون على قيد الحياة

يظهر مصرع تاركوينيوس بريسكوس على ايدي ابناء انكوس(١) ، ومصرع سيرفيوس توليوس (Tullius) (٢) على ايدي تاركوين «المتغطرس» صعوبة ما في اغتصاب أية مملكة من انسان وانتزاعها منه ، مع الابقاء عليه حياً ،وخطورة ذلك على المغتصب حتى ولو حاول اكتساب ضحيته الى صفه بالعطايا واغداق المنافع . وقد ضلل تاركوينيوس بريسكوس تضليلاً تاماً وواضحاً ، لأنه اعتقد بان له حقاً شرعياً في المملكة التي حصل عليها كمنحة من شعبها ، ايدها مجلس شيوخها ، ولم يستطع ان يصدق بأن اولاد انكوس ، يمكن ان يكونوا ناقمين الى الحد الذي لا يرضون عنده بما رضي عنه كافة الرومانيين . أما سيرفيوس توليوس ، فكان مخطئاً ، لانه اعتقد انه بأغداق المنافع الجديدة على ابناء تاركوين يستطيع ان يكتسبهم الى جانبه .

ويمكن اعتبار الحادثة الأولى بمثابة انذار الى جميع الامراء ، بأنهم

---

١ تاركوينيوس بريسكوس هو الملك الخامس في رومة (٦١٦ — ٥٧٩) ق. م. وكان محبوباً من الشعب لحكمته وشجاعته وقد انتصر على اللاتين والسابنيين والوالاتروسكان ومع ذلك فقد قتله أولاد الملك الذي سبقه انكوس (٦٤٠ — ٦١٦) لأنهم اعتقدوا انهم احق بالملك منه ، وكان هذا ملكاً مسالماً وقد بنى ميناء اوشينا .

٢ سيرفيوس توليوس — الملك السادس في رومة (٥٧٨ — ٥٣٤) وهو الذي أحاط رومة بسور يضم تلالها السبعة وتحالف مع المدن اللاتينية ، وأعطى للعامة حقوقهم ، وقد قتله لوسيوس تاركوين المتغطرس ، وتولى الملك بعده فكان آخر ملوك رومة . وقد اشتهر بالفظاعة والطغيان . وكان اعتداء ولده على لوكريشيا السبب في طرد الملوك التركونيين من رومة .

— المعرب —

لا يستطيعون العيش بأمن وطمأنينة في امارتهم طالما ان اولئك الذين اغتصبوها منهم لا يزالون على قيد الحياة . أما الحادثة الثانية فتذكرة الى جميع الأمراء ، بأن المنافع الحديثة العهد لا يمكن لها ان تنسي الانسان ما أصابه من ضرر مؤذ في السابق ، ولا سيما عندما تكون هذه المنافع اقل شأناً واهمية من الاضرار التي سبق الحاقها بهم . ولا ريب في ان سيرفيوس توليوس ، كان بعيداً عن التعقل ، عندما اعتقد ان في وسعه ارضاء ابناء تاركوين بجعلهم اصهاراً له ، في الوقت الذي يعتقدون هم فيه ان من حقهم ان يكونوا ملوكاً عليه . وحب الملك فوق هذا كله عظيم الى الحد الذي لا يسيطر على افئدة اولئك الذين يطالبون بالملك فقط وانما يسيطر على افئدة اولئك الذين لا حق لهم في اية مملكة ايضاً . ولقد كان هذا هو الوضع بالنسبة الى زوجة تاركوين الاصغر ، وهي ابنة سيرفيوس نفسه ، فقد اعماها هذا التعشق الجنوني للملك عن التفكير بواجبها نحو ابيها ، ودفعها الى تحريض زوجها على انتزاع حياته ومملكته منه ، اذ كانت تتوق الى رؤية نفسها ملكة اكثر من رؤيتها ابنة ملك.

واذا كان تاركوينيوس بريسكوس وسيرفيوس توليوس ، قد خسرا ملكيهما بسبب جهلهما طريقة الحفاظ على سلامتيهما ضد اولئك الذين اغتصبوا الملك منهما ، فأن تاركوين المتغطرس ، قد خسر مملكته ، لانه لم يحترم الانظمة التي وضعها الملوك السابقون،وهو ما سنعرضه في الفصل المقبل .

٥

الاسباب التي تؤدي إلى اضاعة امير وراثي ملكه

لما كان سيرفيوس توليوس ، قد قتل دون ان يعقب ورثة له، فأن

تاركوين المتغطرس ، الذي قتله ، شعر بالطمأنينة في حيازته للملكه ، اذ لم يكن ثمة ما يخشاه ، من طراز ما اوقعه هو بسلفه . وعلى الرغم من شذوذ هذه الطريقة في الحصول على الملك وغرابتها ، فأن تاركوين لو احترم الانظمة القديمة التي سار عليها الملوك السابقون ، لكان في مركز قوي ، ولما اثار عليه سخط مجلس الشيوخ والشعب ، بحيث حملها على التفكير في الخلاص منه . ولم يكن السبب في طرده، على هذا الاساس ، هو اغتصاب ولده سيكستوس للمرأة لوكريشيا، بل خرقه لقوانين المملكة، وحكمه لها حكماً طغيانياً . فقد انتزع من مجلس الشيوخ جميع سلطاته، وجمعها في يديه. وقد انتقل العمل الذي كان يصدّق في المجالس العامة تصديقاً يرضى عنه مجلس الشيوخ الآن الى قصره ، مما لم يستطع الشعب احتماله ، وزاد من سخطه عليه . وكانت النتيجة ان فقدت روما قبل مضي وقت طويل ،جميع الحريات التي كانت تتمتع بها في عهد الملوك السابقين . ولم يكتف بأن جعل من كافة النبلاء خصوماً له ، بل أثار عداء العامة ايضاً له ، بما عهده اليهم من مهام آلية تختلف عما كانوا يعملونه في عهد اسلافه . وهكذا اتخمت رومة بالشواهد على فظاعته وجبروته،مما أثار في عقول الرومانيين كافة روح الثورة عليه، واصبحت هذه الروح متأهبة للاشتعال في اللحظة التي تتيحها لها الفرصة . وهكذا لو لم تقع حادثة لوكريشيا ، لوقعت حادثة اخرى من اي طراز آخر ، وأدت الى نفس النتيجة .ولو كان تاركوين قد سلك كغيره من الملوك، فأن بروتوس وكولاتيناس ، كانا سيلجآن اليه حتماً ، عندما ارتكب ولده سيكستوس جريمته،ليثأر لهما من ولده ، ولما وجدا نفسيهما مضطرين الى الرجوع الى الشعب الروماني .

وعلى الأمراء ان يتعلّموا من هذا انهم سيشرعون في اضاعة دولتهم في اللحظة التي يبدأون فيها في خرق القوانين، وتجاهل التقاليد والعادات

القديمة التي ألف الناس العيش في ظلها . واذا كانوا بعد اضاعة ملكهم، سيغدون على درجة من التعقل بحيث يدركون السهولة التي يلقاها ، من يحظون بالمشورة الطيبة والنصوح في الاحتفاظ بأماراتهم ، فان المرارة التي يحسون بها لخسارتهم ستغدو حتماً اشد وأقوى ، وسيحكمون على انفسهم بعقوبة تكون اشد من تلك التي حكم الآخرون عليهم بها . اذ من الأسهل على الانسان اكتساب حب الناس الطيبين على اكتساب حب الشريرين ، كما ان اطاعة القوانين أسهل من خرقها وتجاوزها .

واذا كانت لدى الامراء رغبة في اكتشاف الطريقة التي يجب ان يسلكوها لتحقيق ذلك ، فان كل ما عليهم عمله ، هو ان يتطلعوا الى المرآة التي تعكس حياة الناس الطيبين من امثال تيموليون الكورينثي (Timoleon) (١) واراتوس السيكوني وغيرهما ، وسيجدون في حياة جميع هؤلاء الناس من حكام ومحكومين ذلك الشعور بالتمتع بالامن والقناعة ، مما يحملهم على الرغبة في تقليدهم وهو ما يستطيعون فعله بسهولة، بسبب ما سبق لي ايراده من دوافع . وعندما يشعر الناس بأن الحكم الذي يظلهم من النوع الصالح ، فانهم لا يبحثون عن المزيد من الحرية ، وهذا ما وقع للشعبين اللذين حكمهما الرجلان الآنفا الذكر ، اذ أصر شعباهما على بقائهما حاكمين طيلة حياتيهما ، مع العلم انهما حاولا اكثر من مرة الانسحاب الى حياة العزلة والمواطن العادي .

ولما كنت قد عالجت في هذه الفصول الثلاثة الاخيرة مشاعر السخط التي تثور ضد الامراء ، والمؤامرات التي نظمها اولاد بروتوس ضد بلادهم ، وتلك التي حيكت ضد تاركوينيوس بريسكوس وسيرفيوس

---

١ تيموليون (٤١١ - ٣٣٧) ق. م. ديموقراطي يوناني . ينتمي إلى انبل اسر كورنث . قضى حياته كلها مجاهداً في سبيل الحرية مما حمله على قتل أخيه تيموفانيس الذي أراد ان يجعل من نفسه طاغية في كورنث . ذهب إلى سراقوزه بطلب من أهلها وأقام فيها حكومة ديموقراطية حارب القرطاجيين وانتصر عليهم وازدهرت صقلية في عهده . - المعرب -

توليوس ، فانني لا أرى خروجاً على الموضوع اذا ما عالجت المؤامرات
بشكل تفصيلي مسهب في الفصل التالي،لا سيما وان هذا الموضوع جدير
باهتمام الامراء والمواطنين العاديين على حد سواء .

الكتاب الثالث
المطارحة للسادسة

المؤامرات

٦

التآمر والمؤامرات

لما كانت المؤامرات تنطوي دائماً على نتائج خطرة للأمراء والاشخاص العاديين على حد سواء ، فلن يكون في وسعي ان أتجاهل الحديث عن طبيعتها ، اذ من الواضح ان عدد الامراء الذين فقدوا حياتهم ودولهم عن طريقها اكبر من عدد الذين فقدوها عن طريق الحروب المكشوفة، وذلك لأن المجال لا يكون فسيحاً الا امام القلة لشن مثل هذه الحروب، بينما يستطيع كل انسان ان يتآمر عليهم . ومن ثم ليس ثمة من مشروع اكثر خطراً وتهوراً ، بالنسبة إلى من يشترك فيه من الاشخاص العاديين،

من التـآمر،وذلك لما ينطوي عليه في جميع مراحله من مصاعب ومخاطر بالغة . وعلى هذا ، فبالرغم من ان عدد المؤامرات التي تمت محاولتها كبير للغاية ، الا ان عدداً قليلاً منها فقط استطاع الوصول إلى غايتـه المطلوبة . وقد عزمت على التحدث باسهاب عن المؤامرات ، دون ان أتغافل عن ذكر كل ما له علاقة هامة بها سواء أكانت العلاقـة متصلة بأمير او شخص عادي ، رغبـــة مني ، في ان احمل الامراء على اتخاذ حيطتهم تجاه مثل هذه المخاطر وان احمل العاديين من الناس على التفكير مرتين قبل الاقدام عليها ، وان افهمهم ان القناعة بالحياة التي يعيشونها في ظل النظام القائم والذي شاء القدر ان يفرضه عليهم هو السبيل الامثل. وهناك قول رائع ، أشبه ما يكون بالذهب،جاء على لسان كورنيليوس تاسيتوس اذ قال : « ان على الناس ان يحترموا الماضي،وان يذعنوا الى الحاضر،وان عليهم مع رغبتهم في ان يكون امراؤهم من الناس الطيبين، ان يتجاوزوا عن الطراز الذي قد يبدو فيه هؤلاء الامراء . ولا ريب في ان من يعملون بصورة مغايرة لذلك يسببون الكارثة لانفسهم ولبلادهم» .

وعلينا ان نبدأ البحث في هذا الموضوع ، بالتحدث عمّن تستهدفهم المؤامرات عادة . وسيجد الانسان ان المؤامرات تستهدف اما وطنـه او احد الامراء . وأرى هنا ان أبحث في هذين الطرازين من المؤامرات ، إذ سبق لي ان تحدثت بما فيه الكفاية في موضع آخر عن المؤامرات التي تستهدف تسليم مدينة من المدن إلى العدو الذي يحاصرها ، او المؤامرات التي من هـذا النوع ، او التي تحـــدث بسبب من هذا الطراز او من طراز آخر .

أسباب المؤامرات

سنعالج في الجزء الأول من هذه المطـارحة موضوع المؤامرات التي

تحاك ضد الأمير ، ونحاول تحري الاسباب المؤدية اليها وهي عديدة . وهناك سبب واحد على الأقل ، هو اهمها جميعاً اذ ينطوي على الكراهية الشاملة التي قد يستفزها الأمير ، اذ عندما يثير الأمير مثل هذه الكراهية فانه لا بد وان يكون هناك اشخاص معينون قد اساء اليهم اساءات ابلغ من اساءاته لغيرهم، وان هؤلاء الاشخاص لا بد وان يبحثوا عن الانتقام منه حتماً . وتتضخم هذه الرغبة لديهم من جراء ما يرونه من كراهية قد ثارت ضده. وعلى الامير ان يتجنب والحالة هذه ايقاع هذه الاساءات الشخصية التي يلام عليها ، ولما كنت قد بحثت في مكان آخر ما يتحتم عليه عمله لتجنبها ، فسأمتنع عن خوض هذا الموضوع الآن، وان كنت قد ذكرته ، لانني أرى انه اذا اتخذ احتياطاته تجاهه، فان مجرد الاساءة الى الافراد سيقلل من اثارة العداء ضده . وهناك سببان لذلك اولهما انه يندر على الانسان العثور على اناس يبلغ بهم السخط على عمل ظالم الحد الذي يحملهم على تعريض انفسهم للخطر، في سبيل الانتقام لهذا العمل . أما السبب الثاني فهو انه حتى ولو افترضنا وجود الميل لديهم للانتقام ، وافترضنا وجود القوة الكافية لديهم للقيام به ، فان ما يرونه من محبة شاملة عند الناس للامير يحول بينهم وبين التنفيذ .

وقد يؤثر الأذى على ممتلكات الانسان أو حياته أو شرفه . والتهديد بسفك الدماء اكثر خطراً من سفك الدماء نفسه . ولا ريب في ان مثل هذا التهديد كثير الخطر ، بينما لا يرافق سفك الدماء الفعلي أي خطر على الاطلاق، لأن الرجل الميت لا يستطيع التفكير بالثأر ، اما الاحياء فيتركون لك احياناً عمل التفكير . أما الرجل الذي يُهدَّد بالقتل، والذي يرى ان الضرورة تقضي عليه اما بعمل شيء ، أو بالتأهب لأن يكون الضحية ، فانه ينقلب الى خطر حقيقي بالنسبة الى الأمير ، كما سنرى من حوادث سأستشهد بها بعد قليل .

واذا ما فصلنا الموضوع عن الحالات التي يكون العمل فيها مفروضاً

بحكم الضرورة ، فان الاذى الذي يمس المرء في ممتلكاته وفي شرفه، هو أكثر انواع الأذى تأثيراً عليه ،وعلى الامير ان يكون حذراً كل الحذر منه ، اذ لا يستطيع ان يسلب هـذا الانسان كل شيء ، ولا بد ان يبقى لديه خنجر يستطيع عن طريقــه ان يثأر لنفسه . ولن يكون في وسعه ايضاً : ان يسلبه كذلك جماع شرفه الى الحد الذي يتوقف فيــه فكره عن اعداد الثأر . ولعل اصابة المرء في عرضــه وشرف نسائه ، هي أقسى ما يصيب الناس من اذى في شرفهم ، ثم تليها اصابتهم في كرامتهم الشخصية . ولا ريب في ان هذا السبب هو الذي حمل بوزانياس على اشهار السلاح على فيليب المقدوني ، كما كان حافزاً لعدد كبير من الناس على انتضاء السلاح ضد عدد من الامراء . ولا اعتقد ان لوشيو بيلانتي ، في ايامنا هذه ، كان سيجد الحافز الكافي للتآمر على باندولفو طاغية سيينا ، لولا ان هذا قد زوّجه من ابنته ، ثم انتزعها منه ، كما سنروي فيما بعد . وكان الدافع لتآمر « البازين » ضد اسرة مديشي ، هو انتزاع ميراث جيوفاني بونرومي منهم بأمر من آل مديشي .

وهناك دافع قوي آخر من دوافع التآمر على الامراء ، وهو الرغبة في تحرير الوطن من نير الأمير الذي اغتصبه ، ولا ريب في ان هــذا الدافع هو الذي حمل بروتوس وكاسيوس على التـآمر على قيصر ، كما كان سبباً في مؤامرات كثيرة ، حيكت ضد فالاريس وديونيسيوس ، وغيرهما من غاصبي حقوق البلاد التي ينتمون اليهــا . ولا يستطيع أي طاغية التغلب على هذه الروح التـآمرية الا عن طريق نبذ طغيانه . ولما كان المرء لا يعثر الا نادراً على طاغية يتخلى عن طغيانه ، فانه لا يجد ايضاً الا عدداً قليلاً من الطغاة الذين لم يواجهوا نهاية تعسة.وفي وصف هذا يقول جوفينال :

« لا يستطيع الهبوط الى ملكوت افلوطن(Pluto) (١)

---

١ افلوطن اله الظلام عند اليونانيين . — المعرب —

الا عدد قليل من الملوك دون ان يصابوا بأذى
كما لا يستطيع الطغاة الخلاص من نهاية فاجعة » .

مؤامرات الافراد

تنطوي المؤامرات كما سبق لي ان ذكرت على أخطار جمة ، تحمل صفة الدوام والاستمرار ، وذلك لأن هذه الاخطار ترتفع فجأة اثناء الاعداد للمؤامرة وابان تنفيذها،وكنتيجة لهذا التنفيذ . وقد يعد المؤامرة عدد من الاشخاص ، بينما يتولى اعدادها شخص واحد،وفي هذه الحالة الاخيرة ، لا يصح اطلاق اسم المؤامرة عليها ، وانما تكون مجرد تصميم ثابت عند احد الافراد على قتل الامير . وتفتقر مؤامرات الافراد الى النوع الاول من الاخطار التي تنطوي عليها المؤامرات عامة . ذ لا يمكن ان ينشأ اي خطر قبل حلول موعد التنفيذ الفعلي ، بسبب عدم معرفة اي انسان بسر الفكرة ولهذا فلا يخشى نقل خبر المؤامرة الى مسامع الامير . ويقع اتخاذ تصميم من هذا النوع ضمن امكان اي انسان سواء أكان عظيماً او صغيراً ، نبيلاً أو تافهاً ، صديقاً او غير صديق بالنسبة الى الامير . فكل انسان يسمح له بالتحدث الى الامير في وقت أو في آخر ، وكل من يستطيع التحدث الى الامير ، يستطيع ان يجد الفرصة لترضية مشاعره ، فمثلاً تمكن بوزانياس،الذي تحدثنا عنه عدة مرات ، من قتل فيليب المقدوني وهو في طريقه الى المعبد وحوله عدد ضخم من الجنود ، ومعه الى يمينه ولده والى يساره زوج ابنته(١) . ولكن القاتل كان نبيلاً على اي حال ، وكان من معارف الامير واصدقائه ، لكن هناك آخرين ليسوا من معارف الامراء . فقد طعن اسباني بائس وفقير، الملك فردیناند بخنجر في عنقه ، وعلى الرغم من ان الجرح لم يكن

١ لم يكن زوج ابنته وانما شقيق زوجته كما تقول المصادر الموثوقة . — المعرب —

قائلاً ، الا ان هذا الحادث يظهر ان في امكان رجل من هذا الطراز أيضاً ان يحمل النية على القيام بمثل هذا العمل وان يجد الفرصة لتنفيذه. وطعن درويش تركي بائس ، بايزيد والد السلطان التركي الحالي بالسيف العريض (الشمشير) وعلى الرغم من انه لم يقتاه ، الا انه كان يعتزم حتماً قتله ، وقد اتيحت له الفرصة لذلك · ولا ريب في ان ثمة عدداً كبيراً من الناس ، يودون ان يفعلوا مثـل هذا ، اذا استطاع الانسان تمييزهم من نواياهم ، وذلك لان النوايا لا تكون مصحوبـة عادة بأي عقاب او بأي خطر من اي نوع . ولكن عدد من يقدمون على العمل الفعلي قليل ، وأقل منه عدد من لا يقتل منهم اثناء عملية التنفيذ نفسها. وهذا هو السبب الذي لا يدفع الناس كثيراً الى القيام بالعمـل ، لان النـاس لا يرغبون في المضي الى الموت المحقق طواعية ولنـترك الآن مؤامرات الافراد،ولننتقل الى المؤامرات التي يشترك فيها عدد من الناس.

المؤامرات التي يحيكها الضعفاء

اعتقد ان وقائع التلريخ تثبت ان القائمين بالمؤامرات يمتون دائماً الى الرجال البارزين وذوي المكانة والحظوة عند الامير ، لأن الناس الآخرين لا يستطيعون تدبير المؤامرات إلا اذا كانوا من المجانين حقاً ، وذلك لأن من لا سلطان لهم ، ولا تماس مع الأمير يخلون من كل أمل في تنفيذ أية مؤامرة تنفيذاً ناجحاً ، ويفتقرون الى كل فرصة للتنفيذ . اذ يستحيل من الناحية الأولى على من لا سلطان لهم من الناس ان يجـدوا شخصاً يأمنون اليه ، ويكون وفياً لهم ، وذلك لأن أي انسان لا يستطيع الموافقة الى ان يعمل ما يريدونه ، في ظل أي من الآمال التي تدفـع الناس عـادة الى ركوب الاهوال ، وهكذا فعندما ينتشر نبأ المؤامرة ويذيع بين رجلين او ثلاثـة ، لا بد وان يكون احدهم من المخبرين

الذين يبلغون الأمير نبأها ، وتكون في ذلك نهايتهم . وحتى لو افترضنا ان طالعهم ، كان حسناً الى الحد الذي نجّاهم من المخبرين ، فان تنفيذ المؤامرة نفسها سيورطهم في متاعب عـدة ، بسبب افتقارهم الى سهولة الوصول الى الامير ، مما يجعل من المتعذر عليهم النجاة من الكارثة عند تنفيذ مخططهم . واذا كان ذوو المكانة والنفوذ ، والحظوة لدى الامير ، يستسلمون لمثل هذه المتاعب ، وهو ما سنعالجه فوراً ، فأن من المنتظر بالنسبة الى الآخرين ان تتضخم هذه المتاعب في نظرهم الى الحد الذي يحول دون تحقيق غايتهم . وعلى هذا،فأن الناس عندما لا تكون حياتهم أو املاكهم مهددة تهديداً مباشراً ، لا يفقدون اتزانهم كلية ، ويغدون اكثر حذراً عندما يتبين لهم ضعفهم ، ويكتفون عندما يشعرون بالقرف من امير ، بسبّه وصب اللعنات عليه، وانتظار من هم ارفع شأناً منهم ليتولوا مهمة الثأر منه . واذا افترضنا ان الانسان عـثر في الحقيقة على رجل من هذا الطراز،قام بمحاولة من هذا النوع ، ففي وسعه ان يطري قصده لا تعقله .

مؤامرات الاقوياء

ويبدو من هذا ، والحالة هذه،ان المتآمرين كانوا دائماً من أصحاب المكانة البارزة ، او الحظوة عند الامراء، وان عدد من تآمروا مدفوعين بالمطامع في المنافـع لا يقل عمن تآمروا مدفوعين بالسخط على ما لحقهم من اذى، وينطبق هذا القول على بيرينيس بالنسبة الى كومودوس(١) ،

---

١ الامبراطور كومودوس (١٨٠ – ١٩٢) م. ابن ماركوس اوريليوس . دأب رغم نشأته الطيبة على حياة الفسق والفجور فتآمرت عليه عشيقته مع اثنين من اصدقائه احدهما بيرينيس .
– المعرب –

وعلى بلوتيانوس بالنسبة الى سيفيروس(١) ، وعلى سيجانوس(٢) بالنسبة الى طيبريوس . فقد نال جميع هؤلاء الرجال من أباطرتهم الكثير من الثراء ومن مراتب الشرف والألقاب ، ولم يبق لهم ما يطمعون فيه من مزيد لاستكمال سلطانهم الا الحصول على اللقب الامبراطوري نفسه . ولما كانوا من النوع الذي لا يود ان يتخلى عن مثل هذا المطمع ،فقددفعتهم طبائعهم الى التآمر على امرائهم ، وكانت نتائج مؤامراتهم في كل حالة من الحالات متفقة مع ما يستحقونه بسبب نكرانهم للجميل .

ومن المؤامرات المماثلة التي وقعت في الايام الاخيرة ، والتي قدر لها النجاح على أي حال ، تلك التي قام بها جاكوبو دي ابيانو ضد السنيور بييرو غامباكورتي امير بيزا.ولقد كان جاكوبو هذا مديناً بنشأته وتربيته ومكانته ، الى نفس الشخص الذي سلبه فيما بعد ملكه ودولته . وهناك مؤامرة عصرية اخرى من هذا النوع هي تلك التي حاكها كوبولو ضد فرديناند ملك الاراغون، فقد كان كوبولو هذا قد وصل الى مرتبة من العظمة بحيث لم يبق أمامه شيء يفتقر اليه الا عرش المملكة.فقرر الوصول اليه ايضاً ، وكانت النتيجة انه اضاع حياته . واذا كان يقدر للمؤامرات البارزين من الرجال ان تنجح ضد الامـــراء ، فمن الواجب ان تكون المؤامرات التي يعدها الملوك في طليعة المؤامرات الناجحة،لتوافر كل وسائل النجاح وسبله لهم . ولكن الشهوة العارمة في السيطـرة التي تعمي أبصار الناس عادة ، تعميهم أيضاً عندما يحاولون تنفيذ مخططات التآمر ، ولو عرفوا كيف يحسنون التخطيط لاعمالهـم السيئـة بالتعقل والروية ، لكان النجاح من نصيبهم حتماً .

---

١ سفيروس (٢٢٢ – ٢٣٥) م . امبراطور روماني . أصبح امبراطوراً عام ٢٢٢ واشتهر بالورع . اغتاله بلوتيانوس .

٢ سيجانوس مات عام ٣١ ميلادية – كان مقرباً إلى الامبراطور طيبريوس فأغوى امرأته وحاول اغتياله . ولكن اكتشفت المؤامرة فأعدم . – المعرب –

وعلى الأمير الذي يريد ان يحرص على نفسه من المؤامرات والحالة هذه ، ان يخشى من هؤلاء الذين اضفى عليهم المزيد من نعمائه ، اكثر من خشيته من اولئك الذين اساء اليهم ابلغ الاساءة . فالاخيرون يفتقرون إلى الفرصة ، بينما يعيش الأولون فيها ، هذا مع العلم ان الرغبة قائمة عند الفريقين ، اذ ان الرغبة في الحكم ، لا تقل ضراوة ان لم تزد على الرغبة في الثأر وعلى هذا فان على الامراء الذين يريدون اكرام اصدقائهم والانعام عليهم بالسلطة والصلاحيات الضخمة ، ان يتركوا مجالاً او فسحة بين هذه الصلاحيات الممنوحة وبين صلاحيات الأمير نفسه . وان تكون هناك محطة اخرى في الطريق ، تتجه اليها رغبات هؤلاء الاصدقاء ومطامعهم . واذا لم يفعلوا ذلك ، فان من الغريب ان لا يحدث لهم ، ما وقع لذلك الامير الذي كنا نتحدث عنه . على أي حال ، أرى لزاماً علينا ان نعود الآن الى خطوط اطروحتنا .

الخطر الناجم عن المخبرين

أما وقد قلت ان المتآمرين يجب ان يكونوا من ارباب المكانة والحظوة عند الامراء ، فاني أرى لزامــاً عليّ ان اتناول بالبحث نجاح هؤلاء المتـآمرين ومشاريعهم ، وان اتحرى عن الاسباب التي أدت الى نجـاح البعض منهم وفشل البعض الآخر . وقــد سبق لي ان ذكرت ، ان المؤامرات تنطوي على اخطار في مراحلها الثلاث ، مرحلة الاعداد ، ومرحلة التنفيذ ومرحلة النتائج . واذا كان عدد المؤامرات التي كللت بالنجاح قليلاً ، فان السبب في ذلك راجع الى استحالة المرور بالمراحل الثلاث بصورة ناجحة او تعذره . ولنبدأ البحث بالاخطار التي تقع في مرحلة الاعداد . وهــذه المرحلة في غاية الاهمية ، اذ انها تتطلب الكثير من

الحرص والحذر . كما تتطلب المزيد من حسن الطالع في اعداد المخطط، حتى لا يقدر للمؤامرة ان تنكشف.وتكتشف المؤامرات عادة اما بالابلاغ عنها او بالحدس والتخمين المجردين . ويعود تسرب الاخبار عنهـا الى احد عاملين اما الافتقار الى الاخلاص ، او الافتقار الى الحرص عنـد اولئك الذين تبلغهم نبـأ مؤامرتك . وقد يحدث الافتقار الى الاخلاص بسهولة لأنك لا تنقل انباء مؤامرتك الا لأولئك الذين تثق فيهم ثقـة عمياء ، وتؤمن باستعدادهم للتضحية بأرواحهم في سبيلك أو إلى اولئك الذين تعرف مدى سخطهم عـلى الامير الذي تستهدفه مؤامرتك . وفي وسعك الوثوق برجل أو رجلين ، ولكن يستحيل عليك ان تجد عدداً كبيراً من الموثوق بهم ، هذا اذا نقلت خطتك الى الكثيرين ، اذ ان ما يحمله كل فرد منهم من حسن النية نحوك ، يجب ان يكون معادلاً في تقديره أو متفوقاً على ما يحس به من خطر العقاب وخشيته . وكثيراً ما يخطىء الناس في الحكم على حقيقة عواطف الآخرين تجاههم ، وليس في وسع المرء ان يتأكد من عواطف انسان آخر نحوه ، الا على اساس تجربة سابقة ، ومثل هذه التجربة في مواضيع كهذه ، بالغة الخطورة الى حد كبير . وحتى لو كنت قد اختبرت انساناً في قضية خطرة ، وثبت لك ولاؤه فيها تجاهك ، فلن يكون في وسعك الاستنتاج من ذلك الولاء ، ان هذا الانسان سيكون موالياً لك على نفس القياس في قضية ثانية تتفوق في المخاطر التي تلفها من جميع نواحيها على القضية الأولى تفوقاً بالغاً . أما اذا حكمت على ولاء انسان من درجة ما تراه من كره يحمله للأمير ، فانك ستكون مخطئاً في هذه الناحية ايضاً وبسهولة، اذ انك بافضائك بمكنون صدرك الى مثل هذا الانسان الناقم ، تكون قد زودته بمادة يستطيع استغلالها في الحصول على ترضية لنقمته ، وفي هذه الحالة يكون اذا ظل على ولائه لك يحمل كرهاً عظيماً للأمير أو يكون تأثيرك عليه طاغياً كل الطغيان .

وهكذا كثيراً ما يحدث ان تتكشف المؤامرات ، وان يقضى عليها وتسحق عند بدايتها . وعلي هذا فان المؤامرة التي يذاع سرها على عدد كبير من الناس ، وتظل سرية مدة من الزمن ، يجب ان تعتبر معجزة من المعجزات ، وهذا ما وقع بالنسبة الى المؤامرة التي حاكها بيزو ضد نيرون(١) ، وتلك التي رتبها في ايامنا هذه افراد أسرة «بازي» ضد لورنزو وجوليانو دي مديشي ،والتي عرف بها اكثر من خمسين شخصاً، ومع ذلك لم يكتشف امرها ، الى ان بلغت مرحلة التنفيذ .

الخطر الناجم عن عدم الحرص

ويقع اكتشاف المؤامرة بسبب الافتقار الى الحذر والحرص ، عندما يتحدث واضعو المؤامرة ومخططوها دون حذر ، فيسمعهم احد الخدم ، او شخص آخر ، وهذا ما وقع فعلاً بالنسبة الى مؤامرة اولاد بروتوس الذين سمعهم أحد الخدم وهم يتحدثون عن خططهم مع رسل آخر الملوك الترقونيين ، فقام بالابلاغ عنهم . وقد ينجم اكتشافها عن هذا السبيل ايضاً ، عندما يستخف المرء بشأنها فيتحدث عنها الي عشيقة ، أو الى صديق يحبه ، أو الى أي طراز آخر من الناس الطائشين ، كما حدث لدايمنوس ، الذي تآمر مع فيلوتاس وآخرين على حياة الاسكندر الاكبر ثم تحدث عن المؤامرة الى نيكوماخوس ، وهو صبي كان يعشقه، فنقل هذا نبأها الى اخيه كابالينوس،الذي قام بدوره بابلاغ ما عرفه الى الملك

---

١ نيرون (٣٧ – ٦٨) م. امبراطور روماني . كانت أمه زوجة الامبراطور كلوديوس الذي تبناه . كان الفيلسوف سنيكا استاذه . وقد بدأ حكمه بداية طيبة ولكنه ما لبث ان اندفع وراء شهواته وغرائزه . فساء حكمه وأصبح مضرب مثل في العهر والظلم والجنون . يقال انه احرق رومه . واتهم المسيحيين فاضطهدهم ، وانهى حياته منتحراً . (و سترد قصة بيزو وتآمره فيما بعد) .
– المعرب –

وهناك مثل رائع على اكتشاف المؤامرات عن طريق الحدس والتخمين، وهو يتعلق بالمؤامرة التي حاكهـا بيزو ورفاقه ضد نيرون ، فقد قام سكايفينوس أحد المتآمرين باعداد وصيته في اليوم الذي سبق التنفيذ ، ثم اصدر أمره الى عتيقـه ميليخوس ، بأن يعدّ له خنجره الذي علاه الصدأ وان يشحذه ، ثم أعتق عبيده جميعاً ، ووزع عليهم المال،واعد أربطة لتضميد الجراح . وقد استنتج ميليشوس من جميع هذه الحقائق، ان ثمـة مؤامرة ، وسارع الى ابلاغ نيرون بها . واعتقل سكايفينوس فـوراً ، كما اعتقل ناتاليس ، وهو متـآمر آخر ، كان قد شوهد في اليوم السابق يتهامس مع سكايفينوس مدة طويلة ،ولما لم تكن ايضاحاتهما متوافقة ، فقد ارغما على قول الحقيقة ، وهكذا تم اكتشاف المؤامرة ، واسفر اكتشافها عن نتائج مفجعة بالنسبة الى جميع الذين اشتركوا فيها .

صعوبة الحيلولة دون اكتشاف المؤامرات

من الصعب ان يأخذ المرء احتياطاته ليمنع الكشف عن مؤامرة بسبب مثل هذه العوامل التي شرحناها ، والتي تتناول الضغينة وعدم الحرص ، والحديث الى المهووسين والحمقى ، وفي جميع الحالات التي يربو فيها عدد من يعرفون بالمؤامرة على الثلاثة او الأربعـة . اذ لو اعتقـل اكثر من واحد من المتـآمرين ، فأن من المستحيل ان يحال بين المؤامرة وبين الكشف عنها،اذ يستحيل ان يتفق رجلان على كل تفصيل في الايضاحات التي يتقدمان بهـا . اما اذا اعتقـل رجل واحد ، وكان من المتصفين بالتصميم والعزم،فقد تكون لديه القوة العقلية اللازمة التي تمكنه من البقاء صامتاً دون الافشاء بأسماء زملائه المتـآمرين معه . وقد يحدث ايضاً ، ان يكون المتـآمرون الآخرون أقل شجاعة منه،وبدلاً من الصمود والثبات،

يكشفون عن تآمرهم بالفرار ، وبهذا يكون الكشف عن المؤامرة ناجماً عن الافتقار الى الشجاعة سواء عند الشخص المعتقل ، او عند اولئك الذين ما زالوا مطلقي السراح .

وهناك قضية نادرة يوردها تيتوس ليفي، وتتعلق بالمؤامرة التي رتبت ضد هيرونيموس(١) ملك سراقوزه ، اذ عندما اعتقل ثيودوتوس أحد المتآمرين ، أبدى شجاعة فائقة في كتم أسماء المتآمرين الآخرين معه ، وكان لهؤلاء ثقة كبيرة بثيودوتوس وشجاعته ، حتى انهم لم يغادروا سراقوزه او يبدوا أية علامة من علائم الخوف .

الاحتياط للحيلولة دون الاكتشاف

هذه هي الاخطار التي تتعرض لها المؤامرة اثناء اعدادها . وقبل ان يحين الوقت لتنفيذها ، واذا اريد تجنب هذه الاخطار، فهناك سبل عدة أولها بل واكثرها أمناً ، ولعله الوحيد بينها اذا توخينا الحقيقة ، هو ان لا تسمح للمتآمرين بالوقت الذي يمكنهم من الافضاء بمعلوماتهم عنك ، وان لا تخبرهم بخطتك الا عندما تصبح متأهباً للعمل وليس قبل ذلك . وكل من يسير على هذا السبيل ، يتمكن على الأقل من تجنب الاخطار التي ينطوي عليها اعداد المؤامرة ، كما يتمكن على الغالب من تجنب الاخطار الاخرى . وتكلل جميع المؤامرات التي تعد وفقاً لهذا الاسلوب بالنجاح في الحقيقة ، وفي وسع اي انسان عاقل ، ان يسير بأموره على هذا النحو . وسأكتفي بسرد حادثتين ثم اترك الموضوع عند هذا الحد .

جمع نيليماتوس ، بعد ان عجز عن احتمال طغيان اريستوتيموس ،

---

١ هيرونيموس أو هيرو الثاني (٣٠٨ – ٢١٦) ق. م. ملك سرقوزه . وقف إلى جانب القرطاجيين في الحرب البونية الأولى ، ثم انقلب حليفاً لرومة ، وظل على ولائه لها حتى مماته .
– المعرب –

طاغية ابيروس ، عدداً من اقربائه واصدقائه في دارته وحرضهم على وجوب تحـرير بلادهم . وقد طلب بعضهم فسحة من الوقت لدراسة الموضوع ، وترتيب شؤونهم الخاصة . وهنا اصدر نيليماتوس اوامره الى خدمه بايصاد الابواب ، وانبرى يقول لكل من حشدهم في بيته : « اما ان تقسموا على المضي فوراً لتنفيذ العمل الآن ، او انني سأسلمكم جميعاً كسجناء الى اريستوتيموس » . وحسمت هذه الاقوال موقفهم ، فأقسموا اليمين ، وسارعوا دون ابطاء ، ينفذون بنجاح تعليمات نيليماتوس .

وهذه هي الحادثة الثانية : تمكن احد المجوس (Magi)(١) عن طريق الخداع من اغتصاب عرش الفرس ، وسمع بذلك اوتانيس ، احد نبلاء البلاد ، واكتشف الخدعة والتزوير ، فتشاور مع ستة من الرجال البارزين في المملكة ، وابلغهم ان الواجب يقضي عليهم بوجوب انقاذ المملكة من طغيان هذا المجوسي . وعندما طلب احدهم مهلة من الوقت ، هب داريوس ، وهو احد الستة الذين دعاهم اوتانيس وقال : « اما ان نذهب فوراً وننفذ هذا العمل على التو ، او انني سأذهب فأشي بكم جميعاً الى المجوسي » . وهكذا هبوا هبة رجل واحد وتمكنوا من النجاح في الخطة التي رسموها ، قبل ان يندم أحدهم . وكانت الطريقة التي اتبعها الايتوليون لقتل نابيس ملك اسبارطة مشابهة تماماً لهذا الاسلوب ، فقد عهدوا الى احد مواطنيهم ، اليكسامينيس ، بأن يذهب على رأس قوة مؤلفة من ثلاثين فارساً ومائتي راجل ، وان يتظاهر بمساعدة نابيس ولم يبوحوا بالسر الا الى اليكسامينيس ، بينما طلبوا الى رجاله ، اطاعته فقط في كل ما يأمر به ، مهددينهم بخطر الابعاد في حالة العصيان .

---

١ المجوس – يعود أصل الكلمة إلى قبيلة مادية (من الماديين) تخصصت في ادارة الطقوس الدينية ، وفي نقل العلوم الدينية الزرادشتية ، وقد انتقلت جماعة المجوس في ظل كورش إلى فارس فأصبحوا سدنة الاماكن المقدسة وحفظة العلم والمعرفة ، وفلاسفة البلاد ، وخدمة المعابد ، والفلكيين والمنجمين والعرافين . – المعرب –

وهكذا مضى اليكسامينيس الى اسبارطة ، دون ان يذكر شيئاً عن المهمة التي اوكل اليه امرها ، الى ان غدا مستعداً لتنفيذها ، وكانت النتيجة، نجاحه في قتل نابيس . ونرى من كل هذا،ان هذه الجماعات قد تمكنت بفضل تبني هذه الأساليب من تجنب الاخطار التي ترافق اعداد المؤامرات، وسيكون في مكنة كل من يتبعها تجنبها حتماً .

عملية هذه الاحتياطات

وسأورد الآن قصة بيزو ، التي سبق لي ان أشرت اليها،لاقيم الدليل على ان في وسع كل انسان انْ يفعل ما فعله هؤلاء الناس . فلقد كان بيزو من الرجال البارزين كل البروز في عهد نيرون ، وكانت له شهرة داوية وحظوة عند الامبراطور الذي كان يثق فيه ثقة عمياء . وقد ألف نيرون ان يتناول معه العشاء في حدائقه . وكان في وسع بيزو والحالة هذه ان يكسب عدداً من الاصدقاء الذين يتميزون بالعقلية والشجاعة والميول التي تكون موجودة عند الطراز الصالح من الناس لاداء مثل هذا العمل، اذ ان هذا أمر سهل كل السهولة بالنسبة الى رجل ذي مكانة كبيزو . وكان في وسعه أيضاً ، عندما يكون نيرون في حدائقه،ان يفضي اليهم بخطته ، وان يحملهم بالاقوال المناسبة علي تنفيذها ، دون ان يترك لهم مجالاً للرفض ، لا سيا وان النجـــاح فيها مضمون تماماً . ولو درسنا أوضاع المؤامرات عامة ، لتبين لنا ان عدد ما لا يمكن تنفيذه منها بهذه الطريقة ضئيل للغايـة . ولكن الناس لا يكترثون عادة ، اكتراثـاً كافياً بالشؤون الدنيوية ، ويرتكبون بالتالي اخطاء فاضحة ولا سيا في القضايا التي تقع خارج نطاق المجرى العادي للاحداث كهذه القضايا مثلاً .

احتياطات اخرى

ومن الواجب ان لا يفشى نبأ المؤامرة الا اذا اضطر المرء الى ذلك،

والا اذا كانت قد غدت ناضجة وجاهزة للتنفيذ ، واذا اضطر المرء الى البوح بهـا عن طريق الاكراه فعليه ان لا ينقل نبأها ، إلى أكثر من شخص واحـد ، على ان يكون هذا الشخص ممن سبق له ان اختبره اختباراً كاملاً ، أو ممن تحفزهم نفس العوامل التي تحفزه ايضاً.والعثور على مثل هذا الشخص الواحد اسهل من العثور على عدد من الاشخاص وهو بالتالي اقل خطراً. يضاف الى هذا انك اذا ارتكبت هفوة،فالمجال فسيح امامك لحماية نفسك،وهو ما لا يتيسّر لك اذا كان عدد المتآمرين كبيراً . ولقد سمعت رجلاً حكيماً يقول ، ان بوسعك ان تتحدث بكل شيء الى رجل واحد ، طالمـا انك لم تسمح لنفسك بالتورط كتابة ، فان « نعم » التي يقولها شخص واحد ، لا تسوى اكثر من «لا» التي يقولها الرجل الآخر . وعلى الانسان ان يكون حذراً من كتابة أي شيء وكأن ما يجب ان يحتاط منه هو الصخر ، اذ لا شيء ادعى الى تجريمه اكثر من خط يده . ولقد حزم بلوتيانوس امره على قتل الامبراطور سيفيروس،وقد نقل ولده انطونيوس النبأ الى شخص يدعى سانورنينوس وهو من حماة الشعب ، واراد هذا ان يشي به الى الامبراطور ، بدلاً من ان ينفذ ما يريد ، ولكنه خشي ان وجه اليه التهمة ان تكون اقوال بلوتيانوس مصدقة اكثر من اقواله . ولذا فقد طلب شيئاً خطياً ليقـوم دليلاً على المهمة التي اوكلت اليه ، وأعمى الطموح بلوتيانوس ، فأعطاه ما يريد ، وكانت النتيجة ان حامي الشعب ، وجه الاتهام اليه ، وتمكن من ادانته عن طريق الدليل الخطي . ولو لم يتوافر هذا الدليل الخطي ، ولو لم تتوافر عدة ادلة اخرى ضده لتمكن بلوتيانوس من تكذيبـه والتغلب عليه ، فقد كان صامداً كالصخر في نفي التهمة . فهناك والحالة هذه فرصة للنجاة ، عندما توجه اليك التهمة ، ولا يكون الشاهد عليك فيها الا شخص واحـد ، شريطة ان لا تدان بوثيقة خطيّة ، او بأي دليل آخر يقوم ضدك،وهو ما يجب على الانسان ان يحرص كل الحرص

من وجوده .

وكانت هناك امرأة تدعى ابيخاريس في المؤامرة البيزونية ، وكانت من قبل عشيقة لنيرون . ولما كان من رأيها ، ان ضم قبطان لاحدى السفن التي تعمل في حراسة نيرون يفيد قضية المتآمرين ، فقد نقلت اليه نبأ المؤامرة ، ولكنها لم تذكر له اسماء المتآمرين . وعندما نقض القبطان عهده ، ووشى الى نيرون ، انكرت ابيخاريس التهمة اشد انكار ، حتى ان نيرون لم يستطع التثبت من اتهامها فأطاق سراحها . فهناك والحالة هذه في نقل انباء المؤامرة الى شخص واحد ، خطران ماثلان ، اولهما ان هذا الشخص قد يتبرع باتهامك بدافع شخصي منه ، والثاني انه قد يعتقل بمجرد الاشتباه ، أو بوجود دليل ضده ، فيوجه اليك التهمة عندما يدان او عندما يتعرض للعذاب لارغامه على الاعتراف. ولا يكون الخطر في الحالتين من النوع الذي لا يمكن اصلاحه ، اذ ان في وسعك في الحالة الأولى ان تنكر التهمة ، وان تزعم انه لفقها بدافع ما يحمله لك من كراهية ، وفي الحالة الثانية ان تنكرها ايضاً زاعماً انه أرغم تحت وطأة الشدة على ان يفتري التهمة عليك .

الاغتيال غير العمد أو غير المرتب مسبقاً

وأكثر ما تعمله حكمة وتعقلاً والحالة هذه ، ان تمتنع عن ابلاغ أي انسان بما تعتزم عمله ، وان تسير وفق النماذج التي قدمتها اليك ، فاذا تحتم عليك البوح بخطتك ، فمن الواجب ان لا يعدو من تبوح له بها شخصاً واحداً ، اذ على الرغم من ان الخطر في بوحك هذا قد يكون بالغاً ،الا انه ليس بأعظم من الخطر في حالة البوح بها الى اكثر من واحد.وتكون الحالة نفسها عندما ترغمك الحاجة على ان تعمل للأمير ما ترى ان الأمير يعتزم عمله تجاهك ، وهنا تكون حاجتك من الضخامة

والقوة بحيث لا يتوافر لك الوقت الكافي للتفكير بالاحتياطات . وتصل مثل هذه الحاجة دائماً بالمرء الى الغاية التي يتوخاها ، ولاقامة الدليل على صحة قولي هذا ، ارى ان اسرد هنا مثلين اثنين .

كان للامبراطور كومودوس صديقان من أقرب أصدقائه وأكثرهم حظوة عنده ، وهما لايتيوس وايكليكتوس،وقد عهد اليهما بقيادة حرسه الامبراطوري.وكانت له جارية تحتل مكانة الحظوة في فؤاده وهي مارسيا. ولما كان هذان الصديقان يكثران من تعنيفه على تلويث شخصه ومكانته الامبراطورية ، بهذا السلوك الذي يسلكه ، فقد قرر الامبراطور قتلهما، وأعد لائحة ضمنها أسماء مارسيا ولايتيوس وايكليكتوس وآخرين غيرهم، كان قد حزم أمره على اعدامهم في الليلة التالية . ووضع هذه اللائحة تحت وسادته التي ينام عليها . ولما كان قد مضى إلى الحمام ليغتسل ، وكان أقرب أولاده الصغار إلى قلبه يلهو على فراشه ، وفي غرفته،فوجد اللائحة عرضاً،وحملها وخرج بها من الغرفة وهي في يده،ولقيته مارسيا، فأخذت اللائحة من الغلام ، وبعد ان قرأتها واطلعت على محتوياتها ، بعثت في طلب لايتيوس وايكليكتوس في التو واللحظة . وعندما أدرك الثلاثة ما يتعرضون له من خطر قرروا إحباط خطته، وقتلوا الامبراطور كومودوس عندما هبط الظلام دون ان يضيعوا وقتاً لا لزوم لاضاعته .

وكان الامبراطور كراكالا (١) ، قد عهد بقيادة جيشه في بلاد مابين النهرين إلى والٍ يدعى ماكرينوس،وكان هذا الوالي شخصاً مدنياً أكثر منه عسكرياً ، ولما كان الامبراطور يخشى كما هو المألوف بين الامراء الطالحين،خشية دائمة من تآمر الآخرين عليه ليلقى ما يستحق ان

---

١ الامبراطور كراكالا (١٨٦ - ٢١٧)م الابن الاكبر للامبراطور سبتيميوس سفيروس . أصبح امبراطوراً بالاشتراك مع أخيه الاصغر غيتا عام ٢١١ . فأقدم على قتله وأصبح الامبراطور الوحيد عام ٢١٢ . كان عهده حاشداً بالجرائم والفظائع واعمال الاغتصاب . منح الرعوية الرومانية لكافة المواطنين الاحرار في الامبراطورية ليبتز منهم المال . قتل بأمر من قائده ماكرينوس عندما كان يقوم بحملة ضد البارثيين . — المعرب —

يلقاه لطلاحه ، فقد بعث إلى صديق له في رومة يدعى ماتيرنيانوس ، يطلب اليه سؤال العرافين والمنجمين عما اذا كان هناك من يطمح في ان يغدو امبراطوراً ، وان يبعث اليه بمـا يقوله المنجمون . ورد عليه ماتيرنيانوس قائلاً ان ماكرينوس هو الرجل الذي يحمل الفكرة في رأسه ولكن الرسالة وقعت في يدي ماكرينوس هذا قبل ان تصل الى الامبراطور فقرر ان من الضروري،إذا أراد ان يتجنب القتل ، ان يقتل الامبراطور قبل ان تصله رسالة ثانية من رومة ، ولذا فقد عهـد بهذه المهمة الى أحد قادة المئات (سنتوريون) في جيشه ، ويدعى مارتياليس ، وكان من أشد الناس اخلاصاً له ، كما كان شديد الحقد على الامـبراطور ، لأن هذا كان قد قتل اخاه قبل بضعة أيام وأمره بأن يغتال الامبراطور . وقد نفذ هذا الضابط الأمر بنجاح .

وهكـذا نرى ان الضرورة عنـدما تغدو ملحّة ، بحيث لا تترك مجالاً لأي تأجيل ، تؤدي إلى نفس النتيجة التي أدت اليهـا الطريقة التي اتبعها نيليماتوس الابيروسي ، والتي شرحناها سابقاً . ونرى ايضاً من هاتين الحادثتين ، ما سبق لي قوله في مستهل هذه المطارحة ، من ان التهديد بالقتل ، يلحق بالامراء ضرراً أكبر ، ويكون اكثر فاعلية في التسبب بالمؤامرات من ايقاع الاذى بصورة عملية . وعلى الأمير والحالة هذه ان يكون حذراً من التهديد والوعيد ، وعليه اما ان يجعـل الذين يتوخى ايذاءهم عبرة لغيرهم ، أو يضمن عدم إلحاقهم به الاذى،ولكن من واجبه على أي حال ان لا يضعهم في الموقف الذي يبدو لهم فيـه وكأن لا مناص لهم من الموت أو من قتل انسان آخر .

الاخطار الناجمة عن تبديل الخطة

تعود بعض الاخطار التي تقع اثناء تنفيذ المؤامرة الى تبدّل في الخطة

كما يعود بعضها الآخر الى افتقار منفّذها إلى الشجاعة ، أو إلى خطأ يقع فيه هذا المنفذ بسبب الاهمال، أو الاخفاق في استكمال العمل، بحيث يدع بعض من كان من المقرر قتلهم احياءً . وأود هنا ان اشير تبعاً لذلك ، بأن لا شيء اكثر ازعاجاً أو مضايقة للناس فيما يفعلونه من من أن يجدوا أنفسهم مضطرين فجأة ودون سابق انذار الى تغيير خطتهم وان يعدلوا عن تلك التي كانوا قد وضعوها عند البداية . واذ قدر لمثل هذا التبدّل في الخطة ان يثير شيئاً من الاضطراب ، فان هذا الاضطراب يكون في العمليات العسكرية ، وفي الشؤون التي هي من النوع الذي كنا نتحدث عنه،اذ أن من المهم بل من الجوهري في عمل من هذا الطراز ان يزرع الانسان في عقول المعنيين الأدوار التي يجب ان يؤدوها ، وإذا كان الناس قد قضوا عدة أيام في تصوير طراز من العمل لأنفسهم وفي اعداد خطة من الخطط ،ثم تتبدل هذه الخطة فجأة، فان هذا التبدل لا بد وان يخرج بالموضوع على المقود ، وان يربك المشروع كلية . ولذا فمن الافضل الاستمرار في تنفيذ الخطة الاصلية ، حتى ولو رأى فيها المرء المساوىء والمتاعب ، اذ ان الغاءها يعرض الانسان نفسه إلى حشد من المتاعب . وينطبق هذا القول على الحالات التي لا يتوافر فيها الوقت لرسم خطة جديدة ، اذ لو توافر الوقت لكان في مكنة الانسان ان يرتب الأمور على النحو الذي يهواه .

وكلنا يعرف المؤامرة التي حاكتها اسرة «بازي» على لورنزو وغويليانو دي مديشي . وكانت الخطة التي اعدت تقضي بدعوتهما الى تناول العشاء مع كردينال كاتدرائية القديس جورج ، وان يتم اغتيالهما اثناء العشاء . ونقلت التفاصيل الوافية الى جميع من سيتولون عملية الاغتيال ، ومن سيتولون احتلال القصر ومن سيطوفون في المدينة داعين الشعب الى تحرير نفسه . وحدث ان التقى أفراد اسرة « بازي » ، والمديشي والكردينال في إحدى المناسبات الدينية في الكاتدرائية ، واتضح ان غويليانو لا ينوي

حضور مأدبة العشاء ذلك اليوم ، واجتمع المتآمرون وقرروا ان يعملوا في الكنيسة ما كانوا ينوون عمله في بيت آل مديشي . وقد أربك هذا التبدل الخطة كلهـا ، وذلك لأن جيوفامبا تيستا دامونتيسيكو ، رفض الاشتراك في عملية القتل ، لأنه لم يستطع احتمال القيام بها في الكنيسة على حد قوله . وهكذا تحتم على المتآمرين ان يجدوا منفّذين آخرين ، وان يعيدوا توزيع الادوار ، ولما كان الوقت ضيقاً ولا يسمح بايضاح الأدوار من جديد ، فقد ارتكبت أخطاء عدة في التنفيذ، وفشل المتآمرون فشلاً ذريعاً .

الفشل بسبب الافتقار إلى التصميم

يرجع التردد عند المنفّذين في اداء المهمة التي أوكلت اليهم، اما الى الاحترام الانساني او إلى الجبن الشخصي . فقد يكون للامير من المهابة ما يوحي بالاحترام والاجلال بحيث يوهن عزيمة المنفّذ او يبعث في فؤاده الرعب . وعندما وقع ماريوس أسيراً في أيدي المنتورنيين ، بعث هؤلاء اليه بعبد يتولى قتله ، ولكن هذا العبد شعـر بالرهبـة في حضرة هذا الرجل ، وبالخوف مما يمثله اسمه وشهرته ، حتى انه أحس بالعجز عن قتله . وإذا كان مثل هـذا السلطان يمت إلى شخص مقيـد في الاغلال وطريح في السجن تحيط به المصائب ، فلا بد وان يكون سلطان الامير الذي لا يجد نفسه في مثل هذا الوضع الحرج،والذي لا يزال في جلاله وهيبته مرتدياً حلله الملكية وأوسمته ومحاطاً بالابهة وبالبطانة،أكبر وأعظم. ومثل هذه الابهة قد تبعث الفزع في نفسك ، أو ان ما يبديه من دماثة عنـد الترحيب بك ، قـد يلطّف من غلوائك . ولقد تآمر عدد من الأشخاص على حياة سيتاكليس ملك تراقية ، وحددوا اليوم الذي يجب اغتياله فيه ، ثم مضوا إلى المكان الذي سيتم فيه التنفيذ.ولكن أياً منهم

لم يجرؤ على ان يفعل شيئاً . ومضوا أخيراً دون أن يحاولوا شيئاً ، أو دون ان يعرفوا ما الذي حال بينهم وبين تنفيذ مؤامرتهم ، وكل منهم يحاول إلقاء اللوم على الآخرين . وقد كرروا الخطأ أكثر من مرة ،وأدى ذلك إلى اكتشاف المؤامرة في النهاية،وعوقب المتآمرون على جريمة كان في وسعهم اقترافها ولكنهم كانوا مترددين في تنفيذها . وتآمر على الفونسو دوق فيرارا ، اثنان من اخوته ، واستخدموا واسطة لتآمرهم أحد رجال الدين ويدعى جيانّيز ، وهو مرتل يعمل في معية الدوق . وقد عمل هذا الرجل على إعداد عدد من الاجتماعات بين الدوق وبين أخويه، وكان في وسعها ان يقتلاه ، ولكن أياً منهما لم يجرؤ على قتله ، وهكذا تم كشف المؤامرة ،وعانيا العقاب على وحشيتهما وعلى افتقارهما إلى التعقل والروية . ولا يمكن ان يعزى مثل هذا الاهمال إلا إلى أحد سببين، اما ما أحس به القاتلان من توتر في أعصابهما في حضرة الامير ، أو إلى ما شعرا به من ذلّة تجاه ما أبداه نحوهما من دماثة ولطف .

الفشل الناجم عن اضطراب الفكر

كثيراً ما تعود المتاعب التي تثور في طريق تنفيذ أية مؤامرة ، إلى الاخطاء الناجمة اما عن الافتقار إلى التعقل أو الروية ، أو الافتقار إلى الشجاعة ، اذ ان مثل هذا الافتقار قد يحدث للمرء ويسبب له اضطراباً في عقله ، يدفعه إلى قول أشياء أو عمل اخرى لا داعي إلى قولها او عملها . وليس ثمة من صورة أبلغ في رسم هذا الاضطراب الذي يطغى على الناس من تلك التي رسمها تيتوس ليفي اثناء حديثه عن اليكزامينيس الايتولي ، الذي كان قد حزم أمره على قتل فابيس الاسبارطي ،والذي سبق لنا ان تحدثنا عنه من قبل ، ويقول ليفي انه عندما حان الوقت ، دعا اليكزامينيس رجاله فأبلغهم ما يجب عليهم عمله ، ثم « استجمع

نفسه ونشاطه ، وذلك لأن عقله كان قد غدا مضطرباً من التفكير في مثل هذه القضية الكبيرة » . ومن المحال ، مهما كان الانسان متمرساً على القتل ، ومهما كان يتمتع بقوة في العقل وحزم في الرأي ، ومهما كان قد ألف استعمال السيف في حياته ان لا يصاب بشيء من الاضطراب، وعلى هذا الاساس يجب اختيار الناس الذين سبق لهم الاختبار الطويل في مثل هذه الاعمال ، لاداء مثل هذه المهمة،وان لا يعهد المرء إلى غيرهم بها مهما كان متصفاً بالشجاعة ، اذ عندما يكون الموضوع متعلقاً بالقيام بأعمال جسام ، لم يكن للمرء سابق خبرة بها ، لا يستطيع اي انسان ان يكون واثقاً مما سيحدث مطلقاً . وقد يدفعك هذا الاضطراب إلى اسقاط السلاح من يديك مثلاً ، أو الى التفوه بكلمة قد يكون لها نفس التأثير أيضاً . وقد تآمرت لوكيلا ، شقيقة الامبراطور كومودوس مع كوينتانوس على قتل شقيقها ، وكان هذا ينتظر الامبراطور في مدخل المدرج ، ثم مضى اليه منتضياً خنجره المسلول،وحياه بالعبارات التالية : « ان مجلس الشيوخ يبعث اليك بهذا ! » وكانت هذه الكلمات كافية لالقاء القبض عليه قبل ان يرفع ذراعه ليوجه ضربته . وقد عهد إلى انطونيو دافولتيرا ، كما سبق لنا قوله ، بقتل لورنزو دي مديشي ، فعندما وصل اليه ليقتله قال : « هالوا ، ايها الخائن » ، وكانت هذه العبارة كافية لانقاذ حياة لورنزو واكتشاف المؤامرة .

المؤامرات التي تستهدف أكثر من أمير واحد

ليس من السهل تنفيذ المؤامرة تنفيذاً دقيقاً وصحيحاً ، عندما تكون مستهدفة حاكماً واحداً ، للاسباب التي ذكرناها، ولا ريب في ان هذه الصعوبة في دقة التنفيذ تزداد عندما يكون الهدف أكثر من امير . وقد تغدو هذه الصعوبة على العكس من ذلك ، كبيرة الى الحد الذي يحول

دون نجاح المؤامرة . فمن المحال تقريباً ان يقوم المرء بأعمال متشابهة في أماكن مختلفة في نفس اللحظة والساعة ، كما ان من المستحيل عليك ان تنفذها في أوقات مختلفة اذا كنت لا تريد من أحد هذه الاعمال ان يتلف عليك الاعمال الاخرى . وعلى هذا ، فأذا كان التآمر على أمير واحد غير مأمون العاقبة وحافلاً بالمخاطر،وبعيداً عن الحكمة والتعقل ، فأن التآمر على اميرين عمل أحمق وطائش . ولو لم أكن أحترم المؤرخ هيرودتس بالغ الاحترام ، فأنني ما كنت لأصدق ما قاله عن بلوتيانوس ابداً ، فقد ذكر انه أوفد شخصاً واحداً هو ساتورنينوس ، قائد المئة لقتل كل من سيفيروس وانطونينوس ، اللذين كانا يقيمان في مكانين مختلفين ، ومثل هذا القول بعيد عن المنطق ويصعب على المرء تصديقه لولا انه جاء على لسان حجة ثقة كهيرودوتس .

وتآمر عدد من الشباب الاثيني على ديوكليس وهيبياس ، الطاغيين اللذين كانا يحكمان اثينا . وقد تمكنوا من قتل ديوكليس،ولكن هيبياس نجا ، وثأر لزميله، وتآمر شيون وليونيداس الهيرقلي،وهما من حواريي افلاطون ، على الطاغيين كليرشوس وساتيروس ، وتمكنا من قتل الأول بينما نجا الثاني ليثأر لزميله . وقد أفلح البازيون الذي تحدثنا عنهم اكثر من مرة في قتل غويليانو وحده . وعلى هذا يجب ان لا يشترك المرء في مؤامرات على أكثر من حاكم واحد ، طالما انه في تآمره ، لن ينفع نفسه ، أو وطنه أو أي انسان آخر . ويغدو الذين ينجون من المؤامرة ، على النقيض من ذلك ، اكثر مرارة ، واشق على الاحتمال وهذا ما وقع في اثينا وهيراقليا وفلورنسة ، وهي التي أشرت اليها في الحوادث السابقة . ومن الحق ان يقال ان المؤامرة التي نسج خيوطها بيلوبيداس لتحرير طيبة ، وهي مسقط رأسه ، قد انطوت على جميع هذه المتاعب، الا انها حققت النجاح ايضاً ، اذ ان بيلوبيداس لم يكتف بالتآمر على طاغيين فحسب ، بل على عشرة من الطغاة ، ولم يكن

انساناً مارقاً ، لا يستطيع الوصول اليهم فحسب ، بل كان ثائراً ايضاً. ومع ذلك فقد تمكن من دخول طيبة ومن قتل الطغـاة وتحرير بلاده . وقد تمكن من تحقيق كل ذلك بمساعدة شارون مستشار الطغاة ، اذ ان هذا هو الذي سهل له الدخول ، وتحقيق أهدافه . وليس من المعقول ان يحذو انسان حذوه في عمله ، فقد كان مشروعه مستحيلاً ، ولكنه نجح بأعجوبة . ولا ريب في ان هذا العمل كما يكاد يجمع جميع المؤرخين كان فذاً ، لا تمكن مقارنته بعمل آخر .

الفشل الناجم عن الانطباعات الزائفة

وقد يتحطم تنفيذ مؤامرة على صخرة انطباع زائف ، أو نتيجـة حادث غير متوقع ، يحدث ابان التنفيذ . ففي صبيحة اليوم الذي قرر فيه بروتوس والمتـآمرون الآخرون قتل قيصر ، حدث ان اجتمع هـذا طويلاً بغايوس بومبيليوس ليناس ، وهو احد المتـآمرين ، وعندما رأى المتآمرون الآخرون هذا الاجتماع الطويل ، انتابتهم الظنون والريب ، في ان يكون بومبيليوس قد باح بسر المؤامرة الى قيصر ، وكانوا على وشك قتله في تلك اللحظة دون ان ينتظروا مجيئه الى مجلس الشيوخ . وكانوا ولا ريب سيفعلون ذلك ، لو لم ينته الحديث في تلك اللحظة ، ولو لم يستعيدوا رباطـة جأشهم من رؤيتهم قيصر لا يبدو عليه أي مظهر من مظاهر الاثارة العاطفية غير العادية . ومن الواجب أخذ مثل هذه الانطباعات الزائفة بعين الاعتبار ، وايلائها ما تستحقه من اهتمام وعناية ، اذا أراد الانسان ان يكون حكيماً متبصراً ، اذ ان من السهل على المرء ان يقع تحت تأثير مثل هذه الانطباعات . اذ عندما يكون ضمير الانسان قلقاً ومتعباً ، يخيل اليه ان الناس يكثرون من الحديث عنه ، وقـد تزعجه ملاحظة عابرة ، فتقضي على هدوئه واتزانه ، اذ يخيل اليه ان لها علاقة

بالعمل الذي يعتزمه ، وقد يحمله هذا اما بالكشف عن المؤامرة عن طريق فراره ، أو تعكيرها بالاقدام على التنفيذ قبل ان يحين الموعد المناسب . وكلما ازداد عدد من يعرفون بأمر المؤامرة ، كلما كان هذا الامكان اكثر احتمالاً .

الفشل بسبب احداث عرضية غير متوقعة

لما كانت الاحداث العرضية ، من الأمور التي لا يستطيع المرء توقعها فان الشيء الوحيد الذي يستطيع المرء ان يفعله ، هو ان يورد الامثلة التي تظهر ما يجب ان يكون عليه الحريصون من الناس بالنسبة اليها . فلقد ثار لوشيو بيلانتي السييني ،الذي سبق لنا ان أشرنا اليه،على باندولفو ثورة عارمة ، لأن هذا قد انتزع منه ابنته التي كان قد زوّجه اليها في الماضي ، فقرر ان يقتله ، واختار الفرصة لتنفيذ هدفه على النحو التالي . لقد جرت عادة باندولفو على القيام يومياً بعيادة احد اقربائه وكان مريضاً ، وكان في زيارته هذه يمر يومياً ببيت جوليو . وقد لاحظ جوليو هذا ، ورتب الأمور للمتآمرين ، ليجتمعوا في بيته ، وليقتلوا باندولفو اثناء مروره بالبيت ذات يوم . وقد هيأهم في داخل المنزل ، على اهبة الاستعداد للخروج والهجوم على الرجل بأسلحتهم ، عندما يتلقون الاشارة اللازمة من الرجل الذي عهد له بالوقوف في النافذة ، ليرى باندولفو عند مجيئه ، وحدث ان باندولفو كان قادماً ، واعطيت الاشارة ، وفجأة التقى باندولفو صديقاً له استوقفه في الطريق ، بينما مضى بعض مرافقيه في طريقهم ورأوا ما حدث اذ سمعوا قعقعة السلاح، واكتشفوا الكمين المعد لسيدهم ، فنجا بذلك باندولفو ، واضطر جوليو وشركاؤه في المؤامرة إلى الفرار من سيينا . وهكذا أدى هذا الحادث العرضي ، الى التدخل في العمل المعدّ والمرتب ، وأسفر عن انتهاء

مشروع جوليو إلى كارثة . ولما كانت مثل هذه الاحداث العارضة نادرة الوقوع ، فمن المستحيل ان يستطيع المرء وصف العلاج لها . وكل ما يجب على المرء عمله ، هو ان يدرس كل شيء وان يتخذ اهبته لمواجهة كل احتمال يمكن وقوعه .

الاخطار التي تعقب المؤامرة

ولا يبقى علينا الآن الا أن نتحدث عن الاخطار التي قد تقع بعد نجاح المؤامرة نجاحاً كاملاً . وهناك خطر واحد ليس الا . فقد يترك انسان حياً ، ويغدو في مكنته ان يثأر للأمير الذي صرع . فقد يظل ثمة اخوة أو اولاد أو مؤيدون آخرون يمكن ان تنتقل الامارة اليهم . وقد يكون بقاء هؤلاء الذين قد يلجأون الى طلب الثأر ، على قيد الحياة ناجماً عن اهمالك ، أو عن الاسباب التي سبق لنا ذكرها . فعندما تمكن جيوفاني اندريا دا لامبوغنانو وشركاؤه من قتل دوق ميلان ، ظل على قيد الحياة احد اولاده ، واثنان من اخوته ، وقد تمكن هؤلاء من الثأر له بعد حين . وقد يكون ثمة مبرر للمتآمرين في مثل هذه الحالات ، بالنظر الى عجزهم عن القيام بأي شيء ، ولكن عندما يكون بقاء احد المعنيين حياً ناجماً عن اهمالهم أو عن افتقارهم الى الروية والتعقل ، فان المبرر يختفي في مثل هذه الحالة . وقد تمكن عدد من المتآمرين من مواطني فورلي ، من قتل سيدهم الكونت جيرولامو ، ومن أسر زوجته واطفاله الصغار . وبدا لهم على أي حال ان ارواحهم ستظل مهددة ، طالما ان القلعة مستعصية عليهم ، بعد ان رفض حاكمها تسليمها اليهم. ووعدت الكونتيسة كاترين المتآمرين بأنهم إذا سمحوا لها بالذهاب إلى القلعة ، فستعمل على تسليمها اليهم . وقرروا في غضون ذلك الاحتفاظ باولادها رهائن عندهم . وسمح المتآمرون لها على هذا الاساس بالذهاب

إلى القلعة ، وما كادت تصل إلى أسوارها وتدخل اليها ، حتى أخذت توجه اليهم أشد التعنيف على قتلهم زوجها،وتهددهم بأشد أنواع الانتقام وصوره . ولاقناعهم بأنها لا تأبه قيد انملة باطفالها ، تعرت امامهم قائلة ان في وسعها ان تنجب اطفالاً غيرهم . وأخرس المتآمرون ووجموا فقد أدركوا خطيئتهم ولكن بعد فوت الأوان ، ودفعوا جزاء افتقارهم الى الروية والتعقل ، باحتمالهم آلام النفي الدائم من مدينتهم .

ولعل أكثر الاخطار حتمية من التي تقع بعد نجاح المؤامرة، وادعاها إلى بعث الفزع ، ان يكون الشعب ميالاً كل الميل الى الأمير الذي قتلت ، ولما كان من المحال في مثل هذه الحالة ، ان يجد المتآمرون علاجاً يلجأون اليه،فأن الفرصة لن تتوافر لهم للشعور بالأمن والطمأنينة . ولقد كان قيصر مثلاً رائعاً على هذه الحقيقة،فقد ثأر له شعب رومة الذي كان يحمل له أطيب مشاعر الحب والود ، وقد قتل جميع المتآمرين بعد طردهم من رومة واحداً اثر آخر،وفي أوقات متفاوتة وأماكن متباعدة .

تآمر الانسان على بلاده

تكون المؤامرات التي يحوكها المرء على بلاده أقل خطراً على المشتركين فيها من تلك التي تحاك ضد الامراء ، وذلك لأن المخاطر التي تقع في مرحلة اعدادها تكون أقل من تلك التي تقع في اعداد المؤامرات الاخرى، أما المخاطر التي تقع في مرحلة التنفيذ فواحدة في الحالتين ، مع انعدام المخاطر بالنسبة اليها في المرحلة الثالثة. وليس ثمة أخطار كثيرة في اعداد هذه المؤامرات ، لأن في وسع المواطن ان يخطط للوصول الى السلطان دون البوح بمكنون سره او بخطته الى اي انسان آخر ، وسيتحقق له النجاح حتماً في مشروعه ، اذا لم تتعرض خططه لأي تدخل ، اما اذا تعرضت لذلك عن طريق اي قانون او ما شابه ذلك ، فأن في وسعه ان

ينتظر فرصة اخرى اكثر مواتاة . ويصدق هذا على الجمهورية التي سادها الفساد الى حد ما ، اذ لما كان مثل هذا المجال الذي يستند إلى الطرق المعوّجة غير متيسر في الجمهورية الناجية من الفساد ، فأن من غير المنتظر ان تطوّف مثل هذه الافكار في رأس أي مواطن من أبنائها.
وهناك والحالة هذه طرق شتى ووسائل مختلفة يستطيع المواطنون الطامعون في الحكم اللجوء اليها دون تعريض أنفسهم الى خطر الوقوع في اية متاعب ، وذلك لان الجمهورية ابطأ في اجراءاتها من الامير وأقل ريبة وشكوكاً،ولذا تكون أقل حيطة وحذراً . ولما كانت الجمهوريات أكثر احتراماً لابنائها من ذوي المكانة،من الملكيات ، فأن هؤلاء المواطنين يصبحون بالنتيجة أكثر جرأة وميلاً إلى العمل،خلافاً لمصالح جمهوريتهم. وكل من قرأ ما كتبه سالّوست (Sallust) (١) عن مؤامرة كاتيلين(٢) يعرف ان هذا لم يكتف بالبقاء في رومة بعد اكتشاف مؤامرته ، بل مضى إلى مجلس الشيوخ يحضر جلسته ويبدي فيها ملاحظات مهينة للشيوخ والقناصل ، دون ان يفعلوا معه شيئاً ، لان هذه المدينة كانت تحترم أبناءها احتراماً جماً . ولم يكن من المحتمل ، حتى بعد ان ترك رومة وانضم إلى الجيش، ان يعتقل لينتولوس(٣) وغيره من المتآمرين،لولا انه

١ سالوست ، سبق لنا أن تحدثنا عنه في هامش سابق .

٢ كاتيلين (١٠٩ – ٦٢) ق. م. من اسرة رومانية نبيلة . اشتهر بالمؤامرة التي عرفت باسمه . كان من حزب صولا وامتاز بمدارك واسعة وبقوة عقلية وبدنية كبيرة ، وبالشجاعة والمقدرة العسكرية والمدنية ، ومع ذلك فقد كان فاسداً خلقياً . عين قاضياً عام ٦٧ ق. م. وانتدب لحكم افريقيا . وضع خطته هنا لقلب الحكم في رومة والاستيلاء عليه مغتنماً فرصة غياب بومبي في آسيا . عاد إلى رومة عام ٦٦ ، وحاول الاستيلاء على القنصلية بالعنف ولكن مؤامرته فشلت وقتل على يدي قوات الحكومة . – المعرب –

٣ لينتولوس – من اسرة من نبلاء رومة ، أصبح قاضياً وقنصلا . ولكنه طرد من مجلس الشيوخ عام ٧٠ مع ستين آخرين لما عرف عنهم جميعاً من فساد خلقي . انضم إلى كاتيلين في مؤامرته . وأصبح رئيس المؤامرة ، ولكن تردده كشف عنها ، وأودع غياهب السجن .
– المعرب –

عثر معهم على رسائل تثبت اشتراكهم في المؤامرة .

وعندما أعد هانو ، وهو من أبرز مواطني قرطاجنة ، وكان يأمل في حكمها حكماً طغيانياً ، خطته لتسميم جميع اعضاء مجلس الشيوخ اثناء الاحتفال الذي قرر اقامته بمناسبة زواج احدى كريماته ، ليعلن نفسه بعد ذلك اميراً على المدينة ، كان كل ما فعله المجلس بعد ان عرف بالخطة ، ان أصدر قانوناً يحدد المبالغ التي يجب ان تنفق على المآدب وحفلات الزواج ، وذلك لأن احترام الشيوخ لهذا الرجل بالنسبة إلى مكانته كان كبيراً للغاية .

وقد تكون المشقة من الناحية الاخرى في تنفيذ مؤامرة يعدها انسان على بلاده اكبر من ايه مشقة يلقاها في مؤامرات اخرى ، كما قد تكون الاخطار فيها اعظم وأشد ، وذلك لأن تنفيذ المؤامرة التي تستهدف مثل هذا العدد الضخم من الناس تتطلب قوات هائلة قد لا تتوافر له ، اذ ان قليلين من الناس يملكون جيوشاً تحت تصرفهم ، كالجيوش التي كانت تحت امرة قيصر أو اغاثوكليس او كليومينيس ، واضرابهم من الذين استطاعوا بضربة واحدة ، ان يخضعوا بلاداً بأسرها بفضل القوات التي يسيطرون عليها . فالطريق بالنسبة الى مثل هؤلاء الناس سهلة ومأمونة ، أما بالنسبة الى الآخرين الذين لا يملكون مثل هذه القوات فان عليهم ان ينفذوا مشاريعهم اما عن طريق الخديعة او عن طريق المكر ، أو بالاستعانة بقوات اجنبية . ولا ريب في ان بيزيستراتوس يضرب مثلاً على استعمال الخديعة والمكر ، فقد تمكن عن طريق انتصاره على المجريين من اكتساب الحظوة عند شعب مدينته اثينا . وقد خرج الى الجماهير ذات صباح ، وهو مصاب بجرح واضح ، وأعلن لها ان النبلاء قد هاجموه بدافع الغيرة منه وطلب من الشعب السماح له بالتنقل تحت حراسة قوة مسلحة لحماية شخصه من النبلاء . ولما خوله الشعب ذلك ، لم يعد من العسير عليه ، ان يغتصب لنفسه سلطاناً عظيماً مكنه من ان يغدو طاغية اثينا

وعندما عاد باندولفو بتروشي إلى سيينا من منفاه ، مع غيره من المبعدين اعطيت له قيادة الحرس الداخلي في المدينة ، وهو عمل «روتيني» رتيب لم يرض غيره ان يتولاه ، ومع ذلك فان هذه القوة المسلّحة ، قد اكسبته مع مضي الزمن شهرة جعلته قبل مضي وقت طويل امير المدينة. وقد اتبع آخرون طرقاً مختلفة وحيلاً شتى وتمكنوا مع مضي الوقت، ودون التعرض الى أية اخطار من تحقيق أهدافهم .

ويختلف مدى النجاح الذي لقيه اولئك الذين تآمروا لتحقيق السيطرة على بلادهم باستخدام قواتهم الخاصة او القوات الاجنبية باختلاف مدى الحظ الذي واكبهم في مشاريعهم . فقد ضاع كاتيلسين الذي ذكرناه سابقاً اثناء المحاولة ولقي حتفه، ولما فشل هانو ، الذي تحدثنا عنه آنفاً في تحقيق النجاح عن طريق السم الذي استخدمه سلّح عدة الوف من أنصاره ، ولكنه لقي حتفه مع جميع اعوانه . واستدعى بعض المواطنين البارزين من أبناء طيبة ، جيش اسبارطة لمساعدتهم،وأقاموا نظاماً طغيانياً في بلادهم . وهكذا إذا تحرينا عن جميع المؤامرات التي حاكها بعض الناس ضد بلادهم ، وجدنا ان أية مؤامرة منها ، أو عدداً منها على الأقل ، قد اخمد في مرحلة الاعداد ، بينما تكلل معظمها بالنجاح او مني الفشل والدمار بعد وقوع مرحلة التنفيذ . ولم تنطو هذه المؤامرات بعد نجاحها ، على أية مخاطر ناجمة عنها باستثناء تلك التي تتعلق بالامارة من ناحية طبيعتها . اذ لو افترضنا ان رجلاً قد غدا طاغية في بلاده، فأنه يتعرض إلى نفس الاخطار التي يتعرض لها الطغيان عادة وبصورة مألوفة ، ولا يكون تجنب هذه الاخطار إلا بالوسائل التي سبق لنا الحديث عنها .

استعمال السم

يكاد يكون هذا كل ما يعنّ لي قوله عن المؤامرات ، وإذا كنت

قد ركزت عنايـــتي على تلك المؤامرات التي كان السيف لا السم أداة التنفيذ فيها، فلأن جميع هذه المؤامرات تحمل نفس الطابع والشكل. ومن الحق ان يقال ان استعمال السم أكثر خطورة بسبب عدم التأكد من نتيجته، وذلك لان سلعة السم لا توجد في متناول كل انسان ، ومن الواجب استشارة من يملكونها في موضوعها، وهذه الاستشارة تعني الخطر في حد ذاته. وقد لا يبرهن الشراب المسموم لاسباب عدة على انه شراب مميت قاتل، كما اكتشف اولئك الذين قرروا قتل كومودوس . اذ عندما القى الامبراطور كأس السم من يده وجدوا أنفسهـم مرغمين على قتله ، اذا كانوا يعتزمون موته حقاً .

الأساليب التي تستعمل في القضاء على مؤامرة

والمؤامرة هي أكثر الامور ضرراً على الامراء، فمجرد إعداد المؤامرة على الامير سواء أسفرت عن قتـله او لا ، مؤذية له إذ انها في الحالة الثانية تأتي له بسوء السمعة والعار ، إذ لو نجحت المؤامرة ، فأن نجاحها يعني موته ، أما إذا اكتشف أمرها ، فانها قد تعتبر وسيلة مبتكرة من جانب الامير لاخفاء مطامعه وقسوته تجاه اولئك الذين قتلهم وبالنسبة إلى ممتلكاتهم . وعلي ان لا انسى والحالة هذه تحذير الامير او الجمهورية في حالة معرفتها بالمؤامرة التي اعدت ضدهما ، ان يحاولا اكتشاف طبيعتها الدقيقة والصحيحة ، قبل ان يقوما بأي اجراء زجري، وان يقارنا بدقة وعناية بين قوة المتـآمرين ومركزهم وبـين قوتهما هما ومركزهما ، فأذا وجدا ان قوة المتـآمرين ضخمة وواسعة، فعليهما ان لا يظهرا اي اكتراث بها ، إلى ان تصبح تحت تصرفهما قوات كافية لسحقها . ويعـني العمل خلافاً لذلك ان يأتي الانسان لنفسه بالكارثة ، وعليهما ايضاً ان يلجآ إلى المداهنة والمصانعة في هذه الفترة إلى اقصى حدودهما ، مخافة ان يكتشف

المتآمرون ان مؤامرتهم قد فضحت ، فيجدون أنفسهم مضطرين بدافع الحاجة إلى اتخاذ عمل فوري دون الاكتراث بالعواقب .

ويقدم لنا الرومان دليلاً على هذه الواقعة ، وقد سبق لنا ان أشرنا إلى اللواءين الرومانيين اللذين تركا في كابوا لحمايتها من السمنيين . وقد تآمر قادة هذين اللواءين على الكابويين لاستعبادهم . وعندما نقل هذا النبأ إلى رومة ، عهد إلى روتيلوس ، القنصل الجديد ، بالتحقيق في القضية . ورغبة منه في الابقاء على هدوء المتآمرين ، وبعث الطمأنينة في نفوسهم ،اعلن جهاراً ان مجلس الشيوخ قد اكد وضع اللواءين المذكورين، وصدق الجنود اعلانه . ولما كانوا قد اعتقدوا ان المجال فسيح امامهم لتنفيذ خطتهم ،فأنهم لم يقوموا بأية محاولة لتعجل الامور . وظل الوضع على هذا الحال ، إلى ان تبين لهم ان القنصل قد عمد إلى العزل بين اللواءين مما اثار الشكوك في انفسهم ،وحملهم على الخروج علناً بمشروعهم، والبدء بتنفيذه عملياً . وليس ثمة افضل من هذا المثال ، من اية ناحية تطلعنا اليه منها ، وذلك لاننا نرى ما عليه الناس من بطء في العمل ، عندما يعتقدون بأن الوقت فسيح امامهم ، وما يبدونه من سرعة عندما تصبح الاوضاع والحاجة ملحة . وليس ثمة من طريقة افضل لمصلحة الجمهورية او لمصلحة الامير ، إذا ما ارادا تأجيل الكشف عن مؤامرة، من ان يكونا بارعين في إعداد فرصة للمتآمرين في موعد مؤجل لتنفيذ مؤامرتهم، بحيث يحملانهم على الانتظار اعتقاداً منهم بأن لا ضرورة هنا للاستعجال ،في الوقت الذي يكونان فيه قد أعدا ترتيباتهما لايقاع العقوبة بالمتآمرين .

أما الذين يسيرون على خطة مخالفة لما أقول ، فانما يتعجلون سقوطهم الحتمي ، وهو ما فعله دوق اثينا وغوغليلمو دي بازي ، فعندما أصبح الدوق طاغية في فلورنسة وسمع بأن ثمة مؤامرة تحاك ضده، أمر باعتقال احد المتآمرين ، ولكنه لم يمض شوطاً بعيداً في القضية ، مما ادى إلى

اسراع المتآمرين الآخرين إلى أسلحتهم ينتضونها ، وينتزعون منه حكومته.
وعندما كان غوغليلمو مفوضاً في « فال دي شيانا » في عام ١٥٠١ ، وعلم بأعداد مؤامرة في « اريزو » لمصلحة الفيتيلي، وحرمان الفلورنسيين من المدينة ، مضى سراعاً الى المدينة ، ودون ان يفكر بما للمتآمرين من قوة ، ودون ان يقارنها بقوته هو ، أمر عملاً بنصيحة ولده الأسقف باعتقال احدهم . وعندما سمع بقية المتآمرين بذلك هبوا يحملون اسلحتهم ويغتصبون المدينـــة من الفلورنسيين وغدا غوغليلمو سجيناً بعد ان كان مفوّضاً .

ومن الواجب القضـــاء فوراً على المؤامرات عندما تكون من النوع الضعيف وان يتم هـذا دون اية ضجة . ومن الواجب عدم اللجوء الى أي من الوسيلتين التاليتين ، على الرغم من ان احداهما تناقض الاخرى تمام المناقضة . وقد استخدم دوق اثينا اولاهما عندما رغب في اظهار اعتقاده بان الفلورنسيين يحبونه كل الحب فسارع إلى اعدام رجل كان قد افشى له سر مؤامرة تحاك ضده . واستخدم « ديون » السراقوزي الوسيلة الثانية عندمـــا سمح لكاليبوس الذي يثق به بالتظاهر ، باعداد مؤامرة رغبة منة في اكتشاف حقيقة نوايا شخص كان كثير الشك فيه. وقد أدت كلتا الوسيلتين إلى الكارثة ، إذ ان الأولى ثبطت من عزائم المخبرين ، وشجعت الراغبين في التآمر ، بينما أسفرت الثانية عن مصرع ديون نفسه ، بأيدي المؤامرة التي كان هو رأسهـــا الحقيقي ، اذ دلّ ما وقع على ان كاليبوس ، بعد ان غدا واثقاً من قدرته على التآمر على ديون ، اعد مؤامرته اعداداً صحيحاً أدى إلى حرمان الرجل من مملكته ومن حياته .

الكتاب الثالث

المطارحات من ٧ الى ٩

الحاجة إلى التكيف بالنسبة إلى المحيط

٧

كثيراً ما يحدث التحول من الحرية إلى العبودية
أو من هذه إلى تلك دون حاجة إلى سفك دماء
وكثيراً ما تغرق عملية التحوّل في الدماء المسفوكة

من الممكن ان يستغرب البعض كيف ان بعض الثورات التي تنطوي على تحول من الحرية الى الطغيان أو بالعكس ، تكون مصحوبة بسفك الدماء ، وان بعضها يقع دون أية دماء تسفك . وتدلنا أحداث التاريخ الواضحة ، على ان أعداداً ضخمة من الناس قد قتلت في بعض هذه الثورات ، بينما لم يصب انسان بأذى في بعضها الآخر ، كما وقع فعلاً

في تحوّل رومة من الملكية إلى حكم القناصل اذ لم يصب في عملية التحول أي انسان بأذى ، ولم يبعد من المدينة ابانهـا الا الملوك الترقونيون ولا انسان غيرهم .

ويقوم الرد على هذا الاستغراب في ان كل شيء يعتمد على ما إذا كان العنف قد استخدم في عملية التحوّل أولاً ، اذ لا بد من وقوع عـدد من الضحايا واصابة كثيرين بالأذى في حالة اللجوء إلى العنف لتحقيق التحول ، ولا بد ايضاً من ان يبحث الذين يلحق بهم الاذى ابان سقوطهم عن الانتقام ، وتسبب هذه الرغبة في الثأر وقوع الخسائر في الارواح وسفك الدماء ، أما عندما يكون الشعب بكامله هو الراغب في تحطيم ذلك النظام في الحكم الذي سبق له ان اقامه باجماعه وعمل على تحقيق عظمته ، فليس ثمـة من مجال لايقاع الاذى ، بأي انسان سوى شخص الحاكم نفسه . وتنطبق هـذه الحالة على الحكومة الرومانية وعلى الملوك الترقونيين ، كما تنطبق على حكم آل المديشي أنفسهم .

ولا يكون هذا النوع من الثورات مصحوباً بالكثير من الخطر . لكن الثورات التي يقوم بها ناشدو الانتقام ، تكون في العـادة ومن الناحية الاخرى ، حافلة بالاخطار البالغة ، وكانت دائماً من ذلك الطراز الذي يبعث الفزع في افئدة من قرأوا عنها ، فكيف بالآخرين الذين شهدوها. ولما كانت الامثلة على هذا النوع من الثورات عديدة ووافرة ، فانني اقترح ترك هذا الموضوع عند هذا الحد .

٨

على من يرغب في تبديل جمهوريـة ان يهتم اهتمامـاً كبيراً بمن يحكمهم

سبق لي ان أظهرت في مطارحة سابقة،ان المواطن الشرير،لا يستطيع

ان يلحق أذى كبيراً بجمهوريته ، اذا لم تكن فاسدة ، وارى بالاضافة إلى الاسباب التي سبق لي ايرادها ، ان هذه النتيجة قد تأكدت بقضية سبيريوس كاسيوس ومانليوس كابيتولينوس . وكان الرجل الأول ، طموحاً كل الطموح ، ورغبة منه في اكتساب سلطة استثنائية في رومة، حبّب نفسه الى العامة عن طريق منحهم منافع جمة ، كتوزيع الاراضي التي كان الرومان قد اخذوها من « الهيرنيكي » عليهم وعندما اكتشف النبلاء مشاريعه الطموحة ، واعلنوها على الناس ، اصبح موضع شك الجميع ،حتى انه عندما هب يخطب في الجماهير عارضاً عليها توزيع المال الناتج عن بيع القمح الذي كان العامة قد حملوا الحكومة على استيراده من صقلية،رفضت هذه الجماهير عرضه فوراً ، اذ بدا لها ان سبيريوس انما يستهدف من عرضه هذا ان يكون ثمناً لحريتها . ولو كان شعب رومة فاسداً لقبل هذا المال ، ولكان في قبوله قد مهد الطريق للطغيان بدلاً من اقفالها .

ولعل مثال مانليوس كابيتولينوس اكثر بروزاً واهمية ، اذ تظهر لنا حادثته ان الرغبة المتطرفة في الحكم تطمس الفضائل التي يتمتع بها المرء في عقله وفي جسده ، كما تمحو الخدمات التي يقدمها الى بلاده ، مهما كانت هذه الخدمات جليلة الشأن . وقد اثار ما شعر به من غيرة من كاميلوس ، الذي اضفت عليه المدينة اعظم مظاهر التكريم ، هذه الرغبة الساعرة في نفسه ، واصبحت من القوة حى غدت عمىً عقلياً سيطر عليه ، فحال بينه وبين التفكير في طراز الحياة السائد في المدينة وبين تحري طراز الناس الذين يتعامل معهم ، وهل هم على استعداد لتقبل شكل سيء من اشكال الحكم ، وأقدم على اثارة الفتن في رومة ، ضد مجلس الشيوخ وضد قوانين بلاده على حد سواء ، وتظهر هذه الحادثة حالة الكمال التي كانت تسود المدينة آنذاك ، كما تظهر صفاء جوهر الشعب ، ونقاء معدنه ، اذ لم يسارع واحد من النبلاء ، الذين الفوا

الاسراع إلى الدفاع عن بعضهم بعضاً إلى معونته ، كما لم يتحرك حتى أي من اقربائه لنصرته ، ولم يبد أي منهم ، على الرغم من العادة المألوفة في مثل هذه الحالات التي يتعرض فيها انسان الى الاتهام، مرتدياً ملابس الحداد السوداء ومتظاهراً بالحزن الشديد ، لاستثارة العطف على المتهم . وحتى حماة الشعب (التربيون) ، الذين دأبوا دائماً على النظر بعين العطف الى القضايا التي تبدو فيها أية منفعة للعامة ، وعلى تأييدها بحماس شديد كلما كانت هذه القضية اكثر عداء للنبلاء ، لم يظهروا مثل هذا العطف في هذه القضية ، وانما انضموا إلى صفوف النبلاء ، في محاولتهم القضاء على هذا الوباء المشترك . وعوام الرومان الذين يبدون بالغ الاهتمام بمصالحهم والذين يعطفون اشد العطف على المشاريع التي تضايق النبلاء ، والذين كانوا من أشد انصار مانليوس في الماضي ، اصبحوا الآن وبعد ان وجه اليه حماة الشعب الاتهام وأحالوا قضيته إلى الشعب ليحكم فيها ، قضاة الشخص الذي كان يدافع عنهم فلم يأبهوا بهذه الحقيقة ، وانما قضوا عليه بالموت .

ولا اعتقد ان ثمة مثالاً في التاريخ الذي ندرسه اكثر قدرة منه على اظهار ما كانت تتمتع به تلك الجمهورية من انظمة سليمة ، وذلك بالنظر إلى ما يبدو فيه من حقيقة ، وهي ان شخصاً واحداً في تلك المدينة لم يكن راغباً في الدفاع عن مواطن مشبع بالفضائل من كل نوع ، وقد قام في سره وعلانيته بأعمال ومآثر عظيمة تستحق الاطراء والمديح.فلقد كان حب الوطن يسمو عند كل فرد على كل اعتبار آخر، وكانوا جميعاً ينظرون الى الاخطار الراهنة التي عرض وطنه لها ، نظرة تفوق في أهميتها ما له من مآثر سابقة ، فآثروا له الموت لكي يضمنوا لأنفسهم العيش احراراً . ويقول تيتوس ليفي « وهكذا كان مصير الرجل الذي لو قدر له العيش في مدينة اخرى غير حرة لغدا من مشاهير الرجال » .

وعلينا هنا ان نضع امرين نصب أعيننا . اولها ، ان على الانسان الراغب في الحصول على المجد ، ان يستحدم في مدينـــة فاسدة وسائل تختلف عن تلك التي قد يستخدمها في مدينة لا تزال الحياة السياسية فيها في أوج نشاطها . ولا يختلف الأمر الثاني كثيراً عن الاول ، وهو يتعلق بالسلوك الذي يتبعه هذا الانسان ولا سيا في قضايا الساعة، اذ على المرء ان يهتم بالغ الاهتمام بالوقت الذي يعيشه ، وان يكيّف نفسه تبعاً لهذا الوقت .

ويكون الناس الذين يفقدون الاتصال بالوقت الذي يعيشون فيه اما بسبب سوء تقديرهم أو بدافع ميولهم الطبيعية ، تعساء في حياتهم غالباً، وفاشلين في مشاريعهم . أما الآخرون الذين يتكيّفون مع أوقاتهم،فيختلف وضعهم تمام الاختلاف . وفي وسعنا ان نستنتج من العبارات التي جاءت على لسان المؤرخ ، والتي أوردناها قبل قليل دون أي تردد،أن مانليوس لو ظهر في ايام ماريوس او صولا ، عندما غدا جوهر الشعب فاسداً، لكان في امكانه ان يؤثر على الشعب بما كان يستهدفه طموحه ، ولحقق في حياته نفس النجاح الذي واكب اعمال كل من ماريوس وصولا ، ومن لحق بهما من الناس الذين تاقـــوا إلى الطغيان . ولو قدر لصولا وماريوس ، على نفس النحو ان يظهرا في ايام مانليوس ، لسحقا سحقاً كاملاً منذ بداية عهدهما . ففي وسع المرء عن طريق سلوكه وحيلـــه الشريرة ، ان يشرع في افساد الجماهير بسهولة في مدينة من المدن،ولكن من المستحيل عليه ان يعيش طويلاً الى المدى الذي يمكنه من افسادهـا بشكل يذلل له حصاد ثمار ما زرعه . وحتى لو قدر له ان يعمّر طويلاً ليتمكن من ذلك ، فمن المحال كل المحال بالنسبة اليه ان ينجح، وذلك لأن الناس قد الفوا فروغ الصبر في الطرق التي يسيرون فيها بحيث يتعذر عليهم ضبط عواطفهم امداً طويلاً . وعلى هذا فهم يقترفون الاخطار في معالجة قضاياهم ، ولا سيا عندما يكونون جد متحمسين ، ويؤدي

هذا إلى قيامهم بأعمال متسرّعة وغير ناضجة اما بدافع عدم الروية أو عن طريق الخطأ ، مما يسوقهم إلى الكارثة .

ومن الامور الجوهرية والحالة هذه، بالنسبة الى اي راغب في اغتصاب السلطان الأرفع في جمهورية من الجمهوريات وفي فرض شكل سيء من أشكال الحكم عليها ، ان يجد فيها جوهراً يكون عامل الزمن قد أفسده وبعث فيه الاضطراب ، وان يكون هذا الوضع قد جاء بصورة متدرجة وجيلاً بعد جيل . ومثل هذا الوضع حتمي كما أسلفنا في الحديث ، إلا إذا تلقت الجمهورية حياة جديدة عن طريق القدوة الصالحة من رجال أخيار او عن طريق تشريع جديد يعيدها إلى سابق عهدها .

ولو ولد مانليوس في مدينة فاسدة ، لكان والحالة هذه رجلاً فذاً، بل ونادر الشبيه . وعلى هذا يتحتّم على المواطنين الذين يقومون بأي مشروع في جمهورية ، سواء أكان هذا المشروع مناصراً للحرية ، او مؤيداً للطغيان، ان يولوا بالغ عنايتهم للمواطنين الذين يقتضيهم مشروعهم التعامل معه، وان يقيموا على أساس ذلك تقديراتهم للمتاعب التي ينطوي عليها مشروعهم ، فمن الصعوبة كل الصعوبة ، بل ومن الخطر كل الخطر ، ان تعمل على استعباد شعب يريد البقاء في ظل الحرية .

ولما كنت قد أشرت ، بأن على الناس في الشؤون الانسانية ، ان يدرسوا طبيعة الاوقات التي يعيشون فيها، وان يعملوا طبقاً لهذه الطبائع ، فأنني سأتحدث باسهاب أطول عن هذا الموضوع في الفصل التالي .

٩

على المرء ان يكيّف نفسه لوقته ، إذا أراد ان يتمتع بحظ سعيد دائم

كثيراً ما اعتقدت ان السبب في سعود المرء ونحوسه مرتبط بما لسلوكه من تواؤم مع الزمن الذي يعيش فيه . وكثيراً ما يرى المرء ان بعض الناس يتسرعون غاية التسرع فيما يفعلونه ، وان بعضهم يتروون غاية التروي في اعمالهم ، ولما كان الفريقان يمضيان إلى حد التطرف سواء في التسرع او في الروية فأنهما يكونان عاجزين عن اداء الامور في وضعها الصحيح،وبالتالي دائبين على ارتكاب الاخطاء . اما الانسان الذي يوفّق بين سلوكه وبين ظروفه ، حتّى ولو كان مدفوعاً كما سبق لي ان قلت الى عمله بطبيعته ، فأنه يكون من الناحية الاخرى اقل ارتكاباً للاخطاء، وأقرب إلى النجاح من غيره .

وكلنا يعرف كيف ان فابيوس مكسيموس(1) سار عندما كان يتولى قيادة الجيش بحذر وانتباه شديدين ، وبحرص يختلف كثيراً عما عرف عن الرومان من طبائع الجرأة والتسرع ، ولكن شاء حسن الطالع ان يتفق هذا المسلك مع الظروف آنذاك . فقد وصل هانيبال إلى ايطاليا ، وهو شاب ازدهاه النجاح،إذ تمكن من هزيمة الرومان مرتين متعاقبتين ،

---

١ فابيوس مكسيموس ويلقب « بالمتأني » ، انتخب قنصلا ورقيباً وديكتاتوراً مرات متوالية في رومة . اجتاح بلاد الليغواريين عندما كان قنصلا عام (٢٣٣) ق. م. أصبح ديكتاتوراً أثناء الحرب مع هانيبال ، فاتبع سياسة دفاعية بطيئة أصبحت تعرف بالسياسة الفابية . وعلى أساسها دعيت الاشتراكية المتأنية« بالفابية » . ولم يرض زملاؤه الشيوخ عن سياسته هذه ولكنهم اضطروا للعودة اليه واليها بعد هزيمة كانيه (٢١٦) . وقد استعاد تورنتوم عام ٢٠٩ .وعارض سياسة شيبيو الاستفزازية . مات عام ٢٠٣ . — المعرب —

وأوقع في نفس هـذه الجمهوريـة الرعب والفزع بعد ان افقدها خيرة جنودها . ولهذا فلم يكن ثمة طالـع احسن من ان تحبى هذه الجمهورية بقائد يتمكن عن طريق ترويه وحذره، من وقف العدو عند حده . ولم يكن ليقدر لفابيوس ان يجد ظروفاً تتفق مع طرائق عمله خيراً من تلك الظروف ، وهذا هو السبب فيما حققه من شهرة .

وكان فابيوس في سلوكه هذا متفقاً مع طبيعته ، لا عاملاً بما يوحي له خياره ، وهي حقيقة تؤكدها معارضة فابيوس الشديدة في تحقيق رغبة شيبيو عندما اراد هذا المضي إلى افريقيا على رأس جيوشه ليضع للحرب نهايتها ، إذ ان فابيوس لم يستطع التحرر من طرقه وعاداته ، ولو ترك تقرير الامر له ، لظل هانيبال في ايطاليا ، وذلك لأنه لم يستطع رؤية ما طرأ على الظروف من تبدل اقتضت تغييراً في طرق الحرب واساليبها. ولو كان فابيوس ملكاً على رومة لخسر هذه الحرب ، والحالة هذه ، وذلك بالنسبة إلى عجزه عن تبديل اساليبه طبقاً لتغيّر الظروف والاوضاع . ولكنه كان يعيش في جمهورية يختلف فيها المواطنون باختلاف أمزجتهم وميولهم ، وهذا أتاح لها ان يظهر فيها فابيوس ، الذي كان خير رجل قادر على مواصلة الحرب عندما فرضت الظروف مواصلتها ، وان يأتي بعده شيبيو في الوقت المناسب للوصول بالحرب إلى نهايتها الظافرة .

وتكون للجمهورية طبقاً لهذا السبب حياة أكثر كمالاً ويكون في امكانها التمتع بالحظ مـدة أطول من الامارة ، ذلك لأن أوضاعها تمكنها من تكييف نفسها تبعاً للظروف المختلفة ، بسبب تنوع المواطنين فيها، وهو ما لا يتاح للامارة . فالرجل الذي الف العمل وفق اسلوب معين ، لا يستطيع تغيير هذا الاسلوب ابداً ، كما سبق لنا القول . وعندما يتبدل الزمن ، ويغـدو غـير موات لاسلوبه ، فأن مصيره المحتوم سائر إلى الدمار .

ولقد سار بييرو سوديريني ، الذي تحدثنا عنه أكثر من مرة ، في

جميع شؤونه طبقاً لاسلوبه الطيب والمتأني . وكان الازدهار حليفه وحليف بلاده ، طالما ان الظروف كانت مواتية لهذا الاسلوب . ولكن عندما حان الوقت الذي تطلب منه التخلي عن اناته وعن تواضعه فيما بعد ، لم يستطع ان يكيف نفسه لهذا الوقت، فكان في ذلك دماره ودمار بلاده . وقد سار البابا يوليوس الثاني(١) طيلة عهده في البابوية على اسلوب التسرع والتهور،ولما كان الوقت الذي وجد فيه ملائماً لهذا الاسلوب ، فقد نجح في مشاريعه كلها ، ولكن لو قدر لأوقات اخرى ان تحل ، وان تتطلب هذه الاوقات اسلوباً آخر في العمل ، لقضي عليه حتماً ، ذلك لأنه كان عاجزاً عن تبديل طرقه وأساليبه في تصريف الامور .

وهناك سببان يحولان بيننا وبين تمكننا من تغيير طرقنا . وأول هذين السببين ان من المستحيل علينا ان نعمل عكس ما توحي به طبائعنا ، وثانيهما اننا اذا تبنينا طريقة من طرائق السلوك وقطعنا فيها شوطاً طيباً، فان من الصعب علينا اقناع أنفسنا بأن في وسعنا النجاح إذا ما اتبعنا طريقة مغايرة لها . وهنا يكون السبب في تبدل حظ الانسان اذ ان الحظ يبدل له الظروف التي تحيط به ولكنه لا يستطيع ان يبدل له طرقه وأساليبه . وينجم انهيار المدن ايضاً ، عن ان الانظمة في الجمهوريات لا تتغير بتغير الأزمنة . وهو ما سبق لنا التحدث عنه بالتفصيل ، وإذا ما وقع تبدل فيها ، فانما يكون بطيئاً للغاية ، وذلك لأن من الصعب تغييرها اذ أن من الضروري الانتظار إلى ان تصبح الجمهورية بأسرها ميالة الى احداث التبدّل . ولضمان هذا الميل ، لا يكفي ان يبدل الفرد من الاسلوب الذي يتبعه .

---

١ يوليوس الثاني – بابا من أصل ايطالي . كان عمه البابا سيكستوس الرابع فعينه قاصداً رسولياً في فرنسا عام ١٤٨٠ حيث حصل على مكانة سياسية بارزة . استعاد عندما ارتقى عرش البابوية رومانا من قيصر بورجيا ، وقضى حياته يعمل في تقوية نفوذ الكنيسة وسلطانها . لعب دوراً بارزاً في الحروب الايطالية التي نشبت في مطلع القرن السادس عشر . رعى الفنون الجميلة .

– المعرب –

ولما كنا قد أشرنا الى فابيوس مكسيموس الذي كبح جماح هانيبال، يبدو لي ان من المنـــاسب ان ابحث في الفصل التالي ، ما اذا كان في وسع العدو ان يحول بـين قائد مصمم على ارغامه على القتال مهما كان الثمن ، وبين تحقيق غايته .

للكتاب الثالث
المطارحات من ١٠ الى ١٥

ملاحظات عامّة ومنوعة

عن سوقيّة الحرب وأساليبها ومكائدها وحيلها الجديدة ونظامها

١٠

لا يستطيع القائد تجنّب الاشتباك إذا كان العدو مصمماً على ارغامه عليه بكل وسيلة

لم يرغب غايوس سالبيكيوس ، الديكتاتور ، عندما كانت الحرب دائرة مع الغالبين في تجربة حظه في اشتباك مع العدو الذي كان الزمن يعمل على تردي وضعه الغريب الشاذ . وعندما تقع خطيئة ، يتعرض لارتكابها جميع الناس او معظمهم ، فليس من الأمور السيئة ان يحذرهم الانسان منها . ولما كانت الطريقة التي تعالج فيها القضايا الهامة اليوم ،

لا تصل إلى مستوى الطريقة التي كان الأقدمون يعالجونها بها ، وهو ما سبق لي قوله اكثر من مرة ، فلا يبدو لي من نافلة القول في هذه الآونة،ان اعود إلى الاشارة اليه . واذا كان هناك من تخل عن المألوف القديم ، فان هذا التخلي يبدو اكثر ما يبدو في القضايا العسكرية، حيث توقف الناس اليوم عن عمل كل ما كان الاقدمون ينظرون اليه بعين التجلة والاحترام . وقد نشأ هذا الوضع السيء عن تسليم الجمهوريات والامارات مقاليدها في مثل هذه القضايا الى آخرين لا شأن لهم بها .

ويحاول الحكام في هذه الجمهوريات والامارات تجنب التدخل في العمليات العسكرية ، وعلى الرغم من ان المرء يعثر احياناً على ملك في هذه الايام ، يتولى قيادة الهجمات التي يشنها بنفسه ، الا انني لا اعتقد ان قيادته هذه ، تؤدي به الى القيام بالكثير مما يستحق الاطراء.والسبب في ذلك ، ان هؤلاء الملوك عندما يشتركون في عمليات عسكرية ، فان حافزهم الى ذلك،التظاهر،لا أي حافز حقيقي آخر جدير بالثناء. ولكن من الحق ان يقال ، انهم في استعراضهم المتكرر لقواتهم وفي الاحتفاظ لأنفسهم بلقب القائد الاعلى ، يرتكبون اخطاء اقل في خطرها من تلك التي ترتكبها الجمهوريات ، ولا سيما الايطالية منها ، لان هذه تعتمد على الآخرين في قيادة جيوشها ، ولا تفهم شيئاً عن الحروب ، ومع ذلك فرغبة منها في ان تبدو بمظهر الحاكم امام جيوشها، تتخذ قرارات ترتكب فيها ما لا عد له ولا حصر من الاخطاء .

وعلى الرغم من انني تناولت بالبحث عدداً من هذه الاخطاء في مكان آخر من هذا الكتاب ، الا انني لا استطيع ان اسكت هنا على خطيئة واحدة اعتبرها في غاية الاهمية . فعندما يدفع امير كسول متبالد أو جمهورية مخنثة ضعيفة ، بأحد القادة العسكريين الى حملة ما ، فانهما يعتقدان بان من اكثر الأمور التي يستطيعان الايعاز له بها حكمة ، هو ان ينصحاه بعدم الاشتباك في معركة مكشوفة مهما كان الثمن،وان يحرص

كل الحرص على البقاء بعيداً عن الاشتباك ، اعتقاداً منهما بأنهما يحذوان بهذه الطريقــة حذو فابيوس مكسيموس ، الذي انقذ رومة من الدمار بتأجيله الاشتباك في معركة مع هانيبال ، ولكنهما يتجاهلان الحقيقة الواقعة وهي ان مثل هذا الايعاز ، مجرد تهريف لا طعم له ولا معنى ، بالاضافة إلى ما ينطوي عليه من خطورة . والنقطة التي يجب ان يضعها المرء نصب عينه هنا ، هي ان القائد الذي يعتزم البقاء في الميدان ، لا يستطيع البقاء بعيداً عن المعركة إذا شاء العدو ارغامه عليها في أي شكل من الاشكال. وهكذا يصبح لهذا الايعاز معنى واحـد ليس الا وهو « خض المعركة وفقاً لمشيئة العدو ، لا طبقاً لمشيئتك انت » . اذ ان الطريقة الوحيدة والامينة للبقاء في الميدان دون اشتباك في المعركة ، هي ان يترك القائد مسافة خمسين ميلاً بينه وبين العدو ، ثم يعهد إلى كشافته بمراقبة العدو ، فاذا رآه متجهاً نحوه ، توافر له الوقت للانسحاب مسافة جديدة . والسبيل الثاني لتجنب الاشتباك ، هو ان يغلق القائد ابواب احدى المدن عليه ، ويحصر نفسه فيهـــا . ولكن كلا السبيلين ضار وكثير الاذى . اذ ان السبيل الأول ، يدع البلاد تحت رحمة العدو ، وليس من شيمة الامير الشجاع ان يتوانى عن تجربة حظه في المعركة بدلاً من اطالة أمد الحرب على هذا النحو الذي يكلف رعاياه ثمناً باهظاً . أما السبيل الثـــاني فهو طريق الخائبين الذين يدافعون عن قضية خاسرة ، اذ لا معنى له سوى تعريض جيشك للحصار عند دخولك المدينة واغلاق ابوابها عليك ، وسوى الاذعان للاستسلام مدفوعاً بآلام المجاعة ، قبل انقضاء وقت طويل . وهكذا فان تجنب خوض المعركة عن طريق احدى هاتين الوسيلتين ، ضار كل الضرر . وتكون الطريقة التي اتبعها فابيوس مكسيموس ، في احتلال مواقع حصينة صالحة ، طالما انك تملك جيشاً باسلاً لا يجرؤ العدو بوجوده على محاولة مداهمتك واخراجك من المراكز ذات الامتياز التي تحتلها . ولا يمكن ان يقال ايضاً ان فابيوس تجنب المعركة ، وانما

يصح ان يقال ، انه آثر خوضها عندما تكون الأفضلية الى جانبه . اذ لو حاول هانيبال ، المضي للاشتباك معه ، لانتظره هذا وخاض معه معركة فاصلة . ولكن هانيبال لم يجرؤ على قتاله على هذه الاسس.ويصح والحالة هذه القول بأن هانيبال قد تجنب المعركة كما تجنبها فابيوس ، ولكن لو قرر ايهما خوضها مهما كان الثمن لتحتم على الآخر اتباع احدى سبل ثلاث فإما تبني احدى الطريقتين اللتين ذكرتهما قبل قليل او اللواذ بأكناف الهزيمة .

وهناك عدة امثلة وحوادث تثبت صحة قولي هـذا ، ولا سيا في الحرب التي دارت بين الرومان وبين فيليب المقدوني(١) والد بيرزيوس. فلقد قرر فيليب عندما هاجمه الرومان ان لا يخوض معركة معهم ، ورغبة منه في تجنبها ، أقدم اولاً على اتباع الطريقة التي سار عليها فابيوس مكسيموس في ايطاليا ، وركز نفسه ورجاله على قمة جبل،اقام عليه عدداً من الحصون،متوهماً ان الرومان لن يجرؤوا على محاولة مداهمته فيها ، ولكنهم هاجموه ، وبعد ان اشتبكوا معه ارغموه على التخلي عن الجبل ، ولما كان عاجزاً عن المقاومة،اركن إلى الفرار مع القسم الأكبر من قواته . وكانت وعورة الارض هي السبب في انقاذه من الدمار الكامل ، إذ حالت بين الرومان وبين مطاردته . ولما كان فيليب لا يزال راغباً في تجنب خوض المعركة مع الرومان ، ولما كان لا يزال معسكراً على مقربة منهم ، فقد اضطر إلى الابتعاد عنهم ، ولما كانت التجربة قد علمته انه لا يكفي لتجنب المعركة اتخاذ موقع منيع على قمة احد الجبال،ولما كان كارهاً لفكرة حصر نفسه في المدن واغلاق ابوابها عليه ، فقد قرر اللجوء إلى الاسلوب الاخير الباقي ، وهو ان يترك

---

١ فيليب ابن ديمتريوس (٢٢٠ – ١٧٨) ق. م. ملك مقدونيا . دارت الحرب بينه وبين رومة على مرحلتين تحالف في اولاها وقد دامت بين ٣١٥ و ٢٠٥ مع هانيبال وغلب على أمره في الثانية التي بدأت عام ٢٠٠ على يدي القنصل الروماني فلامينوس في عام ١٩٧ ق. م.
– المعرب –

مسافة بعيدة بينه وبين معسكر الرومان، وهكذا كان يتراجع عندما يتقدم الرومان إلى إحدى المقاطعات الى مقاطعة اخرى ، فأذا ما خرج الرومان منها ، عاد هو اليها . ولكنه عندما أدرك في النهاية انه باطالته الحرب على هذا النحو ، سبب تردياً في وضعه ، وانه عرّض رعاياه للتنكيل والعذاب حيناً على ايدي قواته ، وحيناً على ايدي اعدائه ، فقد قرر اخيراً تجربة حظه في المعركة ، واشتبك معهم في معركة فاصلة ، وهو امر كان يجدر به ان يفعله منذ امد طويل .

ومن المجدي والحالة هذه ، ان لا يقاتل المرء في ظل الاوضاع التي وجد فابيوس نفسه فيها، ولا في ظل تلك التي رأى غابوس سالبيكيوس جيشه يواجهها ، واولاها ان يكون تحت تصرفه جيش رائع ، بحيث لا يجرؤ العدو على مداهمته ومحاولة اخراجه من المواقع المنيعة التي تمركز فيها ، وثانيتها ، ان يكون العدو في بلاده ، ولكنه مزعزع الاقدام ، بحيث لا يتوافر له الحصول على ضروريات الحياة . ولقد كان السبيل الذي اتخذه في هذه الحالة مجدياً للاسباب التي يعددها ليفي عندما يقول: « لم يكن راغباً في تجربة حظه في اشتباك مع العدو ، طالما ان الزمن والوضع الشاذ الذي كان العدو فيه يجعلان حالته تسوء يوماً بعد يوم ». ولكن مهما كانت الظروف والاوضاع الاخرى، فلا يمكن اجتناب المعركة دون ان يلحق المرء بنفسه العار ويعرضها للخطر ، فأن الفرار كما فعل فيليب لا يقل خزياً عن الهزيمة ، ويزداد هذا الخزي عادة عندما تقيم الدليل على افتقارك الى البسالة . واذا كان فيليب قد نجح في الفرار، فأن شخصاً آخر لا تساعده طبيعة الارض كما ساعدت فيليب ، قد لا يجد نفسه في وضع يصلح للفرار كالوضع الذي كان فيه فيليب .

ولا ينكر أحد على هانيبال تفوقه في فنون الحرب ونبوغه فيها . ولو رأى جدوى من اطالة الحرب عندما واجه شيبيو في افريقيا ، لما تقاعس عن ذلك ، ولعله كان يفعل ما فعله فابيوس في ايطاليا ، بالنظر الى

كونه من القادة البارزين والى وجود جيش طيب تحت امرته . ولكنه لم يفعل ذلك ، ولا بد لنا ان نستنتج بأن اسباباً قوية هي التي ارغمته على الموقف الذي اتخذه . والقائد الذي يسيطر على جيش لجب، والذي يرى انه بسبب الافتقار الى المال او الى الحلفاء لا يستطيع المكوث طويلاً في الميدان ، يكون على درجة كبيرة من الحمق والجنون اذا لم يجرب حظه قبل ان يتحتم عليه تسريح جيشه،اذ ان الانتظار يعني بالنسبة اليه الخسارة المحققة بينما قد تنطوي المحاولة على احتمال النجاح .

واذا كان الفشل متوقعاً ، فأن هناك نقطة هامة يجدر بالانسان الاهتمام بها ، وهي ان عليه محاولة الحصول على الكرامـــة ، وفي الخسارة أمام القوة كرامة لا تضاهيها كرامة يحصل عليها الخاسر امام اي سبيل آخر. ولا ريب في ان مثل هذه الحاجة الماسة قد امحت في ضغطها على هانيبال. ولو تقاعس هانيبال من الناحية الاخرى عن خوض المعركة ، ولم يجد شيبيو لديه الجرأة الكافية للمضي الى مهاجمته في مواقعه الحصينة ، فأن شيبيو يكون في هذه الحالة من اسوأ القادة ، اذ انــه كان حتى تلك اللحظة قد تغلب على صفاقس،واحتل عدداً من المدن في افريقيا ، بحيث اصبح مركزه فيها لا يقل امناً ودعة عن مركزه في ايطاليا . ولم يكن هذا شأن هانيبال عندما كان يحارب فابيوس ، ولا شأن الغاليين عندما كانوا يقاتلون سوليكيوس .

ولا يمكن من الناحية الاخرى لمن يقوم على رأس جيشه بغزو بلاد اجنبية ، ان يتجنب المعركة ، لانه اذا اراد دخول بلاد العـدو ، فمن الجدير به عندما يبدي هذا العدو رغبة في القتال ، ان يقاتله ، اما اذا كان قد اتخذ مواقعه امام احدى المدن،فأن اضطراره الى خوض المعركة يكون اقوى وأشد . وقد وقع هذا في ايامنا بالنسبة الى شارل ، دوق

بورغنديا(١) ، الذي هاجمه السويسريون عندما كان مرابطاً امام «مورات» احدى مدنهم ، وهزموه هزيمة شنيعة ، كما حدث ايضاً بالنسبة الى الجيش الفرنسي ، الذي كان يحاصر نوفارا ، والذي هزمه السويسريون كذلك هزيمة مماثلة .

١١

في استطاعة من تهاجمه جماعة من الاعداء أن ينتصر حتى ولو كان أضعف منهم شريطة ان يحتمل وطأة الهجوم الأول

كانت سلطات حماة الشعب في مدينة رومة بالغة الأهمية ، وكان لهذه السلطات ضرورتها ، اذ لولا وجودها لما تمكنوا من كبح جماح ما للنبلاء من مطامح ، وهو ما سبق لنا ان اشرنا اليه مراراً وتكراراً، ولاستطاع هؤلاء في تلك الحالة افساد الجمهورية منذ امد طويل . ولما كان كل شيء ينطوي فطرةً ، على ما فيه من مرض خاص ، وهو ما سبق لنا قوله في مكان آخر ، ولما كان وجود هذا المرض يؤدي الى ظهور نكبات جديدة ، فأن من الضروري ان نتخذ حيطتنا تجاهها باللجوء الى

١ شارل دوق بورغنديا ويلقب بالجسور (١٤٣٣ – ١٤٧٧)–هو ابن فيليب الدوق الطيب . اشتهر أمره كقائد عسكري بارز . عارض أهداف لويس الحادي عشر ملك فرنسا ، وحاربه انتصر عليه واستخلص منه كثيراً من أملاكه . عاد مرة ثانية فاجتاح معظم أقسام فرنسا حتى وصل إلى روان طمح في اقامة مملكة الوسط في اوروبا ، فأثار ضده عدداً كبيراً من الاعداء بينهم السويسريون . قتل أخيراً في معركة نانسي ، وانقرض بموته فرع الذكور من اسرة بورغنديا . اما ابنته ماري فقد تزوجت الارشيدوق مكسمليان .
– المعرب –

اعمال اخرى . ولما كان حماة الشعب قد غدوا متغطرسين متعجرفين في استخدام سلطانهم ، وغدوا خطراً يهدد النبلاء ، ورومة بأسرها أيضاً ، فقد بات من الحتمي ظهور نوع من المتاعب الضارة بالحرية الرومانية لو لم يبادر آبيوس كلوديوس ، الى اظهار ما يمكن عمله لمواجهة ما يظهر على حماة الشعب من اطماع . وتلخصت طريقته في البحث بين حماة الشعب عن واحد يكون فاسداً او رعديداً،او مغالياً في اخلاصه للمصلحة العامة، على ان يتمكن من اقناعه بمعارضة رغبة الباقين عندما يقترحون اجراء شيء يخالف ارادة مجلس الشيوخ . ولقد كان هذا العلاج الذي ابتكره ترياقاً واقياً الى حد كبير من سلطات حماة الشعب المفرطة ، كما كان كبير النفع والجدوى في اغلب الاحيان لرومة .

ويحملني هذا الرأي على التفكير احياناً بما حدث عندما تهاجم عدة قوى ، وهي متحدة قوة واحدة ، وعلى الرغم من انها في اتحادها ، تتفوق على تلك القوة المفردة تفوقاً بالغاً ؛ الا انه ينتظر من تلك القوة على الرغم من ضعفها بالنسبة الى قوة المجموعة الشيء الكثير . فبالاضافة إلى المزايا العديدة التي تكون للقوة الواحدة ، على مجموعة القوى، وهي أكثر من ان تعد ، هناك مزية واضحة وهي ان باستطاعتها عن طريق بعض المثابرة والاجتهاد ، ان تحطم اتحاد المجموعة ، وان تحيل ما كان جسماً قوياً الى بنيان ضعيف . ولن اعود إلى التاريخ استقرئه ما فيه من شواهد وهي جمة على صحة هذا القول ، اذ سأكتفي بالشواهد العصرية التي وقعت في ايامنا هذه .

فقد تحالفت ايطاليا بأسرها في عام ١٤٨٣ على البنادقة ، وشكلت اتحاداً تعاونياً ، وخسر البنادقة كل شيء ، ولم يعد في وسع جيشهم ان يصمد في ميدان القتال أمام اعدائه ، ولكنهم تمكنوا من غواية لودفيكو دوق ميلان آنذاك ، واستطاعوا بواسطة هذه الحيلة القذرة الحصول على شروط لم تعد لهم املاكهم الضائعة فحسب ، بل اضافت اليها اجزاء

من دولة فيرارا ايضاً . وهكذا فعلى الرغم من انهم خسروا الحرب فقد تمكنوا عند عقد الصلح من تحقيق حالة تتفوق على حالتهم عندما نشبت الحرب .

وتحالف العالم بأسره قبل بضع سنوات حلفاً تعاونياً ضد فرنسا، ولكن اسبانيا تخلت قبل انتهـــاء الحرب عن الحلف ، وعقدت صلحاً منفرداً مع الفرنسيين ، ممـــا اجبر الحلفاء الآخرين على عقد الصلح بعد فترة قصيرة معها .

ونصل من كل ما قلناه الى نتيجة واضحة كل الوضوح وهي انـه إذا ما شنت مجموعة من القوى حرباً على قوة واحدة ، كان في وسع هذه القوة ، ان تنجو من نتائجها، شريطة ان تكون فضيلتها (شجاعتها) من النوع الذي يمكنها من الصمود للهجمة الأولى، وانتظار الفرصة التي تريدها عن طريق التسويف والمماطلة . اذ لو انها لم تستطع ان تفعل ذلك فانها ستتعرض إلى حشد من الاخطار، كما وقع للبندقية في عام ١٥٠٨ عندما كان في استطاعتهـــا ان تداور الجيش الفرنسي وان تجد الوقت الكافي لاجتذاب احدى الدول المتحالفة الى صفهـ ، وان تتجنب الكارثة. ولكن لما كان جيشها أضعف من ان يستطيع مداورة جيوش الاعداء ، ولما كانت قد عجزت تبعاً لذلك عن اقناع احدى الدول المتحالفة ضدها بالتخلي عن الحلف ، فقد غدا مصرها محتوماً . ومع ذلك يستطيع المرء أن يرى ان البابا لو استعاد ممتلكاته المفقودة لاصبح حليفاً لها ، ولحذت اسبانيا حذوه ، وكان كل من هذين الحليفين على استعداد لمعونتها في انقاذ لومبارديا للحيلولة دون اتساع النفوذ الفرنسي في ايطاليا ، لو انيح لها ذلك ، وكان في امكان البنادقة ، لو تخلوا عن جزء من ممتلكاتهم، ان ينقذوا البقية الباقية منها ، ولو اتبعوا خطة كهـــذه لكان ذلك في منتهى الحكمة والتعقل ولا سيما لو تم ذلك قبل ان تنشب الحرب، حتى لا يظهروا بمظهر المرغم على اتباعها . أما بعد ان نشبت الحرب، فقد

اضحت هذه الخطة شيئاً يستحق اللوم ، بالاضافة الى فقدها ما فيها من جدوى ونفع . ولكن عدد المواطنين البنادقة الذين أدركوا الخطر قبل نشوب الحرب ، كان ضئيلاً للغاية ، وكان اضأل منه عدد من أدركوا العلاج ، ناهيك عن عدم وجود من يصدقهم النصيحة والمشورة .

ولنعد الآن إلى النقطة التي بدأنا منها . فالنتيجة التي استخلصها من هذه المطارحة ، هي انه لما كان في وسع مجلس الشيوخ الروماني ايجاد الوسائل لانقاذ البلاد من مطامح حماة الشعب ، عن طريق وفرة عددهم فان في وسع أي أمير تهاجمه مجموعة من الدول ان يجد العلاج في متناول يديه ، إذا كان على شيء من الحكمة ، باتخاذ الخطوات المناسبة لتحطيم الحلف الذي يواجهه .

١٢

القائد الحكيم من يرغم جنوده على القتال بحكم الضرورة ، على ان يجتنب ارغام العدو على مثل هذه الحالة

رأينا في مطارحات سابقة ، الدور النافع الذي تلعبه الضرورة في الشؤون الانسانية ، وما يمكن ان تؤدي اليه من اعمال مجيدة . ولقد اشار الكثيرون من فلاسفة الأخلاق ، في كتاباتهم الى انه لولا الضرورة ، لما تمكنت الاداتان النبيلتان ، اللتان يعود اليهما قبل غيرهما ما يحققه الانسان من نبل في حياته ، وهما يداه ولسانه ، من الوصول أي كمال في عملهما أو من السمو بأعمال الانسان الى الذرى الرفيعة التي يرى المرء انها قد

وصلت اليه ، اذ ان هذه الضرورة هي التي تدفع الى كل هذه النتائج. ولما كان قادة الجيوش في الماضي قد عرفوا ما في الضرورة من فضيلة وعرفوا ما تغدو عليه عقول الجنود من عناد عندما تدفعها الضرورة الى ذلك ، فقد كانوا يبذلون كل جهد ، لوضع جنودهم في هذه الحالة النفسية ، ويبتكرون كل وسيلة لتحرير العدو منها . وكانوا تحقيقاً لهذه الغاية يتركون امام العدو دائماً منفذاً ، كان في وسعهم اغلاقه، ويغلقون امام جنودهم طريقاً كان في وسعهم ان يبقوا عليها مفتوحة . فاذا أراد انسان والحالة هذه تأمين الدفاع العنيد عن اية مدينة ، أو ضمان القتال الحرون من أي جيش ، فان عليه اولاً وقبل كل شيء ، ان يوحي بهذه الضرورة الى عقول اولئك الذين يتحتم عليهم القيام بالقتال .

ويتبع هذا ، ان على القائد الحكيم الذي يدعوه واجبه الى المضي لفرض الحصار على مدينة من المدن، ان يبني تقديراته على سهونة المهمة التي تواجهه في التلال او صعوبتها ، على معرفته ودراساته المتعلقة بالمدى الذي يمكن للضرورة ان تلعبه في الزام المدافعين بالدفاع عنها ، فأذا ما وجد ان هذه الضرورة متناهية في الضخامة والأهمية ، فأن عليه ان يعتبر الحصار الذي يفرضه شاقاً ، والا اعتبره سهلاً وهيناً على التنفيذ . ولهذا السبب وحده تكون المدن الثائرة اكثر استعصاءً على الفتح من المدن التي تهاجم للمرة الاولى ، اذ ان الاخيرة مثلاً لا تتوقع وجود اي مبرر لعقابها ، ولا تعرف اساءة ارتكبتها ، تعرضها لمثل هذه العقوبة ، ولذا فهي تقدم على الاستسلام بسهولة ، أما اذا كانت ثائرة فانها تدرك انها أساءت لمن ثارت عليه ، وهي تخشى تبعاً لذلك من العقاب، ولذا تغدو مستعصية على الفتح . وهناك في العادة مصدر آخر لهذا العناد الذي تثيره الكراهية الطبيعية التي تقوم بين الامراء الجيران ، وبين الجمهوريات المتجاورة ، وتنجم هذه الكراهية بدورها عن الاطماع التي تدفع بالدول إلى محاولة السيطرة على بعضها البعض ، او عن الغيرة التي تتأجج في

صدورها ، ولا سيما اذا كانت من الجمهوريات ، كما حدث بالنسبة الى توسكانيا، التي احال التنافس والتنافر الوضع القائم بين اماراتها الى استحالة قيام احدى دولها بالسيطرة على الدول الاخرى . واذا ما درس الانسان بعناية أوضاع كل من فلورنسة والبندقية واوضاع من يحيط بها من جارات تبين له ، ان ليس من الغريب ما يراه البعض غريباً، من انفاق فلورنسة الكثير من الاموال على حروبها رغم تفاهة ما تملكه من ممتلكات بالنسبة الى ما تملكه البندقية التي لم تنفق جزءاً مما انفقته تلك، اذ ان كل شيء يتوقف على الحقيقة الواقعة وهي ان المدن التي تجاور البندقية لم تكن في يوم ما عنيدة في الدفاع عن نفسها تجاه البندقية ، كما كانت المدن التي تقع في جوار فلورنسة، بالنسبة الى دفاعها عن نفسها تجاه هذه . ويرجع السبب في ذلك الى ان المدن المجاورة للبندقية قد الفت العيش في ظل الامراء ، ولم تكن في يوم ما مدناً حرة ، فهي والحالة هذه قد الفت الخضوع والعبودية وهي لا تكون في العادة كثيرة الاهتمام بأوضاع تبدل سادتها ، بل انها تفرح على النقيض من ذلك كثيراً لهذا التبدل . وهكذا فعلى الرغم من ان جارات البندقية كن اكثر قوة من جارات فلورنسة، الا انه بالنسبة الى قلة ما تظهره من اصرار في الدفاع عن نفسها، تمكنت البندقية من اخضاعها بسرعة تفوق ما تمكنت فيها فلورنسة من إخضاع ما يحيط بها من جارات كلها من المدن الحرة .

ولنعد الآن إلى الموضوع الرئيسي لهذه المطارحة ، فعندما يهاجم قائد مدينة من المدن يجدر به ان يحاول بكل ما لديه من دهاء وذكاء ان يجنب حماتها الشعور بالضرورة التي كنا نتحدث عنها، لان تحريرهم منها، يؤدي الى تحررهم من الاصرار في الدفاع عنها، وذلك بأن يعدهم بالعفو والغفران اذا كانوا يخشون العقاب، اما اذا كانوا يحرصون على حريتهم، فان عليه ان يوضح لهم ان المصلحة العامة لن تتأثر باستسلامهم له، وان كل من سيتأثر ، لن يعدو زمرة من المواطنين الطامحين . ولقد سهلت

هذه الطريقة دائماً الهجوم على المـــدن واحتلالها . وعلى الرغم من ان مثل هذه الحيلة لا يمكن لها ان تنطلي على العقلاء من اهـــل المدينة ، الا ان جمهرة شعبها تخدع بها ، اذ انها في تشوقها للوصول الى سلام عاجل ، تغمض اعينها عن رؤية الحائل الذي يخفي وراء هذه الوعود المعسولة . وكثيرات هي المدن التي تحولت الى دول مستعبدة عن هذه الطريقة . وهذا ما وقع لفلورنسة نفسها مثلاً في الآونة الاخيرة ، كما وقع لكراسوس وجيشه في الماضي ، اذ على الرغم من ادراكه ، لما في وعود البارثيين من فراغ ، ومن معرفته بان القصد منها لا يعدو حرمان جنوده من الضرورة في الدفاع عن أنفسهم ، الا ان ادراكه هـــذا ومعرفته تلك ، لم يمكناه من الصمود امام احد جنوده ، فقد اعمتهم عروض السلام التي اغدقها العدو ، وهي نقطة يستطيـع ان يعرفها كل من قرأ سيرة حياته .

واری جديراً بي ان اذكر في هذا الصدد ، ان السمنيين ، عندما نقضوا معاهدتهم مع رومه ، مدفوعين الى نقضها ، بمـــا حماه البعض منهم من اطماع ، فأغاروا على اراضي حلفاء رومة ونهبوها ، ثم بعثوا بسفرائهم الى رومة ، ينشدون السلام معها ، ويعرضون اعادة ما سلبوه ، وعقاب من كانوا مسؤولين عن الاضطرابات وعن اعمال النهب ، رفض الرومان عروضهم كلها . وعندما عاد سفراؤهم الى « سمنيوم » وقد فقدوا الأمل في الوصول الى اتفاق ، قام كلوديوس بونطيوس ، وكان يتولى قيادة جيوشهم ، فألقى خطبة من خطبه الرائعة ، اشار فيها الى ان الرومان كانوا مصممين على الحرب على كل حـــال ، وانهم أي السمنيين على الرغم من رغبتهم في السلام ، يحسون بالحاجة ترغمهم الآن على المضي الى الحرب . وانتهى من ذلك قائلاً : « ان للحرب ما يبررها ، اذا كانت الضرورة ترغم الانسان على خوضها . والتسلح امر واجب ، اذا كان أمل الانسان متركز في تسلحه » ، وقـــد اقام

كلوديوس امله في انتصار قواته على هذه الضرورة التي احس بها قومه .

ولما كنت لا اعتزم العودة الى هذا الموضوع ثانية ، فانني ارى ان من الافضل ان اذكر الأمثلة المهمة للغاية في تاريخ رومة . فهناك قصة غايوس مانليوس ، الذي قاد جيشه لمحاربة اهل فيي ، وعندما تمكن شطر من جيش العـدو ، من اختراق متاريسه وتحصيناته ، سارع بفصيلة من جيشه للدفاع عنها ، وللحيلولة دون نجاة القوات المعادية التي اخترقت تحصيناته ، ووضع حرساً على جميع مخارج المعسكر ومنافذه . وعندما وجد جيش العدو ، نفسه محاصراً ، حارب بضراوة وتمكن من قتل مانليوس ، وكان على وشك القضاء على الرومان جميعاً ، لو لم يسارع احد حماة الشعب ، بعد ان هداه عقله ، الى السماح لهم بالخروج من الطوق . وهكذا رأينا جيش فيي يقاتل بضراوة منقطعة النظير ، عندما دفعته الحاجة الى مثل هذا القتال ، ولكنه عندما رأى المنفذ مفتوحاً امامه ، اخذ يفكر في الخروج اكثر من تفكيرة في القتال .

وعبرت جيوش « الفولسكي » و « الايغوي » ، حدود الرومان . واوفد القنصلان لحربهم . ووجد جيش الفولسكيين نفسه محصوراً أبان المعركة ، وكان يقوده فيتيوس ميسيوس ، بين المتاريس التي استولى عليها الرومان ، وبين الجيش الروماني الثاني . وعندما رأى فيتيوس ، ان الموت محتوم له اذا لم يشق طريقه بالسيف وينجو بروحه ، خطب في جنوده قائلاً : « اتبعوني ، فليس ثمة من سور او حاجز يقف في طريقنا ، وانما هناك قوات مسلحة ، تواجه قوات مسلحة ايضاً . ونحن في حالة من التكافؤ معهم في البسالة ، ولكننا نتفوق عليهم في موضوع الضرورة الذي هو آخر الاسلحة واحسنها » . وهكذا فان ليفي يطلق على الضرورة اسم « آخر الاسلحة واحسنها » .

وبعد ان تمكن كاميلوس ، وهو من اكثر قـادة الرومان تعقلاً وحكمة ، من الدخول الى مدينة فيي بجيشه ، ورغبة منه في تسهيل

مهمته باحتلال المدينة ، وحرمان العـــدو من الضرورة الاخيرة للدفاع عنها ، اصدر اوامره على مسمع من اهل المدينة ، بان لا يمس اي انسان اذا كان لا يحمل سلاحـــاً . وكانت النتيجة انهم جميعاً قذفوا باسلحتهم ، وتم احتلال المدينة دون سفك دماء . وقد اتبع عدد من القادة العسكريين فيا بعد هذه الطريقة المبتكرة .

١٣

أيهما أكثر جدارة بالثقة
قائد ممتاز مع جيش ضعيف أو جيش ممتاز مع قائد ضعيف؟

عندما ابعد كوريولانوس من رومة ، مضى عن مدينته الى الفولسكي ، حيث حشد جيشاً لجباً اتجه به الى رومة للثأر لنفسه منها ومن مواطنيه ، ولكنه عاد عنها بدافع الوفاء لأمه ، لا لقوات رومة . ويقول ليفي معلقاً على هذا الحادث ، ان في وسعنا ان نعرف منه ، ان جمهورية رومة كانت اكثر ثقة بفضيلة قادتها منها بفضائل جنودها ، اذ على الرغم من ان « الفولسكي » كانوا قد هزموا مرات عـــدة قبل هذه المرة على ايـــدي الرومان ، الا انه كان في وسعهم ان ينتصروا هذه المرة ، لسبب واحد ليس الا ، وهو ان كوريولانوس ، الذي يتولى قيادتهم هو من القادة الرومان . وعلى الرغم من ان ليفي يتقدم بهذه الفكرة ، الا ان فقرات عدة من تاريخه ، تظهر بان الجنود الرومان كثيراً ما أقاموا الدليل الساطع على شجاعتهم . دون وجود قائدهم ؛ وانهم كانوا يظهرون اكثر نظاماً وانضباطاً واقوى عزيمة في حالة مصرع قناصلهم اثناء المعركة مما لو ظلوا أحياء . وقد وقع هـــذا بالنسبة الى

الجيش الروماني الذي كان يقاتل في اسبانيا تحت قيادة الاخوين شيبيو ، اذ عند ما لقي الاخوان القائدان مصرعهما ، ظلت فضيلة (شجاعة) الجيش بارزة ، بحيث لم يتمكن من الدفاع عن نفسه بنجاح فحسب ، بل استطاع التغلب على العدو وانقاذ هـذه المقاطعة ، والاحتفاظ بها للجمهورية . واذا ما درسنا جميع الأمور ، تبين لنا ان ثمة حالات عدة ، تمكنت فيها فضيلة الجنود وحدهم من كسب المعركة الفاصلة ، كما ان ثمة حالات كثيرة اخرى ، احدثت فيهـا فضيلة القادة نفس التأثير ، وعلى هذا الاساس يمكن للمرء ان يقول ، ان كلاً منهما متمم للآخر ، ولا غنى له عنه .

ويجدر بنا ان ندرس اولاً ، أي الأمرين اكثر خطراً ، وادعى الى الخوف ، الجيش الطيب ذو القيادة السيئة ، أو القائد الطيب ذو الجيش السيء . واذا ما صدقنا ما قاله قيصر ، تبين لنا ان كلا الفريقين شيء سيء . فعندما ذهب الى اسبانيا لقتال افرانيوس وبيتريوس ، وكانا يقودان جيشاً من الطراز الاول ، ابدى امتهانه للقائدين عندما قال بانه « ماضٍ لقتال جيش يفتقر الى القائـد » ، مشيراً بذلك الى ضعف القائدين . وعندما مضى من الناحية الأخرى الى تساليا لقتال بومبي ، قال : « انني ماضي لمقاتلة قائد يفتقر الى الجيش » .

ونعود الآن الى سؤال آخر ، هل من الاسهل على القائد الممتاز ان يصنع جيشاً طيباً ، أو ان يصنع الجيش الطيب هذا القائد الممتاز ؟ واعتقد ، ان لا خلاف في موضوع الرد على هذا السؤال ، اذ من السهل على الجماعة ، اذا كانت طيبة ، ان تختار فرداً ، وتصنع منـه رجلاً ممتازاً ، بينما لا تكون هذه السهولة قائمة ، بالنسبة الى الرجل الطيب الذي يريد ان يصنع جماعة طيبة . فعندما اوفد لوكولوس(١) لقتال

---

١ لوكولوس وميثرِ اداتيس – الأول قائد روماني مشهور (١١٠ – ٥٧) من أصـل عامي أصبح قاضياً عام ٧٧ وقنصلا عام ٧٤ . مضى لقتال ميثراداتيس ملك بنطس وهي بلاد في آسيا الصغرى تقع بين ارمينيا والمدن الايونية . حقق انتصارات هائلة على بنطس وعلى ديكران ملك ارمينيا ، ثم عاد إلى رومة بعد أن نحاه مجلس الشيوخ عن القيادة . – المعرب –

ميثراداتيس ، كان يفتقر كل الافتقار الى الخبرة في فنون الحرب ، ولكن الجيش الذي كان يتميز بالروعة ، وبضباطه الممتازين ، سرعان ما خلق منه قائداً ممتازاً . وايضاً عندما كان الرومان مفتقرين الى الرجال ، سلحوا عدداً من عبيدهم ، وعهدوا بهم الى سيمبرونيوس غراشوس لتدريبهم ، وتمكن هذا في وقت قصير ، من ان يجعل منهم جيشاً ممتازاً ، وعندما حرّر بيلوبيداس وايبانينونداس ، كما سبق لي ان ذكرت ، مدينتها طيبه من استعباد الاسبارطيين ، تمكنا في غضون وقت قصير من خلق جيش ممتاز من الفلاحين الطيبين ، تمكنا عن طريقهم لا من الصمود امام متطوعة الاسبارطيين فحسب ، بل ومن هزيمتهم ايضاً .

وهكذا نرى الحجج متعادلة متوازنة ، فعندما يكون احد الفريقين ممتازاً ، يكون في وسعه ان يجعل من الفريق الآخر شيئاً على شاكلته . لكن الجيش الطيب ، علي أي حال ، اذا افتقر الى الرأس الطيب ، يصبح معرضاً للفتن ويغدو شديد الخطر ، كما وقع للجيش المقدوني بعد موت الاسكندر ، وكما وقع لمحترفي الحرب في الحرب الاهلية . وعلى هذا ارى ان في وسع الانسان ان يضع مزيداً من الثقة في القائد الممتاز ، الذي يجد الوقت الكافي لتدريب رجاله . والفرصة اللازمة لتسليحهم من تلك التي يستطيع وضعها في الجيش الذي تسوده الفتن ، والذي يختار قائداً على رأسه شديد الهياج . ويعود الفضل والفخر والحالة هذه الى اولئك القادة ، الذين لا يكتفون بهزيمة العدو ، بل يقبلون قبل الاشتباك معه ، على تدريب قواتهم وتحويلها الى جيش رائع ، فهم في عملهم هذا يبدون فضيلة مزدوجة ، وهو أمر نادر ، اذ ان الاعتراف بها بالنسبة الى الكثيرين من الانضباطيين الصارمين ، يجعلهم أقل استحقاقاً للاجلال والتقدير من حقيقتهم .

١٤

الآثار التي يتركها ظهور الاختراعات الحديثة وسماع الاصوات الغريبة في سير المعركة

تبدو اهمية وقوع حادث لا سابقة له ولا نظير بسبب شيء يسمع أو يرى لأول مرة في معركة او في قتـال ، في الحوادث المتعددة عبر التاريخ ، ولا سيما ما وقع منها اثناء المعارك بين الرومان والفولسكي ، فقد رأى القائد الروماني كونيتيوس ، ان جناحاً من جناحي جيشه ، كان قد بدأ في التراجع ، واخذ القائد يهتف بصوت عال مسموع ، طالبـاً الى رجاله الصمود لأن الجناح الآخر ، كان يسير في طريق النصر ، وتمكن بهذه العبارات التي فـاه بها ، من بعث الشجاعة في نفوس رجاله ، وايقاع الرعب والفزع في صفوف العدو ، مما حقق له الفوز في المعركة الفاصلة . واذا كان لهذه الكلمات مثل هذا التأثير العظيم على جيش حسن التنظيم ، فانها بالنسبة الى جيش آخر ، اسوأ تنظيماً وانضباطاً ، تكون اكثر تأثيراً ، اذ ان في مكنة الرياح وحدها ان تسيطر على مثل هذا الجيش .

واسمحوا لي ان اقدم مثلاً بارزاً ، وقع في ايامنا هذه ، فقد كانت مدينة بيروجيا ، قبل بضع سنوات ، مجزأة بين حزبين قويين حزب « الأودي » وحزب « الباغليوني » . وكان الحزب الثاني متسلماً زمام الحكم ، بينما كان رجال الحزب الأول مبعدين عن المدينة . وتمكن هؤلاء بمعونة اصدقائهم من اعداد جيش حشدوه في احدى مدنهم القريبة من بيروجيا . واستطاعوا بفضل انصارهم من الدخول الى المدينـة ، وكانوا في طريقهم الى احتلال قلبها ، دون ان يتعرضوا لاكتشاف أمرهم . ولمـا كانت قوات « الباغليوني » قد وضعت في كل زاوية

شارع في المدينة سلاسل من الحديد لاغلاق الطريق ، عهدت القوات المهاجمة الى احد رجالها ، بحمل قضيب لفتح الاقفال التي تثبت هذه السلاسل ، حتى يتيسر للفرسان المرور ، ولم يبق أمام هذا الرجل ، إلا تحطيم القفل الاخير الذي يغلق الطريق الى قلب المدينة ، عندما ارتفع الصوت « منادياً الى السلاح يا رجال » ، واحتشد جمع غفير من الناس على الرجل الذي كان يتولى تحطيم الاقفال ، بحيث تعذر عليه ان يرفع ذراعه ليضرب بها ، فصرخ هاتفاً برجاله : « ارجعوا عني » ، أملا في ان يتمكن من تحريك يده . وسرت هذه العبارة كالبرق ، بين رجاله ، منتقلة من صف الى صف ، وشرع الذين في المؤخرة يفرون ، وسرعان ما لحق بهم الآخرون ، وقد سيطر عليهم جنون الخوف ، بحيث ساد الاضطراب صفوفهم . وهكذا حبطت خطة « الأودّي » بسبب هذا الحادث التافه .

وتقودني هذه القصة الي القول ، بان الحاجة ماسة الي الانضباط الصحيح في الجيش ، لا لتمكينه فقط من القتال قتالاً منظماً ، بل لضمان عدم تعرضه للاضطراب في حالة وقوع نكسة صغيرة . وهذا السبب وحده كاف لتبيان عدم صلاح الجماهير للحرب ، لان اقل شائعة أو صوت أو اضطراب ، قد يبدل مزاج هذه الجماهير ويزعجه ، ويحملها على الهزيمة . ومن هنا تنشأ الضرورة الماسة في التنظيم العسكري ، الى قيام القائد الممتاز بايفاد بعض رجاله ، حاملين تعليماته الشفوية ، لنقلها الى الآخرين ، والى قيامه ايضاً بتعويد رجاله على عدم الاكتراث بأية تعليمات سواها ، وبالتدقيق على ضباطه ، بعدم الخروج على ما اصدره اليهم من اوامر ، اذ ان الفشل في اتباع هذه النقاط بعناية ودقة كثيراً ما يؤدي الى اعظم مظاهر الاضطراب .

أما بالنسبة الي المناظر الغريبة ، فان من واجب كل قائد ، ان يحاول عرض شيء منها ، اثناء ، وجود جيشه في ميدان

القتــال ، وذلك للايحاء لرجاله بالشجاعة ، ولبعث الفزع في نفوس العدو ، ولا ريب في ان مثل هذه الحوادث من الامور التي تؤثر كثيراً في تحقيق النصر . وفي وسعنا الاستشهاد بقصة غايوس سالبيكيوس ، الديكتاتور الروماني ، لشرح هذه الناحية ، فقد قام عندما كان مشتبكاً مع الغاليين في معركة ضارية بتسليح عدد من الخــدم ، والحمالين ، وجماعات من مرتزقة المعسكرات . واركبهم البغال والحيوانات الاخرى ، بحيث يبدون في اعلامهم واسلحتهم وكأنهم جماعات من الفرسان ، ثم وضعهم وراياتهم تخفق فوق رؤوسهم وراء احدى التــلال ، واصدر اليهم امره ، بان يظهروا ويخرجوا من وراء التل ليراهم العدو ، في لحظة معينة ، عندما تعطى لهم الاشارة ، وبعد ان يشتد وطيس القتال . وتم تنفيذ الخطة بنجاح مما اوقع الرعب في قلوب الغاليين وادى بهم الى خسارة المعركة . فهناك والحالة هذه امران يستطيع القائد الممتاز القيام بهما ، اولهما ان يرى اذا كان بامكانه عن طريق استخدام مثل هــذه الوسيلة المبتكرة ان يوقع الرعب في قلب العدو ، وثانيهما ان يكون حذراً كل الحذر ، بحيث اذا قام العدو باتباع هــذه الخدعة معه ، استطاع اكتشافها ، واحباط تأثيرها .

وكان هذا ما عمله ملك الهند ، عندما لاحظت الملكة سميراميس (Semiramis) (١) ان الملك يملك عدداً من الفيلة ، وارادت بعث الرهبة في نفسه ، وان تظهر له انها ايضاً تملك مثل هذا العدد منها ، فقامت بصنعها من جلود الابقار والثيران ، ووضعتها على ظهور الجمال التي بعثت بهــا في مقدمة جيشها ، ولكن اكتشاف الملك خدعتها ، احبطها وأحالها الى عملية ضارة بها . وعندما كان الديكتاتور الروماني

---

١ سميراميس وزوجها نينوس . وهما المؤسسان اللذان تحدثت عنهما الاساطير للدولة الآشورية في نينوى. ويقال ان قصص سميراميس مستقاه من الحوادث المتعلقة بعشتروت الهة الحب والخصوبة عند الاراميين . — المعرب —

مامير كوس مشتبكاً في حرب مع اهـل مدينة « فيديني » ، اراد الفيديديون ايقاع الرعب في قلوب الرومان ، فأمروا جماعة من رجالهم ابان حدة المعركة بالاندفاع من المدينة ، يحملون المشاعل على رماحهم ، املاً منهم بأن يؤدي الذهول الذي يصيب الرومان من جراء مـا في الاجراء من جدّة ، الى تحطيم صفوفهم .

ويجب ان نلاحظ هنا ، ان هـذه المبتكرات ، عندما تنطوي على حقيقة تفوق حدود الخرافة ، أو الاسطورة ، فان تأثيرها على الناس يكون متفوقاً ، اذ ان وجود الجوهر الكافي فيها يؤدي الى عدم اكتشاف ضعفها بسرعة . أما عندما تنطوي على عنصر الاسطورة اكثر من عنصر الحقيقة ، فان من الخير اما ان لا تستعمل مطلقاً ، او اذا استعملت ، ان يكون استعمالها في مكان بعيد ، بحيث يصعب اكتشاف الزيف فيها كما فعل غايوس سولبيكيوس مع سائقي بغاله . أما اذا كانت هذه الحيل مترعة بعناصر الضعف الاصيلة فيها ، ووقعت في مكان قريب ، فانها ستكتشف بسرعة ، ويكون ضررها اكثر من نفعها ، كما فعلت الفيلة مع سميراميس والمشاعل مع أهل فيديني ، اذ على الرغم من انها بعثت بعض الاضطراب في صفوف الجيش في البداية الا انه عندما جـاء الديكتاتور ، وبدأ يصرخ برجاله ، داعياً اياهم الى الصمود ، ومحرضاً اياهم على عدم الجبن والهروب من الدخان كالنحل ، وطالباً اليهم ان يعودوا الى القتال بعزيمة صامدة ، قائلاً : « استعملوا النيران المشتعلة في تدمير فيديني ، ما دمتم قد فشلتم في تهدئتهم عن طريق العطف » . فان هذه الحيلة برهنت، على انها لم تكن مجدية لأهل فيديني ،لأنهم كانوا الخاسرين في المعركة .

١٥

يجب أن يكون للجيش قائد واحد لا أكثر ، والقيادة الجماعية مصدر للازعاج

عندما ثار الفيدينيون على رومة ، واعملوا السيف في رقاب اهل المستعمرة التي خلفها الرومان في بلادهم ، اراد هؤلاء الثأر لما لحق بهم من اهانة ، فعينوا اربعة حماة للشعب ، يتمتعون بالصلاحيات القنصلية ، وعهدوا الى احدهم بحماية رومة ، بينما اوفدوا الثلاثة الآخرين على رأس جيوشهم لقتال الفيدينيين والفينتيين . وادت تجزئة القيادة والخصومات القائمة بين حماة الشعب انفسهم ، الى عودتهم الى رومة يجرون اذيال الخيبة والعار ، مع ان جيوشهم لم تصب بأي كارثة . وكان الحماة هم سبب الخيبة ، بينما ترجع النجاة من الكارثة الى شجاعة جنودهم . وعندما ادرك الرومان مصدر الخطأ ، لجأوا الى تعيين ديكتاتور واحد ، وعهدوا الى هذا هذا الشخص الفرد بمسؤولية تقويم الاضطراب الذي نجم عن وجود الثلاثة . وتظهر لنا هذه الحادثة مضرة تعيين عدة اشخاص في قيادة جيش واحد ، او توليهم شؤون الدفاع عن مدينة واحدة . ولا ريب في ان تيتوس ليفي قد احسن التصوير عندما قال : « قدم حماة الشعب الثلاثه صورة صحيحة لتفاهة اشراك عدد من الاشخاص في السلطة التنفيذية لادارة حرب من الحروب ، اذ كان كل منهم ميالاً الى اتباع رأيه الخاص به ، ولما كانت آراؤهم مختلفة ، فقد اتاحوا للعدو فرصته » .

وعلى الرغم من ان هذا المثال يعتبر كافياً لاظهار الفوضى التي تنجم عن القيادة الجماعية في اية حرب من الحروب ، فانني ارى ان آتي بمثلين آخرين احدهما حديث والآخر قديم ، لأقيم الدليل على هذه النقطة

بصورة لا يتطرق اليها الشك .

بعد ان استعاد لويس الثاني عشر ملك فرنسا ، مدينة ميلان عام ١٥٠٠ بعث بقواته الى بيزا ، ليسترجعها لحساب الفلورنسيين . وكان يتولى القيادة فيها المفوّضان جيوفامباتيستا ريدولفي ولوكادي انطونيو ديغلي البيزى . ولما كان اولهما اوسع شهرة واكثر درايـــة بالأمور العسكرية ، فقد ترك له لوكا امر ادارة كل شيء ، وعلى الرغم من انه لم يبد مطامعه الخاصة بمعارضته ، فانه ابداها بصمته ، واهماله ، ونقده كل شيء ، مما ادى الى عدم مساعدته اعمال الحصار ، لا عن طريق العمل ، ولا عن طريق المشورة ، وانما سلك سلوك الرجل الذي لا قيمة له . وعندما حدث ما استدعى عودة جيوفامباتيستا الى فلورنسة فيما بعد ، نجد ان الوضع قد تبدل تماماً ، فقد ظل لوكا في مركز القيادة المفردة ، وهنا اظهر كفايته بما ابداه من شجاعة ومثابرة وتفكير سليم ، وكلها خصال لم تبد واضحة عنده ، عندما كان له شريك في القيادة .

واود ان استشهد بملاحظة جاءت على لسان تيتوس ليفي ، للتأكيد على هذه الحقيقة ، ولهذه الملاحظة علاقة بالحملة التي بعث بها الرومان لمحاربة « الايكوي » ، والتي عهدوا بقيادتها الى كونيتيوس وزميله اغريبا . وكان الاخير ميالاً الى تولي رفيقـــه ادارة العمليات الحربية كلها ، فقال له : « من الخـــير في ادارة شؤون الساعة ، ان يعهد بالقيادة العليا ، الى يدي رجل واحد » .

ويختلف هذا تمام الاختلاف عما تفعله جمهورياتنا واماراتنا اليوم ، اذ انها طمعاً في تحسين شؤون الادارة ، توفد الى المكان الواحد اكثر من مفوض واحد ، واكثر من رئيس ، مما يؤدي الى قيام حالة من الفوضى لا يمكن تصويرها . ولو بحث المرء عن العوامل التي ادت الى الكوارث التي لحقت بالجيوش الايطالية والفرنسية في يومنا هذا لوجد ،

ان هذا العامل هو اقواها جميعاً . وقـــد يكون من المؤكد ، والحالة هذه ، كنتيجة لكل تقدم ، القول بأن من الافضل ان يعهد بالحملة الى رجل وسط في ترويه وحكمته ، من ان يعهد بها الى رجلين يتمتعان بالكفاية البارزة مع اقتسامهما الصلاحيات بينهما .

الكتاب الثالث
المطارحات من ١٦ الى ١٨

المناصب الإدارية

١٦

تكون للفضيلة (الشجاعة) الاصيلة قيمتها في الاوقات الحرجة. أما عندما تسير الأمور سيراً طبيعياً رضياً، فان الناس يتطلعون إلى من كانت الثروة أو الأحساب مصدرشعبيتهم

يشاء طالع عظام الرجال وبارزيهم، ان يكونوا دائماً من المغمورين في أوقات السكينة والسلام، وذلك لأن الشهرة الداوية التي حققوها بفضيلتهم (شجاعتهم)، تثير الغيرة في صدور الكثيرين، وهناك عدد كبير من المواطنين، لا يطمع في أوقات السلام، في ان يكون نداً لهؤلاء العظماء فحسب، بل وفي ان يبزهم ايضاً. وهناك فقرة رائعة في

هذا الصدد وردت على لسان المؤرخ اليوناني ثوسيديدس (Thucydides) (١) الذي يظهر كيف ان الاثينيين ، حققوا الغلبــة لأنفسهم في حروب البلوبونيس ، وكبحوا من جماح ما يشعر بــه الاسبارطيون من كبرياء وغطرسة ، وأخضعوا بقية انحاء اليونان لسيطرتهم ، ثم طمعوا بعد ان نالوا ما نالوه من صيت ذائع في احتلال صقلية ، وأعدوا المخطط اللازم لذلك . وعندمـــا كان أهل اثينا يتباحثون في موضوع الغزو ، حث الكيبيادس وغيره من المواطنين الشعب على وجوب القيام بالحملة ، لأنهم كانوا من طراز الناس الذين لا يأبهون كثيراً بالخير العام ، وانما يتطلعون إلى ما ستضفيه الحملة التي يأملون في قيادتها عليهم من امجاد ومن مراتب الشرف ولكن نيكياس ، الذي كان يتمتع بشهرة تبز شهرة غيره من الاثينيين ، اقنع الشعب بالعدول عن المشروع ، وكان السبب الرئيسي الذي قدمه اليه عندما خطبه ، تدليلاً على صدق نواياه ، انه في نصحه بعدم خوض هذه الحرب انما يعمل ضد مصلحته الخاصة ، اذ طالما كانت اثينا تعيش في ظل السلام ، فان الكثيرين من المواطنين يحاولون ان يبزوه وان يتفوقوا عليـــه ، بينما اذا وقعت الحرب ، فهو يعرف تمام المعرفة ان ليس ثمة من مواطن يأمل في ان يعترف به متفوقاً عليه أو حتى كند له .

وترينا هذه الحادثة والحالة هـــذه ، ما تتعرض له الجمهوريات من اضطراب وفوضى ، وذلك بعدم ايلائهـــا ما يستحقه رجالها العظام من تقدير واجلال في أوقات السلم . ويثير هذا الوضع سخط العظماء لسببين

---

١ ثوسيديدس (٤٦٤ – ٤٠٤) ق. م. مؤرخ يوناني درس الفلسفة على انا كساغوراس والخطابة على انتيفون . وكانت له مناجم ذهب في تراقيا وتولى قيادة اسطول بحري اثيني ولكنه فشل وابعد . قضى عشرين سنة في المنفى وعاد ليغتال فور عودته ، يعرض تاريخه حروب البلوبونيس وان لم يكملها بسبب موته ، إذ ينتهي مجلده الثامن فجأة في عام ٤١١ أي قبل انتهاء الحرب بسبع سنوات . دقيق في تواريخه ومعلوماته . – المعرب –

اثنين ، اولهما انهم يجدون انفسهم وقد حرموا من مراكزهم وثانيهما انهم يرون رجالاً يفتقرون الى الكفاية والمقدرة ، يصبحون اما زملاء لهم أو رؤساء عليهم . وقد أدت هذه الفوضى إلى دمار عدد من الجمهوريات وذلك لأن المواطنين الذين يرون مؤهلاتهم لا تقدر حق قدرها ، والذين يدركون ان السبب في ذلك عائد الى هدوء الاوضاع ، وعدم تعرضها إلى الخطر ، يسارعون إلى خلق المشاكل واثارة الحروب التي تكون في حد ذاتها ضارة بجمهوريتهم .

واذا ما نقّب المرء عن وسائل العلاج ، برزت له وسيلتان بروزاً تلقائياً . واولى هاتين الوسيلتين،الابقاء على المواطنين في حالة من الفقر ، بحيث يؤدي الثراء الذي لا قيمة له الى عجزهم عن افساد انفسهم بله الآخرين. اما الوسيلة الثانية ، فالتأهب دائماً لخوض الحرب في اية لحظة،وفي هذه الحالة يظل الطلب قائماً على المواطنين المشهورين ، كما كانت الحالة في رومة في مستهل ايامها ، اذ لما كانت رومة دائمة الاحتفاظ بجيوشها في الميدان ، فأنها كانت تفسح المجال دائماً لرجالها البواسل . وليس في الامكان ان يؤخذ منصب من رجل يستحقه ليعطى الى آخر لا يستحقه مطلقاً . وعلى الرغم من ان بعض الحالات التي من هذا النوع قد وقعت بالفعل احياناً في رومة ، اما نتيجة الخطأ ، او رغبة في اختبار هؤلاء الناس ، الا ان الفوضى التي كانت تنشأ عنها فوراً ، وما يتبعها من خطر، كانا يحتمان العودة السريعة الى الطريق الصحيح . اما الجمهوريات الاخرى ، التي لم تكن منظمة كتنظيم رومة ، والتي كانت تمضي الى الحرب عندما تدفعها الضرورة اليها دفعاً،فلم يكن في وسعها وقاية أنفسها من مثل هذه المتاعب . وهي معرضة على النقيض من ذلك ، لوقوع هذه الحالات فيها دائماً ، مما يؤدي إلى نشوء الاضطراب فيها ، لا سيما اذا كان المواطن ذو الكفاية الذي تجاهلته جمهوريته ، يتمتع ببعض المركز المرموق في المدينة ، وله عدد من الاعوان والانصار .

ولقد خيل لمدينة روما نفسها، عندما شعرت بمناعتها فترة من الزمن، بعد ان تم لها قهر قرطاجنة وانطيوخوس ، وبعد ان زالت خشيتها من الحرب ، ان في امكانها ان تكل أمر جيوشها الى من تشاء من ابنائها، لا على أساس ما يتمتع به من شجاعة ، وانما على أساس ما يتمتع به من صفات اخرى تحببه الى الشعب . ولقد رأينا الشعب يضن بالقنصلية على باولوس اميليوس(١) أكثر من مرة، ولم يسرع الى اختياره قنصلاً الا عندما وقعت الحرب المقدونية ، وآنذاك انتخب بالاجماع ،لأن الشعب اعتبر ان الوضع قد غدا في منتهى الخطورة .

ولقد خاضت مدينتنا فلورنسة حروباً عدة بعد عام ١٤٩٤ . وكان سلوك المواطنين الفلورنسيين فيها كلها سيئاً ، الى ان وقعت المدينة صدفة على شخص علمها كيف تقاد الجيوش حقاً، وهذا الشخص هو انطونيو جياكوميني ،وقد تخلى جميع المواطنين طيلة الوقت الذي كانت فيه المدينة مشتبكة في حرب خطرة عن مطامحهم ، ولم يكن لانطونيو من منافس في عمليات انتخابه مفوضاً وقائداً للجيش ، ولكنه اهمل اهمالاً كاملاً في الاوقات التي اشتبكت فيها المدينة في حروب لم يكن ثمة مجال للشك في نتيجتها ، وكانت هناك مراتب شرف عدة ومناصب كثيرة تقدم لها عدد كبير من المرشحين لاختيار ثلاثة منهم كمفوضين للحملة ضد بيزا ، وعلى الرغم من استحالة تقدير مدى الضرر الذي لحق بالمصلحة العامة من جراء اغفال انطونيو وعدم تعيينه تقديراً دقيقاً، الا ان من السهل تخمين هذا الضرر على كل حال . اذ عندما أصبح البيزيون مفتقرين الى وسائل الدفاع عن انفسهم ، والى الطعام الذي يحتاجونه ، كان من المحتوم ان يغدوا في وضع يائس ، لو كان انطونيو هو الذي يتولى زمام القيادة اذ

١ باولوس ايميليوس – أصبح قاضياً وقنصلا عام ١٨٢ ق. م. و ١٦٨ ق. م. قاد الحرب في ليغوريا وانتصر انتصاراً باهراً كما حقق النصر لروما على بيزريوس ملك مقدونيا عام ١٦٨ ق. م. مات عام ١٦٠ . – المعرب –

كان في وسعه ان يرغمهم علي الاستسلام الى الفلورنسيين بلا قيد او شرط . ولكن لما كان القادة الذين تولوا أمر الحصار ، من النوع الذي يجهل طريقة تضييقه وتشديده ، او فرض الضغط على المحاصرين ، فقد طال أمده،الى الحد الذي حمل الفلورنسيين على شراء ما كان في وسعهم الحصول عليه بطريق القوة . ولا ريب في ان انطونيو قد شعر بالكثير من الازدراء لهذا الوضع وان شعوره هذا اقتضاه الكثير من الصبر والطيبة حتى لا يلجأ الى الانتقام كما كان في وسعه ان يعمل ، مما يؤدي الى خراب المدينة ، او الى الاضرار ببعض المواطنين المعينين . ومن واجب الجمهوريات ان تكون حذرة كل الحذر من مثل هذه الحالات ، وهذا ما سنبينه في الفصل القادم .

١٧

يجب ان لا يسند منصب اداري ذو أهمية إلى شخص سبق ان أسيء اليه

على الجمهورية ان تحرص كل الحرص في ان لا تسند اي منصب اداري ذي أهمية الى شخص سبق ان وجهت اليه اساءة كبيرة . فلقد مضى كلوديوس نيرو مع جزء من الجيش الذي كان يقوده والذي كان يواجه به هانيبال،لينضم الي جيش القنصل الثاني في ماركا(١) وليشتبكا

١ عندما تستخدم كلمة « ماركا » مع اية مقاطعة في ايطاليا ، فانها تعني « الحدود » وعندما يقال « ماركا » هنا فانها تعني « حدود انكونا » على ساحل الادرياتيك . وتقع هذه في « سيناغاليكا » إلى الشمال من انكونا حيث كان « القنصل الآخر » قد أقام مركزه فيها . — المعرب —

معاً مع جيش هاسدروبال قبل ان يتمكن من الانضمام الى هانيبال . وكان كلوديوس في مناسبة سابقة قد وجد نفسه وجهاً لوجه امام هاسدروبال في اسبانيا ، فوضعه في مركز حرج، تحتم فيه على هاسدروبال ان يختار بين القتال في وضع غير صالح او الموت جوعاً . ولكن هاسدروبال تمكن على اي حال من خداعه خدعة ناجحة اذ أوهمه بعروض الصلح التي تقدم بها له ، ثم تسلل بجيشه حارماً اياه من فرصة قهره والتغلب عليه . وعندما وصل نبأ القصة الى رومة ذاع فيها ، وعرضه الى اشد أشكال الملامة التي وجهها اليه مجلس الشيوخ والعامة على حد سواء ، واخذوا يتحدثون عنه باستخفاف في طول المدينة وعرضها مما عرضه للمهانة، واثار في نفسه السخط . وهكذا عندما اختير فيما بعد قنصلاً ، واوفد لمحاربة هانيبال ، سارع الى اتخاذ السبيل الثاني الذي تحدثت عنه قبل قليل ، وهو سبيل خطر كل الخطورة،أثار في رومة العديد من المخاوف والكثير من القلق الى ان وصلتها انباء هزيمة هاسدروبال بالتفصيل.وعندما سئل فيما بعد عن السبب الذي دفعه الى ركوب هذا المركب الوعر والخطر، الذي لا تحتمه الضرورة القصوى،مما كاد يعرض حرية رومة الى الخطر، أجاب قائلاً بأنه فعل ما فعله ، لأنه اعتقد بأنه اذا تمكن من النجاح، استعاد المجد الذي خسره في اسبانيا ، أما اذا لم ينجح ، وأدى السبيل الذي اتبعه الى الكارثة ، فأنه سيشعر على الأقل بأنه قد ثأر لنفسه من مدينة عامله اهلها مثل تلك المعاملة التي تنطوي على نكران الجميل وعلى عدم التعقل .

واذا كانت مثل هذه المشاعر ، الناجمة عن الاساءات تترك مثل هذا الأثر البالغ على مواطن روماني ، في وقت كانت فيه رومة لا تزال في نجوة من الفساد ، فأن في وسع الانسان ان يتصور ما تتركه الاساءات من أثر بالغ على مواطن ينتمي إلى مدينة اخرى ، لا تشبه في نظامها مدينة رومة . ولما كانت مثل هذه المتاعب والمشاكل ، لا تجد حلاً

شافياً لها ، يمكن للجمهوريات ان تنفذه،فأن النتيجة الطبيعية هي استحالة اقامة جمهورية يمكن لها ان تعمّر طويلاً، طالما ان هناك اكثر من الف وسيلة غير متوقعة يمكن ان تؤدي بها إلى الانهيار .

١٨

لا شيء أجدر بالقائد من التحسّب لخطط العدو

قال ايبا مينونداس الطيبي(١) ذات مرة ، ان لا شيء هناك اكثر ضرورة أو أكبر نفعاً للقائد من اكتشاف ما قرره العدو ، وما خطط للقيام به . ولما كان من الصعب اكتشاف ذلك ، فان من يستطيع التكهن به بصورة صحيحة ، يكون أجدر بالثناء والتقدير . ولا تنحصر الصعوبة في تفهم خطط العدو ، فان من الصعب احياناً ايضاً تفهم اعماله ، ولا تكون هذه الصعوبة ، عندما تكون هذه الاعمال بعيدة فقط،وانما توجد ايضاً عندما تنفذ هذه الاعمال هنا أو في المناطق المجاورة . فقد حدث اكثر من مرة عندما تطول مدة المعركة وتستمر الى الليل ، فان الفائز فيها يعتقد انه هو الخاسر ، بينما يعتقد الخاسر انه هو الفائز فيها . وقد اثمرت هذه الاخطاء قيام الناس باتباع سبل لم تسهم في ايجاد السلامة لأولئك الذين اتبعوها ، وهذا ما وقع لبروتوس وكاسيوس(٢) ، اللذين

١ الطيبي – نسبة إلى مدينة طيبة في بلاد اليونان .

٢ بروتوس وكاسيوس من المتآمرين على قيصر . اولهما بروتوس (٧٩ – ٤٢) ق. م. كان من أقرب الناس لقيصر . وبعد مصرع قيصر استولى بروتوس على مقدونيا وكاسيوس على سوريا وضما قواتهما معاً وحاربا الجيش الذي يقوده مارك انطوني واوكتافيوس وقد هزما في معركة فيليبي عام ٤٢ ق. م. وانتحر بروتوس . أما كاسيوس فقد انضم إلى مارك انطوني الذي هزم امام اوكتافيوس في معركة اكتيوم عام ٣١ ق. م. وقام اوكتافيو س باعدام كاسيوس .

– المعرب –

خسرا الحرب من جراء خطيئة من هذا النوع ، اذ بينما كان بروتوس منتصراً في الجناح الذي يقوده ، خيل لكاسيوس الذي كان جناحه قد خسر ، ان الجيش كله لا بد وان يكون قد انهزم ، وهو خطأ بعث في نفسه اليأس من نجاة الجيش فسارع الى الانتحار .

وفي المعركة التي دارت في ايامنــا نحن بين فرنسيس ملك فرنسا وبين السويسريين في سانتا سيسيليا في لومبارديا ، خيل للشطر الذي ظل متماسكاً من الجيش السويسري ، عندما جن الظلام ، انه هو الذي فاز في المعركة ، اذ لم يكن رجاله يعرفون شيئاً عن الشطر الثاني الذي كانت الهزيمة قد لحقت به،والذي صرع معظم رجاله . وحملهم اعتقادهم هذا على الصمود في الميدان وعدم القيام بمحاولة للنجاة،فاستمروا في اماكنهم حتى الصباح ليخوضوا المعركة من جديد ، ولتكون في غير مصلحتهم . وقد أدت الخطيئة التي وقعوا فيها الى اقتراف جيشي البابا واسبانيا خطيئتين مماثلتين ممــا عرضهما الى خطر الضياع والابادة ، اذ عندما تسلم هذان الجيشان انبــاء النصر الزائف عبرا نهر البو ، ولو اوغلا كثيراً في تقدمهما لكان الفرنسيون قد أخذوا رجالها أسرى .

ووقعت مثل هذه الاخطاء في معسكرات الرومان « والايكوي » . فمثلاً عندما قاد القنصل سيمبرونيوس جيشاً لمواجهــة العدو ، واشتبك معه في معركة ، استمر القتال حتى المساء ، وكان الحظ يتأرجح بــين الجانبين ، وعندما جن الدجى ، كان كل من الجيشين قد فقد نصف رجاله تقريباً ، بحيث لم يعد اي منهما إلى معسكره ، بــل انسحب إلى التلال المجاورة ، حيث خيل اليه انه سيكون اكثر أمنــاً وطمأنينة . وقد انقسم الجيش الروماني إلى شطرين مضى احدهما مع القنصل ومضى الآخر مع قائد مئة (ستوريون) يدعى تيمبانيوس يرجع الفضل الى شجاعته في ان الجيش الروماني لم يهزم هزيمة كلية في تلك المعركة ، وعندما أشرق الصباح ، تراجع القنصل الروماني الذي لم يتلق انباء اخرى عن

العدو باتجاه رومة . وانسحب جيش « الايكوي » بصورة مماثلة ، اذ ان كلاً من الجيشين اعتقد بأن العدو قد كسب المعركة ، ولذا جرى انسحاب الجيشين دون ان يفكر أي منهما بالغنائم التي تركت في المعسكرين. وحدث ان سمع تيمبانيوس ، وكان على وشك التراجع ايضاً بما تبقى من الجيش الروماني، من بعض الجرحى من « الايكوي » بأن قادتهم قد تركوا الميدان وتخلوا عن معسكرهم . وسارع تيمبانيوس فور تلقي هذه الانباء إلى المعسكر الروماني فأنقذه ، ومضى الى معسكر « الايكوي » فنهبه ثم عاد الى رومة ظافراً . وقد توقف هذا النصر ، كما رأينا على مجرد انباء وصلت الى مسامعه اولاً عن الذعر الذي حل بعدوه . ومن الواجب ان يلاحظ المرء ، تبعاً لذلك انه كثيراً ما يحدث ان يلتقي جيشان في معركة ، وان تحل بكليهما الفوضى والاضطراب من جراء القتال ، وان يتعرضا لضغط مماثل تحتمه الضرورة عليهما ، وفي مثل هذه الحالة، يخرج منهما ظافراً ذلك الجيش الذي يسمع اولاً بحراجة مركز خصمه .

وسآتي الآن بمثل آخر يتعلق بنا وقد وقع مؤخراً . ففي عام ١٤٩٨ وكان الفلورنسيون يملكون جيشاً ضخماً يحيط ببيزا ، ويشدد في ضغطه عليها ، فرأى البنادقة الذين كانوا قد تعهدوا بحماية بيزا ، بأن لا سبيل لهم لانقاذ المدينة ، الا بتشتيت جهود الفلورنسيين واشغالهم في منطقة اخرى ، عن طريق ارسال حملة ثانية تهاجم ممتلكات فلورنسة . وتوغل البنادقة بجيش قوي في وادي « لامونا » واحتلوا مدينة «مارّادي» (١) ، وفرضوا الحصار على قلعة كاستيليوني التي تقوم على تل مشرف على المدينة . وعندما سمع الفلورنسيون بذلك ، قرروا ارسال النجدات الى « مارادي » ، دون ان يوهنوا من قواتهم التي تحاصر بيزا . وسرعان ما جندوا قوات مرتزقة جديدة من المشاة ، وسجلوا عدداً جديداً من

---

١ مارادي – بلدة في مقاطعة فلورنسة ، تبعد ثلاثين ميلا إلى الشمال الشرقي من فلورنسة وعدد سكانها ١٢٫٤٠٠ . – المعرب –

الفرسان ، وبعثوا بالجيش الجديد الى المدينة المحتلّة تحت قيادة جاكوبو الرابع دابيانو ، سيد بيومبينو ، والكونت رينوكيو دامارشيانو . وعندما وصل الجيش الفلورنسي الى التل المشرف عـلى مار"ادي ، رفع العدو الحصار عن كاستيليوني ، وانسحب بقواته كلها الى المدينة . وبعد ان ظل الجيشان يواجهان بعضهما عدة ايام ، أخذا يعانيان معاً من الافتقار الى الذخائر وغيرها من الضروريات ، ولم يجرؤ احدهما على مهاجمـة الجيش الآخر ، كما لم يدر بما يعانيه الآخر من متاعب وقرر الجيشان ذات ليلة،وفي وقت واحد ، ان ينقضا معسكريهما في الصباح التالي وان ينسحبا ، فيتّراجع البنادقة الى بيرسيفيلا وفايينزا(١) ،وينسحب الفلورنسيون الى كاساغليا ونهر الموغيلّو . ولما جاء الصباح وشرع كل من الجيشين يرسل متاعه ، حدث ان خرجت امرأة من مدينة مارادي ، واقتربت من معسكر الفلورنسيين ، وكانت قد اطمأنت على سلامتها من التجوال بسبب تقدمها في السن وبسبب ما هي فيه من فاقة وفقر ، وأرادت ان ترى بعض اقاربها في المعسكر . وسمع قادة الجيش الفلورنسي منها ان البنادقة قد نقضوا معسكرهم ، فجاءت هذه الانبـاء تبعث في نفوسهم الشجاعة ، فغيّروا خطتهم وحو"لوها الى الخطة التي كانوا سيتبعونها لو تغلبوا على العدو وأخرجوه من المدينة ثم طاردوا البنادقة ، وبعثوا الى فلورنسة يقولون انهم قد طردوا العدو وكسبوا الحرب . ولا ريب في ان نصرهم يعود الى الحقيقة المجردة وهي انهم كانوا اسبق من اعـدائهم الى معرفة نوايا الفريق الثاني . ولو كانت هذه الانباء قد وصلت إلى المعسكر الآخر اولاً ، لفعلوا برجالنا نفس ما فعله رجالنا بهم .

---

١ فايينزا مدينة ايطالية في مقاطعة رافينا ، وهي على مقربة من بولونا ، وتحيط بها اسوار جميلة ويعدد سكانها (٤٠) الفاً . – المعرب –

الكتاب الثالث
المطارحات من ١٩ الى ٢٣

الأساليب الادارية :
الادعاءات المتنافسة بين الصرامة والزمالة الطيبة

١٩

هل الاشفاق[١] من السيطرة على الجماهير خير من العقاب ؟

على الرغم من التخبط الذي ساد الجمهورية الرومانية بسبب العداء المستحكم بين النبلاء والعامة ، الا انها عندما نشبت الحرب ، عهدت الى

---

١ إن الكلمة اللاتينية « **Obsequinn** » التي يستخدمها تاسيتوس في قصصه وتاريخه مشتقة من الفعل اللاتيني (**Obsequon**)الذي يعني : يكيف نفسه ل ، ويثيب ويسلي ، ويبدي رحمة . ولذا فهيعندما تستعمل مع الحاكم ، تعني الثواب أو الاشفاق ، أما إذا استعملت بشكل مبالغفيهفتعني « النفاق والمداهنة »،والموقف المماثل من المحكومين بالنسبة إلى الحاكم هو موقف الاستكانة والمبالغة فيه الخنوع والخضوع . — المؤلف —

كوينتيوس والى آبيوس كلوديوس بقيادة جيوشها . وكان ابيوس من طراز القادة الصارمين الغلاظ القلوب،ولذا فأن رجاله لم يكونوا يطيعونه طاعة كاملة ، مما ارغمه على مغادرة مقاطعته وكأنه قد هزم في القتال . أما كوينتيوس فكان من النوع الدمث ، ومن أصحاب الميول الانسانية، ولذا فقد كان جنوده يطيعونه ، مما سبب عودته ظافراً منتصراً . وعلى هذا فمن الافضل،عند سيطرتك على أعداد غفيرة من الناس ، ان تكون انساناً على ان تكون متغطرساً متجبراً ، وان تكون رحيماً على ان تكون فظاً غليظ القلب . لكن كورنيليوس تاسيتوس (Tacitus)(١) وغيره من الكتاب الذين يتفقون معه ، يصلون الى نتيجة معاكسة ، اذ يقول تاسيتوس ما نصه : « ان العقاب في حكم الجماهير خير من الاشفاق » .

ورغبة مني في التوفيق بين هذين الرأيين،أود ان اشير الى ان الناس الذين يتحتم عليك حكمهم ، اما ان يكونوا في الظروف العادية رفاقاً لك ، او يكونوا في جميع الظروف من رعاياك . وعندما يكونون من شركائك، فلا يكون في وسعك اثناء تعاملك معهم ان تلجأ الى العقوبات ولا الى تلك الصرامة التي يدعو اليها كورنيليوس . وعلى هذا الاساس، لما كان للعوام في رومة حصة متكافئة في الحكم مع حصة النبلاء ، فأن أياً من الفريقين لا يستطيع إذا ما أصبح الحاكم ، ولو مؤقتاً ان يعامل الفريق الآخر معاملة تنطوي على الوحشية والصرامة . ويرى المرء ايضاً، في حالات كثيرة ان القادة الرومان كانوا يحققون نجاحاً اكبر عندما كانوا يحملون جنودهم على حبهم، ويعاملونهم معاملة تنطوي على التقدير والرعاية ، من الحالات التي يطمع فيها القادة في خوف جنودهم منهم خوفاً شديداً ، الا اذا كان هذا السلوك مصحوباً بالفضيلة البارزة ، كما

---

١ غايوس كورنيليوس تاستيوس (٥٥ – ١٢٠) ميلادية ، مؤرخ بارز روماني ، درس المنطق،وأصبح من أشهر الخطباء ، قربه الامير فسباسيان . تولى مناصب القنصلية وعضوية الشيوخ ووضع عدداً من الكتب بينها كتاب عن تاريخ الامبراطورية الرومانية . – المعرب –

كانت الحالة مع مانليوس توركوانوس . أما ما يفكر به كورنيليوس من الناحية الاخرى ، وهو انك في حكمك لرعاياك، عليك ان لا تكون كثير التساهل معهم ، مخافة ان يتواقحوا عليك ويمتهنوك ، وان تعتمد في التعامل معهم على العقاب أكثر من اعتمادك على الاشفاق . ولكن هذا السلوك يجب ان لا يخرج ايضاً عن نطاق الاعتدال ، تجنباً لما قد يسببه من كراهية ، إذ لا يمكن للحاكم ان يفيد من التصرف تصرفاً ممقوتاً . ويكون هذا التجنب ، في الحرص على عدم مس ممتلكات رعاياه ، إذ لا مصلحة لأي أمير في سفك الدماء الا اذا اتخذ من هذا العمل ذريعة لاخفاء نواياه في السلب والنهب ، او الا اذا كان مرغماً على سفكها ، ولا تنجم مثل هذه الضرورة إلا نادراً . أما بالنسبة الى سفك الدماء بقصد النهب، فإن هذا كثيراً ما يحدث ، لا سيما وان الرغبة فيه والفرصة لتحقيقه تتوافران دائماً ، وهذا ما سبق لنا الحديث عنه بالتفصيل في فصل سابق . وهكذا فأن كوينتيوس اكثر جدارة بالثناء من آبيوس(۱) كما ان نظرية كورنيليوس في ظل الاوضاع التي افترضها لا التي لاحظها بالنسبة الى آبيوس تستحق التقدير .

ولا ارى خروجاً على الموضوع ما دمنا في الحديث عن العقاب والاشفاق، ان اروي حادثة عمل فيها النبل مع « الفاليسكي » ما لم يعمله استعمال السلاح

١ هما قنصلان رومانيان من أصل سابيني ، توليا القنصلية عام ٤٩٥ ، بعد الاضطرابات التي نشبت بين النبلاء والعوام ، وكان كوينتيوس رؤوفاً في معاملته بينما كان آبيوس صارماً شديداً . — المعرب —

٢٠

ترك عمل فرد من أعمال حسن التصرف الشامل اثاراً افضل على الفاليسكي ممـــا تركتـــه جميع قوات رومة العسكرية

عندما كان كاميلوس على رأس جيشه محاصراً لمدينة الفاليسكي،خيل لناظر مدرسة في المدينة ، كان يتولى تعليم أبناء النبلاء ، ان في وسعه نوال الحظوة عند كاميلوس ، وعند الشعب الروماني ، فخـرج بطلابه وكلهم من أبناء النبلاء ، تحت ستار التمرين الرياضي الى خارج المدينة، ومضى بهم الى المكان الذي يعسكر فيه كاميلوس، عارضاً عليه تسليمهم اليه،وذاكراً ان في وسعه استخدامهم كوسيلة لارغام المدينةعلى الاستسلام اليه . ولم يكتف كاميلوس برفض العرض ،بل أمر بتعرية الرجل وربط يديه الى ما وراء ظهره ، ثم أعطى كلاً من الصبيـــة عصاً ، ينهال فيها بالضرب المبرح على المدرّس الخائن ، اثناء عودتهم الى المدينـة . وعندما رأى اهلها هذا العمل سرّهم ما انطوى عليه من نبل ومن حسن تصرف ، ولم يعودوا راغبين في مواصلة الدفاع عن مدينتهم ، وقرروا تسليمها اليه . وتقدم لنا هذه القصة الموثوقة الدليل الرائع على ما يمكن للعمل الانساني والعطوف ، ان يتركه من أثر يفوق على الغالب اي عمل من اعمال الصرامة او العنف ، كما تظهر لنا كيف ان مناطق ومدناً ، لم يكن في وسع الاسلحة او أية عدة من عدد الحرب ، او اي شكل آخر من أشكال القوة البشرية ان تضمن الدخول اليها،قد أمكن الاستيلاء عليها عن طـريق عرض حسن التصرف الشامل والنبل والدماثة والكرم والعفة .

وهناك بالاضافة الى هذا المثل ، أمثلة اخرى وعديدة في التاريـخ .

ففي وسعنا ان نقرأ كيف فشلت القوات الرومانيـة في اخراج بيرّوس (Pyrrhus)(١) من ايطاليا ، التي غادرها على اي حال ، بسبب ما أبداه فابريكيوس من كرم خلق، اذ نقل اليه ما عرضه احد خدمه على الرومـان من استعداده لتسميم سيـــده . ويرى الانسان في هذه القصص التاريخية أيضاً ، كيف ان شيبيو الافريقي لم ينل شهرة كبيرة في اسبانيا نتيجة احتلاله مدينة قرطاجنة الجديدة ، بقدر ما أبداه من عفة ، عندما أعاد الى المدينة زوجة شابة جميلة ، كانت قد اغتصبت من زوجها ، دون ان يعتدي على عفافها او يسمح لأحـد بالاعتداء عليـــه . وكانت الشهرة التي حققها عن طريق هذا العمل سبباً في ان غدت اسبانيا كلها صديقة له .

ويطالعنا التاريخ ايضاً بما تبديه الشعوب من اهتمام بما يفعله عظماؤها من اعمال من هذا النوع ، يقوم الكتاب بتقريظها واطرائها،سواء منهم اولئك الذين ارخوا حياة الامـراء او اولئك الذين وضعوا لهم قواعـــد السلوك التي يسيرون عليها . ويبذل اكزونوفون مثلاً جهوداً مضنية في اظهار ما حققه كورش من انتصارات عظيمة وأمجاد ضخمة وشهرة داوية عن طريق انسانيته ووداعته وتحرره من الكبرياء والقسوة والشهوات العارمة، وغيرها من الرذائل التي تلطخ حياة الناس عادة، ولكن طالما ان هانيبال قد حقق من الناحية الاخرى شهرة داوية وانتصارات عظيمة عن طريق

١ بيروس ملك ابيروس (٣١٨ – ٢٧٢) ق. م. كان قائداً عسكرياً بارزاً. ويدعي الانتماء إلى البطل الاسطوري اخيل . وقـد ساعده بطليموس ملك مصر على الوصول إلى عرشه عام (٢٩٥) . خاض معارك في مقدونيا للاستيلاء على عرشها ، ولكنه لم يحقق أمنيته ، ثم قـام بمغامرة أخرى فقد نزل إلى ايطاليا لمساعدة أهل تورنتوم ضد الرومان في عام ٢٨٠ ، وانتصر في هرقليا على القنصل الروماني ليفينوس انتصاراً ساحقاً . ثم مضى إلى صقلية لمساعدة الاغريق ضـــد قرطاجنة . وعاد إلى ايطاليا عـام ٢٧٤ ، ولكنه كسر في معركة بنيفينتوم على يد القنصل كيوريوس، وانسحب إلى ابيروس حيث تمكن من السيطرة على مقدونيا عام ٢٧٣ ، ولكنه قتل في السنة التالية .
– المعرب –

الاسلوب المعاكس تماماً ، فأني أرى من المناسب ان اعالج في الفصل المقبل ، كيف تم له ذلك .

٢١

كيف تمكن هانيبال ، على الرغم من اختلاف اسلوبه اختلافاً جذرياً عن اسلوب شيبيو من أن يحقق في ايطاليا نفس النتائج التي حققها شيبيو في اسبانيا

يخيل الي ان بعض الناس سيدهشون اذا ما لاحظوا بأن بعض القادة قد حققوا ، على الرغم من تبنيهم سلوكاً مغايراً للسلوك الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق ، نفس النتائج التي حققها ذلك السلوك . ويستطيع المرء ان يقول على ضوء هذا ، ان اسباب النصر لا تقوم على الاسس التي زعمناها ، وانما على النقيض من ذلك لا تؤدي مثل هذه الاساليب الى زيادة في قوتك او ارتفاع في حظك ، طالما يمكن اكتساب المجد والسمعة بأساليب مغايرة تماماً . وأرى ان أتمسك بمثلي الرجلين اللذين ذكرتهما اعلاه ، وان احاول ايضاح ما اعنيه عن طريقهما . فنحن نرى ان شيبيو قد دخل اسبانيا وتمكن بسلوكه الانساني العطوف ، من ان يحوّل البلاد فوراً الى بلد صديق له ، حاظياً باحترام اهلها واعجابهم . ولكننا نرى من الناحية الثانية ، ان هانيبال قد دخل ايطاليا ، وتمكن بأساليب مغايرة تماماً، اي بأساليب تنطوي على القسوة والعنف واغتصاب النساء والنهب والغدر في اشكاله الكثر من تحقيق نفس الاثار التي حققها

شيبيو في اسبانيا ، اذ ان جميع المدن الايطالية قد تحولت اليه ، وغدا اهلها اتباعاً له .

واذا ما تساءل المرء عن كيفية وقوع هذا ، بدت له اسباب عدة . واول هذه الاسباب ولوع الناس بالتجديد ، ويكون أكثرهم تشوقاً اليه الناجحين والأثرياء ، لا الذين يعيشون في حالة تعيسة ، ولقد سبق لنا ان قلنا من قبل ، وكان قولنا صادقاً ، ان النـاس يتغذّون على الرخاء والازدهار ، ويُنبذون في أوقات الشدة . وتفتح هذه الرغبة في التجديد امام كل مجاور يضع نفسه على رأس حركة جديدة ، فاذا كان غريباً تبعه الناس ، وان كان واحداً منهـم التفوا حواليـــه ، ودفعوا به الى الامام ، مما يسفر ، مهما كان الخط الـذي يسير عليه ، عن نجاحه في تحقيق تقدم كبير في منطقته ، يضاف الى هذا ، ان الناس يتأثرون على الغالب بواحد من عاملين ، هما الحب والخوف . ومن هنا يكون كل صاحب سلطة اما من النوع الذي يفرض حبه او النوع الذي يبعث الخوف منه ، ويكون الرجل الذي يبعث الخوف عادة ، ومن الناحيـة الاخرى أكثر اتباعاً واعظم تحقيقاً للطاعة من الرجل الذي يفرض حبه .

ولهذا فلا يهم القائد الطريق التي يسلكها، شريطة ان يكون ذا كفاية وان تكون كفايته من النوع الذي يخلق له المنزلة بين الناس ، اذ عندما تتوافر الكفاية العظيمة كما توافرت بالفعل لكل من هانيبال وشيبيو فأنها توازن جميع الاخطاء التي تنجم اما عن الاغـــراق في فرض الحب او المبالغة في بعث الخوف . فقد تنشأ متاعب خطيرة عن كلا هاتين الطريقتين في السلوك ، وتكون من النوع الذي قـد يؤدي الى سقوط الحاكم ، اذ ان الرجل الذي يفرط كثيراً في رغبته في كسب حب الناس له ، قـد يتعرض لاحتقارهم ، اذا خرج بعض الشيء عن السبيل السوي ، بينما يغدو الآخر الذي يبالغ في توقه الى فرض الخوف منه على الناس ممقوتاً اذا افرط في سلوكه الذي يتبعه . والمحافظـــة على الطريق الوسط شيء

مستحيل،لأن الاعتدال يخالف طبائعنا . وعلى هذا فمن الضروري التعويض على افراط في العمل في احد الاتجاهين بالكفاية النادرة،وهي ما توافرت لكل من هانيبال وشيبيو . ومع ذلك،لما كان كل من الرجلين قد حقق شهرته عن طريق سلوكه هذا ، فأن من الواضح ان سلوكهما،قد سبب لهما معاً الاذى والضرر .

وقد اوضحنا من قبل كيف حقق كل منهما شهرته.اما الضرر الذي لحق بهما فسنوضحه الآن . فلقد ثار الجند على شيبيو في اسبانيا وانضم اليهم بعض حلفائه . وقد نجمت هـذه الثورة عن افتقارهم الى الخوف منه ، فالمعروف عن الناس انهم لا استقرار لهم ولا ثبات ، واذا ما فسح المجال لاطماعهم ، فسرعان ما ينسون الحب الذي استثاره حاكمهم في نفوسهم عن طريق نبله ، وهذا ما وقـع بالفعل بالنسبة الى جنود شيبيو وحلفائه ، واضطر هذا في النتيجة للتخلص من هذه المشقة ، الى اللجوء الى بعض الاجراءات القاسيـة التي كان حريصاً حتى الآن على اجتنابها . أما بالنسبة الى هانيبال ، فليس ثمة من حادث معين يشير الى ما اصابه من ضرر من جراء قسوته او غدره ، ولكن في وسع المرء على اي حال ان يتصور،ان نابولي وغيرها من المدن الكثيرة التي ظلت على ولائها للرومان ، انما فعلت ذلك بدافع الخوف منه . ومن المؤكد أيضاً ان سلوكه المنافي للورع ، قد جعله اكثر مقتاً لدى الشعب الروماني من أي عدو آخر شهدته الجمهورية في تاريخها ، اذ بينما كشف الرومان لبيروس عندما كان على رأس جيوشه في ايطاليا،وهو عدو لهم بالطبع، عن المؤامرات التي دبرت لقتله بالسم لم يغفروا قط لهانيبال ، حتى عندما تم نزع سلاح رجاله،وعندما تفرقوا عنه ، ولم تهدأ ثائرتهم الا بموته ، وبالنظر الى ما اشتهر به هانيبال من افتقار الى الورع ومن نكث للوعود وغدر وقسوة ، فقد نشأت عن ذلك بعض متاعبه ، ولكنـه اشتق من هذه الصفات من الناحية الاخرى عدداً من المنافع التي اجمع الكتاب على

الاعجاب بها . وعلى الرغم من ان جيشه كان يتألف من رجال يمتون الى جنسيات مختلفة ، الا انه لم تدر اية مجادلات او خلافات بينهم او بينه وبينهم . ويمكن للمرء ان يعزو ذلك الى ما كان يوحي به شخصه من فزع وارهاب كبيرين ، اذا جمعا الى الشهرة التي عرف بها من ناحية الكفاية، كانا كافيين للحفاظ على جنوده هادئين وراءه ومتحدين .

وأصل من هذا الى الاستنتاج القائل ، بأن الطريقة التي يسلك فيها القائد ليست بذات اهمية ، شريطة ان تكون كفايته عظيمة ، تغطي على سلوكه مهما كان شكله واتجاهه ، او الطريقة التي يسير فيها . ولقد أوضحنا ان الطريقتين تنطويان على الكثير من العيوب والاخطار الا اذا تم اصلاح هذه العيوب بواسطة الكفاية النادرة . وعلى هذا ، فأذا كان هانيبال وشيبيو قد حققا نفس الأثر ولكن بطريقتين مختلفتين اذ اتبع اولهما الاساليب التي تستحق اللوم والتعنيف ، واتبع ثانيهما الاساليب التي تستحق الاطراء والثناء ، فلن يكون من نافلة القول ، اذا تحدثت عن مواطنين رومانيين حصلا على نفس الامجاد بوسيلتين مختلفتين وان كانتا تتفقان في جدارتهما بالاطراء والثناء .

٢٢

صرامة مانليوس توركواتوس ودماثة فاليريوس كورفينوس تحققان لهما نفس الدرجة من الشهرة

كان يعيش في رومة في وقت واحد اثنان من القادة العسكريين من رجال الدرجة الاولى ، هما مانليوس توركواتوس وفاليريوس

كورفينوس(١) ، وكانا يتكافآن في الفضيلة وفي عدد الانتصارات وفي الشهرة . وكانت الفضيلة (الشجاعة) التي أظهراها في التعامل مع العدو وفي الفتوحات التي قاما بها،متعادلة أيضاً ، ولكنهما كانا يختلفان اختلافاً واضحاً كل الوضوح في طريقة سياستهما لجيشهما ، وتعاملهما مع جنودهما. فقد عرف عن مانليوس انه قائد يستخدم كل أساليب الصرامة،ولم يكن ليترك جنوده في نجوة من المتاعب والعقوبات . اما فاليريوس فقد عرف من الناحية الثانية باحسانه معاملة جنوده وابداء بالغ العناية بهم ، وكان انساناً ودوداً ومحبوباً في مظهره وتصرفاته . وعلى ضوء هذا التباين في الطبيعتين ، يجد المرء احدهما يقتل ولده ، ليضمن طاعة جنوده له،بينما يجد ان الثاني لا يسيء الى اي انسان.ومع ذلك فقد حصدا من اسلوبيهما المختلفين نفس الثمرة في مقارعة العدو وفي كسب المفاخر لنفسيهما ولبلادهما . ولم يحدث ان تقاعس اي جندي من جنودهما عن خوض المعركة ، او عصى لهما امراً ، او تأخر عن تنفيذ رغبة من رغباتهما ، مع العلم ان اوامر مانليوس كانت من النوع القطعي الجازم حتى أصبحت نموذجاً يضرب به المثل ، فيطلق على كل أمر يجاوز حدود الاعتدال اسم « أمر مانلي » . وعلينا ان نتحرى اولاً عن العوامل التي دفعت مانليوس الى السلوك هذا المسلك الصارم ثم نبحث ثانياً في العوامل التي مكنت فاليريوس من السلوك هذا المسلك الذي ينطوي على مثل هذا التروي ، وان ننتقل ثالثاً إلى محاولة معرفة الاسباب التي أدت بهاتين الوسيلتين المختلفتين الى الوصول الى نفس النتيجة ثم نصل أخيراً وليس آخراً ، الى تقرير اي السبيلين أفضل ، وأيهما أجدى في حالة التقليد والاحتذاء .

واذا ما درس الانسان بعناية شخصية مانليوس مذ بدأ تيتوس ليفي في التحدث عنها،يرى ان هذا الرجل كان متناهياً في الشجاعة وفي الاخلاص لابيه ووطنه ،وفي الاجلال لرؤسائه . وتبدو هذه السجايا في قتله للرجل الغالي

---

١ سبق ان تحدثنا عن القائدين الرومانيين في هامش سابق . — المعرب —

وفي دفاعه عن والده ضد حامي الشعب ، وفي قوله الى القنصل قبل ان يمضي الى قتال الغالي : « اذا لم أناق امرأً منك فلن أقاتل أي عدو ، حتى ولو كنت واثقاً من النصر » . فعندما يصل مثل هذا الانسان الى مرتبة القيادة ، يتوقع ان يرى كل انسان آخر يسير على منواله ، وتدفعه الجرأة التي تميزه الى اصدار اوامر ينطوي تنفيذها على الجرأة ، أمـا اوامره ، فهو يتوقع لهـا ان تنفذ تنفيذاً دقيقاً يتفق مع الصيغة التي وضعها فيها . وهناك قاعدة سليمة تقول ، ان الاوامر المعطاة عندما تكون قاسية ، من واجب الانسان ان يكون قاسياً في ضمان تنفيذها ، والا فانه سيجد نفسه في موضع مهين . ومن الواجب ان يلاحظ ايضاً ان المرء اذا اراد ان يطاع ،فمن واجبه ان يحسن اصدار اوامره،ولا يكون الأمر حسناً الا اذا قارن الآمر بين طبيعته وبين طبيعة اولئك الذين يتحتم عليهم ان يطيعوه ، والا اذا اصدر اوامره فقط عندما يرى ان الطبيعتين منسجمتان ، وان يمتنع اذا وجد انهما تتعارضان .

وقديماً قيل ان على المرء اذا اراد الاحتفاظ بدولة عن طريق وسائل العنف ، ان تكون القوة التي يستخدمها ، متناسبة مع المقاومـة التي يلقاها . وما دام هذا التناسب قائماً فان من المنتظر ان يستمر العنف ويدوم ، أما اذا كان موضوع العنف اقوى من فاعله ، فان من المحتمل ان يتوقف في يوم ما .

ولنعد الآن الى مطارحتنا . فأنا ارى انه اذا اراد المرء اصدار اوامر للقيام باعمال جريئة ، فان من واجبه ان يكون مصدرها رجلاً جريئاً ، واذا ما افترضنا ذلك ، وافترضنا انه يملك القوة ، وانه يصدر اوامره ، فانه لا يمكن ان يكون ناعماً في طريق التأكد من تنفيذ اوامره ، اما اذا كان الرجل مفتقراً الى الشخصية القوية ، فان عليه ان لا يصدر مثل هذه الاوامر التي لا تناسبه ، اذا ان الاوامر التي يصدرها ، يجب ان يتوخى فيهـا الانسجام مع مزاجه اللطيف الدمث ، وذلك لأن

العقوبات العادية لا تعزى الى الحاكم وانما الى القوانين والانظمة . وعلينا ان نفترض والحالة هذه ، ان مانليوس كان مرغماً على السلوك هـذا المسلك الصارم ، بالنسبة الى الأوامر الفذّة التي كان يصدرها ، والتي كان يميل اليها بفطرته . واصدار هذه الاوامر كبير النفع للجمهورية ، لأنها تعيد نظامها الى حالته الفطرية الأولية ، ولأنهـا تبعث فضيلتها العريقة ، واذا قـدر للجمهورية ان تكون سعيدة الطالع ، كما هو المألوف ، وكما سبق لنا القول ، في ان تحظى برجال يبعثون الحياة من جديد في قوانينها بالقدوة الصالحة التي يضربونها ، ولا يكتفون بوقف تدهورها نحو الخراب والانهيار بل يعيدونها الى نشاطها السابق وحيويتها الاولى ، فان هذه الجمهورية ستخلد وتعمر مدى الدهر .

ولقد كان مانليوس من هذا الطراز من الناس ، فقد استطاع عن طريق ما في اوامره من صلف وخشونة الحفـاظ على الانضباط العسكري في رومة ، اذ كان مرغماً على ذلك أولاً بدافع طبيعته ومن ثم بدافع رغبته في ان يرى هذه الأوامر التي دفعه ذوقه الطبيعي الى اصدارها ، تنفذ تنفيذاً صحيحاً . أما فاليريوس ، فقد كان في وسعه من الناحية الثانية ان يسير سيراً لطيفاً وادعاً ، اذ كان يكفيه ان يرى الجيش الروماني ينفـذ ما ألفت الجيوش الرومانية تنفيذه في تاريخها . وكانت هـذه العادات بالنظر الى سلامتها كافية للحفاظ على سمعته وشهرته ، ولما كانت مراعاتها ليست بالأمر الشاق أو الصعب ، فلم يكن فاليريوس مضطراً لعقاب المذنبين ، اما لعدم وجود عدد ضخم منهم ، او لانه ان وجد عدد منهم ، فان هذا العدد كان يعزو العقوبة التي يتعرض لها الى الانظمة لا الى طبيعة الحاكم القاسية . وهكذا كان في وسع فاليريوس ان يشبع ميله الطبيعي الى العطف والرأفة على اختلاف اشكالها ، وتمكن بهذه الوسائل من الحصول على مركز بين جنوده ، كما تمكن من الحفاظ على ارتياحهم ورضاهم . ولما كانت الطاعة نفسها

والحالة هذه ، في متناول الرجلين ، فقد تمكنا من تحقيق نفس الاثر ، وان اختلف اسلوبهما في الوصول اليه . وقد يقع الراغبون في احتذاء حذوهما في نفس الشرور التي سبق لي ان ذكرت وقوعها بالنسبة الى هانيبال وشيبيو ، وهي اثارة الازدراء أو الكراهية ، وهي شرور لا يستطيع المرء تجنبها الا اذا كان متمتعاً بشيء من الكفاية يفوق الحد العادي ولا شيء غيره .

ونصل الآن الى درس موضوع أي الطريقتين في السلوك اكثر جدارة بالاطراء والثناء . وهذه قضية معرّضة للجدل والنقاش في رأيي ، لأن بعض المفكرين يطرون هذه بينما يطري الآخرون تلك . لكن الكتاب الذين يشرحون الطريقة التي يجب على الامير السير فيها عند حكمه ، يميلون الى اسلوب فاليريوس اكثر من ميلهم الى اسلوب مانليوس ، ويقدم اكزونوفون ، الذي سبق لي الاستشهاد به عدة مرات ، عدداً من الشواهد التي تشرح ما كان يحمله كورش من تقدير للناس ، ويتفق والحالة هذه مع ما يقوله تيتوس ليفي عن فاليريوس . فلقد كان هذا قنصلاً إبان الحرب مع السمنيين ، وحل اليوم الذي تحتّم عليه فيه ان يخوض المعركة معهم ، فخطب في جنوده ، مستخدماً نفس التقدير في خطابه الذي كان يوليه لهم في تعامله معهم . ويضيف تيتوس ليفي ، بعد ان ينقل نص الخطاب الذي القاه ، العبارات التالية : « ولم يكن ثمة من قائد اكثر شعبية عند جنوده منه ، فلقد كان لا يشعر بأي ملل او ثقل من الاشتراك معهم في اكثر واجباتهم وضاعة . وكان يريد الاشتراك بصورة خاصة معهم في رياضاتهم العسكرية ، التي يتسابق فيها الرجال في الركض أو القوة كانداد ، ولم تكن هذه الروح الوديعة من الزمالة لتتبدل في مظهره ، سواء اكان الفائز في المسابقة أم الخاسر . ولم يبد قط ازدراء لأي رجل يتحداه كند من انداده وكان في اعماله دمثاً كل الدماثة عندما تسمح له الظروف بذلك ، ولم يكن اثناء حديثه

اقل تفكيراً بحرية الآخرين منه بكرامته الشخصية . ولعل اكثر ما اكسبه شعبية لديهم ، هو انـــه كان يعاملهم دائماً بنفس الاساوب الذي سلكه معهم عندما كان مرشحاً للمنصب » .

ويتحدث تيتوس ليفي بنفس الاجلال عن مانليوس ، مشيراً الى ان الصرامة التي ابداها في قتله ولده ، قد جعلت الجيش يطيعه طاعة عمياء عندما غدا قنصلاً ، وكانت هـــذه الطاعة سبباً في ما حققه الشعب الروماني من نصر على اللاتين . ويمضي في اطرائه الى ابعد من ذلك ، وبعد ان يذكر هذا النصر يشرح شرحاً مفصلاً كيف كان يرتب قواته استعداداً للمعركة ، ويشير الى الاخطار التي كان الشعب الروماني يتعرض لها ، والصعوبة التي وجدها في كسب المعركة ، ثم ينتهي الى القول بان شجاعة مانليوس وحدها هي التي حققت للرومان ذلك النصر . ويقارن ايضاً بين قوات الرومان وقوات اللاتين ، ثم يؤكد بأن الفريق الذي قدر له ان يكون مانليوس قنصله هو الفائز ، لوجوده معه دون أي سبب آخر . وهكذا يصعب على ضوء ما قاله المؤرخون ، تفضيل أي من الرجلين أي مانليوس وفاليريوس على الرجل الآخر .

ولما كنت لا ارغب في الابقاء على الموضوع دون قرار ، فانني اقول انه بالنسبة الى مواطن يعيش في ظل قوانين الجمهورية ، ارى من الخير له والاقل خطراً واجدر بالثناء ان يتبع اسلوب مانليوس ، طالما ان هذا الاسلوب في السلوك هو في سبيل المصلحة العامة ، وغير متأثر في اية صورة من الصور بالطموح الشخصي ، اذ من المستحيل على المرء ان يكسب الانصار اذا كان قاسياً في تعامله مع كل انسان : واذا كان مكرساً نفسه كل التكريس للخير العام ، اذ ان هذه الطريقة لا تكسبه انصاراً معينين او اصدقاء ، ومع ذلك فان هذه الطريقة تفضل سواها في الجمهورية من ناحية مزاياها والرغبة فيها ، لأنها لا تتقاعس عن الاهتمام بالصالح العـــام ، ولأنها لا توحي للناس مطلقاً بان السلطان

الشخصي هو الهدف من ورائها في أي شكل من الاشكال . . ويصح العكس تماماً على اسلوب فاليريوس ، اذ على الرغم من انه يؤدي الى نفس النتائج بالنسبة الى المصلحة العامة ، الا انـــه اذا اراد رجل ان يكسب حسن نوايا جنوده وان يحتفظ بقيادته مدة طويلة ، فهناك اسباب خطيرة تدعوه الى الخوف من ان تكون النتيجة مجحفة بحق الحرية (١).

واذا لم توجد مثل هذه الآثار الضارة في القضايا العامة عند الرومان فان السبب في ذلك راجع الى ان عقول الرومان لم تكن قـــد فسدت بعد ، والى ان صاحب المنصب العام لم يكن يحتفظ بمنصبه مدة طويلة دون فترات انقطاع . أما اذا تناول المرء قضية احد الامراء بصورة فردية وهي القضية التي يدرسها اكزونوفون ، فان من واجبنا ان نقف الى جانب اسلوب فاليريوس وان ننبذ اسلوب مانليوس . فمن واجب الأمير ان يحاول الوصول الى طاعة جنوده ورعاياه وحبهم ، وسبيله الى طاعتهم اخلاصه للدستور وما عرف عنه من شجاعة ، بينما يكون سبيله الى حبهم ما يبديه من دماثة ولطف ورحمة ، ومن صفات اخرى اشتهر بها فاليريوس ، كما اشتهر بهـــا كورش ايضاً على حد قول اكزونوفون . ولا ريب في ان ما يلقاه الامير من حب من كل فرد من افراد رعيته ، وما يجـــده عند جيشه من اخلاص ، يتفق كل الاتفاق ، مع المظاهر الأخرى التي تليق بمكانته الاميرية . اما ان يكون الجيش مخلصاً لمواطن عادي ، فلا يتفق مع مركز هذا المواطن ، طالما انه مقيد بالقوانين وطالما انه ملزم باطاعة الحكام .

وتحدثنا قصص تاريخ البندقية القديم ، انه عندما عادت سفن هذه

١ أرى ان مكيافلي يناقض نفسه أحياناً في تفضيله اسلوب مانليوس على اسلوب فاليريوس لا سيما وقـــد توصل في النهاية إلى مقارنتها ببعضهما بالنسبة إلى الأمير والمواطن العادي ، مع انه لا سبيل للمقارنة إذ ان الامير يمثل مصلحته الشخصية ، بينما يمثل المواطن العادي المصلحة العامة .

– المعرب –

الجمهورية الى الميناء ، نشب نزاع بين البحارة وبين الاهلين ، اسفر عن وقوع اضطرابات استخدمت فيها الاسلحة ، ولم يكن في الامكان اخماد هذه الفتنة ، لا بواسطة رجال الشرطة ، ولا عن طريق بعض المواطنين من ذوي المكانة المحترمة ، ولا عن طريق الخوف من القضاة ، ولم تهدأ الحالة الا عندما وصل سيد كان يتولى قيادة البحارة في العام الفائت ، وادى ظهوره الفجائي امامهم ، الى وقفهم القتال ، بسبب ما كانوا يحملونه له من حب . وقد أثار هذا الاذعان الذي بدا من البحارة للرجل مخاوف مجلس الشيوخ وشكوكه ، فعمد البنادقة بعد امد قصير لكي يأمنوا جانبه الى الخلاص منه اما بالسجن أو الموت .

واصل من كل ما قلت الى الاستنتاج بان طريقة فاليريوس مفيدة بالنسبة الى الأمير ومضرة بالنسبة الى المواطن العادي ، ويلحق ضررها به وببلاده ، أما الضرر الذي يلحق بالبلاد فينجم عن ان هذا السلوك يمهد الطريق الى الطغيان ، أما الضرر الشخصي ، فينجم عن ان الشكوك التي يثيرها ، ترغم المدينة على محاولة حماية نفسها منه مما يؤدي الى الايقاع به . واعتقد من الناحية الثانية ان اسلوب مانليوس ضار بالامير ونافع للمواطن العادي ولا سيما بالنسبة الى بلاده . ولا تؤدي هذه الطريقة الى الاضرار بالمواطن العادي نفسه ، الا اذا كانت الكراهية التي يخلقها بصرامته قد تضخمت من جراء المخاوف التي تخلقها الشهرة الداوية التي توصل اليها بشجاعته ، وهو ما حدث في قضية كاميلوس ، كما سنرى في الفصل التالي .

٢٣

الاسباب التي دعت إلى ابعاد كاميلوس من رومة

توصلنا في الفصل السابق الى الاستنتاج بأن كل من يسلك سلوك

فالبريوس ، يسبب الاذى لنفسه ولبلاده ، وان كل من ينحو نحو مانليوس ، ينفع بلاده ، ولا يضر نفسه الا في بعض الاحايين ، ولا ريب في ان قضية كاميلوس ، تقيم الدليل الى حد كبير على صحة هذا الرأي ، اذ كان سلوكه اقرب الى سلوك مانليوس منـــه الى سلوك فالبريوس . ويقول تيتوس ليفي عنه « ان الجنود كانوا يكرهون فضيلته (شجاعته) ويعجبون بها في وقت واحد » .

ولقد اثار حرص الرجل وتعقله وهمته وحفاظه على النظام في ادارته وفي قيادته للجيش هذا الاعجاب العظيم به . ولكن اغراقه في الصرامة عند العقاب بصورة تفوق سخاءه في الثواب ، هي التي دفعت الناس الى كراهيته . ويعزو تيتوس ليفي هذه الكراهية الى الاسباب التالية : اولاً : قام بتخصيص الأموال التي حصل عليها من بيع البضائع التي تم الحصول عليها من الفينيقيين ، للصندوق العام بدلاً من توزيعها مع الغنائم على الشعب . ثانياً ، عندما انتصر ، أمر بان تجر اربعة جيـــاد مطهمة بيضاء ، عربة ظفره ، فعزا الناس عمله هذا الى الكبرياء والى رغبته في التشبه بآلهة الشمس . ثالثاً : اقسم ان يمنح عشر ما يؤخذ من الغنائم من الفينيقيين للاله ابولّو ، ولكي يفي بنذره ، اضطر الى حرمان الجنود من الغنيمة التي كانوا قد وضعوا ايديهم عليها .

ويمكننا ان نرى من هــــذا بوضوح وبسهولة ، نوع الدوافع التي تحمل الشعب على مقت احد حكامه . ولعل اكبر هذه الدوافع واهمها ، حرمانه من شيء ، يقدره كل التقدير . وهذه قضية في منتهى الاهمية ، اذ ان الرجل عندما يحرم من شيء ذي قيمة فطرية عنده ، لا يغفر لمن يحرمه منه اساءته ، ويذكر هذه الاساءة كلما شعر بحاجته الى ذلك الشيء الذي حرم منه ، ولما كانت هذه الحاجة تتكرر كل يوم ، فان هذه الذكرى تتجدد كل يوم ايضاً . أما العامل الثاني ، فهو التكبر والانتفاخ في المظهر ، اذ لا شيء ادعى الى مقت الشعب من هـــذا

المظهر ، ولا سيما عندما يكون من الشعوب الحرة . وحتى لو لم تسبب هذه الكبرياء او ذلك التظاهر للشعب اية مضرة ، فان الكراهية تظل قائمة لمن يبديها . ولذا على الحاكم ان يتجنب هذين الامرين تجنبه للاصطدام بصخرة من الصخور ، اذ ان السعي لاكتساب الكراهية والقذف بها على رأسه دون الحصول على اية منفعة ، يعتبر عملاً طائشاً وفي منتهى الحمق والبعد عن الحكمة والتعقل

الكتاب الثالث
المطارحات من ٢٤ الى ٣٠

الأمن الداخلي

٢٤

اطالة أمد القيادات العسكرية جعل من رومة دولة ذليلة

تظهر الدراسة الدقيقة للاجراءات التي سارت عليها الجمهورية الرومانية، ان هناك سببين اسهما في تفسخ تلك الجمهورية وانحلالها . وكان السبب الاول ، المنازعات التي نشأت حول القانون الزراعي ، أما السبب الثاني فهو اطالة امد القيادات العسكرية ، ولو قدر لرومة ان تدرك نتائجها منذ البداية ، وان تتخذ ازاءهما العلاجات المناسبة ، فأن عمر الحرية كان سيطول في رومة حتماً ، والحياة فيها ستغدو على سبيل الاحتمال اكثر

هدوءاً . وعلى الرغم من عدم وجود وثيقة تثبت نشوب الاضطرابات من جراء اطالة امد القيادات العسكرية،فأن من الواضح ان ضرراً بالغاً في الحقيقة قد أصاب المدينة من جراء السلطة التي حصل عليهــا بعض مواطنيها بهذه الطريقة .

ولو قدر للمواطنين الآخرين الذين مددت فترة حكمهم ،ان يكونوا على درجة من الحكمة والطيبة كتلك التي تميز بها لوشيوس كوينتيوس، فأن مثل هذه المضايقة ما كانت لتنشأ حتماً . فلقـد كانت طيبــة هذا الرجل نموذجية ، اذ عندما اتفق العوام مع مجلس الشيوخ على اطالة مدة حماة الشعب سنة اخرى أملاً في تقوية مقاومتهم لمطامع النبلاء ، اراد مجلس الشيوخ ، مدفوعــاً بالغيرة من العوام ليس الا ، ان لا يتفوق هؤلاء عليه بشيء ، ورغب في اطالة مدة قنصلية لوشيوس كوينتيوس سنة اخرى ، ولكنه رفض هذا العرض ، لأن الأمثلة السيئة عـلى حد تعبيره يجب تجاهلها ، لا دعمها باضافة مثل اكثر سوءاً اليها ، واعرب عن رغبته في ان يختار المجلس قنصلين جديـدين ، ولو قدر لجميـع المواطنين الرومان ان يتحلوا بمثل هذه الطيبة والتعقل ، لما سمحوا مطلقاً بهذه العادة في تمديد الفترات المقررة للمناصب العامة ، ولمــا انتقلوا من هذه المناصب الى تمديد الفترات المقررة للقيادات العسكرية وهو التمديد الذي ادى في الوقت المناسب الى سقوط الجمهورية .

وكان بوبليوس فيلو(١) اول من مددت قيادته العسكريـة ، وكان يتولى محاصرة مدينة باليوبوليس ، عندما انتهت المدة المقررة لقنصليته . ولما كان مجلس الشيوخ قد اعتقد بأنه على وشك تحقيق انتصاره العسكري، لم يرغب في تعيين خلف له، وانما عينه قنصلاً بالوكالة . وهكــذا

---

١ بوبليوس فيلو – قـائد روماني . أصبح قنصلا عام ٣٣٩ ق.م. انتصر على اللاتين و عين ديكتاتوراً ، و أعيد انتخابه قنصلا عام ٣٣٧ وحارب في جنوب ايطاليا ثم مرة ثالثة عام (٣٢٠) وحارب السمنيين . – المعرب –

كان بوبليوس اول روماني يعيّن في هـــذا المنصب . وعلى الرغم من ان مجلس الشيوخ استهدف في عمله هذا المصلحة العامة الا ان هذا العمل هو الذي أدى في النهاية الى تحول رومة الى دولة مستعبده ذليلة . وكلما طالت المسافات التي كان يقطعها الرومان للوصول إلى ميادين القتال مع جيوشهم ، كلما زاد شعورهم بضروره اطالة أمد القيادات العسكرية ، وكلما أطالوها فعلاً . وقد نشأ عن هذا الوضع عيبان اولهما قلة عدد من تتـــاح لهم الخبرة كقادة عسكريين وبالتالي قلة عدد من يحققون شهرة عسكرية وثانيهما ان بقاء القائد مدة طويلة مع جيشه كان يتيح له الفرصة لاكتساب الجيش الى صفه ، وليجعل من رجاله انصاراً له واعواناً ، بحيث لا يمضي وقت حتى يكون قد غدا ينظر إلى مجلس الشيوخ نظرة الامتهان معتبراً قائده وحده هو رئيسه الفعلي . ولا ريب في ان هـــذا الوضع هو الذي سهّل لصولا وماريوس العثور على قوات تؤيدهمـــا في عملها العسكري المناقض للمصلحة العامـــة ، وهو الذي أدى إلى تمكين قيصر ايضا من فرض استعباده على البلاد . ولو لم يطل الرومـــان مدد المناصب والقيادات العسكرية ، لما تمكنوا من الحصول عـــلى مثل هذه القوة الضخمة في ذلك الوقت القصير ،ولو كانوا ابطأ في تحقيق فتوحاتهم العسكرية ، لكانوا ابطأ ايضاً في الوصول إلى العبودية .

٢٥

فقر سنسيناتوس وغيره من المواطنين الرومان

أكدت في فصل سابق ، ان أهم ما يجب على كل دولة ان تضعه

من نظام ، شريطة ان تكون هذه الدولة متمتعة بحريتها ، هو الابقاء على مواطنيها في حالة من الفقر . وعلى الرغم من عدم وجود نظام من هذا النوع في رومة كما يبدو ، بعد ان واجه القانون الزراعي بصورة خاصة تلك المعارضة العنيفة ، الا ان الدلائل متوافرة لدينا على ان حالة من الفقر الشديد كانت تسود رومة طيلة الاربعمائة عام التي انقضت عليها منذ بنائها . ولا يمكن للمرء ان يعتقد بوجود أي نظام يتجه الى احداث مثل هذا التأثير اكثر من معرفته بأن الفقر لا يحول بينه وبين الوصول إلى أي منصب أو أية مرتبة من مراتب الشرف ، وبأن صاحب الشجاعة والفضيلة ، هو محط الانظار مهما كان البيت الذي يقيم فيه . ولا ريب في ان هذا العرف قد جعل الميل إلى الثروات اقل قوة واندفاعاً .

وهذا شيء واضح . فعندما كان مينوكيوس قنصلاً ، وكان الايكوي قد احاطوا بجيشه من جميع اطرافه ، ساد الفزع مدينة رومة خشية على الجيش من ان يضيع ، فلجأت الى تعيين ديكتاتور لها ، وهو الاجراء الأخير الذي كانت تلجأ اليه في اوقات الشدة . واسند المنصب الى لوشيوس كوينتيوس سنسيناتوس ، الذي عثر عليه عندما مضى الرسل لاستدعائه وهو يحرث ارضه بيديه في مزرعته الصغيرة . وقد تضمن قول مأثور لتيتوس ليفي، هذا الحادث اذ جاء في العبارات التالية : « وتسجيل هذا الحادث أمر جدير باهتمام اولئك الذين يمتهنون كل القيم الانسانية عندما يقارنونها بالثراء ، والذين لا يعنون باللجوء الى الشرف والفضيلة الا اذا كانا وسيلتين يستخدمانهما في تحقيق الثروة » . اجل لقد كان سنسيناتوس يعمل في حراثة ارضه التي لا تتجاوز مساحتها اربعة دونمات عندما وصل اليه رسل مجلس الشيوخ الروماني ينقلون اليه نبأ تعيينه ديكتاتوراً لرومة ، وليشرحوا له الموقف الخطر الذي تجد الجمهورية الرومانية نفسها فيه . وطرح الرجل « شملته » الرومانية على كتفه، ومضى إلى رومة حيث حشد لفوره جيشاً مضى به لانقاذ مينوكيوس . وبعد

ان تمكن من قهر العدو ونهبه ، وانقذ مينوكيوس ، لم يبد رغبة في ان يشترك الجيش الذي سمح للعدو بتطويقه في اقتسام الغنائم ، وقال : « انا لا أرى ان تشتركوا في الغنائم التي اخذت من عدو كاد يجعلكم غنيمة له » . وأمر بانتزاع رتبة القنصلية من مينوكيوس ، وعينه سفيراً وقال له : « ستحتفظ بهذه الرتبة الى ان تكون قد تعلّمت كيف تغدو قنصلاً » . واختار ايضاً لوشيوس تاركوينيوس قائداً لفرسانه ، مع ان هذا الرجل كان على درجة كبيرة من الفقر ، بحيث كان يقاتل وهو راجل اذ لا يملك جواداً .

وهكذا كانت رومة تكرم وتجل فقراءها ، كما سبق لنا ان قلنا ، اذ ان رجلاً له مثل حكمة سنسيناتوس وشجاعته كان يظن ان أربعة دونمات من الارض تفي بحاجات الانسان الى موارد العيش . وكانت هذه الحالة من الفقر لا تزال تسود رومة في عهد ماركوس ريغولوس (Marcus Regulus) (١) ، اذ انه عندما كان على رأس جيشه في افريقيا ، بعث إلى مجلس الشيوخ يطلب منه اجازته للسماح له بالعودة الى ايطاليا ، ليعنى بمزرعته التي كان العمال قد أهملوها . ويجدر بنا ان نلاحظ نقطتين هامتين في هذا الحادث ، اولاهما وجود الفقر وقناعة الناس به ، وان المواطنين كانوا ينظرون الى الحرب على انها وسيلة لكسب مراتب الشرف دون أي شيء آخر ، تاركين ما يمكن كسبه من مغانم مادية إلى الخزينة العامة ، اذ لو كان ريغولوس يفكر بالثراء نتيجة الحرب التي يخوضها لما اكترث بمزرعته التي أهملها العمال أما النقطة الثانية التي

---

١ ماركولوس ريغولوس ، مات عام ٢٥٠ ق. م. كان قنصلا رومانياً عام ٢٦٧ . اعيد للقنصلية عام ٢٥٦ مع لوشيوس مانليوس لونغوس ، وقد انتصر القنصلان على قرطاجنة ونزلا في افريقيا على رأس قوة كبيرة ، وقد حقق الأول انتصاراً في البداية ولكنه ما لبث أن أخذ أسيراً. وبعد خمس سنوات اوفده القرطاجيون مع سفرائهم لاقناع رومة بقبول الصلح ، ووعد بالعودة إلى اسره إذا فشل . فلما وصل إلى رومه عمل على اقناع المجلس بعدم قبول الصلح ، ثم عاد فقتله القرطاجيون . — المعرب —

يجب الاهتمام بها ، فهي عظمة هؤلاء الناس ، فهم عندما يتولون قيادة الجيوش ، يقدرون مراكزهم ويمجدونها اكثر من تمجيدهم لأي امير ، ولا يحترمون ملوكاً ولا جمهوريات ، ولا يفزعون من شيء ولا يرهبون امرأً ، ولكنهم عندما يعودون الى الحياة المدنية الخاصة ، كانوا ينقلبون إلى اشخاص مقتصدين ومتواضعين ، وكثيري العناية بممتلكاتهم التافهة الصغيرة ، وطيّعين لحكامهم وقضاتهم ، وموقّرين لرؤسائهم . وعلى ضوء هذا لا يستطيع المرء ان يصدق ان هذه العقول نفسها التي كانت كذلك عند توليها القيادة ، قد مرت بمثل هذا التحول العظيم .

وقد استمر هذا الفقر حتى ايام باولوس اميليوس (Paulus Aemilius) (١) وهي آخر الايام السعيدة التي نعمت فيها هذه الجمهورية ، والتي شهدت المواطنين يأتون عن طريق انتصاراتهم بالثروات والكنوز الى رومة ، مع بقائهم هم فقراء مدقعين . وكان الفقر لا يزال يحتل مكانة رفيعة في ايام باولوس ، حتى انه عندما أراد تكريم صهر له ، كان قد أبلى بلاء حسناً في الحرب ، منحه كأساً فضية كانت اول قطعة من الفضة يملكها في بيته . وفي وسعي التحدث طويلاً عن المزايا التي يتفوق بها الفقر على الثراء ، وعن الطريقة التي يعمل فيها الفقر على اضفاء الشرف على المدن والامارات والمنظمات الدينية ، بينما يؤدي الثراء الى دمار هياكلها. ولكن هذا الموضوع من المواضيع التي سبق للكثيرين ان طرقوها واوفوها حقها من البحث .

١ سبق لنا أن تحدثنا عنه في هامش سابق وقد مات عام ١٦٠ ق. م. ولا ريب في أن مكيافلي يعني أن القادة العسكريين أخذوا بعد هذا التاريخ يميلون إلى أنظمة الطغاة كماريوس وصولا ثم بومبي وقيصر . — المعرب —

٢٦

اثر النساء في إسقاط الدول

وقع اضطراب في مدينة « اردیا » (Ardea)(١) ، بسبب نزاع نشب بين النبلاء والعامة حول قضية زواج . فقد تاقت نفس امرأة ثرية الى الزواج وتنافس على طلب يدها احد العامة واحد النبـلاء ، وكانت فاقدة الأب ، فأراد أوصياؤها لها ان تتزوج من العامي بينما رغبت امها في زواجها من النبيل . وأدى هذا النزاع الى اضطراب شديد، اشرعت فيه الأسلحة ، اذ ايد النبلاء زميلهم ، بينما ناصر العامة رجلهم. وتغلب النبلاء على العامة،فهجر هؤلاء المدينة وبعثوا الى الفولسكي(Volsci)(٢) يطلبون مساعدتهم ، واستنجد النبلاء بروما ، وكان الفولسكي اسرع الى دخول الميدان ، فانضموا الى حزب العوام من « اردیا » وسارعوا الى المدينة يحاصرونها، وجاء الرومان بعد ذلك فحصروا الفولسكي بين اسوار المدينة وبين جيشهم الذي طوقهم ، ولحق بالمحصورين الجوع،فاضطروا الى الاستسلام راغمين ، ودخل الرومان بعد ذلك المدينة ، فقتلوا مسببي الفتنة ، وأعادوا النظام الى المدينة .

وفي هذه القصة عدة نقاط مهمة ، تجـدر بالعناية والدرس . واولى هذه النقاط ، اننا نرى فيها كيف ان النساء يسببن الكثير من المشاكل،

---

١ بلدة ايطالية قديمة تقع على بعد ٢٤ ميلا إلى الجنوب من رومة . وكانت العاصمة التقليديـة لمقاطعة روتولي . و تحتل المدينة الحديثة مكان القلعة القديمة .

٢ شعب ايطالي قديم يقيم في شرق « لاتينوم » ، يشبه الاوسكانيين و الاومبريان ، وكـان « الفولسكي » قـد اشتبكوا في حرب مع الرومان في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد . وكانوا دائماً حلفاء مع الايكوي . وتم اخضاعهم عام ٣٣٨ ، و أصبحوا رعايا رومانيين عام ٣٠٤ ق. م. – المعرب –

وكيف انهن يلحقن الأذى بمن يتولى حكم المدائن ويوقعن فيها العديد من الإحن والمنازعات . ونقرأ في تاريخ تيتوس ليفي ايضاً، كيف ان الفتنة التي نشأت بسبب لوكريشيا قد حرمت الملوك الترقونيين من عرشهم في رومة، وكيف ان مشكلة فيرجينيا قد حرمت مجلس العشرة من سلطانهم. ويعزو ارسطو سقوط الطغاة الى عدة اسباب جوهرية ، يضع في مقدمتها ما يرتكبونه من اساءات بسبب النساء ، سواء من اعتداء على العفاف او اغتصاب، او تحطيم لارتباطات زوجية . وكنا قد بحثنا في هذا الموضوع بالتفصيل عندما عالجنا قضية التآمر والمؤامرات ، واود ان اقول هنا ان على الامراء الذين يحكمون حكماً مطلقاً ، وحكام الجمهوريات ، ان لا يغفلوا الاهتمام بمثل هذه القضايا ، وان عليهم ان يذكروا دائماً ، ما يمكن ان تثيره من متاعب واضطرابات ، وان يتفحصوا هذه القضايا بالعناية قبل فوات الاوان ، بحيث يسهل عليهم علاجها ، ويكون هذا العلاج غير مصحوب بالأذى لدولتهم او جمهوريتهم او بالثورات عليهما كما حدث لأهل « ارديا » الذين سمحوا للنزاع بين المواطنين بالتزايد ، ومكنوه من تفسيخهم الى شيع واحزاب، وهي حالة اضطروا في علاجها لاستعادة وحدتهم الى الاستعانة بالغرباء ، وهي استعانة تعتبر مقدمة ممتازة للاستعباد .

وأرى ان نلتفت الآن الى نقطة مهمة ، وهي البحث في الطرق التي يمكن استخدامها لاعادة الوحدة الى مدينة من المدن ، وهذه هي النقطة التي سأجعلها موضوع مطارحتي المقبلة .

٢٧

كيف تعاد الوحدة إلى مدينة منقسمة على نفسها ، والخطأ في الاعتقاد بأن الحفاظ على المدينة يتطلب الابقاء على تفسّخها

في وسعنا ان نتعلم من المثال الذي ضربه القنصلان الرومانيان عند اصلاحهما ذات البين في مدينة « ارديا » ، وانهاء الخلافات بين اهلها، طريقة التعامل مع مدينة مفسّخة . والطريقة الوحيدة لعلاج حالتها ، هي قتل المسؤولين عن الفتن التي وقعت فيها . وهناك ثلاث طرق ليس الا لمعالجة قضية هؤلاء المسؤولين ، اما قتلهم ، كما فعل القنصلان ، او طردهم من المدينة ، او ارغامهم على التفاهم والصلح مع بعضهم البعض والتعهد بعدم العودة الى القتال . ولعل الطريقة الاخيرة هي أكثر الطرق الثلاث ضرراً وأقلها أمناً واكثرها عدم جدوى . فحيثما يقع كثير من سفك الدماء او تقع اضطرابات مماثلة ، يغدو من المحال ، دوام صلح بالاكراه ، لأن الناس يرون بعضهم البعض في كل يوم ، ومن الصعب كل الصعوبة الحيلولة بينهم وبين مهاجمة بعضهم بعضاً ، لا سيما وان اتصالاتهم اليومية تتيح فرصاً جديدة ومؤكدة للخصومة .

وليس ثمة من مثال أفضل للتدليل على صحة هذا الرأي من الاستشهاد بما وقع في مدينة بيستويا (Pistoia) (١) . فلقد كانت هذه المدينة قبل خمسة عشر عاماً ، ولا تزال حتى يومنا هذا مجزّأة بين حزبين هما

---

١ بيستويا ، و تسمى أيضاً بيستولا ، وكان اسمها القديم بيستوريا . وتقع على بعد عشرين ميلا إلى الشمال الغربي من فلورنسة ، وتضم عدداً كبيراً من المتاحف والمكاتب العامة . وقد عانت من الخلافات الداخلية بين حزبين هما البانسياتيشي والكانسليبري . عدد سكانها الآن (٧٤) الفاً .
— المعرب —

« البانسياتيشي » و « الكانسليري » ، ولكن الخطورة في الموضوع ان رجال هذين الحزبين كانوا في ذلك العهد مدججين بالسلاح ، بينما تخلوا الآن عن هذه العادة ، ونشبت بين الفريقين خصومات حادة أدت إلى سفك الدماء وتدمير المنازل ، ونهب الممتلكات ، وغيرها من الاعمال العدائيــة الأخرى . وكان الفلورنسيون الذين تنحصر مهمتهم في تهدئة النزاع ، يلجأون دائماً الى الطريقة الثالثة ، ولكن هذه الطريقة كانت تؤدي دائماً الى المزيد من الاضطرابات والفضائح الاكثر سوءاً وأفجع اثراً . وسئم الفلورنسيون من ذلك الاساوب ، فلجأوا الى الطريقة الثانية التي تقضي بابعاد زعماء الحزبين ، فزجوا ببعضهم في السجون، وابعدوا البعض الآخر إلى اماكن متعددة ، املاً في ان يسود الوفاق وان يدوم كما دام فعلاً حتى اليوم .

ولا ريب في ان الفلورنسيين لو لجأوا الى الطريقة الأولى ، لكانت نتيجتها أضمن وأسلم عاقبة . لكن الاعدام على هذا النحو ، ينطوي على اعمال عظيمة وجليلة ، وهي ما تعجز عنها الجمهوريات الضعيفة . ومثل هذه الاعمال غريبة على طبيعتها ، بحيث لا تستطيع حتى تنفيذ الطريقــة الثانية الا بمشقة كبيرة .

ولا ريب في أن هذه من بعض الاخطاء التي سبق لي ان قلت ان حكام اليوم يقترفونهـا ، عندما يعالجون القضايا المهمـة ، اذ عليهم ان يكونوا متأهبين لسماع ما كان يفعله الاقدمون عندما كانوا يواجهون حالات مماثلة ، بينما نجدهم اليوم على نحو من الضعف بسبب النقص في تعليمهم، وبسبب افتقارهم إلى معرفة الأمور عــلى حقيقتها ، بحيث ينظرون الى الاحكام التي كان يصدرها اجدادهم،وكأنها لا إنسانية في بعض الحالات، ومستحيلة في البعض الآخر . ولكن الآراء العصرية التي يحملونهــا غير معقولة ابداً ، ومنها الرأي الذي كان يدعو اليه بعض العقلاء في مدينتنا قبل أمد قصير ، والذي يقول بان من الواجب الحفاظ على « بيستويا »

بالابقاء على احزابها المختلفة ، وعلى « بيزا » ببناء القلاع فيها . ولا ريب في ان هؤلاء العقلاء لا يستطيعون ان يروا ما في هذه الوسائل من عدم نفع وافتقار الى الجدوى .

ولن أقول شيئاً الآن عن موضوع القلاع ، فقد سبق لي ان تحدثت عنها بالتفصيل . ولكن ما او ... ثه هو اظهار اللاجدوية في محاولة الحفاظ على المدن التي تحكمها عن طريق تفسخها . وسواء اكان الحاكم اميراً ، أو ممثلاً لجمهورية ، فانه لا يستطيع البقاء صديقاً للحزبين المتخاصمين في المدينة . فمن الطبيعي ، بل ومن الحتمي ان يتحزّب الناس في أي نزاع وان يكونوا أميل الى احد الجانبين المتنازعين . واذا ما نقم احد الحزبين على الحاكم وقوفه الى جانب الحزب الآخر،فانه سيؤدي به الى خسارتها في حالة وقوع حرب ، اذ لا يمكن الاحتفاظ بمدينـــة لها اعداؤها في الداخل ايضاً . واذا كان الحاكم للمدينة المفسّخة ممثلاً لجمهورية ، فليس ثمة من طريقة اكثر تأكيداً في تحويل مواطني الجمهورية نفسها الى رعايا سيئين وفي استثارة الانقسامـــات في الجمهورية نفسها ، من حكم تلك المدينة المجزّأة ، وذلك لأن كل حزب فيها سيحاول اكتساب الانصار بين أهل المدينة الحاكمة،وسيلجأ الى الوسائل الفاسدة لتحقيق هذه الغاية. وتنشأ عن ذلك مزعجتان خطيرتان للغاية ، اولاهما ان الحاكم لا يستطيع اقامة علاقات الصداقـــة بينه وبين اهلها ، وذلك لعجزه عن حكمهم حكماً طيباً مدة طويلة ، بسبب ما يطرأ على الحكومة من تبدل دائم ، يرافق التغيّر في مزاج الحاكمين ، وثانيتهما ان تشجيع الاحزاب المتنافسة في المدينة المحكومة يخلق بحكم الضرورة تجزئة في الجمهورية الحاكمة نفسها. ويقيم بيوندي (Biondi)(١) الدليل على صحة هذا القول ، عندمـــا

---

١ جيوفاني فر نسيسكو بيوندي (١٥٧٢ – ١٦٤٤) كاتب ايطالي ، ولد في جزيرة على الساحل الدلماتي . تقرب من جيمس الأول ملك انكلترة وعاش في بلاطه . وضع تاريخاً عن حروب الوردتين بالايطالية . ومات في مدينة برن في سويسرا . – المعرب –

يتحدث عن الفلورنسيين والبيستويين قائلاً : « ادت المحاولات التي قام بها الفلورنسيون لاعادة الوحدة الى بيستويا ، الى انقسام الفلورنسيين انفسهم » . وهكذا فمن السهل علينا ان نقدر الشرور التي تنشأ عن مدينة منقسمة على نفسها .

وفي عام ١٥٠٢ ، عندما خسر الفلورنسيون مدينة اريزو ، وجميع وادي التيبر ووادي شيانا اللذين احتلها رجال اسرة الفيتيلي (Vitelli) والدوق فالنتينو ، بعث ملك فرنسا بأحد قواده ويدعى المسيو دي لانج ليستعيد للفلورنسيين جميع ما فقدوه . ولما كان هذا قد وجد في كل مدينة زارها رجالاً قالوا انهم ينتمون الى حزب « مارزوكو » ، فقد اوقع اللوم في كل ما حدث على هذه الانقسامات . وقال لانج ، لو ان رجلاً في فرنسا ادعى انه يمت الى حزب الملك ، لعوقب هذا الرجل على ادعائه ، اذ ان مثل هذا القول يعني ان ثمة اناساً في فرنسا يعادون الملك ، بينما تقضي ارادة الملك بأن تؤيده جميع المدن ، وان تكون متحدة لا منقسمة الى احزاب وشيع .

وتعود مثل هذه الاساليب من السلوك وهذه الآراء المتشعبة الى ضعف السادة الحاكمين ، فأن عجزهم عن الاحتفاظ بممتلكاتهم عن طريق القوة والفضيلة ، يقودهم الى مثل هذه الوسائل ، التي قد تكون نافعة احياناً في الاوقات الهادئة ، ولكنها لا تلبث ان تظهر مدى خطأها ، عندما تظهر الازمات وتضطرب الاوقات .

٢٨

من الواجب مراقبة اعمال المواطنين مراقبة دقيقة
إذ تحت ستار العمل الطيب قد تظهر مبادئ الطغيان

عندما كانت مدينة رومة تعاني من المجاعة ، وكانت مواردها العامة قد قاربت نهايتها ، فكر رجل من اثرياء المدينة آنذاك، ويدعى سبيريوس مايليوس ، في خزن كميات ضخمة من الحنطة وتوزيعها على العامة في الطريقة التي يراها مناسبة . وقد كسب بهذه الطريقة محبة الجماهير وودها ، مما حمل مجلس الشيوخ على التكهن بما يسببه سخاؤه هذا من مزعجات، فقرر وضع حد له قبل ان يتمكن من اكتساب سلطان اكبر، واختار ديكتاتوراً على الفور أمر باعدام مايليوس . وهكذا يوجه هذا الحادث اهتمامنا الى الحقيقة الواقعة ، وهي ان الاعمال التي تبدو وكأنها صادرة عن الشعور بالواجب ، التي لا يستطيع المرء ان يجد فيها اي عيب معقول ، قد تؤدي الى شيء من الاحتيال ، وقد تبرهن على خطرها على الجمهورية، الا اذا تم اصلاحها في الوقت المناسب وتعديلها .

وأرى ان امضي اكثر فأكثر في ايضاح هذه النقطة ، فأنا اتفق كل الاتفاق مع القائلين بأن الجمهورية لا يقدر لها البقاء ، ولا يمكن ضمان حكمها ابداً بطريقة صالحة ، الا إذا وجد فيها مواطنون صالحون من ذوي السمعة الطيبة . ولكن السمعة التي يكسبها المواطنون في جمهورية، قد تؤدي إلى الطغيان من الناحية الاخرى ، ومن الضروري للحيلولة دون هذا ، ان تمارس السيطرة بطريقة حكيمة بحيث تغدو شهرة المواطن نافعة للدولة لا ضارة بها وبحرياتها . ولهذا يجب التحقيق في الوسائل التي يمكن الحصول عن طريقها على الشهرة . وتكون هذه الوسائل في الحقيقة على نوعين ، عام وخاص ، اما العام منها فتكون عندما يتمكن شخص

بسداد مشورته، والكفاية البالغة في ما ينجزه من أعمال، من نفع المجموع، وبهذا يحقق لنفسه الشهرة . ومن الواجب ان يكون سبيل الحصول على هذا الطـــراز من الشهرة متاحاً للمواطنين ، وان تقدم المكافـآت للذين يقدمون المشورة وللذين ينفذون العمل معـاً ، إذ يضمنون بذلك التكريم والارضاء . واذا ما كانت الشهرة التي يكتسبها المرء عن هـذا الطريق شريفة وفوق المستوى ، فأنهـا لا تكون والحالة هذه خطرة عـلى الدولة أبداً ، اما إذا اكتسبت بالطريق الآخر الذي ذكرناه، وهو طريق الوسائل الخاصة فأنها تكون خطرة للغاية وفي منتهى الاضرار والأذى . وتكون الطريقة الخاصة على شكل اضفاء المنافع على هذا أو ذاك من الافراد ، كاقراضه المال واتاحة فرص الزواج لكريماته، وحمايته من الحكام والقضاة، وإغداق المنح الاخرى ذات الطابـــع الشخصي عليه ، مما يحمله على ان يصبح من انصار من يغدق عليه هذه المنح ويشجعه بدوره على ان يغدو من مفسدي الاخلاق العامة ومن مخالفي القوانين .

وعلى هذا فمن واجب الجمهورية الحسنة النظام كما قلنا ان تفسح المجال امام كل فرد ، ليغدو محبوباً عند الناس بما يقدمه من خدمات للمصلحة العامة ، وان تحول بينه وبين الحصول على المنافـع عن طريق الخدمات التي يقدمها للأفراد ، وهذا ما فعلته رومة تمامـاً ، فقد كافأت احسن المكافأة من احسنوا الخدمة للمصلحة العامة، باغداقها عليهم أكاليل الغار، وغيرها من وسائل التكريم التي الفت منحها لمواطنيها، بينما أدانت اولئك الذين حاولوا تحت مختلف الذرائع والادعاءات، وبوسائلهم الخاصة الحصول على العظمة وأمرت باضطهادهم ، وإذا وجدت ان اسلوبها هذا لم يكن كافياً بسبب ما يصيب الجماهير عادة من دهشة من جراء الطيبة الزائفة ، عينّت ديكتاتوراً يستطيع عن طريق صلاحياته التي تشبه صلاحيات الملوك، ان يرغمهم على العودة الى الحظيرة التي هجروها ، كما فعل الديكتاتور مع سبيريوس مايليوس عندما عاقبه . فأن إهمال قضيـــة من هذا النوع

دون عقاب ، يعتبر سبباً كافياً في إلحاق الخراب بجمهورية ، ما دام ان إعادة الجمهورية إلى الحياة العادية أمر شاق ، بعد ان اوضحنا هذا المثال ايضاحاً كافياً .

٢٩

الأمراء هم السبب في أخطـاء الشعوب

على الأمراء ان لا يتذمروا ابداً من اية خطيئة يقترفها الشعب الذي يحكمونه ، لان مثل هذه الاخطاء ، تعود في مصدرها اما الى اهمالهم او الى انهم هم ملوثون بمثل هذه العيوب . ويجد اولئك الذين يتحدثون عن ان شعوب اليوم قد تعوّدت السرقة وغيرها من الرذائل ، ان هذه العيوب انما تعود الى الحقيقة الواقعة ، وهي ان اولئك الذين يحكمونهم يسلكون نفس السلوك . وكانت رومانا قبل ان ينقذها البابـا الاسكندر السادس من السادة الذين كانوا يحكمونها ، تمثل اسوأ انواع السلوك ، فقد كان من الجلي لكل انسان ، ان كل مناسبة من المناسبات ،كانت تتلوها اعمال القتل والسلب الجماعي . وكانت شرور الامراء هي التي ادت الى مثل هذا الوضع ، لا كما يقول الناس ان طبيعة الانسان الشريرة هي التي ادت اليـه . اذ يطمع الفقراء من الأمراء في ان يعيشوا كالاثرياء من الناس ، وتدفعهم حاجتهم الى تحقيق هذه الرغبة الى اعمال اللصوصية على اختلاف انواعها وصورها . وبين الوسائل الحقيرة التي اتبعوها ، اصدار القوانين التي تحظر هـذا العمل أو ذاك . وكانوا هم اول من اتاح الفرصة لعدم التمسك بهذه القوانين والسير بموجبها، ولم يقوموا قط

بمعاقبة المخالفين الى ان رأوا ان ثمة عدداً كبيراً من الناس قد اصبحوا متورطين في نفس الورطة . وهنا لجأوا الى العقاب ، لا بدافع الحماس للقوانين التي سنوها ، بل بدافع النزوة والاطماع التي تتمثل في جبي الغرامات المفروضة .

وقد ادى هذا الوضع الى نشوء الكثير من المنغصات ، وكان اسوأها إفقار الناس دون محاولة التعويض عليهم ، وكان هؤلاء الذين يلحق بهم الفقر يحاولون تحسين احوالهم على حساب اخوانهم الاضعف منهم. وهكذا نشأت جميع الشرور التي تكلمنا عنها اعلاه، وكان الأمير هو المسؤول عنهـا . ويؤكد لنا تيتوس ليفي هـذه الحقيقة في الوصف الذي يعرضه للسفراء الرومان الذين حملوا الغنائم الممنوحة من فيي الى معبد الالـه ابولو. وقد تمكن قراصنة ليباري في صقلية من نهب الغنائم ونقلوها الى هناك. وعندما سمع تيماسيثيوس زعيم القرصان بقصة الغنائم ، وعرف المكان الذي كانت مرسلة اليه ، وهوية الناس الذين بعثوا بها ، سلك على الرغم من انه من ابناء ليباري (Lipari) (١) سلوك الرومان ، فأشار على الشعب بأن مما يجافي الورع ، اغتصاب مثل هذه العطايا ، واقنـع الجميع بأن يمضي السفراء الرومان في طريقهم حاملين العطايا الى معبد ابولو . ولقد علّق المؤرخ على ذلك بقوله: « ولقد اوحى تيماسيثيوس الى جماهير شعبه بالدين ، وكانت هذه الجماهير تشبه حاكمها في تديّنه . وقد تأيد هذا القول بملاحظة من لورنزو دي مديشي الذي قال :

« ان ما يعمله الامير ، يسارع الجميع الى تقليده »
« وذلك لأن الأمير يظل ماثلاً دائماً في عيونهم »

---

١ جزر ليباري ، وهي مجموعة من الجزر البركانية في البحر المتوسط وتقع إلى الشمال الشرقي من صقلية ، و عددها سبع جزر . و تشتهر بانتاج الكرمة و الفواكه و الزيتون كما تضم بعض المعادن . وتضم عاصمتها ليباري (٨٥,٦٠٠) نسمة . و تجارتها ناشطة . كان الرومان يستخدمونها منافي للمبعدين السياسيين . — المعرب —

٣٠

(١) يجب على المواطن الذي يرغب في استخدام سلطته لتنفيذ عمل طيب في الجمهورية ، ان يقضي على كل حاسديه اولاً ، و(٢) ما هي الاجراءات الاحتياطية التي يجب اتخاذها للدفاع عن مدينة معرضة لهجوم العدو

عندما سمع مجلس الشيوخ الروماني بأن توسكانيا كلها قد اتفقت على خطة جديدة لغزو رومة وتدميرها ، وان اللاتين وقبائل الهيرنيكي (Hernici)(١) التي كانت حتى تلك اللحظة من حليفات الشعب الروماني قد وصلت إلى تفاهم مع قبائل الفولسكي ، الأعداء الدائمين لرومة ، رأى المجلس ان الحرب المقبلة ستكون من أشد الحروب خطراً . ولما كان كاميلوس حامياً للشعب يتمتع بصلاحيات القناصل، فقد رأى المجلس ان في وسعه الاستغناء عن تعيين ديكتاتور ، شريطة ان يقوم زملاؤه من حماة الشعب الآخرين ، بتكليفه بالقيادة العليا . وقد قام الحماة الآخرون بتنفيذ هذه الرغبة عن طواعية ورغبة . ويقول تيتوس ليفي ان « اي انسان لم يجد ان مما يحط قيمته وسلطته، ان يكون خاضعاً لسلطة كاميلوس واهميته » . وعندما تلقى هذا وعودهم بالطاعة، امر باعداد العدة لتأليف ثلاثة جيوش ، وقرر ان يتولى هو قيادة الجيش الأول منها وان يزحف

١ قبائل الهير نيكي من الشعوب الايطالية القديمة ، وكانت تقيم في بلاد اللاتين القديمة في منطقة الابنين على بعد ستين ميلا من رومة . عقد رجال هذه القبائل حلفاً مع الرومان عام ٤٨٨ ق. م. وظلوا على ولائهم حتى عام ٣٦٢ . ثم حاربوا الرومان واشتركوا مع السمنيين في حربهم ضد رومة ولكن رومة اخضعتهم عام ٣٠٦ . وأصبحوا عام ٢٤١ من الرعوية الرومانية . وكانت اناجنيا عاصمتهم . — المعرب —

على التوسكانيين ، وعين كونيتوس سيرفيليوس لقيادة الجيش الثاني وعهد اليه بالبقاء على مقربة من رومة ، لحمايتها من اللاتين والهيرنيكي ، إذا ما حاولت هذه القبائل القيام بحركة في اتجاهها،وولى لوشيوس كوينتيوس قيادة الجيش الثالث ، وامره بحماية المدينة والدفاع عن ابوابها وعن مجلس الشيوخ مهما كانت الطوارىء،ومهما حدث ، وعهد الى احد زملائه وهو هوراشيوس بالاضافة إلى ذلك بتأمين الأسلحة والحنطة وغيرها من الحاجيات الضرورية في اوقات الحرب ، وعهد إلى زميل آخر هو كورنيليوس ، برئاسة مجلس الشيوخ ، والمجلس العام الذي يتولى تقديم المشورة بصدد العمليات العسكرية وتنفيذها يوماً فيوماً،وهكذا كان حماة الشعب (الترببيون) في تلك الايام ، رغبة منهم في تأمين سلامة بلادهم،على استعداد للقيادة وللاطاعة في وقت واحد .

وفي وسعنا ان نرى في هذه القصة،ما يستطيع الرجل الصالح والعاقل عمله ، وما يمكن له ان يأتي به من خير ، وما يستطيع تقديمه من نفع عظيم الى بلاده ، عندما يتمكن بفضل طيبته وفضيلته من التخلص من الغيرة ، التي كثيراً ما تكون السبب الذي يحول بين الناس وبين العمل الطيب ، طالما انها تحول بينهم وبين اكتساب الصلاحيـة التي يحتاجون اليها اذا كانوا في وضع المضطر الى معالجة القضايا البالغة الأهمية. ويمكن الخلاص من الغيرة بطريقتين ، اما وقوع نكبة خطيرة يصعب علاجها ويرى فيها كل انسان الكارثة المرتقبة ، فيتخلى عن كل طموح ويسارع الى اطاعـة شخص يتوقع ان تؤدي فضيلته الى تحريره من خطر تلك النكبة . وقد وقع هذا بالنسبة الى قصة كاميلوس ، اذ بعد ان اثبت بالدليل القاطع تفوّقه وامتيازه ، بعد ان تولى منصب الديكتاتورية ثلاث مرات،وادار صلاحياته بشكل يضمن المنفعة العامة ، لا مصالحه الخاصة، لم يخش انسان من ان تكون له السلطة العظمى ، كما لم يعتبر أي فرد بسبب الشهرة العظيمة التي توصل اليها عن جدارة واستحقاق ، ان مما

يمس كرامته ، ان يخدم تحت امرته . ومن هنا جاءت الملاحظة الذكية التي وردت على لسان ليفي عندما قال : « ان أي انسان لم يجد ان مما يحط ... الخ » ، وهي الفقرة التي أوردناها في مطلع هذا الفصل .

أما الطريقة الثانية للخلاص من الحسد،فتكون في زوال اولئك الذين كانوا ينافسونك في السباق على الشهرة والسلطان ، اما عن طريق العنف أو عن طريق طبيعي آخر ، اذ طالما ان هؤلاء الناس يرون ان شهرتك تبزّ شهرتهم ، فانهم لن يخلدوا الى الهدوء ، ولن يحتملوا ذلك بالاناة والصبر . يضاف الى هذا ان هؤلاء الرجـال اذا كانوا قد الفوا العيش في مدينة فاسدة ، لم يجدهم التعليم فيها فتيلاً ولا خبراً،فان من المستحيل ان تتمكن اية مصيبة من تحويلهم الى حالة عقلية افضل . وهم يؤثرون ان يروا بلادهم وقـد سادها الدمار ، على ان يفشلوا في الوصول الى غاياتهم ، وان يرضوا تفكيرهم الهدّام والمنحرف . والتغلب على هـذا الطراز من الغيرة لا يكون الا بعلاج واحد ، وهو موت هؤلاء الذين تشبعوا بها . وعندما يلعب الحظ دوره فيمكن الرجل الفاضل من تحقيق موتهم بالطرق الطبيعية العادية ، فلن تكون ثمة فضائح ، وسرعان مـا يشتهر صيته ويذيع ، ويعرض فضيلته دون عقبة تقف في طريقـه او اساءة تلحقه . ولكن عندما لا يحدث هذا ، فان من الجدير به ان يجد وسيلة من الوسائل،للخلاص من هؤلاء الناس ، وعليه ان يتخذ الخطوات اللازمة لتذليل هذه الصعوبة قبل القيام بأي عمل آخر .

وكل من يـدرس التوراة دراسة تعمّق وتبصّر ، يرى ان موسى قبل ان يشرع في سن قوانينه وانظمته وجد ان واجبـه يقتضيه قتل عدد كبير من الناس الذين كانوا قد عارضوا في مشاريعه بدافع الحسد وحده دون سواه وقد أدرك الراهب جيرولامو سافوناررولا هذه الحقيقة وهذه الحاجة تمام الادراك ، كما ادركها ايضاً بييرو سوديريني ، حامل الراية في فلورنسة . ولكن اولهما أي الراهب ، لم يستطع التغلب علىهذه

الصعوبة ، اذ كان يفتقر الى السلطة اللازمة ، كما ان اتباعه الذين كان في وسعهم ان يؤمنوا له السلطة اللازمة ، لم يستطيعوا ان يفهموه فهماً صحيحاً . ولكن فشلهم في الحصول عليها لم يكن ناشئاً عن خطئه هو نفسه ، فقد كانت مواعظه حاشدة بالاتهامات التي يوجهها الى حكماء هذا العالم وبالقـدح بهم ، وكان يغني « بحكماء هذا العالم » اولئك الذين يحسدونه والذين يعارضون شرائعه وسننه . أما الثاني وهو سوديريني ، فقد اعتقد ان طيبته وحسن طالعه واحسانه وبره بالجميع ، خصال كافيـة لاخماد كل حسد عند الآخرين . ولقد كان يعتقد بالنسبة الى ما يتمتع به من شباب ، وما حققه من حب عند الناس بطريقة حكمـه ان في وسعه التغلب على اولئك الذين كانوا يعارضونه بدافع الحسد ، دون اية حاجة الى الفضائح او العنف او الاضطراب . ولكنه فشل في ان يدرك ان الوقت لا ينتظر احداً ، وان الطيبة وحدهـا لا تكفي ، وان الحظ قلّب ، وان سوء النية لا يمكن تهدئته بالمنح والعطايا . وهكذا قضي على هذين الرجلين بالدمار ، وكان خرابهما في كلتا الحالتين ناجماً عن جهلهما بالطريقة التي يمكن التغلب بواسطتها على الحسد أو عجزهما عن اتباعها .

ومن النقاط المهمة التي تجدر ملاحظتها في موضوع كاميلوس ، الترتيبات التي اتخذها للدفاع عن رومة من داخلها ومن خارجهـا . ولا ريب في ان ثمة كل مبرر للمؤرخين الكبار ، كمؤرخنـا هذا ، عندما يتحدثون باطالة واسهاب عن بعض القضايا المعينة ، إذ ان هدفهم من ذلك تعريف الاجيال القادمة بالطرق التي يجب عليهم اتباعها للدفاع عن أنفسهـم في اوضاع مماثلة . ومن واجبنا ان نلاحظ في هذا الصدد أيضاً ، ان ليس ثمة من دفاع اكثر حظوة او اكثر لا جدويـة من ذلك الذي يفتقر الى التنظيم والذي تسوده الفوضى ، وهذا يبدو جلياً في موضوع الجيش الثالث الذي أمر كاميلوس باعداده ، وخلّفه في رومة لحمايتها . وقد يعتقـد

الكثيرون ولربما اعتقدوا في الماضي ان عمله هذا كان من نافلة الاجراءات ولا لزوم له ، طالما ان الشعب كان مسلحاً على اية حال ، ومن طبيعته الميل الى الحرب . وعلى هذا فقد يبدو انه لم تكن ثمة من حاجة الى تجنيد جديد ، وان اجراءً كتسليم السلاح الى الشعب كان كافياً عند الضرورة ، ولكن كاميلوس فكر تفكيراً مغايراً ، وسيفكر مثل هذا التفكير كل من يكون في مثل حكمته ، اذ من الواجب ان لا يسمح للجماهير بحمل السلاح ابداً الا في أوضاع معينة وفي ظل تعليمات محددة.

ويمكن للمرء ان يتعلم من مثال كاميلوس ، ان كل من يعهد اليه بحراسة أية مدينة ، يجب ان يتجنب كما يتجنب الاصطدام بالصخر ، تسليم السلاح الى الجماهير التي تسودها الفوضى . وعليه ، بدلاً من ذلك ان يختار اولاً اولئك الذين يرغب في تسليحهم ، وان يجندهم على ان يكونوا من الذين يطيعونه في حركاتهم وتنقلاتهم ، وعليه ان يأمر الباقين الذين لا يرغب في تجنيدهم ، بالبقاء في الوطن والدفاع عن بيوتهم . وكل من يصدر اوامره على هذا النحو يستطيع ان يدافع عن المدينة التي تهاجم ، اما الذي يتصرف تصرفاً مغايراً ، ويمتنع عن تقليد كاميلوس فلن يكون في مكنته الدفاع عنها .

الكتاب الثالث

المطارحات من ٣١ الى ٣٥

رباطة الجأش ، التمرّد ، الثقة

الحملات الانتخابيّة وتقديم المشورة

٣١

تحتفظ الجمهوريات القوية والرجال البارزون بر باطة الجأش وبالكرامة في جميع الظروف

من الاشياء الرائعة التي يضعها مؤرخنا في صورة أقوال على لسان كاميلوس او أفعال يقوم بها ، ليظهر الطريقة التي يجب ان يتصرف بها الرجل البارز ، هذا القول الذي يورده على لسان الرجل : « لم تستخفني الديكتاتورية ، كما ان المنفى لم يثبط من عزائمي » . ويستطيع

المرء ان يرى من هذا القول كيف يستطيع الرجال العظماء ، ان يظلوا عظاماً مهما حدث . واذا كان الحظ قلّباً بالنسبة اليهم ، يرفعهم حيناً ليخفضهم حيناً آخر ،فأنهم يظلون على حالهم ثابتين دائماً في عقلهم وفي سلوكهم طيلة حياتهم بحيث يسهل على كل انسان ان يرى ان الحظ لا يملك أية سيطرة عليهم ،ولكن الرجال الضعفاء لا يسلكون هذا المسلك ، لأن سعد الطالع يطفو بهم ويشملهم ، ويعــزون أي نجاح يحققونه الى فضيلة لم تكن لهم قط ، ويغدون من النوع الــذي لا يطاق ، والذي يستهجنه كل ذي علاقة بهم . ويؤدي هذا الى تبدل فجائي في سعدهم وطالعهم ، ويحملهم توقعهم لهذا التبدل الى الغلو في التطرف من الناحية الاخرى ، والى التحول الى الحقارة والوضاعة . ومن هنـا تنشأ الحقيقة الواقعة ، وهي ان الحكام الذين يمتون الى هذه الفئـة ، يؤثرون الفرار على الصمود والكفاح دفاعاً عن أنفسهم في اوقات الشدة ، تماماً كما يجد بعض الناس أنفسهم عزّلاً من كل دفاع عندمـا يسيئون استعمال الحظ الذي يتيسر لهم .

وتوجد مثل هذه الفضائل والرذائل في الجمهوريات ، كما توجد عند بعض الاشخاص الذين تحدثت عنهم ، ولا ريب في ان الرومان والبنادقة يقدمون لنا الأمثلة الصحيحة على وجودها . اذ لم يؤد سوء الطالـع قط الى تحول الأوّل الى اناس وضيعين، كما لم يؤد حسن الطالع الى تحولهم الى متغطرسين ومتكبرين ، ويبدو هذا جلياً في سلوكهم بعد هزيمة كانيه وبعد النصر الذي حققوه على انطيوخوس . اذ على الرغم من ان تلك الهزيمة كانت شنيعة ، فأنها لم تثبط من عزائمهم ، لأنها لم تكن الاولى من نوعها بل كانت الثالثة واحتفظوا بجيوشهم في الميدان ، وامتنعوا عن انقاذ اولئك الذين وقعوا اسرى في قبضة العدو ، خلافاً لعادتهم ، ولم يبعثوا برسلهم ينشدون الصلح من هانيبال او من قرطاجنة ، بل تجاهلوا كل خطوات وضيعة من هذا النوع ،وكرسوا جل اهتمامهم على الحرب،

وقاموا بتسليح الشيوخ والعبيد بعد ان شعروا بالافتقار الى الرجال .
وعندما بلغت هذه الانباء الى مسامع هانو القرطاجي ، لفت انظار مجلس الشيوخ في مدينته ، كما سبق لنا ان اشرنا من قبل ، الى ان رومة ، لم تكترث مطلقاً بهزيمة كانيه . ويتضح من هذا ان الرومان لم يشعروا قط بالاذلال ، ولا بالقنوط في اوقات الشدة ، كما ان اوقات النجاح والازدهار ؛ لم تكن تحملهم ابداً على الغطرسة والتكبر ، فعندما بعث انطيوخوس برسله الى شيبيو طالباً عروض الصلح قبل المعركة التي هزم فيها هزيمة نهائية ، بعث اليه شيبيو بالشروط التالية وهي ان ينسحب انطيوخوس الى سوريا ، وان يترك ما تبقى لقرار الشعب الروماني ، ولما رفض انطيوخوس هذه الشروط ، وقعت المعركة ، فخسرها ، وأوفد الي شيبيو رسله ، وقد خولهم قبول كافة الشروط التي يضعها المنتصرون . وهنا وضع شيبيو عين الشروط التي كان قد وضعها من قبل ، واضاف الى ذلك قوله « ان الرومان عندما يغلبون ، لا يفقدون شجاعتهم ، وعندما ينتصرون لا يتغطرسون » .

أما البنادقة فقد سلكوا مسلكاً معاكساً تماماً ، فقد خيّل اليهم ان حسن طالعهم يعود الى فضيلة ، لم تكن موجودة لديهم في الحقيقة . وقد باتوا على درجة من الغطرسة ، بحيث اطلقوا على ملك فرنسا اسم « ابن القديس » (١) ولم يبدوا أى احترام للكنيسة ، ولم يكتفوا بحصر مطامعهم في ايطاليا وحدها ، بل تطلعوا الى اقامة امبراطورية كالامبراطورية الرومانية . وعندما تخلى عنهم حسن طالعم ، وهزمهم ملك فرنسا هزيمة جريئة في فاييلا ، اضاعوا جميع ممتلكاتهم ، لا عن طريق الثورات التي هبت ضدهم فحسب ، بـل عن طريق اليأس الذي سيطر على

---

١ القديس مارك أو مرقص ، أحد الرسل . وقد اشترك مع الرسولين بولس وبرنابا في رحلتهما الأولى إلى رومة . وتحاط سيرته بالاساطير التي لم يتفق عليها رجال اللاهوت . كما لم يتفقوا على مكانة انجيله بين الاناجيل . — المعرب —

عقولهم ، وخور العزيمة الذي حل بهم ، مما دفعهم الى التخلي عن قسم كبير منها الى البابا والى ملك اسبانيا . وهكذا فقدوا كل حيوية حقاً ، حتى انهم بعثوا بسفرائهم الى الامبراطور يعرضون عليـــه ان يصبحوا اتباعاً له ، وبعثوا برسائل ذليلة ، تنطق بالوضاعة الى البابا يستثيرون اشفاقه عليهم . ولم يتطلب الوصول الى ذلك الوضع التعس ، اكثر من اربعة ايام بعد تلك الهزيمة ، التي كانت في حد ذاتها جزئية ، اذ ان نصف قواتهم فقط اشتبكت في القتال الذي دار ابان تراجع جيشهم ، وتمكن احد مفوضيهم الذي نجا من المعركة ، من الوصول الى فيرونا على رأس اكثر من عشرين الف جندي من المشاة والفرسان ، ويبدو من هذا ، انه لو كانت هناك أية فضيلة (شجاعة) في البندقية او في انظمتها ، لكان في وسعها بسهولة ، ان تلملم شملها وان تعود الى تجربة حظها من جديد ، لتفوز او تخسر هـــذه المرة ، فوزاً او خسارة مصحوبين بالمجد ، أو لتصل الى اتفاق ينطوي على شروط كريمة مع العدو . وقد حملهم هذا الخور الناشيء عن عدم صلاح انظمتهم لاوضاع الحرب ، على ان يفقدوا بضربة واحدة ، ممتلكاتهم وشجاعتهم .

وقد يحدث هذا دائماً بالنسبة الى اية دولة تحكم على الطريقة التي تحكم فيها البندقية . فالغطرسة في حالة النجاح ، وخور العزيمة في وقت الشدة ، امران يرجعان الى الطريقة التي تسلك فيها ، والى التعليم الذي حصلت عليه ، فاذا كان هذا التعليم ضعيفاً وغير مجد اصبحت ضعيفاً وغير نافع ايضاً ، أما اذا كان من نوع آخر فانك تغدو انساناً ثانياً ، اذ يحملك على التوسع في معرفة العالم ، ويجعل منك اقل انتشاءً وبهجة في الاوقات الطيبة ، واقل يأساً وقنوطاً في اوقات الشدة . وما يصح على الفرد في هذا الصدد ينطبق على المجموع ايضاً ، وعلى الكثيرين الذين يعيشون في نفس الجمهورية ، اذ انهم يكونون جميعاً من نفس الطراز الذي يطبع طريقة الحياة في الجمهورية بطابعه .

وعلى الرغم من انني قلت في مكان آخر ، ان أمن جميع الدول يتركز على النظام العسكري الصحيح ، وانه عندما تكون الدولة مفتقرة الي هذا النظام ، تنعدم فيها القوانين الصالحة ، بل ينعدم فيها كل ما هو صالح ، الا انني لا أرى من نافلة القول ، تكرار هذا التأكيد . وتظهر في كل صفحة من تاريخ تيتوس ليفي ، هذه الحاجة الماسة ، الى النظام العسكري بوضوح وصراحة ، ويستطيع كل قارىء لهـذا التاريخ ان يرى ، ان الجنود لا يمكن ان يكونوا صالحين الا بتدريبهم ، وان هذا التدريب أمر مستحيل الا اذا كان الجنود من رعاياك . اذ لما كان الجنود لا يخوضون الحرب بصورة دائمة ، ولا يمكن ان يخوضوها ، فان من الاهمية بمكان عظيم ، ان يدربوا في اوقات السلام ، ويكون هذا التدريب مستحيلاً بسبب ما يقتضيه من نفقات باهظة الا اذ كان الجنود من رعاياك .

وعندما قاد كاميلوس جيشه لقتال التوسكانيين ، كما سبق لنا القول ، رأى جنوده ما عليه جيش العدو من ضخامة ، فسيطر عليهم الفزع ، اذ شعروا بقلة عددهم بالنسبة اليـه ، وخيل اليهم انهم لن يستطيعوا الصمود لهجوم العدو . وعندما سمع كاميلوس بذلك وعرف ان الرجال في المعسكر لا يميلون الى القتال ، خرج اليهم ، وأخـذ يتحدث الى هذه الفئة من الجنود ، والى تلك الفئة طائفاً بالمعسكر كله ، ومنتزعاً من رؤوسهم تلك الفكرة . وقال اخيراً دون ان يصدر أي أمر آخر لرجال المعسكر « ليقم كل منكم بما تعلم أو بما تعوّد على عمله ليس الا » . واذا درسنا هذه القصة بعناية ، ودرسنا الكلمات التي استعملها هذا القائد لتشجيع رجاله على قتال العدو ، يتضح لنا ان مثل هذه الكلمات ما كانت لتقال ، وان مثل هذا الجيش ما كان يقتنع بها ، لو لم يكن ذلك الجيش قد درب ومارس فنون القتال ، تدريباً ومراساً صالحين في ايام السلم والحرب على حد سواء . فليس في وسع القائد

الاتكال على جنود لم يتدربوا على القتال ، وان يكون واثقاً من ان ما سيفعلونه سيكون صحيحاً وممتازاً . ولو قاد شخص حتى ولو كان صورة ثانية من هانيبال مثل هؤلاء الجنود ، لمني بالهزيمة حتماً . اذ لما كان القائد لا يستطيع ان يكون موجوداً في كل مكان ابان المعركة ، فانه سيمنى حتماً بالكارثة ، الا اذا كان قد درب كل وحدة من وحدات جيشه ، بشكل جعلها تتشرب روحه وتتعرف معرفة وثيقة على أسلوبه وطريقته في القتال .

وعلى هذا الاساس ، اذا كانت هناك مدينة مسلحة تمام التسلح كرومة ، ويسيطر عليها نفس نظامها العسكري ، وكان جميع مواطنيها ، سواء في طاقاتهم الخاصة او الرسمية ، قد اتاح لهم الحظ ، ان يضعوا فضيلتهم (شجاعتهم) ، وسلطان حظهم موضع الاختبار والتجربة ، فسيجد المرء دائماً وفي جميع الظروف والاحوال ، بأنهم سيكونون متشابهين في فكرهم ، وسيحافظون على كرامتهم بنفس الطريقة والاسلوب. اما اذا لم يكونوا خبراء بالسلاح ، وكانوا يركنون الى نزوات الحظ وحده ، لا الي فضيلتهم ، فانهم سيتغيّرون مع تغيّر الحظ ، وسيعرضون في جميع الحالات ، الخصائص التي تمثلت في البنادقة .

٣٢

الوسائل التي لجأ اليها البعض للحيلولة دون الصلح

ثارت مستعمرتان رومانيتان ، هما سيرسي وفاليتري ، على سلطان رومة ، وقد أملتا في مساعدة اللاتين لها . وعندما تمت هزيمة اللاتين على ايدي الرومان ، وضاع هذا الأمل ، طالب عدد من المواطنين

بايفاد الرسل الى رومة ، لبحث القضية مع مجلس الشيوخ ، والابتهال اليه للصفح عنهم . وقد رفض المسؤولون عن الثورة هذا الرأي رفضاً باتاً وقاوموا تنفيذه مقاومة جاهدة مخافة ان يقع اللوم كله على اكتافهم . ورغبة منهم في ابعاد أي أمل في السلام والتفاهم ، قاموا بتحريض الجماهير على حمل السلاح وعبور الحدود الرومانية . ومن الحق ان يقال ان ليست هناك اية طريقة اضمن ولا انجح في انتزاع فكرة الصلح والتفاهم من رأس شعب أو امير ، من حمله على ارتكاب مثل هذه الاساءة التي لا تغتفر ، ضد الفريق الذي لا تريد من هذا الشعب او الامير التفاهم معه . ففي جميع الحالات ، يظل الخوف من العقاب الذي يعتقد المسيء ان اساءته تستحقه ، دافعاً يحمله على البقاء بعيداً عن الطرف الآخر .

وعندما انتهت الحرب القرطاجية الأولى مع الرومان ، عاد الجنود الذين كان القرطاجيون قد استخدموهم في حربي صقلية وسردينيا الى افريقية ، بعد اعلان الصلح . ولما كان هؤلاء الجنود ناقمين على تفاهة رواتبهم ، حرضوا الجنود الآخرين على العصيان على القرطاجيين ، واختاروا اثنين من بين صفوفهم قادة لهم ، هما ماثو وسبينديوس ، واستولوا على عدد من المدن القرطاجية ونهبوها . ورغب القرطاجيون اولاً في تجربة وسائل اخرى ، غير وسيلة الحرب لاخماد عصيانهم ، فبعثوا اليهم كسفير ، احد ابناء قرطاجنة وهو هاسدروبال ، ايماناً منهم ، بانه سيكون ذا تأثير على الجنود العصاة ، بالنظر الى توليه قيادتهم في الماضي . وعندما وصل هذا الى العصاة ، قرر سبينديوس وماتو قطع الطريق على أي تفكير عند الجنود بالتفاهم مع القرطاجيين وارغامهم على قتالهم . واقنع الرجلان جنودهما بان خير وسيلة يفعلونها هي قتل هاسدروبال ، وقتل جميع الرعايا القرطاجيين الذين كانوا قد وقعوا في أسرهم . وكانت النتيجة ان الجنود لم يكتفوا بقتلهم بل عرّضوهم

لابشع صور العذاب ، واضافوا الى هـذه الاساءة ، اساءة اخرى باصدارهم مرسوماً يقضي بقتل كل قرطاجي يقع في ايديهم في المستقبل . وقد ادى هذا المرسوم وتنفيذه الى تحول العصاة الى الوحشية والاصرار في العناد على مقاومة القرطاجيين .

٣٣

بعث ثقة الجيش في نفسه وفي قائده
شرط أساسي لكسب المعركة

من الضروري اذا اراد الجيش ان يكسب معركة فاصلة ، ان تكون الثقة متوافرة لديه في نفسه ، وان يطمئن الى قدرته على الفوز ، مهما حدث . وهناك اشتراطات تعتمد عليها هـذه الثقة ، وهي ان يكون الجنود حسني التسلح والنظام ، ويعرف بعضهم بعضاً خير معرفة ، ومن المهم ايضاً ، ان يحترم الجنود قائدهم لمزاياه ، وان يتكلوا على تعقله وواسع حكمته ، وهذا شيء حتمي بالنسبة اليهم ، اذا رأوه دائماً يقظاً وحذراً ، وعرفوا فيـه الاشفاق عليهم ، والشجاعة في خوض المعركة ، والاحسان في الحفاظ على كرامة مركزه وسمعته ، وهو ما يستطيع تحقيقه ، اذا واصل عقاب المسئين على اخطائهم ، ولم يفرض على رجاله اعباء لا ضرورة لها ، ووفى بعهوده ووعوده لهم ، ومشيراً اليهم بسهولة الفوز ، مخفياً عنهم ، أو مستهيناً امامهم ، بالأمور التي اذا نظر المرء اليها من بعيد ، اوحت له بالخطر . واذا ما لاحظ المرء هـذه الأمور ملاحظة صحيحة ، كانت من العوامل الرئيسية في بعث الثقة في الجيش ، وفي تأكده من النصر .

وقد لجأ الرومان الى الدين كوسيلة لايحاء الثقة الى جيوشهم . ومن هنا نشأت عادة العرافة والتنجيم ، وجمع الفؤول عنـــد تعيين القناصل وتسجيل الجنود ، والاستعداد للمعركة . ولونسي احد القادة القيام بأي عمل من هذه الاعمال ، فانــه لا يقدم على المعركة اذا كان عاقلاً وصالحاً ، نظراً لاعتقاده بامكان الخسارة بسهولة ، ما لم يتأكد جنوده مسبقاً من ان الآلهة تقف الى جانبهم . وكانوا يعاقبون القنصل او القائد الذي يخوض المعركة خلافاً لاوامر الآلهة كما عاقبوا كلوديوس بولشر (١). وهناك امثلة عديدة على هذه الظاهرة في التاريخ الروماني ، ولكن رغبة مني في تقرير القضية ، ارى ان اورد العبارات التي قالها ليفي على لسان آبيوس كلوديوس . فعندما كان يشكو الى الشعب من حماته (التربيون) ، مظهراً له ان اخطاء هؤلاء الحماة هي التي ادت الى تجاهل الفؤول وغيرها من المظاهر المتعلقة بالدين وتعريضها الى الفساد ، قائلاً « ويسمح لهم في هذه الايام بالهزء بالطقوس الدينية ، فيقولون ، وماذا يهم لو ان الفراخ لم تأكل ، او انها ابطأت في الخروج من ريشها ، أو ان احدى الدجاجات قد قرقت ؟ (٢) حقاً انهـــا امور تافهة صغيرة ، ولكن اسلافنا بعدم احتقارهم لهذه الامور مهما كانت صغيرة ، حققوا لهذه الجمهورية عظمتها الراهنة » . وفي مثل هذه الصغائر ، يقوم السلطان في الحفاظ على وحدة الجنود وثقتهم ، وهما الركنان الاساسيان في النصر ، ومن المهم ، على أي حال ، ان تكون هذه الأمور مصحوبة بالشجاعة .

---

١ كلوديوس بولشر ، مات عام ٥٢ ق. م. ينتمي إلى اسرة بارزة من النبلاء . اشتهر بالفسق والفجور . حوكم على تهتكه عام ٦١ ، ولكنه رشى القضاة فبرئت ساحته رغم شهادة شيشرون ضده تنازل عن لقبه العائلي وانضم إلى العـامة ليصبح حامياً للشعب ، فانتخب عام ٥٨ وتمكن مــن نفي شيشرون . أصبح في عام ٥٦ من موظفي البلدية ، وقتل عام ٥٢ . — المعرب —

١ آبيوس كلوديوس، انتخب رقيباً عام ٣٢٠ ق.م دون أن يمر للرقابة برتبة القنصلية واحتفظ بها أربع سنوات مع ان القانون الروماني ينص على عدم السماح ببقاء الرقيب أكثر من ١٨ شهراً . أصيب بالعمى فيما بعد .

والا لم يكن لها شأن مطلقاً .

ولقد مضى البرينيستيون (Praenestines) (١) الذي بعثوا بجيش لقتال الرومان الى نهر « آليـا » (Allia) (٢) ، حيث اقاموا معسكرهم على ضفافه في المكان الذي كان الرومان فيه قد هزموا أمام الغاليين . وقد فعلوا ذلك لايحاء الثقة لجنودهم بالنصر ، ولبعث الخور في نفوس الرومان من جراء ترابط هذا المكان بذكريات الهزيمة والكارثة . وعلى الرغم من ان الظواهر كانت تشير الى احتمال نجاح هذا الاجراء بدافع الاسباب السالفة ، الا ان نتيجة القضية اظهرت على أي حال ، ان الشجاعة الحقة ، لا يمكن ان تتأثر بكل وضع تافه ، وقد اوضح مؤرخنا هذه الصورة في الكلمات التي اوردها على لسان الديكتاتور وهو يخاطب قائد فرسانه قائلاً : « لا ريب في انك تلاحظ ان هؤلاء الناس هناك ، وقد اركنوا الى الحظ ، قـد اتخذوا مواقعهم على النهر ! ولكن ضع انت ثقتك في سلاحك وفي شجاعتك ، وامضِ فوراً الى مهاجمتهم » . ولا يمكن للشجاعة الحقة والنظام الرائع والاحساس بالأمن الناجم عن العديد من الانتصارات ، ان تنهار كلها امام امور تافهة لا قيمة لها ، كما لا يمكن للخيالات والاوهام العابثة ان تجعل من الرجال الذين هم من هذا الطراز الضخم من الناس ، جبناء ، يخافون ، كما لا يمكن لأية نوازل ان تؤذيهم . ويبدو هذا بوضوح في حادث المانليين

١ البير نييستيون نسبة إلى مدينة « برنييست » القديمة الـتي أصبحت تسمى اليوم باليسترينـا . وتقع المدينة في ولاية رومة وتقع على أحد جوانب جبال الابنين وتسيطر على التلال الالبية . وقـد تحالفت المدينة مع رومة عام ٤٩٩ ق. م. وانفصلت عن عصبة اللاتين ،وظلت على ولائها لرومة حتى الحرب الأهلية بين صولا وماريوس ، ثم سقطت في يد صولا ، فنقل المدينة من مكانها إلى الوادي ، ووسع معبد « اله الحظ » على التل الذي اشتهر بعرافته . وظل المعبد قائماً إلى أن أغلقه الامبر اطور قسطنطين . وظهرت عائلة كولونا في المدينة في القرن الثالث عشر . وهدمها البابوات عدة مرات . ويبلغ عدد سكانها ٩١٠٠ . — المعرب —

٢ آليا ، نهير صغير من فروع نهر التيبر ، يقع على بعد ١١ ميلا إلى الشمال من رومة . وقد هزم الرومان على ضفافه أمام الغاليين . — المعرب —

(Manlii) (١) ، اذ عندما عينا كقنصلين وكانت البلاد في حرب مع الفولسكي ، بعثا متسرعين بفصيلة من جيشهما في حملة كشفية ، ووجد الفريقان : الذي ذهب في الحملة والذي ظـــل في المعسكر ، نفسيهما ، يقعان تحت وطأة الهجوم المعادي في وقت واحد ، ولم تكن كفاية القنصلين ، بل شجاعة الجنود ، هي التي انقــذت الوضع من الخطر الذي تعرض له الجيش . ويعلق تيتوس ليفي على ذلك بقوله : « ان الشجاعة المجرّبة ، اكثر أمناً وضمانة حتى عندما يكون الجنود بلا قائد » .

وأرى ان لا اهمل هنا الحديث عن وسيلة استخدمها فابيوس لايحاء الثقة ، عندما كان يقود جيشه لأول مرة الى توسكانيا . اذ لما كانت البلاد ، التي دخلها غريبة عليه ، وكان العــدو الذي يهاجمه جديداً عليه ايضاً ، رأى ان من الضروري كل الضرورة الايحاء لجنوده بالثقة . وهكذا وقف قبل المعركة يخطبهم ، معدداً الاسباب الكثيرة التي تحملهم على توقع النصر ، ومضيفاً ان في وسعه ان يحدثهم ايضاً عن اشياء طيبة ، تظهر لهم ان النصر مضمون وفي متناول ايديهم ، لولا ان ثمة بعض الخطر في الحديث عنها . ولا ريب في ان هذه الوسيلة بارعة في الذكاء ، وهي جديرة بأن يحذو الانسان حذوها .

---

١ الأخوان مانليوس . وقد أصبحا من القناصل . — المعرب —

٣٤

الاسباب التي تدعو الشعب إلى الشروع في تأييد مواطن معين وما تنطوي عليه هـذه الاسباب من شهرة وشائعات وآراء ، وهل يكون الشعب أكثر حكمة من الامير في تعيينات أصحاب المناصب ؟

رأينا في مكان آخر ، كيف تمكن تيتوس مانليوس ، الذي اصبح يلقب فيما بعد بتوركواتوس من الحصول على تبرئة والده من لوشيوس مانليوس ، من التهمة التي اثارها عليه ماركوس بومبونيوس ، احد حماة الشعب . وعلى الرغم مما في هذه الاساليب التي اتبعها لتحقيق ذلك ، من عنف ومن شذوذ ، الا ان حبه البنوي لابيه ، اثار اعجاب الشعب في مجموعه الى الحد الذي حمله لا على تبرئته فحسب،بل وعلى انتخاب تيتوس في الانتخابات التالية لحماة الشعب الذين يتولون قيادة الفرق الرومانية الى المنصب الثاني . ويدفعني هذا النجاح الذي حققه الرجل الى التفكير تفكيراً صحيحاً بالطريقة التي يقدر فيها الشعب كفايات المرشحين في الانتخاب ، والى درس ما في النتيجة التي حددتها في العنوان من صحة أي مدى تفوق الشعب على الامراء في تعيينات اصحاب المناصب .

وانا أرى ان الشعب يعتمد في تفضيله بين المرشحين ، على الاشاعات السائدة ، وعلى ما يتمتع به المرشحون من شهرة ، لا سيما اذا لم يكن يعرف شيئاً موثوقاً عنهم يعتمد على ما حققوه من اعمال عظيمة ، أو على بعض الآراء التي سبق له أن كونها عنهم . ويكون الاعتماد ايضاً في معظم الحالات على الحقيقة الواقعة ، وهي ان اباء هؤلاء المرشحين كانوا من ذوي المكانة الذين أدوا خدمات جلى لبلادهم ، مع التأكيد

على الافتراض القائل بأن الابناء لا بد وان يكونوا كآبائهم ما لم تقم الدلائل على عكس هذا الافتراض من ناحية اعمالهم ، وهناك حالات اخرى يكون الاعتماد فيها على ما يقال ، على الطريقة التي تميّز سلوكهم. ولعل النقاط المهمة في سلوكهم هذا ان يعرف عنهم ارتباطهم بالاشخاص من ذوي الافكار الجدّية ، ومن ذوي الخصال الطيبة ، والمعتبرين عند الجميع من عقلاء الرجال . فلا شيء اكثر دلالة على المرء ، من طبيعة رفاقه واخدانه . ويكون الرجل الذي يصادق الناس الشرفاء ، جديراً بحسن السمعة ، اذ تعني رفقته لهم حتمية التماثل بينهم في النوعية . وقد يكتسب المرء شهرة عند الجمهور بعمل غريب او نادر ، يضمن له اهتمام الناس به حتى ولو كان هذا العمل ذا طبيعة شخصية . ولا ريب في ان هذه الطريقة الاخيرة اكثر تأثيراً من الطرق الثلاث التي يمكن عن طريقها تحقيق السمعة الحسنة منذ البداية . فلا يمكن الركون الى حد كبير على الطريقة الأولى التي ترتكز فيها السمعة على اعمال الاسلاف والاقارب حتى ان كثيرين من النـاس يكونون متوانين في تقبلها ، وكثيراً ما تتبخر السمعة الناجمة عنها الا اذا كانت مصحوبة بالفضيلة من جانب الشخص المعني نفسه . وتكون الطريقة الثانية التي يشتهر المرء فيها حسب مسلكه العام ، افضل من الطريقة الأولى ولكنها اقل فضلاً من الطريقة الثالثة . والى ان تتمكن من تقديم الدليل على مـا تستطيع فعله ، فان شهرتك تظل مستندة الى الآراء التي قد يثبت خطؤها وبطلانها بسهولة . ولمـا كانت الطريقة الثالثة تتولد من الحقائق وتستند اليها وتنشأ عمـا استطعت عمله فعلاً ، فان في وسعها ان تضفي عليك منذ البـداية اسماً داوياً ، يحتم عليك ان تعمل الكثير مما ينم عن طبيعتك ، قبل ان تختفي هـذه الشهرة التي حصلت عليها .

وعلى الذين ينشأون في الجمهورية والحالة هذه ان يتبنوا هذا المسلك،

وان يحاولوا عن طريق القيام بأعمال فذة الارتفاع عن مستوى الناس العاديين . وقد فعل كثيرون من الرومان هذا في شبابهم عن طريق اذاعة قانون ينفع المصلحة العامة ويخدمها ، او مهاجمة انسان ذي سلطان لخرقه القوانين وتحديها ، أو بالقيام بعمل جديد بارز تتيحه الفرصة لهم . ولا تعتبر مثل هذه الامور ضرورية لنوال الشهرة في البداية فحسب،بل انها تظل كذلك فيما بعد للحفاظ على هذه الشهرة وتدعيمها . ولذا يجب تكرار مثل هذه الاعمال دائماً ، كما فعل تيتوس مانليوس طيلة حياته . فلقد اكتسب هذا الرجل شهرته الاولى بالدفاع عن والده دفاعاً جريئاً وبطريقة غريبة . وبعد بضع سنوات ، قاتل ذلك الغالي وبعد ان قتله أخذ منه ذلك الطوق الذهبي الذي أتاح له ان يحمل فيما بعد اسم « توركواتوس » . ولم يكن هذا كل ما فعله، فقد قتل بعد سنوات ، وبعد ان كان قد قطع شوطاً من الحياة ولده ، لأنه اشتبك في المعركة دون اذن منه ، على الرغم من انتصاره فيها . ولقد أضفت عليه هذه الاعمال العظيمة اسماً عظيماً في حينه ، وجعلته من الرجال المشهورين طيلة حياتهم ، أكثر من اية انتصارات او مكاسب عسكرية ، مع العلم انه لم يكن أقل نجاحاً في هذه الميادين ايضاً من اي روماني آخر . والسبب في ذلك،ان كثيرين من الرومانيين شابهوا مانليوس في انتصاراته بينما لم يشابهه احد،او إن شابهه فعدد قليل للغاية في اعماله العظيمة الاخرى.

ولم يكتسب شيبيو الكبير ، من جميع الانتصارات التي احرزها ، مجداً يعادل المجد الذي حققه في شبابه عند دفاعه عن ابيه على نهر تسينو (Ticino)(١) ، او اليمين الذي اقسمه وهو مشهر سيفه ، والذي ارغم عدداً من الشباب بحماسه على ان يقسموه ، على عدم مغادرة ايطاليا

---

١ نهر تسينو . هو أحد روافد نهر البو . ويمر في مقاطعة بافيا . في لومبارديا في شمال ايطاليا .
– المعرب –

بعد هزيمة كانيه ، بعد ان كان بعضهم قد صمم على هجرها . ولقد تركزت بداية شهرته على هذين العملين ، وكانا بمثابة نقط القفز التي ساعدته على انتصاراته في اسبانيا وافريقيا . واتسعت شهرته كذلك في اسبانيا عندما أعاد فتاة إلى أبيها وامرأة إلى زوجها دون ان تمسا بأذى . ولا يكون هذا الطراز من السلوك ضرورياً لاولئك المواطنين الذين يتوقون الى الحصول على الشهرة التي تمكنهم من الوصول إلى مراكز الشرف في جمهوريتهم فقط ، بل يكون ضرورياً كذلك الى الامراء الذين يودون الحفاظ على شهرتهم في اماراتهم ، اذ لا شيء أدعى الى اجلال الامير واحترامه ، من ان يقوم بعمل فرد او يصدر عنه قول يكون متصلاً بالصالح العام ، ويكون قدوة بارزة تظهر سيادته بمظهر الرجل العظيم او المتحرر او العادل ، ويمكن انتشاره على شكل مثل سائر بين افراد رعيته .

ولنعد الآن إلى النقطة الاولى التي ذكرناها في مطارحتنا هذه . فأنا أرى انه عندما يعهد الشعب الى احد أبنائه بمنصب من المناصب ، فأن اختياره لا يكون مرتكزاً الى أساس سيء، اذا استند على الاسس الثلاثة التي سبق لنا ذكرها ، لكن هذا الاختيار يكون افضل اذا كانت عدة امثلة على حسن السلوك ، قد جعلت من ذلك المواطن شخصاً مرموقاً ، اذ يندر في تلك الحالة وقوع أي خطأ . وانا اشير هنا الى تلك المناصب التي تمنح عادة للرجال في مستهل شبابهم والتي لا تتطلب منهم خبرة سابقة معينة ، تضيف شيئاً إلى طبيعتهم او تعمل على تحولها نحو السوء. ولما كان من المحتمل ان يتعرض الشعب للخداع بالنسبة إلى شهرة رجل او سمعته او أعماله ، مما يدفعه على تقديرها اكثر مما تستحق من تقدير، وهو خطأ لا يقع فيه الامير لأنه يجب ان يعرف كل شيء عن هذا الرجل عن طريق مستشاريه. ولما كان الواجب يقضي بعدم حرمان الشعب من مثل هذه المشورة،فقد حرص المشرعون العظام عند اقامة الجمهوريات

على النص بأنه في الحالات التي تتم فيها التعيينات للمناصب الكبيرة في المدينة،وهي المناصب التي يؤلف اسنادها الى غير الأكفاء من الرجال ، خطراً على المدينة ، وبالنظر إلى ان خيال الجماهير يتجه أحياناً بصورة مضللة الى تعيين شخص يفتقر الى الكفاية، يكون من حق كل مواطن، من الناحية القانونية ، بل ومن واجبه العظيم أيضاً ، ن يذيع على الشعب ما يعرفه من عيوب عن المرشح للمنصب، بحيث يتيسر للشعب ان يعرف الرجل على حقيقته .

ويقوم الخطاب الذي القاه فابيوس مكسيموس ، شاهداً على ان هذه العادة كانت مألوفة في رومة ، فقد القى هذا الخطاب على الشعب ابان الحرب البونية الثانية ، وعندما كانت قضية تعيين القناصل مطروحة على البحث،وكان تيتوس اوتاسيليوس اقوى المرشحين للمنصب . وقد اعتقد فابيوس ان الرجل غير صالح للمنصب في تلك الاوقات ، فحمل عليه وبيـّن ما يراه من عجز فيه ، بحيث تمكن من اخراجه من الطريق ، وأقنع الشعب باختيار رجل آخر يستحق المنصب أكثر منه . ومن هذا نستنتج بأن الشعب عند اختياره المرشحين للمناصب ، يتطلع الى وجهي الصورة ويحاول ان يقرر ايهما أكثر صحة وأقوى دلالة ، وعندما تتاح له الفرصة كما تتاح للامير للحصول على المشورة ، فأن اخطاءه تكون أقل من أخطاء الامير حتماً . وهكذا فأن على المواطن الذي يتصور الفوز بمحبة الشعب، ان يتأكد من هذا الفوز ، بانجاز اعمال عظيمة كالاعمال التي انجزها تيتوس مانليوس .

٣٥

الأخطار التي يتعرض لها من يتولى دوراً قيادياً في النصح باتباع سبيل معين من العمل وكيف تكون هذه الاخطار أعظم وأشد عندما يكون سبيل العمل ، من النوع غير المألوف

من المواضيع العميقة والشاقة ، التي يصعب علينا تناولها بالحديث هنا ، موضوع مدى الخطورة ، في ان يتولى المرء دوراً قيادياً في مشروع جديد يمس الكثيرين من الناس ، ومدى ما يلقاه من مشقة في معالجة هذا المشروع وادارته ، ومقابلة السير فيه في حالة تكليفه به . ورغبة مني في الاحتفاظ بهذا الموضوع الى مكان آخر اكثر مناسبة لبحثه(١) ، سأكتفي هنا بالتحدث عن الاخطار التي يسببها المواطنون او اولئك الذين يشيرون على الامير والذين يتولون دوراً قيادياً في قضية مهمة وذات خطورة ، بطريقة تعرضهم للمسؤولية الشاملة ، على كل ما يتعلق بهذه النصيحة . ويحكم الناس على الاعمال من نتائجها ، وعلى هذا يوجه اللوم على ما ينتج من ضرر من احد المشاريع الى الرجل الذي نصح به ، كما يوجه الثناء اليه ، اذا كانت نتيجته طيبة ، وان كان الثواب لا يعادل في اية حالة من الحالات العقاب والخسارة .

يقول العائدون اخيراً من ممتلكات السلطنة العثمانية ، ان السلطان الحالي سليم ، والملقب بالتركي الاعظم قد اعد عدته لغزو سوريا ومصر ، عندما نصحه أحد باشواته وكان قد عهد اليه بولاية منطقة تقع على حدود بلاد العجم ، بعدم تنفيذ خطته تلك ، والهجوم على بلاد الصفويين بدلاً منها . وعمل السلطان بنصيحة واليه ، فمضى ينفذ المشروع على رأس

١ اعتقد ان المؤلف يعني كتاباً آخر ، كان يعتزم وضعه . — المعرب —

قوة ضخمة . وعندما وصل الى منبطح فسيح من الارض العراء التي تنتشر فيها الصحارى الكثيرة ، وتقل الانهار والجداول ، وجد نفسه يواجه نفس العنت الذي كان قد واجهه الرومان في الماضي والذي كان قاضياً علي أكثر من جيش من جيوشهم ، وعلى الرغم من انتصاره في القتال ، فقد خسر الجزء الاكبر من قواته بسبب المجاعات والاوبئة . وثارت ثائرته علي الرجل الذي اشار عليه بهذه الحملة فأعدمه .

وكثيراً ما قرأنا عن مواطنين كانوا قد دعوا الى مشاريع قدر لها ان تفشل فكان مصيرهم النفي والابعاد . وادى نشاط بعض المواطنين الرومان في توليهم دوراً قيادياً في الدعوة لتعيين احد العوام في منصب القنصلين، الى اختيار عامي قنصلاً للمرة الأولى في تاريخ رومة . وحدث ان مني هذا القنصل بهزيمة في المرة الأولى التي قاد فيها جيوش المدينة الى الحرب . وكان من المحتوم ان يتعرض اولئك المواطنون الذين طالبوا بذلك التعيين الى بعض المتاعب ، لو لم يحمهم الحزب الذي جاء التعيين في مصلحته .

ويكون مستشارو الجمهوريات والامراء دون شك في وضع شاق على الغالب ، اذ ما لم يوصوا بانتهاج السبيل الذي يرون رأياً صادقاً في انه سيأتي بالفوائد للجمهورية او للأمير دون اهتمام بالنتائج ، فانهم يفشلون في اداء واجبات منصبهم ، أما اذا اوصوا بانتهاج هذا السبيل ، فانهم يغامرون بحياتهم ، ويقامرون بمراكزهم ، اذ يكون جميع الناس في مثل هذه القضايا كالعميان ، ويحكمون علي المشورة بالصلاح أو السوء علي ضوء نتيجتها . ولا ارى سبيلاً لتجنب العار او الخطر ، الا عن طريق الاعتدال في عرض القضية ، بدلاً من محاولة فرضها بالقوة ، وعن طريق عرض الانسان لآرائه عرضاً لا حماس فيه والدفاع عنها دفاعاً يخلو من الحماس وينطوي على التواضع ، بحيث اذا قبلت الجمهورية التي ينتمي اليها رأيه ، أو رضي به الامير الذي يعمل في خدمته، فانما

يكون هذا القبول بدافع الاختيار ، ولا يبدو في شكل ارغام عن طريق الالحاف منه . واذا ما سرت على هذا المنوال ، فان من غير المعقول بالنسبة الى الأمير او الشعب ان يحملاك ما ينجم عن السوء بسبب نصيحتك اذ ان هذه النصيحة لم يعمل بها خلافاً لارادة الاغلبية . ولا يقع الخطر الا عندما يكون الكثيرون قد عارضوك في نصيحتك ، ومع ذلك فقد عمل بها ، وجاءت بنتائج سيئة وهنا يتألب عليك من عارضوك ويعملون على اسقاطك . وعلى الرغم من افتقار الحالة التي اوردناها الى عنصر المجد الذي يلحق بالرجل الذي يعارضه الكثيرون في رأي يراه ، ويصر مع ذلك على الدعوة اليه ، ثم يحقق هذا الرأي نتائج طيبة ، فان ثمة مزيتين في هذه الحالة ، اولاهما انها لا تنطوي على الخطر ، وثانيتهما انك اذا قدمت نصيحتك بشيء من التواضع وحالت المعارضة بينها وبين التنفيذ ، ثم عمل بنصيحة شخص آخر ، وجاءت بنتائج مفجعة ، فانك ستكتسب في هذه الحالة مجداً عظيماً . وعلى الرغم من انك لا تستطيع ان تفرح بالمجد الذي يتحقق لك من جراء كارثة تحل ببلادك ، أو بأميرك ، الا ان هذا المجد يعني على أي حال شيئاً لك .

ولا أعتقد ان ثمة مجالاً للتقدم بتوصيات اخرى في هذا الصدد ، اذ تعني التوصية ببقاء الناس صامتين ، وبعدم التعبير عن آرائهم ، عدم تقديم اي نفع للجمهورية او للامير ، ولا ينتهي الخطر في مثل هذه الحالة ، بل ان من يعمل بهذه الوصية يعرض نفسه للشكوك ، وهذا قد يحدث كما حدث لبعض اصدقاء بيرسيوس ملك مقدونيا . فلقد هزم هذا الملك على يدي باولوس اميليوس ، ولكنه تمكن من النجاة مع بعض أصدقائه . وعندما كانوا يستعرضون ما حدث، أخذ احدهم يحدث الملك عن الاخطاء الكثيرة التي اقترفها، وكيف ان هذه الاخطاء كانت السبب فيما لحق به من دمار وهنا تضايق بيرسيوس اشد الضيق وصرخ بالرجل قائلاً : « ألا تخجل ايها الخائن من التحدث الآن عن امور لا أستطيع

اصلاحها ؟ » ، وقتله الملك بيديه فوراً . وهكذا تعرض هذا الرجل للعقاب لأنه ظل صامتاً عندما كان واجبه يدعوه الى الكلام، ولأنه تكلم عندما كان من واجبه ان يسكت . ويظهر من هذا ان المرء لا ينجو من الخطر ، اذا ما امتنع عن اسداء النصح ، ولهذا فمن الأفضل في رأيي ان يعمل المرء ضمن المخطط الذي رسمته اعلاه وان يسير بموجبه.

الكتاب الثالث

المطارحات من ٣٦ الى ٣٩

نصائح إلى القادة في الميدان

٣٦

الاسباب التي جعلت الناس وتجعلهم ينظرون إلى الفرنسيين (١) عند بدء المعركة وكأنهم فوق مستوى الرجال وعند انتهائها على انهم دون مستوى النساء

تذكرني الحمية التي ابداها ذلك الغالي ،عندما تحدى اي روماني على ضفاف نهر آنيو ، لمبارزته بصورة فردية ، مما أدى الى القتال بينه وبين

١ يتحدث المؤلف في مطارحته عن الغا ليين ، الذين يعتبرون من الناحية التاريخية اسلاف الفرنسيين اليوم . – المعرب –

تيتوس مانليوس ، بما ذكره تيتوس ليفي مرات عدة عن الغاليين،وهو انهم في بداية أية معركة من المعارك يبدون وكأنهم فوق مستوى الرجال، ثم لا يلبثون ان يظهروا على حقيقتهم اثناء القتال ، التي تشير الى انهم دون مستوى النساء . ويرى الكثيرون في ان السبب في ذلك يعود الى طبيعتهم التي شاءت ان تخلقهم على هذا النحو ، وهو رأي صحيح ، ولكن لا ينجم عنه مطاقاً ان الطبيعة التي جعلتهم يتميزون بالحمية والحماس في البداية ، لا يمكن تنظيمها ، بفضل قوانين وانظمة تحفظ لهم هذا الحماس حتى النهاية .

وأود ان اشير تأكيداً مني لهذا الرأي ، الى ان الجيوش تكون على ثلاثة أنواع . ويتميز النوع الاول من الجيوش بالحماس والنظام ، ويؤدي النظام الى توليد الحماس والشجاعة ، كما كانت الحالة بالنسبة الى الجيش الروماني ، إذ يجد المرء ان الرومان طيلة تاريخهم الطويل ، قد تميزوا بروعة النظام في جيوشهم ،وهو ما حققه الانضباط العسكري ذو التاريخ الطويل . ولا يستطيع اي انسان في الجيوش الحسنة التنظيم ، ان يقوم بأي عمل الا ضمن ما تقضي به الأنظمة . ولا نجد في الجيش الروماني الذي يصح اعتباره نموذجاً للجيوش الاخرى ، اذ تمكن من احتلال العالم المعروف بأسره ، اي جندي يأكل او ينام او يرتكب الدعارة ، او يؤدي اي عمل من الاعمال عسكرياً كان او مدنياً ، دون تعليمات تصدر اليه من قنصله . اما الجيوش التي تتصرف خلافاً لذلك،فلا يمكن اعتبارها من الجيوش الصحيحة ، واذا كانت هذه الجيوش ستؤدي عملاً بارزاً من الاعمال ، فأن عملها هذا يأتي نتيجة الحماس والتهور ، لا نتيجة الشجاعة،ولكن عندما تكيف الشجاعة المنظمة حماسها للعادات والظروف، فلن تقوم هناك متاعب تبعث الرعب في الجيش ، او تؤدي به الى فقده شجاعته . فالتنظيم الصالح يبعث الشجاعة والحماس من حيث انه يقوي الأمل في النصر ، وهو أمل لا تفتقر اليه الجيوش طالما ان صفوفها تقف

قوية متماسكة .

ويقع عكس هذا تماماً في تلك الجيوش التي تتميز بالحماس وتفتقر الى النظام ، كما كانت الحالة بالنسبة الى الغاليين الذين كانوا يفتقرون في قتالهم الى الاسلوب الصحيح ، اذ كانوا عندمــا يفشل هجومم الأول يترنحون وذلك لان الحماس الذي كانوا يتكلون اليه ظل بـلا دعم من الشجاعة المنضبطة والمنظمة ، ولم يكن ثمة ما يستطيعون الاتكال عليه بعد ان يفتر ذلك الحماس . اما الرومان فكانوا يستخفون بالاخطار من الناحية الاخرى ، لأن انضباطهم كان رائعاً ، ولأنهم لم يكونوا يفقدون أملهم بالنصر ، اذ كانوا يحافظون على صمودهم وعلى ثبات اقدامهم، ويقاتلون بنفس الشجاعة ونفس الحماس ، في نهاية المعركة كما في مستهلها ، بل لعلهم كانوا يزدادون حماساً ، كلما استفزهم القتال اليه .

ويفتقر الطراز الثالث من الجيوش الى الحماس الطبيعي والى النظام الذي يتممه ، وهذا هو الوضع الذي يسود الجيوش الايطالية في يومنا هذا ، وهي جيوش لا نفع لها ولا جدوى ، ولا تستطيع ان تكسب حرباً ، إلا اذا كانت تقاتل جيشاً ينهزم بدافع سبب آخر . ولا اري بـي حاجة الى الاتيان بشواهد جديدة،اذا انها تقدم في كل يوم دليلاً على افتقارها الكلي الى الشجاعة . ولما كان ما يقوله تيتوس ليفي يوضح للجميع الطريقة التي يجب اتباعهــا في تشكيل الجيوش الطيبة ، وكيف تكون الجيوش الرديئة ، فانني ارى ان اقتبس الخطاب الذي القاه بابيريوس كيرسور (Papirius Cursor) (١) عندما اراد تعنيف فابيوس رئيس فرسانه. فقد قال الرجل مــا نصّه : « اذا اساء أمر الجيش فقد رجاله احترامهم

١ بابيريوس كيرسور – قـائد روماني بارز اشتهر أمره في الحرب السمنية الثانية، انتخب قنصلا خمس مرات وديكتاتوراً مرتين . (٣٢٥ ، ٣٠٩) ق. م . وقد أحرز أكبر انتصار عليهم في عهد ديكتاتوريته الثانية . وعلى الرغم من عظمته كقائد إلا أنه لم يكن محبوباً عند جنوده بالنظر إلى صرامته . واليه يرجع الفضل في انهاء الحرب السمنية الثالثة عـام (٢٧٢) ق. م.
– المعرب –

للناس واجلالهم للآلهة ، وامتنعوا عن اطاعة مراسيم القادة أو اشارات الفؤول ، ويغدون جنوداً لا ذخائر لديهم ، يطوفون هناك وهنالك في اراض معادية وصديقة على حد سواء ، فلقد نسوا قسمهم ، وأخذوا يسرّحون انفسهم من الجيش دون اذن،وفي أي وقت يشاؤون ويتركون راياتهم دون حراسة ، ولا يجتمعون او ينصرفون حسب اوامر القيادة ، وسيقاتلون ليلاً ونهاراً ، سواء اكان المكان صالحاً للقتال او غير صالح ، وبأمر أو بدون امر من قائدهم،ولن يحافظوا علي مراكزهم في افواجهم أو في صفوفهم ، وانما يكونون اشبه بعصابات اللصوص ، فهم جنود تعمهم الفوضى ، ويفتقرون الى الهداية ، ولا يعرفون معنى الانضباط او الطاعة » . واذا ما طبقنا هذه القواعد ، امكننا ان نرى على الفور ما اذا كانت الجندية في يومنا هذا من النوع الفوضوي والاعمى والجاهل للانضباط والطاعة ، وما اذا كانت في منأىً عما يصح تسميته بالجندية حقاً ، ومدى ما فيها من بعد عن الحماس والنظام اللذين ميزا الجيش الروماني ، او الحماس وحده الذي كان طابع الغاليين .

٣٧

هل المناوشات ضرورية قبل المعركة ولماذا ؟ وعند تقرير الاستغناء عنها يجب الكشف عن وجود قوات معادية جديدة

هناك صعوبة تبدو واضحة في الشؤون الانسانية،بالاضافة الى المصاعب الاخرى ، وهذه الصعوبة التي سبق لي التلميح عنها في مطارحات سابقة

ان الانسان عندما يستهدف الوصول بالاشياء الى مرحلة الكمال، يجد دائماً مع الاشياء الطيبة والصالحة نوعاً من الشر مترابطاً معها ترابطاً فيه كل السهولة ، بحيث يبدو ان من المحال الوصول الى الخير دون ان يكون مصحوباً بهذا الشر . وينطبق هذا القول على كل ما يقوم به الانسان من عمل . وتؤدي هذه الصعوبة الى تعذر الحصول على الخير الا اذا كان الحظ حليف من يستهدفه ، وهنا يلعب الحظ دوره في القضاء على هذه المشكلة الطبيعية . وقد دفعني القتال الذي وقع بين مانليوس والغالي الى هذا القول ، وهو القتال الذي تحدث عنه تيتوس ليفي على النحو التالي : « وكان هذا الصراع لحظة حاسمة بالنسبة الى نتيجة الحرب كلها، وذلك لأن جيش الغاليين ترك معسكره في حالة من الهلع بسبب حادث بسيط قليل الأهمية ، وانتقل أولاً الى المنطقة التيبورتينية ، ومنهـا الى كامبانيا (١) » . فأنا أرى من الناحية الاولى ان من واجب القائد البارع ان يتجنب مهما كان الثمن القيام بأي عمل مهما كان تافهاً قد يؤدي الى ترك أثر سيء على جيشه ، وذلك لأن الاشتباك في معركة لا تستخدم فيها جميع القوات ، يعتبر مغامرة بالمستقبل كله ، وهو أمر في غاية الطيش والتهور ، كما سبق لي ان قلت عندما كنت أتحدث عن حماية المضائق .

وأرى من الناحية الثانية ان من واجب القادة الحكماء ، الذين يجدون أنفسهم في قتال مع عدو جديد اكتسب شهرة حربية سابقة ، ان يعملوا قبل الاشتباك معه في معركة حاسمة على السماح لجنودهم بمناوشته في قتال

١ التيبورتينية ، نسبة إلى مدينة تيبور القديمة أو ما تسمى اليوم تيفولي (**Tivoli**) وتبعد ٢٥ ميلا إلى الشمال الشرقي من رومة على نهر الآنيو . وكانت مصيفاً لكبراء الرومان. وسكانها اليوم (١٦) الفاً .

أما كامبانيا ، فهو الاسم القديم لمقاطعة ايطالية تضم الآن مقاطعات افالينو وكاسيرتا وساليرنو ونابولي، ويبلغ سكانها نحواً من اربعة ملايين . — المعرب —

جزئي لاختبار مدى قوتـــه ، حتى اذا ما اكتسب هؤلاء الجنود بعض المعرفة عنه ، وعن طريقة مقاتلته ، زالت المخاوف الناجمة عن شهرته ومكانته . ولا ريب في ان القيام بهذا العمل في منتهى الأهمية بالنسبة الى القائد ، اذ ان في هذا السبيل شيئاً يشبه الضرورة ، يدفعك الى اتباعه وسلوكه ، اذ لا تعجز عن الادراك بأنك تعرض نفسك بوضوح للكارثة اذا اشتبكت مع العدو ، دون ان تؤمن لرجالك بعض الخبرة المسبقة التي تحررهم من ذلك الخوف الذي أثارته شهرة العدو في أفئدتهم .

ولقد تولى فاليريوس كورفينوس قيادة الجيوش التي ساقهـا الرومان لحرب السمنيين ، وكانوا أعداء جديدين بالنسبة اليهـم ، ولم تكن لهم خبرة بطاقاتهم على القتال سبق لهم ان حصلوا عليها من اشتباكاتهم معهم. ويقول تيتوس ليفي ، ان فاليريوس حمل الرومان على الاشتباك في بعض المناوشات مع السمنيين حتى « لا يخشوا من الحرب الجديدة او من الاعداء الجدد » . ومع ذلك فهناك خطر عظيم في حالة إصابة جنودك بالهزيمة في هذه المناوشات من زيادة مخاوفهم وجبنهم ، وهكذا تحصل على عكس التأثير الذي ترغب في تحقيقه، فتكون بذلك قد بعثت في نفوسهم الرعب بينما كان هدفك تطمين خواطرهم ، وهــذه حالة من الحالات الكثيرة التي يترابط فيها الشر ترابطاً وثيقاً مع الخير ، بحيث كثيراً ما يحدث ان يقع هذا مكان ذاك .

وأنا أرى بالنسبة الى ذلك ، ان من واجب القائد البارع ان يحرص كل الحرص، ليحول دون وقوع اي حادث مشؤوم قد يؤدي الى الاقلال من شجاعة جيشه . ولا ريب في ان استهلال القتـال بالخسارة ، شيء يدعو الى التقليل من شجاعة الجيش . ولذا فعليه ان يكون حذراً كل الحذر في موضوع المناوشات ،وان لا يسمح بوقوعها إلا اذا كان واثقاً من انها في مصلحته ، ومتأكداً من انه سيكون الظافر فيها، وعليه ايضاً ان لا يحاول حماية المضائق ، في الاماكن التي لا يستطيع فيها ان يضمن

دخول جيشه كله في العملية ، وعليه كذلك ان لا يدافع عن المدن الا إذا كانت خسارتها تنطوي بصورة حتميـــة على دماره ، واذا ما قرر الدفاع عنها، فيجب ان يتخذ الترتيبات اللازمة لضمان التعاون بين جيشه وبين حامياتها في دفع أي هجوم ، بحيث اذا مـا قرر معالجـة موضوع المحاصرين ، أمكنه ان يستخدم قواته كلها ، والا تحتم عليـه ان يترك المدينة دون دفاع عنها ،فهو اذا خسر المدينة التي تخلى عنها مع احتفاظه بتماسك جيشه لا يفقد سمعته في الحرب ، ولا يفقد الأمل في الظفر بها، أما عندما يخسر ما كان قد قرر الدفاع عنه وجعل الآخرين على علم بما قرره ، فأن الخسارة تكون خطيرة ، وقد تكون مفجعة ايضاً ، ويكون كالغاليين ، قد خسر الحرب كلها من جراء خسارته في قضية تافهة لا شأن لها .

وعندما هاجم الرومان فيليب المقدوني والد بيرسيوس ، وكان قائداً بارزاً من قادة عصره ، تخلّى عن قسم كبير من بلاده ، بعد ان ازال منها الحرث والنسل ، وذلك اعتقاداً منه بتعذر الدفاع عن هـذا القسم كله ، وقد وجد بوصفه رجلاً حكيماً وعاقلاً ، ان فشله في الدفـاع عن هذا القسم يعرض سمعته العسكرية للضياع مما يكون اكثر فجيعة له مما لو سمح بسقوطه في يد العدو ، وكأنه شيء لا يكترث بوقوعــه . وعندما ساءت احوال الرومان بعد هزيمة كانيه ، امتنعــوا عن مساعدة الكثيرين من رعاياهم ومن تابعيهم،طالبين اليهم ان يدافعوا عن انفسهم، ما امكنهم سبيل الى ذلك الدفاع . ولا ريب في ان هذا المسلك خير من تولي الدفاع عن الحلفاء ، ومن ثم التخلي عنهم ، لأن من يتبع الطريق الثاني يفقد حلفاءه وقواته على حد سواء ، بينما لا يفقد متبع المسلك الأول الا الحلفاء .

ولنعد الآن الى موضوع المناوشات ، واني ارى من واجب القائد ، اذا رأى نفسه مرغماً كل الارغام على اللجوء الى هذه الوسيلة ، بسبب

جِدّة عدوه ان لا يقدم عليها إلا اذا كان متفوقاً على عدوه في المزايا وكان واثقاً من عـدم وجود خطر في الخسارة من جرائها . وعليه ان يعمل في الحقيقة ، كما عمل ماريوس — وهو السبيل الصحيح — عندما مضى لقتال الكمبري(١) ، وهي قبيلة في منتهى الغلظـة والتوحش ، وقد جاءت الى ايطاليا لافتراسها ، فقد كان القائد الروماني يتقدم منها والذعر يملأ قلبه ، بسبب ما عرف عنها من توحش ومن كثرة عدد ، وبسبب ايقاعها الهزيمة بالجيش الروماني الذي سبقه إلى قتالها . وقرر ان من الضروري القيـام بعمل قبل خوض المعركة ينتزع من قلوب رجاله الفزع الذي سيطر عليها خوفاً من العدو ، فوضع جيشه كقائـد حكيم عاقل ، اكثر من مرة في مواقع قريبة من الطرق التي يتحتم على جيش العدو المرور منها ، وكان قصده من ذلك تمكين رجاله ، وهم وراء حصون معسكرهم ، من رؤية مظهر العدو بعيونهم ، فلما رأوا ما عليه العدو من اضطراب وافتقار الى النظام ، وما يثقل رجاله من متـاع ، وما في سلاحهم من نقص، حتى ان بعضهم كان بلا سلاح ، اطمأنت نفوسهم ، واصبحوا تواقين إلى مقاتلته بعد ان زالت هيبته من نفوسهم. وعلى القادة الآخرين ، ان يقلّدوا هذا المسلك الحكيم الذي اتبعه ماريوس فيوفروا مغبة التعرّض للاخطار التي شرحتها سابقاً ، ولا يقع لهم مـا وقع للغاليين الذين « تركوا معسكرهم في حالة من الهلع بسبب حادث بسيط قليل الاهميـة ، وانتقلوا اولاً الى المنطقة التيوتونية ومنها الى كامبانيا » .

ولما كنت قد ذكرت فاليريوس كورفينوس في هذه المطارحة، فانني أرى ان اسرد في الفصل التالي الخطاب الذي القاه لأدلل على السلوك الذي يجب ان ينهجه القائد الصالح .

---

١ الكمبري — قبائل تيوتونية ، سبق لنا الحديث عنها في هامش سابق . — المعرب —

٣٨

ما يجب على القائد عمله ليوحي لجنوده بالثقة فيه

مضى فاليريوس كورفينوس ، كما سبق لنا ان قلنـا من قبل على رأس جيشه لقتال السمنيين ،وهم اعداء جدد لم يكن الرومانيون يعرفونهم بعد ، ورغبة منه في تطمين جنوده وتعريفهم على العدو ، حملهم على الاشتباك معه في بعض المناوشات ، ولما رأى ان اجراءه لم يكن كافياً، قرر ان يخطب في جنوده قبل المعركة،وان يبيّن لهم بأقصى ما يستطيع من بلاغـة في القول واجبهم في عدم الاهتمام كثيراً بملل هذا العدو ، مخاطباً في عباراته ، ما يتميز به رجاله من شجاعة ، ومبرزاً شجاعته هو ايضاً . ويستطيع الانسان ان يتعلم من خطابه الذي نقله تيتوس ليفي، ما يجب على القائد عمله اذا اراد من جيشه الثقة فيه . وهذا ما قالـه القائـد : « انظروا الى القائد الذي تمضون الى القتال في ظل قيادته واشرافه . واسألوا انفسكم ما اذا كان الشخص الذي تستمعون اليه الآن هو مجرد خطيب مفوّه لا تتعدى شجاعته الاقوال ، ولا خبرة له في القضايا العسكرية ، او اذا كان رجلاً يعرف طريقة التعامل بالاسلحة ، وتقدم الصفوف امام الرايات ، واقتحام المعارك في خضمها وصميمها ! اريد منكم يا رجالي البواسل ، ان تشهدوا اعمالي لا اقوالي،وان تتطلعوا إليّ لا انتظاراً لأوامري فحسب ، بل كقدوة لـكم ، فلقد تمكنت بيدي اليمنى هذه من كسب الأمجاد والمفاخر ثلاث مرات اثناء توليّ القنصلية.» ويستطيع كل انسان يود الحفاظ على مركزه كقائـد ، ان يتعلم الكثير من هذا الخطاب ، اذا استوعبه وفهمه فهماً صحيحاً ، أما الذي يسير على خلاف ذلك ، فسيجد ان رتبته التي حصل عليها نتيجـة الحظ او

الطموح ، ستقضى علـى شهرته في الوقت المناسب بدلاً من دعمها ، فليست الالقاب هي التي تبرز الرجال ، وانما الرجال هم الذين يبرزون الالقاب .

ومن واجب المرء ايضاً، كما سبق لي ان قلت في مستهل هذه المطارحة ان يلاحظ انه اذا كان القادة البارعون ، قد لجأوا الى اساليب شاذة لتقوية الشجاعة في جيش يضم الجنود الذين مارسوا القتال ، عندما يواجه هذا الجيش عدواً لم يسبق له ان عرفه من قبل ، فان من واجبهم ان يبذلوا جهوداً اكبر ، عند توليهم قيادة جيش جديد ، لم يسبق لرجاله ان رأوا عـدواً من قبل . فاذا كان العدو قادراً على بعث الرعب في افئدة جيش محنّك وذي خبرة لجهل هـذا الجيش به ، فان في قدرة العدو ، أي عدو ان يبعث رعباً اكبر في افئدة رجال أي جيش جديد. ويستطيع المرء في حكم الواقع ان يجد ان القادة البارعين قد تغلبوا على جميع هذه الصعوبات عادة بمنتهى الحكمة والتعقل على نحو الطريقة التي استعملها في التغلب عليها ، كل من غراشوس الروماني وايبامينونداس الطيبي ، اللذين سبق لنا الحديث عنهما في مناسبات سابقة ، فقد تمكنا بجيوش جديدة، من هزم جيوش مارست فنون القتال وخبرتها اكبر خبرة .

وكانت الوسائل التي لجأ اليها هذان القائدان هي تدريب الجنود عدة اشهر ، وتعويدهم على اطاعة الاوامر ، عن طريق الزج بهم في معارك وهمية ، مما بعث في نفسيهما الثقة بهم ، ومضيا بهم الى معارك صحيحة يخوضانها على رأسهم . وعلى كل عسكري والحالة هذه ان لا يتشكك في قدرته على تأليف جيش صالح ، عندما لا يكون ثمة افتقار للرجال وعلى الأمير الذي يقود عدداً كبيراً من الرجال ، ويفتقر في الوقت نفسه الى الجنود الصالحين ، ان لا يندب جبن رجاله ، بل يندب كسله هو وحماقته .

٣٩

على القائد ان يعرف طبيعة الأرض

من الامور الجوهرية بالنسبة الى كل قائد من قادة الجيوش معرفة طبيعة الارض وتضاريسها ، اذ ان افتقاره إلى هذه المعرفة العامة منها والتفصيلية ، تجعله عاجزاً عن القيام بأية عملية عسكرية . ولما كانت جميع العلوم تتطلب اختباراً عملياً ، اذا أردنا تحقيق الكمال فيها ، فأن هذه المعرفة أيضاً تتطلب الكثير من الاختبار والمراس . وتتحقق المعرفة التفصيلية والاختبار للقائد عن طريق الصيد ، وهو انفع التمارين واكثرها جدوى . ومن هنا ينشأ قول قدامى المؤرخين والكتاب ، من ان الابطال الذين سادوا العالم وحكموه في ايامهم ، قد نشأوا في الغابات ، وتربوا على مراس الصيد الذي لا يؤمن لمن يواظب عليه المعرفة اللازمة فحسب، وانما يعلمه ايضاً مجموعة من الامور الاخرى التي تعتبر جوهرية في فن الحرب وشؤونها. وهكذا نرى اكزونوفون عندما يحدثنا عن حياة كورش يصوره وقد جمع حوله رجاله،عندما اعتزم مهاجمة ملك ارمينيا ليوزع عليهم مهامهم ، ويذكرهم ان العمل الذي يقبلون عليه لا يختلف كثيراً عن رحلات الصيد ، التي طالما رافقوه فيها ، ثم يقول لأولئك الذين يعتزم ايفادهم لاقامة الكمائن في الجبال ، ان عملهم لا يعدو عمل اولئك الذين يمضون لنصب الشباك في الغابات لصيد الحيوانات ، وينتقل منهم الى اولئك الذين قرر ارسالهم لتنظيف المناطق الريفية وصقلها ، فيقول لهم ان واجبهم لا يعدو واجب اولئك الذين يمضون لاخراج الحيوان المفترس من عرينه بعد صيده لسوقه الى الشباك .

وقد ذكرت قول اكزونوفون هذا ، لاظهر ان المؤرخ كان يؤيد الفكرة القائلة بأن الحرب كرحلة صيد ، ومن هنا نشأ احترام عظماء

الرجال لهذه الرياضة ونظارهم اليها كشيء ضروري ونبيل للغاية . وليس ثمة من طريقة أفضل لمعرفة طبيعة الأرض ولا اكثر نفعاً ، من الصيد، وذلك لأنه يتيح لأولئك الذين يشتركون فيه المعرفة الدقيقة بأوضاع الأرض التي يجرون فيها صيدهم ، وهو يمكن الانسان الذي يتعرف على منطقة معينة من الارض تعرفاً دقيقاً ، من تفهم دقائق أية منطقة اخرى بيسر وسهولة . فهناك نوع من التناسق بين أجـزاء البلاد المختلفة ، وهكذا يتيسر للانسان ان يتنقل بعد تعرفه على ارض ، الى الارض الاخـرى للتعرف عليها ، بينما لا يستطيع الرجـل الذي لم يحصل على تجربـة طيبة بصدد احدى المناطق من الحصول على معرفة وثيقة بالنسبة الى اخرى ، كما لا يستطيع معرفة شيء عنها الا اذا قضى فيها زمناً طويلاً ،ويستطيع ذوو الخبرة مثلاً ان يدركوا في لمحة واحدة مدى امتداد هذا السهل او ذاك ، ومسافة ارتفاع هذا الجبل او ذاك ، والى اين يمضي هـذا الوادي،وكل شيء يتعلق بهذا النوع من المعرفة ، اذ سبق له ان حصل على قياس صحيح عنها .

ويؤكد لنا تيتوس ليفي هـذه الحقيقـة عندما يتحدث عن بوبليوس ديسيوس . فلقد كان هذا الرجل من حماة الشعب ، وقد تولى قيادة فئة من الجيش الروماني الذي يقوده القنصل كورنيليوس ، والذي مضى الى حرب السمنيين ، فدخل به القنصل وادياً كان في امكان السمنيـين ان يحصروه فيه لولا ان ديسيوس رأى الخطر العظيم الذي يتعرض له الجيش وبادر القنصل قائلاً : « اترى يا عولوس كورنيليوس تلك القمة التي تستشرف العدو ؟ ان املنا الوحيد يتركز في تلك القمة ، وفي احتلالها بسرعة، لا سيا وقد اهملها السمنيون عن غباء وبلادة » . وكان تيتوس ليفي قبل ان يشرع في نقل ما قاله ديسيوس ، يتحدث عنه في تاريخه قائلاً : « وكان بوبليوس ديسيوس ، وهو من حماة الشعب العسكريين قد لاحظ تلاً عالياً يرتفع فوق اخدود تكتنظ الغابات فيه ، ويهدد موقع

العدو ، ويصعب الوصول اليه على جيش يسير في نظام السير العسكري، ولكنـــه لا يصعب على القوات الخفيفة » . وأوفده القنصل الى المكان الذي اشار اليه ، على رأس ثلاثة آلاف من جنود الرومان ، فأنقـــذ الجيش كله . وعندما خيم الظلام وكان يفكر بالعودة لانقاذ نفسه وجنوده يضع ليفي على لسانه العبارات التالية : « تعالوا معي ، في الوقت الذي لا يزال الضوء فيه ظاهراً ، لنستكشف الأماكن التي وضع العدو حراسه فيها ، لنرى اذا كان ثمة مجال لنا للافلات . وقد نفذ خطته تنفيـــذاً دقيقاً وهو يرتدي ملابس الجنود الحربية ، مخافة ان يلاحظ العدو وجود ضابط يتجول على مقربة منه » .

وتظهر لنا هذه الحادثة جدوى معرفة القائد بطبيعة البلاد وضرورتها. ولو لم يكن ديسيوس رجلاً عاقلاً حكيماً ، ولو لم يكن قد اكتسب مثل هـــذه المعرفة لما تمكن من معرفة مدى النفع الذي سيحققه الجيش الروماني من احتلال ذلك التل ، ولما استطاع ان يقرر من هـــذا البعد الكبير ، ما اذا كان التل من النوع الذي يمكن ارتقاؤه اولاً ، ولمـــا تمكن ايضاً بعد الوصول الى القمة ، وعندما رغب في العودة الى الجيش رغم احاطة العدو به من جميع اطرافه من تحديد الطريق التي يجب عليه ان يعود منها ، من هذه المسافة البعيدة والأماكن التي قرر العـــدو ان يتولى حراستهـــا . ويستطيع الانسان ان يستخلص من ذلك القول بأن ديسيوس كان ذا خبرة واسعة بطبيعة الاراضي ، وان هذه الخبرة هي التي مكنته من انقاذ الجيش الروماني ، باحتلال ذلك التل ، والتي سهلت له فيما بعد، واثر تطويق العدو له، اكتشاف الطريق التي يستطيع بواسطتها ان ينجو منها هو ورجاله وان يصلوا الى مناطق الأمان .

الكتاب الثالث

المطارحات من ٤٠ الى ٤٢

سلامة الشعب هي الشريعة العظمى

٤٠

اللجوء إلى الخدعة في الحرب لا ينافي المجد مطلقاً

قد يكون الخداع في أي عمل من الأعمال كريهاً وممقوتاً ، الا انه في ادارة الحروب وسيرها أمر جدير بالثناء والتمجيد . والرجل الذي يقهر خصمه عن طريق الخداع ، يستحق الثناء تماماً كالمرء الذي يقهر خصمه بطريق القوة . ويظهر هذا القول في الأحكام التي يصدرها مؤرخو السير على الرجال العظام، كإطرائهم مثلاً هانيبال وغيره من القادة الذين اشتهروا بمثل هذا الطراز من السلوك . وفي التواريخ شواهد وأمثلة عدة ولن اسردها ، وانما اكتفي بالقول بأنني لا اعني بالخداع اللجوء الى

الكذب او نقض العهود والاتفاقات التي تعقدها ، على اعتبار ان هـذا الطراز مجيد ، وان كان احياناً يؤدي الى فوزك بدولة او بمملكة ، كما سبق لي ان قلت في مطارحة سابقة، الا انه لن يأتي لك بالمجد مطلقاً . ولكنني أعني بالخداع ، ذلك الطراز الذي يستعمل مع عدو لم يصدقك عهده ، كالخداع الذي ينطوي عليه تسيير الحروب وادارة دفتها، كذلك الذي استخدمه هانيبال على ضفاف بحيرة بيروجيا (Perugian) (١) ، حيث ادعى الهزيمة لاصطياد القنصل وجيشه الروماني في الفخ الذي نصبه، او كإحراقه قرون قطيع من الماشيـــة عندما أراد النجاة من يدي فابيوس مكسيموس .

وينتمي الخداع الذي اتبعه بونطيوس قائد السمنيين الى هذا الطـراز من الخداع ،اثناء محاولته ايقاع الجيش الروماني في مصيده عند « اشواك كودين » . فبعد ان ركّز جيشه في قمة الجبل ، بعث ببعض جنوده ، وقد ألبسهم ملابس الرعاة ، يسوقون قطعانـاً من الغنم عبر السهل، وقد اعتقلهم الرومان الذين سألوهم عن المكان الذي يعسكر فيه جيش السمنيين. وقد اتفق الجميع على الاجابة برد واحد كان بونطيوس قد لقنهم اياه، وهو ان الجيش قد مضى الى حصار نوكيرا (Nocera) (٢) ، وصدق القنصلان هذه الاقوال ، ممـا ادى الى وقوع جيشهـــا في قبضة الجيش السمني ، عندما وصل الى صخور كودين ،حيث كان السمنيون يختفون في طياتها . وكان في وسع هذا النصر الذي حققه بونطيوس عن طريق الخداع ان يشهر صيته الى حد كبير ، لو انه اتبع نصيحة والده، الذي

---

١ الاسم القديم لبحيرة ترانسيمين (Transimene) . وتقع في منطقة اومبريا في ايطاليا ، وقد تم تجفيفها عام ١٨٩٨ ، واستصلح (٥٥٠٠) فدان من الارض الجديدة للزراعة . وقد اشتهرت بالمعركة التي دارت على ضفافها وانتصر فيها هانيبال على الجيش الروماني بقيادة فلامينيوس عـــام ٢١٧ ق. م.

٢ مدينة تقع في كامبانيا على بعد ثمانية أميال إلى الشمال الغربي من ساليرنو . ويبلغ عدد سكان المدينة الحالية ٣٣٫٨٠٠ . — المعرب —

اشار عليه اما بالسماح للجيش الروماني بالنجاة دون مهانة ، او ان يبيده عن بكرة ابيه ، ولكنه اتبع طريقاً وسطاً « لا يأتي لك بصديق ، ولا يزيح من طريقك عدواً »(١) ، وهو طريق طالما أتى بالضرر والاذى، عند اتباعه في شؤون الدولة ، كما سبق لي ان قلت في مطارحة سابقة .

٤١

ضرورة الدفاع عن البلاد ، سواء انطوى الدفاع على مجد أو ذلة فالدفاع عنها أمر طيب ، مهما كانت نتيجتـــه

حوصر الجيش الروماني وقنصله كما ذكرنا في المطارحة السابقة،وفرض السمنيون على الرومان شروطاً مهينة . فقـد اشترط هؤلاء ، ان يوضع النير في رقابهم ، وان يعودوا الى رومة دون سلاح او عتـاد . وعرت الدهشة القنصلين،وخيم اليأس على الجيش بأسره، ولكن الرسول الروماني لوشيوس لينتولوس ، قال للجميع بأن عليهم ان يقبلوا بكـــل شيء ، رغبة في انقاذ بلادهم،اذ ان بقاء رومة متوقف على بقاء هذا الجيش ، فأن من الواجب انقاذه مهما كان الثمن ، وان من الخير ان يدافع المرء عن بلاده بأي طريق يستطيع ، سواء انطوى دفاعه على المجد او على المهانة ، اذ لو تم انقاذ هذا الجيش ، فأن رومة تستطيع ان تمحو العار في الوقت المناسب ، اما اذا لم يتم انقاذه ، وآثر الموت بفخـار ، فأن رومة وحريتها معرضتان للضياع ، واتبع الجميع نصيحة لينتولوس .

وعلى كل مواطن يرغب في نصح وطنه ، ان يقدر هـذه النصيحة

---

١ مقتبسة من كتاب تيتوس ليفي . — المعرب —

وان يوليها اهتمامه ، اذ عندما تتوقف سلامة البلاد كلها ، على القرار الذي يتخذه المرء ، فمن الواجب ان لا يهتم هذا الانسان بقضايا اللطف والقسوة ، ولا بالاطراء او المذلة ، بل عليه ان يتخلى عن كل اعتبار آخر ، وان يسلك ذلك المسلك الذي يؤدي الى الحفاظ على حياة بلاده وحريتها بكل ما لديه من اخلاص وحماس .

وهذا هو المسلك الذي يسير عليه الفرنسيون كما يبدو من اعمالهم وأقوالهم ، للدفاع عن جلال ملكهم ، وسلطان مملكتهم ، فلا صوت يسمع بفروغ صبر اكثر من الصوت القائل « سيكون من العار ان يتبع الملك مثل هذا الاسلوب » . فليس ثمة من قرار يتخذه الملك يكون معيباً ، على حد قولهم ، سواء أأدى الى الخير او الى المتاعب ، وسواء أفاز او خسر ، فهذا من شأنه على حد ما يرونه .

٤٢

على الانسان ان لا يحافظ على الوعود التي تعطى بالاكراه

عاد القنصلان الى رومة على رأس ذلك الجيش الذي انتزع منه سلاحه والذي عومل تلك المعاملة المعيبة المشينة ، وقد اصر اول الخطباء في مجلس الشيوخ بعد عودة الجيش ، ان من الواجب عدم الحفاظ على معاهدة الصلح التي تم توقيعها في كوديوم . وكان القنصل سبريوس بوستوميوس ، هو الذي أفضى بهذا الرأي واصر عليه . فقد ذكر ان هذه المعاهدة لا تربط الشعب الروماني،وانما تربطه هو والذين وقعوها معه ليس الا . واضاف ان الشعب اذا أراد التحرر منها ومن التزاماتها ففي وسعه ان يبعث به وبكل من وقعها معه الى السمنيين ليظلوا اسرى

عندهم . وقد دافع عن هذا الرأي بعناد واصرار الى الحد الذي حمل مجلس الشيوخ على الاذعان ، فبعث به وبالآخرين كأسرى الى السمنيين ثم احتج بأن المعاهدة تعتبر لاغية وغير قائمة.وقد خدم الحظ بوستوميوس في هذه القضية وذلك لان السمنيين لم يحتفظوا به ، وعندما عاد الى رومة اكتسب مجداً جديداً في عيون الرومانيين باستسلامه،اكثر من المجد الذي اكتسبه بونطيوس في عيون السمنيين بانتصاره .

وأرى لزاماً علينا ان نلاحظ هنا أمرين هامين،اولهما ان المجد يمكن تحقيقه باحدى الوسيلتين ، اذ ان النصر يحققه بالطريقة العادية ، أما في الهزيمة ، فيتحقق اذا تمكن المرء من ان يظهر ان الهزيمة لم تكن نتيجة خطئه ، او اذا استطاع ان ينجز عملاً ينطوي على الفضيلة بحيث يمحو الهزيمة السابقة . اما الأمر الثاني فهو ان ليس من العار ، الاخفاق في الحفاظ على وعد ارغمت على اعطائه . وتتعرض جميع الوعود التي تمت بالاكراه الى الخلف ، عندما تزول القوة التي فرضتها ، وذلك دون ان يلحق العار بمن يخلفها . ويصادف المرء عند قراءته للتاريخ امثلة عدة على هذا الإخلاف بطريقة او بأخرى ، وكل انسان يعرف ايضاً ان هذا الإخلاف ما زال يتكرر حتى يومنا هذا . ولا يجد المرء ان إخلاف الامراء يقتصر على الوعود التي اعطيت بالاكراه ، عندما لا يغدو للقوة التي فرضتها أي تأثير ، ولكنه لا يجد ان اشكال الوعود الاخرى قد تنقض ايضاً ، عندما تصبح الدوافع التي أدت الى تلك الوعود غير ذات موضوع . وقد بحثت في كتابي « الامير » هذا الموضوع باسهاب ، وتحدثت عن جدارته بالثناء أو النقد ، وعما اذا كان من واجب الامراء اتباع هذا السبيل اولاً . ولـذا فلن اضيف شيئاً الى هذا الحديث في هذه المطارحات .

الكتاب الثالث
المطارحات من ٤٣ الى ٤٨

آراء جديدة
حول الحروب مع السنيين

٤٣

يعرض الرجال الذين ينتمون إلى بلد واحد نفس الخصائص رغم اختلاف الاجيال التي ظهروا فيها

يقول الحكماء ، ولا يخلو قولهم هذا من التعقّل والأساس السليم، ان على من يريد التكهّن عن المستقبل ، ان يكون عليماً باحداث الماضي ، اذ ان كل ما يقع في العـــالم في أي وقت من الاوقات ، لا بد وان يكون له شبه اصيل بما وقع في القرون الغابرة . ويرجع هذا القول الى الحقيقة الواقعة ، وهي ان الرجال هم الذين يسببون كل هذه الحوادث

وان عواطف الرجال هي دائماً واحدة لا تختلف مطلقاً ، ولذا فهي تؤدي دائماً الى نفس النتائج . وقد تكون افعال الناس احياناً في هذه البلاد حقاً ، اكثر فضيلة من افعالهم في تلك ، او انها في هذا العصر افضل منها في ذاك ، وذلك طبقاً لطراز التربية الذي اشتق منه سكان هذا البلاد طريقتهم في الحياة .

ويسهل التعرّف على المستقبل من الماضي ايضاً ، عندما يكون نفس الشعب قد الف نفس العادات مدة طويلة ، وهي عادات قد تكون مثلاً دائمة السيطرة أو دائمة الخداع ، وقد تكون دائماً متجهة الى هذه الفضيلة او تلك الرذيلة . وعلى هذا فكل من يدرس التاريخ الماضي لمدينتنا فلورنسة هذه ، ويقارن بين ما وقع فيها آنذاك ، وما حدث فيها في العهود الاخيرة ، يجد دائماً ان الشعبين الألماني والفرنسي ، كانا دائماً مشبعين بالطمع والكبرياء والشراسة وعدم الصدق وهي خصائص اربع ، اتصف بها هذان الشعبان ، وسببت في اوقات مختلفة الكثير من الأذى والضرر لمدينتنا . وكلنا يعرف مثلاً ، بالنسبة إلى عدم الثقة ، كيف ان الاموال كانت تدفع دائماً الى الملك شارل الثامن (ملك فرنسا) وكيف انه وعد باعادة قلعة بيزا الى الفلورنسيين ولكنه لم ينفذ وعده قط ، وكيف ان هذا الملك ، اظهر عدم امكان الركون اليه ، والمزيد من الطمع ايضاً .

ولنتجاوز الآن هذه الاحداث الاخيرة ، فكلنا يعرف او قد سمع بما دار في الحرب التي شنها الفلورنسيون على دوقات ميلان من الفيسكونتي. ولما كان الفلورنسيون يفتقرون الى اية وسيلة اخرى، فقد تدارسوا مكان استقدام الامبراطور الى ايطاليا ، طمعاً في الانتفاع من مكانته ومن قواته في الهجوم على لومبارديا . وقد وعد الامبراطور بالمجيء على راس جيش ضخم ، للانضمام اليهم في حربهم مع ميلان ، ولحماية فلورنسة من تلك الدولة شريطة ان يدفع له الفلورنسون مائة الف من « الدوكات » عندما

يبدأ سيره ، ومائة الف اخرى عند وصوله الى ايطاليـــا ، وقـد وافق الفلورنسيون على شرطه هذا . وعندما تسلم الدفعة الاولى،وكذلك الدفعة الثانية عند وصوله الى فيرونا ، نكص على اعقابه عائداً دون ان يفعل شيئاً ، زاعماً ان ما حال بينه وبين المضي في تنفيذ الخطة ، هو نكوص الذين سبق له ان عقد اتفاقات معهم عن وعودهم . وهكذا لو لم تدفع الضرورة فلورنسة الى ذلك الوضع ، ولو لم تتغلب عليها العاطفة،بل لو امعنت النظـر ، في قراءة سير البرابرة وتاريخهم القديم ، واطلعت على عاداتهم ، لما تمكنوا من خداعها هذه المرة ، وفي غيرها من المرات ، وذلك لأنهم كانوا وما يزالون يسلكون نفس المسلك مع كل انسان وفي كل مكان .

ويمكننا ان نرى هذه الحقيقة مما فعله البرابرة الأقدمون مع التوسكانيين. وكان هؤلاء قد تضايقوا جداً من الرومان ، الذين كانوا قـد هزموهم في اكثر من معركة وارغموهم على الفرار ، وتبين لهم انهم لن يستطيعوا بقواتهم وحدها مقاومة هذه الهجـمات ، فعقدوا اتفاقاً مع الغاليين (١) الذين كانوا قد أقاموا على الطرف الايطالي من جبال الالب ، على ان يضم هؤلاء قواتهم اليهم مقابل مبلغ من المال يدفعونه ، ويسير الفريقان معاً لمهاجمة الرومان . وكانت النتيجة ان الغاليين بعد ان تسلموا المال ، رفضوا حمل السلاح والمضي الى الحرب بسببهم ، وزعموا انهم قد قبلوا هذا المال ، لا على اساس شن الحرب على أعداء توسكانيا بل مقابــل امتناعهم عن الاغارة عليها ونهبهـــا . وهكذا خسر التوسكانيون بسبب شراهة الغاليين ، وكذبهم في مواثيقهم مالهم والمساعدة التي كانوا يأملون في الحصول عليها منهم .

---

١ يستعمل مكيافلي هنا كلمة (**Franciosi**) التي تعني الغاليين ، وهم اجداد الفرنجة أي الفرنسيين . وقد اطلق عليهم العرب اسم الفرنجة . أما مكيافلي فيستعمل الاسمين لمسمى واحد .
— المؤلف والمعرب —

وهكذا نرى ان الغالبين في الحادثين ، اي مع التوسكانيين الأقدمين ومع الفلورنسيين قد اتبعوا نفس السياسة والسلوك ، ونرى ايضاً ان من السهل الحكم على مدى ما في كلمة الحكام من ثقة .

٤٤

قد يؤدي التهور والجرأة أحيـاناً إلى نتائج لا تتحقق عادة بالاساليب العادية

عندما تعرض السمنيون لهجوم الجيش الروماني ، ولم يتمكن جيشهم من الصمود له ، قرروا ان يتركوا حاميات في مـدن سمنيوم ، وان ينتقلوا بجميـع قواتهم الى توسكانيـا التي كانت قد عقدت هدنة مـع الرومان ، وكانوا يأملون في انهم عن هذا الطريق ، وبوجود جيوشهم في بلاد التوسكان ، قـد يقنعون هؤلاء بحمـل السلاح ثانية ، وهو ما رفضوا ان يفعلوه ، عندما بعثوا اليهم بسفرائهم . ولقد فاه السمنيون في أحاديثهم الى التوسكان ، والتي اشاروا فيها الى الاسباب التي دعتهم الى حمل السلاح ، بملاحظة تستحق العناية والاهتمام ، او قالوا انهـم « قد ثاروا لأن السلام عندما يعني العبودية ، يغدو اكثر مشقة على الاحتمال من الحرب بالنسبة الى الرجال الاحـرار » . وهكذا تمكنوا عن طريق الاقناع حيناً ، وعن طريق وجود جيشهم في البلاد ، من حمل التوسكان على اشهار السلاح . ومن الجدير بالملاحظـة هنا ان على الحاكم اذا أراد ان يحصل على شيء من رجل آخـر ، ان لا يضيع الوقت في الدرس اذا سمحت له الظروف بذلك ، بل ان يعمل بطريقة يرى انها ضرورية

لاتخاذ قرار حاسم وسريع ، وهو ما يفعله حتماً اذا رأى ان رفضه ما يطلب منه ، او تسويفه في الاجابة قد يؤديان فوراً الى استثارة النقمة التي تغدو كثيرة الخطر .

وقد رأينا البابا يوليوس يلجأ في وقتنا هذا الى استخدام هذه الوسائل بصورة فعالة في تعامله مع الفرنسيين ، كما رأينا القائد الفرنسي المسيو دي فوا ، يستخدمها أيضاً في التعامل مع مركيز مانتوا . فعندما أراد البابا يوليوس اخراج اسرة « البنتفوغلي » من مدينة بولونا ، ادرك ان تنفيذ غايته هذه يتطلب وجود قوات فرنسية الى جانبه ، كما يتطلب بقاء البنادقة على الحياد . وهكذا تقدم البابا من الفريقين عارضاً عليهما التفاهم معها . ولكنه عندما تلقى ردوداً غامضة ومتباينة مع رأيه هو ، قرر ان يرغمها على الالتقاء معه في وجهة نظره ، وذلك عن طريق عدم اتساع المجال لهما لانتهاج أي سبيل آخر . وهكذا زحف من رومة على رأس أكبر قوات استطاع جمعها ، وتقدم من بولونا ، موفداً رسله في نفس الوقت الى البنادقة يطلب اليهم بواسطتهم البقاء على الحياد،والى الفرنسيين يسألونهم ارسال القوات لمساعدته . وهكذا،ضاق أمامهم الوقت للتفكير ، ولما كان من الواضح للطرفين ان البابا سيغضب أشد الغضب اذا ترددا أو رفضا ، فقد أذعنا لرغباته،وبعث الفرنسيون بالعون بينما ظل البنادقة على الحياد .

وقام المسيو دي فوا ، باجراء مماثل فقد كان في بولونا على رأس جيشه عندما سمع بثورة بريسكيا (Brescia)(١) ، فاراد الزحف عليها لاسترجاعها ، وكان امامه سبيلان يسلكهما ، اولهما يمر بالاراضي الواقعة تحت سيطرة ملكه (ملك فرنسا) ، وهو سبيل طويل وشاق، وثانيهما

١ بريسكيا ، مقاطعة في شمال ايطاليا ، يبلغ عدد سكانها (٧١٠) آلاف . القسم الشمالي منها جبلي أما الجنوبي فيؤلف جزءاً من سهل لومبارديا .وتقع مدينة بريسكيا على نهري ميلا وغارزا، ويبلغ سكانها ٧٠ الفاً . — المعرب —

يجتاز اراضي مانتوا ، وهو قصير كل القصر . ولم يعن هذا السبيل مجرد المرور بأراضي مركيز مانتوا فحسب ، بل كان يعني ايضاً ضرورة عبورها من طرق معينة تقع بين البحيرات والمستنقعات التي تكثر في المنطقة ، والتي يتولى اغلاقها وحراستها جنود المركيز وراء حصونهم وقلاعهم . ولما كان دي فوا قد قرر المضي من اقصر الطرق ، فقد اراد ازالة كل عقبة ، وذلك بحرمان المركيز من كل فرصة للتفكير ، وهكذا زحف بقواته على الطريق ، وبعث يطلب من المركيز ان يبعث اليه بالمفاتيح ليعبر الحصون والقلاع . وذهل المركيز من هذا القرار المفاجىء فبعث اليه بالمفاتيح . وما كان ليفعل هذا ابداً لو ان دي فوا كان من النوع المتردد في سلوكه . اذ ان المركيز ، كان متحالفاً مع كل من البابا والبنادقة ، وكان له ولد في عهدة البابا ، مما يؤمن له مجموعة من الذرائع الكريمة لرفض الطلب . أما وقد اصابه الذهول من القرار المباغت فقد استسلم للاسباب التي سبق لي شرحها . وهذا هو عين السلوك الذي سلكه التوسكان مع السمنيين ، اذ لما رأوا جيوشهم في قلب بلادهم، اضطروا الى انتضاء السلاح ، وهو ما سبق لهم رفضه في مناسبات سابقة .

٤٥

ما الافضل في معركة ... انتظار هجوم العدو ورده ثم الشروع في الهجوم ، أو البدء بهجوم كاسح عنيف منذ استهلال القتال ؟

كان القنصلان الرومانيان ديسيوس وفابيوس ، على رأس جيشيهما ،

على وشك الاشتباك مع جيوش السمنيين والتوسكانيين ، وخوض معركة واحدة وفي وقت واحد مع هذه الجيوش . ويجدر بنا هنا ان نتساءل أي الطريقتين المختلفتين اللتين اتبعهما القائدان كانت هي الافضل والانفع. فلقد هاجم ديسيوس العدو بمنتهى التهور والجرأة ، وبكل ما لديه من قوات ، بينما اكتفى فابيوس بالصمود امامه ، اذ انه رأى ان الابطاء في الهجوم اكثر نفعاً،وان يكبح المرء جماح تهوّره ، حتى يحين الوقت الذي يكون العدو فيه قد اضاع حماسه للقتال ، وهو الحماس الذي بدأ به المعركة ، وفقد سورة حدته ، كما يقولون .

ويدلنا سير الاحداث على ان طريقة فابيوس ، كانت افضل بكثير من طريقة ديسيوس ، اذ انهك الاخير نفسه بحدة هجومه الاول ، مما ادى الى ادراكه بان جنوده على وشك الهزيمة ، ففعل ما سبق لوالده ان فعله من قبل ، وضحّى بنفسه من اجل الشرف العسكري الروماني، مؤملاً انه سيحقق بموته ذلك المجد الذي لم يستطع تحقيقــه بانتصاره . وعندما سمع فابيوس بذلك ، وخشية البقاء حياً ، واحراز شرف اقل من ذاك الذي ناله زميله بموته ، هاجم العدو بجماع قواته التي احتفظ بها للطوارىء ، وحقق نصراً مجيداً مظفراً . وهكذا يتضح لنا ان الطريقة التي اتبعها فابيوس اكثر ضمانة واجدر بالاتباع والتقليد .

٤٦

كيف يحدث ان تحتفظ الاسرة الواحدة في مدينة من المدن ، ولوقت طويل بنفس تقاليدها

يبدو ان الخلاف لا يقتصر على المدن وحدها في تقاليدها وانظمتها

وفي اخراج ابنائها من النوع الاكثر صرامة او اكثر ضعفاً وخنوثة ، بل يظهر هذا التباين المماثل بوضوح ايضاً في نفس المدينة بين هذه الاسرة وتلك من اسرها . ويجد المرء هذا الوضع في كل مدينة من المدن ، كما يقرأ في تاريخ روما ، عن وقوع حالات كثيرة كهذه ، وهكذا نجد ان افراد اسرة « مانليوس » كانوا دائمــاً من النوع العبوس والكثير العناد وان افراد اسرة « بابليوكوس » كانوا دائمــاً من النوع الدمث والشديد التعلق بالشعب ، وان افراد اسرة «ابيوس» من النوخ الطموح والمعادي للعامة(١) ، وهذا ينطبق على عدة اسر اخرى من الاسر الرومانية التي كان لكل منها خصائصها الخاصة بها والتي تميزها عن غيرها .

ولا يمكن للمرء ان يعزو كل هذا الى الوراثة ، اذ يؤدي التزاوج بين الاسر المختلفة الى التنوّع ،ولهذا يجب ان يعزوه الى الطرق المختلفة التي تتبعها الاسر في تنشئة ابنائهــا وتربيتهم . اذ عندما يبدأ طفل في سنوات حداثته ، بالتفهم ، فان مما يخلق بوناً شاسعاً بينه وبين غــيره من الاطفال الطريقة التي تتبع في افهامه ، ان هذه الامور تستحق الرضا وان تلك لا تستحقه ، اذ ان هذه الطريقة تترك انطباعاً في نفسه، ينظم في المستقبل السلوك الذي يتبعه في جميع طرائق الحياة ودروبها . ولو لم يكن الوضع كذلك لما كان في الامكان ان يكون لجميع افراد اسرة « ابيوس » ، نفس الرغبات وان يتأثروا بنفس العواطف وهو ما اكده تيتوس ليفي عند تحدثه عنهم . ولنأخذ الفرد الأخير من ابناء هذه الاسرة والذي عيّن رقيباً في روما . فعندما استقال زميله من منصبه بعد انتهاء ثمانية عشر شهراً من خدمته ، طبقاً للقانون المعمول به ، رفض ابيوس الاستقالة ، زاعماً انه مخول بالاحتفاظ بالمنصب مدة خمس سنوات، وفقاً

١ هذه اسماء أسر رومانية شهيرة انتمى إلى كل منها عدد من القناصل والديكتاتورين والمراقبين وحماة الشعب . وقد ورد ذكر الكثير منهم في هذا الكتاب وفي هوامشه أيضــاً .

– المعرب –

لأول قانون سنّه الرقباء ، وعلى الرغم من عقد عدة اجتماعات لبحث هذه القضية ، وعلى الرغم من نشوب اضطرابات عدة ، وعلى الرغم من كل هذا ومن ان عمله كان مخالفاً لرغبة الشعب ، ورغبة الاغلبية في مجلس الشيوخ ، لم تكن هناك اية وسيلة تحمله على الاستقالة . وكل من يقرأ الخطاب الذي القاه والذي هاجم فيه بوبليوس سمبرونيوس احد حماة الشعب ، سيجد ان هذا الخطاب ، مليء بالغطرسة التي كانت طابع أسرته ، ويرى من الناحية الاخرى ما كانت تبديه الاغلبية الغالبــة من المواطنين من طيبة ومن كرامة ، وما تظهره من استعداد لاطاعة قوانين البلاد وانظمة الفؤول والعرافة فيها .

٤٧

على المواطن الصالح أن يتجاهل الاساءات الشخصية في سبيل حبه لبــلاده

اصيب القنصل ماريوس عندما كان يحارب السمنيين على رأس جيشه بجراح في المعركة التي خاضها . ولما كان هذا يعني الخطر يهدد قواته ، فقد رأى مجلس الشيوخ الضرورة ماسة لايفاد بابيريوس كيرسور كديكتاتور لسد الفراغ الذي خلّفه القنصل بسبب جراحه . وكان من الضروري ان يقوم القنصل فابيوس بتسمية الديكتاتور ، وكان آنذاك على رأس جيوشه في توسكانيا . ولما كان فابيوس عدواً لبابيروس،فقد كان من المشكوك فيه كل الشك ،ان يتولى تسميتــه . وبعث الشيوخ بسفيرين اليه يرجوانه التخلي عن حزازاته الخاصة ، وان يعلن التسمية خدمة للمصلحة العامة .

وقد عمل فابيوس هذا مدفوعاً بحبه الى بلاده ، مع انه اعرب في صمته، وبأساليب مختلفة ، عن شعوره ، بأن هذه التسمية قد آذتـــه كثيراً في صميم قلبه .

وعلى كافة من يطمعون في ان ينظر اليهم الناس كمواطنين صالحين، ان يقتفوا أثره ، وينهجوا على منواله .

٤٨

عندما يبدو العدو وكأنه يقترف خطيئـة كبيرة
يجب ان يُفترض ان هـذه الخطيئة ، مصطنعة وزائفة

ظل المندوب فولفيوس على رأس الجيش الذي بعث به الرومان الى توسكانيا بعد ان عاد رئيسه القنصل الى رومة لحضور بعض الاحتفالات، وأراد التوسكان ان يختبروا ما اذا كان في وسعهم ان يأخذوه على غرة، فنصبوا كميناً على مقربة من المعسكر الروماني ، وبعثوا ببعض جنودهم وقد تنكروا في زي الرعاة ، ومعهم قطعان كبيرة من الماشية ، بعد ان طلبوا اليهم السماح للرومان برؤيتهم . ومضى الجنود في تنكرهم هذا الى الاوتاد التي تحيط بالمعسكر الروماني ، واستغرب المندوب الروماني هذا التظاهر منهم،وبدا له عملهم شيئاً غير معقول ، فاتخذ الخطوات اللازمة لاكتشاف الخدعة ، وحبطت بذلك خطة التوسكانيين .

ومن الجدير بنا ان نلاحظ في هذه الحادثة ان من واجب القائد ان لا يؤخذ بالخطيئة الواضحة التي يبدو ان العدو قد اقترفها ، اذ ان هذه الخطيئة كثيراً ما تكون مجرد خدعة ليس الا ، اذ لا يعقل مطلقاً ، ان

يفتقر الناس الى الحذر والحيطة على هذا النحو . ولكن كثيراً ما تعمي الرغبة في النصر عقول الرجال بحيث لا يلاحظون الا ما يفعلونه هم .

فعندما هزم الغاليون الرومان على ضفاف نهر « الآليا » ، زحفوا على رومة ، وعندما وجدوا ابوابها مفتوحة ، ولا يقوم على حراستها أحد ، توقفوا يوماً وليلة دون ان يجرؤوا على دخول المدينة ، خوفاً من خدعة ، اذ لم يكونوا ليصدقوا ان الرومان كانوا على هذة الدرجة من الجبن او الغباء ، بحيث يتخلون عن وطنهم .

وعندما كان الفلورنسيون يحاصرون مدينة بيزا عام ١٥٠٨ ، وسقط مواطن « بيزي » يدعى الفونسو ديل موتولو اسيراً في ايديهم، وعدهم هذا المواطن بأنهم اذا أطلقوا سراحه ، فسيضع احد ابواب هذه المدينة تحت تصرف الجيش الفلورنسي . واطلق سراح الرجل ، وجاء بعد ذلك عدة مرات متذرعاً ببحث الدقائق العملية والتفاصيل للتحدث الى مندوبي المفوضين ، ولم يكن يصل اليهم سراً بل جهاراً وعلانيـة ، وفي رفقـة عدد من البيزيين الذين كان يتركهم في الخارج ، عندما يدخل المعسكر للتحدث الى المندوبـين . وكان في وسع كل انسان ان يخمن من هذا الاجراء ، ان الرجل قد حزم امره على « اللعب على الحبلين » ، اذ لو كان يعمل وفقاً لوعده فقط ، فأن من غير المعقول ان يعمل بمثل هذه العلنية ، وان يسلك هذا السلوك . ولكن الفلورنسيين كانوا عازمين على احتلال بيزا ، فأعمتهم رغبتهم عن هذه الحقيقة وسيّروا فصيلة من رجالهم الى « باب لوكا » حيث تركوا هناك بسبب ضيق تفكيرهم ، عدداً من الضباط والجنود جثثاً هامدة نتيجة خدعة الفونسو المذكور .

الكتاب الثالث
الفصل الاخير

الحفاظ على الحرية في الجمهورية

٤٩

على الجمهورية التي تطمع في الحفاظ على حريتها أن تتخذ اجراءات احتياطية جديدة كل يوم لتحقيق هذه الغاية وما فعله كوينتوس فابيوس لاكتساب لقب مكسيموس

تقع حوادث مؤسفة وحتمية كما سبق لنا ان لاحظنا عدة مرات سابقة في كل مدينة كبيرة ، تستدعي مجيء الطبيب، وكلما كان الحادث اكثر اهمية ، كلما تطلب البحث عن طبيب اكثر حكمة . واذا كان ثمة من مدينة وقعت فيها مثل هذه الاحداث ، فهي مدينة رومة حيث

تميزت بالغرابة والشذوذ . فقد تآمرت جميع سيدات رومة في احدى المناسبات على قتل ازواجهن . وقد عثر على عدد من هؤلاء الأزواج وقد سمم فعلاً ، بينما اعد السم لعدد آخر ايضاً .

وكانت الحادثة الأخرى مؤامرة المحتفلين بعيد باخوس « الباشانال » (Bachanals)(١) التي اكتشفت ابان الحرب المقدونية ، وقد اشترك فيها عدة الوف من الرجال والنساء ، ولو لم تكتشف ولو لم تكن عادة أهل رومة ان يعاقبوا الجماهير عندما تخطىء ، لادت هذه المؤامرة الى الخطر على المدينة.واذا كانت عظمة تلك الجمهورية وقدرتها على الادارة لم تثبتا بأكثر من الف طريقة اخرى ، فإن في الامكان رؤيتها في طبيعة العقوبة التي كانت تطبق على المذنبين . ولم تكن رومة تتردد في اصدار عقوبة قضائية بالموت على فرقة عسكرية كاملة في وقت واحد ، أو على مدينة بكاملها ، ولا في اصدار عقوبة الابعاد على ثمانية آلاف أو عشرة آلاف شخص ، وان تفرض عليهم اوضاعاً استثنائية ، لم تكن تطبق من شخص واحد فقط ، وانما من مجموعة بكاملها ، كما فعلت مع الجنود الذين قاتلوا قتالاً فاشلاً في كانيه،حيث ابعدتهم الى صقلية ، وهناك حظرت عليهم الاقامة في المدن،كما حتمت عليهم ايضاً الأكل وقوفاً.

ولعل افظع الاعمال الادارية التي جرت على تطبيقها، الاقتراع عشرياً على جنودها ، اي ان تختار العاشر بطريق القرعة ليعدم ، فليس ثمة من عقوبة اكثر ارهاباً من هذه العقوبة اذ ابتكرت بقصد عقاب الجماهير . فعندما ترتكب مجموعة ضخمة من الناس اساءة او هفوة ، ولا يعرف

---

١ مستمدة من كلمة باشاناليا (Bachanalia) وتعني الاحتفال بعيد باخوس اله الخمر . فقد كانت تقام طقوس احتفالية يشترك فيها الرجال والنساء وقد أثملتهم الخمر ، وارتدوا جلود الغزال ، والملابس الشرقية ، ويحملون أوراق الكرمة ، ويقرعون الطبول ، ويهتفون لباخوس. وقد بدأت هذه الاحتفالات في رومة عام ١٨٧ ق. م. وكانت تقام مرة كل ثلاثة أعوام.
— المعرب —

من هو مرتكبها او المسؤول عن ارتكابها ، يغدو من المستحيل عقاب الجميع ، اذ ان العدد كبير للغاية ، ولم يكن من العدل في شيء ان يعاقب البعض ويترك البعض الآخر ، اذ ان هذا اجحاف بالمعاقبين ، وتشجيع على من نجوا من العقوبة ، لارتكاب الخطأ مرة ثانية . اما قتل الرجل العاشر بطريقة الاقتراع عندما يكون الجميع من المذنبين ، فأن من يعاقب يندب حظه ، اما من ينجو من العقوبة هذه المرة ، فأنه يخشى ان يتعرض لها مرة ثانية اذا اساء وشاء له الحظ ان يكون من المعاقبين.

وهكذا فقد نفذت العقوبة بالنساء اللاتي سممن ازواجهن وبالمحتفلين بعيد باخوس وكانت عادلة ومحقة وعلى الرغم من ان مثل هذه النوازل تلحق الاذى بالجمهورية ، الا انهـا ليست من النوع المميت ، اذ ان الوقت يظل متوافراً لاصلاحها والشفاء منها . ولكن ليس ثمة من وقت معين كقاعدة تؤثر فيه على الحكومة، وما لم يقم رجل عاقل باصلاحها، فان الدولة تتعرض الى الدمار .

وادت الطريقة السخية التي اتبعها الرومان في منح رعويتهم للغرباء ، ان توافـد حشد ضخـم الى المدينـة من الغرباء الذين يمتون الى مختلف الجنسيات ، وقد شرع هؤلاء يلعبون دوراً مهماً في الاقتراع ، مما ادى الى وقوع تبدل في الحكومة والى التخلي عن تلك الطـرق التي كانت المدينة تسير عليها وعن اولئك الرجال الذين الفت السير في ركابهم ، وعندما لاحظ كوينتيوس فابيوس ، في المدة التي عمل فيهـا رقيباً هذا الوضع ، قسم هذه المجموعة المتعددة الاجناس من الوافدين حديثاً،والتي عزا اليها الاضطراب في المدينة الى اربع « قبائل » ، وبعد ان حدد بهذا الاسلوب مجال نشاطهم ، حال بينهم وبين افساد رومـة بكاملها .
وهكذا تمكن فابيوس بعد ان ادرك ادراكاً صحيحاً مصدر المشكلة واساسها،

من تطبيق علاج صحيح ،دون ان يبدل دستور روما ،وقد غدا هذا العلاج مقبولاً لدى الاهلين بحيث أطلقوا عليـــه الاسم الذي يستحقه وهو مكسيموس .

تم الكتاب



فهرست الأعلام

ش

ص

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

فهرست

ملحوظة : لخصنا عناوين المطارحات الكبيرة لبيان موضوعها

الكتاب الثاني ــ نمو الامبراطورية الرومانية

الكتاب الثالث ـ أمثولة عظماء رومة

٤١٨ ـ ٥ ـ ٦٢

THE DISCOURSES OF NICCOLO MACHIAVELLI

translated by

KHAÏRI HAMMAD

Dar Al-Afaq Al-Jadidah
Beirut - Lebanon